





المجلد الثانى عشر — الجزء الأول

مايو ١٩٥٠

تصدر هذه المجلة مرتين فى السنة . فى مايو وديسمبر . وتطلب من مكتبة جامعة فؤاد الأول بالجيزة . وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى المشرف على تحريرها الدكتور فؤاد حسنين على بكلية الآداب بالجيزة

مطبعة جامعة فؤاد الأول

١٩٥٠

فهرس

القسم العربى :

القسم الافرنجى :

تطور القبة في العمارة الإسلامية

للدكتور كمال الدين سامح

لعبت القبة[1]، كعنصر من عناصر العمارة، دوراً هاماً في زخرفة وتصميم العمائر والمنشآت في جميع الأقطار الاسلامية: واتخذت في كل إقليم طابعاً خاصاً يميزها ويحدد تاريخ إنشائها. ولتتبع تطور بنائها وزخرفتها يلزمنا دراسة أهم القباب في تاريخ العمارة الاسلامية.

القبة في العصر الأموى

قبة الصخرة ببيت المقدس: ٧٢ هـ (٦٩١ — ٦٩٢ م):

تعتبر قبة الصخرة (شكل ١) ببيت المقدس أقدم أثر إسلامى فى تاريخ العمارة الاسلامية، وقد شيدها عبد الملك[2] بن مروان سنة ٧٢ هـ (٦٩١ — ٦٩٢ م) لتكون مشهداً[3] يحج إليه المسلمون بدلا من مكة التى كان بها منافسه عبد الله بن الزبير: كما بناها أيضاً لتنافس كنيسة المسيحيين الكبيرة.

---

(١) القبة: كلمة كانت تطلق فى بعض البلاد الاسلامية على الضريح المغطى بقبة والمدفون به ولى أو شيخ، وكان يطلق على الضريح أحيانا اسم تربة أو مقام أو ولى او مربوط.

(٢) توجد كتابة تاريخية بالخط الكوفى ملونة باللونين الأصفر والأزرق فوق الكورنيش حول قاعدة القبة وهى مؤرخة بسنة ٧٢ هـ ولما أصلح الأثر فى عهد المأمون الخليفة العباسى (٨٣١ م)، أزيلت الأجزاء التى باسم عبد الملك ووضع مكانها اسم المأمون، ويلاحظ الفرق بين الألوان الناصعة الجديدة والقاتمة القديمة كما أن الحروف الجديدة متقاربة من بعضها، (راجع Vogüé, EI. supp. pl. XXI).

(٣) المشهد: كلمة تطلق على المكان المدفون فيه الشهيد، وأحيانا يوضع مكانه نصب تذكارى ويطلق على المشهد أحيانا اسم المزار، راجع Van Berchem (Diez, Churasani sche Baudenkmäler en abrégé ch. Bakm.), p. 89

وقد وضع تصميم هذا الأثر العظيم « كمشهد » بحيث يلائم الطواف حول الصخرة المقدسة التي كان الحجاج يعتقدون أن النبي صعد عندها إلى السماء [1] .

وقد كانت هذه الصخرة مقدسة [2] قبل ذلك عند المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وتبلغ أبعاد هذه الصخرة[3] ٥٦ قدما طولا و ٤٢ قدما عرضاً ، وشكلها نصف دائري تقريباً .

وتقع قبة الصخرة في وسط هضبة صخرية واسعة تسمى « الحرم الشريف » ويقع على امتداد محورها الرئيسي المسجد الأقصى [4] .

وقد شيدت قبة الصخرة على مقربة من المسجد البسيط الذي كان الخليفة عمر قد بناه في بيت المقدس بعد أن فتحها العرب سنة ٦٣٩م ، وتعرف خطأ باسم مسجد عمر ، وهي بناء فاخر به زخارف غاية في الروعة والابداع [5] .

ويظن أن قبة الصخرة منقولة عن القبة الموجودة في كنيسة القيامة التي تكاد تساويها في الحجم والتي تقع على مقربة منها ، وقطر القبة ٢٠,٤٤ متراً وهي مقامة على قاعدة مستديرة مكونة من أربعة دعائم كبيرة ، بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة ، وكلها تحمل ستة عشر عقداً مدبباً .

ويعلو العقود رقبة إسطوانية [6] بها ١٦ نافذة وتعتبر هذه الرقبة منطقة الانتقال إلى القبة المستديرة العلوية وقطاعها نصف دائري من الخارج شكل (٢) .

---

(١) تراث الاسلام ج ٢ : تعريب وشرح وتعليق الدكتور زكي محمد حسن ، هامش ص ١٢٢

(٢) تراث الاسلام : ج ٢ ترجمة وشرح وتعليق الدكتور زكي محمد حسن : ص ١٢٣ وكذلك E I ص ١٣٧

(٣) راجع ص ١٠٩٠ من كتاب E I Vol. II E. K. Leyden (Holland), 1927

(٤) انظر خريطة في كتاب M. S. Briggs Moh. Arch, in Egypt, & Palest. fig. 35. ص ٣٥

(٥) انظر لوحات من ٢ إلى ٣٢ من كتاب Creswell. K. A. C. Early M Arch, I

(٦) المرجع السابق لوحة ٢ ب .

ويحيط بالمنطقة الوسطى الدائرية (شكل ٣) مثمن مكون من ثمانية دعائم، موجودة في أركانه يفصلها عن بعضها عمودان يحملان ثلاثة عقود.

والحائط الخارجي لهذا الأثر، تخطيطه على شكل مثمن يحيط بالمثمن الداخلي، وبه أربعة مداخل محورية.

والقبة الأصلية كانت مصنوعة من الخشب وتغطيها صفائح من الرصاص وفوقها ألواح من النحاس البراق، ولهذه القبة وصف رائع للمقدسي[1] وقد سقطت في سنة ٤٠٧ هـ، أما القبة الحالية فتاريخها يرجع إلى سنة ٤١٣ هـ.

وحوائط قبة الصخرة مغشاة من الداخل بالفسيفساء[2] الزجاجية المتعددة الألوان وأهمها الأخضر والذهبي، والموضوعات الزخرفية التي نراها فيها مكونة من فروع نباتية متصلة وحلزونية تخرج من آنية كما نرى من بينها أشجار نخيل ورسوم الفاكهة، ولاسيما العنب والرمان ورسوم أوراق الشجر المختلفة وورق الأكانتس ورسوم الجواهر والحلي، فضلا عن رسوم الأهلة[3] والنجوم.

ونلاحظ هنا وجود تأثيرات سورية وساسانية إلى جانب التأثيرات الرومانية والمسيحية.

ومهندس هذا الأثر غير معروف الاسم، ويوجد تحت الصخرة محراب أملس غير مجوف ينسب للخليفة عبد الملك بن مروان كما يوجد محراب آخر يعرف باسم قبلة الانبياء، والعقود الداخلية تربطها روابط خشبية[4].

وحوائط المثمن الخارجي مقسمة إلى تجويفات معقودة[5] بكل ضلع سبعة منها، والخمسة الوسطى بها نوافذ.

---

(١) المقدسي ص ١٥٩ (Le Strange, P. E. F. Q. St., 1887, p. 103)

(٢) وصفت هذه الفسيفساء فان برشم وترجمها الأستاذ كريزول ص ١٤٧ من كتابه Early Musl. Arch. Vol. I.

(٣) انظر لوحة ٢١ من المرجع السابق وشكل ٥٤٠ من كتاب فنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن.

(٤) أنظر Creswell. Early Musl. Arch. I p. 60 fig. 18

(٥) المرجع السابق بشكل ١٤

والواجهة الخارجية كانت فى الأصل مغشاة بالفسيفساء : كما هو الحال فى داخل البناء، والآن تكسوها بلاطات من الرخام وألواح من القاشانى[1]. أما الحائط الداخلى فمغطى ببلاطات من الرخام[2] إلى ارتفاع أربعة أمتار من سطح الأرض ، ويحده من أعلاه شريط من الزخرفة المذهبة بارتفاع نصف متر ، ويعلو العقود زخارف من الفسيفساء الزجاجية الملونة ، وهى غاية فى الابداع والروعة وتمثل صناعة الفسيفساء فى العصر الأموى .

والقبة كانت مكونة من طبقتين[3] (شكل ٢) ، وهى كذلك الآن وكلها من الخشب المغطى من الخارج بالرصاص ومن الداخل بطبقة من الجص المنقوش ، وأكثر زخارف الفسيفساء الموجودة بها الآن ترجع إلى العصر الذى بنيت فيه القبة ؛ والزخارف الأخرى يرجع عهدها إلى عصر بعد تاريخ الانشاء .

وعناصر قبة الصخرة مكونة من ٦٠ ٪ تأثيرات سورية و ٢٠ ٪ تأثيرات بيزنطية ، و ٢٠ ٪ تأثيرات رومانية .

القبة فى قصير عمرا

هناك بعض قصور بناها الخلفاء الأمويون فى بادية الشام[4] كقصير عمرا[5] وحمام الصرخ[6] وقصر المشتى[7] وقصر الطوبه ، كان يأوى إليها الأمراء للصيد أو حين تنتشر الأمراض فى المدن وكان الجزء المهم فى بعضها حماماً كما فى قصير عمرا .

(١) أنظر شكل ٢٤٥ من كتاب Briggs. M. S. Musl. Arch in Egypt and Palestine

(٢) راجع لوحة ١٢ من كتاب كريزول ج ١

(٣) أنظر القطاع الرأسى المرفق للقبة ، (شكل ٢) لوحة ١٠ ولوحة ٢١ من كتاب كريزول الجزء الأول Creswell: Early Musl. Arch. Vol. I.

(٤) راجع خريطة فى ص ٢٦٦ Creswell : Early Musl Arch. I fig. 318 .

(٥) يقع قصير عمرا على بعد ٥٠ ميلا شرق عمان وتخطيطه شكل ٣١٣ من المرجع السابق .

(٦) أنظر ص ٢٧٣ من المرجع السابق .

(٧) راجع قصر المشتى وقصر الطوبه ص ٣٥٠ من المرجع السابق .

وكان البعض يشبه الحصون الصغيرة ، وعلى كل فان فى تصميم هذه القصور وفى زخارفها عناصر عراقية وفارسية إلى جانب العناصر الشرقية المسيحية التى امتاز بها هذا العصر وتلك الأقاليم .

وقد اشتهر قصير عمرا بما فيه من نقوش آدمية على الأسقف والجدران بألوان زاهية وأساليب فنية بيزنطية متأثرة فى بعض نواحيها بالتقاليد الايرانية .

ويتكون قصير عمرا من قسمين رئيسيين :

١ — قاعة استقبال .

٢ — حمام ساخن .

والحمام الساخن يتكون من ثلاث غرف :

الأولى مغطاة بقبو نصف دائرى والثانية مغطاة بقبو متقاطع والثالثة مغطاة بقبة (شكل ٥) .

وهذه الغرف الثلاثة هى :

١ — الغرفة الباردة .

٢ — الغرفة الدافئة .

٣ — الغرفة الساخنة .

وهذه الغرفة الأخيرة مربعة التخطيط ومسقوفة بقبة دائرية ، وطريقة الانتقال من المربع الى الدائرة بواسطة إنشاء أربعة مثلثات كروية .

والقبة مزخرفة برسوم دائرة الفلك [1] ورسوم الدب الأكبر والتنين وغيرها : وهذه الرسوم من النوع المسمى بالفرسكو [2] .

وحوائط قصير عمرا مغشاة برسوم أهمها صور آدمية وراقصات ورجال مشتغلين فى أعمال مختلفة ومناظر صيد وغير ذلك .

---

(١) واجع لوحات ٣٥٥ ، ٣٥٦ من المرجع السابق وكتاب Kuseir 'Amra : von Alois Musil II وكتاب الدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٤

(٢) أنظر لوحات Kuseir 'Amra. Von Alois Musil II Tafel XLI

ولا تشاهد مثل هذه الرسوم فى أى أثر إسلامى آخر بعد ذلك حتى القرن الثانى عشر .

وحوائط قصير عمرا مبنية من حجر جيرى صلب أحمر اللون مصدره التلال المجاورة ومداميكه غير منتظمة وذات سطح خشن .

والرسوم الموجودة على حوائطه الداخلية تتبع الفن السورى القديم وليس هناك غير تأثير فارسى واحد وهو توزيع الأشخاص فى صورة أعداء الاسلام الموجودة بقاعة الاستقبال .

القبة فى العصر العباسى

شوهدت القبة تعلو مداخل [1] أبواب السور الداخلى الأربعة لمدينة بغداد التى شيدها الخليفة المنصور ١٤٧ هـ (٧٦٤ — ٧٦٥م) . وكانت تعرف بالمجلس وتغطيها قبة عظيمة على قمتها تمثال يديره الريح ويحيط بغرفة المجلس مقاعد ومرتفقات يطل منها الخليفة المنصور على المناطق المجاورة لكل باب من أبواب المدينة الأربعة . وكانت طريقة انتقال القبة من المربع إلى الدائرة بواسطة أربعة محاريب مخروطية موضوعة فى أركان الغرفة وهذه الطريقة أصلها ساسانى (من بلاد الفرس) .

وكانت القبة بارتفاع ٥٠ ذراعا من مستوى الأرض .

وفى وسط مدينة بغداد كان يوجد قصر أبى جعفر المنصور وكان معروفاً باسم (قصر باب الذهب) و (قصر الذهب) والقبة الخضراء نسبة للقبة العظيمة التى كان تعلوه ويعلو قمتها تمثال فارس ممتطياً جواده ويحمل رمحاً فى يده . ويدور هذا التمثال مع الريح . وقد سقطت هذه القبة فى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) .

أما فى قصر الأخيضر العباسى الذى يقع فى الصحراء فى وادى عيد على بعد ١٢٠٠ كم جنوبى بغداد فتوجد القبة بعد أن يدخل الانسان من المدخل

(١) راجع Creswell : Early Musl. Arch. II, fig 4, 5

الرئيسى فى منتصف الواجهة الشمالية وبعد أن يمر فى دهليز المدخل . وهى تقع فى مفترق دهليز عمودى على محور المدخل ومن القبة يتوجه الزائر إلى البهو العظيم . وهذه القبة ذات قنوات[1] متشععة من مركزها العلوى . وطريقة الانتقال من القاعدة المربعة السفلية لمكان القبة إلى دائرة القبة المستديرة بواسطة بلاطات أفقية موضوعة فى أركان المربع من أعلاه .

وفى وصف المسجد الأقصى أيام الخليفة المهدى ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) يذكر المقدسى أن هناك قبة[2] رائعة كانت تعلو الجالون الكبير العمودى على حائط القبلة (المجاز) . وذلك فوق المحراب . وكانت من الخشب ومغطاة بصفائح من الرصاص .

قبة الصليبية فى سامرا :

تعتبر قبة الصليبية فى سامرا (شكل ٦) أقدم [3] ضريح فى الاسلام وكانت تحوى مقابر ثلاث خلفاء عباسيين وهم المنتصر والمعتز والمهدى . ويتوسط هذه القبة من الداخل غرفة مربعة وطريقة انتقال القبة بواسطة تجويفات موضوعة فى أركان الغرفة .

وتخطيط الحائط الخارجى لهذه القبة مثمن الشكل والغرفة المربعة محاطة من الخارج بدهليز مغطى بقبو نصف دائرى ، وقد شوهد مثل هذا التخطيط قبل ذلك فى القرن السادس فى كنيسة سان چورج بمزرا وقطاع القبة الرأسى على شكل عقد مدبب وقد سقطت القبة . ولهذا الضريح أربعة مداخل محورية [4] .

---

(١) انظر شكل ٤٠ ، ٦٤ من المرجع السابق

(٢) راجع ص ١٢١ : Creswell : E.M.A. II ، وشكل ١١٩ من نفس الكتاب .

(٣) لعل سبب إنشاء قبة كضريح لأول مرة فى الاسلام بعد أن كانت القبور تحت الأرض ، يرجع إلى كون أم الخليفة المنتصر اغريقية الأصل . فتأثر بذلك شكل الضريح نقلا عن العمارة الأوروبية .

(٤) راجع E.I.sup. 1938 p. 142. ، وكذلك E. Herzfeld, Erster Bericht.... Von Samarra, Berlin 1912, p 28-31, & Sarre-Herzfeld—μ. Tigrisgebiet, Berlin 1911—1, 23, 6).

وفى عام ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) أضاف الحكم الثانى [١] قبة تعلو بحراب المسجد الكبير فى قرطبة . وزخرفت بالفسيفساء الذهبية وعمل فيها صناع من القسطنطينية أرسلهم إليه الامبراطور البيزنطى ؛ ولا تزال هذه الزخارف موجودة به إلى الآن ، ويثبت ذلك الكتابة التاريخية الموجودة بها والمؤرخة بعام ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م . وبأسفل القبة أضاف الحكم محرابا من الرخام ومنبراً جميلا من الخشب تم صنعه فى تسع سنوات .

وفى عام ٢٤٨هـ (٨٦٢/ ٨٦٣م) أضاف أبو ابراهيم احمد بن الأغلب قبة جميلة فوق محراب مسجد القيروان [٢] بشمال إفريقيـــة (شكل ٧) ، وقطرها ٥٫٨٠ متراً وشكلها مضلع من الداخل ومكون من ٢٤ ضلعاً وطريقة الانتقال من القاعدة المربعة إلى الدائرة كما يأتى :

ينتهى المربع من أعلاه بكورنيش وعليه ترتكز منطقة الانتقال وهى مكونة من أربعة محارات فى أركان المربع تحمل الرقبة وتعلوها بعد ذلك القبة المستديرة .

والرقبة مكونة من مثمن ومحمولة على ثمانى محاريب مخروطية صغيرة وشكل القبة الخارجى كشكل (السنطاوى) .

والأصل فى القبة ذات الضلوع الداخلية رومانى إلا أن وجود كنيسة قريبة من مكان مسجد القيروان وهى كنيسـة مدينة كف والمعروفة اليوم باسم دار القوص يدل على أن تصميم هذه القبة مأخوذ عنها .

وقد وجدت بعض قباب أخرى فى شمـال إفريقية فى العصر العباسى تعلو محاريب بعض المساجد الكبيرة كما فى المسجد الكبير بسوسة [٣] ٢٣٦ هـ (٨٥٠ — ٨٥١ م) ومسجد تونس [٤] ٢٥٠هـ (٨٦٤م) . وتصميمها من الداخل يشبه قبة مسجد القيروان .

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٤٩ ، كريزول ج ٢ ص ١٤٢
(٢) انظر أشكال ٢٣٥ — ٢٣٧ وكذا لوحات ٨٣ — ٨٥ من المرجع السابق .
(٣) أنظر لوحات ٥٩ ا ، ٦١ ا ، ٦٢ ا من كتاب كريزول ج ٢
(٤) يعرف هذا المسجد باسم جامع الزيتونة فى تونس ، راجع لوحات ٩١ ، ٩٢ ، من المرجع السابق .

القبة فى بلاد المغرب

الكلمة الشائعة التى تطلق على القبة فى بلاد المغرب هى مربوط [1] ويصعب تحديد تاريخ إنشاء الأضرحة الشعبية المغطاة بقباب فى بلاد المغرب والأشكال [2] الموضحة الأربعة (شكل ٨) تمثل القباب والأضرحة فى تلك البلاد .

فالشكل الأول الى اليسار (A) يمثل القبة فى تونس وهى على شكل قبة مستديرة تعلو رقبة مثمنة ، مرتكزة على قاعدة مربعة .

والشكل الثانى (B) يمثل القبة فى بلاد الجزائر ، وهنا نجد القمة محتجبة ببعض شرفات مسننة تعلو القاعدة المربعة .

والشكل الثالث (C) يمثل الأضرحة الشعبية فى بلاد الأندلس ، وهنا نجد الضريح يعلوه شكل هرمى .

والشكل الرابع (D) يمثل القباب فى بلاد الجزائر أيضاً والموجودة على هضبة مرتفعة ، وهى بيضاوية ومدببة الرأس . وأهم هذه القباب الموجودة فى بلاد المغرب :

قباب العباد السفلى [3] وهى من الطراز الأول وتقع بالقرب من مدينة تلمسن فى بلاد الجزائر وتاريخها قبل سنة ١١٩٥ ، وهى مبنية من الطوب وعقودها على شكل نعل الفرس وبعض قبابها مثمنة ، ومحمولة على سكونشات (تجويفات مخروطية الشكل) .

ويوجد فى المقابر القديمة لسيدى يعقوب (قبل تلمسن) ضريح السلطان ويرجع تاريخه الى بداية القرن السابع الهجرى (١٣ م) ورقبة القبة مثمنة الشكل .

أضرحة بنى مرين بالقلة بالقرب من مدينة فاس . وبها أربعة أضرحة للخلفاء أبى الحسن على (٧٦٣ — ٨٠١ هـ) (١٣٦١ — ١٣٩٨ م) .

(١) المرجع E I. sup. L. II. 1938, p. 137.

(٢) المرجع مارسيه Marçais G. Manuel II'797

(٣) ملحق دائرة المعارف الاسلامية E I. sup 1938, p. 138

ويعتبر ضريح أبي الحسن أجمل هذه الأضرحة ورقبته مربعة وبه نوافذ في ثلاثة من واجهاته وعقودها على شكل نعل الفرس[1].

وتمتاز هذه الأضرحة بأن واجهاتها بها فتحات. وبجوارها أضرحة أخرى ذات قباب وليس بها سوى فتحة واحدة هي الباب أو المدخل. وبداخلها توجد ثلاث حنايا صماء (أبواب كاذبة). وهي موجودة في مواضع فتحات الأبواب. وهذه الأضرحة هي: سيدى بوميدن (القرن ٨ — ١٤م) وقد أصلحت في نهاية القرن الثامن عشر.

قبة سيدى ابراهيم في تلمسن (٧٥٣ — ٨٨ هـ) (١٣٥٢ — ٨٦ م). وقد أمر بانشائها السلطان أبو حمو موسى الثاني والقبة مثمنة الشكل ومحمولة على سكونشات (تجويفات مخروطية) كما هي العادة في قباب بلاد المغرب.

القبة في العصر الفاطمي في مصر

ذكر المقريزى[2] عند الكلام عن تاريخ إنشاء الجامع الأزهر وجود قبتين في زاويتي رواق القبلة في مسجدى الأزهر والحاكم، عدا القبة التي تعلو المحراب (شكل ٩)[3].

وهذه القباب كانت محمولة على أربعة محاريب أو سكونشات ولا تزال تشاهد آثار هذه القباب في جامع الحاكم، والقبة في الركن الشرقي من رواق القبلة في جامع الحاكم أحسن حالا من الموجودة في الركن الآخر المقابل، وفيها ترى طريقة الانتقال من المربع إلى الدائرة وإلى يمينها نافذة مثقوبة من الجص وفوقها جزء من الرقبة المثمنة وبها نافذة أخرى مثقوبة.

وخلف هذه القبة الأخيرة يوجد أحد أبراج سور القاهرة الشمالى الذى بناه بدر الجمالى — الوزير الفاطمى — في عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م).

---

(١) راجع: H. Basset et E. Lévi, Provençal chella, une nécropole mérinide, dans Héspéris 1922; & Marçais, op. cit. p. 497

(٢) الجزء الرابع من كتاب الخطط للمقريزى طبعة مطبعة النيل سنة ١٣٢٥ هـ

(٣) انظر لوحات ١٣، ١٤، ٢٣ من كتاب: Haut et Wiet: Les Mosquées du Caire II.

أضرحة السبع بنات [1] (٤٠٠ هـ / ١٠١٠م) :

تقع فى السهل الممتد قبلى خرائب الفسطاط على بعد نحو نصف ميل تقريباً . إلى الغرب من ضريح الامام الليث . أربعة أضرحة صغيرة (شكل ١٠) كانت ذات قباب . وقد فقدت كل منها قبتها وبعضها قد فقدت بعض أجزائها السفلية .

وقد كان عدد هذه الأضرحة فى الأصل سبعة ، كما يدل بذلك عليها اسمها . وعلى هذا كانت هناك سبعة قباب كما نص على ذلك المقريزى الذى روى عن ابن سعيد أنها أضرحة لسبع بنات من عائلة المغربى الذى قتله الخليفة الحاكم بعد هرب الوزير أبو قاسم الحسين بن على المغربى إلى مكة . وقد تم هذا كما يقول ابن خلكان سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) . وعلى هذا تؤرخ هذه الأضرحة بعام (٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م) .

وأهمية هذه الأضرحة من ناحية العمارة الاسلامية أنها من أقدم الأمثلة الموجودة فى الاسلام .

والأربعة الأضرحة الموجودة كلها فى حجم واحد وتخطيط واحد إلا أن ارتفاعها يختلف قليلا عن بعضها . وكلها مبنية من ثلاث طبقات :

١ — المنطقة الأولى مربعة التخطيط ولها عقد مفتوح فى وسط كل وجه من أضلاع المربع .

٢ — والمنطقة الثانية عبارة عن منطقة الانتقال من القاعدة المربعة إلى الرقبة المثمنة وهى مبنية من الطوب ومربعة من الخارج . وفى الداخل توجد أربعة محاريب أو سكونشات بين كل واحد والثانى فتحة معقودة عقداً مدبباً وكلها من حجم واحد وشكل واحد .

٣ — هذه الاسكونشات الموجودة فى الأركان تحمل الرقبة المثمنة المبنية من الطوب الأحمر والتى تحتوى على فتحة معقودة بعقد مدبب فى كل وجه من أوجه المثمن . وهذه الفتحات أضيق بكثير عما بأسفلها .

(١) الصورة من المرجع السابق لوحة ٢٧ السفلى

وعلى هذه الرقبة المثمنة ترتكز القبة المستديرة التي سقطت ولم يبق منها شيء :

وأهمية أضرحة [1] السبع بنات من الوجهة المعارية أنها تعتبر أقدم أضرحة من نوعها في مصر وطراز عمارتها موجود في فراشاباد في بلاد فارس قبل الاسلام ، وفي ضريح اسماعيل الساماني في بخارى سنة ۹۰۷ م ، وأخيراً نجده هنا في أضرحة السبع بنات في مصر في سنة ۱۰۱۰م .

(۱) الأضرحة في الاسلام ينطي سقفها بقباب ، وأما قبل الاسلام فكان شكلها كما يأتي:

۱ — في مصر : كانت المصطبة والهرم هما الأضرحة المختارة

۲ — في فارس : أبراج عبارة عن غرفة صغيرة مغطاة بسقف جمالوني كقبر قورش بيرسيبوليس .

۳ — في العراق : أقدم طراز عرف للأضرحة في العراق هو قبر برجي الشكل (قبر عرزى) من القرن الثاني ، وقد دخل الى العراق من سوريا عن طريق تدمر

٤ — في فلسطين وفينيقيا : عرفت المدافن الحجرية على أربعة أشكال :

(ا) المقابر النائرة : وهي منحوتة في الحجر مثل المقابر الحديثة ومغطاة بلوح من الحجر

(ب) مقابر على شكل نفق : منحوتة أفقيا في الصخر وفي نهايتها توضع الجثة .

(ج) المقابر ذات الرفوف : حيث توجد رفوف أو مناضد لاستقبال الموتى وتكون عادة مغطاة بأسقف ذات أقبية .

(د) مقابر على شكل محاريب منحوتة في الصخر .

ه — وفي سوريا : كان شكل القبر عبارة عن مكعب يعلوه هرم (القرن ٤ ، ٦) كما في حلب وأنطاكية ، وفي القرن السادس ظهر طراز جديد شكله عبارة عن مكعب صغير يعلوه قبة من الحجر المنحوت كما هو الحال في ضريح بيزوس في رويحة .

٦ — وفي فارس : يعتبر ضريح اسماعيل الساماني في بخارى سنة ۹۰۷ م اول ضريح اسلامي موجود بفارس ، وفيه نرى القاعدة مربعة والضريح مغطى بقبة مقامة على اسكونشات بدون وجود رقبة مثمنة . (أنظر لوحة ۱۱۸ ، ۱۱۹ من كتاب كريزول ج ۲ . (Early Musl. Arch.) .

جامع الجيوشي

يقع هذا الجامع على حافة المقطم خلف القلعة وقد بناه الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ، وذلك مثبت في كتابة تاريخية [1] قرأها الأستاذ كريزول وأرخها بعام ٤٩٨ هـ (١١٠٥ م) والجيوشي لقب يطلق على قائد الجيش (أمير الجيوش) أو ميرجوشي أو الجيوشي ، ومحراب هذا الجامع يعلوه قبة مرتكزة على رقبة مثمنة وطريقة الانتقال من القاعدة المربعة إلى الرقبة المثمنة بوساطة أربعة سكونشات شكلها على هيئة محراب ذي عقد مدبب .

ويوجد شريط من الكتابة المزخرفة بالخط الكوفي على أرضية نباتية بأعلى المنطقة المربعة وذلك بارتفاع ٥٥ سم وبأعلى القبة عند القمة من الداخل توجد آيات قرآنية موضوعة داخل دائرة وتحمل اسمي محمد وعلي بالتبادل ومكررة ثلاث مرات .

ومحراب جامع الجيوشي تحفة فنية من الجص في العصر الفاطمي ويمتاز بزخارف جميلة بها كتابات وزخارف نباتية .

وإلى يسار القبة توجد غرفة بها ضريح يعرف باسم سيدي الجيوشي [2] ومن المحتمل أن يكون قد دفن فيها الأفضل وبدر الجمالي أيضاً .

وإلى جوار جامع الجيوشي يوجد مسجد اخوة يوسف الذي يعرف باسم مشهد المقطم وينقصه الصحن والمئذنة . وقبته من الطراز الفاطمي ويمتاز بمحراب جميل أيضاً ويعتبر تحفة نادرة من الجص في ذلك العصر .

(١) أرخها ثان برشم بعام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م) ، راجع Van Berchem, Notes d'archéologie arabe dans J A, 1891.

(٢) المرجع Notes tirage à part p. 78 ; c. f. Van Berchem, Une Mosquée du temps des Fatimides, dans MIFAO, t. II.

القبة فى مداخل أبواب أسوار القاهرة الفاطمية

تعتبر أسوار القاهرة الفاطمية وأبوابها من أقدم الأمثلة المعروفة للعمارة الحربية الموجودة فى العالم الاسلامى .

ومدخلا بوابتى باب الفتوح [1] وباب زويلة [2] مغطيان بقبة دائرية من الحجر المنحوت محمولة على أربعة مثلثات كروية ، وتكوين القبة هو نفس تكوين منطقة الانتقال وهى المثلثات الكروية الركنية .

وتاريخ باب الفتوح ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وباب زويلة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وقد بناها أخوان مهندسان من ثلاثة أخوة من أرمينيا قدموا مصر من مدينة الرها . وذلك فى عهد الوزير الفاطمى الكبير أمير الجيوش بدر الجمالى فى خلافة المستنصر ، الخليفة الفاطمى .

وتعتبر القبتان أول ظهور لهذا النوع من القباب فى مصر الاسلامية .

قبتا ضريحى محمد الجعفرى والسيدة عاتقة

يقع هذان الضريحان بجوار مشهد السيدة رقية . وأهمية هذين الضريحين أنهما يعتبران نقطة التحول فى تصميم القبة من القباب ذات الاسكونشات إلى القباب المحمولة على المقرنصات أو الدلايات .

وطريقة الانتقال فى ضريح محمد الجعفرى (شكل ١١) . وجود حطتين أو صفين من التجويفات عبارة عن مقرنصات على هيئة اسكونشات والحطة السفلية مكونة من ثلاث تجويفات ، الوسطى عقدها نصف دائرى وحولها من الجهتين تجويف ينتهى من أعلاه بتجويف مثلثى الشكل والحطة العلوية

---

(١) أنظر اللوحة السفلى من ص ٢٦٩ من كتاب Ross, E.D. Sis. The Art of Egypt Through the Ages.

(٢) راجع لوحة ٣٤ من كتاب مساجد القاهرة لفييت .

مكونة من تجويف نصف دائرى فوق المقرنص الأوسط فى الحطة السفلية ، وهذه المجموعات (المقرنصات) الموجودة فى الأربعة الأركان هى منطقة الانتقال وهى الرقبة وهى مثمنة الشكل من الخارج وتحمل بدورها القبة المستديرة.

وتختلف قبة ضريح السيدة عاتقة (شكل ١١) عن قبة الجعفرى فى تكوين القبة من الداخل ، إذ أنها مضلعة ومكونة من ١٦ ضلعاً متشععة من قمة القبة أى من مركز الدائرة الوسطى الموجودة بأعلى القبة من الداخل . وبأعلى المنطقة المربعة الداخلية يوجد شريط من الكتابة بالخط الكوفى . وبين المقرنصات الموجودة فى الزوايا توجد نوافذ شكلها يشبه الاطار الخارجى المقرنص فى مجموعه . والمحراب من الجص وبه زخارف فاطمية الطراز .

قباب الجامع الأقمر

وهناك بشارع المعز لدين الله بالنحاسين يوجد جامع الأقمر ويمتاز بوجود القباب الكروية المنخفضة التى سبق أن شاهدناها فى مدخلى باب الفتوح وباب زويله ، وهذه القباب [1] تغطى الأروقة حول الصحن ، وكذا فى رواق القبة الرئيسى .

قبة [2] مشهد السيدة رقية

تشبه طريقة انتقال هذه القبة الطريقة المستعملة فى القبتين المجاورتين لها وهما قبتا ضريحى الجعفرى وعاتقة : إلا أن الاختلاف موجود فى شكل النوافذ الموجودة بين المقرنصات .

وتوجد زخرفة جميلة من الجص بأسفل النافذة الشمالية الشرقية وتعتبر هذه الزخارف نموذجا بديعاً لزخارف الأرابسك فى العصر الفاطمى . كما توجد

(١) أنظر المسقط الأفقى ص ٧١ والقطاع الرأسى ص ٧٣ من كتاب حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الاثرية ج ١

(٢) راجع لوحتى ٣٧ ، ٣٩ العليا من كتاب Haut & Wiet Les Mosquées du Caire Vol. II.

آثار قليلة من تلك الزخارف بأسفل النافذة الجانبية السابقة . ومن هذا نستنتج أن منطقة الانتقال — فى الأصل — كانت تكسوها زخارف جصية من العصر الفاطمى .

وتوجد بين منطقة الانتقال والقبة رقبة مثمنة . وبكل وجه من أوجه هذه الرقبة يوجد نافذتان .

والقبة مضلعة ومكونة من ٢٤ ضلعاً وهى فى الواقع أرشق وأجمل من شكل قبة السيدة عاتكة وتشبه من الخارج شكل القباب المضلعة فى شمال إفريقية (شكل السنطاوى) . وتنتهى أضلاع القبة الداخلية بخطوط ملونة .

وتعتبر قبة السيدة رقية التطور لما بعدها من قباب العصر الأيوبى .

القبة فى العصر الأيوبى

(٥٦٧ — ٦٤٨ هـ (١١٧١ — ١٢٥٠ م)

يتميز العصر الأيوبى بالعمارة الحربية التى أنشأها صلاح الدين وبإنشاء المدارس الاسلامية ، كما يتميز هذا العصر بالتطورات الأولى لانتقال القبة بواسطة المقرنصات أو الدلايات .

وأشهر القباب فى العصر الأيوبى : قبة برج الظفر وقبة الأمام الشافعى وقبة الصالح نجم الدين وقبة الخلفاء العباسيين وقبة شجرة الدر .

قبة برج الظفر :

يقع برج الظفر فى الزاوية الشرقية البحرية لباب النصر ، ويمتد منه سور غرباً إلى باب النصر وجنوباً إلى باب الوزير . ويعلو هذا البرج قبة (شكل١٢) من الحجر وتخطيطها مثمن من الداخل وبأركانه من أعلاه مقرنص من حطة واحدة ، والمقرنصات تحمل القبة المستديرة المبنية من الحجر .

ويعتبر برج الظفر من أهم أجزاء سور القاهرة الثالث الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى . ويعتبر سور القاهرة فى هذه المنطقة امتداداً لسور القاهرة الفاطمى الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى .

قبة [1] الامام الشافعى :

أنشأها السلطان الملك الكامل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) وتعتبر من أجمل القباب فى مصر الاسلامية وتنتهى القاعدة المربعة من الخارج من أعلاها على ارتفاع ١٠,٦٢ متراً . بشرفة ارتفاعها ١,٨٠ متراً . بها شرافات مسننة جميلة . بأسفلها محاريب محارية ذات عقود مثلثة محلاة بزخارف جصية . وفوق هذه القاعدة المربعة توجد القبة الخشبية بعد أن تبعد قليلا عن الشرفة من الداخل . وهذه القبة مكسوة بصفائح من الرصاص وارتفاعها ١٦,٧٨ متراً من سطح الأرض .

أما داخل القبة فقد كسيت جدرانها بالرخام ومقرنص القبة (شكل ١٣) مكون من ثلاث حطات مخوصة مزخرفة وهو بده تعدد طاقات المقرنص التى كانت من حطتين فى نهاية العصر الفاطمى . والحطة السفلية مكونة من خمسة مقرنصات تعلوها سبعة فى المنطقة الوسطى ثم ثلاثة فى المنطقة العلوية .

وقد جدد هذه القبة السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) وذلك مثبت فى الكتابة التاريخية الموجودة بلوح الرخام فى وسط الجانب الغربى .

وبقمة القبة من الخارج يوجد قارب برونزى يعرف بالعشارى (شكل ١٤) ويقول عنه لين بول أنه كان يوضع فيه حبوب كل شهر .

والعشارى مركب صغير مثبت فى هلال القبة وتتدلى منه سلسلة حديدية وكان يستعمله الملوك وكبار رجال الدولة ويقال إن السلسلة قد أعدت ليتسلقها الانسان لوضع الماء والحبوب للطيور . وقد وجدت العشاريات

(١) راجع لوحات ٤٩ ، ٥٠ من كتاب مساجد القاهرة ج ٢ لفييت .

قبل ذلك تعلو هلال منارة الجامع الطولونى [1] وبقيت بها إلى أن سقطت سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) . وفى مدينة رشيد أيضاً توجد عدة مراكب فوق مناراتها [2] . كما يوجد مركب [3] صغير فوق القبة القبلية فى خانقاه فرج ابن برقوق بالصحراء .

قبة الصالح نجم الدين

وتقع هذه القبة [4] ملاصقة للإيوان الغربى المدرسة الصالحية وقد أمرت بإنشائها ملكة مصر شجرة الدر ونقلت إليها جثة الملك الصالح نجم الدين .

وتمتاز القبة من الداخل والخارج بالبساطة وأهميتها ترجع إلى تطور المقرنص فيها وزيادة حطاته وتغييرها تغيراً كلياً عن القبة الفاطمية .

قبة الخلفاء العباسيين [5]

تقع هذه القبة خلف المشهد النفيسى وتضم رفاة أفراد من الخلفاء العباسيين الذين توفوا فى مصر فى القرنين السابع والثامن الهجرى وكذا أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى .

وأهميتها ترجع لما حوته من زخارف جصية بديعة ومن زخارف خطية على الجص والخشب .

ومقرنص هذه القبة يتفق مع مقرنص قبة شجرة الدر المبنية فى العصر الأيوبى أيضاً . وتشبهها أيضاً فى أشكال العقود المحارية الجصية الموجودة بقاعدة القبة من الخارج .

قبة شجرة الدر [6]

تقع هذه القبة بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية . وقد أمرت بإنشائها شجرة الدر المدفونة بها . وطرازها يشبه قبة الخلفاء العباسيين .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٥

(٢) الحقيقة والمجاز ص ٦٤

(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١١٢

(٤) لوحة ٥٩ من كتاب مساجد القاهرة ج ٢ لفييت .

(٥) لوحة ٢٧٨ ولوحة رقم ٣ من ص ٢٩٨ من كتاب Ross : The Art. of Egypt.

(٦) لوحة ٧٤ من كتاب بريجز عن العمارة الاسلامية فى مصر وفلسطين .

القبة فى عصر دولة المماليك البحرية

(١٢٥٠ — ١٣٨٢ م)

يمتاز هذا العصر بتطور كبير فى تخطيط المساجد . فبعد أن كنا نرى القبة الصغيرة — فى العصر الفاطمى — تغطى المربع الموجود أمام المحراب ، كما فى مسجد الحاكم ، نراها فى هذا العصر قبة كبيرة من الخشب أكبر حجماً وتغطى مساحة كبيرة حوالى ثلاث بلاطات مربعة ، وبذا تدل على مكان القبلة كما هو الحال فى مسجد بيبرس بالظاهر [١] ١٢٦٩ والناصر محمد بالقلعة [٢] (١٣١٨ — ٣٥) والماردانى [٣] ١٣٤٠ .

وكان من مميزات هذا العصر أيضاً فى العمارة إنشاء المدارس الاسلامية ذات التخطيط المتقاطع المتعامد أو (التخطيط الصليبى) . كما فى مدرسة السلطان حسن [٤] (١٣٥٦ — ٦٣) وذلك لتدريس المذاهب الأربعة الاسلامية . وقد وضعت الأيوانات الأربعة حول الصحن المربع بحيث يفتح كل إيوان على الصحن بعقد كبير مدبب الشكل فتحته تساوى فتحة الايوان . وخلف إيوان القبلة الكبير (وأحياناً يكون بجواره كما فى مدرسة برقوق بالنحاسين) يوجد ضريح منشيء المدرسة . ويغطى هذا الضريح قبة كبيرة محمولة على مقرنصات .

ومن أشهر القباب التى ظهرت فى هذا العصر قبة ضريح المنصور قلاوون [٥] ٦٨٣ — ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ — ١٢٨٥ م) بشارع المعز لدين الله بالنحاسين

---

(١) شكل ٥٢ ص ٩٦ من كتاب بريجز عن العمارة الاسلامية فى مصر وفلسطين .

(٢) أنظر شكل ٦٧ (تخطيط المسجد) ولوحة ٧٥ عن القرنص من المرجع السابق .

(٣) لوحة ص ٢٨٤ من كتاب Ross : The Art of Egypt

(٤) أنظر لوحة ٢٨٦ من المرجع السابق ولوحة ١٣٣ من كتاب مساجد القاهرة ج ٢ لفييت .

(٥) شكل ٦٠ ص ٩٩ من كتاب بريجز عن العمارة الاسلامية فى مصر وفلسطين وص ١١٧ من كتاب حسن عبد الوهاب عن تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ، ص ٢٨١ من كتاب Ross : The Art of Egypt

(شكل ١٥) وهى إحدى مجموعة معارية مكونة من ضريح ومدرسة وبيمارستان وتعتبر من أجمل المناظر للعمارة الاسلامية بالقاهرة . وتصميم هذه القبة غريب بالنسبة للقبة فى مصر : وتشبه قبة الصخرة [1] ، ويظهر التأثير السورى فى تخطيط قاعدتها . فهى مقامة على قاعدة مثمنة مكونة من أربعة دعائم مربعة وأربعة أعمدة مستديرة وهى موضوعة حسب الترتيب التالى : دعامتان ثم عمودان بالتبادل . والأعمدة ضخمة من الجرانيت ذات تيجان مذهبة (شكل ١٦) والدعائم بها أربعة أعمدة رخامية فى أركان كل منها وقد كسيت من الخارج بالرخام الدقيق المطعم بالصدف . وهذه الدعائم والأعمدة تحمل عقوداً مدببة تعلوها رقبة مثمنة بها نافذة فى كل ضلع من أضلاعها ثم تعلو هذه الرقبة المثمنة قبة مستديرة بواسطة اسكونشات صغيرة فى أركان المثمن . وقد أعادت لجنة حفظ الآثار العربية بناء هذه القبة سنة ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م .

وشكلها الخارجى قطاع عقد مدبب بيضاوى الشكل ويسندها أكتاف ساندة موضوعة فوق أركان المثمن الخارجى .

ومن القباب الجميلة فى القاهرة والتى ترجع إلى عصر دولة المماليك البحرية [2] قبة زين الدين يوسف « الشيخ الصوفى » [3] من أسرة بنى أمية ٦٩٧ (١٢٩٨ هـ) . والقبة تعلو الرقبة وهى مضلعة ومكونة من ٢٨ ضلعاً .

وتعتبر قبة ضريح الأمير سنقر السعدى [4] (١٣١٥م) أجمل مثال موجود للقبة الحافظة لجمال شكلها : ومنطقة الانتقال من المربع إلى الدائرة بما فيها من مقرنصات داخلية وبما فيها من نقوش جصية خارج وداخل القبة تشهد بذلك .

(١) راجع .E.I. Supp. p. 139

(٢) راجع أسماء القباب المعروفة منها فى .Creswell, A brief chronology, B.I.F.A.O Tome XVI & Devonshire, op. cit., p. 123-27.

(٣) راجع .Devonshire op. cit., p. 42

(٤) لوحة ص ٢٨٣ من كتاب .Ross ; The Art of Egypt

كما تمتاز بعض القباب بوجود الفسيفساء الخزفية الملونة فوق رقبة القبة كما هو الحال في ضريح الأميرة طوغاي[1] (١٣٤٨ م) بالقاهرة.

وكذلك تمتاز قبتا ضريحي الأمير سلار والأمير سنجر الجاولي[2] (١٣٠٣م) بتكوين معماري فريد لقبتين متجاورتين وشكلهما مضلع من الخارج وقطاع القبة الرأسي على شكل عقد مدبب مستمر في اتجاه رأسي بعد بدء العقد

القبة في سوريا :

يوجد في سوريا[3] عدد من القباب تتبع عصر دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ — ١٣٩٠ م) كضريح ركن الدين[4] (٦٢١هـ — ١٢٤٤م) وضريح عز الدين ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ — ٢٩) وكلها متشابهة في أشكالها وتمتاز برقبة عالية ويلاحظ وجود أضرحة ذات قباب ولها أربعة أبواب[5] معقودة وذلك في القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي.

ومن أشهر القباب في سوريا أيضاً موجودة في تربة الطاوسية[6] ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وقبة التوريزي[7] (٨٢٨ هـ ١٤٢٤ — ٢٥ م).

ولا تشاهد القبة ذات المقرنصات كما في مصر في ذلك العصر وإنما يوجد المقرنص في عقود المداخل الرئيسية.

وتوجد خارج دمشق القبة المزدوجة[8] في قبة خير بك في حلب المعروفة باسم الشيخ علي: وقبة قايتباي ٩٢٤ هـ (١٥١٨ م).

---

(١) لوحة ٢ من ص ٢٨٠ من المرجع السابق.
(٢) لوحة ص ٢٨٢ من المرجع السابق وكذا ص ١٢٤ (المسقط الأفقي) ص ١٢٦ (قطاع رأسي) من كتاب حسن عبد الوهاب عن تاريخ المساجد الأثرية ج ١
(٣) راجع Wulzinger & Watzinger, Damaskus
(٤) Wulz. & Watz. rep 42 pl. 8c & 9b
(٥) أنظر pl 7c من المرجع السابق.
(٦) أنظر pl 22b من المرجع السابق.
(٧) نفس المرجع pl. 28a
(٨) أنظر Glück- Diez, K. d. I. Prop. Kg. p. 189 & 2. Devonshires, op. cit., p. 106.

القبة فى عصر دولة المماليك الشراكسة

(١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

يعتبر هذا العصر بأنه نهاية تطور القبة ذات المقرنصات وقد زادت عدد صفوف المقرنصات فى هذا العصر فوصلت إلى سبعة وثمانية ونسعة صفوف : حتى أنه قد شوهد ١٣ صفاً من المقرنصات وتشبه هذه المقرنصات مثيلاتها السورية فى أنها موضوعة فى إطار مثلثى الشكل : إلا أنها تختلف عنها فى أن كل صف منها تخطيطه منحنى بدلا من انكسارها فى مستويات .

وقد ظهر بناء المدافن الكبيرة فى عصر دولة المماليك الشراكسة ويلاحظ صغر حجم القبة فى هذا العصر مع الاسراف فى زخارفها الخارجيه وكلها مبنية من الحجر : ومقابر الخلفاء[1] بالقرافة الشرقية بها أكبر مجموعة من تلك القباب وبذا يجدر بنا أن نسمى مدينة القاهرة بمدينة القباب الاسلامية : وكلها تمتاز بجمال زخارفها الخارجية وتتكون من زخارف هندسية ونباتية وبعضها به زخارف مجدولة والبعض به زخارف حلزونية ، وأشهر هذه القباب قبة ضريح برقوق[2] وقبة ضريح الأشرف بارسباى[3] وقبة السلطان قايتباى[4] بالقرافة .

وقد عرفت مصر فى عصر المماليك أنواعا شتى من القباب منها نصف الكروية والمضلعة والبيضاوية : بل وجدت أيضاً قبة كبيرة تنتهى فى أعلاها بمنور فوقه مثمنة تحمل قبة صغيرة مضلعة وهى قبة الشيخ عبد الله المنوفى[5] بالقرافة الشرقية بالقاهرة (القرن ٧ أو ٨ هـ) أو (١٣ — ١٤ م) .

---

(١) عرفت خطأ باسم قبور الخلفاء والحق أنها أضرحة المماليك : الدكتور زكى محمد حسن — فنون الاسلام ص ٧٧ — أنظر لوحة ١٠٨ بريجز عن العمارة الاسلامية فى مصر وفلسطين .

(٢) لوحة ص ٢٨٩ من كتاب Ross : The Art of Egypt ولوحات ١٥٢ ، وما بعدها من كتاب ڤييت عن مساجد القاهرة ج ٢

(٣) لوحة ١٧٩ من كتاب ڤييت السابق الذكر .

(٤) لوحة ٤٩ من كتاب Ahlenstiol Engel : Arabische Kunst. ، ولوحة ص ٢٩٣ من كتاب Ross : The Art of Egypt

(٥) كتاب الدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١٥٤

القبة في العصر التركي

استعمل العثمانيون القبة المنخفضة نقلا عن القسطنطينية وسالونيك وهذه تختلف كثيراً عن القبة الاسلامية العالية في مصر . وعلى أثر الاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ انتقل مقر الحكم اليها وتحولت كنيسة أيا صوفيا [١] إلى مسجد حيث أصبح فيما بعد نموذجا لعدة مساجد بنيت حوله بواسطة العثمانيين في العدة قرون التالية . واستمر التأثير البيزنطي على العمارة في القسطنطينية .

وفي عام ١٥١٦ — ١٧ غزا السلطان سليم سوريا ومصر وظهر نظام الدراويش وبظهورهم وجد نوع جديد من المساجد الجامعة يعرف بالتكية [٢] وهو مسجد محاط بغرف للدراويش وهذا النظام الجديد يشبه إلى حد كبير الخانقاه التي ظهرت في العصر الأيوبي. وليست التكية إلا الاسم التركي للخانقاه [٣] التي شيد صلاح الدين أول واحدة منها في القاهرة سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) والتي نشأت في البداية في إيران .

ويعد عصر سليمان القانوني (١٥٢٠ — ٦٠) عصراً ذهبياً في العمارة الاسلامية ويمتاز بانشاء عدد عظيم من المباني في مصر وسوريا وكذلك القسطنطينية (شكل ١٨) ومن أهم المساجد التركية في القاهرة مسجد سليمان باشا [٤] (١٥٢٨) في القلعة بالقاهرة وقبته محمولة على أربعة مثلثات كروية .

ومسجد سنان باشا ببولاق [٥] ١٥٧٣ وتخطيط موضع القبة مربع الشكل يحيطه أروقة خارجية من ثلاث جهات عبارة عن سقيفات مغطاة بقباب

---

(١) أنظر لوحة ص ٢٠٣ من كتاب B. Fletcher: A History of Architecture

(٢) أنظر تكية السليمانية بدمشق أشكال ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ من كتاب بريجز من العمارة الاسلامية في مصر وفلسطين .

(٣) راجع رسالة الدكتوراه للمؤلف عن آثار الأمير عبد الرحمن كتخدا المعمارية ص ١-١٠

(٤) لوحة ٢٢٤ من كتاب فييت عن مساجد القاهرة ج ٢.

(٥) لوحة ٢٢٧ ، ٢٢٨ من المرجع السابق .

منخفضة شكلها عبارة عن طاقية . ولقبة سنان باشا من الداخل أربع زوايا بكل منها عقد ينتهى بطاقية مقرنصة ؛ ويعلو هذا المربع مضلع مقسم إلى ست عشر ضلعاً وفوقه تقوم القبة .

ومسجد الملكة صفية [1] بالداودية (١٦١٠م) بالقرب من شارع محمد على وتمتاز قبته العظيمة بأنها مسدسة الشكل ومحمولة على عقود مدببة تسندها روابط متصلة بالحائط .

ومن أمثلة المساجد التركية فى مصر أيضاً مسجد محمد بك أبى الذهب ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) بميدان الجامع الأزهر وهو رابع مسجد بمصر وضع تصميمه على طراز المساجد العثمانية في استانبول فأولها مسجد سليمان باشا بالقلعة وثانيها مسجد سنان باشا ببولاق وثالثها مسجد الملكة صفية بالداودية . غير أن هذا المسجد (محمد بك أبى الذهب [2]) يتفق مع مسجد سنان باشا فى تصميمه .

ومن أهم القباب فى العصر الحديث قبة مسجد محمد على باشا الكبير [3] (شكل ١٩) فى القلعة فقد عهد محمد على إلى المهندس التركي « يوسف بوشناق » بوضع تصميم لمسجد على نمط مسجد السلطان أحمد (شكل١٨) وقد بدىء فى إنشائه سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) وتم فى سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٨ م) ودفن فيه منشئه فى المقبرة التى أعدها لنفسه بداخل المسجد . والقبة الكبيرة تتوسط المسجد وحولها أربعة أنصاف قباب محمولة على أربعة مثلثات كروية وخارج المسجد من جهتيه عدا جهة القبلة وكذا حول صحن المسجد توجد أروقة مغطاة بقباب صغيرة .

وأهم تغيير حصل للمسجد هو إزالة القبة القديمة وإعادة بناءها فى عهد المغفور له الملك فؤاد فقد أعيد بناؤها بعد عمل هيكل من الصلب وذلك

(١) لوحات ٢٢٩ الى ٢٣١ من المرجع السابق ولوحة ص ٢٩٦ من كتاب Ross: The Art of Egypt

(٢) لوحة ٢٤٠ من كتاب مساجد القاهرة اثيت ، ولوحة ٢٥٠ من كتاب حسن عبد الوهاب عن تاريخ المساجد الأثرية ج ٢

(٣) أنظر لوحات ص ١٦٧ الى ١٧٧ من كتاب حسن عبد الوهاب السابق .

سنة (١٩٣٥ م) . وقطر القبة ٢١ متراً وارتفاعها ٥٢ متراً عن مستوى أرضية المسجد . وهى محمولة على أربعة عقود كبيرة مرتكزة على أربعة دعائم مربعة يحوطها أربعة أنصاف قباب ثم نصف خامس يغطى بروز المحراب وذلك خلاف أربعة قباب أخرى صغيرة موجودة بأركان المسجد .

وقد اقتبس مهندس المسجد الزخارف الموجودة به من تلك الزخارف التركية التى شاع إستعمالها فى القرن الثامن عشر الميلادى وهى مكونة من أوراق نباتية وزهور ملونة وبعض الفواكه وعناقيد عنب وقد حليت زوايا القباب والعقود بلفظ الجلالة ومحمد رسول الله وأسماء الخلفاء الراشدين .

القبة فى العمارة السلجوقية

وجدت فى العمارة السلجوقية أضرحة تعلوها قباب وقد تطورت عمارتها حتى أصبح فوق القاعدة المربعة مثمن ورقبة تحمل القبة . ومن أمثلتها قبر السلطان سنجر[1] فى مدينة مرو ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ورقبته طويلة تعلوها القبة على شكل طاقية .

وقد تأثرت الأضرحة الهندية فى العصر البثانى[2] (وهو عصر الأسرات الاسلامية التركية الأصل والتى حكمت الهند قبل المغول الهند وهو نسبة إلى البثانيين أو الأفغان الذين استقروا فى شمال غرب الهند) بعمارة الأضرحة ذات القباب فى إيران . ومن أمثلة تلك الأضرحة مدفن تغلق شاه فى دهلى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) .

وهناك بعض مدارس سلجوقية فى آسيا الصغرى ومعظمها يجمع بين المدرسية وضريح منشئها ويحوى البعض قاعة ذات قبة .

(١) لوحة ٢٨٢ ، ٣١٠ من Pope : A Survey of Persian Art IV .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ص ٨٩ .

ومن أبدع المدارس السلجوقية فى الأناضول مدرسة صير جالى فى قونيه[1] سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٢ م ، وقوام هذه المدرسة ايوان ذو محراب يحف به قمتان لكل منهما قبة تقوم على مثمن فوق القاعدة المربعة ويكون الانتقال من القاعدة المربعة إلى المثمن بوساطة مثلثات من البناء ويطلق على القبة المستقلة فى الأناضول عادة اسم تربة وفى القيسارية توجد عدة أضرحة أهمها ضريح صيرجالى ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م) وعلى جعفر ٧٥٠هـ (١٣٤٩ هـ) والأمير على ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) ، وكلها مبنية من الحجر ومثمنة وسقفها هرمى الشكل عدا الأخير[2] .

وتظهر القباب فى مدرسة كوش (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ — ٤٠) ولضريح ذو شكل مثمن ومقام فى فناء المدرسة وضريح لاله باشا مثمن أيضاً وتاريخ إنشائه يرجع الى القرن الثامن الهجرى .

وفى أرمينية : أهم القباب المعروفة هى أضرحة الأخلاط الثلاثة ويرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثالث عشر وتربة وسطان[3] ٧٣٦ هـ (١٣٣٤—١٣٣٥م) .

وفي العراق : أغلب الأضرحة شكلها مضلع يعلوه قبة على شكل المقرنص وأهمها ضريح السيدة زبيدة (شكل ٢٠) بالقرب من بغداد وأضرحة النجمى والعصبية وامام دور وامام زادة طويل وغيرها . وطراز هذه القبة موجود فى قم[4] بايران .

ومن العمائر التى ترجع إلى العصر السلجوقى الجامع النورى فى الموصل (٥٤٣ — ٦٨ هـ) وقد احتفظت المساجد السلجوقية فى سوريا بالتصميم ذى

(١) هذه المدرسة مؤرخة فى دائرة المعارف الاسلامية — الملحق — ص ١٤٠ Sirdjerli Medrese بعام ٦٤١ هـ (١٢٤٣ — ٤٤ م)

(٢) راجع Albert Gabriel Moumenta Turcs d'Anatolie

(٣) راجع Bachmann, Kirchen und Moscheen, etc. وكذلك Diez Kunst. d. Isl. Volker reprod 156 ... & ... 118 ...

(٤) راجع Sarre- Herzfeld, archäol. Reise in Euphrat und Tigris, p. 100-2 & p. 20, 72-4 & o. l. art Mukarnas : E I Suppl., 1938, p. 165.

الايونات والصحن وظلت القباب وقفا على الأضرحة وكذلك كان الحال في آسيا الصغرى .

وقد استطاعت إيران أن تجمع بين تصميم المدارس ذات الصحن المستطيل واستخدام القباب في المساجد وانتقل هذا النظام الجديد في تشييد المساجد في كثير من الأقطار الاسلامية .

ومن أهم القباب التي ترجع الى العصر السلجوقي في إيران مسجد الجامع في مدينة أصفهان [1] (شكل ٢٢) ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) الذي بني في عصر السلطان السلجوقي الكبير أبو الفتح ملكشاه وقبتاه من العصر السلجوقي .

ومن أمثلة القباب في العصر السلجوقي أيضاً المسجد الجامع في قزوين [2] ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) وقبته مزخرفة بالطوب المطلي بالمينا والمسجد الجامع باردستان [3] ٥٥٣ — ٥٥ هـ (١١٥٨ — ٦٠ م) وقبته على مقرنصات وقبة ضريح في كرمان [4] من القرن الثالث عشر .

القبة في العمارة الإيرانية المغولية

يمتاز الطراز الايراني المغولي عامة بتشبعه بالأساليب الفنية الصينية التي غمرت ايران نفسها وماجاورها من البلدان التي تأثرت بفنونها .

وقد زادت عظمة الأضرحة ذات القباب عظمة وفخامة بزيادة مساحتها وارتفاعها كما هو الحال في ضريح السلطان الجايتو خدا بنده [5] في مدينة سلطانية (٧٠٩ — ١٣) (١٣٠٩ — ١٣ هـ) .

---

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الايرانية لوحة ٣ ، ٤ لوحات ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ (القبة الكبيرة) ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ (قبة القاعة الصغرى) من كتاب بوب

(٢) أنظر لوحة ص ٢٨٠ من كتاب بوب Pope A. Survey of P. A.

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٩ ، ٣١٩ — ٢٠ — ٢٦

(٤) المرجع السابق ص ٢٨١

(٥) أنظر ص ٣٨١ ، ٣٨٥ من كتاب Pope : A Survey of Persian Art IV وتخطيطه لوحة ٢٥ من كتاب الفنون الايرانية للدكتور زكي محمد حسن

وأما الأضرحة المنسوبة للطراز الايرانى التترى موجودة فى قرافة بسمرقند . وقد دفن بها أكثر أفراد الأسرة التيمورية . وأبدع هذه الأضرحة ضريح تيمورلنك نفسه (جور أمير)[1] ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) والقبة مضلعة فوق رقبة اسطوانية مزينة بشريط من الكتابة الكوفية بقوالب الطوب المطلى بالمينا كالطوب الذى يغطى أضلاع القبة نفسها .

وقد زادت المساجد في هذا العهد أناقة واتزاناً فى التصميم ، ولاسيا فى المسجد الجامع بأصفهان (لوحه ٢٢) .

وشاع فى عصر التيموريين بناء المساجد التى تعلوها قبة ضخمة ، ومن ذلك مسجد كليان [2] فى بخارى والجامع الأزرق[3] فى تبريز فى منتصف القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ويتوسطه قاعة كبرى عليها قبة وحولها قاعات أصغر حجما وعلى كل منها قبة أقل ارتفاعا وفى أحد جوانب القاعة الكبرى ضريح فوقه قبة ، وقد زين هذا المسجد بفسيفساء بديعة ملونة بالأزرق الناصع والأزرق الأدكن والأسمر والأخضر الأدكن كما تزينه فروع نباتية مذهبة . والقاعة الكبرى ذات القبة قد حلت محل الصحن يحف بها حنيات كبيرة مقبية وقاعات ذات قباب صغيرة .

ويمتاز هذا العصر فى تغطية القباب بالخزف والقاشانى المختلف الأنواع وكذا الأجر المطلى بالمينا .

وقد عنى الفنانون فى ذلك العصر باستخدام المقرنصات فى تزيين العمائر وفى انتقال القبة تذكر بما فعل زملاؤهم فى الطراز الأندلسى المغربى فى قصر الحمراء فى غرناطة إلا أنهم يمتازون عنهم بالوقار والاتزان .

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن — كتاب الفنون الايرانية لوحة ١٢ ولوحة رقم ٤١٩ من كتاب بوب السابق.

(٢) الدكتور زكى محمد حسن — فنون الاسلام — شكل ٧٠

(٣) ص ٤٥٣ من كتاب Pope : A Survey of Persian Art IV

ومن أمثلة القباب فى العصر الإيرانى المغولى ضريح [1] بابا قاسم بأصفهان (شكل ٢٢) ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وقبة المسجد الجامع فى ڤرامين [2] ٧٢٣ — ٦هـ (١٣٢٥ — ٦م) وقبة ضريح جوهرشاد [3] فى هرات قبل ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م).

القبة فى الطراز الصفوى

مؤسس الأسرة الصفوية فى إيران هو الشاه اسماعيل الصفوى سنة ٩٠٧ هـ (١٥٠٢م). وذلك نسبة الى الشيخ صفى الدين أحد الأولياء فى مدينة أردبيل وقد كان المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى للدولة الايرانية فى ذلك العصر.

وكانت العناية كبيرة ببناء الأضرحة في العصر الصفوى فتعددت أشكالها وذاع في غرب إيران نوع قوامه ردهة يليها بناء طويل يعلوه قبة.

ومن أبدع العمائر التى تنسب للطراز الصفوى ضريح وجامع الشيخ صفى الدين بأردبيل، وقد تم فى منتصف القرن ١٧ م. وبجوار الضريح بناء ذو قبة فوق عنق منخفض وهو قصر الصينى أو البورسلين (چينى خانه) [4] (قرن ١٧م). كانت تحفظ به مجموعة من الخزف الذى يفخر بها الضريح. وكذلك يمتاز ضريح قدم جاه بمدينة نيسابور (القرن ١١ هـ/ ١٧ م) بقبته الجميلة المزينة بالطوب الملون المطلى بالمينا ورقبته العالية المزخرفة (شكل ٢٣).

ومن أفخم المساجد الصفوية مسجد الشاه فى أصفهان [5]. وتمتاز قبته بزخرفتها بالفسيفساء الجميلة ذات الألوان الجذابة ورسوم الزهور والفروع النباتية البديعة أكسبتها سحراً وجاذبية. ومنها أيضاً مسجد فى مدينة قم [6] بايران.

(١) أنظر پوب: ص ٣٠٣ Pope: A Survey of Persian Art.
(٢) المرجع السابق ص ٤٠٥ — ٤١١
(٣) المرجع السابق
(٤) راجع فنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن ص ١٢٦
(٥) أنظر لوحات ١٩، ٢٠، ٢١ من كتاب الفنون الايرانية للدكتور زكى محمد حسن.
(٦) شكل ٨٣ ص ١٢٦، فنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن.

وأعظم المدارس الايرانية فى العصر الصفوى مدرسة مادر شاه فى أصفهان[1] ١١٢٦ هـ (١٧١٤م) (شكل ٢١) وقد شيدت فى عصر الشاه سلطان حسين. وإيوان القبلة عبارة عن قاعة كبيرة فوقها قبة عليها زخارف نباتية من الفسيفساء الملونة وقطاع القبة الرأسى على شكل العقد الفارسى.

وقد كان معظم القباب فى إيران بيضية أو بصلية الشكل، وتغطى بلوحات من القاشانى البراق وقباب سمرقند ذات طابع خاص فى طراز القبة فهى تمتاز برقبة طويلة وقد عرفت القباب السمرقندية فى مصر ونرى أمثلتها واضحة فى قبة مدرسة صرغتمش وقبة يونس الدوادار.

القبة فى الطراز الهندى المغولى

استطاع الامبراطور بابر حفيد تيمور لنك أن يؤسس امبراطورية المغول الهندية التى حكمت الهند بين ٩٣٣ — ١٢٧٥ هـ، (١٥٢٦ — ١٨٥٧ م).

وقد تأثرت الهند الاسلامية بالطرز الايرانية تأثراً كبيراً وقد احتفظت العمائر فى الهند بين (القرنين ١٦ — ١٨ م) بظواهر معمارية خاصة وتطورت تطوراً مستقلا عن العمارة الايرانية وكان عنق القبة منخفضاً فى معظم الأحيان وكانت القبة بيضية أو على هيئة اللوتس.

وامتازت العمارة الهندية الاسلامية بالأضرحة الضخمة وأشهرها تاج محل[2] (شكل ٢٥) الذى شيده الامبراطور شاه جهان فى أجرا لزوجته ممتاز محل بين عامى ١٠٣٩ — ١٠٥٨ هـ (١٦٣٠ — ١٦٤٨ م) وشكل القبة والتفاصيل المعمارية والزخرفية داخل الضريح عليها الطابع الهندى الواضح.

ومن الأضرحة الهندية المشهورة ضريح محمود عادل شاه فى بيجابور ١٠٧٠هـ (١٦٦٠م) وهو ذات قبة ضخمة يبلغ قطرها نحو ثمانية وثلاثين متراً.

ومن المساجد الهندية المشهورة فى العمارة الاسلامية المسجد الجامع[3] (شكل ٢٤) فى دهلى بالهند من القرن ١١ هـ (١٧ م).

(١) شكل ٢٦ لوحة ٢ من كتاب الفنون الايرانية للدكتور زكى محمد حسن.
(٢) راجع: الدكتور زكى محمد حسن: فنون الاسلام شكل ٨٥ ص ١٣٠ ولوحة Glück & Diez: Die Kunst des Islam. Tafel XVII
(٣) راجع: الدكتور زكى محمد حسن: فنون الاسلام شكل ١٨ ص ١٥

ملخص البحث

١ — تعتبر قبه الصخرة ٧٢ ﻫ (٦٩١ — ٢ م) أقدم أثر إسلامى موجود فى تاريخ العمارة الاسلامية — والقبة الأصلية — سقطت فى ٤٠٧ ﻫ والحالية ترجع الى ٤١٣ ﻫ : وقد أقيمت على قاعدة مثمنة ولها رقبة مستديرة بها فتحات .

٢ — ظهرت القبة المحمولة على أربعة مثلثات كروية فى العصر الأموى فى قصير عمره الذى يقع على نحو ٥٠ ميلا شرق عمان ويعتبر أول مثال للقبة من هذا النوع قبل الاسلام كان موجوداً فى ضريح من القرن الثانى الميلادى يعرف باسم قصر النويجس بالقرب من عمان . والمثل الثانى كانت فى حمامات جرش من القرن الثالث الميلادى .

٣ — كانت طريقة انتقال القبة فى العصر العباسى بوساطة مثلثات مجوفة أو أجزاء من مخروط تعرف باسم أو سكونشات وهى عبارة عن تجويفات مخروطية توضع فى الأركان رأسها من أسفل فى الركن وقاعدتها من أعلى وهى طريقة أخذت عن إيران (ساسانية الأصل) كما فى فيروزباد وسروستان .

٤ — ظهرت القبة ذات القنوات والمحمولة على بلاطات أو كوابيل أفقية فى بعض الآثار العباسية كما فى قصر الأخيضر العباسى .

٥ — ظهرت طريقة مبتكرة للاسكونشات على شكل محارة فى مسجد القيروان بشمال إفريقية ٢٤٨ ﻫ (٨٦٢ — ٣ م) فى عهد ابو ابراهيم أحمد ابن الأغلب وعرفت باسم وكان شكل القبة الخارجى على هيئة (السنطاوى) وقد أخذ شكلها عن كنيسة مجاورة فى مدينة وكانت تعرف بدار القوص .

٦ — وجدت قبة فوق المربع الذى يتقدم المحراب فى المسجد الأقصى ببيت المقدس فى عهد الخليفة المهدى ١٦٣ ﻫ (٧٨٠ م) .

٧ — تعتبر قبة الصليبية فى سامرا أقدم ضريح في الاسلام ووجد به مقابر ثلاثة خلفاء عباسيين هم المنتصر والمعتز والمهتدى .

٨ — وجدت قبة في كل من ركنى رواق القبلة فى المساجد الفاطمية لأول مرة فى جامعى الأزهر والحاكم .

٩ — ترجع أهمية أضرحة السبع بنات الموجودة قبلى خرائب الفسطاط — الى الغرب من ضريح الامام الليث — الى أنها من أقدم الأمثلة الموجودة للأضرحة فى العمارة الاسلامية .

١٠ — وجدت أول نوع من القباب المتحدة التكوين مع المثلثات الكروية أو فى مصر لأول مرة فى مدخلى بوابتى أبى الفتوح وزويلة وهما من أبواب أسوار القاهرة الفاطمية التى بنيت فى عهد أمير الجيوش بدر الجمالى وقد بناها أخوان أرمينيان من أرفا وقد ظهر هذا النوع من القباب بعد ذلك فى جامع الأقمر .

١١ — تعتبر قبتا ضريحى محمد الجعفرى والسيدة عاتقة المجاورتان لمشهد السيدة رقية الحلقة الأولى فى تطور القبة إلى النوع المعروف بالقباب المحمولة على المقرنصات أو الدلايات فكانت منطقة الانتقال مكونة من حطتين من المحاريب أو المقرنصات السفلية منها مكونة من ثلاثة والعلوية بها مقرنص واحد .

١٢ — وجدت العشاريات (المراكب الصغيرة) فوق الأهلة بأعلى قبة الامام الشافعى وغيرها وقد شوهدت قبل ذلك تعلو هلال منارة الجامع الطولونى وبقيت بها إلى أن سقطت سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) .

١٣ — زادت مساحة القبة التى فوق المحراب فى عصر دولة المماليك البحرية وأصبحت أكبر حجما وتغطى مساحة كبيرة حوالى ثلاث بلاطات مربعة كما فى مسجد بيبرس بالظاهر ١٢٦٩م والناصر محمد بالقلعة (١٣١٨ — ٣٥م)

١٤ — ألحق بالمدارس ذات المذاهب الأربعة والصليبية التخطيط ضريح لمنشىء المدرسة يعلوه قبة على مقرنصات كما هو الحال فى مدرسة السلطان حسن (١٣٥٦ — ٦٣ م) ومدرسة برقوق بالنحاسين .

١٥ — تعتبر قبة ضريح المنصور قلاوون بشارع المعز لدين الله بالنحاسين فريدة في نوعها وهي مقامة على قاعدة مثمنة مكونة من أربعة دعائم مربعة وأربعة أعمدة وهي مرتبة بوضع دعامتين ثم عمودين وهكذا ، ويظهر في التصميم التأثير السوري على عمارة القبة .

١٦ — تمتاز بعض قباب عصر المماليك البحرية بوجود الفسيفساء الخزفية الملونة فوق رقبة أو عنق القبة: كما هو الحال في ضريح الأميرة طوغاي (١٣٤٨م) بالقاهرة .

١٧ — يلاحظ صغر حجم القبة في عهد دولة المماليك الشراكسة مع الاسراف في زخارفها الخارجية : وهذا واضح جلي في مجموعة القباب الموجودة باسم قبور الخلفاء بالصحراء ، والحق أنها أضرحة المماليك ، وأشهر هذه القباب برقوق وبارسباي وقايتباي .

١٨ — تأثرت القبة في العصر التركي في مصر بالتأثير البيزنطي الموجود في العمارة في القسطنطينية وذلك على أثر استيلاء السلطان سليم على مصر وسوريا (سنة ١٥١٦ — ١٧ م) ومن أهم المساجد التركية في القاهرة مسجد سليمان باشا (١٥٢٨ م) في القلعة بالقاهرة ومسجد سنان باشا في بولاق (١٥٧٣ م) ومسجد الملكة صفية بالداودية ، ومسجد محمد بك أبو الذهب (١١٨٨ — ١٧٧٤) بميدان الجامع الأزهر .

١٩ — ظهر نوع جديد من المساجد يعرف بالتكية على أثر ظهور نظام الدراويش ومن أمثلتها تكية السليمانية بدمشق وهو مسجد محاط بغرف للدراويش .

٢٠ — تعتبر أهم قباب مصر في العصر الحديث قبة مسجد محمد على باشا الكبير في القلعة وهي محمولة على أربعة مثلثات كروية على نمط طراز المساجد التركية في القسطنطينية .

٢١ — وجدت في العمارة السلجوقية أضرحة تعلوها قباب . ومن أمثلتها قبر السلطان سنجر في مدينة مرو (منتصف القرن الثاني من القرن السادس

الهجرى أو الثانى عشر الميلادى) . كما وجدت المدارس السلجوقية وتغطى قاعات بها قباب محمولة على اسكونشات كما فى قونيه فى مدرسة صبرجالى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . ومن أهم القباب التى ترجع إلى العصر السلجوقى فى إيران قبة مسجد الجامع فى مدينة أصفهان ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) .

٢٢ — من أهم الأضرحة المنسوبة للطراز الايرانى التترى ضريح تيمورلنك (جور أمير) فى سمرقند ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) والقبة مضلعة فوق رقبة اسطوانية مزينة بشريط من الكتابة الكوفية بقوالب الطوب المطلى بالمينا كالطوب الذى يغطى أضلاع القبة نفسها . وقباب سمرقند ذات طابع خاص فهى تمتاز برقبة طويلة وقد عرفت القباب السمرقندية فى مصر ونرى أمثلتها واضحة فى مدرسة صرغتمش وقبة يونس الدوادار .

٢٣ — امتازت بعض قباب العصر الايرانى المغولى بتغشيتها بالفسيفساء البديعة الملونة والتى تتخللها الفروع النباتية المذهبة . والقاشانى المختلف الأنواع وكذا الآجر المطلى بالمينا واستمر التحسن فى التجميل حتى العصر الصفوى فظهرت القبة محلاة بالفسيفساء المتعددة الألوان مما أكسبها سحراً وجاذبية كما فى قبة مدرسة مادرشاه فى أصفهان ١١٢٦ هـ (١٧١٤ م) .

٢٤ — معظم القباب فى إيران بيضية أو بصلية الشكل إلا القباب السمرقندية فتمتاز برقبة طويلة .

٢٥ — امتازت العمارة الهندية المغولية ببناء الأضرحة وأشهرها تاج محل الذى شيده الامبراطور شاه جهان فى أجرا ١٠٣٩ — ١٠٥٨ هـ (١٦٣٠ — ١٦٤٨ م) . وشكل القبة ذو طابع هندى واضح فعنقها منخفض غالباً والقبة بيضية الشكل أو على هيئة اللوتس .

المراجع العربية

الجبرتى : عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبع بولاق سنة ١٢٩٧

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ١٩٤٦

الدكتور زكى محمد حسن : فى الفنون الاسلامية (من مطبوعات اتحاد أساتذة الرسم) القاهرة سنة ١٩٣٨

: تراث الاسلام — الجزء الثانى فى الفنون الفرعية ، ترجمه إلى العربية وشرحه الدكتور زكى محمد حسن (مطبوعات لجنة الجامعيين لنشر العلم ، فى لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦)

: فنون الاسلام ١٩٤٨

: الفنون الايرانية ، مطبعة دار الكتب ١٩٤٠

كمال الدين سامح : آثار الأمير عبد الرحمن كتخدا المعارية فى القاهرة ، رسالة دكتوراه للمؤلف سنة ١٩٤٧

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، الخطط المقريزية — طبعة مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٥ ه.

BIBLIOGRAPHY

ALBERT GABRIEL : Monuments Turcs d'Anatolie

BACHMANN : Kirchen und Moscheen, etc.

BERCHEM VAN : (DIEZ, Churasanische Baudenkmäler).

Notes d'Archéologie arabe dans TA, 1891.

Tirage à part. Une Mosquée du temps des Fatimides dans M.I.F.A.O., tome II.

A brief chronology. B.I.F.A.O., tome XVI.

BRIGGS, M. S.: Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine (Oxford 1924).

CRESWELL, K. A. C.: Early Muslim Architecture (2 vols.). Oxford 1932-40 and Essay on the Muslim Period (Architecture) in Ross, E. D. Sir: The Art of Egypt through the Ages.

DEVONSHIRE R. L. : Some Cairo Mosques and their Founders, London 1921.

E I = ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM : Supplément, Leiden (Holland) 1938.

E I : Vol. II, E.K., Leyden (Holland) 1927.

ENGEL, AHLENSTIEL : Arabische Kunst. Breslau 1923.

FLETCHER, B. Sir : A History of Architecture, London 1905.

GLÜCK A DIEZ : Die Kunst des Islam, Vol. II, Berlin 1925.

HAUTECŒUR et WIET : Les Mosquées du Caire, Paris 1932.

H. BASSET et E. LÉVI PROVENÇAL : Chella, une nécropole mérinide, dans Hespéris, 1922.

HERZFELD, E. : Erster Bericht...Von Samarra, Berlin. 1912.

LE STRANGE : P.E.F.Q.St., 1887.

MARÇAIS, GEORGES : L'Art de l'Islam, Paris 1946.

MARÇAIS, GEORGES : Manuel d'Art Musulman, 2 vols. (Paris 1926)

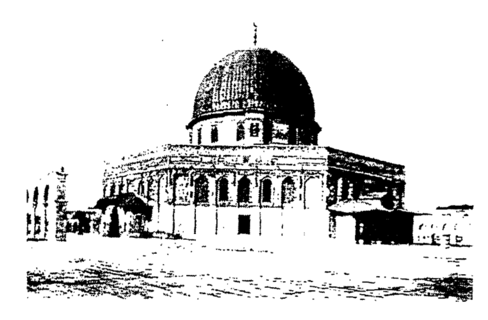
MUSIL, ALOIS : Ḳuseir 'Amra (2 vols.), Wien 1907.

POPE A. U. : A Survey of Persian Art (Oxford, 1938).

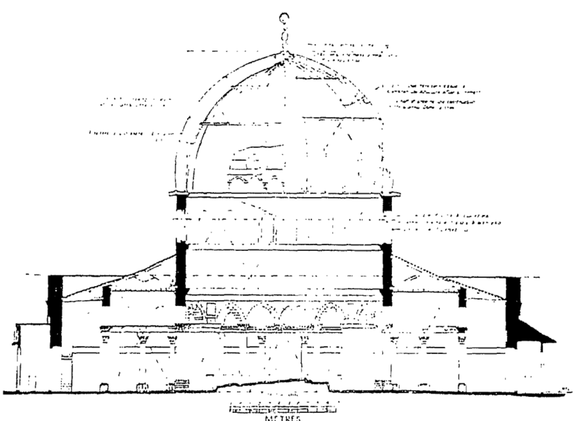
ROSS E., DENISON : The Art of Egypt through the Ages.

SARRE HERZFELD : Arch. Reise im Euphrat-u. Tigris gebiet, Berlin 1911.

WETZEL : Islamische Grabbauten in Indien.

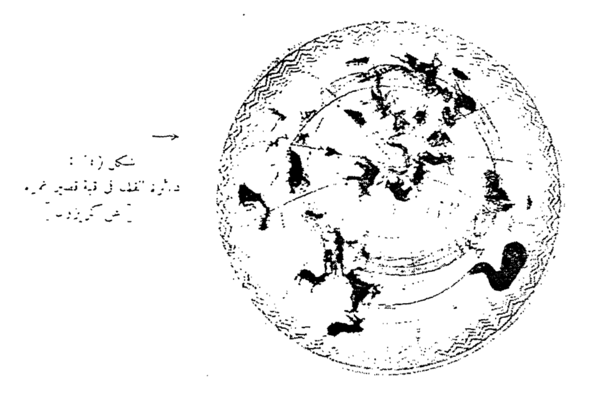


شكل (١) : منظر قبة الصخرة من الخارج [عن كريزول]



شكل (٢) : قطاع رأسى فى قبة الصخرة [عن كريزول]

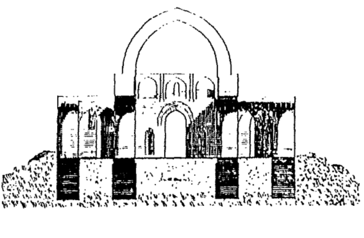
شكل (٣) :
قطاع أفقي لقبة الصخرة
[عن كريزول]

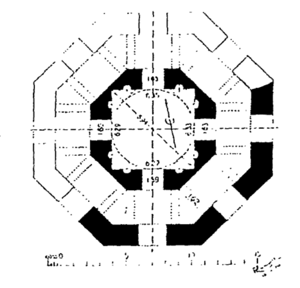


شكل (٤) :
دائرة الفلك في قبة قصير عمرة
[عن كريزول]

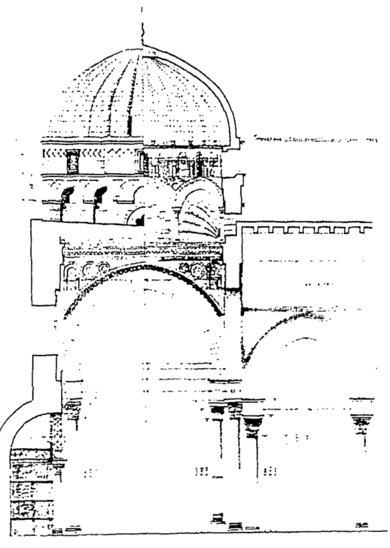


شكل (٥) :
القبة فى الغرفة الساخنة
بقصير عمره
[عن موزيل]

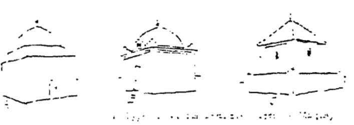




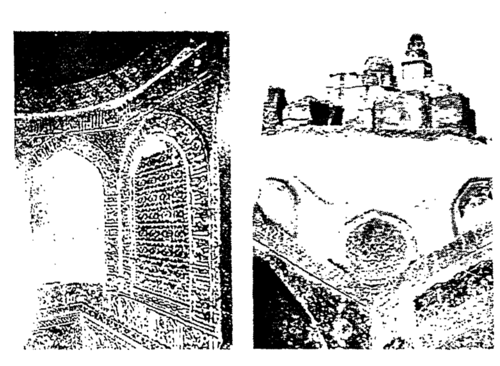
شكل (٦) :
قبة الصليبية فى سامرا
[عن كريزول]



شكل (٧) : قبة فوق المحراب بمسجد القيروان
[عن كريزول]

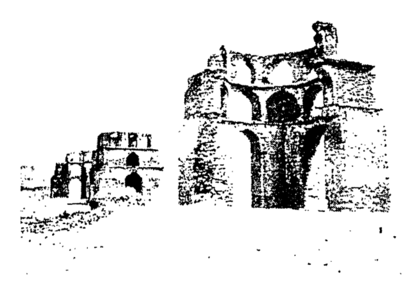


شكل (٨) : أشكال القبة في بلاد المغرب
[عن مرسيه]



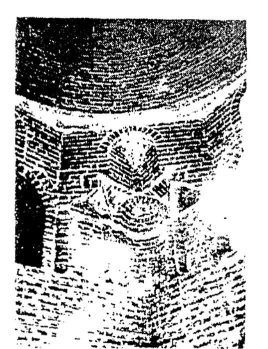
شكل (٩) : إلى اليسار — طريقة انتقال القبة الفاطمية بالجامع الأزهر
إلى اليمين (فوق — منظر عام لجامع الجيوشى
(تحت) — القبة فوق محراب الجيوشى

[عن ڤييت]

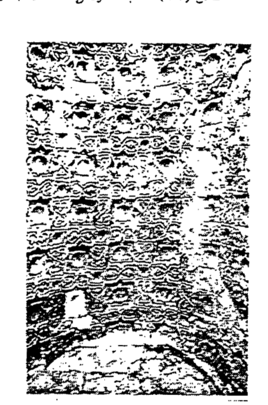


شكل (١٠) : أضرحة السبع بنات

[عن ڤييت]




شكل (١١) : قبة ضريحي عاتقة والجعفري [عن ثبيت]

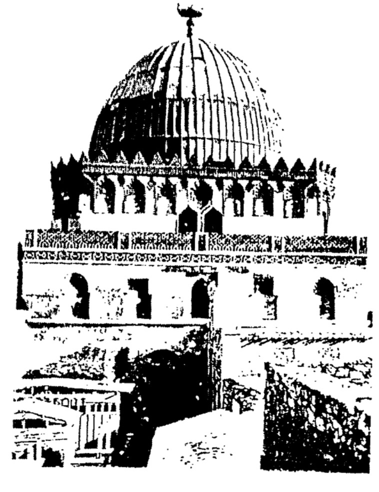
شكل (١٢) : برج الظفر

في اليسار : من أعلى قطاع رأسي في قبة برج الظفر وأسفله قطاع أفقي في منطقة المحولة المستديرة وأسفل منه رسم قطاع أفقي في قاعدة المثمنة للقبة

في اليمين : شكل السقف في أحد ممرات برج الظفر المغطى بقبو به زخرف حجرية جميلة [تصوير حسن عبد الوهاب]



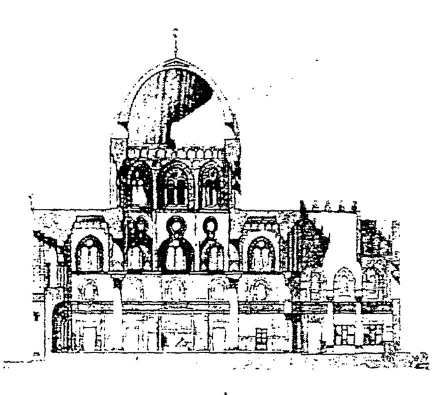
شكل (١٣) : قبة الامام الشافعي
مقرنص القبة من الداخل
[عن فييت]



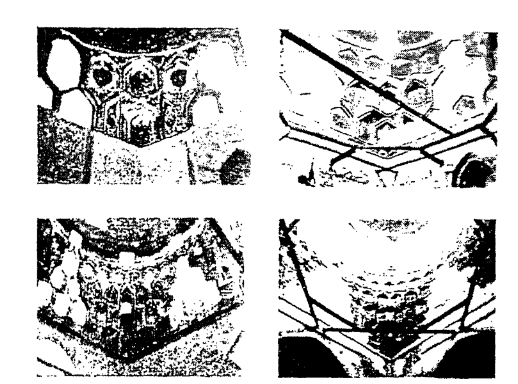
شكل (١٤) : قبة الامام الشافعي من الخارج
[عن كريزول]



شكل (١٥) : ضريح المنصور قلاوون (٦٨٣ـ٦٨٤هـ) (١٢٨٤ـ١٢٨٥م)



شكل (١٦) : قطاع رأسي في قبة المنصور قلاوون



[عن كريزول]

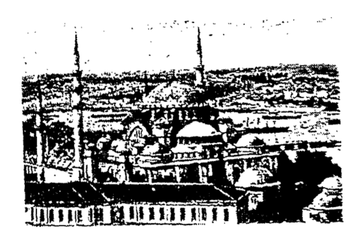
شكل (١٧) : تطور المقرنص

فوق (اليسار) : قبة ضريح الخلفاء العباسيين (١٢٤٢) [صفين من المقرنص]

(اليمين) : قبة ضريح السلطان صالح نجم الدين أيوب (١٢٥٠) [ثلاثة صفوف]

تحت (اليسار) : قبة ضريح السلطان بيبرس الجاشنكير (١٣٠٦–١٣٠٩) [٤ صفوف]

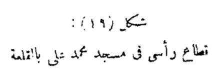
(اليمين) : قبة ضريح الأمير صرغتمش ١٣٥٦ [٥ صفوف]



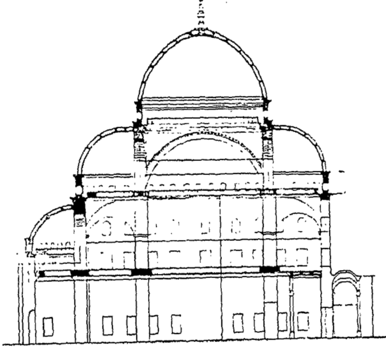
شكل (١٨) :
مسجد السليمانية في مدينة استانبول



مسجد السلطان احمد في استانبول

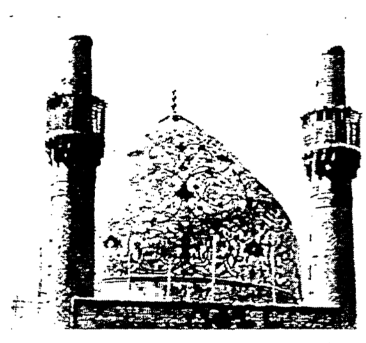


شكل (١٩) :
قطاع رأسي في مسجد محمد على بالقلعة

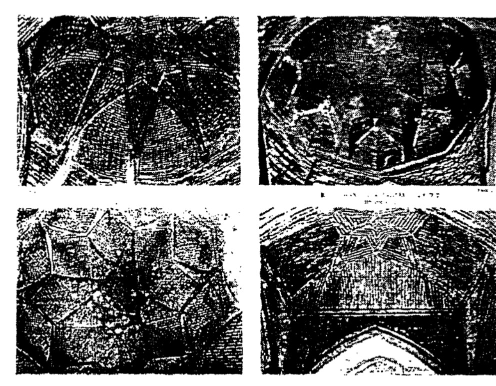




شكل (٢٠) :
ضريح زبيدة فى بغداد



شكل (٢١) :
قبة مدرسة مادرشاه في أصفهان
مؤرخة سنة ١١٢٦هـ ـ ١٧١٤م
[عن بوب]



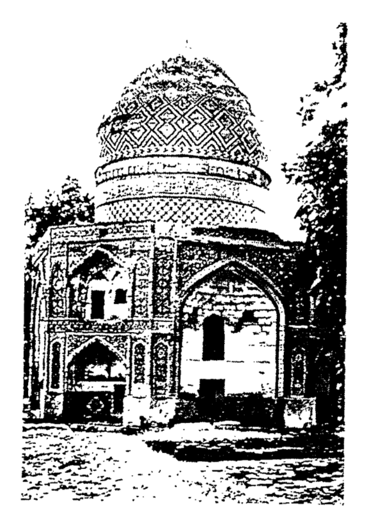
شكل (٢٢)

(فوق) إلى اليسار : المسجد الجامع فى أصفهان

إلى اليمين : المسجد الجامع فى أصفهان

(تحت) إلى اليسار : ضريح بابا قاسم بأصفهان ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م)

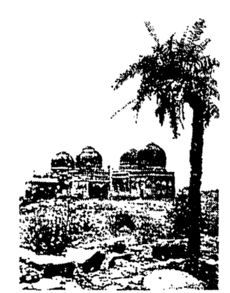
إلى اليمين : المسجد الجامع فى أصفهان

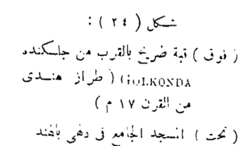


شكل (٢٣) :

ضريح قدمجاه بمدينة نيسابور من القرن ١١ هـ – ١٧ م

[عن بوب]



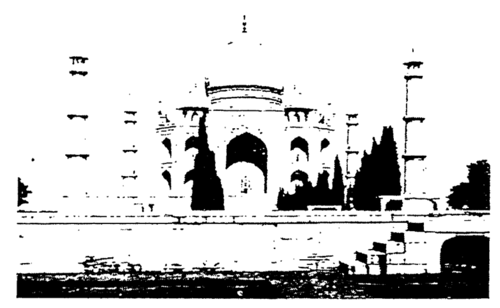


شكل (٢٤) :

(فوق) قبة ضريح بالقرب من جلكنده GOLKONDA (طراز هندي من القرن ١٧ م)

(تحت) المسجد الجامع في دهلي بالهند





شكل (٢٥): منظر تاج محل بمدينة أجرا في الهند [عن ديز]

الدخيل فى اللغــة العربية

بقــلم

الدكتور فؤاد حسنين على

(ل)

(لاونده) مياه عطرية .
الايطالية (lavanda) (لفند) > العربية :

(لبد) كل شعر أو صوف :
الآرامية : ليدا : > العربية :

(لبيس) سمك نيلى
المصرية القديمة :

(لتر) مكيال للسوائل :
الفرنسية (litre) > العربية :

(لجام) مايجعل فى فم الفرس من الحديد مع الحكمتين والعذارين والسير :
الفارسية : لجام : > العربية :

(لسته) قائمة :
الايطالية (lista) > العربية .

(لسطر) تلميع أثاثات المنزل الخشبية وتنظيفها :
الايطالية (lustro) : لسترو : > العربية :

(لص) السارق :
اليونانيه(ληστής): لستس : > العربية

(لغم) مواد متفجرة :

اليونانية (λαγών) : لجون : > التركية : > العربية

(لفت) نوع من الخضر :

الآرامية : لفتا :

(لمبه أو لمضه) مصباح :

الايطالية (lampe) أو (lampade) > العربية ويلاحظ أن صيغة الجمع هى : لمض : أى من الصيغة الثانية أعنى (لمضه) .

(لنجيرى) الملابس الداخلية :

الفرنسية (lingerie) أى تجارة الأقمشة الكتانية أو القطنية أو المكان الذى تحفظ فيه > العربية :

(لنش) زورق .

الايطالية (lancia) > العربية :

(لوباء : لوبيا : لوبياه) نبت عريض يمتد على الأرض وله حب أبيض وأسود يؤكل مطبوخاً :

الآرامية : لوبيا : > العربية :

(لوتريا) أوراق اليانصيب :

الايطالية (lotteria) > العربية :

(لوج) مكان خاص فى دور التمثيل ويكاد يشبه غرفة خاصة :

الفرنسية (loge) > العربية :

(لورد) لقب انجليزى ومعناه سيد :

الانجليزية (lord) > العربية .

(لوز) ثمار شجرة تعرف بهذا الاسم وهو مغطى بقشرة سميكة .

الآرامية : لوزا : > العربية :

(لوكنده) نزل :
الايطالية (locanda) > العربية :
(لوماق) سجن :
التركية : لوماق : > العربية :
(لومباجو) مرض يصيب العضلات .
الانجليزية : (lumbago) > : العربية .
(ليره) قطعة نقود مستعملة غالباً فى إيطاليا .
الايطالية : (lira) .
(ليمون) ثمار شجرة تعرف بنفس الاسم وهى من أشجار الموالح .
الفارسية : ليمون : > العربية .
(ليمونادة) أو (ليموناته) عصير الليمون المحلى بالسكر .
الايطالية : (limonata) > : العربية .

(م)

(مائدة) خوان عليه الطعام .
الحبشية : ማእድ مأد : > العربية .
(ماخور) حانوت لتعاطى الخمور أو الحصول عليها .
الفارسية : ماخور : > العربية .
(مادة) محصول علمى أو أدبى أو موضوع
الفارسية : مادة : > العربية .
(مارس) الشهر الثالث من أشهر السنة الشمسية
الفرنسية : (mars) : مَرْسْ : > العربية .
(مارستان) أو (بيمارستان) مستشفى الأمراض العقلية .

فارسى بمعنى مستشفى < العربية .

(ماسورة) قصبة .

الفارسية : < العربية .

ماكينة : آلة ميكانيكية .

الايطالية : (macchina) : < العربية .

(مأن) خشبة فى رأسها حديدة تثار بها الأرض .

الآرامية : مانا : < العربية .

(ماندرين) الفاكهة المعروفة باسم يوسف افندى .

الايطالية: (mandarino) مندرينو :

(ماندولين) آلة موسيقية وترية .

الايطالية : (mandolino) مندولينو .

(مانوفلا) آلة لتحريك السيارة .

الايطالية : (manovella): < العربية .

(ماهية) مرتب الموظف .

الفارسية ماه : أى شهر < : العربية .

(متر) مقياس للاطوال .

اليونانية : (μέτρον) مترون < : الفرنسية : (metre) < : العربية .

(مجان) بدون مقابل .

العبرية : [illegible] مجان < : العربية .

(مجوس) عباد النار .

اليونانية : (μάγος) ماجوس < : العربية .

(مدالية) نيشان .

الفرنسية : (medaille) > : العربية .

(مدام) سيدة .

الفرنسية :(madame) > : العربية .

(مداموزيل) آنسة .

الفرنسية :(mademoiselle) > : العربية .

(مدى) مكيال للشام ومصر يسع تسعة عشر صاعاً وهو غير المد .

اليونانية : (μοδιος) : موديوس : > الآرامية : موديا : > العربية .

(مدينة) المصر الجامع .

الآرامية : مدينتا : (مديتا) > العربية .

(مر) مسحاة وقيل مقبضها .

الآرامية : مرا : > العربية :

(مرج) موضع ترعى فيه الدواب .

الفارسية : مرغ : > الآرامية : مرجا : > العربية .

(مرجان) حجر كريم .

الآرامية : مرجنيثا : > العربية .

(مرط) كساء من صوف أو خز .

الآرامية : مرطا : > العربية .

(مرعز) الزغب الذى تحت شعر العنز .

الآرامية . مرعز : > العربية :

(مركه) علامة تجارية .

الايطالية (marca) > العربية .

(مرماحوز) ريحان له زهر أغبر إلى الخضرة .

الآرامية : مرماهوز : > العربية .

(مرمر) نوع من الحجر .

اليونانية (μάρμαρος) : مرمروس :

(مرمم) ضرب من العقاقير .

التركية :

(مريسي) رياح جنوبية .

المصرية القديمة :

(مريق) حب العصفر .

الآرامية : موريقا : > العربية .

(مز) نعل يلبس في المنزل .

التركية (mest) : مست : > العربية .

(مستر) لقب مدني انجليزي .

الانجليزية (mister) وهي صيغة أخرى لكلمة (muster) مستر :
والصيغة الأولى هي التي دخلت العربية .

(مسطارين) أداة للبناء .

اليونانية (μουστριον) مستريون : > العربية .

(مسمار) وتد من حديد يشد به .

عبري : مسمار מַסְמֵר : > العربية .

(مسيو) لقب مدني فرنسي .

الفرنسية (monsieur) : > العربية .

(مشارة) البقعة التي تزرع .

الآرامية : مشرتا : > العربية .

(مشكوة) كوة أو نافذة .

الحبشية : መስኮት مسكوة أو : መሥኮት . مُشكوة .

(مصحف) الجامع للصحف المكتوبة .

الحبشية : መጽሐፍ مَصْحَفْ

(مصطكى) مادة صمغية تستخدم فى البخور ويطلق هذا اللفظ أيضا على الشجرة التى تخرجها .

الآرامية : موسطكة : > العربية .

(مطران) رئيس الكهنة .

الآرامية : ميطرن : > العربية .

(مغناطيس) مادة جاذبة .

اليونانية (μαγνητις) : مغنيتيس > العربية :

(مقصدار) الصانع الذى يتولى تفصيل الملابس .

صيغة تركية من مقص + دار وكلمة دار فى التركية تدل على : رئيس .

(مكرونة) طعام من الدقيق .

الايطالية (maccarone) : > العربية .

(مكس) الأموال التى يدفعها التاجر كضريبة للدولة .

الآرامية : مكسا : > العربية :

(مكوك) أداة من أدوات الغزل والنسيج .

الآرامية : مكوكا : > العربية .

(ملاح) نوتى .

الآرامية : ملحا : > العربية .

(ملاريا) حمى

الايطالية : (malaria) :

(ملاط) طين يجعل بين سافى البناء ويملط به الحائط .

الآرامية : ملطا : > العربية :

(ملكوت) عز وسلطان .

الآرامية: ملكوتا: > العربية:

-: (مليم) قطعة من النقود مستخدمة فى مصر وهى وحدة من ألف من الجنيه المصرى .

الفرنسية (millième) : أى جزء من ألف > العربية :

(مباغ) أو (بماغ) رباط للرقبة .

التركية (bojun bâgi) : بويون باغى : > العربية .

(منا) ميزان يوزن به :

الآرامية : منيا : > العربية :

(مناورة) تدريب أو تظاهر :

الفرنسية (manœuvre) منوفر : > العربية :

(مناويشى) لون البنفسج :

الفارسية: بنفشه : > التركية: (benefše): أو (menevše) : > العربية .

(منتو) معطف :

الايطالية (manto) :

(منجرية) طعام :

الايطالية (mangiare) منجيارى : > العربية :

(منجل) آلة حديد عكفاء يقضب بها الزرع وغيره .

الآرامية : مجلا : > العربية .

(منجنون) دولاب .

اليونانية : (μάγγανον) : منجنون : > الآرامية : منجنونا : أى آلة ميكانيكية .

(منجنيق) آلة ترمى بها الحجارة .

اليونانية (μαγγανιχα) : منجنيكا : > الآرامية : منجنيقا : > العربية :

(مندل) وسيلة يلجأ إليها بعض المدعين كشف الأسرار .
الهندية .

(منديل) نسيج يتمسح به العرق .

استعارته العربية وغيرها من اللغات السامية كالحبشية مثلا من اللاتينية (mantele) : منتيل : واللفظ مركب من :(manus) مانوس : أى : يد : ومن : (tela) تيلا : أى : نسيج : ومعناها كاملا قطعة النسيج التى كانت تستخدم لتجفيف اليدين بعد الأكل أو توضع على الصدر عند الجلوس على مائدة الطعام .

ولعل اللغات السامية هى الوحيدة التى استخدمت هذه الكلمة فى معنى يقرب من معناها الأصلى . وذلك لأن كثيراً من اللغات الهندية الأوربية التى استعارتها أطلقتها على المعطف كما هو مشاهد في الألمانية (Mantel) : منتل : والانجليزية : (mantle) : منتل : والفرنسية : (manteau) منتو :

كما تستعمله الاسبانية للدلالة على غطاء الرأس عند النساء (mantilla) : منتيلا : كما هو الحال فى العربية المصرية .

(منّ) كيل أو ميزان .

الآرامية :منيا : > العربية .

(منوال) خشبة الحائك أو الحائك نفسه .

(أنظر مادة — نول) .

(مهرجان) احتفال .

الفارسية :

(موبيليا) أثاث المنزل .

الايطالية (mobiglia) > العربية .

(موتان) الموت أو الوباء .

الآرامية : موتنا : > العربية .

(موسيقى) مجموعات من الاصوات المحببة إلى الأذن .

اليونانية (Mousikos) : موزيكوس : نسبة إلى (Muses) إحدى آلهات اليونان اللواتى كن يهيمن على الفنون والآداب .

(موز) نوع من الفاكهة .

الهندية :

(موتور) محرك الماكينة وما إليها .

الانجليزية (motor) > العربية .

(موق) ما يلبس فوق الخف .

الآراميه : موقا : > العربية .

(ميل) مسافة من الارض طولها

اليونانية (μιλιον) : ميليون : > الآرامية : ميلا : > العربية .

(ن)

(ناجود) كل إناء يجعل فيه الشراب من جفنة وغيرها .

الآرامية : نجوداً : > العربية .

(نارجيلة) جهاز للتدخين .

الهندية : ومعناها الأصلى : جوز الهند : > الآرامية : نارجيل . > العربية :

(ناطور) حافظ الكرم .

الآرامية : نطورا : > العربية .

(ناعورة) ساقية .

الآرمية : نعورا : > العربية.

(ناقوس) مضراب النصارى الذى يضربونه لأوقات الصلاة .
الآرامية : نقوشا (آلة موسيقية) > العربية .

(ناصرة) مصيدة .
الآرامية : نمرتا : > العربية .

(ناموس) شريعة .
اليونانية (νομος) : نمس : > الأرامية : نموسا : > العربية .

(ناووس) مقبرة .
اليونانية (ναος) : ناوس : > الآرامية : نوسا : العربية .

(نبج) بردى يجعل بين لوحين من ألواح السفينة .
الآرامية : نبجا : أى عشب > العربية .

(نبراس) مصباح
الآرامية : نبرشتا : > العربية :

(نبق) نبق الكتاب سطره بمعنى نمق
الفارسية : نامك : > الآرامية : نمقا : > العربية

(نجار) الذى ينجر الخشب .
الآرامية : نجرا : > العربية .

(نجاشى) : > حاكم الحبش .
الحبشية (جعزية) ነጋሽ : نجاش : > العربية .

(نرجس) زهرة من أزهار الربيع .
اليونانية (Ναρκίσσος) نركيسوس > العربية :

(نردين) السنبل الرومى :
اليونانية : (νάρδος): نردس : > الآراميه : نردين : > العربية :

(نرفز) نرفزه جعله عصبياً :
الانجليزية (nervous) : نسبة إلى الأعصاب > العربية :

(نسيك) الذهب أو الفضة
الآرامية : نسيكا : أى المثال المسبوك .
(نظارة) حرفة الناطور .
الآرامية : نطرا : > العربية :
(نطر) نطر فلان الكرم والنخل والزرع حفظه .
الآرامية : نطر : > العربية .
(نطرون) بورق .
اليونانية(νιτρον): نطرون : > الآرامية : نيطرون : > العربية .
(نقل) البندق وما إليه من الفواكه ذوات القشرة الخشبية .
اليونانية (νουγαλον) : نوجالون : > العربية .
(نمره) رقم .
الايطالية (numero) : نمرو :
(نمشه) سيف .
الفارسية :
نمط) طريقة : وسيلة .
الفارسية : نمد : > العربية .
(نني) انسان العين .
الاسبانية (nina) : نينا : > العربية .
(نوتى) ملاح فى البحر خاصة .
اليونانية(ναυτης): نوتس .
(نوشادر) مادة كياوية تعرف باسم (ammoniak) (امونياك) :
الفارسية : نوشادر .
(نول) خشبة الحائك ينسج عليها ويلف عليها الثوب .
الآرامية : نولا : > العربية .

(نولون) ما يدفع لشحن البضاعة .

اليونانية : (ναῦλον) > العربية .

(نون) حوت .

الآرامية : نون : > العربية .

(نير) الخشبة المعترضة فى عنق الثورين بأداتها .

الآرامية : نيرا : > العربية .

(نيزك) رمح قصير .

الآرامية : نيزكا : > العربية .

(نيسان) أبريل .

الأكادية : نيسن : > الآرامية : نيسن : > العربية .

(نيشان) معنى وسام ومعنى هدية شبكة العروس .

الفارسية .

(نيلون) نيلون مادة مركبة تصنع منه الأقمشة والجوارب وكثير من أدوات الملبس وأثاث المنزل .

الأمريكية (nylon) > العربية .

(نيلة) مادة زرقاء اللون تستخدم فى الصباغة الهندية .

(نيلوفر) زهرة اللوتس .

الهندية : (nilotpala): نيلوتبالا : > العربية .

(هـ)

(هالة) ما حول القمر .

اليونانية αλως : ألوس :

(هانم) سيدة .

التركية : خانم أى أميرة .

(هاون) وعاء من الحجر أو الخشب أو المعدن تسحق فيه المواد القابلة للسحق .

الفارسية :

(هندام) شكل .

الفارسية : أندام : أى عضو أو جسد .

(هندب أو هندبا) بقل .

الآرامية : هندبا : > العربية .

(هندز) أو (هندس) قاس .

الفارسية : أنداز :

(هوس) رغبة أو مس .

الفارسية : هوس :

(هيكل) بناء مرتفع .

الآرامية : هيكلا : > العربية .

(و)

(وابور) آلة ميكانيكية تستخدم في شتى الأغراض .

الايطالية : (vapore) : ڤابور : > العربية .

(واحة) بقعة خصبة فى الصحراء .

المصرية القديمة .

(ورب) معوج .

الفارسية : وريب :

(وردة) زهرة طيبة الرائحة متنوعة الألوان . لاغرابة فى أن نجد هذا اللفظ فى مختلف اللغات قديمها وحديثها فهذه الزهرة محببة إلى النفس منذ عرفها الانسان .

فاسم هذه الزهرة عرفته الأكادية حيث نجد فيها مردن : (وردن) ومن ثم نجده قسمة بين مجموعتين مختلفتين من اللغات المجموعة السامية الحامية

والمجموعة الهندية الأوربية : وقد تصرفت كل أسرة من الأسرتين في اللفظ التصرف الذي يتفق وطبيعتها .

فمن الأكادية انتقل إلى اليونانية (wrodon) > (rhodon) > اللاتينية (rosa) > سائر اللغات الأوربية .

هذا فيما يتصل بالأسرة الهندية الأوربية أما اللغات السامية فيرجح أن اللفظ انتقل من الأكادية إلى الفارسية القديمة (ويرجح عن طريق الآرامية) وُرْدُ : ومن ثم إلى العربية :

فمن كان يدرى أن لفظ : روز ... هو : ورده : وأن هذا اللفظ يصبح في اللغات عامة مصدراً لكثير من الأسماء المركبة أو المشتقة منه .

(وردية) : حراسة .

الايطالية (guardiano) : حارس : التركية : ورديان > العربية : ورديان : حارس : و : وردية : حراسة :

(ورس) في التعبير الدارج : بركات ورس : أي : متشكر جداً .

التركية : ورس :

(ورشان) طائر :

الآرامية : ورشنا : > العربية :

(ورنيش) مادة لزجة لتنظيف الأحذية وبعض أثاث المنزل وأدواته

الايطالية (vernice) : > العربية :

(وسق) ستون صاعاً :

الآرامية : وسقا : > العربية :

(وسكي) شراب مسكر .

الانجليزية (whisky) : العربية :

(وشنه) فاكهة من نوع الكريز .

الفارسية : وشناب .

(ويركو) رسوم الجمرك .
التركية : وركو : (wirku) أى عطية

(ى)

(ياسمين) زهرة طيبة الرائحة .
فارسية :

(ياقة) الجزء من الملابس المحيط بالرقبة .
التركية :

(ياقوت) من الجواهر .
الآرامية : يقونتا : > العربية .

(يتوع) كل نبات له لبن .
الآرامية : يتوعا : > العربية .

(يفطه) لافتة .
التركية : (jafta) يافتة : > العربية .

(يك) واحد .
الفارسية .

(يلك) ثوب .
التركية :

(يم) بحر .
الآرامية : يما : > العربية .

(يمك) طعام .
التركية :

(يميش) فواكه مجففة .
التركية : (jemiš) : > العربية .

الكشاف

(ج)

(ح)

(ر)

(ز)

(ش)

(ص)

(ك)

بحـــيرا

للدكتور اسماعيل على معتوق

لا نكاد نجد فى أقدم المصادر التاريخية التى وصلتنا شيئاً ذا غناء ، يمكن أن نعتمد عليه حين نكتب عن بحيرا ونبوءته عن محمد . فسيرة ابن هشام[1] ، هى أقدم مصدر عربى معروف تحدث عن هذه النبوءة ، وذلك عند الكلام عن محمد ورحلته الى الشام فى صحبة عمه أبى طالب .

على أن ما ذكره ابن هشام حول هذه الرحلة ، لا يخرج عن أن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام ، فرغب محمد في صحبته ، فلما حط الركب رحاله عند بصرى من أرض الشام ، أكرم راهب يقال له بحيرا وفادتهم فدعاهم لتناول طعامه — على غير عادته — إذ كانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يحفل بهم ، أو يعرض لهم بأمر . ثم تذهب القصة فتحدثنا أن السبب الذى دفع بحيرا هذه المرة ليكرم هذا الركب ، أنه رأى — وهو فى صومعته — محمدا الصبى وعليه غمامة تظله دون سائر القوم ، كما لاحظ أن الغمامة قد أظلت شجرة كانت تقع قريباً من صومعته ، وأن الشجرة قد تهصرت أغصانها على محمد ليستظل تحتها . كل ذلك وغيره كان حافزاً لبحيرا ليتعرف حقيقة الأمر .

والواقع أن الأمر لم يكن محل تساؤل من بحيرا فقط ؛ بل إن القوم أنفسهم دهشوا لمثل هذه المعاملة الحسنة التى لم يتعودوها من بحيرا قبل هذه المرة .

(1) أبو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى عام ٢١٣ هـ وقيل ٢١٨ هـ . وهو يروى هذه القصة عن ابن اسحق المتوفى عام ١٥١ هـ .

إذ قال له رجل منهم : والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم ؛ فما كنت تصنع هذا بنا . وقد كنا نمر بك كثيراً ؛ فما شأنك اليوم ؟ !

لكن دهشتهم قد زالت ، حين علموا أن بحيرا ما فعل ذلك الذي فعل إلا لأمر ذي بال . ذلك الأمر ، هو ما أخبرهم به بحيرا بعد ذلك ؛ وهو أن هذا الصبي الذي يوجد بينهم ، ما هو إلا نبي هذه الأمة المنتظر .

ذلك أن بحيرا — فيما يقولون — كان قد انتهى إليه علم أهل النصرانية ؛ عن كتب كانوا يتوارثونه . وقد وجد في محمد من الصفات ما يتفق مع ما ذكر في هذا الكتاب من صفات النبي المنتظر ، من مثل إظلال الغمامة ؛ ووجود خاتم النبوة بين كتفيه . عند ذلك تأكد بحيرا من صدق نبوءته ثم أقبل على أبي طالب ؛ يأمره بالعودة به سريعاً إلى مكة . ويحذره على محمد من اليهود قائلا له : « والله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم »[1] .

هذه هي القصة كما ذكرت في أقدم النصوص التي لدينا ؛ لكنها لم تبق في هذه الحدود الضيقة ؛ بل نجد أصحاب السير والتاريخ ممن جاءوا بعد ابن هشام ، يضيفون إليها أقوالا وروايات لم تذكر عند من سبقهم .

فهذا الطبرى مثلا[2] يقول بعد أن روى القصة : « فجعل يتخللهم (يقصد بحيرا) حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش ما علمك ؟ قال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدون إلا لنبي » .

يذكر المؤرخون أيضاً : أن محمداً حين كان في سن الخامسة والعشرين ؛ قام برحلة أخرى إلى الشام ؛ للتجارة في مال خديجة مع غلامها ميسرة . لكنهم

(1) سيرة ابن هشام ص ١١٥ طبعة فستنفلد Wüstenfeld

(2) ابن جرير الطبرى ٣١٠ هـ — تاريخ الأمم والملوك ج ١ ، ١١٢٣

اختلفوا فى اسم الراهب الذى التقى به محمد فى هذه الرحلة . فمنهم من لم يتعرض لاسمه ؛ ومنهم من قال إنه بحيرا ، ومنهم من قال إنه نسطور[1] .

ولم يكن حظ هذه الرحلة عند أصحاب السيرة والتاريخ بأقل من حظ سابقتها ، فقد أضافوا إليها روايات وأحاديث مختلفة .

ويتلخص ما ذكر ابن اسحق حول هذه الرحلة الثانية ، فى أن خديجة رغبت إلى محمد أن يخرج فى مال لها تاجراً إلى الشام ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار . فقبل محمد هذا العرض . ولما قدم الشام نزل فى ظل شجرة ، قريباً من صومعة راهب ؛ فسأل الراهب ميسرة عمن ينزل تحت هذه الشجرة ؛ فقال له ميسرة هذا رجل من قريش . فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . ثم أضاف ابن اسحق قوله : « فكان ميسرة — فيما يزعمون — إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس ؛ وهو يسير على بعيره » [2] .

هذا مجمل ما ذكره ابن إسحق : ومع ذلك نجد مثلا صاحب تاريخ الخميس [3] يذكر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل تحت ظل شجرة يابسة نخر عودها ، ولما اطمأن تحتها اخضرت وأنورت ، واعشوشب ما حولها ، وأينع ثمرها ، وتدلت أغصانها ؛ فرفرفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعين الراهب . فلم يتمالك أن انحدر من صومعته ومعه رق أبيض ؛ جعل ينظر فيه مرة وإلى النبى أخرى . ثم قال هو هو ومنزل الانجيل .... ثم قال إنى لأجد فى هذه الصحيفة : أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين : يبعثه الله بالسيف المسلول ، وبالذبح الأكبر ،

(١) ابن اسحق لم يتعرض لاسم الراهب (ابن هشام ص ١١٩) . وابن سعد فى الطبقات قال إنه نسطور ، وكذلك فعل صاحب السيرة الحلبيه (طبقات ابن سعد ج ١ ص ٨٢ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٣) ، أما ابن الأثير فقد نص على أنه بحيرا . (أسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٨٦) .

(٢) سيرة ابن هشام ص ١١٩

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٢٦٢ وما بعدها .

وهو خاتم النبيين، فمن أطاعه نجا، ومن عصاه غوى .... إلى أن قال، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في وقت الظهيرة، وخديجة في علية لها. فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعيره وملكان يظلان عليه. فأرته نساءها فعجبن لذلك ...».

فأين كل هذا مما ذكره ابن هشام رواية عن ابن إسحق ؟!

هذا ما كان من أمر رحلتي محمد إلى الشام، كما جاء في كتب السيرة والتاريخ — والرحلتان إن كانتا قد وقعتا حقاً — وهذا ما يشك فيه كثير من الباحثين. فلا نرى فيهما أكثر من نبوءتين تضافان إلى تلك النبوءات والرؤى الكثيرة التي تحدثت عن محمد وبشرت بمجيئه.

والواقع أن هناك نبوءات كثيرة يقال إنها تحدثت عن محمد قبل مبعثه. ومن هذه النبوءات ماظهر في شكل رؤى، أو مما كان يقوله الكهان من العرب اعتماداً على ما كانت تأتيهم به الشياطين، أو ما كان يقوله أحبار اليهود، ورهبان النصارى، اعتماداً على ماوجدوه في أسفار العهدين القديم والحديث من صفة محمد وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

على أن من بين هذه الرؤى والنبوءات ما ظهر قبل ولادة محمد وأثناء حمله، ومنها ما ظهر بعد ولادته وقبل مبعثه.

فهذا عبد المطلب جد محمد، كان قد رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب. ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها. فلما قصها عبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض [1].

بل إن زواج عبد الله والد محمد بآمنة بنت وهب بن عبد مناف لم يكن أمراً عادياً، بل كان عن قصد ولغرض معين. ذلك أن عبد المطلب كان يأتي

(1) الروض الأنف ج ١ ص ١٠٥

اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم . فنزل عنده مرة ، فاذا عنده رجل ممن قرأ الكتب ، فقال له ائذن لى أقس منخرك . فقال دونك فانظر ، فقال أرى نبوة وملكا ، وأراهما فى المنافين عبد مناف بن قصى ، وعبد مناف ابن زهرة . . . (1) .

وهكذا تم زواج عبد الله بآمنة لتتحقق النبوءة . . . !

كذلك روى أن آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع على الأرض فقولى : « أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً » وزاد ابن هشام على ذلك قوله : ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام (2) .

ومن طريف ما يذكر في ذلك ما رأيته فى كتاب جمهرة أشعار العرب عند الحديث عن شعراء الجن . فقد قال حدثنا الفضل عن أبيه عن جده عن بن اسحق عن مجاهد عن ابن عباس قال :

وفد سواد بن قارب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسلم عليه فرد عليه السلام : فقال عمر ياسواد ، قال لبيك ياأمير المؤمنين ، قال ما بقى من كهانتك فغضب وامتلأ سحره (3) : ثم قال يا أمير المؤمنين ، ما أظنك استقبلت بهذا الكلام غيرى : فلما رأى عمر الكراهية في وجهه قال : ياسواد ، إن الذى كنا عليه من عبادة الأوثان أعظم من الكهانة ، فحدثنى بحديث كنت أشتهى أن أسمعه منك ، قال نعم يا أمير المؤمنين .

بينما أنا في إبلى بالسراة (4) ، وكان لى نجى من الجن ، إذ أتانى فى ليلة وأنا كالنائم فركضنى برجله ثم قال : قم يا سواد ، فقد ظهر بتهامة نبى يدعو

(1) الروض الأنف ج 1 ص 104

(2) سيرة ابن هشام م 1 ص 102

(3) انتفخت أوداجه من شدة الغيظ .

(4) السراة اسم لجملة مواضع كسراة بجيلة وغيرها ، والمراد أرض قومه ومنازلهم .

إلى الحق وإلى طريق مستقيم. قلت: دعني فإني ناعس. فولى عني وهو يقول:

تجبت للجن وتبكارها ... وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين روابيها وأحجارها

ثم لما كان في الليلة الثانية أتاني فقال مثل ذلك القول. فقلت: دعني فإني ناعس. فولى عني وهو يقول: ثم ذكر بعض أبيات لا تخرج في معناها عما سبق.

ثم أتاني في الليلة الثالثة فقال مثل ذلك. فقلت: إني ناعس.

قال سواد: فلما أصبحت يا أمير المؤمنين رحلت ناقة من إبلي وشددت عليها وأتيت النبي صلى الله عليه وسلم. فأسلمت وبايعت وأنشأت أقول:

أتاني نجيي بعد هدء ورقدة ... ولم يك فيما قد عهدت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالب

إلى أن قال:

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب[1]

هذا قليل من كثير مما احتوته بطون كتب السيرة والتاريخ من نبوءات ورؤى خاصاً بمبعث النبي العربي.

فالكهان، والأحبار، والرهبان، والمنجمون، بل والجن أيضاً قد تحدثوا بذلك وأشاعوه في الناس، إلى أن دون في الكتب.

ومما تجب ملاحظته أن هذه النبوءات والرؤى على تعددها وكثرتها لم تقصد إلا إلى شيء واحد وغرض واحد، هو الأشادة بنبوة محمد ودعوته، وأن هذه النبوة لم تكن مفاجئة للعرب، بل كانوا ينتظرونها ويتوقعون حدوثها.

(1) جمهرة أشعار العرب ص ٢٠ طبعة ١٣٠٨ هـ

لا شك أن هذا ما يرى فيه كتب السيرة والتاريخ من ترديد هذه النبوءات الكثيرة . وفى الحق أن رسالة محمد ونبوته ودعوته ما كانت فى حاجة إلى شىء من ذلك ؛ فقد جاء محمد ودعوته قائمة على الحق وكتابه بيمينه؛ والله مؤيده وناصره .

ومما تجب الإشارة إليه أن هناك مصادر أخرى غير التى سبقت أشارت إلى شىء من هذه النبوءات ، كتلك التى جاءت مثلا فى التوراة والأنجيل [1] ، وهو ما أيده القرآن الكريم فى كثير من آياته من مثل قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل . . . » [2] ؛ وكقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام « إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » [3] .

وبعد :

فمن هو بحيرا ؟ وأين كان يعيش ، أفى مكة أم فى الشام ؟ ما اسمه ؟ وما ديانته ؟ هل أدرك البعثة المحمدية ؟ وإذا كان قد أدركها فهل آمن بمحمد ؟

ليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يمكن الاعتماد عليه فى تأريخ حياة بحيرا أو بيان ما كان عليه من الثقافة والعلم ؛ وكل ما تذكره الروايات العربية لا تزيد عن أنه كان ذا علم من أهل النصرانية ، وحتى هذا القدر الضئيل قد وجد من العلماء الباحثين من ينكره عليه [4] .

لكن البحث الحديث قد كشف لنا عن مصدر سريانى تحدث عن بحيرا حديثاً مستفيضاً ، وإنى أذكر هنا ملخصاً موجزا لمحتويات هذا النص السريانى .

هذا النص هو عبارة عن مخطوط سريانى نشره الأستاذ رتشارد جوتهيل (Richard Gottheil) فى مجلة الأشوريات (Zeitschrift für Assyriologie. b. XIII 1898.) .

---

(1) المواهب اللدنية للقسطلانى ج ٢ ص ٦٠

(2) سورة الأعراف آية ١٥٧

(3) سورة الصف آية ٦

(4) Nöldeke : Z. D. M. G. b. XII p. 699 وما يليها .

ويحدثنا مؤلف هذا النص عن قصة بحيرا فيروى لنا موضوعات مختلفة لاتتفق فى كثير أو قليل مع ماجاءت به المصادر العربية خاصاً بقصة بحيرا .

فالقصة السريانية تحدثنا فى موضع منها عن بحيرا ، وعن رحلاته الى بيت المقدس ثم ذهابه الى طور سيناء وهناك تجلى الله عليه برؤيا عظيمة القدر ، إذ رأى أنه أعرج به الى السماء فى صحبة أحد الملائكة — بالروح لا بالجسد — وهناك رأى الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، كما رأى الجنة والنار ، وكل ما يتصل بمستقبل العالم حتى يوم القيامة ، وكانت رؤاه هذه فى شكل حيوانات مختلفة الألوان والأنواع ، وكل واحد منها يرمز الى دولة من تلك الدول التى ستملك العالم حتى اليوم الآخر .

• وفى موضع آخر تحدثنا القصة عن كيفية مقابلة محمد لبحيرا لأول مرة . كما تذكر لنا ما دار بينهما من حديث — لا نجد له ظلا من الواقع فيما بين أيدينا من مصادر — ومن بين هذه الأحاديث ما يتصل بالنصرانية والمسيح وولادته ، ومكان وجوده وكيفية صلبه على يد اليهود وموته ثم قيامه بعد ذلك .

كذلك نجد فى أثناء ذلك وصفاً لبحيرا ، وما كان عليه من ثقافة وعلم ، وما ظهر على يديه من معجزات .

والمؤلف فى كل ذلك تظهر عليه روح التحامل الشديد على محمد والاسلام .

فمؤلف القصة السريانية يضفى على بحيرا من الصفات والأعمال مما هو فريد فى بابه . فهو يحدثنا أن بحيرا كان من ناحية بيت المقدس وكان برتبة قسيس ، كما أنه كان ماهراً وخبيراً بقراءة الكتب المقدسة : كذلك تصور لنا القصة بحيرا فى صورة نبى غير مرسل قد أعرج به الى السماء — بالروح لا بالجسد — وأنه صاحب معجزات كثيرة : فقد كان يشفى من الامراض المستعصية كالجرب والبرص ومس الشيطان ، كما كان قادراً على أن يجعل العاقر ولوداً : وبالجملة فقد جعله صاحب القصة السريانية فى مثابة عيسى عليه السلام ، فأجرى على يديه المعجزات والخوارق ، كما كانت تجرى على يدى عيسى بن مريم عليهما السلام .

أما أين كان يعيش بحيرا . فكتب السيرة والتاريخ تكاد تجمع على أنه كان يقضي حياته في صومعة بالقرب من بصرى[1] من أرض الشام أو في قرية تقع قريباً من بصرى اسمها الكفر . وبينها وبين بصرى ستة أميال : وقيل كان يسكن البلقاء من أرض الشام في قرية يقال لها ميفعة[2] .

ولقد ناقش ذلك المستشرق شبرنجر (Sprenger) ، فبعد أن لاحظ اختلاف الروايات حول تحديد المكان ، استطرد يقول : أما الرواية التي تذكر أن مكانه بصرى فذلك لأن بصرى تلعب دوراً هاماً عند ميلاد النبي . فقد قيل أنه خرج من أمه نور استطاع الانسان أن يرى به قصور بصرى من أرض الشام[3] .

وتعليل شبرنجر هذا لا شك تعليل ضعيف . فكل ما في الأمر أن بصرى كما نعرف كانت مدينة تجارية عظيمة . وقد اشتهر أمرها بين العرب منذ قرون عديدة . فلما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قيل إنه خرج منه نور أضاء قصور بصرى : ولا شك أن المقصود بذلك هو بيان عظم هذا النور ، وأنه امتد إلى مسافات بعيدة حتى وصل بصرى من أرض الشام . وإذن فذكر بصرى هنا لا يتعدى كونها بلداً مشهوراً عندهم تجري بها ألسنة الناس .

أما في غير المصادر العربية . فقد قيل إن بحيرا كان يعيش في صحراء بني اسمعيل[4] ، وأنه من قرية تقع قريباً من بيت المقدس ؛ ثم هاجر إلى هذه الصحراء فيما بعد .

(١) بصرى مدينة قديمة كانت معمورة في عهد الرومانيين ، واقعة على تسعين كيلومترا من دمشق ، وفيها كانت صومعة الراهب بحيرا ، قاموس الأعلام التركي ، انظر كتاب تاريخ القرآن تأليف أبي عبد الله الزنجاني ، القاهرة ١٩٣٥ م .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٣) Sprenger: I; Das Leben und die Lehre des Mohammad. p.179

(٤) بنو اسمعيل كانوا يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام

بحـــيرا

للدكتور اسماعيل على معتوق

لا نكاد نجد فى أقدم المصادر التاريخية التى وصلتنا شيئاً ذا غناء ، يمكن أن نعتمد عليه حين نكتب عن بحيرا ونبوءته عن محمد . فسيرة ابن هشام[1] ، هى أقدم مصدر عربى معروف تحدث عن هذه النبوءة ؛ وذلك عند الكلام عن محمد ورحلته الى الشام فى صحبة عمه أبى طالب .

على أن ما ذكره ابن هشام حول هذه الرحلة ، لا يخرج عن أن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام ، فرغب محمد فى صحبته ؛ فلما حط الركب رحاله عند بصرى من أرض الشام ، أكرم راهب يقال له بحيرا وفادتهم فدعاهم لتناول طعامه — على غير عادته — إذ كانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يحفل بهم ؛ أو يعرض لهم بأمر . ثم تذهب القصة فتحدثنا أن السبب الذى دفع بحيرا هذه المرة ليكرم هذا الركب ؛ أنه رأى — وهو فى صومعته — محمدا الصبى وعليه غمامة تظله دون سائر القوم ، كما لاحظ أن الغمامة قد أظلت شجرة كانت تقع قريباً من صومعته ، وأن الشجرة قد تهصرت أغصانها على محمد ليستظل تحتها . كل ذلك وغيره كان حافزاً لبحيرا ليتعرف حقيقة الأمر .

والواقع أن الأمر لم يكن محل تساؤل من بحيرا فقط ؛ بل إن القوم أنفسهم دهشوا لمثل هذه المعاملة الحسنة التى لم يتعودوها من بحيرا قبل هذه المرة .

(1) أبو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى عام ٢١٣ هـ وقيل ٢١٨ هـ . وهو يروى هذه القصة عن ابن اسحق المتوفى عام ١٥١ هـ .

إذ قال له رجل منهم : والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم ! فما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ !

لكن دهشتهم قد زالت ، حين علموا أن بحيرا ما فعل ذلك الذي فعل إلا لأمر ذي بال . ذلك الأمر ، هو ما أخبرهم به بحيرا بعد ذلك ، وهو أن هذا الصبي الذي يوجد بينهم ، ما هو إلا نبي هذه الأمة المنتظر .

ذلك أن بحيرا — فيما يقولون — كان قد انتهى إليه علم أهل النصرانية ، عن كتاب كانوا يتوارثونه . وقد وجد في محمد من الصفات ما يتفق مع ما ذكر في هذا الكتاب من صفات النبي المنتظر ، من مثل إظلال الغمام ، ووجود خاتم النبوة بين كتفيه . عند ذلك تأكد بحيرا من صدق نبوته ثم أقبل على أبي طالب ، يأمره بالعودة به سريعاً إلى مكة ، ويحذره على محمد من اليهود قائلا له : « والله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » [1] .

هذه هي القصة كما ذكرت في أقدم النصوص التي لدينا ، لكنها لم تبق في هذه الحدود الضيقة ، بل نجد أصحاب السير والتاريخ ممن جاءوا بعد ابن هشام ، يضيفون إليها أقوالا وروايات لم تذكر عند من سبقهم .

فهذا الطبري مثلا [2] يقول بعد أن روى القصة : « فجعل يتخللهم (يقصد بحيرا) حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش ما علمك ؟ قال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدون إلا لنبي » .

يذكر المؤرخون أيضاً ، أن محمداً حين كان في سن الخامسة والعشرين ، قام برحلة أخرى إلى الشام ، للتجارة في مال خديجة مع غلامها ميسرة . لكنهم

(1) سيرة ابن هشام ص ١١٥ طبعة فستنفلد Wüstenfeld

(2) ابن جرير الطبري ٣١٠ هـ — تاريخ الأمم والملوك ج ١ ، ١١٢٣

اختلفوا فى اسم الراهب الذى التقى به محمد فى هذه الرحلة . فمنهم من لم يتعرض لاسمه : ومنهم من قال إنه بحيرا ، ومنهم من قال إنه نسطور[1] .

ولم يكن حظ هذه الرحلة عند أصحاب السيرة والتاريخ بأقل من حظ سابقتها : فقد أضافوا إليها روايات وأحاديث مختلفة .

ويلخص ما ذكر ابن اسحق حول هذه الرحلة الثانية ، فى أن خديجة رغبت إلى محمد أن يخرج فى مال لها تاجراً إلى الشام ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار . فقبل محمد هذا العرض . ولما قدم الشام نزل فى ظل شجرة ، قريباً من صومعة راهب : فسأل الراهب ميسرة عمن ينزل تحت هذه الشجرة : فقال له ميسرة هذا رجل من قريش . فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . ثم أضاف ابن اسحق قوله : « فكان ميسرة — فيما يزعمون — إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس ؛ وهو يسير على بعيره »[2] .

هذا مجمل ما ذكره ابن إسحق : ومع ذلك نجد مثلا صاحب تاريخ الخميس[3] يذكر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل تحت ظل شجرة يابسة نخر عودها ، ولما اطمأن تحتها اخضرت وأنورت ، واعشوشب ما حولها ، وأينع ثمرها ، وتدلت أغصانها : فرفرفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعين الراهب . فلم يتمالك أن انحدر من صومعته ومعه رق أبيض : جعل ينظر فيه مرة وإلى النبى أخرى . ثم قال هو هو ومنزل الانجيل .... ثم قال إنى لأجد فى هذه الصحيفة : أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين : يبعثه الله بالسيف المسلول ، وبالذبح الأكبر ،

(1) ابن اسحق لم يتعرض لاسم الراهب (ابن هشام ص ١١٩) . وابن سعد فى الطبقات قال إنه نسطور ، وكذلك فعل صاحب السيرة الحلبية (طبقات ابن سعد ج ١ ص ٨٢ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٣) ، أما ابن الأثير فقد نص على أنه بحيرا . (أسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٨٦) .

(2) سيرة ابن هشام ص ١١٩

(3) تاريخ الخميس ج ١ ص ٢٦٢ وما بعدها .

وهو خاتم النبيين : فمن أطاعه نجا ، ومن عصاه غوى . . . . إلى أن قال ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في وقت الظهيرة ، وخديجة في علية لها . فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعيره وملكان يظلان عليه . فأرته نساء فعجبن لذلك . . . » .

فأين كل هذا مما ذكره ابن هشام رواية عن ابن إسحق ؟ !

هذا ما كان من أمر رحلتى محمد إلى الشام ، كما جاء في كتب السيرة والتاريخ — والرحلتان إن كانتا قد وقعتا حقاً — وهذا ما يشك فيه كثير من الباحثين . فلا نرى فيهما أكثر من نبوءتين تضافان إلى تلك النبوءات والرؤى الكثيرة التي تحدثت عن محمد وبشرت بمجيئه .

والواقع أن هناك نبوءات كثيرة يقال إنها تحدثت عن محمد قبل مبعثه . ومن هذه النبوءات ماظهر في شكل رؤى ، أو مما كان يقوله الكهان من العرب اعتماداً على ما كانت تأتيهم به الشياطين ، أو ما كان يقوله أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، اعتماداً على ماوجدوه في أسفار العهدين القديم والحديث من صفة محمد وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

على أن من بين هذه الرؤى والنبوءات ما ظهر قبل ولادة محمد وأثناء حمله ، ومنها ما ظهر بعد ولادته وقبل مبعثه .

فهذا عبد المطلب جد محمد ، كان قد رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب . ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ، فلما قصها عبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض [1] .

بل إن زواج عبد الله والد محمد بآمنة بنت وهب بن عبد مناف لم يكن أمراً عادياً ، بل كان عن قصد ولغرض معين . ذلك أن عبد المطلب كان يأتى

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٠٥

اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم . فنزل عنده مرة ، فاذا عنده رجل ممن قرأ الكتب ، فقال له ائذن لى أقس منخرك . فقال دونك فانظر : فقال أرى نبوة وملكا ، وأراها فى المنافين عبد مناف بن قصى ؛ وعبد مناف ابن زهرة . . . [1] .

وهكذا تم زواج عبد الله بآمنة لتتحقق النبوءة . . . !

كذلك روى أن آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع على الأرض فقولى : « أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً » وزاد ابن هشام على ذلك قوله : ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام [2] .

ومن طريف ما يذكر في ذلك ما رأيته فى كتاب جمهرة أشعار العرب عند الحديث عن شعراء الجن . فقد قال حدثنا الفضل عن أبيه عن جده عن بن اسحق عن مجاهد عن ابن عباس قال :

وفد سواد بن قارب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسلم عليه فرد عليه السلام : فقال عمر ياسواد ، قال لبيك ياأمير المؤمنين ، قال ما بقى من كهانتك فغضب وامتلأ سحره [3] : ثم قال يا أمير المؤمنين ، ما أظنك استقبلت بهذا الكلام غيرى : فلما رأى عمر الكراهية في وجهه قال : ياسواد ، إن الذى كنا عليه من عبادة الأوثان أعظم من الكهانة ، فحدثنى بحديث كنت أشتهى أن أسمعه منك ، قال نعم يا أمير المؤمنين .

بينما أنا في إبلى بالسراة [4] ، وكان لى نجى من الجن ، إذ أتانى فى ليلة وأنا كالنائم فركضنى برجله ثم قال : قم يا سواد ، فقد ظهر بتهامة نبى يدعو

(1) الروض الأنف ج ١ ص ١٠٤

(2) سيرة ابن هشام م ١ ص ١٠٢

(3) انتفخت أوداجه من شدة الغيظ .

(4) السراة اسم لجملة مواضع كسراة بجيلة وغيرها ، والمراد أرض قومه ومنازلهم .

إلى الحق وإلى طريق مستقيم . فقلت دعني فإني ناعس . فولى عني وهو يقول :

عجبت للجن وتبكارها وشدها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روابيها وأحجارها

ثم لما كان في الليلة الثانية أتاني فقال مثل ذلك القول . فقلت دعني فإني ناعس . فولى عني وهو يقول : ثم ذكر بعض أبيات لا تخرج في معناها عما سبق .

ثم أتاني في الليلة الثالثة فقال مثل ذلك . فقلت إني ناعس .

قال سواد . فلما أصبحت يا أمير المؤمنين ارتحلت ناقة من إبلي وشددت عليها وأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وبايعت وأنشأت أقول :

أتاني نجيي بعد هدء ورقدة ولم يك فيما قد عهدت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤي بن غالب

إلى أن قال :

وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب [1]

هذا قليل من كثير مما احتوته بطون كتب السيرة والتاريخ من نبوءات ورؤى خاصا بمبعث النبي العربي .

فالكهان ، والأحبار ، والرهبان ، والمنجمون ، بل والجن أيضاً قد تحدثوا بذلك وأشاعوه في الناس ، إلى أن دون في الكتب .

ومما يجب ملاحظته أن هذه النبوءات والرؤى على تعددها وكثرتها لم تقصد إلا إلى شيء واحد وغرض واحد : هو الإشادة بنبوة محمد ودعوته ، وأن هذه النبوة لم تكن مفاجئة للعرب ، بل كانوا ينتظرونها ويتوقعون حدوثها .

(1) جمهرة أشعار العرب ص ٢٠ طبعة ١٣٠٨ هـ

لا شك أن هذه ما يرويه كتب السيرة والتاريخ من ترديد هذه النبوءات الكثيرة . وفي الحق أن رسالة محمد ونبوته ودعوته ما كانت في حاجة إلى شيء من ذلك ؛ فقد جاء محمد ودعوته قائمة على الحق وكتابه بيمينه؛ والله مؤيد له وناصره .

ومما تجب الإشارة إليه أن هذه مصادر أخرى غير التي سبقت أشارت إلى شيء من هذه النبوءات . كتلك التي جاءت مثلا في التوراة والأنجيل [1] ، وهو ما أيده القرآن الكريم في كثير من آياته من مثل قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ؛ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل . . . » [2] ؛ وكقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام « إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » [3] .

وبعد :

فمن هو بحيرا ؟ وأين كان يعيش ، أفي مكة أم في الشام ؟ ما اسمه ؟ وما ديانته ؟ هل أدرك البعثة المحمدية ؟ وإذا كان قد أدركها فهل آمن بمحمد ؟

ليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يمكن الاعتماد عليه في تأريخ حياة بحيرا أو بيان ما كان عليه من الثقافة والعلم ؛ وكل ما تذكره الروايات العربية لا يزيد عن أنه كان ذا علم من أهل النصرانية ؛ وحتى هذا القدر الضئيل قد وجد من العلماء الباحثين من ينكره عليه [4] .

لكن البحث الحديث قد كشف لنا عن مصدر سرياني تحدث عن بحيرا حديثاً مستفيضاً ؛ وإني أذكر هنا ملخصاً موجزا لمحتويات هذا النص السرياني .

هذا النص هو عبارة عن مخطوط سرياني نشره الأستاذ رتشارد جوتهيل (Richard Gottheil) في مجلة الأشوريات (Zeitschrift für Assyriologie. b. XIII 1898.) .

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني ج ٢ ص ٦٠

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

(٣) سورة الصف آية ٦

(٤) Nöldeke : Z. D. M. G. b. XII p. 699 وما يليها .

ويحدثنا مؤلف هذا النص عن قصة بحيرا فيروى لنا موضوعات مختلفة لاتتفق فى كثير أو قليل مع ماجاءت به المصادر العربية خاصاً بقصة بحيرا .

فالقصة السريانية تحدثنا فى موضع منها عن بحيرا ، وعن رحلاته الى بيت المقدس ثم ذهابه الى طور سيناء وهناك تجلى الله عليه برؤيا عظيمة القدر ، إذ رأى أنه أعرج به الى السماء فى صحبة أحد الملائكة — بالروح لا بالجسد — وهناك رأى الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، كما رأى الجنة والنار ، وكل ما يتصل بمستقبل العالم حتى يوم القيامة ، وكانت رؤاه هذه فى شكل حيوانات مختلفة الألوان والأنواع ، وكل واحد منها يرمز الى دولة من تلك الدول التى ستملك العالم حتى اليوم الآخر .

• وفى موضع آخر تحدثنا القصة عن كيفية مقابلة محمد لبحيرا لأول مرة ؛ كما تذكر لنا ما دار بينهما من حديث — لا نجد له ظلا من الواقع فيما بين أيدينا من مصادر — ومن بين هذه الأحاديث ما يتصل بالنصرانية والمسيح وولادته ، ومكان وجوده وكيفية صلبه على يد اليهود وموته ثم قيامه بعد ذلك .

كذلك نجد فى أثناء ذلك وصفاً لبحيرا ، وما كان عليه من ثقافة وعلم ؛ وما ظهر على يديه من معجزات .

والمؤلف فى كل ذلك تظهر عليه روح التحامل الشديد على محمد والاسلام .

فمؤلف القصة السريانية يضفى على بحيرا من الصفات والأعمال مما هو فريد فى بابه . فهو يحدثنا أن بحيرا كان من ناحية بيت المقدس وكان برتبة قسيس ، كما أنه كان ماهراً وخبيراً بقراءة الكتب المقدسة : كذلك تصور لنا القصة بحيرا فى صورة نبى غير مرسل قد أعرج به الى السماء — بالروح لا بالجسد — وأنه صاحب معجزات كثيرة: فقد كان يشفى من الامراض المستعصية كالجرب والبرص ومس الشيطان ، كما كان قادراً على أن يجعل العاقر ولوداً ، وبالجملة فقد جعله صاحب القصة السريانية فى مثابة عيسى عليه السلام ، فأجرى على يديه المعجزات والخوارق ، كما كانت تجرى على يدى عيسى بن مريم عليهما السلام .

أما أين كان يعيش بحيرا : فكتب السيرة والتاريخ تكاد تجمع على أنه كان يقضي حياته في صومعة بالقرب من بصرى[1] من أرض الشام أو في قرية تقع قريباً من بصرى اسمها الكفر ، وبينها وبين بصرى ستة أميال : وقيل كان يسكن البلقاء من أرض الشام في قرية يقال لها ميفعة[2] .

ولقد ناقش ذلك المستشرق شبرنجر (Sprenger) ، فبعد أن لاحظ اختلاف الروايات حول تحديد المكان ، استطرد يقول : أما الرواية التي تذكر أن مكانه بصرى فذلك لأن بصرى تلعب دوراً هاماً عند ميلاد النبي . فقد قيل إنه خرج من أمه نور استطاع الانسان أن يرى به قصور بصرى من أرض الشام[3] .

وتعليل شبرنجر هذا لا شك تعليل ضعيف . فكل ما في الأمر أن بصرى كما نعرف كانت مدينة تجارية عظيمة ، وقد اشتهر أمرها بين العرب منذ قرون عديدة . فلما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قيل إنه خرج منه نور أضاء قصور بصرى ، ولا شك أن المقصود بذلك هو بيان عظم هذا النور ، وأنه امتد إلى مسافات بعيدة حتى وصل بصرى من أرض الشام . وإذن فذكر بصرى هنا لا يتعدى كونها بلداً مشهوراً عندهم تجرى بها ألسنة الناس .

أما في غير المصادر العربية ، فقد قيل إن بحيرا كان يعيش في صحراء بني اسمعيل[4] ، وأنه من قرية تقع قريباً من بيت المقدس ، ثم هاجر إلى هذه الصحراء فيما بعد .

(١) بصرى مدينة قديمة كانت معمورة في عهد الرومانيين ، واقعة على تسعين كيلومترا من دمشق ، وفيها كانت صومعة الراهب بحيرا ، قاموس الأعلام التركي ، انظر كتاب تاريخ القرآن تأليف أبي عبد الله الزنجاني ، القاهرة ١٩٣٥ م .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٣) Sprenger: I; Das Leben und die Lehre des Mohammad. p.179

(٤) بنو اسمعيل كانوا يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام

ومما تقدم يمكن القول إن بحيرا لم يكن يعيش في مكة أو قريباً منها — كما يقول بعض المستشرفين خطأ اعتماداً على روايات لم يتبينوا وجه الحق فيها — ولكنه كان يعيش فى الشام .

ولقد ناقشت كل ما قاله المستشرقون حول هذا الموضوع فى رسالتى التى تقدمت بها للدكتوراه ، وبينت وجه الصواب في كل ذلك .

كذلك يمكن القول بأنه لا يوجد من النصوص ما يمكن أن يتخذ دليلا على أن بحيرا عاد مع محمد إلى مكة حين لقيه أول مرة بالشام . وإن كان بعض من أعمت بصائرهم الشهوات يريد أن يلقى ظلا من الشك حول ذلك ،فيدعى أن بحيرا قد عاد مع محمد إلى مكة ، معتمداً على فهم خاطىء لأحدى الروايات التى ذكرها الواقدى عن رحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام والتى جاء فيها :

« قالوا لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام . . . . ونزلوا بالراهب بحيراً . فقال لأبى طالب فى النبي صلى الله عليه وسلم ما قال ، وأمره أن يحتفظ به . فرده أبو طالب معه إلى مكة . . . » .

فالمستشرق شبرنجر مثلا يرى أن الضمير فى « معه » يعود على بحيرا لا على « أبو طالب » وإذن يكون بحيرا فى رأى شبرنجر قد ذهب مع محمد إلى مكة .

على أنه قد وجد من المستشرقين من أمثال فستنفلد (Wüstenfeld) من تولى الرد على دعوى شبرنجر الباطلة وفهمه الخاطىء للنص . فقد قال فستنفلد إنه يعارض شبرنجر فيما ذهب إليه من أن أبا طالب رد محمداً مع بحيرا إلى مكة ، ولكنه يرى أن أبا طالب نفسه هو الذى عاد إلى مكة مع محمد لا بحيرا ،

ويؤيد فستنفد رأيه هذا بالعبارة التي جاءت في آخر الرواية وهي « وكان أبو طالب يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات » .

وإني أعتقد أن العبارة واضحة بحيث لا تحتاج إلى جدل أو نقاش .

على أن هناك أدلة أخرى كثيرة تهدم ما رآه شبرنجر فمن ذلك ما رواه الطبري « . . . واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن له شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلده ، فخرج به عمه سريعاً حتى أقدمه مكة » . فهذه العبارة صريحة في عودة أبي طالب مع محمد لا عودة بحيرا .

وأخيراً أشير هنا إلى رأي مستشرق آخر عالج هذا الموضوع وهو نولدكه فقد قال : « وقد حاول شبرنجر أن يثبت أن بحيرا سافر مع محمد إلى مكة وهناك كان معه ، لكن هذه الأدلة لا أستطيع أن آخذ بها ، وإني أرفضها ولعل كلمة « معه » التي اعتمد عليها شبرنجر هي التي أدت به الى هذا التفكير في هذا الرأي غير مهمة : وذلك لأن شبرنجر نفسه يرفض الرحلة الأولى نهائياً ، وكونه يعتمد على رواية ضعيفة هزيلة شيء يستحق السخرية »[1] .

بحيرا هل هو اسم أو لقب ؟ وإذا لم يكن اسما فما اسمه ؟

لم يعرف بحيرا بغير هذا الاسم حتى أوائل القرن الرابع الهجرى .

إذ جاء المسعودى فكان أول من ذكر له اسما آخر هو سرجيس فقال واسم بحيرا في كتب النصارى سرجس أو سرجيس أو جرجيس وكان من عبد القيس [2] .

أما ابن حجر في الأصابة وصاحب تاريخ الخميس فقد رددا ما ذكره المسعودى [3] .

---

(1) Nöldeke : Z. D. M. G. b. XII. p. 705 .

(2) مروج الذهب للمسعودى ص ١٤٦ وما بعدها .

(3) الاصابة لابن حجر ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٥٧

ثم جاء صاحب السيرة الحلبية فقال: «فلما نزل الركب بصرى وبها راهب يقال له بحيرا واسمه جرجيس وقيل سرجيس وحينئذ يكون بحيرا لقبه...[1]» .

أما أصحاب السيرة والتاريخ ممن كانوا قبل المسعودى من أمثال ابن هشام وابن سعد والطبرى وغيرهم فكانوا يطلقون عليه بحيرا فقط .

هذا هو ما ذكرته المصادر العربية ؛ أما غيرها من المصادر فنستطيع أن نقول — اعتمادا على ما لدينا من نصوص أخرى سريانية — أن بحيرا ليس اسما وإنما هو لقب له ، واسمه الحقيقي سرجيس ، وهو ما تنبه له فى القرن الرابع الهجرى المؤرخ المشهور المسعودى فى كتابه مروج الذهب ؛ ومن جاء بعده من المؤرخين .

على أن اشتقاق الكلمة اللغوى يؤيد أنها لقب وليس اسما ففى العبرية בָּחַר بمعنى اختار وانتخب ، בָּחִיר المختار والمنتخب . وفى السريانية بحر فحص وبحث واختبر ، بحِـيَرا المدقق والخبير والشهير والمختار .

وإذن فيكون بحيرا بمعنى المختار أو الشهير .

ولقد ناقش هذا الموضوع نولدكه فقال : "إنى لا أشك فى أن بحيرا هى بحيرا السريانية ، ثم يستطرد ويقول ؛ وقد وردت بحيراء فى معجم لغوى اسمه مشكاة المصابيح ص ٥٣٢ ، ثم يمضى ويقول ، وما كتبت بهذه الصيغة إلا لأظهار هذا الوزن غير العربى[2] .

وإذن فبحيرا لقب وليس اسما أما اسمه فهو سرجيس أو جرجيس، والاول أشهر وأكثر ورودا ، وخاصة فى غير المصادر العربية .

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٢) هذا مقال كتبه نولدكه فى مجلة Z. D. M. G. b. XII. p. 704 .

هل كان بحيرا يهوديا أم نصرانياً ؟

أما كتب السيرة والتاريخ فيظهر منها أنه كان نصرانيا فابن اسحق يقول: «فلما نزل الركب بصرى . . . وبها راهب يقال له بحيرا — ، وكان اليه علم أهل النصرانية» وتابعه فى ذلك من جاء بعده كالطبرى وكذلك المسعودى الذى قال : «ومنهم بحيرا الراهب : وكان مؤمنا على دين المسيح» .

أما ابن حجر فى الاصابة فبعد أن ذكر أنه لايدرى أأدرك البعثة أم لا قال «وقد وقع فى بعض السنن عن الزهرى أنه كان من يهود تيماء» .

ثم استطرد وذكر ما قاله المسعودى فى ذلك [1] .

ثم جاء بعده صاحب السيرة الحلبية وبعد أن ذكر أنه نصرانى قال: «وقيل أنه من أحبار اليهود . وعقب على ذلك بقوله : «أقول لا منافاة لأنه يجوز أن يكون تنصر بعد أن كان يهوديا كما وقع لورقة بن نوفل» [2].

فمن كل ما تقدم يتضح لنا أن الرأى السائد هو أن بحيرا كان نصرانياً ولم يكن يهوديا : يؤيد ذلك ما جاء فى غير النصوص العربية من سريانية وغيرها .

وقد وجدنا من المؤرخين من يقول إن بحيراقد أسلم فهذا ، ابن النديم يعد بحيرا ضمن من أسلم من أهل الكتاب [3] :

وهذا المسعودى قد عقد فصلا فى ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما السلام : وبعد أن ذكر بحيرا وقصة مقابلته للنبى قال : «وآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم» [4].

---

(١) الاصابة لابن حجر ج ١ ص ١٨٣

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٣) الفهرس لابن النديم ص ٢١

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٦

وأما صاحب السيرة الحلبية فيقول إن بحيرا ونسطور ونحوهما ممن صدق بأنه صلى الله عليه وسلم نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الاسلام لأنهما لم يدركا البعثة أى الرسالة بناء على اقترانها بالنبوة[1] .

ومع كل ما تقدم فأنى أميل كما سبق لى القول ، الى أن بحيرا لم يدرك البعثة المحمدية ، وأنه قد مات على دينه ، بل أزيد على ذلك وأرجح أن محمداً لم يقابل بحيرا إلا مرة واحدة في صغره ، وإن كانت هذه المقابلة محل شك أيضاً إذ ينكرها كثير من الباحثين ، ويرى بعضهم أن محمدا لم يخرج من الحجاز قط طول حياته [2] .

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٨

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٩ وكذلك كتاب Wüstenfeld : Die juden zu Medina p. 41.

زخارف المنسوجات القبطية

للدكتور زكى محمد حسن

كان للمصريين مهارة عظيمة وشهرة واسعة فى صناعة النسيج فى العصور القديمة والعصور الوسطى .

وقد حدث بمصر فى القرن الثالث الميلادى تغيير جوهرى فى عادات الدفن ، وذلك بسبب انتشار المسيحية انتشاراً سريعاً . إذ كان الموتى فى العصر الرومانى يتركون فى البيوت وقتاً طويلا قد يبلغ الشهور بل الأعوام ، ولكن القوم أصبحوا بعد انتشار المسيحية يبادرون بدفن موتاهم : فكانت الجثة تحنط تحنيطاً غير تام وتدثر بالملابس التى كان يستعملها صاحبها فى حياته .

ويرجع الفضل فى العثور على كثير من قطع النسيج القبطية فى حالة جيدة : الى تلك العادة الجديدة فى الدفن ؛ والى جفاف التربة فى صعيد مصر ، حيث كانت المدافن تتخذ أسفل التلال فى شريط من الأرض الجرداء المحصورة بين تلك التلال وبين حدود الأراض المزروعة . وكانت المدافن قليلة الغور فسهل على الفلاحين والمتصلين بتجار العاديات وأصحاب المجموعات الفنية أن ينجحوا فى السطو على بعض المدافن الغنية بالمنسوجات الثمينة ، فكانوا يفصلون ثياب المومياء أو يقصون الأجزاء المزخرفة منها لبيعها بغير أن يعنوا باثبات ما كان عليه الثوب الأصلى الذى نزعت منه . أو تسجيل ما الى ذلك من البيانات التى تجمع فى الحفائر العلمية الصحيحة لتكون عدبا لعلماء الآثار فى دراسة التحف التى يسفر عنها الكشف فى تلك الحفائر . بل إن مما يؤسف له أن المناطق التى كان أولئك الفلاحون أو تجار العاديات يكشفون فيها بعض المنسوجات كان يحتفظ بسرها خوفا من العقاب أو حداً لعدد الذين يشتركون فى الغنيمة .

ومهما يكن من الأمر فإن المناطق التي عثر فيها على عدد كبير من قطع النسيج القبطية هي اخميم وقرية الشيخ عبادة (انطينوبوليس) وأرمنت وهوارة واللاهون وادفو والبهنسة . والمعروف أنه قد أجريت في بعضها حفائر بالطرق العلمية . وتفخر متاحف أوربا وأمريكا والمتحف القبطي بالقاهرة بحتوائها على مجموعات طيبة من المنسوجات التي عثر عليها في تلك القبور القبطية بالمناطق المذكورة .

ويندر أن نعثر لينا ثياب أو أقمشة كاملة أو قريبة من التمام . إذ أن أكثر المجموعات تتألف من الأجزاء المزخرفة فقط ، وقد يصعب في بعض الأحيان أن نتبين أصل الثوب الذي انتزعت منه تلك الأجزاء . وعلى كل حال فقد كان الثوب الرئيسي في العصرين الروماني والبيزنطي قميصاً يصنع عادة من الكتان وأحياناً من الصوف . وتنسج فيه زخارف من الصوف والكتان . وكان يلبس فوقه ثوب خارجي كالعباءة . وذلك عند الضرورة لتغير في الطقس أو للمناسبات والحفلات .

ويزخرف القميص عادة من الأمام والخلف (شكل ١) بأشرطة على الأكتاف متفاوتة الطول (وتسمى Clavi) وبإطارات عند الرقبة وجامات مربعة أو مستديرة على الأكتاف وقرب الأطراف السفلى ، التي كانت تزخرف في بعض الأحيان بأشرطة أفقية تتجه عمودياً عند الجوانب (الأشكال من ٢ الى ٦) .

وتزودنا المقاطعات الشرقية والغربية في الامبراطورية البيزنطية بوثائق كافية لدراسة المنسوجات وزخارفها في فجر المسيحية . كما أننا نرى في صور الموميات المصرية التي ترجع الى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد والتي عثر عليها في الفيوم والهوارة وانطينوبوليس (الشيخ عبادة) أقمصة لها أشرطة بنفسجية اللون غير مزخرفة . وفي نهاية القرن الثاني للميلاد أضيفت أجزاء أخرى مزخرفة كالجامات المستديرة على الأكتاف وكالأشرطة على الأكمام وحول الرقبة ، كما زخرفت الأشرطة والجامات المستديرة على الأقمصة والملابس التي يكفن فيها الموتى .

ومهما يكن من شيء فان الاشرطة الزخرفية في العصور الأولى في مصر لم تكن تضاف الى الثوب بعد صنعه ، بل كانت تنسج مع النسيج نفسه (شكل ٣) ، ومع ذلك فقد كان يحدث في بعض الحالات أن تقص الأشرطة والجامات المزخرفة من ثوب قديم لتثبت في ثوب جديد : ثم زاد الميل بعد ذلك الى تزيين الملابس باضافة قطع زخرفية أخرى أصبحت تضاف الى الثياب في العصور التالية . ولم تكن مساحة هذه القطع الزخرفية كبيرة بل كانت على هيئة أشرطة ضيقة .

ولا ريب في أن زخارف الأقمشة القبطية التي عثر عليها في القبور المصرية تسير جنباً الى جنب مع التطور في تاريخ مصر السياسي ، فمن تلك الأقمشة مجموعات من الطراز الاغريقي الروماني الصريح ، ومنها مجموعات أخرى تبدو فيها زخارف هذا الطراز متطورة ومحورة عن أصولها الاولى . وهذه هي المجموعات التي تظهر فيها الرموز المسيحية (انظر الشكلين رقم ٧ و ٨) : وتتلوها المجموعات ذات الطراز القبطي البحت وتؤذن بانتهاء العصر الكلاسيكي وقيام الفن القبطي . وهو الفن المسيحي الاقليمي في وادي النيل . ثم تطور منه تدريجياً بعد الفتح الاسلامي طراز جديد له مميزاته .

وقد تشعبت آراء مؤرخي الفنون في تاريخ الزخارف في الأقمشة المستخرجة من القبور المصرية ، فذهب بعضهم الى أن أقدم تلك الأقمشة قد ترجع الى القرن الأول الميلادي . ولكن الموازنة بين هذه الزخارف وما نجده من الزخارف على التحف الكلاسيكية في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد تؤيد القائلين بأن أقدم المجموعات في تلك المنسوجات القبطية ترجع الى هذين القرنين .

وتمتاز أقمشة العصور الأولى بدقة الخطوط ورقتها وبساطة الألوان ، فهي بذلك تختلف عن الألوان الزخرفية البراقة والخطوط المرتبكة التي تمتاز بها الأقمشة القبطية المتأخرة والمنسوجة بطريقة الكبير . وكان تطور الزخرفة من عصر الى آخر تطوراً تدريجياً يجعل من الصعوبة بمكان أن نرتب بعض المنسوجات ترتيباً تاريخيا دقيقا .

ومهما يكن من الامر فان المنسوجات ذات الرسوم المتقنة ترجع الى العصور الأولى (انظر الأشكال رقم ٣ و ٤ و ٦) : أما ذات الألوان المختلفة التي طغت على دقة الرسم فترجع الى العصور التالية (الاشكال رقم ١٦ و ١٧ و ١٨).

والمجموعات الرئيسية لهذه الأقمشة ثلاثة : الاولى : من العصر الاغريقي الروماني : والثانية : من عصر الانتقال : والثالثة من العصر القبطي (والفرق بين العصر الأول والأخير: كالفارق بين الفن الكلاسيكي وفن القرون الوسطى) أما المجموعة الوسطى فهي تشترك مع كل من السابقة واللاحقة في مميزات مشتركة : إلا أن مميزات الأولى أكثر وضوحا فيها. ولكن الواقع أنه من العسير جداً أن نضع حداً فاصلا بين المجموعتين الأولى والثانية . ولذا كانت محاولات التأريخ تهدف في الغالب الى تتبع الخطوط العامة للتطور أكثر مما تهدف الى تحديد التاريخ الذي صنعت فيه أي قطعة بالذات . إذ من الممكن أن تحتفظ بعض المراكز الصناعية بشيء من الأساليب الزخرفية القديمة ؛ كما أن بعض المراكز الاخرى قد تسبق جيرانها الى الأخذ بأحدث الاساليب : فضلا عن أن الدين المسيحي كان يجد في بعض المقاطعات مجالا لنشر مبادئه الجديدة ، أسرع مما يجد في مقاطعات أخرى : بل إنه كان يخطو خطوات واسعة في بعض المراكز قبل أن يصل الى البعض الآخر . ومن الطبيعي أن تكون المراكز التي تقع على طرق التجارة أسرع من غيرها في التأثر بتيارات الفنون الأسيوية . ولذلك سار معظم مؤرخي الفنون على تأريخ المنسوجات من فترة تتراوح بين قرنين تحرجا من نسبتها إلى قرن واحد معين على وجه التحقيق .

أما مجموعات الأقمشة الأولى فهي من الفن الأغريقي الروماني الذي كان سائداً في بلاد البحر الأبيض المتوسط ، والمشاهد أنها لم تتأثر بالطابع المصري المحلي : إذ أن موازنة زخارف هذه المجموعة بزخارف المنسوجات على الفسيفساء والصور الحائطية تشهد بأن الفرق بين زخارف المنسوجات التي عثر عليها في مصر والمنسوجات التي تحتوي عليها الثياب والستائر المنسوجة التي انتشرت في البقاع الأخرى في الأمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية فرق يسير لا يكاد يذكر . وليس من الصعب

أن نفسر اختفاء نفوذ الفن المصرى القديم فى زخارف الأقمشة اختفاءً يكاد يكون تاما ، فان التقاليد الأغريقية كانت قد تغلغلت فى مصر وتشبعت بها الحياة فيها قبل الفتح الرومانى .

وتتميز الأقمشة من العصر الأغريقى الرومانى برسوم الأشكال الآدمية والحيوان والطير وبالزخارف النباتية والهندسية (أنظر الأشكال من ٢ إلى ١٥) ، أما الأشكال الآدمية فمنها الآلهة ورسوم الأساطير والصور الشخصية النصفية ومناظر الصيد ؛ ومنها الفرسان القناصة ، ومنها المحاربون الذين يحملون أحيانا سيفاً أو رمحا (أنظر شكل ٣) ، ويوضعون دائماً فى مواقف عراك ونزال ، ومنها الراقصون الذين يكثر رسمهم مع المحاربين بالتبادل (أنظر الشكلين رقم ٦ و ١٥). وهناك مجموعة كبيرة تمتاز زخارفها برسوم الكروم (أنظر الشكلين رقم ٩ و ١٠) ومنها ما يتخلل عروق العنب فيها رسوم رجال وصبية يحملون سلالا (شكل رقم ١٣)؛ ومنها مجموعة كبيرة تحتوى على رسوم صبية يداعبون حيوانات أو طيوراً .

وأكثر رسوم الحيوان انتشاراً ما كان منها متعلقاً بالصيد، فاذا رسمت وحيدة كانت فى الأغلب تمثل المطاردة ؛ كما ترى رسوم الحيوانات أحياناً بين أغصان الشجر وهى تقضم الفاكهة (أنظر شكل ١٠) . وبعض الرسوم تمثل وحشاً نصفه حيوان ونصفه طائر ، وهى تذكرنا بفنون إيران . كما ترى رسوم أنواع أخرى من الوحوش . أما الطيور فأغلبها من أنواع القنبرة والطاووس والحمام والببغاء والبط وأفراخ الماء (أنظر الأشكال رقم ١٠ و ١٤ و ١٥) . وكانت هذه الرسوم فى بعض الأحيان عناصر زخرفية فحسب ، وفى أحيان أخرى كان لها معنى رمزى من بين المعانى الرمزية فى المسيحية ، على أن ذلك كان قليلا قبل عصر الانتقال ، كما نعلم أيضاً أن السمك كان أحد الرموز المحبوبة فى المسيحية الأولى

وكانت الكروم أحب رسوم الأشجار إلى النساجين (أنظر الشكل رقم ١٠) ، ونراها تخرج فى بعض الأحيان من آنية أو سلة فى تكوين تقلد به الطبيعة ؛ كما نراها فى أحيان أخرى تحوّر إلى تصميمات بلغت حداً كبيراً من الجمال . وكانت رسوم سلال الفاكهة والزهور منتشرة فى زخارف تلك المنسوجات (انظر الشكل رقم ١٣).

ومما لا شك فيه أن كثيراً من نساج كانوا من الأغريق ، كما تدل على ذلك المنسوجات التي تحتوى على كتابات باللغة اليونانية . ومن المحتمل أن يكون من بين الأقمشة قطع قليلة ترجع الى القرن الأول والثانى الميلادى . ولكن يمكن القول بوجه عام أن عصر مجموعة الأقمشة الأغريقية الرومانية يقع ما بين القرنين الثالث والخامس . ومن ثم فهو يدخل فى عصر المجموعة الثانية التى تنسب عدة أمثلة منها الى القرن الخامس الميلادى .

أما مجموعة عصر الانتقال فهى مرحلة الوصل بين المجموعة ذات الرسوم الاغريقية الرومانية البحتة والمجموعة التى تبدو فى زخارفها الصناعة القبطية التامة التطور والتى تمثل الطابع المحلى للفن المسيحى وتقدم تمثيلا صادقا . وأقمشة عصر الانتقال ليس لها مميزات واضحة تماما : فان زخارف المنسوجات الاغريقية الرومانية القديمة لا تزال مستعملة فيها ؛ ولكن رسومها تعوزها الحياة والحركة وصدق تمثيل الطبيعة . غير أن من الظواهر الواضحة فى هذه المرحلة الاتجاه الى استعمال الألوان المختلفة البراقة وترك اللون البنفسجى الذى كان يسود العصر السابق .

وقد زاد استعمال الرموز المسيحية فى مرحلة الانتقال ، بل من المحتمل أن الاقبال عليها يرجع الى ما قبل ذلك أى الى القرن الرابع ، فمن المعلوم أن الدعوة للدين المسيحى بدأت قبل نهاية القرن الأول وزادت وانتشرت سرا فى القرن الثانى ، وشاهد القرن الثالث تلك الاضطهادات والعراقيل الفعالة . ثم جاء القرن الرابع باعتراف قسطنطين الرسمى بالمسيحية وباعلانها ديناً رسمياً للدولة البيزنطية على يدى تيودوسيوس .

ومهما يكن من الأمر فلم يحدث تغيير جوهرى فى الفكرة الزخرفية عند بدء استعمال الرموز المسيحية ، فالعناصر المألوفة السابقة لم تزل هى السائدة ، ولم تشغل رموز الدين المسيحى مكانا بارزاً ، ولعل الصليب كان أكثرها أهمية (أنظر الشكل رقم ٨) . واختصت مصر بنوع منه على هيئة العلامة الهيروغليفية « عنخ » (أنظر الشكل رقم ٩) وهى التى كانت ترمز فى الفن المصرى القديم إلى الحياة ، وشكلها كصليب يتألف ضلعه العلوى من دائرة .

ومن المألوف فى أقمشة عصر الانتقال وجود رسم فارس وحيد ، ولعله حلقة متطورة من الصياد الفارس المألوف فى رسوم المجموعة السابقة ، بعد فصله عن مناظر الصيد والقنص . ثم نرى فى المرحلة القبطية البحتة رسم قديس محارب ، ومن المحتمل أن يكون شكل الفارس المنفرد حلقة الوصل بين الصياد وبين القديس المسيحى .

والمجموعة الأخيرة من منسوجات المدافن المصرية هى التى تعتبر قبطية بحتة . والواقع أن جميع الأقمشة المصرية المنسوجة فى العصر المسيحى كانت تنسب إلى القبط وتعرف باسم المنسوجات القبطية . ولكن مع ما للقبط من شهرة واسعة فى ميدان النسج فاننا نعلم أن صناعاً من اليونانيين اشتركوا فى إنتاج مجموعة الأقمشة التى تنسب الى العصر الأغريقى الرومانى . كما نعلم كذلك أن الطراز الاسلامى البحت لم يزدهر تماماً قبل القرن التاسع الميلادى : أى أن زخارف الأقمشة المصرية فى العصر الاسلامى مرت بمرحلة انتقال من الطراز القبطى فى القرن السابع إلى الطراز الاسلامى البحت فى القرن التاسع . ويمكننا أن نقول بوجه عام أن الأقمشة ذات الزخارف القبطية الصريحة كانت تنسج بمصر بين القرنين السادس والثامن .

ومهما يكن من شىء فان الزخارف فى هذه المرحلة الأخيرة من الأقمشة المسيحية فى مصر تختص بضعف فى التأليف وبتوزيع غير منظم فى الرسوم ، ويبدو فيها ضعف فى الذوق وإهمال فى الأوضاع وتدهور فى الزخارف (أنظر الأشكال من ١٦ الى ١٨) : غير أنها تمتاز بالألوان ذات الأثر البراق وبالتطرف فى تحوير الأشكال الزخرفية بدلا من الاتزان والتناسب التقليديين فى الزخارف التى عرفناها فى المرحلتين السابقتين : وكان الأغلب فى الملابس فى هذه المرحلة أن تضاف إليها القطع ذات الزخارف ، فأصبح الاتجاه إلى نسج المناطق المزخرفة على حدة لتضم بعد ذلك إلى الثياب .

وأخذ ظل العنصر الأغريقى فى الزوال من الوسط المصرى فى العصر القبطى : وتكون الطراز القبطى على مراحل تدريجية لاتزال بها بقايا من العناصر القديمة ، ولكن أصابها تغير كبير فى مراحل التطور : بل وصل الأمر بها أحيانا إلى حد يتعذر معه تمييز أصولها الأولى .

ويمكن أن نلخص تأثير في أسلوب رسوم الأقمشة القبطية في ثلاثة عوامل:

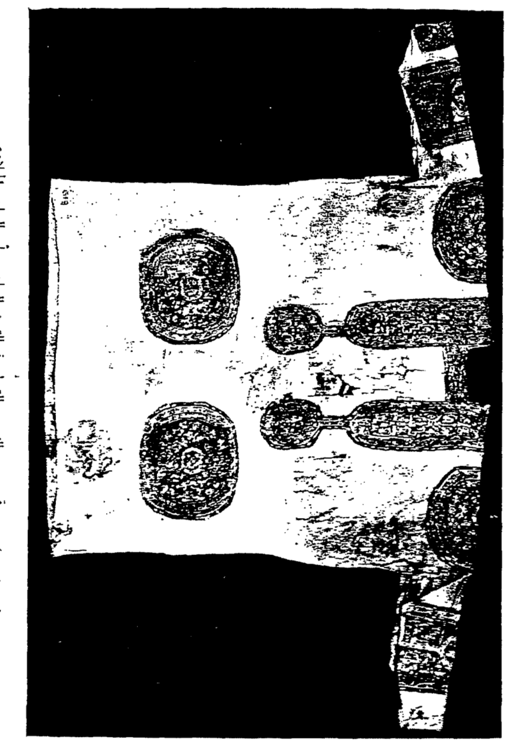
الأول : الأساليب الزخرفية من العصر الاغريقي الروماني القديم ويشاهد في نماذج الأشرطة والتفاصيل الأخرى ، وأحيانا في رسوم الأشخاص .

الثاني : تعود فنون آسيا الغربية يتمثل بوضوح في الفرسان رامي السهام وهم يطاردون الوحوش ؛ وفي غير ذلك من الموضوعات الزخرفية التي نقلت عن المنسوجات الاسيوية .

والعامل الأخير : هو الدين المسيحي الجديد الذي أوحى بموضوعات جديدة كل الجدة مثل المناظر المأخوذة من القصص المسيحية وأشخاص القديسين (أنظر الشكل رقم ١٨) . وفي الحق أن أغلب الأقمشة القبطية كان يقصد بها شرح تلك المناظر والأشخاص . ولكن لسوء الحظ لم يبلغ النساجون من القوة درجة يمكنهم بها التعبير عن موضوعاتهم في مقدرة ووضوح ؛ مما كان سببا في قلة الحالات التي يمكن التأكد فيها من تلك الموضوعات .

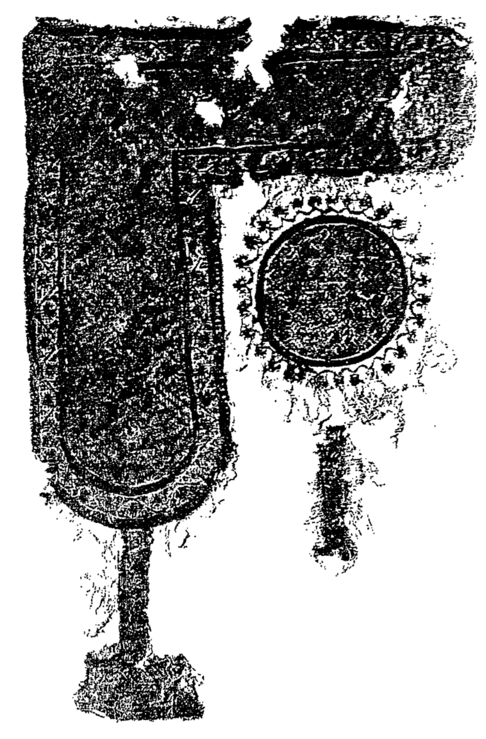
وظل لعنصر الكروم دور رئيسي في المنسوجات القبطية ؛ ولكنه كان يستعمل في الفن المسيحي بوجه عام في الأغراض الزخرفية والرمزية معاً . أما في العصر القبطي فكان يرمز به للمسيح وأحيانا للكنيسة القبطية .

[اللوحة رقم ١]



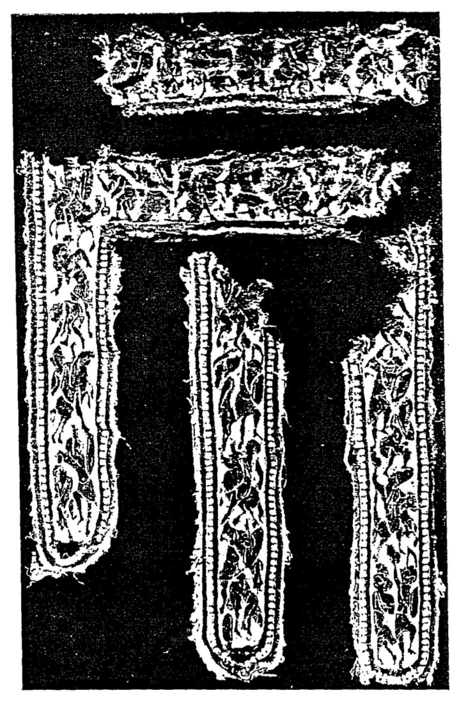
(شكل ١) رسم قميص من النسيج القبطي في القرن السادس أو السابع الميلادي .
ومحفوظ في متحف فكتوريا والبرت بلندن (عن كندرك)

[اللوحة رقم ٢]



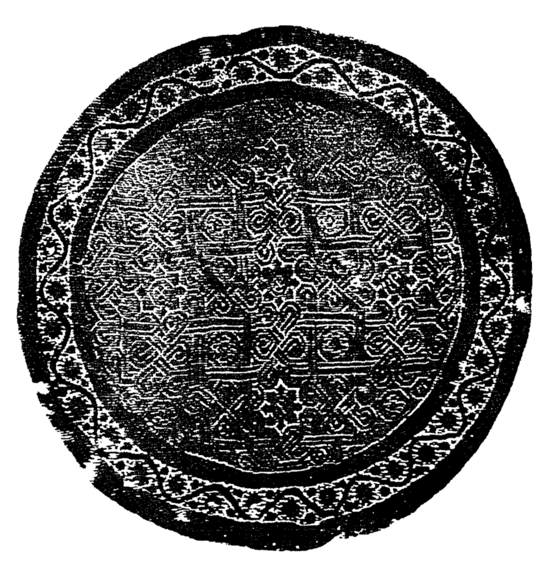
(شكل ٢) أجزاء زخرفية من نسيج من العصر الاغريقى الرومانى
فى القرن الثالث أو الرابع الميلادى

[اللوحة رقم ٣]



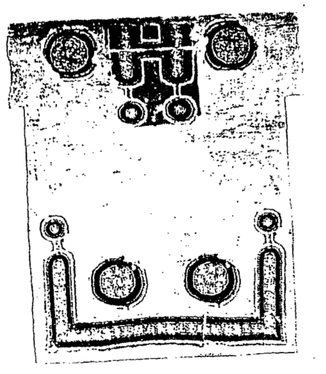
(شكل ٣) أشرطة زخرفية من نسيج في القرن الثالث أو الرابع الميلادى محفوظة فى متحف ڤكتوريا والبرت (عن كندرك)

[اللوحة رقم ٤]



(شكل ٤) دائرة زخرفية من قطعة نسيج من العصر الإغريقي الروماني
في القرن الثالث أو الرابع الميلادي

[اللوحة رقم ٥]

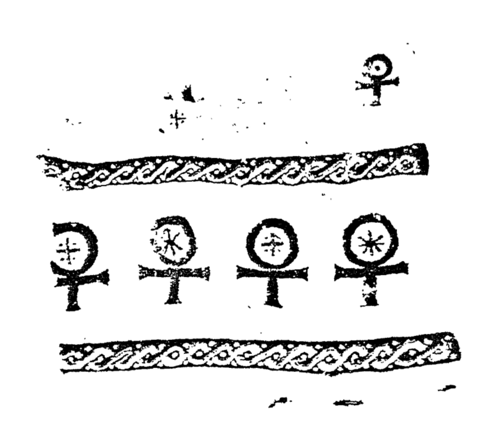


(شكل ٥) رسم قميص من النسيج القبطى
فى القرن السادس الميلادى



(شكل ٦) مربع زخرفى من النسيج فى القرن الرابع
أو الخامس الميلادى . محفوظ فى متحف فكتوريا والبرت
(عن كندرك)

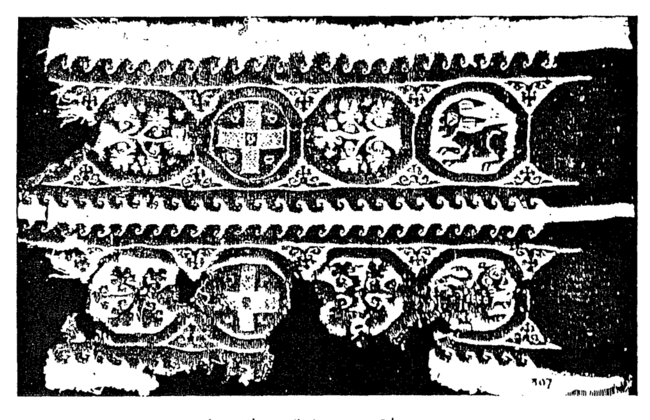
[اللوحة رقم ٦]



(شكل ٧) قطعة من نسيج في القرن الخامس الميلادي
محفوظة في متحف فكتوريا و ألبرت بلندن

(عن كندرك)

[اللوحة رقم ٧]



(شكل ٨) قطعة من نسيج في القرن الخامس الميلادي
محفوظة في متحف فكتوريا والبرت بلندن (عن كندرك)

[اللوحة رقم ٨]



(شكل ٩) قطعة نسيج من العصر الاغريقي الروماني
في القرن الرابع الميلادي

[اللوحة رقم ٩]



(شكل ١٠) قطعة نسيج قبطى من الكتان فى القرن الرابع أو الخامس الميلادى . محفوظة فى متحف فكتوريا والبرت بلندن (عن كندرك)

[اللوحة رقم ١٠]



(شكل ١١) قطعة نسيج من العصر الاغريقى الرومانى فى القرن الرابع أو الخامس الميلادى
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة

[اللوحة رقم ١١]



(شكل ١٢) قطعة نسيج من العصر الاغريقى الرومانى فى القرن الرابع أو الخامس الميلادى
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة

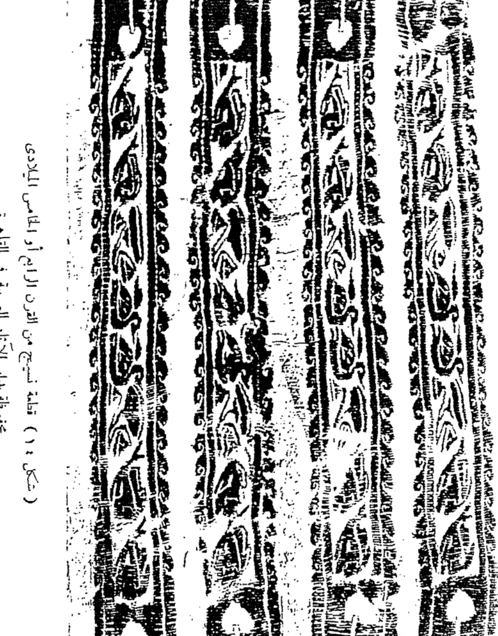
[اللوحة رقم ١٢]



(شكل ١٢) قطعة نسيج من الكتان في القرن الرابع أو الخامس الميلادي محفوظة في متحف فكتوريا والبرت بلندن

(عن كندرك)

[اللوحة رقم ١٣]



(شكل ١٤) قطعة نسيج من القرن الرابع أو الخامس الميلادى
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة

[اللوحة رقم ١٤]



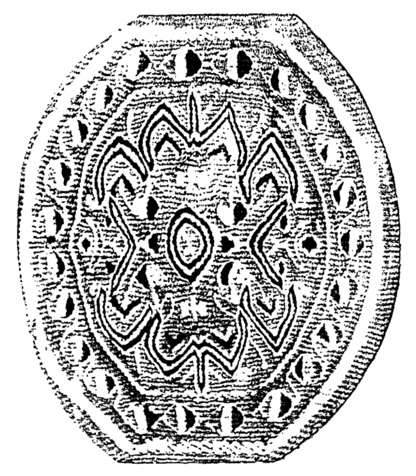
(شكل ١٥) دائرة زخرفية من نسيج فى العصر الاغريقى الرومانى
من القرن الرابع أو الخامس الميلادى
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة

[اللوحة رقم ١٥]



(شكل ١٦) قطعة من النسيج القبطي في القرن السادس أو السابع الميلادي
محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة

[اللوحة رقم ١٦]



(شكل ١٧) قطعة من النسيج القبطى فى القرن السابع أو الثامن الميلادى
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة

[اللوحة رقم ١٧]



(شكل ١٨) دائرة زخرفية من الكتان في قميص من النسيج القبطي
في القرن السابع أو الثامن الميلادي
محفوظة في متحف فكتوريا وألبرت بلندن
(عن كندرك)

بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب

للدكتور السيد محمد يوسف الرنرى

من المعروف أنه لم يكن هناك إسم واحد يطلق على شبه قارة الهندو — الباكستانية بأكملها بل كانت الأقاليم المختلفة تعرف بأسمائها كل على حدة وربما شمل إسم العاصمة جميع المناطق الواقعة تحت سلطتها أو نفوذها . وكان نهر « السند » — الذى يذكره العرب القدماء باسم « مهران » — معروفا باسمه الحالى إلى أن امتد إليه نفوذ أهل فارس فى العصر القديم فسموه « هندهو » جريا على عادتهم فى إبدال السين فى السنسكرتية بالهاء ، ولذلك أمثلة كثيرة فى اللغة الفارسية القديمة . ثم جاء العرب فأقروا اسم « السند » للأراضى الواقعة على ضفتى ذلك النهر ، وبدءوا يطلقون « الهند » على ما وراءها[1] .

كان العرب قد عرفوا الهند قبل الاسلام وأحبوها إلى حد أنهم اتخذوا منها اسماً لنسائهم ، ولكنهم إنما عرفوا عطورها وأحجارها وسيوفها وثمارها ولما كانت تجارتهم عن طريق البحر[2] كان من الطبيعى أن يقتصر

---

(١) الدكتور السيد سليمان الندوى : عرب وهندكى تعلقات ص ١٢

(٢) هذه بعض الألفاظ الهندية التى أخذت طريقها إلى اللغة العربية على لسان الملاحين العرب فيما يتعلق بمهنتهم وصناعتهم : « البارجة » ج البوارج أصلها بالهندية « بيزه » كما أورد البيرونى فى كتاب الهند ص ١٠٢ . « دونيج » ج دوانيج أصلها « دونكى » أنظر ياقوت : البلدان (قيس) ؛ « نخوذه » ج نواخذه بالفارسية « ناخدا » وهى مركبة من « ناؤ » تعنى السفينة بالهندية و « خدا » أى المالك بالفارسية . وقد ذكر البيرونى (ص ١٠٣) أيضاً كلمة « كنبار — الغزل المفتول من ليف النارجيل لخرز المراكب » ولعل هذه الكلمة هى اصل كلمة " Cable " الانجليزية ، فان مدلولها الأصلى لم يتجاوز ذلك النوع الخاص من الحبل ، ومن المعروف أن كثيرا من المصطلحات العربية فى الملاحة نقلت إلى الأمم الغربية التى خلفت العرب فى السيادة على البحار .

اتصالهم على الشواطىء والسواحل : ولاسيما الساحل الغربي والجنوبي ، لا أدل على ذلك من أسماء في العربية هي في الأصل أسماء للأمكنة التي كانت تستورد منها مسمياتها ، مثل المندل والهيل [1] ثم جاء الاسلام فصارت هذه المعرفة والصلة التجارية من أهم ما وجه المسلمين من عرب عمان والمناطق الساحلية المجاورة لها إلى شن الغارات البحرية بغية تأسيس دعائم حكمهم على مواقع من ساحل السند وكجرات : تهانة (تانه) بالقرب من بومباى وبهروج (بروص) وديبل بالقرب من كراتشى ، وكان ذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذى كان شديد الحذر من « من حمل الدود على العود » ثم تكررت محاولة من هذا القبيل في عهد عثمان أيضاً . ولكن لم يكن لهذه الغزوات أثر يذكر . ومضى العرب في هذه الأثناء قدماً من نصر إلى نصر حتى تم لهم فتح بلاد فارس كلها وصارت حدود دولتهم الشرقية تتاخم حدود مملكة السند الغربية مباشرة بحيث تسنى للبغاة والطغاة التسلل عبر الحدود والالتجاء بملك السند ، مما زاد في اهتمام العرب بجارتهم . وفي الوقت الذى كانت الممالك الشرقية للدولة الأموية قد استكملت قوتها واستعدادها لشن هجوم شامل براً وبحراً معاً بعد انتظمت أمورها وسلست صعابها تحت إمرة حاكمها الحازم ذى البأس الشديد الحجاج بن يوسف الثقفي ، في ذلك الوقت سببت الصلة التجارية بصورة مألوفة في التاريخ القديم والحديث على السواء ، التدخل السياسى والعسكرى من جانب العرب ، وذلك بأن بعض القراصنة إستولوا بالقرب من ديبل على مركب كان ينقل إلى العراق عددا من الأرامل واليتامى لبعض التجار العرب الذين وافتهم آجالهم في جزيرة سيلان ثم اعتذر داهر

(١) على الترتيب ، العود المستورد من « كورومندل » كان العرب يطلقون عليها « العبر » أيضاً وفوه « هال » أو « هيل » (بالعامية : حب هان) المستورد من (رأس) هيلى أو « إيلى » بجنوب الهند بالقرب من كورومندل ، كانت ميناء ومدينة عامرة أيام زيارة ابن بطوطة لها . راجع الرحلة ٤ / ٨١

وقد سنح لى أثناء مراجعة القواميس أن كلمة «فوه» ج الأفاوية املها معربة من كلمة «بو» بالفارسية لأن المادة (ف و ه) لا نسبة لها بمعنى الرائحة .

ملك السند بعجزه عن تنفيذ طلب الحجاج بمعاقبة المجرمين وتسليم الأسرى ، فلم يكن منه هو الآخر إلا أن ندب ابن اخيه الشاب محمد بن القاسم الثقفى لغزو السند برياً [1] .

دخل محمد بن القاسم السند فى سنة ٨٩ هـ ووفق فى إنجاز مهمته توفيقاً تاماً . فإنه تمكن فى بحر خمسة أعوام من القضاء على مملكة داهر وفتحها نمسنين من منبع نهر جيلم بكشمير فى الشمال إلى البحر فى الجنوب ، إلى حدود مملكة قنوج (كنوج) بالقرب من ملتان وحدود كجرات فى الشرق ومنذ ذلك الحين ظل إقليم السند جزءاً من الدولة الأموية : تعاقب على حكمه عدد من الأمراء العرب ، سعى بعضهم لتوسيع نطاقه فى الشرق وعلى ساحل كجرات فلم يلقوا فى ذلك كبير نجاح ، ولكنهم على كل حال بقوا أقوياء قادرين على إخماد ثورات مالكين لأزمة الأمور فى الداخل ..

وهكذا أصبحت للعرب علاقات سياسية وطيدة مع الهند بعد أن كانت لهم علاقات تجارية قوية معها فى قبل الاسلام : وكان من المحتوم على هذه القاعدة الجديدة للعرب داخل أراضى الهند أن تصبح مبدأ خط لسير العلوم والآداب الهندية إلى عاصمتهم : ولكن الحركة — لأسباب طبيعية عامة — إنما نمت وازدهرت فى العهد العباسى الأول . أما فى العهد الأموى فلا يلفت نظرنا إلا ظواهر معينة : هى بمثابة المقدمة لما نحن بصدده فى مقالنا هذا .

كان العرب قد عرفوا من قبل الزط (جات) والميد وهما قبيلتان من قبائل السند عرفتا بالغزو والتهور والشراسة فجندهما الفرس ، وربما كثر احتكاكهما بالعرب حتى أننا نجد عبد الله بن سعود يقول عن بعض من رآهم فى صحبة النبى صلى الله عليه وسلم « رجال كأنهم الزط أشعارهم

(١) الفتوح للبلاذرى ٤٣١ — ٤٣٢ و ٤٣٥

وأجسامهم » (سنن الترمزى : باب الأمثال) مما يدل على أنهم كانوا معروفين لدى العرب تماما فى ذلك الوقت [1] .

ثم بعد أن تم فتح فارس على أيدى العرب انخرطت هاتان القبيلتان ولاسيا الزط فى جنود الإسلام، استخدمهم على (رض) حراسة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، وأنزلهم معاوية فى مدن الشام الساحلية لمواجهة الروم ، وعمرهم وليد بن عبد الملك فى انطاكية [2]. هذا ما يتعلق بالعصر الذى سبق فتح العرب للسند ، أما بعد ذلك فقد تيسر للعرب أن يعرفوا لا الزط المحاربة فحسب : بل السنديين عامة ومن أهم ما ساعد على ذلك نقل عدد كبير من العبيد والاماء أسرى الحرب الى العاصمة وبعض المدن الكبيرة الأخرى : وهنالك بدأ العرب يتتبعون خصائص وعوائد هذا العنصر الجديد بعناية كبيرة ، كما أن أولئك الدخلاء أقبلوا على الأخذ بأسباب الحضارة العربية بجد واهتمام : ولم يلبث العبيد من أهل السند أن بدأوا يساهمون مساهمة فعالة فى الحوادث الجارية حتى أنه ذكر أن أحدا منهم (ابن زياد بن أبى كبشه) اشترك فى قتل الخليفة الوليد بن يزيد فى سنة ١٢٦هـ [3].

أما مدى سرعة تعربهم واندماجهم في المجتمع والثقافة العربية فيمكن أن نقدرها بوجود علماء أجلاء أمثال أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن السندى [4] وابن الاعرابى [5] : ورجال الحكومة مثل السندى بن شاهك [6]

(١) يرجح أن الامام أباحنيفة كان من سلالة هؤلاء الزط ، فانه ذكر أن جده زوطى كان من كابل (حسب الرواية المشهورة . راجع ابن خلكان وتهذيب الاسماء للنووى) نقل إلى الكوفة بين أسرى الحرب أما ادعاء حفيده اسماعيل بن حماد ، الانتساب إلى أسرة مالكة من الفرس فتلك محاولة معروفة حاولها كثير من الموالى لاثبات أصالتهم فى العز الذى نالوه فى الاسلام .

(٢) البلاذرى الفتوح : ٣٧٥ — ٣٧٩

(٣) ابن الأثير ٥ / ٢١٧

(٤) شذرات الذهب ١ / ٢٧٨ سمع عنه الواقدى بالمدينة .

(٥) «كان أبوه زياد عبداً سنديا » ياقوت : معجم الادباء .

(٦) السندى بن شاهك مولى جعفر المنصور، كان اميرا على دمشق فأخرب سورها فى فتنة أبى الهندام فى سنة ست وسبعين ومائة فى خلافة هرون وولى القضاء ببغداد وكانت وفاته هناك . ترجمته فى مرآة الزمان نسخة دار الكتب المصرية الجزء السادس الورقة ٤٢ ، وكان السندى هذا ابن يسمى ابراهيم روى عنه الجاحظ كثيراً (البيان والتبيين ١ / ١٤١) .

وشعراء أمثال أبي عطاء السندى وأبي الاصلع [1] كلهم موال انحدروا من أصل سندى في جيل أو جيلين أو ثلاثة على فتح السند، وقد استغنيت بذكرهم عن التعرض للذين نشأوا فيما بعد.

لا شك أن الأرقاء وغيرهم من عامة أهل السند لم يكونوا ليعرفوا العرب إلا برطانتهم وجعلهم الجيم زاء وبعض ملح تتعلق بالعجمة والخصيان منهم [2] وما إلى ذلك من عجائب العوائد وغرائب الاخلاق كما قد أشرت إليه القابل وربما كان وجودهم مثار التساؤل بين أهل الفكر عن مدى الحضارة والعلوم وحكمة الهند ومبعث تطلع الاذهان إلى الوقوف عليها. ولكن التبادل العلمى ونقل الآداب الهندية الى العربية إنما كان يتوقف — ولا غرو فى ذلك — على الجمع بين الخاصة وأهل العلم من الطرفين العرب والهنود: وهل يتأتى ذلك إلا إذا استقرت الأحوال الداخلية وتفرغ أولو الامر لتشجيع الحركات العلمية ورعاية الادب وذويه؟

كانت أواخر أيام بنى أمية أيام الوهن والاختلال والفتن أعقبها الانقلاب العباسى فلاقى أبو مسلم الخراسانى بعض العناء فى إخضاع منصور بن جمهور الكلبى ذلك الطاغية الذى كان قد اغتصب ولاية السند منذ زمن غير بعيد، ولكنه نجح أخيراً في ضم هذه الولاية للسفاح على يد موسى بن كعب التميمى فى سنة ١٣٤ هـ. وقد اقترن ظهور العباسيين بنقل العاصمة من دمشق الى بغداد فازداد التقارب من السند جغرافياً: مع ما هو معروف عن الخلفاء العباسيين وأعيان السلطنة فى عهدهم من الميل الشديد إلى الفرس والعجم وحضارتهم وآدابهم.

لم تكد الأمور تنتظم فى العهد الجديد حتى نرى وفداً من أهل السند يفد على السفاح، وذلك قبل موته بثلاثة أيام [3]. لا نعلم إذا كان هذا الوفد

(١) أبو عطاء معروف ترجمته فى الأغانى وأبو الأصلع الهندى له ذكر فى المرزبانى ٥١٣ (« أبو الضلع » كذا فى الفهرست ١٦٤) والحيوان ٧ / ١٧١

(٢) البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون) ١ / ٧٠، ٧٤، والحيوان ١ / ١١٨

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢ / ٤٣٣

يضم أحداً من أهل العلم ، ولكن على كل حال لم يكن له أثر يذكر لمصادفة وصوله فى وقت غير ملائم .

ثم استمرت الأحوال تتهيأ لجلب العلوم من الخارج فى عهد المنصور مما حفز أهل العلم فى السند إلى عرض مالديهم : فوصل أحد منهم كان متضلعاً فى علم الهيئة والرياضيات ، إلى بغداد فى سنة ١٥٤ هـ ، فتقدم إلى الخليفة بكتاب « سدهانت » (السند هند) الذى قام ابراهيم الفزارى بترجمته إلى العربية [١] . واطلاع العرب على « سدهانت » يعد نقطة هامة لا من حيث كونه بداية حسنة للتبادل العلمى بين الهند والعرب فحسب ، بل من حيث الآثار المترتبة على ذلك أيضاً ، فانه وإن لم يعلم بالضبط متى تعلم العرب « الأرقام الهندية » فالمظنون أنهم تعلموها عن طريق ترجمة « سدهانت » الذى يحتوى البابان الثالث عشر والرابع والعشرون منه على بسط وبيان لتلك الأرقام [٢] . على كل حال نال « سدهانت » من إقبال العرب وتقديرهم ما كان سبباً لرفع صيت الهند إلى درجة عالية ، آية ذلك أنهم قاموا فى مدة قصيرة بترجمة كتابين آخرين فى علم الهيئة هما « أرجبهد » (الأصل : آرية بهت) و « أركند » (الأصل كهند إكهنديك Khanda-Khadyaka) نقل الأول أبو الحسن الأهوازى والثانى يعقوب بن طارق فى سنة ١٦١ هـ [٣] .

وعلى أثر هذه البداية الحسنة لا بد أن الأمراء وأهل العلم فى بغداد قد عرفوا واعترفوا ببراعة أهل الهند فى ميادين أخرى ، ولا سيما الطب ،

(١) البيرونى : كتاب الهند ص ٢٠٨

(٢) عرب وهندكى تعلقات ص ١٣٤ هذه الأرقام معروفة عند العرب بـ « الارقام الهندية » وعند الافرنج بـ « الارقام العربية » [Arabic figures] لأنهم بدورهم أخذوها من العرب ، أعنى عرب الاندلس وربما سماها عرب الاندلس « حساب الغبار » لأن الهنود كانوا يرسمونها على التراب أو الرمل بدل اللوحة أو السبورة لتعليم الاولاد كما يشاهد ذلك فى بعض أرياف الهند إلى يومنا هذا .

(٣) هناك الالفاظ الهندية التى بقيت كمصطلحات علم الهيئة بالعربية : « كردجه » (الوتر المستوى) أصلها بالسنسكريتية « كرمجيا » ؛ « جيب » أصلها « جيوا » ؛ « أوج » أصلها « أوچ » بالجيم الفارسية : « أرين » من « أجين » إسم البلدة فى وسط الهند ؛ « ادماسه » أصلها « ادهماسا » .

فهناك تراجم يشيرون على هرون الرشيد بأن مرضه باستقدام الطبيب الهندى الشهير « منكه » (مانك) وورد الطبيب الهندى فنجح فى علاج الخليفة وحظى عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من اللغة السنسكريتية[1] .

وفى هذه المرحلة أى بعد أن كان الطريق قد مهد لحركة نقل العلوم من الهند إلى بغداد يطالعنا التاريخ بظاهرة قوية ، يجدر بنا أن نقف عندها لعلنا نكتشف حقيقة طالما غمضت على كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين . وتلك الظاهرة هى التى أشار إليها ابن النديم بقوله :

« الذى عنى بأمر الهند فى دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة واهتمامهم بأمر الهند وإحضاره علماء طبها وحكمائها (كذا) .

الفهرست ٣٤٥

فما هو مبعث هذه النزعة إلى الهند وعلومها فى نفوس البرامكة ؟

لنبحث عن أصل البرامكة حتى نصل إلى جواب لهذا السؤال .

البرامكة من أصل بوذى لا مجوسى

المعروف عن البرامكة أن أجدادهم كانوا يتولون قبل الاسلام معبداً للمجوس ببلخ ، وكان « برمك » لقباً لرئيس سدنة ذلك البيت الذى كان يسمى « نوبهار » . أما أصل كلمة « برمك » من ناحية اللغة فلم يتعرض له القدماء ، وجاء المتأخرون من المؤرخين وأصحاب المعاجم من الفرس فقالوا بأن الكلمة مشتقة من المصدر « برمكيدن » أى المص بالفارسية وأيدوا قولهم هذا برواية مؤداها أن أول « برمك » أسلم (بعد أن خرب قتيبة بن مسلم « نوبهار » فى سنة ٨٦ هـ) لما وقف أمام الخليفة أضطر إلى الاعتراف بأنه كان يحمل معه سماً فى خاتمه حتى يمصه (بالفارسية : « برمكم ») إذا وجد الموت خيراً من حياة الخزى ، وهذه الرواية مختلقة بدليل أن المؤرخين مجمعون

(١) ابن أبى أصيبعه ٢/ ٣٢

على أن « برمك » لقب قديم كان يلقب به رؤساء « نوبهار » قبل الاسلام بكثير . وقال بعض آخرون أن « برمك » إسم لمكان والنسبة إليه « برمكي » .
وأتى ابن الفقيه الهمداني وياقوت بتعليلين فى منتهي الغرابة حينما قال الأول أن « برمكة » يعني حاكم مكة [1] وذلك لأن معبد بلخ كان قد أنشئ ليكون نظيراً لمكة ، وقال الثاني أن « بر » هنا بمعنى الابن وأن « برمكة » إنما يعنى إبن مكة [2] وهذه الأقوال كلها ظاهرة البطلان لا تستحق التعليق عليها بشيء .

وذهب الكاتب الهندي عبدالرزاق مؤرخ « البرامكة » (باللغة الأردوية) إلى أن أصل « برمك » هو « برمغ » — « بر » يعني « كبير » و « مغ » [magos باليونانية و « مجوس » بالعربية] يعنى عبدة النار — وعلى هذا « برمك » يكون معناه « رئيس المجوس » وهذا القول يظهر أنه قريب جداً إلى الصواب ، مع أنه لم يعرف بعد مثال آخر لابدال « الغين » «بالكاف» فى التعريب ، إلا أنه قد بقى أن نتأكد إذا كان معبد بلخ معبداً للمجوس يعبدون فيه النار أو معبداً للبوذيين يعبدون فيه الأصنام أو « البد » على حد تعبير المؤرخين العرب .

من حسن الحظ أن بأيدينا وصفاً مسهباً لهذا المعبد عند المسعودي والهمداني وياقوت يمكننا ، إذا أمعنا النظر فيه ، من الاهتداء إلى جواب على هذا السؤال وهاك ما يقوله ياقوت عنه :

« قال عمر بن أزرق الكرماني : كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف ، وكان دينهم عبادة الأوثان. . . ونصبوا حوله (أى حول بيت النوبهار) الأصنام وزينوه بالديباج والحرير وعلقوا عليه الجواهر النفيسة . . . وكانت الفرس تعظمه وتحج اليه ، وتهدى له وتلبسه

---

(١) كتاب البلدان ص ٣٢٣ « فسموا سادنها الاكبر « برمكا » أى أنه باب مكة ووالى مكة فصار كل من ولى منهم ذلك يسمى برمكا » .

(٢) معجم البلدان (نوبهار) «كانوا يسمون السادن الاكبر « برمكا » لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه ابن مكة فكان كل من ولى منهم بالسدانة برمكا » .

أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبته الأعلام ، وكانوا يسمون أعلى قبته « الاستن » وكانت مائة ذراع فى مثلها وارتفاعها فوق مائة ذراع بأروقة مستديرة حولها وكان حول البيت ثلثمائة وستون مقصورة ليسكنها خدامه وقوامه وسدنته ، وكان على كل واجد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود إلى الخدمة حولا كاملا ، ويقال أن الريح ربما حملت الحرير من العلم الذى فوق القبة فتلقيه بترمذ وبينهما اثنا عشر فرسخاً . . . وكانت ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج إلى هذا البيت ، وكانت سنتهم إذاهم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر ويقبلوا يدبر مك » .

هذا الوصف لياقوت فى معجم البلدان (النوبهار) يطابق لفظاً ما أورده الهمدانى (البلدان ص ٣ — ٣٢٢) بحيث يصبح من المؤكد أنهما استقياه من مصدر واحد وإن لم يذكر هو الآخر اسم عمر بن أزرق الكرمانى كما فعله ياقوت هو الأول . كذلك يوافق هذا الوصف معنى ما جاء فى مروج الذهب — ٤٨/٤ — للمسعودى (أيضاً آثار البلاد للقزوينى ٢٢١) ومما يجدر بالملاحظة والتنبيه عليه فى هذا الوصف :

(أولا) لم يرد فيه ذكر للنار حتى يقال أن النوبهار كان بيتاً من بيوت النار .

(ثانياً) بالعكس نص فيه على أن معبد بلخ لم يتجاوز أن يكون بيتاً لعبادة الأوثان والأصنام التى كان من بينها « الصنم الأكبر » الذى كانت سنتهم ، إذاهم وافوه ، أن يسجدوا له .

(ثالثاً) من المعروف أن « ملوك الهند والصين وكابل شاه » ولنضف إليهم نيزك طرخان ملك تركستان الذى جاء عنه فى الهمدانى وياقوت (وستنقل هذه القطعة فيما بعد) أنه غضب من قبول البرامكة الاسلام وزحف اليهم بجيشه ونكل بهم كل هؤلاء الملوك لم يكونوا يدينون إلا بالدين البوذى . (Budhism)

رابعاً : إن « الأستن » و « أسبت » و « است » ليست إلا أشكالا محرفة لكلمة « استب » بالأصل « استوب » (stupa) وهي تطلق على معبد البوذيين الذي أودع فيه رماد جثة بوذا ، وقد كان الرماد قسم ودفن داخل قبب مبعثرة في عدد من الممالك التي كانت البوذية سائدة فيها ، ولا تزال المعابد من هذا النوع موجودة في الهند منها « استوب سانجي » بالقرب من مسقط رأس في مدينة بوقال في وسط الهند . يظهر أن الكتاب كانوا أعرف بكلمة « الأستن » أي العامود بالفارسية فحرفوا « استب » إلى ذلك الشكل .

ثم هناك أدلة أخرى ترشدنا إلى الجزم بأن معبد بلخ إنما كان معبداً للبوذيين وهي :

(ا) إن بلخ جزء من إقليم خراسان وما وراء النهر ومن المحقق أن على هذا المذهب السمنية أي البوذية ، كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الاسلام . (الفهرست ٣٤٥) .

(ب) يزيد المسعودي في وصف النوبهار فيقول :

. وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على النوبهار ببلخ كتاباً بالفارسية ترجمته : قال بوذاسف أبواب الملوك تحتاج إلى ثلث خصال عقل وصبر ومال واذا تحته بالعربية [1] كذب بوذاسف الواجب على الحر اذا كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان .

أما « بوذاسف » فلا شك أن المراد منها « بوذا » لا غير ولعل أصلها « بودهاستو » كما ذهب إليه المحقق زخاو (أنظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب الهند) .

وقد وردت هذه الحكاية أيضاً في مسالك الأبصار (١ / ٢٢٤) لابن فضل الله العمري وهناك « سوراشف ، بدل ، بوذاسف » مصحفاً .

---

(١) في مسالك الابصار : « ثم لما ملك الاسلام مدينة بلخ ، كتب تحت هذه الكتابة بالعربية . . . الخ » .

(ج) قال العمرى أيضاً: « بناه منوشهر الهندى . . وكان يأتيه من الصابئة من يتقرب بالقمر » لا يستبعد أن يكون المراد من « المتقربين بالقمر » الهندوس لا غير بناء على أن البعض يرون أن أصل « هندو » هو « إندو » أى القمر (قارن المسعودى: « النوبهار . . . بناه منوشهر . . . على اسم القمر ») .

(د) قد ورد لهذا المعبد ذكر كمعبد للبوذيين فى مذكرات السائح الصينى هوان كوانك الذى زار بلخ فى القرن السابع الميلادى أى قبيل أو بعيد فتح العرب لهـا (دائرة المعارف الاسلامية « Barmakids » .

فهل من شك فى أن النوبهار لم يكن بيتا من بيوت النار يعبد فيه المجوس بل إنما كان معبداً للبوذيين يعبدون فيه الاصنام أو « البد » وإذا وثقنـا من هذا فليس من الصعب الاهتداء الى أن أصل النوبهار هو « نووهار » وهار إسم معروف لمعبد البوذيين والخالقـاه حوله ولا يزال إقليم الهند الشمالية الذى ولد فيه بوذا يسمى « بهار » (Bihar) الى وقتنا هذا . وليس بمستغرب أن خفى الأمر على العرب فانهم كانوا أعرف بكلمة « بهار » الفارسية فلذلك قالوا : « وتفسير النوبهار البهار الجديد لأن « نو » الجديد : وكانت سنتهم أذا بنوا بناء حسنا أو عقدوا بابا جديداً أو طاقا شريفا كللوه بالريحان ويتوجوا ذلك بأول ريحان يطلع فى ذلك الوقت ، فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان ، وكان البهار فسمى نوبهار لذلك » (ياقوت) ، هذا وقد اتفق للعرب إبان فتحهم للسند « أن عرفوا معابد للبوذيين من قبيل وهار : وهاك ما أورده البلاذرى فى وصف واحد منها :

وكان بالديبل بد عظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة : وكانت تدور ، والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ فى بناء لهم فيه صنم لهم أو أصنام ليشهر بها وقد يكون الصنم فى داخل المنارة أيضاً ، وكل شىء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد والصنم بد أيضاً » .

(فتوح البلدان ٤٣٧)

ولا تؤكد المقارنة بين وصف معبد البوذيين هذا وبين وصف النوبهار بأن الواحد لا يختلف من الآخر ؟

كذلك نرى العرب يخبطون خبط عشواء فى تفسير « برمك » فإنهم لا يكونوا يتصوروا أن تكون كلمة « مك » مكه » غير « مكة » فاضطروا إلى القول أن البرامكة « وصفت لهم مكة وحال الكعبة بها وما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام » (ياقوت) أما « بر » فقد كان فى متناولهم كلمة « بور » تعنى الابن بالفارسية فلجئوا إليها . ثم جاء المؤرخون واللغويون من الفرس فلم يكن منهم إلا أن اعتمدوا على علمهم باللغة الفارسية فتخرصوا بأن تكون برمك مشتقة من برمكيدن ثم دعموا هذا التخرص برواية مختلقة كما مر . ولكن الحقيقة التى تنسجم « وهار » وإياها هى أن « برمك » أصلها باللغة السنسكريتية برمك ومعناها الصدر أو ذو الرئاسة العليا ، لا يلقب بهذا اللقب أحد من سدنة بيوت النار أو معابد المجوس ، بل إنما اختص به رؤساء سدنة النوبهار لأسباب ذكرناها آنفاً .

ولعل من الواجب فى هذا المقام أن أثبت أن أول من أشار إلى كون « النوبهار » معبداً للبوذيين (وهار) هما المستشرقان زخاو (مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب الهند ص ٣١) وبرتهلد (Bartinoii) (دائرة المعارف الاسلامية) (Barmakids) كما أن الأول هو الذى بحث عن الأصل السنسكريتى لكلمة « برمك » ثم تتبع نتائجهما الكاتب الهندى الدكتور السيد سليمان الندوى الذى يرجع إليه الفضل فى بسط الدلائل كما قد اقتبستها هنا من كتابه « عرب وهند كى تعلقات ١٠٢ــ١٢٤ » ثم مضى الدكتور السيد سليمان الندوى خطوة أخرى فيلفت النظر إلى أن القول بانحدار البرامكة من أصل إيرانى ينتقض أيضاً بما جاء به ابن الفقيه الهمدانى (وياقوت حرفاً بحرف) وهذا نصه :

« فلم يزل يليها برمك إلى أن فتحت خرسان أيام عثمان بن عفان وقد صارت السدانة إلى برمك أبى برمك أبى خالد فوجه برمك إلى عثمان فى الرهائن فورد

المدينة ورغب في الاسلام فأسلم وسمى عبد الله ورجع إلى ولده وصارت البرمكة فى بعض ولده فكتب بعض الملوك الى برمك يعظم ما أتى من الاسلام ويدعوه إلى الرجوع فى دين آبائه فكتب إليه برمك أنى إنما دخلت فيه اختياراً وعلماً بفضله عن غير رهبة (ولا رغبة) [1] ولا أرجع إلى دين بادى العوار متهتك للاستار فغضب الملك وزحف إلى برمك بجمع كثيف فكتب إليه برمك قد عرفت حبى للسلامة وإنى ان استنجدت عليك الملوك أنجدونى فالنصرف وإلاصرت إلى لقائك ، فانصرف عنه وودعه ثم لم يزل ذلك الملك واسمه نازك (نيزك) طرخان يغتر برمك ويطلبه حتى بيته وقتله وعشرة بنين له فلم يبق لهم برمك سوى برمك أبى خالد فحملته أمه وهربت به وكان صغيراً إلى بلاد قشمير : فنشأ برمك وتعلم النجوم والطب وأنواع الحكة ، وبقى على شركه وأصابهم وباء فتشاءموا بمفارقة دينهم فكتبوا إلى برمك فقدم عليهم فأجلسوه في موضع أبيه فتولى أمر النوبهار فسمى برمكا وتزوج ابنة ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يكنى وخالداً وعمراً وأم خالد ، وسليمان بن برمك من إمرأة غيرها من أهل بخارى وكان صاحب بخارى أهدى إلى برمك جارية فولدت له كال بن برمك وأم القاسم وبنتاً أخرى (كتاب البلدان ٣٢٣ — ٣٢٤)

هذا وقد جاء فى النويرى . نهاية الارب ١٢/٢٩ عن محمد بن العباس المسكى عن الاسباب التى حملت البرامكة على اللجؤ الى الهند ما هو أقرب الى والصواب فانه يقول : « لما قلت الأموال فى ايديهم (الأمويين) شرعوا في مصادرات الرعايا وأخذوا الأموال من غير وجوهها ولقرضوا الى أموال أموال الأوقاف والايتام فتعرض ولاة خراسان لبرمك ولولده وطالبوها بالأموال وكان تحت يد برمك أوقاف جليلة فهرب هو وولده من أعمال خرسان الى بلاد الهند فاقاموا بها الى أن ظهرت الدولة العباسية .... ثم قدم خالدبن برمك واخوه الحسين وأهلهما على المنصور ، ابى جعفر لما أفضت الخلافه اليه فاصطنعهم وادناهم وقربهم الخ (نفس الرواية فى صبح الاعشى ٢/١٢٦) .

(١) كذا . زيادة فى ابن الفقيه لاتوجد فى ياقوت .

أولا يجدر بنا أن نتساءل: لماذا هربت أم أبي خالد إلى بلاد قشمير؟ لأن أصل البرامكة كان من الهند لا من إيران ولا يخفى أن قشمير كانت مركزاً من مراكز البوذية مثل خراسان وتركستان وهناك نشأ برمك أبو خالد على دين آبائه. لا شك أن الفرس ادعوا نسبة البرامكة إلى جاماسب وزير كشتاسب ليثبتوا أنها أسرة إيرانية عريقة في الوزارة. كما أن العرب حاولوا ضم عظمة البرامكة إلى أنفسهم بدعوى أن أم خالد حبلته من عبد الله أخي قتيبة لكنها دعاوى بقيت موضع الشك في أيامنا هذه. أما إلحاح الشعراء إلى عبادة النار في معرض هجو البرامكة فمن السهل جداً عدم الأخذ به لجهل العرب عامة بالفرق بين المجوس والبوذيين ولإطلاقهم «المجوس» على العجم كلهم. وأخيراً لا ننسى أنه كان في مصلحة البرامكة التضامن مع الفرس لأغراض سياسية ظاهرة.

إذن يتضح لنا كل الوضوح تلك الظاهرة القوية التي تستوقف كل من يتتبع حركة نقل العلوم والآداب الهندية إلى بغداد؛ وهي عناية البرامكة التامة بهذا الموضوع. فإننا نراهم يستخدمون جميع الوسائل الممكنة لعرض ما للهند على العرب وهم في ذلك يبدون كأنهم يعرضون شيئاً من عندهم على غيرهم. أنظر إليهم يستقدمون ابن دهن فيعهدون إليه إدارة المستشفى المعروف باسمهم والاشراف على ترجمة الكتب من السنسكريتية (الفهرست ٢٤٥). ثم أنظر إلى جعفر البرمكي يقدم صالح بهلة إلى الرشيد لمعالجة ابن عمه ابراهيم بن صالح[1] ويمنح أبان الشاعر جائزة قدرها مائة ألف درهم على نظمه قصة كليلة ودمنة[2]. أما قصب السبق في هذا الميدان فكان ليحيى بن خالد — حفيد أبي خالد الذي نشأ في بلاد قشمير وتعلم هناك «النجوم والطب وأنواع الحكمة» — فانه هو الذي جلب من الهند علماء وأطباء أمثال بهلة ومنكة وبازيكر قلبرقل وسندباد الذين أقاموا ببغداد؛ وربما أسلم بعض أولادهم مثل صالح بن بهلة والذين عرفوا العرب الطب والبلاغة عند أهل الهند[3]، ولكن أهم الأعمال التي تمت على يدى

---

(١) ابن أبي أصيبعة ٢ / ٣٤

(٢) الجهشياري ٢٥٩

(٣) البيان والتبيين ١ / ٩٢

يحيى بن خالد إطلاقا هو إرساله رجلا فى بعثة علميه إلى الهند « ليأتيه بعقاقير موجودة فى بلادهم وأن يكتب له أديانهم » (الفهرست ٣٤٥) فان التقرير الذى وضعه هذا المبعوث ربما كان هو المرجع الوحيد للعرب والمسلمين فى كل ما يتعلق بالموضوع طيلة مدة قرنين الى ظهور ذلك النابغة المحقق أبى ريحان البيرونى . وقدوقع فى يد ابن النديم نسخة من هذا التقرير مكتوبة « يوم الجمعة لثلث خلون من المحرم سنة تسع وأربعين ومائتين » ومطابقة حرفا حرفا نسخة أخرى بخط يعقوب بن اسحق الكندى : أورد منه ابن النديم مقتطفات تتضمن وصفاً لبعض المعابد وفرق الهنود (الفهرست ٣٤٥ — ٣٤٩) ونجد بمقارنة بعض أجزاء هذه المقتطفات بما جاء فى كتاب البدء والتاريخ (٤ ٩ الى ١٩) أن مؤلفه مطهر بن طاهر المقدسى : ربما اقتبس من ذلك المصدر نفسه . ثم إن بيان مطهر بن طاهر المقدسى كأنه جزء مما جاء (مترجما بالفارسية) فى كتاب زين الأخبار لكرديزى فى هذا الباب[1] وقد نص الكرديزى على أنه أخذ عن كتاب التواريخ لأبى عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وزير بنى سامان (أوائل القرن الرابع الهجرى) ويذهب البروفسور مينورسكى الى أن الجيهانى ربما اعتمد بدوره على كتاب المسالك الكبير ; أصل المختصر الذى نشره دى غويه) لأبن خرداذبه . هذا وقد عثرت أخيراً على مقطوعتين فى كتاب أخبار الزمان المنسوب الى المسعودى (القاهرة ١٩٣٨م ص ٢٧) كأنهما أصل الترجمة الواردة فى كرديزى (البلدان ٤١ و٤٢) .

فهذا هو الجو الذى ازدهرت فيه حركة نقل العلوم والآداب الهندية الى العرب وإنما قصدنا الى إبراز بعض العوامل التى ساعدت فى قيامها ، ولا شك أنها بدأت قوية بحيث تكونت للعرب فى أوائل القرن الثالث للهجرة فكرة واضحة جلية عن مدى براعة الهنود فى العلوم والفنون المختلفة ، كما بسطها الجاحظ فى رسالة فخر السودان على البيضان ، وكما يجملها قوله : « إنما الأمم

(1) راجع V. Minorsky: Gardizi on India, Bulletin of London School of Oriental Studies, 1948, XII/3 & 4.

المذكورون من جميع الناس أربع العرب وفارس والهند والروم » (البيان والتبيين ١ /١٣٧) أما استقصاء تاريخ هذه الحركة فهو موضوع مستقل لا سيما إذا تذكرنا أنها استمرت فيما بعد إلى أن بلغت ذروتها في شخصية البيروني الذي مر ذكره آنفاً .

الصـــوم

للدكتور علي عبد الواحد وافي

١ — نشأة الصيام وأنواعه ...

لا نعلم على وجه اليقين متى نشأت فكرة الصوم في المجتمعات الانسانية ؛ ولا نكاد نعرف شيئاً يعتمد به عن الأسباب الأولى التي دعت إليه ؛ كما أن ما وصل إلى علمنا عن النظم الدينية للأمم الغابرة لا يرشدنا إلى أول شريعة جاءت به ؛ ولا يقفنا على أول شعب ظهر فيه . وكل ما يذهب إليه بعض الباحثين في صدد هذه الأمور يتألف من آراء نظرية تعتمد في بعض نواحيها على الحدس والتخمين ؛ وفي نواح أخرى على استنباطات ضعيفة قلقة لا يطمئن إلى مثلها منهج سليم .

غير أنه مما لاشك فيه أن الصوم من أقدم العبادات الانسانية ومن أكثرها انتشاراً . فلم يكد يخلو منه دين من الأديان التي أخذت بها المجتمعات ، ولم تتجرد منه شعائر شعب من شعوب العالم قديمه وحديثه : جاء في ملل التوتميين[1] والمجوس والوثنيين والصابئين والمانوية والبوذيين وعبدة الكواكب والحيوان ، كما جاء بشرائع اليهود والنصارى والمسلمين .

---

(١) نسبة إلى التوتم Totem ، وهو نوع من الحيوان أو النبات أو غيرهما تتخذه العشيرة رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس . والغالب في التوتم أن يكون من الحيوان أو النبات ، ويندر أن يكون من الجماد أو من مظاهر الطبيعة . والغالب في التوتم كذلك أن يكون نوعاً لا فرداً معيناً أو أفرادا معينين . فالعشيرة لا تنتمي مثلا إلى ذئب معين أو نمر معين ، وإنما تنتمي إلى فصيلة الذئب أو فصيلة النمر . وتنتشر الديانة التوتمية بين شعوب بدائية كثيرة وخاصة السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا (انظر كتابنا في « الأسرة والمجتمع » الطبعة الثانية ص ٧ وتوابعها) .

وقد اختلفت أشكاله باختلاف الأمم والشرائع ، وتعددت أنواعه بتعدد الظروف المحيطة به والأسباب الداعية إليه . فمنه ما يكون بالكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي والكلام ، ومنه ما يكون بالكف عن واحد من هذه الأمور أو عن بعضها .

ولعل الكف عن الكلام هو أغرب أنواع الصيام . وهو منتشر لدى كثير من الأمم البدائية وغيرها . فقد ذكر الاستاذان سبنسر وجيلين (B. Spencer and Gillen) فى كتابهما عن سكان استراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحيانا عاما كاملا ، صائمة عن الكلام . ويظهر أن شيئا من هذا كان متبعا فى ديانة اليهود ، بدليل قوله تعالى على لسان مريم : « إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ... فأشارت اليه . . الخ»[1].

والامساك عن الأكل والشرب فى الصيام يقع على وجود كثيرة : فمنه المطلق الذى يشمل جميع المأكولات والمشروبات (كصيام الصابئين والمانوية والمسلمين) ، ومنه المقيد الذى يتم بالكف عن بعض أنواعها (كبعض أنواع الصيام عندالمسيحيين) .

وقوام الصيام ، كما يظهر من ملاحظة الأشياء التى يقتضى الكف عنها : هو حرمان الجسم والنفس من بعض حاجاتهما الضرورية المحببة .

ومن أنواع الصيام مايقتضى الامساك عن هذه الأمور اليوم كله نهاره وليله ، ومنه ما لا يقتضي الامساك إلا نهارا أو شطراً من النهار ، ومنه ما يبدأ بغروب الشمس ويستغرق الليل كله أو شطراً منه .

ومن أنواع الصيام مايكون متتابعا يجرى فى أيام متتالية ، ومنه مايكون مقصورا على يوم واحد أو ليلة واحدة أو جزء من يوم أو ليلة ، ومنه ماشرع فى أيام غير متتابعة يفصلها بعضها عن بعض فترات معينة .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا « نشأة اللغة عند الانسان والطفل » صفحة ٩.

ومن أنواع الصيام ما هو واجب على جميع الطبقات أو على بعضها بشروط خاصة ، ومنه ما هو مستحب يندب إليه جميع الأفراد أو بعض طوائف منهم .

٢ – مقتضيات الصيام ومناسباته

هذا وترجع أهم الحالات والمناسبات التي تقتضي الصوم على وجه الوجوب أو الندب في مختلف الشرائع الانسانية إلى الأمور الآتية :

١ – حلول مواقيت عادية دورية : كحلول فصل معين من فصول السنة أو شهر من شهورها . أو يوم من أيام الأسبوع ؛ أو بلوغ كوكب منزلة خاصة من منازله . . . وما إلى ذلك . وكثيراً ما يكون الميقات تاريخاً لحدث اجتماعي خطير وقع فيه : فيتجه الصيام أولا وبالذات إلى هذا الحدث أو إلى أمور تتصل به : كشهر الصيام مثلا عند المسلمين ، فانه تاريخ لنزول كتابهم الكريم وهو القرآن ؛ وكاليوم السابع عشر من الشهر الرابع العبرى عند اليهود وهو أحد أيام صيامهم : فانه تاريخ لسقوط أورشليم عاصمة ملكهم القديم .

٢ – حلول ظواهر فلكية غير عادية كالكسوف والخسوف .

٣ – حوادث الوفاة .

٤ – بلوغ الشخص سناً معينة أو مجاوزته مرحلة من مراحل حياته .

٥ – التكفير عن بعض الذنوب المقصودة وغير المقصودة أو التحلل من بعض الواجبات والالتزامات الدينية وغيرها .

٦ – وقد يتخذ الصوم وسيلة للحصول على أغراض نفعية إيجابية (بلوغ منزلة خاصة من المنازل اللاهوتية ، صفاء الروح ، إشراق الحقائق على النفس وإلهامها المعلومات ، الاطلاع على الغيب ، الاتصال بعالم السماء ، القدرة على الاتيان بأمور خارقة للعادة ، تسخير بعض القوى غير المرئية وإرغامها على سلوك معين، إنزال المطر أو إرغام الهواء على الهبوب ... وهلم جرا).

٧ — وقد يلجأ إلى الصوم لدفع ضرر فردى أو جمعى (مرض أو وباء أو طوفان أو قحط . . . وما إلى ذلك) .

٨ — وقد يتخذ الصوم تمهيداً لعبادة أخرى أو وسيلة لجعلها مقبولة أو عنصراً هاماً من عناصرها . ومن ذلك الصوم الذى يسبق أو يصاحب تقديم القربان أو الوفاء بالنذور أو إيتاء الزكاة أو إخراج الصدقات أو الاعتكاف أو الصلاة . . . وما إلى ذلك .

ولعل أهم أنواع الصيام وأكثرها انتشاراً فى مختلف الديانات هو النوع الأول ، وهو الصيام فى مواقيت معينة تتكرر كل سنة أو كل شهر أو كل أسبوع ، وهو الصيام الذى يرتبط فى الغالب بتاريخ أحداث اجتماعية خطيرة .

ومن أشهر الديانات التى وجهت إلى هذا النوع من الصيام عناية كبيرة ، وكثرت فيها مناسباته ، وأنزلته منزلة الفروض العينية ، ديانات الصابئين والمانويين والبرهميين والبوذيين واليهود والمسلمين .

وسنقصر كلامنا فيما يلى على بيان مظاهر هذا النوع من الصيام فى هذه الشرائع والبحث عن الدعائم التى يقوم عليها .

٣ — الصيام ذو المواقيت الدورية فى ديانة الصابئين والمانوية

ذكر ابن النديم فى كتابه « الفهرست » [١] أن شريعة الحرانيين المعروفين بالصابئة أو الصابئين (وقد بقى بدياناتهم كثير من آثار الديانة البابلية القديمة المؤسسة على تقديس الكواكب) « تفترض عليهم من الصيام ثلاثين يوماً أولها لثمان مضين من اجتماع آذار (مارس) ، وتسعة أخر أولها لتسع بقين من اجتماع كانون الأول (ديسمبر) ، وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط (فبراير) وهى أعظمها . وأعيادهم عيد يسمى عيد فطر السبعة وعيد فطر الشهر وقيل فطر الثلاثين . . . » .

---

(١) انظر الجزء التاسع من كتاب « الفهرست » لابن النديم .

وذكر فى أثناء كلامه عن أشهرهم أنهم يقومون بصيام الثلاثين تكريماً للقمر : وبصيام تسعة الأيام تكريماً « لرب البخت » (وهو زوس أو جوبيتر أو المشترى على ما يظهر من سياق كلامه ومما ذكره فى موطن آخر عن صفات هذا الكوكب) : وبصيام سبعة الأيام تكريماً للشمس « وهى الرب العظيم رب الخير » .

ويظهر من عباراته أن صيام الثلاثين كان إمساكا مطلقاً عن جميع المأكولات والمشروبات من طلوع الشمس إلى غروبها وكذلك صيام تسعة الأيام ، على حين أن صيام السبعة كان مقيداً : فكانوا « لا يأكلون فى هذه الأيام شيئاً من الزفر[1] ولا يشربون الخمر » .

وذكر فى أثناء كلامه[2] عن الثنوية الكلدانيين أو المانوية (وديانتهم خليط من البابلية القديمة والمسيحية والفارسية ، وفيها مظاهر كثيرة من تقديس الكواكب . أما زعيمهم الديني الذى ينسبون إليه فيسمى « مانى بن فتق ») أن لصوم لديهم فى مواقيت كثيرة : « فاذا نزلت الشمس القوس وصار القمر نوراً كله يصام يومان لا يفطر بينهما ، فاذا أهل الهلال يصام يومان لا يفطر بينهما ، ثم بعد ذلك يصام إذا صار نوراً يومان فى الجدى ، ثم إذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو ومضى من الشهر ثمانية أيام يصام حينئذ ثلاثون يوماً يفطر كل يوم عند غروب الشمس » . وعقب على ذلك بما يفهم منه أنهم كانوا يصومون كذلك الأحد من كل أسبوع وأن خواصهم كانوا يصومون الاثنين أيضاً ؛ وذكر قبل عبارته الأولى أنهم كانوا يصومون كذلك « سبعة أيام أبدا فى كل شهر » .

ومن هذا يتبين أنه كان لهم صوم أسبوعى وصوم شهرى وصوم سنوى : فكانوا يصومون الأحد والاثنين من كل أسبوع ، واليومين الأولين وسبعة أيام أخرى من كل شهر قمرى ، وأربعة وثلاثين يوماً سنوياً ، منها يومان متتابعان عند نزول الشمس القوس ؛ ويومان متتابعان عند نزولها منزلة الجدى وثلاثون يوماً متتابعة عند نزولها الدلو .

(1) كلمة عامية معناها اللحم وما إليه .
(2) المرجع السابق نفسه .

وعبارات ابن النديم صريحة فى أن صومهم الشهرى والسنوى كان متصلا اتصالا وثيقاً بالظواهر الفلكية . أما صومهم الأسبوعى فقد ذهب المطران الأرمنى «عبيد جيزو Ebedjésu» كما نقل عنه فلوجل (Flügel) إلى أنهم كانوا يصومون الأحد لأنهم كانوا يعتقدون أن القيامة تقوم فى يوم الأحد ، فكانوا يعملون على ما يظهر على أن تقوم عليهم القيامة وهم صيّم [1] . وذهب ليون لوجران (Léon le Grand) كما نقل عنه «وسترمارك» [2] إلى أن صيامهم الأحد والاثنين كان تكريماً للقمر والشمس . وهذا التعليل أدنى إلى الصحة من الأول ، لأنه يرجع هذا الصوم الأسبوعى إلى الأسباب نفسها التى ترجع إليها الأنواع الأخرى من صيامهم ، ولاتفاقه مع ما قاله ابن النديم بصدد الكواكب والنجوم التى ينسب إليها فى نظرهم كل يوم من أيام الأسبوع . فقد ذكر أن « يوم الأحد للشمس واسمها ايليوس : ويوم الاثنين للقمر واسمه سين ، ويوم الثلاثاء للمريخ واسمه آرس . . . الخ » [3] . وإذا لاحظنا أن أكبر آلهتهم إلاهان هما الشمس والقمر اللذان ينسب إليهما يوم الأحد ويوم الاثنين أدركنا السبب فى تخصيصهم هذين اليومين بالصوم من بين أيام الأسبوع .

ولم يكن الصوم هو المظهر الفذّ لتأثر الصابئين والمانويين بالديانة البابلية القديمة المؤسسة على تقديس الكواكب ، بل ظهر هذا التأثر كذلك بشكل جلىّ فى صلاتهم وأوقاتها . فقد جاء فى « فهرست » ابن النديم (وهو من أهم المراجع فى هاتين الشريعتين) مايدل على اتصال هذه الأوقات اتصالا وثيقاً بحركات الشمس الظاهرة . أما الصائبون فقد ذكر فى صددهم أن المفترض عليهم من الصلاة « فى كل يوم ثلاث : أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل لتنقضى مع طلوع الشمس وهى ثمان ركعات وثلاث سجدات

---

(1) V. Westermarck : L'Origine et le Développement des Idées Morales. T. II, P. 300 (traduction française de R. Godet. Paris 1929.)

(2) Westermark, op. cit. même page.

(3) الفهرست لابن النديم الجزء التاسع .

فى كل ركعة : والثانية انقضاؤها مع زوال الشمس وهى خمس ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة : والثالثة مثل الثانية انقضاؤها عند غروب الشمس » .
وعقّب على ذلك بقوله : « وإنما ألزمت هذه الأوقات لمواضع الأوتاد الثلاثة التى هى وتد المشرق ووتد وسط السماء ووتد المغرب » . « وصلواتهم النافلة التى هى بمنزلة الوتر فى لزومه للمسلمين ثلاث فى كل يوم : الأولى فى الساعة الثانية من النهار (وهى تقابل صلاة الضحى عند المسلمين) : والثانية فى الساعة التاسعة من النهار (وهى تقابل العصر) : والثالثة فى الساعة الثالثة من الليل (وهى تقابل العشاء) . ولا صلاة عندهم إلا على طهور » . وأما المانويون فقد ذكر ابن النديم أنه قد فرض عليهم من الصلوات أربعا أو سبعا . « فأما الصلاة الأولى فعند الزوال : والصلاة الثانية بين الزوال وغروب الشمس : ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس . ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات » . ووصف صلاتهم فى العبارات الآتية التى تدل على أنهم كانوا يقيمونها تقديساً للكواكب وبخاصة الشمس : « وذلك أن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجارى أو غيره ويستقبل النير الأعظم قائماً : ثم يسجد ويقول فى سجوده : مبارك هادينا الفارقليط رسول النور ومبارك ملائكته الحفظة ومسبح جنوده النيرون . يقول هذا وهو يسجد ويقوم؛ ولا يلبث فى سجوده ويكون منتصباً : ثم يقول فى السجدة الثانية : مسبح أنت أيها النير أصل الضياء . . » [١] .

٤ — الصيام ذو المواقيت فى الديانات الهندية

وتقدم لنا كذلك الديانات الهندية . وخاصة البرهمية والبوذية . أمثلة كثيرة للصيام ذى المواقيت الدورية المتصل بظواهر الفلك : ولا سيما ظواهر الشمس والقمر .

فقد فرضت شريعة البرهميين على طبقة الكهنة (التى يطلق على أفرادها إسم البراهمة) الصيام أيام الاعتدالين (أول فصل الخريف وأول فصل الربيع)

(١) المرجع السابق نفسه .

والانقلابين (أول فصل الشتاء وأول فصل الصيف) واليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قمرى (مبدأ ظهور الهلال وعندما يصير بدراً). وورد فى كتب البرهميين المقدسة أنه فى أثناء كسوف الشمس يجب الكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسى والصلاة ؛ وهذا فيما يتعلق بالطبقات الدنيا ، أما الطبقات العليا (طبقة البراهمة أو الكهنة وطبقة المحاربين) فلا يقتصر واجبهم على ما تقدم ، بل يحرم عليهم كذلك الانتفاع بشيء من الأطعمة التى تكون بمنازلهم وقت الكسوف ، ويجب عليهم التصدق بها على غير أفراد طبقتهم بعد تحطيم الآنية التى كانت تشتمل عليها [1] . وتوجب شرائع مانو (التى يتألف منها أهم قسم من شرائع الديانة البرهمية) على طبقة السناتاكا Snatakas (وهم كبار الكهنة من البرهميين) أن يكفوا عن الأكل والشرب والنوم والسفر من غروب الشمس إلى زوال الشفق الأحمر كل يوم [2] .

وكثير من الديانات الهندية المؤسسة على تقديس الشمس توجب على متبعيها الصيام كل يوم من غروب الشمس إلى شروقها ورؤية جرمها بالسماء . فإن حجبتها السحب عند طلوعها وجب مواصلة الصيام حتى تبزغ [3] (ومن الغريب أن هذا النوع من الصيام متبع عند عشائر السنانيموك (Snanaïmuq) من قبائل السالِيش (Saliches) ، وهى إحدى قبائل الهنود الحمر التى يتألف منها السكان الأصليون لأمريكا الشمالية [4] .

وقد فرضت ديانة البوذيين الصيام من شروق الشمس إلى غروبها فى أربعة أيام من كل شهر قمرى يسمونها أيام « اليوبوزاتا » (Uposatha) وهى اليوم الأول والتاسع والخامس عشر والثانى والعشرين (أى فى مبدأ كل منزلة من منازل القمر الأربع) كما أوجبت فيها الراحة التامة وحرمت مزاولة أى عمل حتى إعداد طعام الافطار . ولذلك يعمل الصائمون على إعداد طعام إفطارهم قبل شروق الشمس من كل يوم من هذه الأيام الأربعة [5] .

---

(1) Crook : Popular Religion of Northen India, I, 21 ; Westermarck, op. cit., p. 296.

(2) Lois de Manou, IV, 55.

(3) Crook : Things Indian p. 214.

(4) Westermarck, op. cit. 297.

(5) Childers : A Dictionary of the Pali Language p. 535.

٥ — الصيام ذو المواقيت الدورية فى الديانة اليهودية

وفى الديانة اليهودية لهذا النوع من الصيام أمثلة كثيرة من أهمها صيام اليوم العاشر من الشهر السابع العبرى (يوم كبور ، أو يوم الكفارة) . وقد كتب هذا الصوم على اليهود للاستغفار وطلب العفو عن الخطايا بنصوص قطعية صريحة من التوراة نفسها[١] .

ويظهر أن اليهود فى عصورهم القديمة كانوا يصومون السبت من كل أسبوع واليوم الأول من كل شهر قمرى ، فضلا عن كفهم عن مزاولة الأعمال فيهما ، ثم قصر الأمر فيما بعد على الكف فيهما عن مزاولة الأعمال . وهذا ما يستفاد ضمنا من الآيات التى نهوا فيها نهياً صريحاً عن صيامهما : إذ النهى عن صيام هذين اليومين بالذات دليل على أنهم كانوا يصومونهما فيما سبق . وذلك أن الحظر فى الشرائع لا ينصب فى الغالب إلا على شىء كان متبعاً معمولا به[٢] .

ولصيام هذين اليومين صلة وثيقة بحركات القمر . أما صيام اليوم الأول فصلته بذلك واضحة كل الوضوح . وأما صيام يوم السبت فقد قامت أدلة كثيرة على أن خواتيم الأسابيع كانت توافق فى عصورهم القديمة دخول القمر فى منازله . فكانت مواقيتهم الفلكية : على ما يظهر ، تقسم الشهر القمرى أربعة أقسام يمثل كل قسم منها منزلة من منازل القمر الأربع . وكان كل قسم من هذه الأقسام يسمى أسبوعا ، ويختتم بيوم السبت . على أن التفكير فى تقسيم الزمن إلى أسابيع ترجع نشأته الأولى فى الانسانية إلى تعاقب منازل القمر واستغراق كل منزلة منها نحو سبعة أيام . وبذلك يتصل صيام اليهود القديم فى سبتهم بالظواهر نفسها التى يتصل بها صيام البوذيين أربعة أيام من كل شهر قمرى كما تقدم .

---

(١) سفر اللاويين ٢٩ وتوابعها من الاصحاح السادس عشر و ٢٧ وتوابعها من الاصحاح الثالث والعشرين ؛ وسفر العدد ٧ من الاصحاح التاسع والعشرين .

(٢) Jastrow: Original Caracter of the hebrew Sabbat, dans: American Journal of Theology. II, 325: Westermarck op. cit. 298.

وورد في الآيات الثانية والثالثة والتاسعة والعاشرة من الاصحاح الثامن بسفر نحميا (وهو من الأسفار التاريخية من العهد القديم) ما يدل على أن كثيراً من اليهود كانوا يصومون اليوم الأول من الشهر السابع ؛ وعلى أن نحميا نفسه أقرهم على ذلك وأمر أفراد الشعب بأن يبعثوا الى الصائمين منهم في هذا اليوم بطعام افطارهم[1] .

وورد كذلك في الآية الأولى من الاصحاح التاسع بسفر نحميا ما يدل على أن اليهود قد صاموا اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع : « في اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع اجتمع بنو اسرائيل مرتدين المسوح ومعفرين جسومهم بالرماد الاحتفال بيوم الصوم » .

ويفهم مما ورد في سفر زكريا أنهم بعد الجلاء إلى بابل كانوا يصومون أياما أخرى كثيرة دورية لذكرى حوادث مؤلمة في تاريخهم ؛ وأنهم كانوا يسمون كلا منها برقم الشهر العبري الذي وقعت فيه الحادثة . فمن ذلك « الصوم الرابع » الذي كان يقع في السابع عشر من الشهر الرابع (تموز ؛ يوليه) تذكرى سقوط أورشليم ؛ و « الصوم الخامس » الذي كان يقع في التاسع عشر من الشهر الخامس (آب ، أغسطس) لذكرى خراب أورشليم والهيكل ؛ و « الصوم السادس » وهو صوم أستير الذي كان يقع في الثالث عشر من الشهر السادس (آذار ؛ مارس) لذكرى حادثة هامان وأستير ، و « الصوم السابع » في الثالث من الشهر السابع (تشرى ، سبتمبر) لذكرى قتل جدلياً آخر رئيس على اليهود بعد السبي ؛ « والصوم العاشر » الذي كان يقع في العاشر من الشهر العاشر (طيبت ؛ كانون الثاني ، يناير) لذكرى حصار أورشليم .

ولديهم كذلك أنواع أخرى مستحبة من الصيام تقع في مواقيت دورية ويقومون بها تخليداً لذكرى وفاة عظمائهم كموسى وهرون والشهداء وحوادث أخرى في تاريخهم ؛ ويبلغ عددها خمسا وعشرين .

(1) انظر هذه الآيات ولا سيما الآية العاشرة وانظر ما كتبه في هذا الصدد « وسترمارك » ؛ المرجع السابق ؛ صفحة ٢٩٨

ويصوم بعض أتقيائهم اختياراً الاثنين والخميس من كل أسبوع حزناً على سقوط أورشليم والهيكل ، وأول وثانى اثنين وأول خميس من شهرى أيار (مايو) وحشوان (أكتوبر) بعد عيد الفصح والمظال كفارة عن خطاياهم فى الأعياد . وقد جرت العادة لديهم كذلك أن يصوم البكر من كل عائلة اليوم السابق لعيدالفصح لذكرى حادثة قتل الأبكار قبل الخروج من مصر .

٦ — الصوم ذو المواقيت الدورية عند المسلمين

شرع الدين الاسلامى أنواعا كثيرة من الصيام فى مواقيت دورية : بعضها يعود مرة كل سنة ؛ وبعضها مرة كل شهر ؛ وبعضها مرة كل أسبوع. ومن هذه الأنواع ما هو فرض وهو صيام رمضان ، ومنها ما هو مستحب كصيام التاسع والعاشر من المحرم؛ وثلاثة الأيام الأولى من رجب ، والخامس عشر من شعبان ، وستة أيام متتابعة من شوال تبدأ من اليوم الثانى منه (من صام رمضان وأتبعه بست من شوال ... الحديث) ، والتاسع من ذى الحجة (وهو يوم عرفة) ، والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمرى (لقوله عليه السلام من صام من كل شهر ثلاثة أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، فكأنما صام السنة كلها . وتسمى هذه الأيام بالأيام البيض لبلوغ القمر فى لياليها إلى كماله) ، وصيام الاثنين والخميس من كل أسبوع . . . وهلم جرا .

وتحافظ بعض فرق المسلمين على أنواع من الصيام ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية ذات بال فى تاريخها الخاص ، كاحياء بعض فرق الشيعه للأيام العشرة الأولى من المحرم بالصيام والقيام وترتيل الأوراد تخليداً لذكرى من استشهد من آل البيت فى هذه الأيام .

٧ — تعليل الصوم ذى المواقيت المرتبطة بأحداث اجتماعية

ينتظم الصيام ذو المواقيت الدورية — كما يظهر ذلك مما سبق — مجموعتين مختلفتين : إحداهما أنواع ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية وقعت فيها ؛

وثانيهما أنواع لاتتصل مواقيتها بأحداث اجتماعية وإنما ترتبط بظواهر فلكية خالصة .

أما الأنواع التي ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية وقعت فيها — وهي أهم أنواع هذا الصيام ، وأكثرها انتشاراً ، وأعظمها خطراً — فيرجع السبب في نشأتها إلى حرص المجتمع على تخليد هذه الأحداث ، وتجديد ذكرياتها في النفوس ، وجعلها ماثلة في أذهان الأفراد ؛ وبالجملة يرجع إلي حرصه على تسجيل تاريخه وإحياء أيامه البارزة .

وتتحقق هذه الأغراض الاجتماعية فيما جاءت به الديانات السماوية تقسيمها من هذا النوع . غير أن حكمة التشريع في هذه الديانات كثيراً ماتكون أوسع نطاقاً من ذلك . وقد تتجه أحياناً اتجاهاً آخر .

٨ — تعليل الصوم ذى المواقيت المرتبطة بظواهر فلكية

وأما الأنواع الأخرى من هذا الصيام الدورى ؛ وهى التى لاتتصل بأحداث اجتماعية ، وإنما ترتبط بظواهر فلكية خالصة ، فقد اختلفت آراء العلماء اختلافاً كبيراً فى تعليلها وتوضيح نشأتها . فمنهم من يرى أنها مظهر من مظاهر عبادة الكواكب ؛ وأن نشأتها الأولى فى المجتمعات الانسانية ترجع إلى رغبة الناس فى الظهور بمظهر الضعف والمسكنة والذلة والخشوع أمام الكواكب المقدسة عند بلوغها فى سيرها منزلة ذات تأثير يقينى أو معتقد فى حياة الحيوان أو النبات أو الطبيعة . فهذا النوع من الصوم لايختلف فى نظر أصحاب هذا الرأى عن الصلاة التى يقيمها عباد الشمس عند شروقها أو زوالها أو غروبها : كلاهما رمز إلى ضعف العابد وذله وعظمة المعبود وجلاله ؛ وكلاهما يحدث فى أوقات تتجلى فيها قدرة المعبود وتظهر آثاره فى حياة العابد ؛ وكلاهما يتضمن اشتراك الجسم فى التعبير عما يريد العابد أن يظهر به من صفات الاستكانة والخضوع . وكل ما بينهما من فرق أن الصلاة تعبر عن ذلك بتقصير الجسم فى الركوع والعمل على تلاشيه ومساواته بالرغام

فى السجود ؛ على حين أن الصوم يعبر عن ذلك بطريق إضعافه وحرمانه من بعض ما يحتاج اليه .

ومنهم من يرى أن نشأة هذه الأنواع من الصيام يرجع السبب فيها إلى خوف الانسان فى مراحله الدينية الأولى من بعض ظواهر فلكية واعتقاده أنها نذير نحس وحرصه على أن يتقى شرها بالكف فى أثناء حدوثها عن كل ما يمكن أن يكون مصدر مكروه كالطعام والشراب . وقد ظهر للقائلين بهذا الرأى من دراستهم لمجموعة المعتقدات التى كان يدين بها معظم الأمم السابق ذكرها أن صيام كل منها كان يقع فى الأوقات التى اشتهر عندها فى جميع عصورها أو فى بعضها أنها أوقات نحس . ويرون فى شرائع البوذيين على الأخص أوضح دليل على صدق مايذهبون اليه . فقد تقدم أن أيام الصيام عند البوذيين لا يجب فيها الكف عن الطعام والشراب فحسب ، بل يجب فيها كذلك الكف عن مزاولة أى عمل ، وما ذاك إلا لشدة اعتقادهم فى نحسها ومبالغتهم فى الحرص على اتقاء شرها باحجامهم عن كل ما يمكن أن ينجم عنه مكروه .

* * *

وغنى عن البيان أن هذه الآراء وما إليها لايمكن أن يصدق شىء منها إلا على شرائع المجوس والوثنيين والصابئين والمانوية ومن إليهم . أما ماجاءت به شرائع التوحيد من صيام — وإن بدا فى ظاهره متصلا بسير الأفلاك ومنازلها — فتتعالى أغراضه فى الحقيقة عن هذه الأمور علواً كبيراً ، كما سيظهر لنا ذلك فى الفقرة التالية .

٩ — محاولات باطلة لرد "صيام ذي المواقيت عند المسلمين إلى نظيره عند الصابئة والمانويين

حاول كثير ممن في قلوبهم مرض، وممن وقفوا جهودهم على النيل من الاسلام والكيد له تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية، أن يرجعوا أنواع الصيام الموقوتة عند المسلمين إلى نظائرها عند الصابئة والمانويين؛ وعلى الأخص صيام رمضان عندنا إلى صيام الثلاثين عندهم، كما حاولوا رجع صلواتنا إلى صلواتهم. فزعموا أن محمداً (عليه الصلاة والسلام) قد نقل عن هاتين الشريعتين معظم ماجاء به من صلاة وصوم؛ وأنه كان أميناً في النقل فلم يغير شيئاً من أوقات هذه العبادات وتواريخها؛ وأن كل ما عمله أنه جعلها لوجه الله بعد أن كانت تؤدى للشمس والقمر وغيرهما من الكواكب، وأن هذا القناع لم يستر شيئاً من حقيقتها، فان الأوقات التي شرعها فيها واتصال هذه الأوقات بحركات الشمس والقمر والكواكب كل أولئك ينم على الأصول التي استمدت منها. وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا، فزعم أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان يجهل، إذ نقل هذه العبادات، أن الصابئة والمانوية يقصدون منها تقديس الكواكب؛ وأنه لو كان يعلم ذلك ما جاء بها؛ لتعارضها مع شريعة التوحيد التي أسس عليها دعوته.

ومن هؤلاء الدكتور جاكوب. فقد قرر في رسالة كتبها في موضوع صيام رمضان: بعد تحقيقات حسابية طويلة وموازنات بين التواريخ العربي والميلادي والبابلي، أن أول سنة شرع فيها صيام رمضان وهي سنة ٦٢٣ ميلادية كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آذار، أي إن أول رمضان صامه المسلمون كان موافقاً في مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الحرانيين (فقد قلنا إنهم كانوا يصومون ثلاثين يوماً تبدأ من الثامن شهر آذار)[1].

(١) انظر أول الفقرة الثالثة من هذا المقال (آخر صفحة ١١٦).

وأن في هذا أقطع دليل على أن محمداً (عليه السلام) قد نقل صومه عن شريعة الصابئين [1] .

وذهب الأستاذ وسترمارك إلى ما يقرب من هذا الرأى مع شيء من الاعتدال والحذر في التعبير إذ يقول : « إن وجوه الشبه بين صيام رمضان وصيام الحرانيين والمانوية لبالغة من الوضوح مبلغاً يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذه الأنواع الثلاثة من الصيام نظرته الى ثلاث شعب متفرعة عن أصل واحد . فلا مشاحة اذن فى أن محمداً قد نقل صيامه عن الحرانيين أو المانوية أو عنهما معاً »[2] .

وهذه لعمرى شنشنة عرفناها عن معظم من تصدى من الفرنجة لبحث عقائد الدين الاسلامي وشعائره . فتراهم : قبل أن يفهموا الموضوع الاسلامى الذى يتصدون لدراسته حق الفهم ، يوجهون همهم إلى البحث عن نظير له فى الشرائع الأخرى ، ولا يكادون يعثرون عليه حتى يوحى اليهم تعصبهم أنه لابد أن يكون هذا منقولا عن ذاك ، ثم لاتعوزهم الحيل والمنافذ التاريخية لالباس أهوائهم ثوب الحقائق .

ومع أن المقام لايتسع لرد مفصل على ما زعموه بصدد صيام رمضان ، لانرى مندوحة عن الاشارة إلى بعض أمور أعماهم تعصبهم عن النظر اليها ؛ وهى خليقة أن تقوض مزاعمهم رأسا على عقب ، وهذه الأمور هى :

(أولا) لم يعرف أنه قد حدث فى الجاهلية اتصال فكرى أو دينى كبير بين قريش التى نشأ فيها الرسول وبين الصابئة أو المانوية . وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة . منها اختلاف اللغة والخط والثقافة والحضارة ؛ ومنها بعد المسافة بين منازل هؤلاء وأولئك ، فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية فى حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون

---

(1) Iacob (K. G.) Der muslimische Fastenmonat Romadân ; dans VI Gesellschaft zu Greifswald, 1ère partie, 1893-96, p. 2 et suiv.

(2) Westermarck, op. cit. 301, 302.

الحجاز والمواطن المتاخمة له ؛ وكانت أسفارهم التجارية لا تتجاوز طريق الشام واليمن يسكون أحدهم في رحلة الشتاء والآخر في رحلة الصيف . ولم يعرف عن الرسول عليه السلام أنه اتصل قبل بعثته بالصابئين والمانوية أو احتك بثقافتهما الدينية أو عنى بدراسة شرائعهم أو وقف على شيء منها . وظل هذا حاله إلى أن نعد رسالته بأمد غير قصير .

(ثانياً) أن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً في شروطه وقواعده ومقاصده ووقته وشكل أدائه وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند الصابئين والمانوية . فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق في عدد الأيام وتتابعها . وهذه ناحية شكلية من التعسف اتخاذها دليلا على أن أحدهما منقول عن الآخر . على أنهما في هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافاً غير يسير . فالصيام الاسلامى مدته شهر عربى ، على حين أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوما مبدؤها الثامن من الشهر . والصيام الاسلامى يبتدىء بابتداء الشهر وينتهى بانتهائه ؛ أما صيامهم فيبدأ من الثامن من الشهر ولا ينتهى إلا في الشهر التالى له .

(ثالثاً) أن اختيار رمضان بالذات ليس سببه اتفاق مبدئه في أول عام شرع فيه الصوم مع مبدأ صيام الصابئين ، كما ذهب إلى ذلك جاكوب . وإنما سببه — كما صرح بذلك الكتاب العزيز وكما يدل البحث التاريخى المجرد من الهوى — أنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن . فلا غرو أن اختصه الله بهذه المزية من بين سائر الشهور .

(رابعاً) هذا إلى أن القرآن الكريم ينص على أن ما سُنّ لنا من الشرائع قد سُنّ مثله لكثير من الأمم قبلنا . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ... الآية » . وقال عز وجل في صيام رمضان نفسه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . . . » . فمن الممكن إذن أن يكون صيام الثلاثين عند الصابئين والمانوية مستمداً في الأصل من شريعة سماوية تقادم عليها العهد فدخلها التحريف والتبديل وبعدت عن غايتها الأولى وصبغت

بصبغة التقديس للكواكب ، وأن الدين الاسلامي قد كتب الصوم نفسه الذي كتبته هذه الشريعة فأحياها طاهرة نقية وقضى على كل ما علق بها من أدران الشرك .

وما قيل في صيام رمضان يقال مثله في بقية أنواع الصيام الدورية وفي جميع أنواع الصلاة عند المسلمين .

وقد ذهب بعض المؤرخين من المسلمين وغيرهم الى أن صيام رمضان كان منتشراً عند بعض قبائل العرب في الجاهلية ولا سيا قريش . ويؤيدون رأيهم هذا بأن النبي عليه السلام نفسه كان قبل بعثته يقضي في غار حراء شهر رمضان من كل عام متحنثاً صائماً . وقد اختلفوا في أصل هذا التشريع . فنهم من يرى أنه من الشرائع التي جاء بها إبرهيم عليه السلام ، ويستدل على ذلك بأن الذين ثبت أداؤهم لهذه الشعيرة في الجاهلية كانوا من المعروفين باتباعهم لملة إبراهيم . ومنهم من يرى أن عبد المطلب جد النبي عليه السلام كان أول من سن هذا الصيام وعمل به . وقد أخذ بهذا الرأي الأستاذ موير في كتابه عن « حياة محمد » (١) .

ولكن لم يثبت بعد شيء من هذا كله بالدليل القاطع . على أنه لا يضير الدين الاسلامي في شيء — كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق — أن يكون صيام رمضان متبعاً قبل بعثة الرسول . فقد ثبت أن الشريعة المحمدية أقرت كثيراً من عادات العرب وشعائرهم ، وأن ركنا كبيراً من أركانها وهو الحج لم تدخل على أوقاته ومناسكه في الجاهلية تغييراً كبيراً .

---

(1) Muir : Life of Mahomet, II, 56.

منطقة الاسكندرية

ظاهرات سطح الأرض والعوامل التى أثرت فيها

للدكتور محمد متولى موسى

تقع الاسكندرية فى منطقة فريدة تتميز بخصائصها الجغرافية وظاهراتها الطبيعية عن أية جهة أخرى من جهات مصر . ويرتبط تاريخ هذه المدينة ارتباطاً وثيقاً بالأهمية الجغرافية لجزيرة فاروس القديمة التى كانت تقع فى الطرف الشمالى الغربى لدلتا النيل .

وموقع الجزيرة فى تلك النقطة جعل للاسكندرية وجعل للجزيرة نفسها أهمية كبيرة لأنها بفضل هذا الموقع استطاعت أن تتحكم فى الاتصالات البحرية بين مصر وبين العالم الخارجى .

فموقع الجزيرة على ساحل البحر الأبيض عند الطرف الغربى لدلتا النيل مكن السفن التى كانت تقصد مصر من بلاد العالم الخارجى من أن تجد لها فى تلك الجزيرة مرسى صالحا لوقوفها ، ثم إن هبوب الرياح الأتيزية (التجارية) فى منطقة البحر الأبيض من الشمال إلى الجنوب كان يسوق السفن الشراعية التى تخرج من الجزر الأيونية ومن الجزر المجاورة لها ويدفعها نحو جزيرة فاروس ونحو الاسكندرية .

وموقع الجزيرة على طول الطريق الذى كانت تتخذه السفن فى رحلاتها بين ميناءى صور وصيدا فى فينقيا ، وبين موانى قرطاجنة وبرقة فى شمالى أفريقية جعل هذه السفن ترسو عندها فى منتصف رحلتها .

وموقع الجزيرة قريبا من مصب الفرع الكانوبى الذى كان يستخدم قديما كطريق طبيعى لحمل المتاجر ، وقلة عمق هذا المصب بسبب الرواسب التى تأتى مع ماء النيل ، جعل السفن التى كانت تريد الدخول فى الفرع الكانوبى فى حاجة إلى مكان قريب تنتظر فيه حتى تأتى الفرصة المواتية لدخول النهر وكان ذلك المكان هو جزيرة فاروس .

يضاف إلى كل هذا أن ارتفاع سطح الجزيرة عن الأرض المجاورة جعل لها أهمية خاصة كنقطة للمراقبة يمكن الاشراف منها على المنطقة الشاطئية المنخفضة وعلى خليج الاسكندرية المكشوف وعلى المساحة المائية التى تشغلها بحيرة مريوط فيما وراء النطاق الصخرى الذى يفصل البحيرة عن البحر .

ويضاف اليه أيضا أن خليج الاسكندرية البحرى قد ساعد على وجود منطقة بحرية محمية وراء جزيرة فاروس ذات عمق مناسب لرسو السفن ولبقائها فيها آمنة من أمواج البحر .

هذه الظروف الطبيعية جميعاً قدرها القدماء حق قدرها فأنشأوا ميناء قديمة فى جزيرة فاروس وأفادوا منها فى الناحيتين التجارية والحربية .

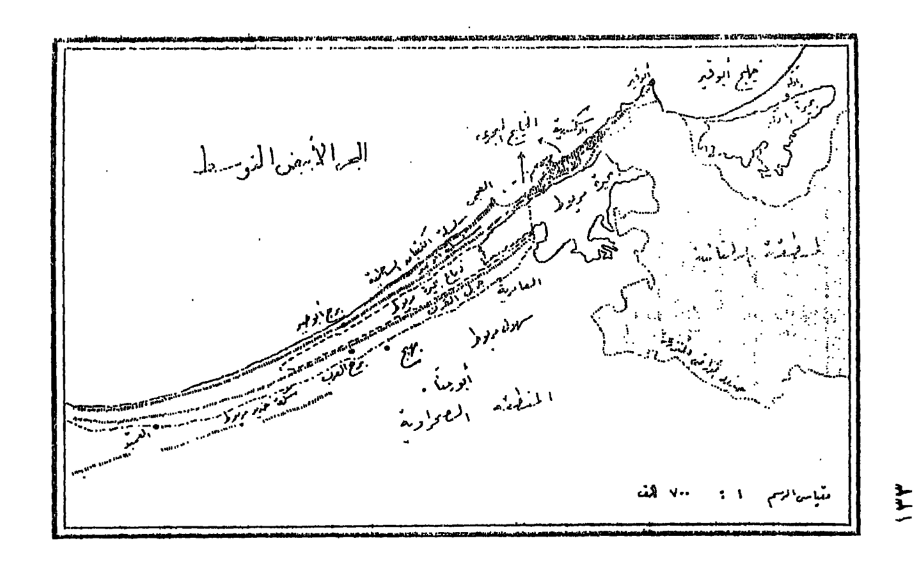
على أن منطقة الأسكندرية لا تقتصر على جزيرة فاروس بل تمتد شرقاً وغرباً وجنوباً حتى تشمل ما يأتى :

١ — النطاق الساحلى الذى يمتد بين أبى قير وبرج العرب

٢ — الجزء الغربى من دلتا النيل بما فى ذلك المنخفض الذى تشغله بحيرة مريوط .

٣ — المنطقة الصحراوية التى تمتد غربى دلتا النيل وجنوبى النطاق الساحلى .

٤ — الخليج البحرى الذى يتألف منه ميناء الاسكندرية .



البحر الأبيض المتوسط
خليج أبوقير
أبوقير
بحيرة مريوط
العجمي
العامرية
سهول مريوط
برج العرب
أبو مينا
المنطقة الصحراوية
مقياس الرسم ١ : ٧٠٠ ألف

١ — النطاق الساحلي :

يمتد هذا النطاق من أبي قير في الشرق حتى برج العرب في الغرب ، ويمتاز بوجود سلاسل صخرية متوازية تمتد بامتداد الساحل وتحصر بينها أودية طولية . وفيما يلي وصف موجز لتلك السلاسل .

(أولا) تمتد على طول الساحل سلسلة من الكثبان الرملية البيضاء وهذه تتألف من حبات جيرية صغيرة الحجم (Oolitic grains) وتتكون كل حبة منها من غطاءات جيرية متعاقبة تحيط بذرة من الرمل وكثيراً ما تبدو الحبات في حالة مفككة لأنها لم تتماسك بعد ، وفي هذه الحالة تكون كثيباً متنقلا ، وقد تبدو متماسكة فتتكون منهما كتلة جيرية صلبة .

ولهذه السلسلة أهمية كبرى لأن كثيراً من الآبار قد حفرت فيها ومن هذه الآبار ترتوى الجماعات البدوية التي تسكن المنطقة الساحلية . ولا تعلو الكثبان التي تتألف منها هذه السلسلة علواً كبيراً إذ قلما يزيد ارتفاعها على عشرة أمتار ولا يزيد عمق الآبار التي تحفر فيها على أربعة أمتار . وينمو على تلك الكثبان بعض الشجيرات ولهذه جذور كثيرة ترى ممتدة على شكل شعب في الطبقة العليا من الكثبان .

(ثانياً) يمتد إلى الجنوب من السلسلة الساحلية وادى طولى تهبط الأرض فيه حتى تبلغ مستوى البحر تقريباً ، وهبوط الأرض في هذا الوادى ليس بدرجة واحدة ، فهناك جهات يهبط مستواها بدرجة كبيرة فتغمرها مياه المستنقعات وتتراكم فيها التكوينات الملحة ، وهناك جهات لا يهبط مستواها كثيراً وفيها تكون التربة خصبة وتكون المياه العذبة التي يمكن استخدامها في أغراض الري متوفرة ، وعلى هذا النحو تكون الظروف ملائمة للزراعة وهذا هو السبب في أن حدائق التين ومزارع البطيخ وحقول الشعير تغطى مساحات واسعة من أرض ذلك الوادى .

(ثالثاً) تمتد إلى الجنوب من ذلك الوادى سلسلة صخرية تعرف بسلسلة أبو صير أو سلسلة « الدخيلة » وتكون هذه السلسلة ظاهرة هامة من ظاهرات

السطح فى منطقة الاسكندرية : إذ تمتد من أبى قير فى الشرق إلى الاسكندرية ثم إلى الدخيلة وأبوصير وتنتهى عند الحمام فى الغرب .

وتعلو هذه السلسلة عنواً فجائياً من الأراضى المنخفضة التى تمتد موازية لها فى الشمال وتتألف من حجر جيرى كان فى أول أمره حبات من النوع الذى تتألف منه سلسلة الكثبان الساحلية ثم تماسكت تلك الحبات وكونت صخراً صلباً . وقد استخدمت صخور هذه السلسلة فى الأعمال الانشائية الهامة التى أقيمت على طول الساحل والتى ما زالت تقام فى منطقة الأسكندرية . هذا لم يعد لسطحها العلوى استواؤه القديم لأن المحاجر الكثيرة التى أقتلعت منها الأحجار اللازمة لأعمال البناء جعلت السطح منخفضاً فى بعض الأجزاء وعالياً فى بعضها الآخر . وهناك مجموعة من تلك المحاجر جهة المكس ومجموعة أخرى جهة بهيج .

(رابعاً) يمتد إلى الجنوب من سلسلة أبو صير منخفض طولى آخر تهبط الأرض فى كثير من جهاته إلى مستوى أقل من مستوى البحر ويشغل الجزء الشرقى منه ذراع بحيرة مريوط . والذى يلاحظ أن مياه البحيرة فى هذا الجزء تتذبذب بفعل الجفاف الفصلى فتنحسر فى فصل الصيف عن مساحة واسعة من الوادى تمتد شمالى العامرية وشرقيها وتخلف وراءها طبقة من الملح الأبيض الناصع . وهناك مساحة مماثلة فى منطقة بهيج لا يغمرها ماء البحيرة فى الوقت الحالى لهذا أصبحت أرضاً جافة لا ينمو بها إلا بعض شجيرات من الأنواع التى تقاوم الملوحة ، أما فى الماضى فكانت تغمرها مياه البحيرة . ويبلغ متوسط عرض هذا الوادى أربعة كيلومترات : وتوجد حدائق التين ومزارع الشعير على جوانبه فى الأراضى التى لا تصلها مياه البحيرة ، أما الأراضى التى يتكون منها قاع الوادى فلا يستفاد منها إطلاقاً ولا تستغل فى الزراعة لأن مستوى المياه الباطنية المشبعة بالاملاح قريب من سطحها .

(خامساً) وإلى الجنوب من هذا الوادى تمتد سلسلة صخرية أخرى تعرف بجبل القرن وإلى الجنوب منها تنبسط الارض على شكل حوض واسع يجرى فيه الخط الحديدى الذى يخترق مريوط ، ويشغل الجزء الجنوبى منه منطقتا بهيج

والحمام وينتشر فى جهاته المختلفة تكوينات طباقية من الجبس أخذ الناس يستغلونها على نحو ما يفعلون بالقرب من الغربانيات .

(سادساً) وإلى الجنوب من خط حديد مريوط ترتفع الحافة الجنوبية للمنطقة الحوضية التى توجد فيها بهيج والحمام ويعلو مستواها علواً تدريجياً حتى تنتهى بمنطقة منبسطة أخرى تعرف بسهل مريوط . ومستوى الارض فى هذا السهل مرتفع بحيث يعلو عن سطح البحر بنحو ستين متراً .

هذا السهل ليس فى الواقع إلا الامتداد الشرقي لوادى أبى منا وهو الوادى الذى يمتد إلى الجنوب من سلسلة جبل القرن وهو ينحدر انحداراً تدريجياً نحو الشرق حتى يبلغ مستوى بحيرة مريوط . ويعتبر هذا السهل أشهر المناطق فى غربى بحيرة مريوط إذ تكثر به الآبار التى يعتمد عليها اعتماداً كلياً فى الحياة الزراعية التى تقوم هناك . ويميزه تشابه التربة فى جهاته المختلفة ؛ فالجهات العالية منه تتألف من صخور صلبة أما الجهات المنخفضة فتكسوها تربة من الطينة الجيرية يسهل استغلالها فى الانتاج الزراعى .

وهذه المنطقة فى جملتها ابتداء من سيف البحر فى الشمال حتى سهل مريوط في الجنوب بما فيها من كثبان ساحلية وسلاسل صخرية وأودية طولية تمثل فى الواقع أرضاً ساحلية كان البحر يغمرها فى بعض الأوقات فتؤثر أمواجه وتياراته في الساحل فتساعد على إرساب كثير من المواد المفككة إلى جانبه وتعمل الرياح فى تلك المواد المفككة فتكون منها كثباناً طولية تمتد على طول الساحل .

وفى أوقات أخرى كانت مياه البحر تنحسر عن الأرض وتبتعد عن الساحل القديم وعن الكثبان الطولية التى تمتد إلى جانبه وتبدأ أمواج البحر وتياراته تعمل من جديد وترسب إلى جانب الساحل الجديد مواداً مفككة أخرى ؛ وتعمل الرياح ثانية على توزيع تلك المواد المفككة على طول الساحل وتكوين سلسلة جديدة من الكثبان الساحلية .

وتبدو السلسلة الساحلية الجديدة فى مظهرها وفى تكوينها وامتدادها كالسلسلة القديمة تماماً أما الأرض التى تنحصر بين السلسلتين فانها تبدو

كالوادى الضيق وذلك إذا جاء تكوين السلسلتين الساحليتين فى موضعين متقاربين كما هو الحال فى الوادى الذى يمتد فيه الذراع الغربى من بحيرة مريوط والذى يقع بين سلسلتى الدخيلة فى الشمال والقرن في الجنوب . . . أما إذا بعدت المسافة التى تفصل بين السلسلتين فأن الأرض التى تمتد بينهما تبدو على هيئة أرض منبسطة كما هو الحال فى سهل مريوط .

٢ ــ منطقة الدلتــا :

يمتد إلى الجنوب من المنطقة الساحلية مساحة واسعة من الأرض المستوية تكون الأجزاء الشرقية منها المنطقة الغربية من دلتا النيل ، وتؤلف الأجزاء الغربية المنطقة المعروفة بصحراء مريوط .

والمنطقة الدلتائية من منطقة الأسكندرية عبارة عن أرض مستوية تغطيها رواسب نهرية من أنواع مختلفة . وتتألف الطبقة العليا من تلك الرواسب من طين هو الذى يعرف بطمى النيل ومنه تتألف التربة الزراعية التى يستغلها المصريون ويبلغ سمك هذه التربة نحو عشرة أمتار فى المتوسط ، وقد تكونت كلها في العصر الحديث أى فى مدى العشرة آلاف سنة الأخيرة بمعدل ماليمتر واحد فى كل عام .

ويوجد أسفل طمي النيل طبقة سميكة من الرمال والطين أرسبها النهر فى فترة الانتقال بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجري الحديث عندما كان مستوى ماء البحر المتوسط يعلو بالتدريج ، وكانت مياه النيل تلقى رواسبها فى خليج بحرى قديم وتبنى بها المنطقة التى صارت فيما بعد أساساً لدلتا نهر النيل .

وأسفل تلك الطبقة توجد رواسب حصوية ورملية من نوع الرواسب التى تتألف منها الجزر الرملية التى نشاهدها وسط الأراضى المزروعة فى دلتا النيل والتى يعلو مستواها عن مستوى الأرض المزروعة . وقد تكونت تلك الرواسب فى أواسط العصر الحجرى القديم فى فترة الحضارة الموستيرية . ولم يكن مستوى تلك الرواسب عقب إرسابها مباشرة منخفضاً ، كما يدل على ذلك مستواها الحالى أسفل طمى النيل وأسفل الرواسب الرملية

والطينية التي ترتكز عليها ذلك الطمى ؛ ولكنه كان مرتفعا بحيث يبلغ المستوى الحالى للجزر الرملية التي توجد وسط الأراضى المزروعة وهى الجزر التي تعرف بظهور السلحفاة (Turtle Backs) ويرجع هبوط مستوى تلك التكوينات من مستواها الأول إلى المستوى الذى تبلغه الآن أسفل طمى النيل وأسفل التكوينات الطينية والرملية التي توجد تحته ؛ إلى التعرية النهرية التي أثرت في الدلتا في أواخر العصر الحجرى القديم فى فترة الحضارة السبيلية عندما هبط مستوى ماء البحر بنحو ٤٣ متراً تحت مستواه الحالى وأخذت مياه النهر تعمق مجراها فى تلك الرواسب . فى هذا الوقت أزالت مياه النيل الجزء الأكبر من تلك التكوينات وألقت بها فى مياه البحر ولم تخلف وراءها إلا تلك الجزر التي تمثل فى الواقع المناطق الخشنة من تلك التكوينات أو بعبارة أخرى المناطق التي لم يقو النهر على إزالتها .

وتحت التكوينات الحصوية والرملية التي مر ذكرها يوجد القاع الصلب الذى ترتكز عليه رواسب الدلتا ، ولا نعرف على وجه التحقيق الأعماق التي تصل بعدها الى ذلك القاع لأن أعمال الحفر المختلفة التي نفذت فى منطقة الدلتا لم تصل اليه فى أية نقطة من نقطها . ولا نعرف كذلك طبيعة ذلك القاع ولا الصخور الصلبة التي يتكون منها ولكن يغلب على الظن أنه يتألف من أحجار جيرية من التي تكونت فى عصر البليوسين وعصر الميوسين وهى الصخور التي نشاهدها على جانبى الدلتا فى الشرق وفى الغرب .

بحيرة مريوط :

هناك فى المنطقة الواقعة خلف السلاسل الصخرية التي تقوم عليها مدينة الأسكندرية توجد بحيرة كبيرة تسمى بحيرة مريوط وهى ظاهرة هامة ؛ بل قد تكون أهم ظاهرة طبيعية فى منطقة الأسكندرية . والمنطقة التي تشغلها البحيرة عبارة عن جزء من دلتا النيل لم تملأه الرواسب بعد أو هى نقطة الألتقاء التي تتقابل عندها دلتا النيل بالسلاسل الصخرية التي تمتد بموازاة ساحل البحر ، وبناء على ذلك تأثر شكل البحيرة بالظاهرات الطبيعية التي يتميز بها كل من

دلتا النيل والسلاسل الصخرية ، ففى الجزء الشرقى للبحيرة ترى آثار الدلتا ممثلة فى اتساع المساحة وفى قلة العمق وفى كثرة الرواسب الطينية على الجوانب وعلى النقيض من ذلك نجد أن الظاهرات التى يتميز بها الجزء الغربى من بحيرة مريوط تختلف تماما عن الظاهرات التى تميز دلتا النيل ، لأن ذلك الجزء من البحيرة يتأثر فى ظاهراته بالسلاسل الصخرية التى تمتد فى منطقة الأسكندرية ففى هذا الجزء تمتد البحيرة امتدادا طوليا بحيث تشغل الوادى الطولى الذى يقع بين حافتى أبوصير وجبل مريوط والمسافة التى تفصل بين هاتين الحافتين ضيقة ، ولذا كان الجزء الغربى من بحيرة مريوط طويلا فى اتجاهه من الشرق الى الغرب وضيقا فى امتداده من الشمال الى الجنوب .

وتختلف بحيرة مريوط عن غيرها من البحيرات المجاورة لساحل البحر المتوسط أمثال ادكو والبراس والمنزلة فى أنها لا تتصل بالبحر وفى أنها من عمل النيل وحده . والبحيرة الآن عبارة عن مسطح مائى ضحل تكثر به الأعشاب والحشائش وتحيط به مساحات واسعة من الطين ولكنها فيما مضى كانت أكثر عمقاً وأعظم اتساعا ولم يكن لها اتصال بالبحر وإنما كانت تتصل بالنيل بواسطة فروع عديدة كانت تنساب فيها المياه حتى تصل إليها ، لهذا كانت مياهها عذبة وكان عمقها يسمح بحرية الملاحة فيها . وقد نشأت عليها فى الأزمان القديمة موانى ومراسى مازالت بقاياها قائمة حتى الآن وكانت هذه الموانى تتلقى الغلات التى تأتى الى منطقة الاسكندرية من مختلف جهات القطر عن طريق المجارى المائية التى تغذى البحيرة . وكانت مياه البحيرة تغمر مساحة من الأرض أوسع مما تغمره الآن، ومعنى هذا أنها انكمشت عن ذى قبل ويرجع انكماشها الى عدة عوامل .

منها قلة ما يصل الى البحيرة من مياه النيل نتيجة لتراكم الرواسب فى المجارى المائية التى تربطها بالنيل ووقوف تلك الرواسب سداً يحول دون وصول ماء النيل إليها :

ومنها زيادة البخر فيها زيادة لا تتعادل مع ما يصل إليها من مياه ، سواء كان ذلك بواسطة المجارى السطحية أو عن طريق التسرب خلال التربة .

ومن المجارى الهامة التى امتلأت بالرواسب الفرع الكانوبى نفسه ، وقد تأثرت بامتلائه مائية البحيرة ، كما تأثرت حركة الملاحة فيها ، وحركة الرى التى كانت قائمة فى المنطقة المحيطة بها : وقد تم امتلاء هذا الفرع بالرواسب فى القرن الثانى عشر؛ ولذا يمكن القول بأن بحيرة مريوط قد تحولت منذ ذلك الوقت الى مستنقع مالح :

ويجب أن ندرك أن الفرع الكانوبى لم يكن يصب فى بحيرة مريوط إذ المعروف أنه كان يمتد حتى يصب فى البحر الأبيض عند مدينة كانوب القديمة : ولكن كانت تخرج منه عدة فروع تصل بينه وبين البحيرة ، منها الترعة القديمة التى كانت تحمل المياه العذبة إلى مدينة الاسكندرية .

وكان مستوى الماء فى بحيرة مريوط يتأثر بمائية النيل ، ففى أوقات التحاريق مثلا كان يهبط مستواها لقلة مايصلها من الماء أو لعدم وصول المياه اليها إطلاقا أما فى موسم الفيضان فكانت تزداد زيادة كبيرة كان يخشى معها على غرق الاسكندرية ، وجدير بالذكر أن مستوى مياه البحيرة كان فى بعض الأحيان يعلو عن مستوى البحر لأن البحيرة لم تكن مرتبطة بالبحر إطلاقا ولكن يقول بعض المؤرخين إن مصرفا كان يصل بحيرة مريوط بالبحر وكانت تنصرف بواسطته مياه البحيرة الزائدة حتى لا يشتد خطر الغرق على مدينة الاسكندرية : وكان موقع ذلك المصرف إلى الغرب من المدينة وكان المصرف إلى جانب مهمته فى صرف مياه البحيرة يستخدم فى الأغراض الدفاعية ضد القبائل والجماعات التى كانت تغير على منطقة الاسكندرية وتتبع الطريق البرى الوحيد الذى كان يربطها بالصحراء الغربية : وهو طريق سلسلة أبو صير .

وقاعدة البحيرة عبارة عن مواد طينية عظيمة التماسك والاندماج : وبها نسبة كبيرة من الأملاح وترجع الكثرة فى نسبة الأملاح إلى عملية البخر المستمرة التى تتأثر بها مياه البحيرة . ويقال ان طغيان مياه البحر عليها مرتين متتاليتين الأولى فى عام ١٨٠١ والثانية فى عام ١٨٠٧ كان له دخل كبير فى ازدياد نسبة الملوحة . وطغيان مياه البحر على البحيرة كان وسيلة حربية بحتة لجأ الانجليز اليها فى المرة الأولى (أيام الحملة الفرنسية على مصر)

كي يقطعوا الصلة بين الفرنسيين الموجودين بالأسكندرية والفرنسيين الموجودين فى بقية الأراضى المصرية وليقطعوا عنهم المياه العذبة التى كانت تحملها الى الاسكندرية القناة القديمة السابقة لترعة المحمودية ، وبذلك يضطر الفرنسيون للتسليم ، ولجأ الانجليز اليها فى المرة الثانية عام ١٨٠٧ عند مانزلت حملة فريزر بمنطقة الاسكندرية وأرادوا بذلك حماية أنفسهم فى حربهم ضد المصريين . والواقع أن طغيان مياه البحر قد حماهم ولكنه فى نفس الوقت قطع عنهم مورد الماء العذب الذى كان يغذى الاسكندرية .

ولتنفيذ فكرة الطغيان حفر الانجليز قناة فى المنطقة اليابسة بين بحيرة مريوط والمعدية وهى المنطقة التى كانت تجرى فيها ترعة الاسكندرية حاملة المياه من النيل الى الصهاريج العديدة فى مدينة الاسكندرية : وبحفر تلك القناة اندفعت مياه بحيرة المعدية ومعها مياه البحر لأنها كانت متصلة به ، نحو بحيرة مريوط ، وقدظلت هذه المياه تندفع حتى تعادل مستواها فى النهاية مع مستوى ماء البحر ، والذى يلاحظ أن بحيرة مريوط بعد الطغيان الأول كانت قد أخذت تجف بانقطاع الصلة بينها وبين البحر عقب ردم القناة التى كانت قد حفرت واعداد المنطقة لمد الترعة العذبة الى الاسكندرية ، وقد تكررت ظاهرة الجفاف مرة أخرى بعد الطغيان الثانى وأخذت البحيرة تنكمش بالتدريج حتى سنة ١٨٩٢ ، وفى تلك السنة نفذت وزارة الاشغال مشروعات خاصة بالرى والصرف فى مديرية البحيرة كان من نتيجتها تسرب كثير من المياه الى بحيرة مريوط وبذا ارتفع مستواها ثانية . ولكى يقف مستوى البحيرة عند نقطة معينة أقيمت عليها طلمبات المكس كي ترفع مياه الصرف الزائدة وتلقى بها فى البحر ، وهذه هى الوسيلة الأخيرة التى لجأت اليها وزارة الاشغال كى تحمى الاسكندرية من طغيان البحيرة ، ولهذه الطلمبات فائدة كبيرة ، اذ بواسطتها يمكن تجفيف البحيرة وبذا يتيسر للاسكندرية أن تتسع ناحية الجنوب كما يتيسر استصلاح مساحات واسعة من الاراضى واعدادها للزراعة .

٣ — المنطقة الصحراوية :

تمتد هذه المنطقة إلى الغرب من أراضى الدلتا وإلى الجنوب من مجموعة السلاسل الصخرية التى تمتد بموازاة ساحل البحر ، وهى الجزء الشرقى من هضبة

واسعة تعرف بهضبة مرمريكا أو هضبة مريوط . ولا يختلف المظهر العام في المنطقة الصحراوية عنه في منطقة الدلتا ، فالمنطقة الصحراوية كمنطقة الدلتا أرض مستوية السطح وقل أن تجد فيها جزءاً يعلو عن المستوى العام لها ولكنها تختلف عن الدلتا في أنها أرض مقفرة خالية من الماء وفي أن تربتها فقيرة قليلة الانتاج وتختلف عنها أيضاً في أنها تضم بعض المنخفضات التي يهبط مستواها كثيراً عن السطح العام مثل وادى النطرون والوادى الفارغ وهما يمتدان امتداداً عرضياً في منتصف المسافة بين الأسكندرية وخط عرض القاهرة .

وإذا نحن درسنا المنطقة الصحراوية من ناحية التكوين الجيولوجي :

١ — وجدنا أن السلاسل الصخرية التي تمتد بموازاة ساحل البحر تتألف كما قلنا قبلا من تكوينات جيرية وأنها قد تكونت في فترة الحضارة السبيلية أى في أواخر العصر الحجرى القديم وأنها ترتكز على تكوينات بليوسينية .

٢ — ووجدنا أن الأرض الصحراوية المستوية التي تمتد إلى الجنوب من تلك السلاسل تتكون من أحجار جيرية ميوسينية يعلوها غطاء من الرمال المفككة التي تراكمت في أوائل البليوستوسين وغطت المنطقة ، وهذه المنطقة مستوية السطح ولا نصادف فيها إلا قليلا جداً من ظاهرات التضاريس .

٣ — ووجدنا أن منخفض وادى النطرون الذى يمتد إلى الجنوب من تلك المنطقة قد حفرته عوامل التعرية (الهوائية بنوع خاص) في تكوينات الميوسين ، وأن منخفض الوادى الفارغ الذى يمتد إلى الجنوب من وادى النطرون قد كونته عوامل التعرية هو الآخر في تكوينات الأوليجوسين .

٤ — ووجدنا أن الأراضي التي تمتد إلى الجنوب من الوادى الفارغ تتألف من تكوينات أوليجوسينية وأن تلك التكوينات تمتد جنوباً حتى خط عرض القاهرة .

وأهم ما يلاحظ في المنطقة الصحراوية التي تمتد من ساحل البحر الأبيض شمالا إلى خط عرض القاهرة جنوباً أنها لم تتعرض لحركات قشرة الأرض

إلا فى منطقة واحدة هى منطقة أبو رواش وقد تأثرت هذه المنطقة الاخيرة بالالتواء والانكسار ، ونتج عن ذلك ظهور التكوينات الكريتاسية على سطح الأرض .

ولكى نأخذ فكرة عن المظهر العام للمنطقة الصحراوية ، نبدأ أولا بالأجزاء الجنوبية منها ، وهي الأجزاء التى تقع إلى الجنوب من وادى النطرون ، وهى عبارة عن منطقة صحراوية بمعنى الكلمة لا توجد بها حياة نباتية أو حيوانية . وإلى الشمال من هذه المنطقة توجد منطقة وادى النطرون ، وفيها تنمو بعض الأعشاب والحشائش إلا أنها قليلة للغاية . وإلى الشمال من وادى النطرون توجد مساحة واسعة من الأرض المنبسطة تتألف من أحجار جيرية دقيقة الذرات تابعة لعصر الميوسين ويغطى هذه الأحجار الجيرية رمال يغلب على الظن أنهـا مشتقة من الاحجار الميوسونية نفسها ، أى أنها رمال محلية لم تجلبها عوامل التعرية من جهات أخرى . وينمو فى هذا الغطاء الرملى شجيرات صحراوية ضئيلة ، وتكثر به الأعشاب كثرة تسمح للبدو الذين يقيمون هناك برعى قطعانهم الصغيرة من الأبل و الاغنام والماعز ؛ والبدو هنا قليلو العدد ويسكنون خياما متفرقة ؛ ولكنهم كلما اقتربوا من الاجزاء الساحلية فى الشمال كثر عددهم وزدات قطعانهم .

ومن الظاهرات الهامة فى هذه المنطقة أن كثرة السكان في أية جهة من جهاتها كفيلة بأن تحولها من أرض خضراء مزهرة إلى أرض صحراوية مجدبة ، لان الحيوان الذى يعتمد عليه هؤلاء السكان يأتى على كل شيء فى المنطقة سواء كان أخضر أو يابسا .

وإلى الشمال من المنطقة السابقة توجد منطقة أخرى تكثر بها الحشائش النضرة ، وتكثر بها المساحات المنزرعة وهذه هى المنطقة التى تجاور بحيرة مريوط مباشرة ، وفيها توجد خرائب الكنائس المسيحية ، ومن أشهرها خرائب كنيسة أبى منا .

وفى المنطقة الممتدة بين خرائب أبى منا وساحل البحر ، أى فى منطقة السلاسل الصخرية والأودية التى تمتد بينها ، توجد أدلة كثيرة تبين أن الزراعة

كانت منتشرة فى الاقليم انتشاراً كبيراً ومن تلك الادلة الاكوام الصناعية العديدة التى تعرف لدى البدو « بالكرم » ؛ وقد كان لهذه الاكوام فيما مضى أهمية كبرى في زراعة المنطقة ، لانها كانت تساعد على جمع مياه الامطار وحصرها فى الاراضي المجاورة للانتفاع بها فى أغراض الرى ، ولا يعنى البدوى فى الوقت الحالى « بالكرم » لانها لم تعد تؤدى مهمتها القديمة ، ولا يعنى كذلك بالصهاريج الكثيرة التى تنتشر فى المنطقة، لانها أصبحت قليلة الفائدة . والصهاريج كما هو معروف عبارة عن حفر من عمل الانسان قصد بها جمع مياه الامطار التى تسقط فى المنطقة للانتفاع بها فى موسم الجفاف . وليس من شك فى أن وجود الكرم والصهاريج فى تلك المنطقة يدل على غناها فى الازمان القديمة .

والذى ثبت من الادلة التاريخية أن الأراضي الزراعية والأراضى التى تغطيها الحشائش والاعشاب كانت فيما مضى أكثر اتساعا منها فى الوقت الحالى ، وربما كان السبب فى ذلك أن الامطار فيما مضى كانت أكثر مما هى الآن .

٤ — الخليج البحرى :

سبق أن ذكرنا أن سلسلة من الصخور الجيرية تمتد فى منطقه الاسكندرية بين مياه البحر الأبيض ومياه بحيرة مريوط ، وقلنا إن هذه السلسلة تعتبر حاجزاً طبيعيا نمت الدلتا فى حمايته لانه صد عنها الرياح الشمالية الغربية التى تهب من ناحية البحر ، وذكرنا أيضا أن سلسلة من الكثبان البيضاء تمتد على طول الساحل الى الشمال من تلك الحافة ، وأن الكثبان التى تتألف منها تتكون من حبات جيرية وأنها قد تراكمت بفعل الامواج والرياح . هاتان السلسلتان المتوازيتان ، وهما سلسلة الكثبان الساحلية وسلسلة الصخور الجيرية ، يفصلهما الواحدة عن الاخرى وادى طولى منخفض يبلغ اتساعه بضع مئات من الامتار ، أما السلسلة الساحلية فترى ممتدة بجوار ساحل البحر حتى منطقة العجمى وبعدها تختفى تحت ماء البحر . ويمكن تتبع هذه السلسلة تحت ماء البحر فى مجموعة الجزر التى تمتد ما بين منطقة العجمى فى الغرب وجزيرة فاروس

فى الشرق وهى المجموعة التى تتكون من جزيرة الافراش وجزيرة الفار وجزيرة القط وجزيرة الكلب وجزيرة الحوت وجزيرة الاخوان ثم الاراضى التى بنى عليها حاجز الميناء الغربى ؛ وهو الحاجز الذى يمتد حتى رأس التين ويمكن تتبعها أيضاً في الاراضى التي تقوم عليها ظ بية الاطة وطابية قايت باى ثم المنطقة الصخرية المتصلة برأس السلسلة .

ويمكن تتبع الوادى الذى يفصل بين السلسلتين فى الخليج البحرى لمدينة الاسكندرية . وما ذلك الخليج إلاجزء من الوادى قد هبط تحت مستوى البحر وغمرته المياه . والذى يلاحظ فى خليج الاسكندرية أنه كان قبلا يتمثل فى الميناءين الشرقى والغربى : لان المسن الذى يربط بين جزيرة فاروس وبين الاسكندرية وهو الذى يقوم عليه جزء كبير من مدينة الاسكندرية الآن لم يكن له وجود . والذى يلاحظ أيضا أن امتداد السلسلة الامامية تحت مياه البحر أمام خليج الاسكندرية كان له أهمية كبيرة فى نشأة الاسكندرية وفى نشأة مينائها الهام لان هذه السلسلة الغارقة تقوم كخط دفاع طبيعى يحمى الميناء من التيارات البحرية ومن الامواج لأن مستوى تلك الحافة قريب من مستوى البحر فى كثير من النقط .

واذا نحن تتبعنا سلسلة أبو صير وهى السلسلة الصخرية التى تقوم عليها مدينة الاسكندرية : وجدنا أنها عند مدينة الاسكندرية تشرف على مياه البحر مباشرة ؛ وهذا معناه أن سلسلة الكثبان الامامية والوادى الطولى الذى يفصل بين تلك السلسلة وبين سلسلة أبو صير ، ليس لها وجود فى مدينة الاسكندرية . واذا تساءلنا عن الاسباب التي أدت الى اختفاء سلسلة الكثبان الامامية فى مدينة الاسكندرية واختفاء الوادى الطولى الذى يمتد بينها وبين حافة أبو صير وجدنا أن المنطقة قد هبطت فانخفض مستوى سلسلة الكثبان الامامية عن مستوى البحر وغمرت المياه الكثبان وغمرت معها المنطقة المنخفضة التى يتألف منها الوادى الطولى الذى ينحصر بين سلسلة الكثبان وبين سلسلة أبو صير .

طبيعة التكوينات فى خليج الاسكندرية :

درس التكوينات الجيولوجية فى هذه المنطقة كل من Pachundaki و Fourtau وتتلخص النتائج التى وصلا إليها فيما يلى :

١ — تتألف السلسلة الصخرية التى تقوم عليها مدينة الاسكندرية من أحجار جيرية تعرف بأحجار المكس وهى كما سبق أن بينا عبارة عن ذرات جيرية تراكمت على طول ساحل البحر بفعل الأمواج والرياح ثم تصلبت وتماسكت بفعل مياه الامطار وكونت الحجر الجيرى المعروف .

٢ — وتتألف الرواسب التى توجد فى خليج الاسكندرية من تكوينات طينية فى أعلاها وتكوينات طينية ورملية فى أسفلها . وتحوى الطبقات العليا من التكوينات الطينية رواسب نيلية هى فى الواقع آخر ماترسبه مياه النيل بعد أن تكون قد ألقت الجزء الاكبر من رواسبها الغليظة على طول المجرى الذى يمتد بين الحبشة والبحر ويحوى هذا الطين جزءا كبيراً من الماء يكسبه نوعاً من المياعة : وهى صفة تميز هذه الطبقات دون غيرها ، أما الطبقات السفلى من الطين فلا تختلف كثيراً عن العليا إلا أنها أكثر منها تماسكا وأعظم كثافة : ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الضغط الذى تعرضت له الطبقات السفلى قد ساعدها على التخلص من جزء كبير من الماء الذى كانت تحتويه وبتخلصها من ذلك الماء ازدادت تماسكا .

نستنتج من هذا أن زيادة التماسك فى الطبقات السفلى من التكوينات الطينية فى خليج الاسكندرية تتبع زيادة العمق : بمعنى أن الطبقات الطينية كلما زاد عمقها زاد سمك الرواسب التى تعلوها وزاد مقدار الضغط الواقع عليها ، الامر الذى يؤدى إلى شدة تماسكها وعظم كثافتها .

والمصدر الذى جاءت منه تكوينات الطين السفلى ليس ماء النيل كما قد يتبادر إلى الذهن وهى تكوينات شبيهة بالطين الذى يغطى منطقة مريوط ويكون التربة فى تلك المنطقة أى أنه نوع من اللويس لا يعرف مصدره ومن المحتمل أن التعرية الهوائية التى تعرضت لها الكثبان والتلال التى كانت

تحيط بهذا المنخفض قبل هبوطه تحت مستوى البحر هى التى ساعدت على تكوين تلك الرواسب ، ومعنى هذا أن إرسابها أو تكوينها كان سابقاً لتكوين الرواسب النيلية التى تعلوها .

ويوجد أسفل التكوينات الطينية التى سبق ذكرها تكوينات جيرية متماسكة من النوع الذى نشاهده فى السلسلة الصخرية التى تقوم عليها مدينة الاسكندرية .

والذى يلاحظ أن الرواسب التى توجد فى خليج الاسكندرية ليست بسمك واحد فى جميع أجزائها : فهى فى الجزء الأوسط من الخليج أعظم سمكا منها فى الأطراف ويظهر من دراسة القطاعات لمنطقة الخليج أن المواد الطينية التى توجد فى قاعه قد انزلقت فوق القاعدة الصخرية تبعاً لانحدار تلك القاعدة نحو وسط الوادى وقد ظلت تلك التكوينات تزدحم فى المنطقة الوسطى شيئاً فشيئاً حتى عظم سمكها .

هبوط خليج الاسكندرية :

تعرض جونديه فى كتابه الخاص بميناء فاروس للطريقة التى هبطت بها منطقة الاسكندرية : وهو يرى أن طبقات الطين التى رسبت فى خليج الأسكندرية وفى المنطقة البحرية المجاورة له قد تعرضت بعد إرسابها لضغط الرواسب التى تراكمت فوقها وقد كان طبيعياً أن تقاوم تلك الطبقات ضغط الرواسب الجديدة طالما كانت مقدرة هذه الطبقات على المقاومة كبيرة . ولكن بالنسبة لاستمرار عملية الارساب وزيادة الضغط على الطبقات السفلى تبعاً لزيادة الرواسب، فان مقدرة تلك الطبقات على تحمل الضغط المتزايد عليها قد قلت ، وعند ماجاء الوقت الذى نفدت فيه طاقة تلك الطبقات على تحمل الضغط الواقع عليها انكمشت فجاءة وهبط مستواها وهبطت معها التكوينات التى تعلوها .

ويذكر لنا جونديه أن ظاهرة الهبوط التى تنتج عن زيادة الثقل على النحو السابق ذكره قد شهدها القائمون بعملية بناء الأرصفة وحواجز الأمواج فى ميناء الاسكندرية ، فقد حدث مراراً أن هبطت المبانى هبوطاً كان يصل

في بعض الأحيان الى أربعة أمتار أو خمسة ، وذلك بسبب زيادة ثقل المبانى على التكوينات التى توجد تحتها .

ويذكر أن الهبوط يكون فى أول أمره بسيطاً وبطيئاً ولكنه يعظم فجأة بعد عدة شهور من ابتدائه ، كما يذكر أن عملية الاندماج والانكماش التى أصابت طبقات الطين السفلى والتى أدت الى هبوط المبانى لم تتم إلا بعد أن تكررت عملية الهبوط مرتين أو ثلاث مرات : وبعد ذلك توقف الهبوط تماما لأن اندماج الطبقات الطينية وانكماشها قد بلغ نهايته . وقد استدل جوندية من هذا على أن طبقات الطين الموجودة فى خليج الاسكندرية لم تنكمش تحت ثقل الرواسب التى تكونت فوقها انكماشاً تدريجياً وإنما حدث الانكماش دفعة واحدة بعد أن ظلت طبقات الطين تقاوم الضغط المفرط الذى تعرضت له مدة طويلة .

ويذكر جوندية أيضاً أن طبقات الطين السفلى التى توجد فوق القاع الصخرى لخليج الاسكندرية ساعدت على انزلاق الطبقات العليا وجعلتها تتحرك فوق القاع حركة تتلائم مع انحدار ذلك القاع ؛ وبناء على ذلك تراكم الطين فى المنطقة الوسطى من الخليج بدرجة أعظم من تراكمه بجوار الشاطىء .

وتراكم الرواسب فى الأجزاء الشرقيــة من خليج الاسكندرية كان فى أول الأمر أكثر منه فى الاجزاء الغربية ، لان المياه التى حملت تلك الرواسب كانت تتأثر بهبوب الرياح التى تأتى من الغرب وكانت ترسل ما بها من مواد خلال الفتحة المحصورة مابين رأس التين وساحل القبارى أما بعد أن سدت الرواسب تلك الفتحة فقد تحول الارساب كله إلى الأجزاء الغربية من خليج الاسكندرية وهذا هو السبب فى اختلاف عمق المياء فى خليج الاسكندرية : ذلك العمق الذى يتراوح بين ٣٥ متراً فى الغرب و ٢٠ متراً فى الشرق .

وهناك عامل آخر أثر فى منطقة الاسكندرية وساعد على هبوطها ذلك أن السلسلة الامامية الفارقة التى تتمثل فى مجموعة الجزر والصخور الممتدة مابين العجمى ورأس التين تجتذب إليها الرواسب الشاطئية التى تجرفها التيارات البحرية معها من الغرب إلى الشرق ذلك لان هذه السلسلة تعلوها مجموعة

من القمم تؤلف كل منها نواة تتجمع حولها الرواسب وتتراكم حتى يتكون من مجموعها منطقة مرتفعة قد تعلو حتى تظهر فوق سطح الماء . ومن أمثلتها جزيرة أبو بكر وجزيرة فاروس نفسها . وقد زاد حجم هاتين الجزيرتين نتيجة للرواسب البحرية التي جلبتها التيارات البحرية . وعلى جوانب هذه المناطق المرتفعة تتكون شطوط رملية تراها مرتكزة فوق التكوينات الطينية التي تغطي قاع الخليج . وتتألف هذه الشطوط من مواد رملية متماسكة ومن أمثلتها الشط الذي يوجد عند رأس التين وهو يشغل مساحة واسعة ترى فيها التكوينات الرملية مرتكزة على القاع الصخرى لخليج الاسكندرية .

لكن يلاحظ أن القمم التي تعلو السلسلة الغارقة لا تستطيع اجتذاب كل الرواسب التي تدفعها التيارات البحرية من الغرب إلى الشرق ، وبناء على ذلك يندفع مقدار كبير من تلك الرواسب نحو الشرق . ولكن بالنسبة لأن سرعة التيارات البحرية في المنطقة الغارقة أبطأ منها في المنطقة التي تقع إلى الغرب منها وذلك نتيجة لقلة عمق المياه من جهة واحتكاك ماء التيارات البحرية بالقمم التي تعلو السلسلة الغارقة من جهة أخرى فأن مقداراً كبيراً من الرواسب التي تحملها التيارات يتراكم بالقرب من السلسلة الغارقة : وبهذه الطريقة تكون الشريط الساحلي الذي يربط جزيرة فاروس بالانفوشي والشريط الذي يربط جزيرة أبو بكر بمجموعة القمم الغارقة التي تقع إلى الشمال من جزيرة فاروس . وتكون الشط الذي يقع إلى الشمال من قلعة الاطة وإلى الشمال من ضاحية قايت باى . والتكوينات التي تتألف منها هذه الشطوط عبارة عن رواسب جيرية ورملية شبيهة بالتكوينات التي تشاهد في منطقة رأس التين أو في الشاطىء السكندرى ، وهي كتل متماسكة من الحجر الجيرى ساعد على تماسك حباتها وجود رواسب طينية ورملية مختلطة بها .

ومن خصائص تلك الكتل أنها تكون جروفاً شاطئية على طول الساحل السكندرى ، وقد ساعد على ظهورها في حوائط رأسية على هذا النحو ما هي عليه من تماسك وصلابة . ومن خصائصها أيضاً أن مياه البحر إذا غمرتها زادتها تماسكا وقوة .

إلى هنا نجد أن العامل الذى سبب الهبوط فى منطقة الاسكندرية هو عامل ميكانيكى بحت لا علاقة له بالعوامل الباطنية التى تسبب اهتزاز قشرة الأرض أو تحركها ، وليس معنى هذا أن منطقة الاسكندرية لم تتأثر إطلاقاً بالهزات الأرضية لأن الثابت أنها تأثرت بها ؛ وأن الهزات كانت عاملا مساعداً على الهبوط . والأثر الذى أحدثته الهزات الأرضية فى خليج الاسكندرية أنها ساعدت على انزلاق تكوينات الطين التى توجد فوق القاع الصخرى للخليج نحو الجهات المنخفضة ، سواء فى الوادى الذى تكون منه خليج الاسكندرية أو فى داخل البحر نفسه ، وقد صحب انزلاق التكوينات الطينية نحو الجهات المنخفضة هبوط فى مستوى تلك التكوينات وفى مستوى التكوينات التى تعلوها .

هذا ما أصاب منطقة الاسكندرية ، أما منطقة الدلتا فقد تعرضت هى الأخرى لظاهرة الهبوط لأنها تتكون من نفس الرواسب التى توجد فى خليج الاسكندرية ؛ لكن يلاحظ أن هبوط منطقة الدلتا لم يكن متساويا فى جميع الجهات لان الرواسب لم تكن بسمك واحد فى كل جهة من جهاتها . ولا يعنينا كثيراً أن يكون الهبوط فى مختلف أجزاء الدلتا متساويا أو غير متساوى ؛ ولكن الذى يعنينا هو أن الدلتا قد هبطت كما هبطت منطقة الاسكندرية .

أما منطقة مريوط وهى شبيهة إلى حد كبير فى تكويناتها بمنطقة الاسكندرية فلم تصب بهبوط كبير ذلك لأن التكوينات الطينية التى رسبت فيها[1] هى تكوينات قليلة السمك بحيث لا يظهر لها أثر محسوس إذا هى انكمشت . أضف إلى ذلك أن التكوينات الطينية فى هذه المنطقة أكثر صلابة من التكوينات الطينية التى توجد في خليج الاسكندرية ثم إنها لا تحوى مثلها مقداراً كبيراً من الماء . لهذا كان انكماشها تحت ثقل الضغط الواقع عليها انكماشاً ضئيلا للغاية ؛ ونستطيع أن نزيد على ما سبق أن رواسب الكثبان التى تجمعت في هذه المنطقة لم تتكون إلا بعد العصر الحجرى القديم أى بعد أن أستكملت

(١) تمتد هذه الرواسب تحت الكثبان التى تكونت فى هذه المنطقة .

التكوينات الطينية فى هذه المنطقة جدفها وانكماشها ؛ لهذا تأثرت تلك التكوينات بضغط الرواسب التى تراكمت فوقها .

جزيرة فاروس :

فى بدء العصر التاريخى كان شبه الجزيرة الذى يمتد الآن من رأس التين حتى طابية قايت باى يتكون من ثلاث جزر منفصلة بعضها عن بعض :

جزيرة غربية هى كتلة فاروس وكانت أكثر الثلاثة أهمية ،

وجزيرة وسطى هى التى أقيمت عليها قلعة الاطة .

ثم جزيرة شرقية هى التى أقيمت عليها منارة الاسكندرية وتقوم عليها الآن قلعة قيت باى .

أما جزيرة فاروس فكانت تمتد من منطقة رأس التين نحو خليج الأنفوشى لمسافة تبلغ كيلومترين تقريباً . وكان يمتد إلى الشرق منها شريط رملى على طول السلسلة الفارقة حتى يبلغ نقطة تقع إلى الجنوب من طابية الاطة وهو شريط يتفق إلى حد كبير مع الساحل الحالى لخليج الأنفوشى . وعند النهاية الشرقية لهذا الشريط كانت توجد فتحة بينه وبين الجزيرة الوسطى ، وكانت هذه الفتحة تسمح لرياح الشمالية الغربية بدفع أمواج البحر خلالها وكانت هذه الامواج تنتشر فى المنطقة الخليجية التى استخدمت فيما بعد[1] كميناء لمدينة الاسكندرية ؛ لهذا كان هم الاسكندر عند ما فكر فى إنشاء الاسكندرية أن يبنى الجسر الذى عرف بجسر الهبتاستاد (Heptastade) وذلك لكى يحمى الميناء الشرقية للاسكندرية من الامواج الشديدة التى كانت تهدده ، وقد أفلح هذا الجسر فعلا في حماية الميناء الشرقية وهى الميناء التى كان البطالمة يستخدمونها فى الأغراض التجارية .

(1) فى عهد البطالمة .

المصادر

GASTON JONDET	: Les Ports Submergés de l'Ancienne Ile de Pahros. Memoires de l'Instirut Egyptien 1916.
HUME ET HUGHES	: The Soils and Water Supply of the Marint District. Cairo 1921.
FOURTAU	: La Côte de la Marmarique Inst. Egyp. 1914.
FOURTAU	: La Region de Mariut, Etude Geologique Inst. Egyp. 1893.
FOURTAU ET PACHUNDAKI	: Sur la Constirution Geologique des Environs d'Alexandrie Sci. Paris 1902.
BLANKENHORN :	Geologie Aegypten Berlin 1911.
BALL	: Contrubtions to the Geogrophy of Egypt Cairo 1939.
PRINCE OMAR TOUSSON	: Memoire sur l'Histoire du Nil. Institut Egypt. 1925.
SANDFORD	: Palaeolithic Man in Lower Egypt.
ETIENNE COMBE	: Notes de la Topographie et d'Histoire de la Ville Alexandrie Musulmane. B. Soc. Royale de Geographie d'Egypte 1933.
ANTONY DE COSSON	: Mareotis. London 1935.
EV. BRECCIA	: Alex Ad Aegyptum 1922.
FORSTER	: Alexandria. A History and Guide. Alex. 1922.
الأمير عمر طوسون	: خليج الاسكندرية
MALAVAL ET JONDET	: Le Port d'Alexandrie. Le Caire 1912.
BOTTI	: La Côté Alexandrine dans l'Antiquite. Soc. Sult. Geog. d'Egypte 1897.

دراسات

فى مناهج البحث والمراجع فى التاريخ الإسلامى

للدكتور زكى محمد حسن

— ١ —

لسنا نهدف فى هذا المقام الى الكلام على مناهج البحث التاريخى بعامة ولا عن أساليب البحث فى التاريخ الاسلامى بخاصة . فقد ظهرت فى هذه الموضوعات كتب باللغات الأوربية لهـا شأنها [١] ؛ كما أضيفت الى المكتبة العربية فى السنين الأخيرة بحوث فيها ، لهـا مالهـا وعليها ما عليها [٢] . وهى بعد ذلك جهود طيبة تستحق الحمد والثناء .

(١) نذكر من بينها :

Casson, S.	: Archeology (London 1930).
Crump, C. G.	: History and Historical Research (London 1928).
Fueter, E.	: Histoire de l'historiographie moderne (Paris 1914).
Fling, F. M.	: The Writing of History. An Introduction to Historical Method (Yale 1926).
Oman, Ch.	: On the Writing of History (London 1939).
Sauvaget, J.	: Introduction à l'histoire de l'Orient musulman (Paris 1946).
Vincent, J. M.	: Aids to Historical Research (New York 1934).

(٢) أسد رستم : مصطلح التاريخ (بيروت ١٩٣٩) .

حسن عثمان : منهج البحث التاريخى (القاهرة ١٩٤٣) .

على ابراهيم حسن : استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط (القاهرة ١٩٤٩) .

وإنما نهدف الى تسجيل بعض الحقائق العلمية التي تستحق ، في رأينا ، أن يفطن لها الباحثون في التاريخ الاسلامي . والتي يدفعنا الى تسجيلها تجارب خمسة عشر عاما في تدريس التاريخ الاسلامي ، بمعهد الآثار في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وبكلية أصول الدين من الجامعة الأزهرية ، وبكلية دار العلوم . فضلا عن المشاركة في فحص الرسائل التي تقدم بها طلبة الدراسات العليا في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه . بيد أننا نحرص على التنبيه إلى أنها حقائق متفرقة نضعها بين أيدي الباحثين تاركين تفصيل الكلام في مناهج البحث الى ما وضع من المؤلفات في هذا الموضوع .

التاريخ وعلوم الآثار

يظن كثير من الناس — ومن بينهم بعض المثقفين — أن الآثار علم المباني المهدمة والعمائر القديمة والتحف المكسورة ، وما الى ذلك من الأشياء البعيدة عن الحياة . فلا يفطنون الى الصلة الوثيقة بينها وبين التاريخ . والحق أن علم الآثار — من ناحية الاشتقاق اللغوي — هو علم الأشياء القديمة (من اليونانية Archaios = قديم و logos = كلام أو علم) . ولكنه في الواقع دراسة الماضي على ضوء جميع المخلفات التي تصل الينا منه . فعلم الآثار يعنى بترتيب مخلفات الحضارات القديمة وبتفسيرها واستنباط الحقائق التاريخية منها . وهو لا يقف في فحص هذه المخلفات عند ما له قيمة فنية منها — كما يفعل مؤرخ الفن — وإنما يفحصها جميعاً ويعمل على معرفة تاريخها وتحديد الحضارة التي أنتجتها والاغراض التي كانت تستعمل فيها . وهو يصل الى هذا كله بأساليب علمية دقيقة ، قوامها المشاهدة والموازنة والاستنباط . وهدفه أن يهتدي الى التاريخ الكامل للعصر الذي يعنى بدراسته . وطبيعي أنه يستخدم في هذا السبيل كل ما يتصل بعلم الآثار من فروع العلم والمعرفة ، أو كل ما يتصل بالآثار من أنواع الدراسات المختلفة ، مثل علم ما قبل التاريخ وعلم النقوش أو المسكوكات ، فضلا عن الكتابات التاريخية الأثرية والأوراق البردية وتاريخ الفنون من عمارة ونحت وتصوير وفنون تطبيقية وزخرفية .

وهو يستطيع بعد ذلك بفضل خبرته ومرانه أن يصل الى كشف التحف المزيفة التي تعتبر خطراً كبيراً على علم الآثار عامة .

وطبيعي جداً أن المشتغلين بتاريخ العصور القديمة يسلمون بأن تاريخ تلك العصور لا يمكن أن يفصل بحال من الأحوال عن آثارها ، وأن مؤرخ أي عصر من العصور القديمة لا بد أن يكون عالما من علماء الآثار فيه ، لأن مخلفات تلك العصور هي المرجع الأساسي في تاريخها . ولعلنا نستطيع أن نتبين العلاقة الوثيقة بين الآثار والتاريخ إذا عرضنا الموضوعات التي تبحثها بعض الكتب الشهيرة في علم الآثار . ولنأخذ مثلا كتاب آثار بني اسرائيل للدكتور بنتزنجر : J. Benzinger : Hebraïsche Archäologie فنرى أنه يلم بالموضوعات الآتية :

حدود فلسطين ومكانها في العالم : أرضها ، جوها : نباتها : حيوانها ، موقع بيت المقدس ، سكان فلسطين قبل التاريخ ، سكانها قبل إسرائيل وحضارتهم ، بنو إسرائيل وتطور حضارتهم في أرض فلسطين ، طعامهم ولباسهم ومساكنهم ، قراهم ومدنهم : طابع الأسرة عند بني اسرائيل ، المرأة ، الأولاد : العبيد ، عادات الحداد ، الحياة الاجتماعية والعادات : الموازين والمكاييل والسكة وقياس الزمن .

المهن : الصيد : والزراعة ، وتربية الماشية ، والحرف اليدوية ، والتجارة .

الفن : العمارة والنحت والفنون التطبيقية والتصوير والموسيقى ، الكتابة . الدستور والادارة ، القانون والمحاكم . الجيش والتسليح والحصون . العبادة والمعابد : رجال الدين : القرابين : النذور : الصوم ، الأعياد .

أما المثال الثاني من كتب الآثار فكتاب المدخل في الآثار المصرية القديمة للأستاذ انجلباك R. Engelbach : Introduction to Egyptian Archeology وأهم موضوعاته :

عصر ما قبل التاريخ المصرى ، عصر ما قبل الأسرات : العصر القديم ، الدولة القديمة : الدولة الوسطى ، الدولة الحديثة ، العصر المصرى الأخير : العصر البطلمى : الجغرافيا المصرية القديمة : المدافن ، العمارة : الأدوات والأسلحة : النحت والنقش والرسم . الملابس ، الجواهر ، التوابيت : التحنيط ، الديانة المصرية القديمة ، عوائد الدفن : تماثيل الآلهة . الأوانى الخزفية . الأوانى الحجرية . النبات والحيوان فى مصر القديمة ، اللغات المصرية القديمة .

والواقع أن علم الآثار يقدم الى التاريخ أثمن المساعدة لاستكمال الأخبار الصحيحة وسد الفراغ في المصادر الأدبية للتاريخ بل إن علم الآثار يصحح فى بعض الأحيان أخطاء تاريخية مشهورة . فقد كان من المعروف مثلا أن القسوة والشدة فى التربية والحياة الاسبرطية كانت نتيجة لتقاليد قديمة فى تاريخ اسبرطة . ولكن الحفائر التى تمت فى هذا الاقليم بين عامى ١٩٠٥ و١٩١٢ أماطت اللثام عن شىء كثيرمن الغنى والبذخ والترف فى حياة اسبرطة فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وهكذا عرفنا أن تلك الشدة فى الحياة الاسبرطية لم تبدأ إلا فى القرن السادس قبل الميلاد وأنها كانت رد فعل للترف الذى عرفته اسبرطة فى القرنين السابقين ووسيلة لجأ اليها شعب اسبرطة لدرء الخطر الذى تعرض له بسبب ذلك الترف وبسبب قلة عدده بالنسبة للشعوب التى كانت تخضع له .

وفضلا عن ذلك فاننا نرى فى بعض الأحيان أن تاريخ منطقة من المناطق فى عصر من العصور يعتمد على المصادر المادية التى يقدمها علم الآثار ، أكثر من اعتماده على النصوص الأدبية النادرة . أو المتفرقة ، أو التى تعوزها الدقة . ومن أمثلة ذلك حضارة مصر القديمة وحضارة شعب المايا فى أمريكا الوسطى وحضارة بريطانيا فى العصر الرومانى والحضارة التى قامت فى الجزر المنتشرة فى بحر إيجة .

فلا عجب إذا رأينا الباحثين فى تاريخ العصور القديمة يحسبون الآثار والتاريخ جزءاً لايتجزأ من وسائل البحث فى الحضارات القديمة . أما أصحاب التاريخ الاسلامى فان بعضهم لايزال يظن أن فى الاستطاعة كتابة تاريخ الشعوب

الاسلامية بغير استعانة بالآثار . وهذا زعم خاطىء ويؤدى إلى نتائج غير طيبة في دراسة التاريخ الاسلامى . لأن المشتغل بالآثار الاسلامية لا يستطيع أن يكون من العلماء فى هذا الميدان بغير أن تقوم دراساته على أساس قوى من التاريخ الاسلامى ، كما أن المشتغل بالتاريخ الاسلامى لا يستطيع أن يكون مؤرخا موفقاً إلا إذا كان له إلمام كبير بالآثار الاسلامية . أو أمكنه — على أقل تقدير — أن يحسن استخدام النتائج العلمية التى وصل إليها علماء الآثار الاسلامية . بل إن أعلام المؤرخين الاسلاميين من بين المستشرقين منذ بداية القرن الحاضر كلهم من علماء الآثار الاسلامية أيضاً . وحسبنا هنا أن نذكر أسماء مرجوليوث وتوماس أرنولد ولين بول ولوسترينج وجست وبيكر وكاله وبلوشيه وسوفاجيه وفييت وكومب وجورج مارسيه وليفى بروفنسال وجروسيه وغيرهم .

والواقع أن طبيعة المراجع والمصادر فى دراسة التاريخ الاسلامى تجعل من العسير على الباحث أن يفهم جوانب كثيرة من تاريخ الحضارة الاسلامية بغير أن يستعين بدراسة الآثار . بل إنه يكاد لا يستغنى فى بعض تلك الجوانب عن دراسة كثير من كتب الأدب والتراجم والطبقات وعلوم الشريعة . ومن الجوانب التى تحتاج دراستها الى مثل تلك المراجع المختلفة مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والأخلاق والعادات وأحوال المدن والشؤون المالية والحاصلات والصناعات والفنون والتجارة والادارة . وذلك لأن المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى لم يفطنوا الى وجوب العناية بتلك النواحى فيما كتبوا من المؤلفات التاريخية الكثيرة .

كما أن الأمم الاسلامية فقيرة فى المحفوظات التى يمكن الرجوع إليها فى دراسة حياة الشعب وأموره الادارية والقضائية والاجتماعية والفنية . ويرجع فقرها فى هذا الميدان إلى أن القرآن والسنة كانا أساس الحكم والنظم وإلى أن المجتمع الاسلامى لم تكن فيه الهيئات الكنسية وهيئات المدن والطوائف والامارات الاقطاعية التى كانت تعنى بالاحتفاظ بالوثائق التى تكسبها حقاً

أو تثبت تقليداً . ومما يؤسف له أن ماوصل إلينا من نصوص « الوقفيات » القديمة فى العالم الاسلامى قليلة وأن كثيراً منها لم يعرض له الباحثون بعد[1].

ومهما يكن من الأمر فاننا نعرض فى الصفحات التالية جوانب من علوم الآثار الاسلامية لنرى ما لهـا من صلة وثيقة بدراسة تاريخ الأمم الاسلامية .

الأوراق البردية

حسبنا لنعرف قيمة الأوراق البردية فى دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية فى ديار الاسلام أن نعلم أن من بينها وثائق تتعلق بالجزية والخراج وإسناد المناصب وأنظمة الادارة وطرق التجارة وأثمـان البضائع والحاجيات المعاشية والبيوت والأرض، فضلا عن المكاتبات الخاصة التى تكشف عن بعض العادات والعلاقات الاجتماعية . فهى مصدر صادق لدراسة المجتمع .

وقد اتجهت العناية إلى دراسة الأوراق البردية الاسلامية منذ عثر بعض الفلاحين فى مصر سنة ١٨٢٤ على جرة صغيرة فيها ورقتان من البردى مكتوبتان باللغة العربية وأرسلهما دروفتى (Drovetti) قنصل فرنسا فى القاهرة حينذاك إلى المستشرق الفرنسى سلفسقردى ساسى فكتب مقالا عنهما فى مجلة العلماء (Journal des Savants) بباريس سنة ١٨٢٥ ، وفى النصف الثانى من القرن المـاضى اضطرد العثور — ولا سيما فى إقليم الفيوم — على أوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية أو باللغة العربية ، أو بهما معاً ؛ وبيع معظم هذه الأوراق إلى الأوربيين فتفرق فى المجموعات الأثرية والمتاحف، ولاسيما فى فينا وبرلين وباريس،ولكن دار الكتب المصرية لا تزال

---

(1) نشر الأستاذ ماير « وقفية » من عصر قايتباى انظر L. A. MAYER : The Buildings of Qaitbay (London 1928)

ونشر الأستاذ ڤيت « وقفية » أخرى من عصر الأخشيديين انظر G. WIET : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II pp. 91-94.

تحتفظ بمجموعة ثمينة من أوراق البردى العربية التى كشفت فى الفيوم أو فى غيرها من الأقاليم المصرية كأخميم وسقارة والأشمونين وميت رهينة وإهناسية وإدفو .

وقد وقف المستشرق آدولف جرومان جزءا كبيراً من جهوده العلمية على درس أوراق البردى ، وهو على كل حال الحجة فى هذه الدراسات . ومن الخير أن يرجع الباحثون فى البداية إلى مقالاته الشاملة فى هذا الموضوع وهى :

A. GROHMANN : Aperçu de Papyrologie Arabe (Société Royale Egyptienne de Papyrologie: Etude de Papyrologie, tome 1, le Caire 1932).

— : Probleme der arabischen Papyrusforschung (in *Archiv Orientalni*, tomes V et VI, Prague 1933, 1934).

— : Stand und Aufgaben der arabischen Papyruskunde im Rahmen der Arabistik (in *Museon*, Tome 52).

آدولف جرومان : المحاضرة الأولى ، عن الأوراق البردية العربية : ومنها المحفوظ بالدار .

— : المحاضرة الثانية، عن الأوراق البردية العربية، ومنها المحفوظ بالدار .

— : المحاضرة الثالثة، عن الأوراق البردية العربية، ومنها المحفوظ بالدار .

— : المحاضرة الرابعة، عن الأوراق البردية العربية، ومنها المحفوظ بالدار .

وقد ألقيت هذه المحاضرات الأربع بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة فى مساء ٥ و ١٠ و ١٢ و ٢٣ من أبريل سنة ١٩٣٠ ، ونقلها إلى العربية الأستاذ توفيق اسكاروس وطبعتها دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٠

وهى خلاصة طيبة لبعض النتائج العلمية التى تكشف عنها دراسة الأوراق البردية .

أما أهم المراجع فى دراسة الأوراق البردية الاسلامية فما يأتى :

A. GROHMANN : Arabic Papyri in the Egyptian Library, 3 vols. Cairo 1934-1938.

A. GROHMANN : Corpus Papyrorum Raineri Archiducis Austriae Band I. Teil 1: Allgemeine Einführung in die arabischen Papyri— I. Teil 2: Protokolle. Wien 1924).

A. GROHMANN : Arabische Papyri aus den Staatlichen Museen zu Berlin (in *Der Islam*, t. XXII).

A. GROHMANN : Arabische Papyri im Oriental Institute zu Prag (in *Archiv Orientalni* t. X. 1938)

A. GROHMANN : Texte zur Wirtschaftsgeschichte Ägyptens in arabischer Zeit (*Archiv Orientalni*, t. VII. No. 3).

D. S. MARGOLIOUTH : Catalogue of Arabic Papyri in the John Rylands Library, Manchester. (Manchester, 1933).

K. W. HOFMEIER : Beiträge zur arabischen Papyrusforschung (in *der Islam*, t. IV, 1913).

M. AMARI : I diplomi arabi del R. Archivio Fiorentino (Florence 1863).

S. CUSA : I diplomi greci et arabi di Sicilia, 2 vols. (Palermo 1868).

S. DE SACY : Pièces diplomatiques tirées des archives de Gênes (in Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale, tome XI).

L. ABEL : Ägyptische Urkunden aus den Kgl. Museen zu Berlin. Arabische Urkunden (herausgegeben von L. Abel I. II, Berlin 1895-1904).

PAPYRUS ERZHERZOG RAINER : Führer durch die Ausstellung. (Wien 1894).

C. H. BECKER : Veröffentlichungen aus der Heidelberger Papyrus-Sammlung III. Papyri Schott-Reinhardt I. (Heidelberg 1906).

G.H. Becker : Arabische Papyri des Aphroditofundes (in *Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete*, t. xx, 1907).

G.H. Becker : Neue arabische Papyri des Aphroditofundes (in *der Islam*, t. II, 1911).

H.I. Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum (in *der Islam*, t. II, 1911).

J. Maspero : Etudes sur les papyrus d'Aphrodito (in *Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale*, tomes VI-VII.

H.I. Bell : The Aphrodito Papyri (in *Journal of Hellenic Studies*, t. XXVIII, 1908).

N. Abbott : The Kurrah-Papyri from Aphrodito in the Oriental Institute (Chicago 1938).

D.S. Margoliouth and E.J. Holmyard : Arabic Documents from the Monneret Collection (in *Islamica*, t. IV, 1930).

P. Jernstedt : Die Kom-Aphrodito Papyri der Sammlung Lichacov (Papyri russischer und georgischer Sammlungen herausgegeben von Gregor Zereteli, IV, Tiflis 1927).

الكتابات التاريخية الأثرية

وصلت إلينا ألوف من الكتابات التاريخية الأثرية في ديار الاسلام على جدران المساجد، وفي الأضرحة والتكايا وسائر العمائر، وعلى التحف الأثرية، ولم يكن الدافع إلى هذه الكتابات تسجيل الأدعية والآيات القرآنية والحقائق التاريخية فحسب، بل ساعد على الاقبال عليها أن المسلمين اتخذوا الكتابة عنصراً من العناصر الزخرفية[1] . ولما كانت دراسة الكتابات التاريخية والاسلامية لاتزال في مراحلها الأولى ، فان من العسير أن تقدر تماما ما سيكون لها من شأن في تعديل ما نعرفه عن تاريخ المسلمين وحضارتهم ونظم الحكم عندهم .

---

(١) انظر زكي محمد حسن : فنون الاسلام (فصل الزخارف الكتابية في الفن الاسلامي ص ٢٣٤ — ٢٤٨) .

ومع ذلك فاننا لا نطمع فى أن يكون لتلك الكتابات الأثرية الاسلامية ما للكتابات الأثرية اليونانية واللاتينية من عظيم الشأن ، لأن كتاباتنا ينقصها التنوع ويكثر فيها التكرار ، فالغالب عليها ناحيتان : الأولى ذكر الخالق عز وجل والتقرب إليه بالأدعية أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونقل آيات الذكر الحكيم أو الترحم على الموتى . أما الناحية الثانية فالاشادة بذكر الخليفة أو السلطان أو الأمير مع بيان ألقابه وجليل أعماله .

ولكن هذا لا يغير ما للكتابات الأثرية الاسلامية من قيمة تاريخية بوصفها من المراجع الأصيلة ؛ فضلا عن أنها تمتاز بأنها معاصرة للحوادث التى تسجلها وبأنها محايدة ، فتعوض ندرة المحفوظات فى التاريخ الاسلامى ، وتصلح بعض النقص الذى يسببه تحيز بعض المؤرخين المسلمين لتاريخ الأسرة التى يكتبون فى ظلها أو تعصبهم لمذهبها ؛ أو الذى يسببه إهمال الكلام على الادارة وأحوال المجتمع ونظمه المالية والاقتصادية . كما أن الكتابات الأثرية تمتاز بأن تواريخها صحيحة والاعلام التى تذكر فيها يقل التحريف والتصحيف فيها ، وبأنها تزيد المعروف من أسماء الموظفين وتعين مراكز الأسرات الحاكمة ودرجة استقلالها أو تبعيتها ، وتمدنا ببيانات عن الشئون الادارية والمالية ، وتؤرخ العمائر والتحف . وفضلا عن هذا كله فان الكتابات التاريخية تفيد كثيراً فى مراقبة أقوال المؤرخين وإثبات صحتها أو الكشف عن أخطائها . والواقع أنه فى حالة الاختلاف بين مؤلف تاريخى وكتابة أثرية تاريخية فان الأخيرة تكاد ترجح كفتها دائما . بيد أن الطريقة المثلى فى الافادة من الكتابات الأثرية هى الموازنة بينها وبين المصادر التاريخية والأدبية على نحو ما فعل المستشرق السويسرى ڤان برشم الذى يعتبر بحق رائد المشتغلين بعلم الكتابات الأثرية الاسلامية .

وقد ولد هذا العالم الكبير سنة ١٨٦٣ ودرس على أعلام المستشرقين وعلماء الآثار فى سويسرا وألمانيا وفرنسا، ومالبث أن ظهر نبوغه فى قراءة الكتابات الأثرية العربية وتفسيرها وربطها بمسائل التاريخ الاسلامى ، حتى أصبح أكبر حجة فى هذا الميدان وصار علما يهتدى به . واقتفى أثره علماء

هذه الناحية من الدراسات الاسلامية فى العصر الحاضر . وقد زار ڤان برشم بلاد الشرق الاسلامى ورجع منها بمحصول وافر من المواد والوثائق العلمية اللازمة للعمل العظيم الذى كان بعده ، وهو وصف العمائر الاسلامية فى الشرق الأدنى وجمع ماعليها من كتابات أثرية لتظهر فى مؤلف كبير يضم من التعليقات تاريخية ما يشهد بالعلم الغزير . هذا هو « جامع الكتابات الأثرية العربية » (Corpus Inscriptionum Arabicarum) . واستعان ڤان برشم فى هذا العمل الجليل بأعوان من خيرة زملائه وتلاميذه ؛ فجمعوا معه الكتابات الأثرية فى مصر وسورية وفلسطين . وأدرك مجمع الآداب الرفيعة (Academie des Belles Lettres) فى باريس ماهذا الكتاب الكبير من عظيم الشأن فشمل نشره برعايته وجعله لاحقاً لجامع الكتابات السامية الذى نشر قبل ذلك على يد أرنست رينان .

وكتب ڤان برشم مع أدمون فاتيو وصفاً لرحلته بين المعالم الأثرية فى سورية عرض فيه لوصفها والحديث عما يتصل بها من الأحداث التاريخية، مما جعل هذا الكتاب من أنفس المراجع فى تاريخ الشام وآثارها، والعلاقات بين الشرق والغرب . فى عصر الحروب الصليبية . هذا كله فضلا عما كتبه وتلاميذه من بحوث شتى فى ميدان الكتابات الأثرية الاسلامية ؛ مما سنذكر معظمه فى الصفحات القادمة .

على أن الحرب العالمية الأولى أبعدت عن ڤان برشم كثيرين من تلاميذه وأعوانه إذ شغلهم واجبهم نحو أوطانهم عن الدرس والتحصيل والكتابة والتأليف . وكان ڤان برشم — وهو السويسرى المحايد — يشاهد فى أسف وحزن ماتجره تلك الحرب الضروس من نكبات على العالم وتعطيل للعلم والعلماء . ثم ألقى المحاربون سلاحهم ، عاد إلى العلم طلابه وأساتذته، وبدأت الحياة تدب من جديد فى دوائر المستشرقين وعلماء الآثار . ولكن شاء القدر ألا ينعم ڤان برشم بعودة السلام طويلا ؛ إذ أنهكه العمل فسقط فى ميدانه مريضا . وكان فى مصر فنصحه الأطباء بالعودة سريعا إلى أوربا ، حيث لم يمهله المرض إلا بضعة أسابيع فمات سنة ١٩٢١

. مات ڤان برشم ولكن علم الكتابات الأثرية الاسلامية كان قد نما وترعرع واستقرت أصوله وقواعده . وخلف ڤان برشم فى حمل عبئه قليلون من تلاميذه وعلى رأسهم جاستون فييت الذى وقف على إتمام الجزء الخاص بمصر من «جامع الكتابات العربية» فكتب الجزء الثانى من هذا المرجع الكبير .

وكان طبيعياً أن يعمل تلاميذ ڤان برشم وأعوانه على تحقيق رغبته فى جمع النصوص العربية المكتوبة على العمائر والتحف فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى: فتضافروا على تنفيذ هذا المشروع ونهض باعبائه فييت (G. Wiet) وكومب (E. Combe) وسوفاجيه (J. Sauvaget) معتمدين على معونة المشتغلين بالآثار الاسلامية والتاريخ الاسلامى . وكان طبيعياً أن يهدى هذا السجل الجامع الشامل إلى ذكرى ڤان برشم . كما كان اختيار العبارة العربية التى كتبت تحت الاهداء اختياراً موفقاً إلى أبعد حدود التوفيق :

« إذا مات الانسان انقطع عمله إلا عن علم ينتفع به » [1] .

أجل أى عبارة تصدق أكثر من هذه فى الاشارة إلى الرسالة التى أداها ڤان برشم فى حياته العلمية .

هكذا ولدت فكرة السجل التاريخى للكتابات العربية (Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe) .

وقد ظهر الجزء الأول منذ سنة ١٩٣١ وتلته أجزاء أخرى حتى طبع الجزء الثالث عشر سنة ١٩٤٤ ويشتمل كل جزء من هذا السجل على أربعمائة كتابة مرتبة ترتيباً تاريخياً وموصوفة وصفا موجزاً ، وإلى جانب كل منها بيان المراجع المختلفة التى تحدثت عنها أو عن العمارة أو التحفة المكتوبة عليها ؛ وهذا البيان خير دليل للباحثين فى الدرس والمقابلة . وقد بدأ السجل بنقش النمارة المكتوب بالحروف النبطية سنة ٣٢٨ ميلادية . وتاريخ آخر الكتابات فى الجزء الثالث عشر سنة ٧٠٥ هـ . وقد جمع هذا السجل كل الكتابات المؤرخة ، أو التى يمكن معرفة تاريخها باسم أمير أو حاكم أو بطرازها الفنى أو بغير هذا وذاك من الأدلة والقرائن .

(١) من كتابة أثرية فى المدرسة المرجانية ببغداد .

ولا ريب فى أن هذه الكتابات الأثرية تكشف عن كثير فى سيرة بناة العمائر وأصحاب التحف وفى تطور الأنظمة والعادات والأحداث السياسية والعلاقات التجارية وغير ذلك . ولعل أهم المراجع التى عرضت للكتابة الأثرية ما يأتى :

M. van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. I Egypte (Memoires publiés par les Membres de la Mission Archéologique Française au Caire, t. 19)

M. van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum II, Syrie du Sud, t. 1. Jerusalem Ville, t 2 Jerusalem Haram, t 3 Planches (Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale t. 43-45 au Caire 1920-1927)

M. van Berchem : Die Muslimischen Inschriften von Pergamon (Berlin 1912).

M. van Berchem : Arabische Inschriften aus Armenien und Diyarbekr (Sonderabdruck aus "Materialien zur älteren Geschichte Armeniens und Mesopotamiens" von C. F. Lehmann-Haupt. Abhandlungen der Konigl. Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-historiche Klasse. N. F. IX, 3)

M. van Berchem et Halil Edhem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum III. Asie Mineure (Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire t. 29).

M. van Bechem-Oppenheim : Inschriften aus Syrien, Mesopotamien und Kleinasien gesammelt von Max von Oppenheim (in Beiträge zur Assyriologie, vol. VII, (Leipzig, 1909).

M. Saberheim : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum II Syrie du Nord (Memoires Publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archeologie Orientale du Caire, t. 25, 1909).

G. WIET	: Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypte II (Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale t. 52, 1930).
AMADOR DE LOS RIOS	: Inscripciones Arabes de Cordoba (Madrid 1880).
AMADOR DE LOS RIOS	: Memoria acerca de algunas inscripciones arabigas de Espana y Portugal, (Madrid 1883).
M. AMARI	: Le epigrafi arabici di Sicilia 2 vols. (Palermo 1879-1885).
E. LÉVI-PROVENÇAL	: Inscriptions Arabes d'Espagne.(Leyde 1931).
G. WIET	: L'Epigraphie Arabe de l'Exposition l'Art Persan du Caire (Mémoires Présentés à l'Institut d'Egypte, t. 26, le Caire 1935).
G. WIET	: Les Inscriptions du Mausolée de Shafii (*Bulletin de l'Institut d'Egypte* t. 15. le Caire 1933).
G. WIET	: Deux Inscriptions Coufiques de Kous (*Bulletin de l'Institut d'Egypte.* t. 18 le Caire 1936).
A BEL	: Inscriptions Arabes de Fès (*Journal Asiatique,* 1917-1219).
J.-D. WEILL	: Les Bois à Epigraphes Jusqu'à l'Epoque mamlouke. Catalogue Général du Musée Arabe du Caire 2 vols. le Caire 1931. 1936).
H. HAWARY ET H. RACHED	: Stèles Funéraires. t. I et III Catalogue Général du Musée Arabe du Caire 1932. 1939.
G. WIET	: Stèles Funéraires t. II et IV- X. Catalogue Général du Musée Arabe du Caire. 1936-1942.
E. COMBE, J. SAUVAGET ET G. WIET	: Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, le Caire 1931-1944 (Publications de l'Institut Français l'Archéologie Orientale).

السكة أو النميات

النميات جمع النمى بمعنى النقوس أو الدراهم ، من اللاتينية واليونانية (-nummus) بمعنى الفضة المضروبة أو النقد . ومنها (numismatique) بالفرنسية .

وكان ضرب النقود عند المسلمين من اختصاص رئيس الجماعة السياسية من خليفة أو سلطان أو أمير . أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام . ولذا كانت دراسة السكة الاسلامية من الدراسات التي يفيد منها التاريخ السياسي أكبر فائدة . نقول التاريخ السياسي على الخصوص لأننا لا نكاد نظفر من دراسة السكة الاسلامية بشيء كثير عن الديانة أو النظم أو الاساطير كما يفعل الباحثون في السكة اليونانية والرومانية . ولا ريب فى أن السبب فى هذا هو أن الاسلام كره تصوير الكائنات الحية ، فكادت السكة الاسلامية تخلو من الصور والرسوم التى نراها فى النقود اليونانية والرومانية .

ولكن دراسة النقود الاسلامية تضم أيضاً عدداً من النواحى ذات الصلة الوثيقة بالنظم والاتجاهات الدينية أو المذهبية للأسرات الحاكمة ، وذلك لأن الكتابات المنقوشة على السكة تشتمل على ألقاب الأمراء والحكام وتواريخهم وبعض عبارات خاصة بمذاهبهم الدينية . فضلا عن أن السكة الاسلامية كانت تتأثر فى أوزانها بالحالة الاقتصادية في البلاد . وصفوة القول أن النميات سجل للألقاب والنعوت التى تلقى الضوء على كثير من الاحداث السياسية ، والتى تثبت أو تنفى تبعية الولاة أو السلاطين والبلاد للخلافة أو للحكومات المركزية فى التاريخ الاسلامي . والملاحظ أن النميات ليست وثائق صحيحة وقديمة فحسب ولكنها فوق ذلك وثائق رسمية لا يسهل الطعن فى قيمتها .

وقد أخرج الأب انستاس مارى الكرملى سنة ١٩٣٩ كتاباً سماه النقود العربية وعلم النميات ، جمع فيه أهم ما كتبه القدماء ، ولا سيما البلاذرى والمقريزى ، في هذا الميدان وبعض ما كتبه المحدثون فيه . وعلق عليه وشرحه شرحا وافياً وذيله بفهارس غنية جداً ولا سيما للسكى التى ترد على ضرب النقود

وللنعوت والالقاب والصفات المعظمة الواردة عليها وللمواد والجواهر التي تتخذ منها النقود وللموازين والمكاييل والمقاييس والأثمان وللرموز والاشارات والأدعية المستعملة في ضرب النقود ، فضلا عن الفهارس الضافية للرجال والمصطلحات والعادات والأخلاق والمواضع والبلدان والالفاظ الغريبة المفسرة . والذي يدرس هذا الكتاب ويرجع الى فهارسه الطويلة يتبين كثيراً مما يمكن كشفه في النقود الاسلامية من الحقائق السياسية والاجتماعية .

ومن أهم المراجع في دراسة النميات الاسلامية المؤلفات الآتية :

H. LAVOIX : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, 3 vol. (Paris 1887-1891). Tome I : Califes orientaux —t. II : Espagne et Afrique du Nord— t. III Egypte et Syrie.

ST. LANE-POOLE : Catalogue of Oriental Coins in the British Museum (10 vol. London 1875-1890).

ST. LANE-POOLE : Catalogue of Persian Coins in the British Museum : Shahs of Persia (London 1887)

ST. LANE-POOLE : Catalogue of Indian Coins in the British Museum. The Coins of the Moghul Emperors (London 1892).

ST. LANE-POOLE : Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library (London 1897).

H. NÜTZEL : Königliche Museen zu Berlin : Katalog der orientalischen Münzen (Berlin 1898).

HALIL EDHEM : Islâmi numismatik için bir bibliografi tecrübesi (Ankara, 1933).

H. SAUVAIRE : Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metrologie Musulmane. 3 vol. (Paris 1882-1887).

F. SORET Eléments de la Numismatique Musulmane. (Bâle et Genève 1868).

CH. O. CASTIGLIONI : Monete cufiche dell' J. R. Museo di Milano 1819).

Ch Von Fraehn	: Numi Muhammedani, qui in Academiae Imp. Scient. Petropolitanae Museo. Asiatico asservantur, t. 1 Petropoli 1826.
R. P. Blake	: The Circulation of Silver in the Moslem East down to the Mongol Epoch (in *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. II, 1937).

تاريخ الفنون

لا ريب فى أن دراسة العمائر والتحف تلقى الضوء على بعض الأمور ذات الاتصال الوثيق بالحياة الاقتصادية وازدهار الصناعات وتطور العلاقات بين أى إقليم وغيره من الأقاليم التى تتأثر به أو تؤثر فيه . وفضلا عن ذلك فان دراسة الأزياء والملابس والأسلحة لاتحتاج إلى دراسة المنسوجات الأثرية والأسلحة القديمة التى وصلت إلينا فحسب : ولكنها تحتاج أيضاً إلى دراسة الرسوم الآدمية فى الصور المستقلة وفى الصور المرسومة فيما وصل إلينا من مخطوطات مصورة . ولكن المقام لا يتسع هنا لتفصيل الكلام على المراجع فى هذا الميدان . فحسبنا أن نشير إلى الكتب الأربعة الآتية ، فان كلا منها يضم ثبتاً كبيراً بالمراجع الرئيسية فى تاريخ الفنون الاسلامية :

زكي محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر (من مطبوعات دار الآثار العربية . القاهرة ١٩٣٥) .

زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين (من مطبوعات دار الآثار العربية . القاهرة ١٩٣٧) .

زكي محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامي (من مطبوعات دار الآثار العربية . الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٤٦) .

زكي محمد حسن : فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨) .

كتب الجغرافيا والرحلات والخطط

من الخير أن ينتبه الباحثون فى التاريخ الاسلامى إلى أن كتب الرحلات وكتب تقويم البلدان التى كتبها المؤلفون والرحالة المسلمون فى العصور الوسطى تضم من الحقائق التاريخية ما يجب الافادة منه . فاننا نعثر فى هذه الكتب على بيانات طريفة عن المجتمع وعن الحالة الاقتصادية والسياسية فى شتى أقاليم العالم الاسلامى . وقد عنى المستشرقون بطبع طائفة من الكتب التى كتبها المسلمون فى تقويم البلدان . وأهمها ما ضمنوه المكتبة الجغرافية العربية (Bibliotheca Geographorum Arabicarum) (الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى وابن الفقيه وابن خرداذبة وابن رستة واليعقوبى) . كما نشر المستشرق مينورسكى ترجمة انجليزية لكتاب « حدود العالم » (Gibb Memorial Series, Oxford 1937) . ويرجع هذا الكتاب إلى سنة ٣٧٢ ه . وهو مرجع أساسى ولا سيما فى تاريخ الأقوام الرحل فى مناطق الاستبس وبلاد ما وراء النهر وجنوب الروسيا [1] .

وقد عرضنا فى كتابنا « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٤٥) لأعلام الرحالة المسلمين وما كتبوه عن رحلاتهم مما يعد معينا للدراسات التاريخية ولاسيما مايتعلق منها بشئون المجتمع وطبقاته وبالشئون التجارية والاقتصادية . و أشرنا فيه إلى المراجع الرئيسية فى هذا الميدان .

أما كتب الخطط فلا نكاد نستطيع أن نفصلها عن التاريخ وحسبنا أن نذكر فى هذا الميدان كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى : فان المؤلف لا يقف فيه عند الكلام على وصف المدينة وأجزائها وعمائرها ولكنه يطنب فى الكلام على سكانها ومشيدى عمائرها ويشرح الكثير من أحوالهم التاريخية والاجتماعية . وقد عكف المستشرق الفرنسى الأستاذ جاستون ڤييت على خطط المقريزى فتخصص فى دراستها وبدأ منذ

(١) نشر النص الفارسى على يد المستشرق الروسى W. Barthold فى لينينجراد سنة ١٩٣٠

سنة ١٩١٠ نشر طبعة جديدة لهـا لم يصدر منهـا إلا خمسة أجزاء ضخمة من منشورات المجمع العلمى الفرنسى بالقاهرة ، ولكنها لم تصل الى نهاية الجزء الأول من طبعة بولاق لأن فهارسها طويلة ومتنوعة ، فضلا عن أن حواشيها غنية جداً ، ولـكن الأستاذ ڤييت انصرف لسوء الحظ عن هذا العمل المضنى الى غيره من الأبحاث والمؤلفات . ولا تزال خطط المقريزى تحتاج إلى باحث متخصص ودقيق لينشرها نشراً علمياً صحيحاً ومذيلا بالفهارس المفصلة ليستطيع الباحثون أن يفيدوا منها بوصفها المرجع الأساسى فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

* * *

وقد أفاد بعض المستشرقين من كتب الرحلات وتقويم البلدان والخطط التى كتبها المسلمون القدماء فألفوا المعاجم والكتب الحديثة عن ديار الاسلام . وفيما يلى أهم المراجع القديمة والحديثة التى لا غنى للمؤرخ عنها والتي لم نذكرها بعد . وتمتاز معظمها بمـا فيه من فهارس وتعليقات طيبة :

J. Maspero et G. Wiet : Matériaux pour servir à la géographie d'Egypte (Mém. Inst. Fr. Arc. Or. t. 36 le Caire 1914).

H. A. MacMichael : History of the Arabs in the Sudan. 2 vols. (Cambridge 1922).

Prince Omar Toussoun : Geographie de l'Egypte à l'epoque Arabe (Mém. de la Soc. Roy. de Géographie d'Egypte 1926-1928..

A. Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité (3. vols. Publ. Soc. Roy. de Geogr. Le Caire 1929-1946).

A. T. Wilson : The Persian Gulf. An Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the XX^e Century (Oxford 1928).

Leon l'Africain : La decription de l'Afrique (éd. Ch. Schefer, Paris 1896).

G. Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford 1924).

M. Streck : Die Alte Landschaft Babylonien nach arabischen Geographen (Leiden 1900-1901).

G. Le Strange : Palestine under the Moslems (London 1890).

G. Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate (2nd ed. Cambridge 1930).

M. Gaudefroy—Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs Arabes : description géographique, economiques et administrative. (Paris 1923).

M. Von Oppenheim : Von Mittelmeer zum Persischen Golf. 2 Bde. (Berlin 1899-1900).

النظم الإســـلامية

عرض كثير من المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى لدراسة النظم الاسلامية عامة ، أو لدراسة بعض نواحيها ، وقد وصلت الينا بعض مؤلفاتهم في هذا الميدان [١] . ولكن بعض المستشرقين أقبلوا على دراسة هذه المؤلفات والتعليق عليها والموازنة بين محتوياتها : ووصلوا إلى نتائج طيبة يجب أن يحرص الباحثون المحدثون على تأملها والافادة منها ؛ لأن بعض المؤلفين المسلمين كتبوا أموراً نظرية بحتة تخالف ما كان يجرى فى ديار الاسلام ، وعلى رأس أولئك المؤلفين الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية .

ومن أهم ما كتبه المستشرقون فى هذا الميدان :

A. Von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen (2 vols. Wien 1875) translated by Khuda Bukhsh (Calcutta 1920-1927).

I. Goldziher : Vorlesungen über den Islam (Heidelberg 1910) traduit par J. Arin (Le Dogme et la loi de l'Islam, Paris 1920). [٢]

---

(١) أنظر المراجع فى نهاية كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن .

(٢) نقر هذا الكتاب إلى اللغة العربية باسم « العقيدة والشريعة فى الاسلام » بقلم الأساتذة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦) . وقد ظهرت من الأصل الألمانى طبعة ثانية مزيدة ومنقحة على يد المستشرق Fr. Babinger فى هيدلبرج سنة ١٩٢٥

R. LEVY : On Introduction to the Sociology of Islam 2 vols. (London 1933).

M. GAUDEFROY—DEMOMBYNES : Sur quelques ouvrages de hisba (in Journal Asiatique, 1938).

TH. ARNOLD : The Caliphate (Oxford 1924).

M. VON BERCHEM : Titres califiens d'occident (in Journal Asiatique 1909).

E. TYAN : Histoire de l'Organisation Judiciaire en pays d'Islam (t. I Paris 1938 et t. 2 Beyrouth 1943) (1)

B. LEWIS : The Islamic Guilds (in The Economic History Review, t. VIII. 1937).

N. AGHNIDES : Mohammedan Theories of Finances (New-York 1916).

W. J. FISCHEL : Jews in the Economic and Political Life of Mediæval Islam (London 1937).

F. TAESCHNER : Die islamischan Futuwwabünde. das Problem ihrer Entstehung und die Grundlinien ihren Geschichte (Zeitschrift der morgenländische Gesellschaft. 1933).

A. S. TRITTON : The Caliphs and their non-muslim Subjects (Oxford 1930)(2).

A. S. TRITTON : Islam and the Protected Religions (in Jour. Roy. Asiat. Soc. 1931).

E. FRITSCH : Islam und Christentum in Mittelalter (Breslau 1930).

G. VON GRUNEBAUM : Medieval Islam (Chicago 1947).

TH. ARNOLD AND A. GUILLAUME : The Legacy of Islam (Oxford 1931).

D. B. MACDONOLD : Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory (New York. 1903).

S. D. GOITEIN . The Origin of the Vizierate and its True Character (in Islamic Culture, XVI. 1942)

---

(1) كتب الأستاذ جودفروا دعومبين مقالا فى هذا الموضوع سنة ١٩٣٩ فى مجلة Révue des Etudes Islamiques

(2) نقل إلى العربية (القاهرة ١٩٤٩) بعنوان «أهل الذمة فى الاسلام» بقلم حسن حبشى.

A. Mez : Die Renaissance des Islams (Heidelberg 1922)[1].

D. M. Donaldson : The Shi'ite Religion (London 1933).

H. Thorning : Beiträge zur Kenntnis des islamischen Vereinswesens (Berlin 1913).

A. J. Wensinck : The Muslim Creed. Its Genesis and Historical Development (Cambridge 1932).

Ibn 'Abdun-E. Levi-Provençal : Un Document sur la Vie Urbaine et les Corps de métiers à Séville au début du XIIe s. Le Traité d'Ibn Abdun publié par Levi Provençal (Journal Asiatique 1934).

ومن المؤلفات الغنية بشتى البيانات عن الحياة الاجتماعية كتب الحسبة : وقد تحدث الأستاذ جودفروا ديموبين عن كثير منها فى المقال الذى كتبه فى المجلة الأسيوية سنة ١٩٣٨ والذى أشرنا اليه فى السطور السابقة . ومن أهم هذه الكتب ، كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة لمحمد بن أحمد (ابن الأخوة) [٢] وكتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزرى [٣] : وكتاب الحسبة فى الاسلام لأبى العباس أحمد بن تيمية (القاهرة ١٣١٨) : وكتاب آداب الحسبة لأبى عبد الله السقطى (باريس ١٩٣١) .

ومما يجب أن يتجه اليه بعض الباحثين فى النظم الاسلامية الموازنة بين ماجاء فى كتب الحسبة وماورد فى مؤلف عن بعض النظم البيزنطية كتب نحو سنة ٩٠٠ ميلادية . وهو كتاب الحاكم The Book of the Prefect [٤] ويتحدث عن تنظيم نشاط الصناع والتجار فى القسطنطينية .

(١) نقل إلى العربية بعنوان « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » بقلم الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٨) .

(٢) نشره روبن ليفى فى Gibb Memorial Series. Cambridge 1938

(٣) نشره السيد الباز العرينى باشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة فى القاهرة سنة ١٩٤٦

(٤) نشره الأستاذ نيكول J. Nicole وترجمه فى جنيف سنه ١٨٩٤

المراجع الرئيسية الحديثة

ليس فى اللغة العربية أو إحدى اللغات الأوربية كتاب شامل فى التاريخ الاسلامى عامة، وفى شتى نواحيه بحيث يمكن الاطمئنان اليه . فمعظم مالدينا من الكتب يتحدث عن التاريخ السياسى أو عن إقليم معين من الامبراطورية الاسلامية . ومن أهم الكتب التى تعنى بتاريخ المسلمين عامة المؤلفات الآتية :

Cl. Huart	: Histoire des Arabes, 2 vols, (Paris 1912-13).
Ph. Hitti	: History of the Arabs, (1) (London 1937, 1946).
C. Brockelmann	: Geschichte der islämischen Völker und Staaten (2) (München und Berlin 1939). English translation: History of the Islamic Peoples. (London 1949).

ولكن أول هذه الكتب الثلاثة ينقصه الوضوح والاشراف على شتى موضوعات التاريخ الاسلامى وحسن الربط بينها ، أما الثانى فهو أحسنها فى اعتقادنا : على الرغم مما فى بعض مواضعه من نقص ؛ بينما يمتاز الثالث بالعناية بالتاريخ الاسلامي فى العصر الحديث ، مع إحاطة بالعصر الوسيط يفيد منها الملمون به أكثر مما يفيد البادئون .

أما كتب المستشرقين عن الأقاليم الاسلامية المختلفة فمن أهمها المراجع الآتية :

St. Lane-Poole	: Egypt in the Middle Ages. (London 1901, (1925.
G. Wiet	: L'Egypte Arabe, de la Conquête Arabe à la Conquère Ottomane (G. Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne, vol IV, Paris 1928).
G. Wiet	: Précis de l'Histoire d'Egypte (t. II. l'Egypte byzantine et musulmane, Le Caire 1932).
G. H. Becker	: Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam, (Strassburg 1911-1912).

(1) ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد مبروك نافع (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٩) .

(2) ترجمه إلى العربية الدكتور نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكى (دار العلم للملايين فى بيروت ١٩٤٨) .

H. LAMMENS : La Syrie : Précis historique 2 vols. (Beyrouth 1921. 1926).

J. SAUVAGET : Alep. Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^e s. (Paris 1941).

E. ALBERTINI, G. MARÇAIS ET G. YVER : L'Afrique du Nord française dans l'histoire. (Paris 1937).

CH. A. JULIEN : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1931.

L. FOURNEL : Les Berbères, 2 vols. (Paris 1875-1881).

G. MARÇAIS : Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e s. (Paris 1913).

E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, 3 vols. (1888-1891).

G. FAVRE—BIQUET : Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane (740-1830). Paris 1905.

ST. LANE-POOLE : Moors in Spain.[1]

R. DOZY : Histoire des musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711-1110) Nouvelle édition par Lévi-Provençal. (Leyden 1932).
(English traslation : Spanish Islam. (London 1913).

E. LÉVI-PROVENÇAL : L'Espagne musulmane au X^e siècle, institutions et vie sociale. (Paris 1932).

A. GONZALEZ-PALENCIA : Historia de la Espana musulmana. (Madrid 1932).

M. AMARI : Storia degli Musulmani di Sicilia, 3 vols. Florence 1854-72 (nouvelle édition par Nallino, Catana 1933-1939).

H. H. HOWORTH : History of the Mongols.(London 1876-1927).

W. BARTHOLD : Turkestan down to the Time of the Mongol Invasion (Translated by H. A. R. Gibb in the Gibb Memorial Series. London 1928).

E. BLOCHET : Introduction à l'histoire des Mongols (Gibb Memorial Series, XII)

---

(١) نقله إلى العربية المرحوم على الجارم بك بعنوان « العرب فى اسبانيا » دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٧

R. Grousset : L'Empire des Steppes, (Paris 1928).
R. Grousset : L'Empire Mongol, Paris 1941.
M. F. Sanaullah : The Decline of the Seljuqid Empire,(1) (Calcutta 1938).
M. Ishwari Prasad : L'Inde du VII^e au XVI^e s.(2) (Paris 1930. E. Cavaignac : Histoire du Monde t. VIII).

* * *

ولكن الملاحظ بوجه عام أن ما كتبه المستشرقون من الدراسات في بعض عصور التاريخ الاسلامي أو مسائله الجزئية أعمق من كتبهم الشاملة . وإذا كان للمراجع العربية والفارسية القديمة المقام الأول والأساسي في دراسة التاريخ الاسلامي : فمن الانصاف أن نعترف بأننا نحسن الافادة من تلك المراجع الأصيلة حتى اتصلنا بالغرب واستطاع الرعيل الأول من المؤرخين المسلمين المحدثين أن يأخذوا عن المستشرقين كثيراً من أساليب البحث العلمي الدقيق . وحسبنا مثلا أن المستشرقين هم الذين كشفوا لنا عظمة ابن خلدون وما في مقدمته من نظريات اجتماعية سبق بها العلماء الذين ينسب إليهم الغربيون وضع الأسس الأولى في علم الاجتماع . ولا ريب في أن بعض المستشرقين لا تلين لهم قناة اللغة العربية بحيث يصبحون في مأمن من سوء الفهم ومجانبة التفسير الصحيح ؛ وما من شك في أن بعض المستشرقين يعميهم التعصب الديني أو القومي عن الحقائق أو يدفعهم إلى قلبها : ولكن هذا لا يقلل من فضل المستشرقين في العناية بتاريخ حضارتنا وفي دفعنا إلى العناية بها في أسلوب علمي سليم نستطيع بواسطته أن نكمل ما في دراستهم من نقص أو نقوم ما فيها من عيوب .

ولقد كان الأب لامانس (Lammens) من أشد المتعصبين على الاسلام . وهو بعد ذلك من المعجبين ببني أمية ، لأن الدولة التي أقاموها كانت تعنى بمظاهر الملك وبالعصبية العربية أكثر من عنايتها بالدين وشؤونه ، ولأنها

(١و٢) من تأليف عالم من العلماء الهنود .

قامت فى الشام وتأثرت بالمدنيات القديمة التى قامت فى ربوعه . وكان المستشرقون أنفسهم يعرفون فى لامانس هذا العيب ويأخذونه عليه . ولكنه كان واسع الاطلاع . وحسب الدارس نفعاً ومرانا فى التاريخ الاسلامى أن يقرأ لامانس وأن يهضم ما يروقه من أبحاثه ؛ وأن يبحث وينقب ليستطيع الرد على الجزء الباقي فيها وأن يراجع النصوص التى كانت لامانس يبنى عليها أحكامه ليرى كيف كان يجحف فى تفسير بعضها ويحمل بعضها الآخر ما لا تحتمل ؛ وكيف كان يهمل ما لايتفق ورأيه أو ما لايؤيد نظريته ، وكيف أنه كان يغض الطرف أحيانا عن المناسبات فيستنبط من الشواذ قواعد ومن الحالات الفردية أحكاما عامة . وقصارى القول أن قراءة لامانس ومن على شاكلته رياضة علمية ميدانها الكتب والمكتبات وتقرع فيها الحجة بالحجة ، ويدفع النص الواحد بالنصوص الكثيرة .

ومع ذلك كله فلسنا نظن أن باحثا منصفاً يستطيع أن ينكر ضرورة الالمام بكل ما يكتب المستشرقون ، لأن أكثر ما يكتبونه دقيق ومنظم ، وفيه كثير من مزايا البحث العلمى الصحيح . أما عيوب التعصب فمن السهل أن ندركها ونحذر شرها . وعلى كل حال فان الروح التى تسود المستشرقين اليوم فى الكتابة عن الاسلام ليست هى الروح التي كانت تسود أكثرهم فى الجيل الماضى ،فأغلبهم اليوم يدفعه إلى درس المدنية الاسلامية ميل اليها وإعجاب بها. ومن ثم فانهم فى الجملة أكثر انصافا الآن منهم فى الماضى . وجلهم يعملون على أن يتركوا الحكم على العقائد الدينية تركا تاما وأن يكتبوا باسلوب علمى : عن الظواهر الأجتماعية والاحداث السياسية فى حد ذاتها ، وأن يحكموا على أبطال التاريخ الاسلامى وأمرائه من الناحية الشخصية والسياسية فحسب ، تاركين الدين جانبا : بل عاملين على تفهم البيئة العربية وما كان للاسلام من فضل فى توحيد كلمة العرب واعلاء شأن المسلمين فى العصور الوسطى .

ومما يزيد مؤلفات المستشرقين قيمة ويجعل كثيرين منهم حجة فى الموضوعات التى يكتبونها نظام التخصص الذى اتخذوه . فالغالب بينهم إذا أكمل الناشىء منهم دراسته أن يتخذ فرعا يحلو له فيزداد فيه تعمقاً ويثابر على الدرس

والتحصيل فيه ليصبح ثقة يعتمد عليه طلاب هذا الفرع، ويرجعون اليه فى تفهم معمياته حتى لقد نشأ بينهم نظام فى التأليف لم تعوده فى مصر تماماً. وهو نظام التعاون فى تأليف كتاب من الكتب يخرجه أحد الأساتذة، ويكتب فيه أساتذة آخرون، كل فى الفرع، الذى وقف نفسه على دراسته.

ومن الخير أن نعرض فى الصفحات التالية أهم آثار المستشرقين فى تاريخ العصور الاسلامية المختلفة.

١ — بلاد العرب قبل الاسلام:

لن يستطيع المؤرخ أن يدرس فجر الاسلام دراسة طيبة بغير الرجوع الى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى لبلاد العرب فى العصر الجاهلى، لأن الاسلام أبقى على كثير من النظم التى كانت تسود فى بلاد العرب قبل ظهور النبى عليه السلام، ولأن قيام الاسلام كان تطوراً طبيعياً فى حياة العرب وتقدما فى سير موكب الحضارة بينهم.

ومن أهم مؤلفات المستشرقين فى هذا الميدان:

J. Guidi	: L'Arabie Antéislamique, (Paris 1921).
D. L. OLeary	: Arabia before Muhammad. (London 1927).
J. Wellhausen	: Reste arabischen Heidentums. (Berlin 1897, 1927).
H. Lammens	: Le Berceau de l'Islam, (Rome 1914).
H. Lammens	: L'Arabie occidentale avant l'Hegire. (Beyrouth 1920).
D. S. Margoliouth	: The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam. (London 1924).
D. Nielsen	: Handbuch der Altarabischen Altertumskunde [1] vol I, die altarabische Kultur. (Kopenhagen, Paris, Leipzig 1927.)
G. Levi della Vida	: in "The Arab Heritage" edited by N.A. Faris, (Princeton 1944).
B. Moritz	: Arabien: Studien zur physikalischen und historischen Geographie des Landes, (Hanover 1923).

(١) نقله إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين على (تحت الطبع بالقاهرة سنة ١٩٥٠).

A. GROHMANN	: Südarabien als Wirtschaft Gebiet, 2 vol, (Brunn, Prag und Leipzig 1922–1933).
E. BRAUNLICH	: Beiträge zur Gezellschaftsordnung der arabischen Beduinenstämme (in *der Islam*. 1933. 1933, 1934).
R. DUSSAUD	: Les Arabes en Syrie avant l'Islam, (Paris 1907).
A. KAMMERER	: Pétra et la Nabatène : L' Arabie Pétrée et les Arabes du Nord dans leur rapports avec la Syrie et la Palestine jusqu'à l'Islam, 2 vol. (Paris 1930).
TH. NÖLDEKE	: Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafna's[1], (Berlin 1887).
F. NAU	: Les Arabes chrétiens de Mesopotamie et de Syrie. (Paris 1933).
R. DEVREESSE	: Arabes Perses et Arabes Romains (in *Vivre et Penser*. 2e sér. 1942)[2].

٢ — الفتوح والدولة الأموية :

لاتزال الدراسات في موضوع الفتوح العربية ينقصها عنصر لا يمكن أن ننكر ما له من الشأن الأول فى أسباب هذه الفتوح وطبيعتها وتطورها . ذلك أن ما نعرفه عن أحوال البلاد التى فتحها العرب قبيل هذا الفتح لا يزال غير كاف، ولا بد من أن يخرج لنا الاختصاصيون فى التاريخ الايرانى وفى تاريخ الشرق فى العصر القديم وفى العصر الاغريقى الرومانى بحوثا جديدة تلقى الضوء على حركة الفتوح الاسلامية وأسباب نجاحها .

أما سير تلك الفتوح فقد كتب المستشرقون بحوثا طيبة فيهـا ، نذكر من بينها ما يأتى :

C. H. BECKER	: Islamstudien, 2 vol. (Leipzig 1924–1932 t. I, pp. 66–145)[3].

(١) نقله إلى العربية بعنوان « أمراء غسان » الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣) .

(٢) ظهر هذا المقال فصلا من كتاب للمؤلف نشر فى باريس سنة ١٩٤٥ وعنوانه :
Le Patriarcat d'Antioche depuis la Paix de l'Eglise jusqu'à la conquête arabe.

(٣) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب مقالان عن امتداد النفوذ العربى فى افريقية الوسطى والغربية وعن تاريخ السودان الشرق .

C. H. Becker : Cambridge Medieval History vol. II pp. 329–390 (Cambridge 1912).

L. Halfen : Les Barbares (5e ed. Paris 1948) chap. X. pp. 135–157.

A. Butler : The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902 [1].

E. Amélineau : La Conquête de l'Egypte par les Arabes (in *Revue Historique* t. 119-120. 1915).

M. J. de Gœje : Mémoires sur la Conquête de la Syrie (in de Gœje : Mémoires d'histoire et de géographie orientale. Leyde 1886).

J. Wellhausen : Skizzen und Vorarbeiten, t. VI, (Berlin 1899).

J. Wellhausen : Die Kämpfe der Araber mit den Römern (Nachrichten der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. philosophihe-historische Klasse. 1901).

M. Canard : Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (in *Journal Asiatique* 1926).

J. Laurent : L'Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886, (Paris 1919).

H. A. R. Gibb : The Arab Conquests in Central Asia (London 1923).

L. Caetani : Annali dell'Islam. 10 vols.(Milan 1905–1926)

أما عصر الدولة الأموية فقد أبلى المستشرقون فى بحثه بلاء حسناً لأنه لم يلق ما يستحق من الانصاف عند المؤرخين المسلمين الذين كتب معظمهم فى ظل أسرات معادية لبنى أمية[٢]، ولأن هذا العصر شاهد قيام الامبراطورية الاسلامية على أساس الملكية الوراثية ، كما شاهد تحوّل المجتمع الاسلامي

---

(١) نقله إلى العربية الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك بعنوان « فتح العرب لمصر » القاهرة ١٩٣٣

(٢) من الملاحظ أن أهم الكتب التاريخية العربية فى تاريخ بنى أمية اثنان : اليعقوبى وهو شيعى لا يكاد يستطيع أن يخفى عداوته لبنى أمية والثانى الطبرى وعيبه أن عنايته تتجه إلى العراق وإيران أكثر من الشام ومصر ، وقد كان الاقليمان الأخيران مركز النشاط الأموى ، فلا عجب إذا قلت بسبب ذلك أهمية الطبرى بالنسبة لتاريخ بنى أمية .

وتطوره تطوراً أدى إلى بلوغ أوجه فى بداية العصر العباسى . فلا عجب إذا اتجه المستشرقون إلى دراسة الأحداث السياسية وقيام النظم الاسلامية وغير ذلك من الظواهر التى تعد بحق من الأسس والدعائم الأولى فى تاريخ الحضارة الاسلامية . وكان على رأس المستشرقين الذين عنوا بانصاف بنى أمية ورد اعتبارهم ولهاوزن ولامانس . فكتب الأول كتابه المشهور عن الدولة العربية وسقوطها Das Arabische Reich und sein Sturz (Berlin 1902) . وقد نقل هذا الكتاب إلى الانجليزية بقلم G. Weir وبعنوان The Arab Kingdom and its Fall (Calcutta 1927) . وتمتاز الترجمة الانجليزية بكشاف مفصل .

أما لامانس فقد كتب كثيراً فى تاريخ بنى أمية . ولكن ما كتبه يشوبه التعصب الدينى أولا والتعصب لبنى أمية بعد ذلك . وكان ذلك يدفعه فى كثير من الحالات إلى اهمال بعض النصوص والاكتفاء بنصوص مبتورة يعمل على أن يحملها من المعانى ما لا تحتمل . كما كان يدفعه فى حالات أخرى إلى اهمال بعض الجوانب من الموضوع الذى يعرض لدراسته . ويظهر ذلك جلياً فى كتابيه عن حكم معاوية الأول ويزيد الاول ، فاننا لا نستطيع أن نحسبهما عرضاً شاملا لحكم هذين الخليفتين . ومع ذلك كله فانا نكرر ما ذكرناه فى الصفحات السابقة من أن دراسة ما كتبه لامانس أمر لازم لكل مشتغل بالتاريخ الاسلامى . ومن أهم مؤلفات لامانس فى تاريخ بنى أمية ما يأتى :

(1) Etudes sur le siècle des Omayyades (Beyrouth 1930)

ويضم بحوثاً عن زيادة بن أبيه والاخطل وعن الخليفة الوليد الأول وقسمة الجامع الاموى بدمشق وعن قرة بن شريك على ضوء الاوراق البردية وعن البادية والخيرة .

(2) Etudes sur le règne du calife omayyade Moawia 1er (Beyrouth 1908).

(3) Le califat de Yazid 1er (Beyrouth 1921).

(4) L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan 1er (Mélanges de l'Université St. Joseph t. XII Beyrouth, 1927).

أما الكتب الأخرى التي ألفها سائر المستشرقين عن تاريخ بني أمية فعلى رأسها المراجع الآتية :

G. VAN VLOTEN	: Recherches sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le califat des Omaiyades(1) (Amsterdam 1894).
H. BELL	: The Administration of Egypt under the Omayyad Caliphs (in *Byzantinische Zeitschrift*, t. 28. 1928).
C. H. BECKER	: Studien zur Omajjadengeschichte : Omar II (in *Zeitschrift fur Assyriologie und verwandete Gebiete*. 1900).
C. H. BECKER	: Islamstudien, 2 vol. (Leipzig 1924-1932).
FR. GABRIELI	: Il califfato di Hisham : studi di storia omayyade (Mémoires de la Societé Royale d'Archéologie d'Alexandrie t. VIII. 1935)
J. PÉRIER	: Vie d'al-Hadjdjadj ibn Yousof, (Paris 1904.)
A. N. POLIAK	: L'Arabisation de l'Orient sémitique (in *Revue des Etudes Islamiques*, 1938).

ولكن تاريخ بني أمية بخاصة (والتاريخ الاسلامي بوجه عام) لا يزال حقلا طيباً للبحث إذا أحسن المؤرخون استخدام المراجع التي تبدو لأول وهلة ليست ذات صلة وثيقة بالتاريخ ، ولكن الحق أنها مراجع أصيلة يمكن أن نستخرج منها الحقائق العظيمة الشأن عن المجتمع الإسلامي وأحواله السياسية والاجتماعية . تلك هي كتب التراجم الخاصة مثل كتاب الوزراء للجهشياري ، وكتاب الولاة والقضاة للكندي ، وكتاب أنساب الاشراف للبلاذري[2] ؛ ثم كتب الادب ولا سيما الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الاخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة والبيان والتبيين والحيوان والرسائل المختلفة للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والامالي لأبي على القالي .

(١) نقله إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ محمد زكي ابراهيم بعنوان « السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية » القاهرة سنة ١٩٣٤.

(٢) ظهر منه الجزء الخامس في بيت المقدس سنة ١٩٣٦ على يد جويتاين Goitein. والجزء الرابع سنة ١٩٣٨ على يد شلوزنجر Schlössinger

٣ — العصر العباسى :

لعل أنفع ما كتب المستشرقون عن الدولة العباسية كتاب (Mez: Die Renaissance des Islams (Heidelberg 1922) الذى نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة : بعنوان « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الاسلام » (فى جزأين ، الطبعة الثانية منقحة مهذبة ، القاهرة سنة ١٩٤٨) . ومع أن العصر الذى عنى به المؤلف فى هذا الكتاب إنما هو القرن الرابع الهجرى حين ضعف سلطان الخليفة العباسى وقامت الدويلات التى استقلت عن الخلافة العباسية ، فان الكتاب غنى بالحقائق عن الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية فى العصر العباسى عامة ؛ وهو يشهد باطلاع واسع ، ويمكن — رغم عيوبه — أن يكون دليلا للنواحى التى يجب أن يعنى به الباحث فى التاريخ الاسلامى .

والواقع أن متز أفاد أجل فائدة من المراجع العربية الرئيسية فى تاريخ العباسيين كالطبرى وابن الأثير والجهشيارى واليعقوبى والكندى والجاحظ والصولى ومسكويه وهلال الصابى ويحيي بن سعيد الانطاكى والتنوخى . فضلا عن طائفة من المخطوطات لم تطبع إلى الآن ، وقد جمع متز نصوصاً كثيرة عن نظام الدولة العباسية الادارى والمالى وعن طبقات المجتمع واحواله وعن المذاهب الفقهية وعن الصناعة والتجارة ، ومع ذلك فان المجال لا يزال واسعاً جداً لكى يستنبط الباحث من كتب التاريخ ، والأدب والطبقات والرحلات ما يمكن استنباطه عن نظم الحكم وأحوال المجتمع فى الدولة العباسية نفسها ، وفى الدويلات المستقلة التى قامت إلى جانبها عندما ضعف سلطان الحكومة المركزية فى بغداد .

ومن أهم ما كتبه المستشرقون فى هذا الميدان البحوث الآتية :

H. F. AMEDROZ	: Abbassid Administration in its Decay (*Journal Royal Asiatic Society*, 1931).
G. W. FREYTAG	: Geschichte der Hamdonidan (*Zeitschrift de Morgenländische Gesellschaft*, 1856-57).
I. HOROVITZ	: Die Hamdaniden (*der Islam*. 1911).

H. BOWEN : The Life and Time of Ali Ibn Isa "The good Vizier, (Cambridge 1922).

L. BOUVAT : Les Barmécides, (Paris 1912).

P. SCHWARZ : Die Abbasiden-Residenz Samarra, (Leipzig 1909).

R. VASMER : Die Eroberung Tabaristans durch die Araber zur Zeit des Chalifen al-Mansur. (Leipzig 1927).

M. VONDERHEYDEN : La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou-l-Arlab, (Paris 1925).

R. LÉVY : A Baghdad Chronicle. (London 1929).

A. A. VASILIEV : Byzance et les Arabes, 3 vols. (Bruxelles 1935).

FR. GABRIELI : Al-Mamun e gli Alidi, (Leipzig 1929)

TH. NÖLDEKE : Orientalische Skizzen. (Berlin 1892 Eng. Translation: Shetsches from Eastern History, London 1892).

F. H. AMEDROZ : The Vizier Abul-Fadl ibn al Amid (der *Islam*, III).

S. MORCATI : Nuovi Studi sul califfato al-Mahdi (in *Orientalia*. XV. 1946).

(يتبع)

نهر النيـــــل

كما ورد فى مخطوط معزو إلى ابن سيرابيون[1]

للدكتور ابراهيم أحمد رزقانة

يوجد هذا المخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم Or. 4896 وقد وصف فى سجلات هذا المتحف بما يأتى :

A geographical work ascribed to Ibn Serapion. Transcribed from the Taylor Ms. Add. 23379 Fol. 75. A.D. 1844.

وترجع معرفتى بهذا المخطوط إلى عدة سنوات مضت ، فقد رأيت إشارة عنه فى كتاب المغفور له سمو الأمير عمر طوسون عن نهر النيل [2] ، ثم انتهزت فرصة وجودى فى انجلترا فى العام الماضى واطلعت عليه .

---

(1) هو يحيى بن سيرابيون ـــ وقيل يوحنا بن سيرافيون ـــ كان طبيباً وجغرافيا توفى بعد المتوكل وقبل البويهيين أى بين عامى ٢٨٩ ، ٣٣٤ هـ . كتب بالسريانية كتابيه فى الطب الكناش الكبير والكناش الصغير وقد نقلا الى العربية .

أنظر :

(أ) الفهرست لابن النديم طبعة أوروبا ص ٢٩٦ وطبعة مصر ص ٤١٢

(ب) طبقات الأطباء لابن ابى أصيبعة ج ١ ص ١٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٨٨٢ م

(ج) كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

(د) قصة دلتا النيل للدكتور ابراهيم احمد رزقانه بمجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ ص ٣١

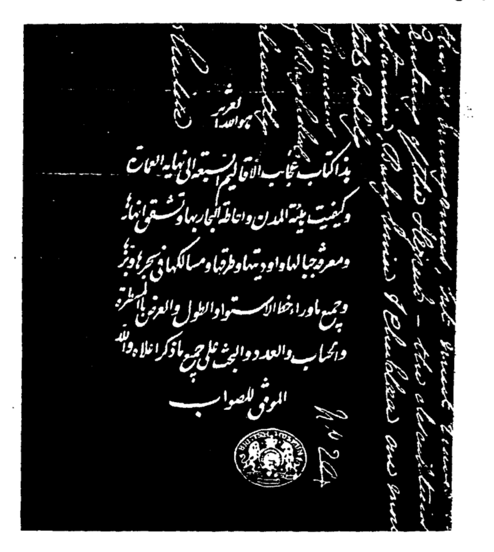
وانظر أيضاً :

(*a*) Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur I. 227 and 233.

(*b*) Brockelmann, " " " " Erster Supplementband p. 406. Leiden 1937.

(2) Omar Toussoun, Mémoire sur L'Histoire du nil, t. I. p. 143.

ولما كان ابن سيرابيون نفسه غير معروف إلا للخاصة من علماء التاريخ الاسلامى كما أن مخطوطه غير مشهور لأنه غير منشور فقد رأيت تعريفا بهذا الكاتب أن أنشر الجزء الخاص بنهر النيل وأعلق عليه وأزوده بالخرائط اللازمة لفهمه .



هو الله العزيز

هذا كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة
وكيفية هيئة المدن واحاطة البحار بها وتشقق انهارها
ومعرفة جبالها واوديتها وطرقها ومسالكها في بحرها وبرها
وجميع ما وراء خط الاستوا والطول والعرض بالمسطرة
والحساب والعدد والبحث على جميع ما ذكرنا اعلاه والله
الموفق للصواب

عنوان المخطوط مصور من النسخة المحفوظة بالمتحف البريطانى

ويبدأ الكتاب بما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان احسن ما افتُتح به الكلام فى كل رغبة ورهبة وحاجة حمد الله تعالى الحمد لله مفلج الحق ومدحض الباطل وماحقه الذي اختار لنفسه الاسلام دينا

فأمر به وحاطه فوكل بحفظه وضمن اظهاره على الدين كله ولو كره المشركون
وإياه نسأل أن يصلى على محمد نبيه الذى اختاره من خير خلقه وبعثه رحمة
للعالمين تقول أما بعد أطال الله بقائك فانه حبب الى النظر فى كتب المتقدمين
والبحث عن جميع ما ذكروا فيها من صورة الارض وكيف هيئة المدن عليها
واحاطة البحار بها تشقق انهارها ومعرفة جبالها واوديتها وطرقها ومسالكها
فى برها وبحرها فوجدت ذلك فى عدة من كتبهم يطول شرحها ويبعد العمل
بها فاحببت أن اختصر من جميع كتبهم كتابا يقرب فهمه وتسهل العمل
به لمن اراد صورة الارض ووضع المعمورة عليها واستخراج البحار والعيون
والأنهار والجبال والاودية مع صحيح ما ذكروا من المسالك المشهورة
والطرق الغامضة والبقاع والبوادى المعروفة ليفهم ايدك الله الناظر فى هذا
الكتاب ما فيهم من عمل الصورة وبالله التوفيق قال جامعه افقر الورى سهراب
فاذا اردت ادام الله كرامتك أن تبتدى بعمل ذلك فى بسيط مربع فليكن حسب
ما احببت وكلما اتسع كان احسن وابين ويكون عرضه مثل نصف طوله وربعه
تربيعاً صحيحاً لا زلل فيه فاذا فعلت ذلك فاعمد الى أربعة حواشيه فاستخرج
فى كل حاشية منها ثلثة خطوط مثل خطوط المسطرة المقسومة فيكون خطان
يقع بينهما بيوت الاخماس والثالث يلحق به الآخره فاذا فعلت ذلك باربعة جوانبه
فقد خططت المساطر الاربع واحتجت الى قسمتها انشاء (كذا) الله تعالى
ثم اعمد الى مسطر فى الطول فاقسم كل واحدة منهما بمائة وعشرة اجزاء
قسمة صحيحة واحذر الزلل وانما قلت لك اقسم العرض بمائة وعشرة
ليخرج لك البحر الجنوبى بأسره والبحر المظلم وجميع ماوراء خط الاستواء
من المدن والجبال والعيون وغير ذلك ولا تكتب فى بيوت الخمسات بحروف
الجمل فى هذا الوقت وانا اعرفن فى أى وقت تكتبه انشاء (كذا) الله تعالى
ثم اعمد الى احدى مسطرتى الطول فوقع عند وسطها افق الجنوب وفى وسط
المسطرة الاخرى التى بازايها افق الشمال :

* * *

وبعد المقدمة يأخذ المؤلف فى سرد معلوماته عن أقاليم العالم المختلفة
الى أن يصل الى نهر النيل وفيما يلى نص ما قاله عن مجرى النيل :

معرفة نيل مصر وما يتفرع منه

« وذلك أن أول نيل مصر من جبل القمر يخرج منه عشرة أنهار ويصب الى بطيحتين مدورتين وهما خلف خط الاستواء قطر كل واحدة منهما خمسة أجزاء مركز الأولى عند طول ن ه وعرض ز ه ومركز الثانية عند طول يزه وعرض ز ه يصب إلى الأولى خمسة أنهار من جبل القمر مبتداء النهر الأول عند طول مج ه والثانى عند طول مط ه والثالث عند طول ن ه والرابع عند طول ناه والخامس عند طول نب ه ويصب الى الثانية خمسة أنهار من جبل القمر أيضاً مبتداء النهر الأول عند طول نه ك والثانى عند طول بزك والثالث عند طول بول والرابع عند طول مح ك والخامس عند طول نط ك ويخرج من هاتين البطيحتين من كل واحدة منهما أربعة أنهار يجئن الى بطيحة مدورة فى الاقليم الأول قطرها جزءان مركزها عند طول لح ل وعرض ب ه فبتداء النهر الأول من البطيحة الأولى عند طول مح ى والثانى عند طول مط ل والثالث عند طول نايه ثم يجتمع الثانى والثالث عند طول نب ه وعرض ا ه وذلك خلف خط الاستواء فاذا اجتمعا مرا جميعاً مرا نهراً واحداً الى البطيحة التى ذكرنا فى الاقليم الأول ويمر النهر الرابع عند طول نب هثم يخرج من البطيحة الثانية أربعة أنهار الى آخر البطيحة الصغيرة مبتداء النهر الأول عند طول نطل والثانى عند طول نوك والثالث عند طول نهل ثم يجتمع الثانى والثالث عند طول نوك والثالث عند طول نوه وعرض ام وذلك خلف خط الاستواء فاذا اجتمعا جميعاً مرا نهراً واحداً إلى البطيحة الصغيرة التى فى الاقليم الأول ومصب كل واحد منها غير مماس للاخرثم يخرج من هذه البطيحة الصغيرة نهر هو نهر نيل مصر ثم يمر النهر بالسودان زغاوه وعلوه وقران والنوبه ماداً إلى دنقلة مدينة النوبة عند طول نب كوعرض يده وذلك فى الاقليم الأول ثم يمر فيقطع خط الاقليم الأول عند طول لح ه وعرض بوك ثم يمر حتى يجوز الاقليم الأول بجزء ونصف على سمته ثم يعدل إلى طول نب ه وعرض مح م ثم يعدل إلى طول با ه وعرض يزه ثم يعدل إلى طول ن ه وعرض برك ثم يعدل

إلى طول ز ك وعرض ل ك ثم يعدل إلى طول ل ك وعرض بط م ثم يعدل
إلى طول نال وعرض بط ك راجعاً ثم يمر إلى مدينة ملوى عند طول نا ل
وعرض ك ل ثم يعدل إلى طول لح ه وعرض كده مماساً لجبل فتوقا ثم يعدل
إلى طول نه ل وعرض كدك ثم يمر بمدينة مصر مماساً لها عند طول ندل
وعرض كط يه[1] ثم يتفرق منه هناك خلجان سبعة كلها تصب إلى البحر الرومي
الخليج الأول منها عند طول نالك فوق أهرام يوسف عليه السلام بشيء يسير
ثم يمر إلى قصر يوسف وهو غربي ويسقي ما عليه من الضياع ويصب في البحر
مع مدينة الاسكندرية ويخرج من هذا الخليج خليجان الأول منهما عند
طول نا م يمر الى ديرا فيتم الى انسايه ويحمل عند هذه القرية خليج سنذكره
فيما بعد ثم يمر الخليج الكبير من انسايه الى القيسا ثم يمر الى المدينة المعروفة
بمدينة البهنسا ثم يفنا هناك وهذه القرى كلها فى شطه الغربى فأما الخليج
الذي يخرج عند قرية انسايه وهي غربية فانه يمر الى طحا غربية ثم إلى فهفاف
شرقية ثم إلى سطا شرقية ثم إلى بوص شرقية ثم إلى أقصى غربية
ثم إلى أسيوط ثم يسقي هذه القرى والضياع ويفنى هناك ويخرج الخليج الثانى
من خليج الاسكندرية عند طول لح ه في شرقية مع قصر يوسف عليه السلام
الى دلاص شرقية فيصب فى الخليج الكبير الذى أخذ منه فوق قنطرة
ذات الحمام وبين هذين الخليجين يقع مدينة الفيوم ومدينة اهناس فمدينة الفيوم
قريبة من الخليج الكبير والأخرى قريبة من خليج دلاص ويخرج الخليج
الثانى من النيل أسفل مدينة مصر ويمر إلى سردوس ثم إلى نيا ثم إلى بوصير
ثم إلى شطيوف وهذه القرى كلها شرقية ثم يصب إلى البحر عند
طول لح ه مع مدينة سمنود وهى غربية ويخرج من هذا الخليج الخليج
الثالث أوله مع مدينة سردوس يمر فيسقى ما عليه من الضياع ويصب
فى البحر عند طول لح ل أسفل الاسكندرية ويخرج من هذا الخليج خليج أوله
أسفل على مقدار عشرة فراسخ من سردوس ويصب فى البحر أسفل من الاسكندرية

(١) أى ان مدينة مصر (القاهرة الحالية تقريباً) تقع فى رأيه عند طول ٣٠َ ٥٤°
وعرض ١٥َ ٢٩°

وللنهر الأول بشيء يسير عند طول خ م وهو الخليج الرابع ويخرج الخليج الخامس من خليج سردوس الكبير أوله بأزاء بوصير يمر حتى يصب فى البحر عند طول يج مرمع مدينه اسرودات وهى غربية ويخرج الخليج السادس من خليج سردوس الكبير أوله مع مدينة شطنوف يمر فيستى ماعليه من الضياع فى لبحر عند طول ندك مع مدينة دمياط فأما الخليج السابع فهوالذى يقاسم خليج سردوس فيمر خليج يسره إلى سردوس ويمرهذا منه على سمته وهوعمود النيل يمر من مصر بتنيس وهى شرقية الى جرجير وهى شرقية ثم الى نوو غربية ثم الى القرما ويصب فى البحر عند طول ندل فهذه الخلجان كلها تدور فى بلاد مصر ويتفرع من كل واحد منها أنهار كبيرة يستى تلك الضياع وتقلب فى بحر الروم فوق الاسكندرية وأسفل منها ويصب الى النيل نهر من عين مدورة مركزها على خط الاستواء وقطرها ثلاثة أجزاء وهى عند سب ه ومصب هذا النهر فى النيل عند مدينة النوبة ويخرج من هذا النهر خليج عند طول سال ومصبه فى النيل عند طول يح ه وعرض بوك مماسا للأقليم الأول » [انتهى كلامه عن نهر النيل] .

* * *

فأما عنوان هذا الكتاب المخطوط وهو « عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة » فيدلنا على نظرة كتاب العصر العربى الى العالم المعمور حينذاك فقد قسموه الى سبعة أقاليم وجعلوا عامل الحرارة أساساً لتقسيمهم .

فالإقليم الأول يبدأ من خط الاستواء الى خط عرض ١٠° شمالا والاقليم الثانى من ١٠ الى ٢٠° شمالا ، والثالث من ٢٠ الى ٣٠° شمالا ، والرابع من ٣٠ الى ٤٠° شمالا ، والخامس من ٤٠ الى ٥٠° شمالا ، والسادس من ٥٠ الى ٦٠° شمالا ، والسابع من ٦٠ الى ٧٠° شمالا ، فأما ما يقع شمال خط عرض ٧٠° شمالا فلم يعتبروه من العالم المعمور لافراط برده ، وأما ما يقع جنوب خط الاستواء فلم يعتبروه كذلك من العالم المعمور لشدة حره . وما زال علماء الجغرافية المحدثون يتخذون عامل الحرارة أساساً لتقسيم العالم الى أقاليم طبيعية ومثال ذلك تقسيم هربرتسون المشهور .

ثم يبدأ المخطوط بمقدمة يذكر فيها المصادر التى استمد منها ابن سيرابيون معلوماته فيقول « حبب إلى النظر فى كتب المتقدمين والبحث عن جميع ماذكروا فيها من صورة الأرض وكيف هيئة المدن . . . » إلى أخ ثم يبين لنا الدافع الى تأليف هذا الكتاب والمواضيع التى يتناولها فيقول : « فأحببت أن أختصر من جميع كتبهم كتاباً يقرب فهمه ويسهل العمل به لمن أراد صورة الأرض ووضع المعمورة عليها واستخراج البحار والعيون والأنهار والجبال والأودية . . . » أخ كما هو وارد فى النص فى ص ١٨٧

ولما كان الكتاب يعين درجة الطول ودرجة العرض لكل مكان يذكره ؛ فقد مضى المؤلف بعد ذلك يشرح طريقة تقسيم سطح الأرض إلى خطوط الطول وخطوط العرض حيث يقول: « فاذاأردتأدامالله كرامتك أن تبتدئ بعمل ذلك فى بسيط مربع فليكن حسب ما أحببت وكلما اتسع كان أحسن وأبين ويكون عرضه مثل نصف طوله وربعه تربيعاً صحيحاً لازلل فيه ... » الخ كما هو وارد في النص فى ص١٨٧ وكما هو موضح فى شكل ١

وقد استخدم اليونان ومن بعدهم العرب الحروف الأبجدية للدلالة على درجات الطول والعرض ؛ فلكى يمكن تتبع ابن سيرابيون فى وصفه لمجرى النيل سنورد فيما يلى جدولا بالأرقام التى تقابل الحروف الأبجدية وهو ما يعبر عنه بحساب الجمل[1] .

الحرف	الرقم	الحرف	الرقم	الحرف	الرقم	الحرف	الرقم
ا	١	ح	٨	س	٦٠	ت	٤٠٠
ب	٢	ط	٩	ع	٧٠	ث	٥٠٠
ج	٣	ى	١٠	ف	٨٠	خ	٦٠٠
د	٤	ك	٢٠	ص	٩٠	ظ	٧٠٠
ه	٥	ل	٣٠	ق	١٠٠	ض	٨٠٠
و	٦	م	٤٠	ر	٢٠٠	ذ	٩٠٠
ز	٧	ن	٥٠	ش	٣٠٠	غ	١٠٠٠

(١) مثال ذلك إذا قيل أن مدينة أسوان تقع على طول نو ـ وعرض كب ل فمعنى هذا أنها تقع على طول ٥٦ درجة وصفر دقيقة وعرض ٢٢ درجة و ٣٠ دقيقة [طول ٠٠َ ٥٦° وعرض ٣٠َ ٢٢°] .

مسطح العرض مقسومة ثمانية وعشرين

أفق المشرق

أفق الشمال نهاية العمران

الإقليم السابع

الإقليم السادس

الإقليم الخامس

الإقليم الرابع

الإقليم الثالث

الإقليم الثاني

الإقليم الأول

خط الاستواء

أفق الجنوب

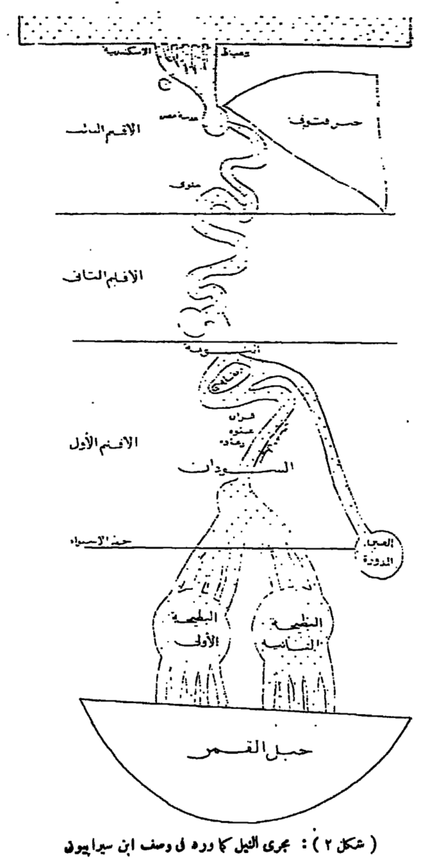
أفق المغرب

مسطح الطول مقسومة بمائة وثمانين

مسطح الطول مقسومة مائة وثمانين

مسطح العرض مقسومة ثمانية وعشرين

(شكل ١)



(شكل ٢) : مجرى النيل كما ورد في وصف ابن سيرابيون

فأما الصفر فيرمز له بهذه العلامة ٥ وأحيانا تختصر هذه العلامة وتصبح هكذا ٠

وفى صحيفة ٤٥ من مخطوط ابن سيرابيون يأخذ هذا المؤلف فى سرد معلوماته الجغرافية عن نهر النيل تحت عنوان « معرفة نيل مصر وما يتفرع منه » وقد نشرنا النص كاملا فى الصفحات من (١٨٨) إلى (١٩٠) من هذه المجلة ورسمنا خريطة بناء على هذا الوصف (أنظر شكل ٢) ولنا على هذا النص عدة ملاحظات :

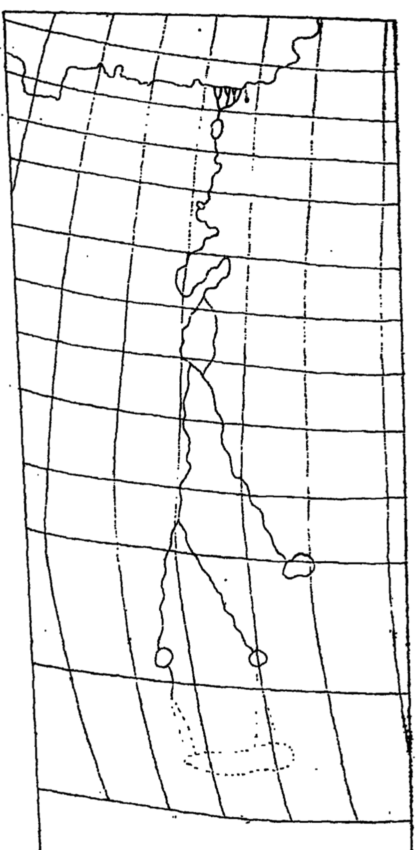
معلومات كتاب العرب عن نهر النيل مستمدة من كتاب بطليموس الجغرافى ، وقد حرفت هذه المعلومات فى طريقها من كاتب إلى آخر على مر القرون . وأول من أخذ عن بطليموس من كتاب العرب أبو محمد بن موسي الخوارزمي صاحب كتاب « صورة الارض من المدن والجبال والبحر والجزائر والانهار » استخرجه الخوارزمي من كتاب « جغرافيا » الذى ألفه بطليموس القلوزى[١] ولكنه نقل وصف بطليموس لمجرى النيل محرفاً ثم جاء ابن سيرابيون فنقل هذا الوصف عن الخوارزمى (فيما عدا الدلتا) مدخلا عليه تحريفات جديدة . ويلاحظ التشابه بين عنوان كتاب الخوارزمى وبين عنوان كتاب ابن سيرابيون.

يقول بطليموس أن النيل ينبع من بحيرتين إحداهما غربية والأخرى شرقية وأن هاتين البحيرتين تستمدان ماءها من ثلوج جبل القمر . وتوضح الخريطة رقم (٣) مجرى النيل كما ورد فى كتاب بطليموس [٢] وتوضح الخريطة رقم (٤) منابع النيل بناء على وصف بطليموس .

ويقول الخوارزمى أن خمسة أنهار تخرج من جبل القمر وتصب فى بحيرة أولى كما تخرج خمسة أنهـار أخرى من هذا الجبل وتصب فى بحيرة ثانية . وهاتان البحيرتان مدورتان وقطر كل واحدة منهما خمس درجات . ومن كل

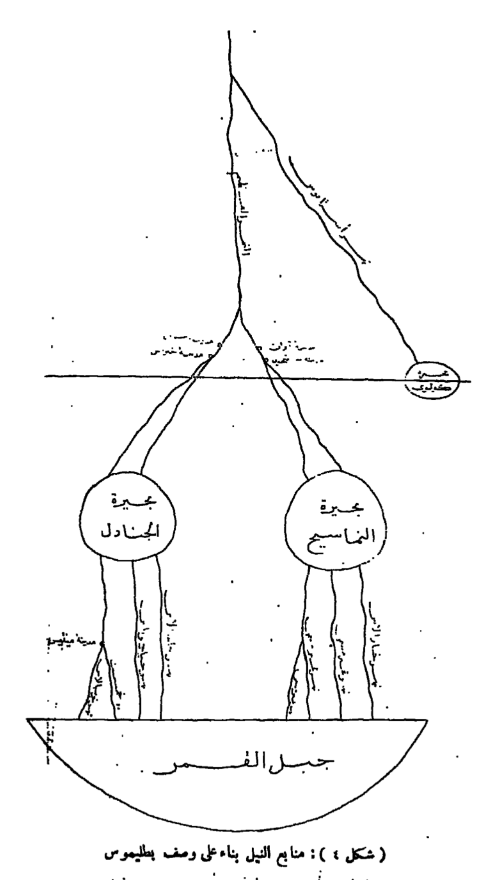
(١) Yossouf Kamal. Monumenta Cartographica Africæ et Aegypti t. 3. Fasc. I P 519 [Epoque Arabe]

(٢) Yossouf Kamal. Monumenta Cartographica, Africæ et Aegypti, tome deuxième. Fascicule I. p. 156. [Ptolémée et Epoque Græco-Romaine].



(شكل ٣) : مجرى النيل كما ورد فى كتاب بطليموس

·١٠٩٧



(شكل ٤) : منابع النيل بناء على وصف بطليموس

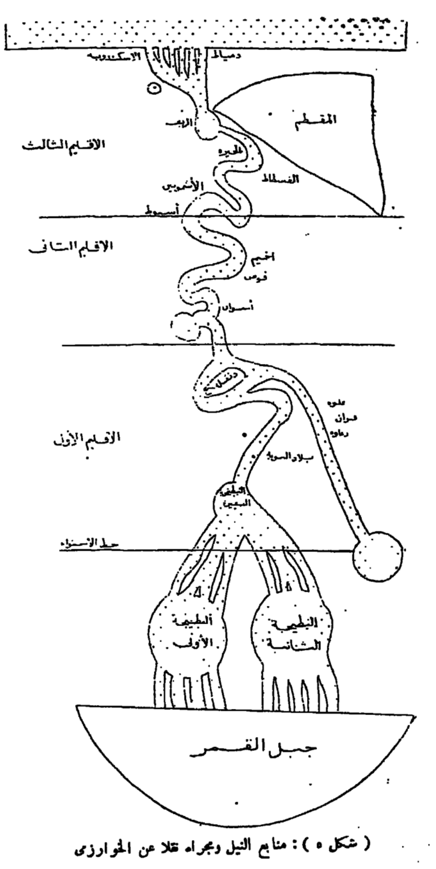
من هاتين البحيرتين تخرج أربعة أنهار تصب كلها فى بحيرة صغيرة مدورة فى الاقليم الأول قطرها درجتان ؛ ولكل من هذه الأنهار مصب منفصل فيما عدا النهرين الأوسطين من كل مجموعة فانهما يتحدان ويصبان فى مصب مشترك . ثم من هذه البحيرة الصغيرة يخرج نهر عظيم هو نيل مصر . ثم يضيف الخوارزمى أن للنيل منبعاً آخر عند خط الاستواء حيث يخرج نهر من بحيرة مدورة قطرها ثلاث درجات تصب فى النيل بعد عاصمة النوبة مماسا للاقليم الأول[1] . وقد ترك الخوارزمى خريطة لمنابع النيل ومجراه نقلا عن بطليموس انظر شكل (٥) .

وإذا نحن قرأنا نص ابن سيرابيون ابتداء من قوله : « وذلك أن أول نيل مصر من جبل القمر . . . » ندرك أنه منقول عن الخوارزمى .

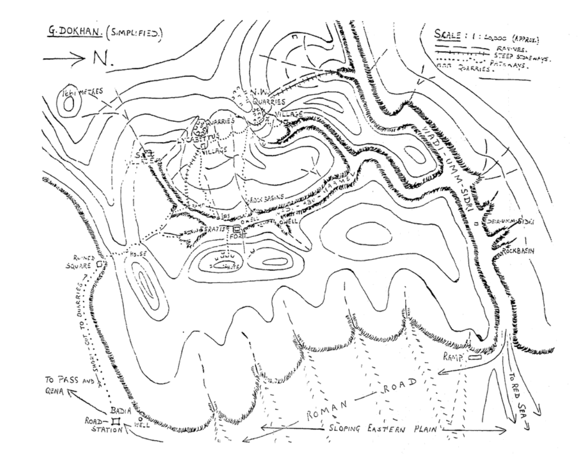
وقد اعترف ابن سيرابيون فى مقدمته انه انما ينقل عن كتب المتقدمين . وقد جاء أثر النقل واضحا فيما يتناه من وصفه لمنابع النيل . على أنه لم يكن مجيداً فى ترتيب ما ينقله ، فهو بعد أن ينتهى من وصفه لمنابع النهر جنوب خط الاستواء ينتقل لوصف مجرى النهر ثم مصابه فى البحر الابيض المتوسط ، ثم لا يلبث — بعد أن ينتهى من الكلام على المصبات — أن يعود الى منابع النهر فيصف رافداً من الروافد أغفل الحديث عنه فى موضعه . فهو يختم حديثه عن مصبات النهر بقوله : « . . . فهذه الخلجان كلها تدور فى بلاد مصر ويتفرع من كل واحد منها أنهار كبيرة تسقى تلك الضياع وتقلب في بحر الروم فوق الاسكندرية وأسفل منها » ثم يعود الى الكلام على المنابع فيقول : « ويصب الى النيل نهر من عين مدورة مركزها على خط الاستواء . . . » الى آخر النص وآخر كلامه عن نهر النيل فى الوقت نفسه .

وإذا أردنا أن نطبق وصف ابن سيرابيون لمنابع النيل على الوضع الحالى لهذه المنابع يمكن القول أن البطيحة الأولى تقابل مجموعة البحيرات المؤلفة

(1) Omar Toussoun, Memoire sur l'Histoire du nil. t. I. pp. 34. 35 38. 39 et t. 3 pl. 2.



(شكل ٥) : منابع النيل ومجراه نقلا عن الخوارزمى


G. DOKHAN. (SIMPLIFIED.)
N.
SCALE : 1 : 10,000 (APPROX.)
RAVINES.
STEEP STONEWAYS.
PATHWAYS.
QUARRIES.
1661 METRES
N.W. QUARRIES
VILLAGE
QUARRIES
LYCABETTUS
VILLAGE
ROCK BASINS
SERAPIS
FORT
WELL
WELL
HUTS
HOUSE
RUINED SQUARE
WADI-UMM-SIDRI
DEIR-UMM-SIDRI
ROCKBASIN
RAMP
TO RED SEA
SHORT CUT TO QUARRIES
TO PASS AND QENA
BADIA
ROAD-STATION
WELL
ROMAN ROAD
SLOPING EASTERN PLAIN

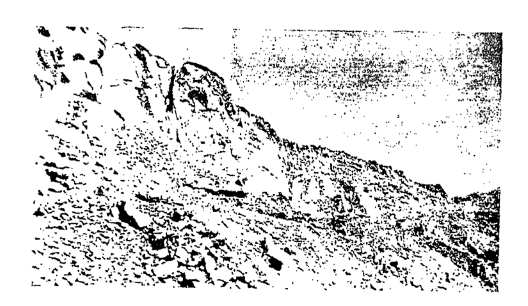


Plate I
Broken Pillar and Quarry

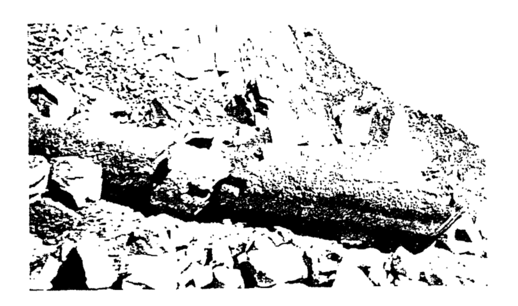


Plate II
The Broken Pillar

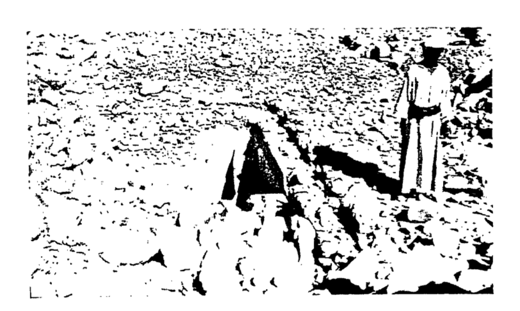


PLATE III
The Cistern

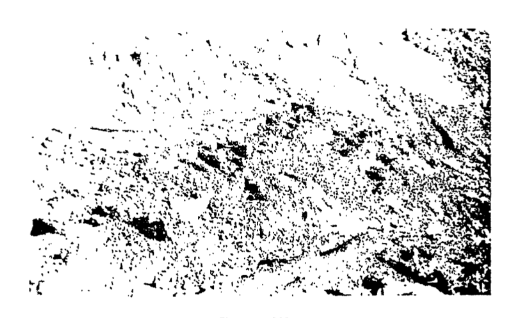
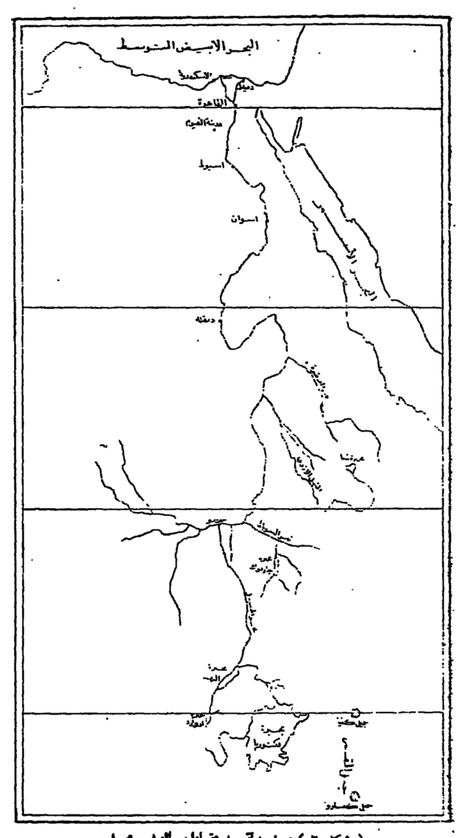


PLATE IV
The N. W. Village (Northern part)



(شكل ٦) : خريطة حديثة لمنابع النيل ومجراه

من ادوار وجورج وألبرت وأن البطيحة الثانية تقابل بحيرة فكتوريا وأن البطيحة الصغيرة تقابل بحيرة نو وما يحيط بها من مستنقعات اقليم السدود وأما الرافد الثالث الذى ختم به حديثه فهو السوباط[1] وبذلك تكون العين المدورة الواقع مركزها على خط الاستواء فى وصف ابن سيرابيون هى بحيرة جارتوك انظر الخريطة رقم (٦) .

ثم يتابع ابن سيرابيون وصفه لمجرى النيل الرئيسى بما لا يخرج عن وصف الخوارزمى إلا أنه يضع النوبة فى موضعها الصحيح حول دنقلة وليس بين النيل الرئيسى ورافده كما فعل الخوارزمى . كما أن ابن سيرابيون يضع السودان فى موضعه الصحيح بالنسبة لنهر النيل فيجعل مبدأه بعد خروج النهر من البطيحة الصغيرة مباشرة التى قلنا إنها تقابل فى الخرائط الحديثة بحيرة نو ؛ وما حولها من مستنقعات بحر الجبل . كما يختلف ابن سيرابيون عن الخوارزمى فى تحديد مواقع زغاوة وعلوة وقران إذ يضعها على النهر الرئيسى بينما يضعها الخوارزمى على رافده .

ثم يصل ابن سيرابيون فى تتبعه لمجرى النيل إلى مدينة ملوى ويهمل ذكر أسيوط التى أثبتها الخوارزمى فى خريطته . ويقول ابن سيرابيون أن النهر بعد ملوى يمس جبل فتوقا ولعله يقصد القول بأن النهر يسير بحذاء حافة الصحراء الشرقية بحيث لا يترك إلا سهلا فيضياً ضيقاً وهى ظاهرة تتكرر على شاطىء النيل الشرقى بين أسوان والقاهرة ، ثم يقول ابن سيرابيون أن النهر يمر بمدينة مصر مماساً لها ثم يتفرق منه هناك خلجان سبعة كلها تصب إلى البحر الرومى . وبذلك يكون قد انتهى من وصف مجرى النهر فى واديه وبدأ يتتبع مجراه فى دلتاه .

وهنا نلاحظ أن النص بدأ يضطرب إضطراباً شديداً سببه ما سبق أن ذكرناه من أن هذا الكاتب لم يجد النقل عمن سبقه من كتاب ،

---

(١) الواقع أن وصف ابن سيرابيون لمنبع الرافد الثالث ينطبق على السوباط وأما وصفه لنقطة التقائه بالنيل الرئيسى فينطبق على النيل الأزرق وبالطبع كانت المعلومات غامضة عن منابع النيل مما يؤدى إلى مثل هذا الخلط بين الروافد المختلفة .

ومن أنه يضع بعض الجمل فى غير مواضعها ، فهو يقول إن النهر يمر بمدينة مصر مماساً لها ثم يتفرق منه خلجان سبعة ، كلها تصب فى البحر الرومى ، الخليج الأول منها فوق أهرام يوسف عليه السلام بشىء يسير : إلى آخر النص فى ص (١٨٩) . فالتناقض هنا واضح إذ كيف يمكن التوفيق بين قوله إن الخلجان السبعة تخرج من النهر عند مصر (القاهرة الحالية) وبين قوله إن أول هذه الخلجان يخرج بالقرب من أهرام يوسف (تجاه الفيوم) وتفسير هذا الاضطراب أن ابن سيرابيون خلط بين المعلومات المتوارثة عمن سبقه من الكتاب بعضها ببعض . فمنذ عهد سترابون (القرن الأول الميلادى) وبطليموس الجغرافى (القرن الثانى الميلادى). ونحن نعلم أن النيل يتفرع عند رأس الدلتا (بالقرب من القاهرة الحالية) ، إلى سبعة فروع أقصاها من الشرق فرع بلوز أو الفرما، وأقصاها من الغرب فرع كانوب أو الاسكندرية . ونعلم في الوقت نفسه أنه كان هناك فرع يخرج من النيل تجاه الفيوم . ثم جاء الخوارزمى (أواخر القرن الثانى الهجرى وأواخر القرن السابع الميلادى) فنقل هذه المعلومات التقليدية عن كتاب اليونان فقال إن النهر شمال القاهرة يتفرع إلى سبعة فروع تصب كلها فى البحر أقصاها من الشرق فرع دمياط : وأقصاها من الغرب فرع الاسكندرية : وهو توزيع مقبول من الناحية الجغرافية : وإن كان يشك فى أنه كان يصور الحالة الفعلية فى عهد العرب : والأرجح أن عدد الفروع فى عهد العرب كان أربعاً فقط . ثم جاء ابن سرابيون (فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى والنصف الثانى من القرن الثامن الميلادى) فخلط بين فروع النيل السبعة التى كانت تخرج عند قمة الدلتا ، وبين الفروع التى كانت تخرج جنوب هذه القمة ، فقال إن النيل يتفرع عند القاهرة إلى فروع سبعة أولها يخرج من النيل عند أهرام يوسف (بالقرب من الفيوم) وهو تعبير واضح الخطأ ظاهر الاضطراب .

ولعل السبب المباشر فى وقوع ابن سيرابيون فى هذا الخطأ أنه قرأ لابن عبد الحكم [1] الذى كتب قبله بسنوات قليلة قوله أن النيل سبعة فروع هى ١ المنها ٢ الفيوم ٣ منفيس ٤ سردوس ٥ دمياط ٦ سخا ٧ الاسكندرية، فجاء ابن سيرابيون وقال الجملة التقليدية الموروثة عن سترابون وبطليموس وهى أن النيل يتفرع عند قمة الدلتا (بالقرب من القاهرة) إلى سبعة فروع ثم أخذ يصف فروع ابن عبد الحكم دون أن يلتفت الى أن الفرعين الأول والثانى من فروع ابن عبد الحكم وهما المنها والفيوم يوجدان بمصر العليا، وأن الفرع الثالث وهو منفيس نصفه بمصر العليا ونصفه الآخر بمصر السفلى، وأن الأربعة الأخيرة فقط — سردوس ودمياط وسخا والاسكندرية — هى التى تخرج من النهر عند قمة الدلتا (شمال القاهرة بقليل).

ومن هنا لا نستطيع أن نأخذ أقوال ابن سيرابيون عن فروع النيل مأخذ الجد، ولا أن نرتب نتائج عليها.

---

[1] أنظر ابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ، ٨٧١ م) فتوح مصر وأخبارها ص ٦ و ٧ طبعة Torrey ليدن سنة ١٩٢٠ م حيث يقول: « وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعا مابين اسوان ورشيد وسبع خلج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنها وخليج سردوس ».

تم طبع هـذه المجلة فى عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأول" بمطبعة جامعة فؤاد الأول
فى ٣٠ من رجب سنة ١٣٦٩ (١٧ من مايو سنة ١٩٥٠) م
محمد زكى خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول

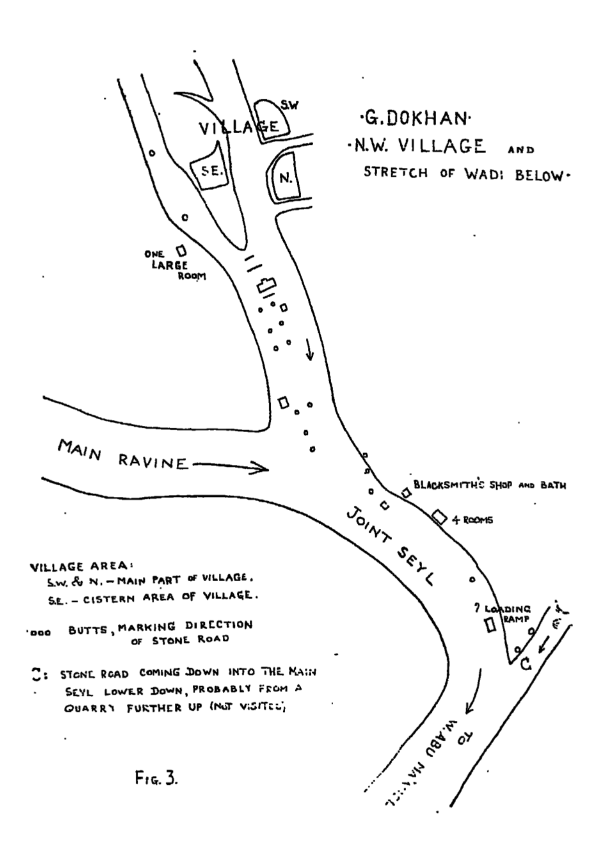
(مطبعة جامعة فؤاد الأول ١١٠٤ — ١٩٤٩ — ٥٥٠)

past the N.W. Village to reach the W. Abu Ma'amel well below the town. As no stone road seems to have connected the two quarry areas, one must assume that all Lycabettus blocks reached the main town and that those quarried in the N.W. Quarries bypassed the town and were hauled straight downstream via W. Umm Sidri to the main Qena-Red Sea highway.

It seems likely that the groups of men employed for lowering huge blocks down the steep causeways were so large as to close the stone roads to all other forms of traffic. There was always the risk of serious accident, as the presence of broken columns (left where they slipped and split) sufficiently proves. Dislodged boulders must always have been a constant danger in their headlong fall down the stone roads or their neighbouring slopes. It would be a simple precaution that all men, apart from those actually engaged in lowering blocks, should use the footpaths constructed well away from the causeways. If the footpaths could also be constructed along short cuts straight towards the main town and temple, so much the better, as this would save both time and, perhaps, life.

The two footpaths descending to the main town, one from Lycabettus and the other from a little further north, may well be such alternative routes. If we are to believe the lurid account of one ancient writer, workmen and prisoners were marched from the quarries to and from the main town every night and morning —perhaps in chains. Each heavy column or sarcophagus block must have taken several days so descend either of the two causeways to the dressing stations below.

Many other considerations arise here. An examination of the principal Roman remains in red porphyry, most of them in Italy, shows that for the largest objects the Romans preferred two or three kinds of porphyry. A census of the kinds of porphyry used in large and small objects might throw a light on the relative importance of the many quarry faces at the Lycabettus and the N.W. quarries, each quarry offering a kind of porphyry in some way different from the others.



·G. DOKHAN·
·N.W. VILLAGE AND
STRETCH OF WADI BELOW·
VILLAGE
S.W
SE.
N.
ONE LARGE ROOM
MAIN RAVINE
JOINT SEYL
BLACKSMITH'S SHOP AND BATH
4 ROOMS
? LOADING RAMP
C
TO
W. ABU
VILLAGE AREA:
S.W. & N. – MAIN PART OF VILLAGE.
S.E. – CISTERN AREA OF VILLAGE.
·ooo BUTTS, MARKING DIRECTION OF STONE ROAD
C: STONE ROAD COMING DOWN INTO THE MAIN SEYL LOWER DOWN, PROBABLY FROM A QUARRY FURTHER UP (NOT VISITED)

FIG. 3.

Immediately behind the N. part of the village, about 15 yards up the hillside, is a tiny circular room, with a part of its "bee-hive" roof still intact near the doorway. The diameter is 4–5 ft. and the recess opposite the door is 1½–2 ft. wide and rather less than 3 ft. deep. When Wilkinson saw this little building, he was naturally intrigued by its circular form and its vaulted roof. He then wrote, rather shyly, "Being too small for a sleeping room (not 3 paces in diameter), I should think it the *Abtritt* of the Commandant", meaning what, in the language of his period, would be the "privy". Similar rooms are found in other desert areas. In the Roman remains of this desert, a vaulted roof is rare and a circular building still rarer. If Wilkinson was wrong, could these little structures be shrines? Hardly, as they occur at places close to temples (e.g. in the town of Mons Claudianus). In the only other shrine we remember to have seen at a small quarry settlement, in W. Fatira el beida, the shrine was a square recess in the wall, with stone uprights and a lintel to keep it in shape. These little structures must, for the moment, remain a mystery.

Below the N.W. Village there are more butts and some rooms (Fig. 3), including one that would appear to be a blacksmith's shop (with indications of the use of fire, probably to sharpen or repair stone-cutters' tools or possibly to temper metal to make new ones). Another building might just possibly be a loading ramp. If such it is, this seems to be an odd place for it. It stands a little way above the junction with another ravine that comes down from the left i.e. from the S.W. As this ravine also has butts in it, a loading ramp would naturally be placed below the junction, where it could serve both stone roads.

The Movement of Blocks.

If we disregard the road down the W. Umm Sidri tributary ravine as an unknown quantity at present, there remain two causeways, one leading from Lycabettus to the main town in W. Abu Ma'amel and the other going N.N.E. from the N.W. quarries

the rising sun. Quite near below but hidden from here (these steep intervening ridges give a huge room-like character and atmosphere to the level wadi-floors they hide), W. Abu Ma'amel winds deeper northwards into the eastward-flowing W. Umm Sidri, taking with it the Roman road which, where Umm Sidri emerges from the mountain chain, pauses at its first view of the sea there, by the broad platform of a large reloading ramp still perfectly preserved, and turning a right-angle to the south skirts the topmost edge of the wide, gently-sloping maritime plain for about ten miles. Here its ancient waggon tracks can still be traced across one seyl course after another until they come to Badia, the first road station with its well and animal lines. From there the way is open to the main pass through the mountain range, an ancient break between the red-granite mountains of Qattar and the steep embankment ends of the Dokhan sediments and lavas. Over this pass the loaded waggons crossed, joining the Red Sea—Nile Valley Roman road, into the western- sloping wadis of the other side, and came down to the Nile at Qena, passing five more road stations on the way.

To desert lovers today it all sounds like a pleasant dream. Let us, however, remember the cold nights of winter, the scorching summer sun and, above all, let us remember that to this spot came, not tourists on a brief mountain excursion, but men (and, if we are to believe some writers on the Roman penal system, their wives and children), the *damnati ad metalla*, condemned to slavery and eventual death in this remote spot. In one of the very rare passages that show his feelings, Wilkinson bewails their lot in the Mons Porphyrites. "Nothing can induce me to think that any men but those who were condemned to this labour ever endured the heat and oppressive toil of cutting blocks from a porphyry quarry in a climate like this, unsheltered as they must have been from the insupportable rays of a summer sun". Wilkinson was writing this with some feeling, for it was late in May, 1823 (MS XXXVI).

adjoining rooms which, to copy Wilkinson, we may think of as the private residence of the Quarry Overseer.

The N. part, between the two gullies, is more like a small town and stands on three terraces. Each terrace level is midway up the walls of the houses below it and the backs of each row of houses have high walls, which together act as a retaining wall for the terrace above. The middle terrace (see Fig. 2) is now so heavily strewn with stones that its breadth is difficult to estimate without removing the heaps of stones to see whether beneath them there are bases of walls. It seems likely that the actual terrace walk was narrow, about 4 ft. wide, and that the stone-strewn area behind, backed by a high retaining wall, had rooms in it (Plate 4).

The entry to this terrace seems to have been from its S. side, but we cannot be sure of this because this corner, as the result of the hundreds of torrents since the Romans left this village, has been swept away and the part near it reduced to tumbled confusion.

Above the middle terrace area and behind its retaining wall is the uppermost row of houses, backed by a stout wall. Behind them is the most attractive level walk of the village, about 6 ft. broad, running the whole length of the district from N. to S. Rising steeply behind and southwards is the main mountain mass in which the high-placed quarries are, one or two perched there in sight, dwarfed to the naked eye, the rest still higher, further back and hidden. In them now the ibex often passes the middle hours of the day; their lairs are found in the shaded parts of the deserted floors, with a wide commanding view of all the desert on the eastern side of the range, the blue sea fully displayed, with the misty mountain-wall of Sinai rising up along its northern half beyond. Here below in the village the houses and the terrace walks face across the gorge to the east where other ridges, seeming immensely near and high, shut out the Red Sea and

stone huts outside the walled enclosures. These, however, would be virtually unguarded and, one would suppose, unlikely to be prisoners' sleeping quarters. They are more likely to have been those of the "free labour" which, as certain classical evidence allows us to suppose, existed in Roman mines and quarries. On the other hand, if we are to believe Aelius Aristeides (Aigyptios XLVIII, 349), in "this renowned convict quarry of porphyry the prisoners are not guarded by any military force, so destitute is the place of water". We know from inscriptions and papyrus evidence that the military did tours of guard duty in the desert *metalla*, but there may be some truth in the rest of the words of Aristeides, who actually travelled in Egypt in the second century, when the operations at Mons Porphyrites and many other places were at their most active.

The centre road running through the village (the main ravine) was probably kept quiet and free from the turmoil of the outside stone road. The attractive, residential character of the S. W. and N. parts strengthen this impression. They were both constructed on terraces. In the S.W. part, the ascent from one terrace to the next was by interior steps. As the whole area was compactly enclosed within stout wall and a level, circular walk, it may be, as Wilkinson suggested, that this was a single house or villa, the Commandant's. Wilkinson, however, had a weakness for large Commandants' houses and was for ever looking and (to his own satisfaction) finding them wherever he found a well preserved station.

It is probable that this section of the village housed a number of the senior officials during their tour of duty on the mountain. Where the walls are still standing to a good height, there are doorways with lintels intact and even window apertures, the latter a piece of luxury of which visible traces are now rare in the Roman remains of the Eastern Desert. The windows are indicated in our plan by small semicircles againt the walls of three

the bed of a torrent whose course was confined within the walls which protected the houses from its force and served as their foundations. On one side is a cistern to which the water was admitted from the torrent by a small channel running obliquely leading from it".

Wilkinson seems to be in some difficulty here. It is undoubtedly true that the villagers would have a channel ready to steer torrent water, when it came (once every few years), into the cistern. And such a channel would need to be oblique, as Wilkinson suggests. The only line of stones that might correspond to Wilkinson's oblique channel is at B in our plan (Fig. 2), and here, indeed, would be a very likely place for it, curving round the hillside to reach the cistern. Unfortunately, this part shows no indication of having been a water conduit.

We shall have to content ourselves for the present with the fact that water was apparently poured in from the E. side by the conduit marked A in the plan. If no well-remains are found in the wadi-bed below the village, we must assume that water was carried regularly from the wells by the main town, i.e. down W. Abu Ma'amel and up the side wadi to the village, a rather long but easy way and animals were no doubt used for the purpose.

The S.E. part of the village by its appearance and convenient position next to the stone road, was possibly the working equivalent of a small road station for the supply and accommodation of passing work gangs. It is hard to see how the prisoners who, to judge by the extensive quarry workings, must have numbered hundreds at any time, could have been accommodated in this small area. The residential and relatively luxurious appearance of both the other parts of the village makes it unlikely that prisoners lived in them.

This is no new problem in connexion with quarrying and mining settlements. It is usually difficult to see where or how large numbers of prisoners could have been housed. Occasionally, as at a small station near Mons Claudianus, there are scattered

cistern and the outside wall (A in Fig. 2). The tumbled condition of this spot makes it difficult to say definitely whether the water was poured into the conduit from the E. side. This seems likely from the fact that the stone road is well above the top level of the cistern.

Were camels or other beasts of burden employed here to carry food and water to the quarries above? Probably not, on any considerable scale. It is more likely that the water was taken up straight from its source, the two wells in W. Abu Ma'amel, along the two footpaths that lead, one to the Lycabettus Village and quarries, and the other to the N.W. quarries. These footpaths zigzag deliberately in a most regular way to lessen the gradient on the steep hillsides, and they would be much easier going for man or animal than the stone roads. There are watch-houses about half way up each path, built no doubt to check the traffic on them. In one place, just above the Rock Basins in the gorge, there is a steep flight of steps and a narrow causeway with a sharp turn that no animal, not even a donkey, could have passed. It seems possible that much of the water-carrying was done by prisoners or slaves with heavy skins on their backs. The discovery of any well-remains in the floor of the side-wadi just below the N.W. Village would of course invalidate the above theory as far as the N.W. quarries are concerned.

One phrase in Wilkinson's brief description of this spot is as follows: "Higher up the valley was the village itself, built on either side of the torrent, which was walled in and had an artificial channel amidst the houses. On one side was a tank to which the water of the torrent was admitted by a smaller channel obliquely leading from the other". This is in Wilkinson's first write-up of his 1823 field notes, this work being apparently done in the evening of the same day as he noted the facts he mentions. Later, in a version evidently prepared for a book which he never wrote, he modified this to: "The village is built on the side of

a time raging torrents. This fact is proved by the specially ruinous state of the buildings, especially in the N. part, that border the main ravine.

Water supply, the main problem in all the Roman stations of this desert area, was an acute one in the N.W. Village. Here, on account of the situation, no regular source of water could be expected. There may have been a well, now obliterated, in the wadi just below, but the only known supply, apart from occasional rock basins just above the Isis temple mentioned above, were the two wells by the main town, in W. Abu Ma'amel. As these wells also supplied the town, strict rationing must have been necessary at all times, particularly in summer months.

A regular supply of water for the N.W. Village was probably carried up from the W. Abu Ma'amel wells via the wadi below, by animals. This water, constantly replenished, had to be stored in a large lime-plastered stone tank, protected from excessive evaporation. The cistern in the S.E. part (Fig. 2) is of the normal type found in many stations, with a sunken ledge all round, presumably for a removable wooden cover. Plate 3 shows that the tank is now half filled in by stone debris from the low hill on its S. side. Those of its interior walls which are now visible still have much of their original plaster. As the cistern appears to be 7-8 ft. deep, it is likely that, as in similar tanks elsewhere, it has an interior stairway, probably at its S.E. corner. Of this fact, as of many others in the village, one cannot be certain until some of the great mounds of fallen debris have been cleared.

As the stone road from the quarries passed outside the village on its E. side, one would expect to find the tank just where it is, close to an outside wall, in this case the thick one next to the stone road. Such cisterns normally have lime-plastered conduits leading to or from them. A search reveals distinct traces of lime plaster on the remains of the wall between the

· MONS PORPHYRITES · N.W. VILLAGE ·

'BEE-HIVE' HUT ON HILLSIDE

abt 15 yds

N.

HILLSIDE

HILLSIDE

NARROW LEVEL WALK

GULLY

LEVEL WALK AT BASE OF HILLSIDE

HIGH RETAINING WALL

STONE - STREWN TERRACE AREA

HIGH RETAINING WALL

GULLY

MAIN RAVINE

B

DEBRIS

CISTERN

A

LOW HILL

HILLSIDE

GULLY AND STONE ROAD FROM QUARRIES ABOVE

FIG. 2.

(1) RAISED FLOOR (EARTH). (2)-(3) FALLEN WALLS.

The N.W. Village.

From the N.W. Quarries down the cairned causeway to the N.W. Village is a distance of about 650 yards. This descent has a slope of 1 in 2·3. From the village downwards to the side-wadi is a much easier slope, an average of 1 in 9·5, and a distance of only a few 100 yards.

The plan of the village (Fig. 2) shows its exceptional character. Here is no square, walled enclosure, with bastions or buttresses and a single narrow gateway defended by twin towers. From this normal type of desert fort the Romans deviated only when the lie of the land made this necessary. Perched on the mountain side of a wadi, the village needed none of the normal defence measures. It was therefore laid out with one eye to comfort and convenience and another on the deeply-furrowed and heavily canted ground on which it had to stand.

The result is a mountain village totally unlike any found in the Eastern Desert and reminiscent of those sometimes seen high in the Tyrol and the Central Pyrenees.

The deciding factors were two north-flowing ravines separated by a strip of higher ground and two gullies that flowed steeply from the western hillside into the main (western) ravine. The inevitable result was the division of the village into three parts—the S.E. part on the hilly bank between the two ravines, the S.W. part above the S. gully and the N. part between the two gullies.

The E. ravine (perhaps better described as a gully) became the cairned stone road from the quarries above, so that the stone traffic passed on the outside of the village and not through it. The main ravine ran through the village, between the S.E. and S.W. parts. One imagines that on the rare occasions (roughly once every seven years) when a heavy downpour of rain fell on G. Dokhan, both ravines and both gullies became for

These two ravines are important in considering the ways by which the porphyry blocks were lowered. From the ridge between the two ravines it is possible to see that both have been used as stone roads, for butts occur in both. These two gorges are steep and it is clear from them and from the main cairned causeway south of Lycabettus that a very steep angle did not dismay the Roman quarry officials, provided the ground presented a solid, smooth surface untroubled by a sharp, angular drop in the shape of a dry waterfall. In a previous article (Bulletin, May 1949), we saw that heavy-waggon drivers, rather than face the difficulty of soft, sandy wadi beds, sometimes climbed over low ridges in order to remain on a solid gravel surface.

The N.E. ravine to the N.W. Village and W. Abu Ma'amel, to judge by its more frequent butts (Fig. 1), was more important that the tributary ravine running into W. Umm Sidri, which has few visible butts. However, as it was not possible on this occasion to examine the latter ravine at close quarters, it is better to keep an open mind on its precise function in the operations, at the N.W. Quarries or at other unidentified quarries which it may have served. It may be that the still higher quarries, partly visible near the summit of the main G. Dokhan ridge, supplied the stone that could be more conveniently hauled down the W. Umm Sidri tributary ravine.

Before reaching a col on the sloping watershed between the two steep gorges just discussed, the stone road from the N.W. quarries skirts, this time on the W. side, another rounded but lower hill, which has also been quarried on all sides (C in Fig. 1). From the quarries of this hill a steep, zig-zagging footpath runs down roughly N.E., keeping in or near a smaller ravine or gully immediately to the E. of that which has the stone road to the N.W. Village. This path later joins the stone road just above the N.W. Village.

(bigger) end. Nearly all the column is of imperial porphyry except the lower end, which has some black porphyry in it. This is interesting. Among the hundreds of specimens of Roman sculpture and architecture in stone quarried at Mons Porphyrites, we have so far come across little or no evidence that the Romans used the black porphyry. There is, in fact, one evidence in the quarries that they disliked black porphyry, probably on account of its tendency to weather to a greenish tint.

The heaps of rock chippings that surround the shaped blocks in this quarry and others are sufficient evidence that the workmen reduced their blocks to roughly the desired shape and size at the quarries before attempting to lower them down the steep causeways. We can assume that the main object of this was to reduce weight to a minimum. It follows that the slightest accidental chipping of a block in this condition would probably ruin it. It would seem that the lavish provision of stone butts along the causeway was not solely to make the lowering of huge weights possible, but also to ensure a high degree of security against any accident that might mar a precious block.

The precise method used to cut and shape a hard porphyry column is still a matter of speculation. The broken column still shows striations that run in close parallel lines round the shaft.

The rounded spur, roughly 300 ft. higher than the roadside quarries, has been so heavily worked on all sides that it looks like one continuous quarry, served by several short built-up causeways.

Immediately to the north of the "broken pillar" quarry, we are on a small level platform from which we can look down on two great ravines descending roughly north-wards. One falls away to N.E., first descending to the N.W. Village and eventually reaching W. Abu Ma'amel as a broad wadi at a point about 2¼ miles downstream from the main fort. The other ravine descends slightly west of north to run into the upper reaches of W. Umm Sidri at a point about 1¾ miles above its junction with W. Abu Ma'amel.

: G. DOKHAN · N.W. QUARRIES AND VILLAGE ·

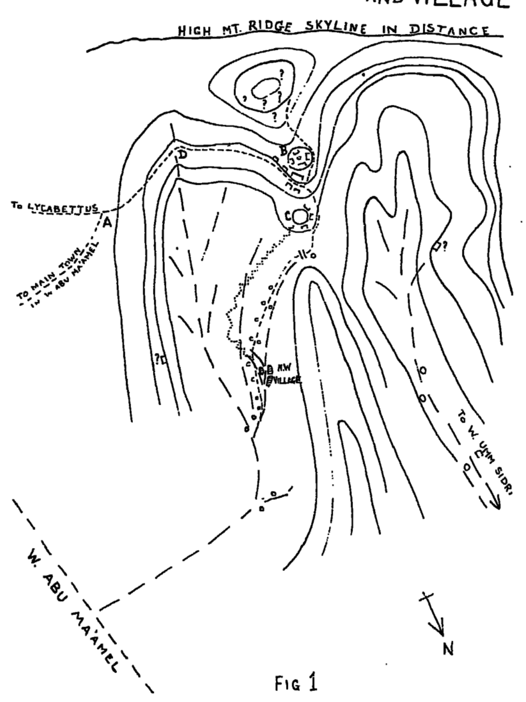


FIG 1

by the workmen under Roman direction take on the character of a miracle tinged with mystery.

The heavy blocks were apparently lowered by the use of ropes wound round solidly-built stone cairns or butts, which still stand at intervals of about a dozen paces along each side of the south causeway and along part of the north causeway.

From Lycabettus northward for about 1½ miles to the N. W. quarries is a fairly level path that dips slightly about midway. In this middle stretch the path crosses the branched head of a ravine that descends to a point opposite the main town in W. Abu Ma'amel. Scaling the northern ridge of this ravine another path comes zigzagging up from the town far below to join the first path on its way to the N. W. quarries (A in Fig. 1). We should have mentioned a third footpath which descends another ridge from the Lycabettus quarry village to W. Abu Ma'amal. At its foot is the ruined temple of Isis of the Myriad Names. (See Map). From the point where the level path between the two quarrying areas begins its last straight stretch (D in Fig. 1), it becomes a built-up causeway as far as the N.W. quarries, no doubt because of the steepness of the slope along which it goes. Along this causeway the rock is largely or wholly black porphyry at first, but at the first quarries the red again appears and is the chief rock again throughout the main quarry area, although patches of black porphyry are mixed with it.

The N.W. Quarries cluster mainly round a northward-facing spur (B in Fig. 1). At the base of the spur there are several quarries which abut on the road on both sides. One of them is much larger than the rest [Plate 1], but it is likley that this represents two or three small quarries whose workings have run together. This spot is shown on the Survey map as "Broken Pillar and Quarry". The broken column (noted by Wilkinson), split in three pieces, still lies just above the roadway [Plate 2]. It is about 21 ft. long and 3 ft. 6 ins. in diameter at its lower

in print. Chiefly, in general descriptions by Wilkinson (1832) and Schweinfurth (1877–8), in detailed geological studies by Couyat-Barthoux (1922) and Mr. G. Andrew (1938), in a brief description by Mr. G. W. Murray in Blackwood's Magazine (Oct. 1946) and in scattered geological references by Barron and Hume (1902) and Mr. Hume in his "Geology of Egypt" (1925–38). The longest descriptions are in the unpublished MS field notes of Wilkinson (1823–26) and James Burton 1822–23).

To the other main quarrying settlement, the "North-West Village" and its quarries, there have been hardly any references beyond a few lines by Wilkinson and a few lines in Mr. Murray's 1946 article. Prof. C. H. O. Scaife, in an earlier issue of the Bulletin (Dec. 1935), gave a note on an inscription to Pan which he had found among the boulders in the bed of the torrent that runs through the N. W. Village. Even Wilkinson's normally voluminous field notes are unusually reticent about this village and say little more than do his lines published in the Journal of the Royal Geographical Society (1832). The few details he gives, however, have always been a strong invitation to re-examine the N. W. Village site more fully.

The main approach to the high quarries of the western mountainridge is from the south, from the upper reaches of W. Abu Ma'amel. From the wadi floor, here 2270 ft., there is a great stone causeway that climbs with little or no zig-zagging to the Lycabettus mountain quarry (4060 ft.). As the horizontal distance from the lower to the upper end of this is causeway only slightly over ¾ mile, the vertical rise of nearly 1,800 ft. makes the ascent about 1 in 2¼, an angle that would be almost impracticable for any kind of heavy haulage. When we consider that down this slope came the monolith porphyry columns and sarcophagus blocks (probably already rough-shaped and partly hollowed) which one sees in the Sancta Sophia church and elsewhere in Istanbul, the feats of skill and endurance performed

MONS PORPHYRITES:
THE NORTH-WEST VILLAGE and QUARRIES

BY

DAVID MEREDITH and L. A. TREGENZA

The Imperial Porphyry Quarries worked by the Romans during the first three centuries A.D. are situated near the summit of the Gebel Dokhan in the Eastern Desert. They are ranged mainly along the north-south ridge of the western slopes of Wadi Abu Ma'amel, which has its southern end enclosed by a circle of hills and debouches on the north into the Wadi Umm Sidri, which itself flows eastwards in the direction of the Red Sea.

The main buildings of the Roman settlement—the walled town, the main temple, two smaller temples and two wells—are situated in the wadi bed or on low eminences on each side. High up on the precipitous slopes on both sides of the wadi are numerous quarries, the rock of which was the object of the long Roman sojourn in this remote and inhospitable spot.

The wadi floor by the town is about 2050 ft. above sea level. The quarries on the east and west slopes are at heights ranging from 2470 ft. to well over 4,000 ft. The inaccessibility of this arid district, the difficulty of satisfying the simplest needs of life, the great height of the quarries and the extremely precipitous character of the slopes leading to them make the exploitation of the Mons Porphyrites one of the most remarkable manifestations of Roman activity during the Empire.

Of the two main quarrying sites along the western ridge, one (named Lycabettus by Schweinfurth, just above the "Upper Village" in the map of this district published by the Department of Survey and Mines in 1938) has received several short notices

in which what will befall the hero is forecast. It has already been forecast in more lapidary terms in a prologue in heaven, which with a prologue on earth acts as a frame to the story. It returns to heaven briefly, but constantly, in dream, and emissaries of heaven in earthly form, as well as characters of the prologue on earth, manage to find themselves at hand on earth in the main crises or pauses. At last after several of the chief characters have returned, dust to the earth as it was, or (according to their deserts as originally foreseen) to heaven, the hero turns at last as a monk to do the work of heaven on earth. There enter for the last time on earth, for they have already set out on their pilgrimage to another realm, the characters of the induction.

In the case of Proust one can claim what of course one cannot pronounce on in the Chinese work, namely, a joint mastery of a language and a method. The value of it can be seen from the comparison with Joyce, the symbolist who failed, and in whom the 'metaphor' has shrunk to the dimensions of macaronic, exile-engendered embroidery on meaning by dictionary associations. Proust's developments of a theme, on the contrary, were no mere faith that motifs would add up somehow to phrases ; any passage of his work, Valéry has said, quite independently of the value it derives from its context, reveals the same organic, tissue-forming power as the whole of which it is a part.

(suit)

he flee the humour born of actual incongruity, but out of it developed sublimity again, as in the first encounter of Charlus with Jupien ([1]), which develops under the sign of the great botanical metaphor of pollenization. It only remains to dispose plausibly of the mind that is implied by these demonstrations that thought is 'vitally metaphorical'. It was from the 'condensation' (or telescoping), disguise and displacement of symbols in dream, from one who had gone to school to the German Romantics, that Proust felt he could justify the technique of 'flashback' on which he based his immense work. The transfer to the present love, and environment, of the hidden force of the one of former times astonished Gérard de Nerval ([2]) with the knowledge that he was in love, in the actress, with the bygone nun, and moreover that in his mind terrestrial events semed to be coinciding with those of a world outside nature. Of the peerless narrative work which is probably the most rewarding in this respect, *The dream of the red chamber* (c. 1760 ff.) by Ts'ao Hsüeh-chin and Kao Ngo, it is impossible to give more than the briefest idea. The title has a dual meaning, for the book treats of the *vanity* of *riches and honours*, but also of a particular dream in a particular upper room

---

([1]) *Sodome et Gomorrhe* I.1: cf. *Du côté de chez Swann* I.1 end.

([2]) *Sylvie* (1854) cc. 1, 2; *Aurélia* (1855) c. 9. Flashback is best known in film narrative: the narrator *heard* narrating may be quite otherwise *seen*, a scene heard as narrated, but seen acted, may be acted with the mannerisms of silent film, etc. If the original frame scene is a slight one, it may merely give an air to the flash backs. One classic, at least, was Carné and Prévert's *Le jour se lève* (1939; extant in 'film-library' book form as *Alba tragica*, Milan 1945): the frame scene you returned to here was studiously the same (the agony of a long night), yet different, for it was itself progressing, whilst the climax that initiated it was eventually reached in the course of the flashbacks (since, of the two times, the one went faster than the other, though it had an end): it was then introduced from a different point of view (from the other side of the door) as the penultimate and greatest climax, since its world was the world of fate, of the past. But it was not followed by the material there had previously been; things ended more resignedly in the other world.

even if his own consultation does not create it, for the characters not merely live, but all the time acquaint some one with something. It is, in fact, the symphony of the medium, with content more completely in unison with form than in any other kind. The highest beauty of all is the extreme fragility of the 'present' horizons, as of the open fiction of the existence, and survival, of all this correspondence. It does not use any equivalent of Latin epistolary tenses (the *je vous aimais bien* of the soldier *moriturus*); the reader supplies that, for the writers' feelings are seen to press hard on their ineluctable fate, and it was not necessary in the *Nouvelle Héloïse* to enclose the final letter of Julie in another in which the recipient will read that she is already dead: even without death to intervene, the silence before the other voice, or a different one, takes up the tale, is eloquent. Further refinement is possible in the similar form of the imaginary diary when in addition *we* are made to enter the story before the last word has been said. *Wuthering Heights* does not get so much out of this particular *in medias res* as Gide's superlative, but tiny, *Symphonie pastorale* in which (e.g.) the pastor's spiritual, and his protégée's actual blindness are jointly equated with the way the entries in a diary can only, as it were, face the facts, and advance into the future, backwards.

A last case may suitably be taken from that period when the sensitive genius, like Virginia Woolf or Proust, found so much to complain of in the fallacy of the progress in middlebrow realism. Proust discovered the method to put to artistic use in his medium the *correspondances* of Baudelaire and the Symbolists, without leaving them lyrical merely, as they are in *Jacob's room*. His method was to take two such objects as furnish the realist's universe, and justify a *metaphor* between them which, "withdrawing them from the contingencies of time", will indicate "a connection, in the world of art, analogous to the unique connection of cause and law in the world of science". The sublimity of the sort of metaphor that can develop a whole epoch of the hero's life out of a cup of tea did not escape the author himself, nor did

finding its way, or just an element in the narrator's reconstruction, but with an ambivalence and poly-directionality that is no mere local overlap of one thing or another, but a complete corrective of the (to the Lessings, exasperating) linearity of an art of time: anticipation the necessary complement to narrative memories. It would be safer to analyze this sort of thing at least in the mother tongue, in a book like *Wuthering Heights*, which has been demonstrated to be unique in the novel literature of the world for the accuracy of its concealed chronology, and which (whatever the truth of that contention) is certainly unique for the artistic distribution of this, and of the various stories, in the narrative. Anything more than detail, however, needs lengthy expounding, and more justice needs to done to Dostoyevsky for what once delighted but mystified Gide, namely, the roundedness of his plots. He has popularly become as notorious for what Virginia Woolf would call the dark places of psychology, as Shakespeare is for the nauseating commonplaces of it branded by Shaw: fearsome to relate, we forget his and Dostoyevsky's artistry in their particular crafts.

The art of winning temporal position in the overall plan of a narrative must nevertheless be briefly demonstrated, and the epistolary novel, which produced one masterpiece of form (the *Liaisons dangereuses* (1782) of Choderlos de Laclos) will furnish the evidence. The more the authors protested that it was the letters themselves (as who should say, the facts) that were being offered the reader, and not a work constructed out of them, the more acute was the play of implication, and the polarization of the story through the points of view by which we are let into it. The reader, at least in the end had the whole correspondence as the writers could not have it. He nevertheless has to strain (in a manner unique in fiction) to establish the facts that (after all) they are without too much difficulty living. He is more detached from the letter-writers than he could have been from the presence of the story-teller; yet the medium is there confronting him,

everything is over) a man who would, etc.". Any merely domineering intrusion of discursive reflection would be at once felt to be at the expense of the story([1]), but it is not by chance that Dostoyevsky's narrator is so self-effacing and ubiquitous that besides providing an almost perfectly fluid medium for the narration of events, he is responsible for much of the ironic humour. A *sample* of the greatest effects of narrative art is almost a contradiction in terms, but they may be discerned, nevertheless, in a measure, in a big scene like the murder of Shatov. Here there is something more than the mere preliminary "Mr. Allworthy had been absent in London" when "he came to his house very late in the evening". of Fielding. The very abundance of the narrator's reflections, in Dostoyevsky, might almost be said to produce a *stretto*, by anticipation, of the multiple considerations that arise in the course of the succeeding action. "It was a very gloomy place at the end of the huge park. I went there afterwards on purpose to look at it" — how crude if he had been made to be present at the time, so that it could be recounted, and how much superior the story now that we know it is (only) the story of it — "It was so dark that they could hardly see"; how wide the reference of the *could*, meaning (though by gigantic prolepsis) what is coming in the story, also what was (because it has already happened), but also the semblance of a future *for them*. "At some unrecorded date in the past, a grotto had for some reason been built here"; the vagueness of the date and the reasons being a symbol of the discursiveness of this treatment of the proceedings. "One could scarcely imagine that any noise... could reach the inhabitants of the Stavrogins' deserted house", which may be either their supposition, with an eye to the murder, or a preparation for some noise,

([1]) As perhaps in Tolstoy, *Hadji Murad*, c. 2: 'Perhaps we'd better have another smoke', said he,... But the soldiers were not to have their smoke. Hardly had Avdeev risen, when, etc." (the reading of the last sentence alters the effect one had received after 'smoke'). Conrad bears very heavily on the drama of his stories by putting them in the mouths of so many witnesses.

free will of the actors in it—to the consideration of it and of them as a whole. The successive episodes of an action narrated, even more demonstrably than the 'passages' of a product of one of the other arts, may be simultaneously instrumental and consummatory like the scenes in Elizabethan drama. Knowing is for once not at odds with, because so markedly behind, doing.

A standard form of subordination of one item to the next—of continuity, in short— has been that of the crowded serials of the commercialized fiction of the Victorians, and the formula 'But of that, later' will make even the reader of Dostoyevsky smile. Griffith, the patriarch of primitive film, justified the way he cut his action about by the way in which Dickens consciously (1) jumped from one nucleus of the human interest off to another, and from tragedy to comedy, and Eisenstein (2) has found all Griffith's skill already in the rhythm of Dickens's progress through the elements he assembles for the exposition of an atmosphere, in the interlocking of episodes, and in the counterpointing of theme (such as "there were sad hearts in Mr. Brownlow's that night") upon the sequence of 'shots' back and forth in their own 'parallel montage'. Like Elizabethan drama, however, this plot-work more often than not puts time as such in the background, and the sort of place where one can identify the sheer beauty of an art of time is where, as in Dostoyevsky's *The possessed* (3) there is a personal narrator "writing, so to say, with full knowledge, and describing things as they became known afterwards, and are clearly seen to-day"— making of the story, in short, an activity for the reader to establish cause and effect, and to do justice to those circumstances in which the evidence points in more than one direction. Character has really a new relation to event and has received a more dynamic consideration, when it is thus presented: 'I considered him then, and I still consider him (now that

(1) *Oliver Twist* (1838) c. 17.
(2) *Film form* (N. Y., 1949) 212-24.
(3) 1871-2; II. i. 2, I. v. 8, III. vi. 1.

not attempted to establish any medium (such as time is) common to both, and such as would characterize a universe that was going to be a little better than a collection of private experiences. To establish this homogeneous medium "supposes, first the measuring up one's own time against that of others and against physical time, in a system of reciprocity that goes beyond egocentrism, and second, the measuring up of the present with the past in a reversible system that goes beyond mere immediacy". Russell has demonstrated how, in the guise of an account of the difference of past and present, Bergson gives one of the difference "between perception and recollection—both *present* facts". Piaget states the difference as being one of form, which is reversible, and content, which is not: thus, a past event does not happen again, but can be reconstituted as past ("the content, as present reality, abolished, but the frame subsisting, in order to take as new content the memory, or mental reconstruction, of the previous one").

The belief that knowledge is immediate grasp of things is less a homage to their reality than it is an implication of the traditional, pre-dialectical desire for passive spectatorship in the perceiver. The narrative mood constrains a story to localize its forward-looking action (the better the novelist's art, the less automatic the translation of the past into a present now). Sterne, who canvassed all the problems (1), hinted at the more than dramatic expectance that would result from measuring and overriding the supposedly normal (because theatrical) direction of events in time, by the intervals or sheer interruptions applicable in virtue of the way the plot is unravelled in such a consciousness as the participants in the reader's place may acquire of it. The peculiarity of the sibylline perspectives of narrative art, in which the ineluctable directionality of time is felt as a counterpointed rhythm, is that the novelist is not (as Lessing implied he was) forced to sacrifice the parts of his tale—or the

(1) *Tristram Shandy* (1759-61) I. 22, III. 11, VI. 33.

outside the action on the stage, in a narrative, but that the dread realization of what was truly irreparable, because it was past, would always carry more weight than the mere apprehension of the worst to come. Consequently (as Diderot concluded for himself) *the whole effect might be planned to emerge from playing off the spectator's understanding against the characters' ignorance of how things were going to turn out.* Now, whatever the propriety of this idea for drama, other than that purely on the Oedipus pattern, as far as narrative art is concerned it is the principal axiom.

Diderot did not overlook the related problem of the loss of effectiveness in successive presentation of what might be simultaneously mustered strands of the action. The stream of consciousness at any given moment can never exhibit a point on a line, but only a complex situation. As Proust wrote in his theory of art (¹), what we call reality is in fact a certain relation of our sensations with the memories that at the time close in, so that in order to reconstruct a series of events more seriously than in the habitual rudimentary 'dramatic' abstraction of them, we must build up respective positions. In statement as distinguished from experience, there are terms; statement obtrudes measure, that of the occasion of statement; one time measures another as clearly as in the horizon alluded to in 'I will do this or that'. As Piaget and his collaborators determined when (²) they worked out the problem of the intuition of time set them by Einstein, memories are not registered chronologically as if on a band of smoked paper, but are connected by causal analysis, when it explains one as a necessary condition of the other. Now, "time is to explanation what the order of logic is to implication"; the immediate impression of a momentary, isolated action, so far from allowing the subject to understand excludes understanding by the fact that it has not polarized subject and object. It has

(¹) *Le temps retrouvé* (1927) vol. 2.

(²) *Développement de la notion de temps chez l'enfant* (1946).

from the partial dethronement of eloquence in favour of a new naturalism on the stage ([1]), and not all the creative minds of the age were as well aware as Goethe and Schiller of the contemporary confusion of the arts. Diderot himself would not always have conceded Burke's point that "no work of art can be great but as it deceives; to be otherwise is the prerogative of nature only", and he at first ([2]) maintained with devastating logic that a play might not merely be based on a real-life story, but be apprehended as to all effects that slice of life itself: as therefore, in order to approximate as closely as possible to life, there should be no spectators, the actors should at least play as if the curtain had not gone up. The first reminder from his artistic sense came when ([3]) he saw that if the spectator were as ignorant as the characters themselves of their situation, he would get no more pleasure out of the action than they were doing. Schiller ([4]) likewise saw that it was not only convenient to be able to relegate a coincidence or a complication in the plot

---

([1]) Which was the lodestone. Richardson dashes his head so wholeheartedly against Congreve's judgment that "there is no possibility of giving that life to the writing or repetition (*sic.*) of a story which it has in the action", that he will in all incoherence attempt to hand over a scene or a person bodily, as he does Mowbray at Belton's bedside in *Clarissa.* Fielding subscribed to Congreve's conclusion, namely that the writer of narrative can emulate drama only in his plot, and so wronged the organic rhythm of *Tom Jones* with this naive adjunct. His friend Hogarth "wished to compose pictures on canvas similar to representations on the stage" of moral, human subjects, and the earnest minuteness is well known of Rousseau's instructions to Gravelot (who left a school in England) for the engravings of the *Nouvelle Héloïse*: he also issued long explanations of them in prose. The part played in the establishment of a world of fiction by the illustrations to even the 18th cent. primitives needs statistical survey. As one example of the commercial quality, see Stothard's 28 plates (3 engraved by Blake) for *Grandison* in Harrison's *Novelist's magazine* in the 1780's.

([2]) *Entretiens sur 'Le fils naturel'* (1757); Burke. *Sublime and beautiful* (1757) II. 10.

([3]) *De la poés. dr.* § 11.

([4]) Lett. to Goethe, 2nd Oct. 1797.

"instantaneous descriptions" of "the mind tortured by the pangs of uncertainty", he did not fear the incoherence of the minute by minute record like "Will is not yet come back. Near eleven": followed by a row of dots, and then "Will is this moment returned. No coach to be got, etc.". Even when the narrative form is adopted within the letter, all the circumstances may be brought back to the illusion of an immediate present by sufficient stage directions, and by freeing the dialogue from 'said he's (1). In the absence of a confidant, the position is difficult but still not impossible, and when Rousseau's hero conceals himself in the heroine's dressing-room to wait for her to come to their first rendezvous, it is to the lady herself that his staccato "But soft ! I hear, etc. The door is opening. Someone is coming in ! It is she, etc. "(2) is supposed to be indited: Rousseau does not, however, play quite fair, for discursive reflections are also admitted, together with a simulacrum of the lady's presence in the clothing that is laid out. In Richardson's mind the confusion of narrative with drama was sufficient to obscure whether what he wanted was a language about life, or life itself. Even if the death of Belton in *Clarissa* is at one point recorded play by play, it is still another thing from the wireless commentary on a football match which, for all its art ("No, he isn't ! yes, he is !"), exists to satisfy listeners for whom it is a reality happening at that moment, whereas Diderot's (3) summing up of the stage directions of Richardson ("I see the character; whether he speaks or does not open his mouth, I see him, and his actions touch me more even than his words") is a fiction. Diderot was exposed to temptation

---

(1) "Thou'lt observe, Belford", writes Lovelace (*Clarissa* (1748), 12th June, afternoon; cf. 22nd Aug., same to same), "that though this was written afterwards, yet (as in other places) I write it as it was spoken and happened, as if I had retired to put down every sentence as spoken. I know thou likest this lively *present-tense* manner, as it is one of my peculiars".

(2) *Nouvelle Héloïse* (1761) I. 54.

(3) *De la poésie dramatique* (1758) § 21.

over a considerable lapse of time a subject of conjecture for the other (the stowaway in the hold with a mutiny on overhead). It may seem simple "to bring down the story-teller from his abstract and discursive freedom, and make him limit himself to one thing at a time" but the critic[1] who phrased the ideal thus was actually commenting on a naive form of literature, Icelandic saga, in which "events were made to appear in the order of their appearance, with their meaning gradually coming out" as fitfully as it was apt to do in the universe of suspicion they represent. When, however, the reader has one moment seen the hero full of determination (even if ready to engage on what may be his last adventure) he does not, after a change of scene announcing nothing out of the ordinary, expect to be confronted with the same hero's severed head in a towel, even when Tolstoy (whose *Hadji Murad* (1896-1904) this is) dignifies the procedure with the name of his 'peepshow manner'. There is a difference, to the disadvantage of the above Icelandic critic, between his bald statement that "the facts must be given in a lucid order, with a progressive clearness, from the point of view of those who are engaged in the action", and the really very much subtler canons of fairplay (say, those of S. S. Van Dine and Ronald Knox) in the detective novel. Poe, though he invented (1841) the detective story, did not undertake novels, and moreover kept his grotesque and arabesque manner out of his detective one, so that narrative art (as opposed to narrative fiction) did not advance as it might have done. Mallarmé, when (1887) he hailed the first use of pure silent monologue as "catching the moment by the throat", was philosophically speaking as naive about time as Stendhal or even Richardson.

To Richardson it appeared self-evident that "familiar letters, written, as it were, to the *moment*, while the heart is agitated by hopes and fears, on events undecided" would be superior to "the dry, narrative, unanimated style of a person relating difficulties and danger surmounted". Resolved as he himself was on

(1) W. P. Ker. *Epic and romance* (1896) c. 3 § 6.

between a view (it may be called science or it may be called poetry) which gives knowledge of the universal, and history which deals with the particular, was presumably influencing Tolstoy's contention ([1]) that the historian summarily unified his characters in the light of his knowledge of results and at the expense of the fact of their complexity. The opposite valuation might seem to emerge from Balzac's profound remark in the foreword of the *Comédie humaine* that Man at the level of society reveals chances that Nature could not, since he is Nature plus the social state. The vital thing no doubt is the distinction, rather than which side of it one imagines one has put oneself on. As Emile Meyerson used to stress, we are always trying to explain change by methods that in fact explain it away. We minimize the difference between the historical fact, which is amenable only to individual causality, and the law of nature, and so disparage the growing preponderance at the social level of the first over the second that ([2]) we risk having to reckon time an illusion.

The practical problem of unfolding a tale is how to avoid being inspired by the outcome. How keep the horizon of a present? How balance the story-teller's knowledge against the reader's ignorance? So much (e.g.) of *Barnaby Rudge* shows up as the brilliant stuff it is only on a second reading, and Poe (who in 1841 guessed the secret of chap. 62 in chap. 1) could not forgive the author for having merely endued with mystery what, were it not for this, might have possessed the deadlier force of premonition. Poe, of course, himself prophesied the romance of ratiocination, the pursuit of a mystery by an intelligence. His own *Arthur Gordon Pym* (1837) works out the problem of two separate theatres of action, each of which remains

([1]) 'Some words about *War and peace*' (1868) § 5. Tolstoy was confirmed in his experience by Fabrice's view of Waterloo in the *Chartreuse*, which had a symbolic importance for him.

([2]) A. A. Cournot, *Essai sur les fondements de nos connaissances* (1851) § 312.

capable of rendering the constitution of any overall unity as difficult as the preceding analysis into parts has been thorough. The formula adopted by Stendhal, according to which a novel could be reckoned to be "a mirror that is taken along a highroad", has been claimed as specially appropriate to the picaresque tale of encounters on the road. Despite the admission of difference between the record and the things recorded, the opposite direction of the reflection is not stressed. and the idea of a record managing, at a constant distance, to keep up with events, even if this were held to render the way that things are translated afterwards into a medium, nevertheless obscures the fact that the translation is different in form, and not a mere record. In fact, in the 'phantom ride' films in the cinema's early days, to make which the camera was mounted on (say) a railway engine, the demand soon arose for some interpretation of how a real spectator, and not a mere camera, would feel. With little Pip in *Great Expectations*, in the mist of the march country "instead of my running at everything, everything seemed to run at me", which "was very disagreeable to a guilty mind": the uniqueness of Dickens is less in operations with character than in his impeccable control—how much superior to that of expressionism!—of the complex reciprocal animations of the inanimate (or of the unadult, and therefore unusual).

The major paradox that presents itself to the narrative writer, however, is the following. When we are looking back upon them, it will not occur to us that things could have happened otherwise than they did, and we simply imagine one thing having led to another as *in our investigation* it may have done. So great, on the other hand, is the feeling of indeterminateness, before the prospect of the future, that we are easily persuaded to describe it as the diametrical opposite, and to say that of all the possible outcomes, the one that will never occur to us [1] is the one that is actually destined to be. The traditional contradiction

---

[1] As good Abbé Blanès tried, in the belfry, to show the hero of the *Chartreuse de Parme*, knowledge of the future would alter this future.

said to have been discovered. The idea of representing the decisive moment of an action received support from the artistic unity of time and space that was tried out at this period in the drama, but logically it involved the admission of discontinuity. by a series of compositions. The biographical handling of a hero's career or the didactic treatment of an idea like the power of love condoned compromise forms which might make an attempt, as the archaic simultaneity had not deliberately done, at the co-presence of possibly disparate elements, all the more because of the limited space on a bowl or a vase. The choice was, however, essentially between cramming a picture with the maximum, or, on the other hand, allowing that effort must go into selection of a moment crucial enough to dispense with the maximum. In a decent polarization of positive and negative, the material to be represented was therefore canvassed as much for what it would allow to be omitted before the next *scène à faire*, as for qualities of its own. No picture, anyway, was self-sufficient: it was (positively) something in virtue of (negatively) its not being self-sufficient—in virtue of its potential place in a language of representation. The solution of the problem in the Hellenistic period depended on the papyrus roll in which pictures could be interspersed with text, and to which, once in possession of his own idiom, the artist felt a duty, dramatic highlights or no dramatic highlights. Thus was pictorial narrative undertaken for the first time on a large scale.

From Zeno at least to Bergson, the Western ideology has been eloquent on the discrepancy between movement and the immobilities that, as far as we can see, are all that it is made up of. Russell suggests that we should remind ourselves that motion is made out of what is moving, not out of motions, and that we should eschew the fictitious contrast between the way that different times interpenetrate in memory, but are said to be somehow outside each other when they are pictured as spread out in space. There is no difficulty in disposing of Lessing's petulant contention that the linear and irreversible medium of an art of time seems

like the landscape of Mi Fei in the Moore Collection [1] requires the temporal terms of musical form to do justice to the expectas tions it unfolds. In the final tour de force of classic Far Eastern painting, the composite narrative scrolls of feats of arms in 11th-12th century Japan, time in the subject-matter is taken care of not merely by a moving focus and a repertory of mist as varied as that of film dissolves [2], but thanks to linear reading (right to left) and conventions therefore as to going and coming. Even the hanging picture 3 ft. high was read from bottom to top, which was held sufficient to warrant seasonal progression from autumn across a blanket of mist to a wintry landscape above, seen from a position different enough to make it jut out over the other (this is the painting by Sesshu in the Tanaka Collection, Tokyo). The specifically temporal integration of part with part in the Far East is unlike anything in the Western easel-picture, however asymmetrical the two sides weighed one against the other, as they are in *Las lanzas* of Velazquez before the eye runs off into the distance, or whatever, in Cézanne, the jolting tension of the different axes when in a road lined with buildings, some of those on the right are drawn as if the view point were more to the left, and those on the left as if it were to the right. Progression with the directionality of time underlying it, and mental and not only visual ideas, is something else than the movement along a W of the several episodes of the Passion Memling depicts in the painting in Turin, even if a convention kept the beholder from feeling they were all there at once. In fact, once the simultaneous procedure in narrative had been disposed of as an archaism in the 5th century B.C. [3], the dynamic value of the frame may be

---

(1) L. W. Hackney and Yau Chang-foo, *A study of the collection of A.S. Moore* (1940) pl. 10. Suggested criticism of Chinese painting in musical terms, Rowley 61, 69.

(2) Which connect, as well as introduce a pause; they state time only, perhaps, after all to cancel it in favour of a causal link.

(3) K. Weitzmann, *Illustrations in roll and codex* (Princeton 1947) 13-15, 17-18, 27-28, 34, 40, 42.

empty parts of the canvas, or of positive and negative factors in general, was unexplored, and has indeed only begun to receive attention since Cézanne. It is only in supposedly unfinished watercolours, or sketches, that objects can ever be found floating about without the background that otherwise we know must be there (which is why the idiom of Rembrandt's pen drawings round 1660, or Goya's brush ones, ranks unduly high in Western achievement). In painting pure, our masters seem to have aimed as much at tying forms securely together as the Chinese did at emphasizing the intervals between them. In China, their isolation meant "that the forms must be related mentally rather than visually". Paintings like those of Kuan T'ung or Fan K'uan in the Palace collection in Peking (1) "by sheer multiplicity of parts, piling mountain upon mountain, suggested a sequential experience in time": "voids served chiefly to increase the scale of solids or to suggest depth": later, with the painting of the Zen Buddist monasteries of Hangchou (2), which, like the brief Japanese poems, counted on an unequalled complementary labour on the beholder's part, "the voids said more than the solids". The artists had striven to excogitate the state of the Uncarved Block before the naming of things has generated meanings that depend on contrast with, and exist at the expense of, something else, and in this they were backed up by the logic of Chinese 'syntax' which, with its weighing of interdependent antinomies, lent itself to statement of the synthesis that abolishes them. In scroll compositions, say 8 ft. long, perused in passages of not more than 2 ft. at a time, the conditions for unity of impression were even less like the Western ones of overall format (it is felt as an intrusion in the silver age of Chinese painting when compositional lines allude to those of the 'frame'), and a sublime masterpiece

(1) *Ku Kung Shu Hua Chi* (Peking, 1931) VIII, pl. 1; IV, pl. 3, IX, pl. 1. Cf. G. Rowley. *Principles of Chinese painting* (Princeton, 1947) 6, 8, 57, 72.

(2) Now in Japanese collections: *Pageant of Chinese painting* (Tokyo, 1936) pll. 165, 170, 187, 192, 205. Cf. *Tao Teh Ching* cc. 2, 28.

progression underlying them (1). Elsewhere the compromise nature of the solution was apparent. If, as Reynolds put it, "what is done by painting must be done at one blow", the artist in search of unity on this pattern is forced to compromise in a miserly fashion on the number of objects in his painting. Shaftesbury admitted it, and when eventually Monet renounced what he called the *composite picture* in favour of what he called instantaneity, he was forced (since, as William Gilpin had noticed, the lighting of a scene changed all the time) to exhibit a series of paintings of the same scene at different times of the day; fifteen, in fact, of a haystack, in 1891.

The typical European old master painting was a window (the Renaissance said so). Whether it was through or in the glass that one got one's look into the relative distances of space—whether the painted objects were thought of, as apparently they were in India, as led into the field of vision, or were held to exist in the depths to which one peneterated—the pseudo-objectivity of the result must disnature the give and take of imaginative creation. The more real the figures on the plane surface, "the more violent grew the thirst for space" (2), and this was an even more fundamental liability than the scientific rather than artistic basis of the perspective. The relation of full and

(1) It would seem doubtful whether the reduction by pan-focus of the variety of separate takes in a film (normally 300 or 400 an hour) is anything more than the 'Dutch' realism Wyler and Toland claimed for it. To use it, as exceptionally Orson Welles did, for a sort of agonizingly beautiful distension of the episodes no more solved any problem than did shrinkage in the number of characters in the psychological novel like *Adolphe*, which did not eliminate all further demand for picaresque variety. The monstrous camera-structure and camera team required for the nine ten-minute continuous takes that compose Hitchcock's *Rope* (Warner, 1948) are reminiscent of the just as monstrous camera problem that was the death of visual composition in the infancy of film, namely the need to discover and then hold the angle allowing the maximum evolution on the actors' part.

(2) Friedlaender 21.

make much distinction between what it knows is there and what it sees, but after that Copernican revolution in art signified, historically, by Kant's placing respectively of the phenomenon and the thing-in-itself, the logic of the subject collides with the passive logic of the object. Once the differences of behaviour in space reported by the travellers had combined with differences of opinion due to the movement of individuals from one class to another, the universe could also for the first time be regarded as having evolved in time. The eye took an interest in change and in appearances, and the theory of the arts reckoned, as Sterne showed himself able to do, with the subjectivity of the observer. The new belief in direct vision was, however, accompanied by such a feeling of helplessness that painting and early photography alike balked at fiction (¹). Manet was bound to make a mess of the execution of the Emperor Maximilian, because he had never seen it. "The purport of the event, place and time, consequently *everything* essential to the incident, remains in the dark". He could never, anyway, have convinced his public that it had gone off as he might have contrived it on canvas. This was not the only sort of difficulty painting now laboured under. With Aristotle's conception of artistic unity as *terre à terre* as it was (the maximum size graspable at once), extension in time was taken as analogous to extension along a line in space. In a work of narrative literature accordingly, as Shaftesbury put it, "the same regard must be had to the memory, as in painting to the eye": the writer must be as long as possible, "but so as to be comprehended (as to the main of it) by one easy *glance* or retrospect of memory". What is annoying here is perhaps the casual assumption that memory is as purely discursive as it might be in applying itself to master a piece of architecture or sculpture in a series of *coups d'œil* which (nevertheless) had no definite

(¹) With Dostoyevsky's remarks (1873) in *Diary of a writer* (N.Y. 1949) I. 38-4, cf. M. Friedlaender, *Landscape, etc.* (1949) 142. 225.; cf. 151-2.

the one in the other; when we designated one and the same individual in the different pictures as 'another gentleman', we might, according to the needs of the moment, mean either a different gentleman or a different portrait of the same gentleman. We did not necessarily demand a separate picture for each phase of the action, and would have been quite happy were the successive events, and actually changed objects, juxtaposed pell mell, or even with several pictures quite unconnected with each other. Once we had fixed on the order we thought the pictures came in, however foolish it was, we could not understand any other; we could not identify the common elements in them, and we just did not want to make our story harder to tell. Now, before the coming of narrative on the grand scale, on film, representational art in the West was not much more dynamically-minded than we ourselves were as children. The painter, unlike his Far Eastern opposite number, in general worked as if the beholder of his picture were immobile. The ideal, as Shaftesbury expressed it in 1713, was that the eye "without the least detainment in any of the particular parts, and resting, as it were, unmovable in the middle of the tablature [picture], might see at once, in an agreeable and perfect correspondency, all which was there exhibited to the sight". It has also seemed quite as natural to conceive of composition in an art of time on the analogy of what it was in painting, where one could see and almost touch it. "First study the point the light is to come in from" says Gide; "all the shadows"—presumably the characterization—"depend on this". The novelist, like Henry James in 1899, who was dissatisfied with painting for his comparisons, would still not be able to get beyond the relatively similar analogy of the well-made play, in terms of which he would be ready to relegate Tolstoy and Balzac to the status of "mere painters"—presumably of panoramas.

Just before the invention of the cinema the painting of the West was being strangled by its limitations. The logic of the Middle Ages, with feudally fixed views of its universe, does not

a confession tempted him quite as much as the relatively impersonal narration he eventually pitched on. An author's account of the matter, he had at first thought [1], would involve too much naivety; an omniscient, infallible judge bringing before the public what a man of the new generation was like. A confession would need to be heavily motivated by something in the young criminal's nature, such as the fear of God or of public opinion, and, moreover, it would always be too abrupt for artistic distance. What of the idea of imaginary memoirs? "All this happened eight years ago..." in marked perspective and proportion therefore, combining, however, the virtue of subjectivity. But yet, this was not direct enough: a confession must figure somewhere, and it had the advantage of justifying a sort of surprise on the part of the author of it himself, at his own actions. Now, what is noticeable in every one of these alternatives is the interdependence of the supposed narrator's situation in space and time, and the mood—of form and content. The position of the narrator, anything from a standpoint adopted out of conviction, to the highly personal point of view of the moment which calls out for supplementing, nevertheless fairly plainly suggests situation either in space or time. First, we may consider the locus in time of the narration.

III

The compositional problem of bringing unity out of diversity in an art of time is still far from being generally solved. True, it was one of the distinctive conquests in our progress out of childhood at eight (say) when we first proved able to identify the elements (e.g. the persons) that the several pictures of a sequence had in common; to preserve, as Piaget and his collaborators have described it, "both the diversity of possible perspectives and the unity of corresponding elements". Previously we had seen either the identical *or* the diverse, but never

---

(1) *Journal de Raskolnikoff*, tr. V. Pozner (1927).

(in Aristotelian phrase) can be got in, to the interest of another subject-matter altogether, namely the more minute, fragmentary and partial, but selective and significant record of an action; images capable of being represented by a mind to a mind given the means available in the language.

Even though a narrative may be *understood* as a present action, it is couched in terms of the past, and this is enough to submit the hypothetical events thus understood to a sea-change of the second degree, not only (1) because the details of a discursive analysis are necessarily unlike (in shape, as it were) the original total and instantaneous feeling, but also because whilst this feeling is a present, it is representable, or enters rational existence, only as past. History in one sense (that is) receives the meaning it is destined to have only in another sense, in historiography. Our epic, drama and lyric are our varied attempts to deal with this double degree of difference between the (largely linguistic) form, and the lived content, of experience. All awareness not only lags, but involves a definite responsible author and his current present, or conceptual position, and the art of narrative is, briefly, to make something of obligatorily narrative tenses, and of the narrator's position. The uniqueness of *Manon Lescaut* (1731), for example, is not that which might have come from the ex-Benedictine, ex-adventurer, ex-lover of Lenki's having proved able for once to take seriously the halcyon rococo pursuit of happiness. The child of pleasure that Manon is and the tragic or 'sentimental' mystery in her nature are unique because of a technicality in her defence: she is never seen but through the eyes of the one person (the narrator) who would always come back, after whatever rebuffs, to a belief in her. Again, how should Dostoyevsky present the case of Raskolnikov? An imaginary diary, or memoirs, or even

(1) As Diderot in his *Lettre sur les sourds et muets* (1751) or Sterne in *Tristram Shandy* (1759) II. 8 discover in what is, psychologically speaking, the century of Locke.

to detached and even timeless meditation, together with a multitude of scales of relevance to the particular character (whose lines anyway were being followed as poetry) down to, in the end, direct appeal to the audience and an ability on his part to see himself in so dramatic a light that he alludes to himself in the third person. This, be it noted, was combined with a use of dumb show, and inductions that presented the characters or the moral (and the extras in the induction could remain upon the stage to comment all the time); so different, moreover, were the moods of plot and subplot, that it was often a case of two or sometimes more plays in one. With the similar polarization of effects in the Joruri theatre of Japan, the way in which the plays of the Japanese Shakespeare, Chikamatsu, were presented, was that all the while the minstrel was giving voice to the ballad-drama, the three-stringed samisen plucked out the rhythm (abstracted from melody and harmony) and the puppeteers created the gestures and movements by which doll-actors mimed the chanted and recited ballad 'book'. The Elizabethan procedure was of course only a correction by a narrative principle of the stage display (and that is Brecht's panacea for our present naturalistic drama). When it is the narrative principle itself that becomes the basis of operations, film image (e.g.) becomes something else than picture-stage (even that of the Meininger or the Moscow Art Company), just as the inhuman grace of the puppet is more than the actor. Counterpointing of the various elements, in which one does not accompany but all the time symbolically replaces others, forms what Eisenstein has denoted in the Japanese theatre as a monism of ensemble. Something of this Copernican revolution had undoubtedly occurred in the literary drama of the Elizabethans, which, as Goethe discerned, could not have contained objective reality palpable to the senses so much as the Word acting on the imagination: "the action (Bradbrook says) was not intended to define the feelings, but to reflect those defined in the verse". The revolution is complete when the onus of composition passes from the problem of how much of an action complete in itself

The initial strangeness of the modification of truth in a context, or convention, of fiction was analyzed by Aristotle in his Theory of the First Lie: the mere occurrence of the consequence of an initial premiss (that is), provided this consequence itself be true, is enough to waive criticism of the untruth of the first statement. One is so used to premisses and results which overlook the means, that it is an effort (and a relief) to measure, aesthetically, what is said by the means that have been put to work to realize it. To understand how the facts of a case may be no other than the way the story lets us into it, it is easiest to see how this came about in the dialectical transition in modern times from drama to narrative. The particular duality of poetic drama, long lost in the prevailing naturalism of our present temper, is found pure in China and Japan and in our own Elizabethans. The principle of their dramatic art was very generally missed before the discoveries of Schuecking, Stoll and, above all, Bradbrook [1]. It had, however, been noticed by Goethe how right Hamlet was that the players could not keep counsel. "The watchword of the participants (he wrote) seems to be never to leave us in the dark. Every species of character wears his heart on his sleeve, often against all verisimilitude: each is communicative, even talkative": it was as if the universe had become transparent, as if we were suddenly taken into the confidence of all virtue and all vice. Briefly, upon that *presentation* which would seem to be the essence of the show, there is counterpointed a *representation* by the Word. As Bradbrook expounds it, the Elizabethan playwrights had in their hands, in the versification, every variety of seriousness (or 'distance'), ranging from speech perfectly in character in the plot all the way

(1) M. C. Bradbrook, *Themes and conventions of Elizabethan tragedy* (1935) 43, 45, 97, 103, 111, 124, 131, 134, etc. Goethe's 'Shakespeare und kein Ende (1813 ff.) and 'Frauenrollen auf dem Roemischen Theater durch Maenner gespielt' (1788) have left little to be said even by Berthold Brecht's programme in his *Versuche* for the 'epic' theatre of to-day.

Coleridge's), which would not fail in the end to disgust the willing dupe, but from its having begun with an acknowledged total difference, and a convention as to this. One more generation, however, was sufficient by (say) 1790 to change the reader into reading masses, and narrative literature was in consequence amputated of these its 'rhetorical' and 'grammatical' dimensions, its tone and its play with the medium. The situation in the third and last dimension can be observed in the assumption of Scott in his review (1821) of Jane Austen, or of Victor Hugo in his review two years later of Scott, that the story-teller's ideal was "to give fiction the perfect appearance of reality". What even Elton's standard academic history of our literature is driven to diagnose in Scott's historical romances, namely "a kind of serious banter, a style hovering between affected gravity and satirical slyness," is a tone no different, at least in kind, from that of the altogether ridiculous novels of sentiment or of terror that had been preponderant in the critical 1790's. The full measure of the decadence represented by this secularization of the novel, by its transformation into a trade in fiction, is the coolly humorous reflections in the first chapter of *Waverley* about the reigning kinds ([1]), a fine contrast to the sublime contemporary preface of Achim von Arnim to his *Kronenwaechter* (1817 ff.): *Wieder ein Tag voruebcr in der Einsamkeit der Dichtung*... Poe's *Tales of the grotesque and arabesque* (1840), *Moby-Dick* (1851), *Wuthering Heights* (1851) and even Dickens in not the least great aspect of his giant genius would remind English readers unfamiliar with Novalis, Hoffmann or the *Arabesques* (1835) which contain Gogol's 'Nevsky Prospekt' and 'Diary of a madman', that their own narrative art of the era of Philistine secularization of it, before 'lowbrow' had generated 'highbrow' and Bohemianism become a fashion, was forced to be visionary.

([1]) Three the same as in 1790, but with tales of the fashionable world substituting themselves for the fourth genre of the Revolutionary generation, its stories with a didactic social purpose.

times and in France of all countries by Diderot ; of things being "at once said and delineated"? What in a novel is like the conflict in (say) Donne's *Love's deity* between what Bridges called "a metre which makes us more or less expect a certain regular rhythm of accent and, on the other hand, a speech-rhythm which gives it all manner of variety by overriding it"? The parallel might be that the characters' life or death is obviously dictated by the form as well as the content of the story, without nevertheless there having been removed from the reader's mind his awe of one–even an author–who is in private possession of power of life and death. All the difficulties of narrative art began when it was first taken for granted that what the public wanted was a fiction. The great primitives, Defoe, Richardson, Fielding and Sterne, as their continual prefatory matter bears witness, had to fight for the authenticity of their art in terms of the then readers' framework of truth and fiction. Why did Stendhal cite, and Cervantes use, Ariosto as the model of what a narrative artist should be? Doubtless for the irony with which (1) he disclaims all knowledge how (*con che privilegio*) Angelica could conceivably have kept her bracelet safe when the inhabitants of the Isle of Lamentations exposed her naked in the path of the sea monster, or knows how to put on his own source–the excellent Turpin–the responsibility for Ruggiero's truly marvellous feats of arms. Cervantes too (it has been said) was so happy in the cosmos of chivalry that the existence of the adventures he adopted from the books for his hero was as real as any reality could have been. The balance he struck is expressed in the moving conclusion: "For me alone was Don Quixote born, and I alone for him. Deeds were his task, and to record them, mine. Together we make one...". Now here, as in Fielding and in Sterne, the plausibility of 'the story' is actually that of the tone of the relation with the reader : the status their art still enjoys comes from its not having set out from a supposed reality (the terms are

(1) *Orlando furioso* XIX. 39, XXVI. 23.

to each other, as well as to that which they represent", and statement is meaningful both "mediately, inasmuch as presented by signs, and immediately in that the sign vehicles used embody in themselves in varying degrees the value properties which they present" (1). An even greater peculiarity of this sort of discovery in art is the sense in which, since it is irreversible, it involves time. The succession of details into which artistic utterance will have analyzed a hypothetical original impression cannot in any useful sense be said to have been there in germ all the time. The details arose (on the contrary) in course of composition in the givin medium, and are only apprehensible in this way too, ends not eclipsing means. Thus, though the criterion of lyrical poetry is its untranslatability, we cannot argue back from that to any theory of a *mot juste* (2). The tendency of all literary form, further, and not only of metre, "to divest language, in a certain degree, of its reality" (Wordsworth) (3) cannot in fact be sought surrealist-wise as such, as a living wall to guard, as the tragic chorus did among the Greeks in the theory of Schiller and Nietzsche, the frontiers of the ideal. The unreality must emerge in its own good time from the counterpoint in the medium, when statement with the marks of its original context is transported into other company.

But what is the equivalent, in narrative art, of the hieroglyphic feeling of a counterpoint in poetry, noted in 1751 of all

(1) C. W. Morris, in *Journ. of unified sc.* (*Erkenntnis*) 8 (1939), 139, 136; E. B. Holt, *Animal drive and the learning process* 1 (1931) 41.

(2) Such as that which presided at the deliverance of Flaubert's great descriptive passages, and is elaborated in Maupassant's study (1884) of the master, § 2.

(3) As with Goethe's recasting of the harrowing prison scene in *Faust* in verse. Just how strange lyrical untranslatability is, the reader may gather, if, as Pius Servien recommends, he will first conceive of the extreme of scientific precision, a statement whose many possible forms do not change its content one iota, and then imagine the exact opposite, when content would be identical with form!

poetry, and the aesthetic desire in any sort of literature is to be called upon to fill out. Dickens, summoning Cruikshank to his help, was thenceforth condemned to a theme and variations, for as Flaubert([1]) said, if the novelist accepts the presence of the illustrator, his own creation loses "its generality, that harmony with a thousand objects of common knowledge that will make the reader declare it must be true". Minor characters are the only ones ever lifted as such from real life, and as Radiguet said when his *Diable au corps* was so much commented on, it is always the fictitious autobiography that appears the most harrowingly sincere. What starts a book is the dawning on one of the hypothesis, "how if things had been different"? The layman's idea of the matter is always what the royal personage said to Madame de Lafayette after the *Princesse de Montpensier:* "If all this that has happened (an unfortunate affair of hers) were put on paper, it would really be a story; go on, you write so beautifully; I'll give you all the material you need, *you*'ll only have to write it out". Artists, however, shy away from the things that have really happened, except (say) as decoration, as history. Madame d'Epinay who, unlike those who pass off veritable romances as their own memoirs, had written hers in the form of a novel, and then—not wishing there to be any mistake—announced that it was not of course a novel that she was giving to the public, but completely authentic memoirs, was *not* an artist.

The existential status of the work of art is further complicated by the fact that it is its dynamic nature to discover fully what it is doing only in process of doing it. An abient organism as timid of reality as ours has its own moods of adience, responses which will procure for it more of the stimulus that elicited them. What is said is, in our civilization, so overwhelmingly more important than how we say it, that there is aesthetic surprise if the how is ever found to be part of the what. Then, as typically happens in poetry, "sounds, as well as thoughts, come to have relation

---

([1]) Lett. to Duplan, 12th June 1862.

with a sense of proportion, and permanent and discursive interests. This measuring up of the diverse against the identical (as it may be called) discovers a world not of solid substance (language is form, not substance), but of so many dynamic storm centres. Combining Freud's findings on our animal timidity with Ogden and Richards' conclusions about signs and symbols, we may assume that protection against stimuli is more important even than reception of them, and that it is our sampling thus of the external world that gives our experience its character of recurrence. It "comes to us in more or less uniform contexts", one item of which, typically a word, may come so to characterize the whole of which it forms a part that a mere mention of it suffices to evoke that whole. To the aesthetician another, emotional, category now comes into sight, namely that of *distance*. The personal character of a relation is 'filtered'; that of the dream (e.g.) is toned down by what Freud calls the bribe of the pleasures of form; an experience is abstracted (as Dewey puts it) from its original practical context, and is modified, in a new whole, by such collateral tendencies as the pleasure of determinate motor response in the discovery of the new by means of the very medium of expression.

All-too-faithful naturalism underdistances (why cannot a person of taste stomach, even when he approves of, Dreiser?), and so does not elicit any whole of which it may be a part, nor even that its ownparts are parts of any whole. But it can be so reconciled with overdistanced *style noble* that the one and the other significance are in equilibrium. The different, universal, level of reference supervening on the particular one transfigures the terms in which the reader has up till now perused the work, which therefore amounts to a positive recapitulation. The inevitable implicitness of the word ([1]) is responsible for the creative vagueness of lyrical

---

([1]) Which, be it noted, is as often used to bring into play two other factors, the speaker and his audience, as it is to evoke the things in any other sense that are being talked about; finally, delight is taken in the very Word itself, which completes the three dimensions, 'rhetorical', 'logical' and 'grammatical' respectively, of the trivium.

what he has before him is not a summary done a century later for the *Bibliothèque des romans*: the husband, the former fiancé's brother now admirer in chief, the confidant (bosom friend of the husband), the chief admirer's friend himself become an admirer, from all of which emotional Golconda there emerges at last, at the wrong place, the situation that is to be treated, of that virtue of the heroine which is so palpably of more moment to the confidant (and last and most agonized admirer of all therefore) than to the actually favoured lover. What, then, may be learned from these, or from the ludicrous failure of tone and distance, and entire uncertainty of the subject, in *The adventure of the black lady* (c. 1683) by Mrs. Behn ("About the beginning of last June—as near as I can remember—Bellamora came to town from Hampshire..."), or from the fact that, as a critic complains, in the *Roman bourgeois* (1666) of Furetière things are not "smartly brought before the mind's eye as *being* done, but recounted, sometimes not even as present things, but as things that *have been* done already?"

To answer this question, an examination is necessary of the very resources at our disposal when we represent to ourselves space and time. The only fruitful, because dynamic, idea of space is that it is not something to be taken for granted, not even something whose existence can be pieced together from the objects in it, but something in which those objects really bathe—something that emerges, in fact, only when we construct it as what Piaget calls one aspect of the logic of the world of the senses. In perception, as Bergson once beautifully described, we explore a first confused sense of significant quality or of resemblance, which is as far from generality fully conceived as from a clearly perceived individuality; these two things are then both begotten by dissociation, and the whole process rests (it may be added) on the fact that while immediate reality may be particular things, it nevertheless supposes the general that most *words*, by comparison, are; a statement apparently referring to a particular event is necessarily formulated by, and from the point of view of, someone

just winding through one adventure after another. Picaresque, the wise it call. To say, however, that there is no art in this, on the ground that there cannot be any when the subject-matter is amorphous, would require the dismissal from Parnassus of (e. g.) landscape as well as narrative art. Now, landscape is precisely the kind in which in China humanity has attained to what is, with our Western music, its most indisputable art form. Surely, too, it would be permissible to write about 'the novel'—perhaps of the future—and the art of narrative, even if no one had ever yet written a more or less pure novel, and even if no one could write purer ones than the *Bleak Houses* and *Copperfields* that rather tend to form our English tradition.

II

The art of narrative in prose may be most rapidly learned from cases where it is most obviously lacking, as it was in the pre-primitives, the authors of the long-short *nouvelles* then known as 'novels'. In Congreve's callow *Incognita* (1692), the author never enters into possession of the grammatical art of subordinating one thing to another. When he should be preparing for something to come, he on the contrary anticipates, and he retraces his steps so wholly at random that a flux of relative clauses telescopes any prospect of establishing the several strands of interest, which might have led us to the articulation of a tale. Madame de Lafayette's firstling *Princesse de Montpensier* (1662), again, is no more developed than her meagre vocabulary of the general terms of gallantry would lead one to expect it could be (it is his verbal riches that are the secret of something more than verbal in Proust). No proportion is sought between the (epitomized) past and current history of the protagonists and the scenes that are crying out to be exploited. The adventure on the river, which for two of the participants starts out like "something out of a romance", is not really a *scène à faire* at all. So monumental is the gap between particular and general considerations, indeed, that the reader is left wondering whether

who is looking for another 1789. Both are the victims of a situation that is reflected in the fact that at the beginning of the Second Empire the successful candidates of the baccalauréat were fifteen times as many as they had been at the Restoration. But Stendhal prophesies and does not record, because recording is always after the fact, and when it is done at the time it is prophecy therefore. He never expected to be read till two generations had passed. He, Balzac and Flaubert 'are history' in the several meanings of that phrase.

The humanism of literature, it might therefore be claimed, is enough. But supposing the humanistic discussion of (say) Chamisso to concentrate on what Peter Schlemihl's shadow really was. there is surely still in the book the sheer horror and beauty of form; when Peter comes to in hospital as the anonymous 'No. 12', and his eyes fall on the slab of black marble with his own name in capitals of gold, and he listens to the bidding-prayer with himself as the dead founder and benefactor of the place. The greatest moments of all in literature would still seem to be moments when form is to the fore.

But, it will be objected, as art the novel cannot even be more than a very impure form. This classic thesis is found at least as early as Diderot: the novelist having at his disposal all the time and space he can possibly need, there is no difficulty his merely narrative medium cannot evade, so that necessarily a novel cannot be so good as a play. The fact that three years after this remark, Diderot was to put Richardson beside Moses, Homer and the Greek tragic poets does not affect the logical purity of the argument. In actual fact (to use that as a further demonstration) Stendhal, whose stature as a novelist is beyond criticism, and who beyond anything admired *Tom Jones*, the reputation of which is likewise secure, was what that story (for all its apparent form) also shows its author to have been, namely *par excellence* an improviser. The latest big French book on him admits, and even stresses, that the life stories he related were related by him quite naively, following the chronological order of events, and

A THEORY OF NARRATIVE ART

BY

O. E. HOLLOWAY

I

Discussion of the novel has really never, when it comes down to it, been much more than a discussion of novelists and their novels. Scant is the curiosity as to what ideally they are playing with, as to what is the medium of their narrative art, or what forms of composition to hail as perfect.

To ask for principles of art is not to deny the wisdom, in undergraduate studies, of leaving literature to teach them how to live. The undergraduate body is a social responsibility, and its initiation through the classics into the best and happiest moments of the happiest and best minds is itself as happy as discussion with them of Art in a vacuum would be fruitless. As late as 1937, *The dream of the red chamber* was still first favourite at twenty-two Chinese universities, above the two older classics of the historical novel, and even above Lu Hsün 'the Chinese Gorky'. The novel to-day, it has been remarked, gives to the millions that same sustenance that once was found in Epictetus and Montaigne, but then only on the part of a few hermits like Pascal. Modern literature, however, different in this from the moralists of old, anticipates future problems. "It is clear that such persons", said Dostoyevsky of the imaginary author of his *Notes from underground* (1864), "not only may, but positively must, exist in our society". Take the adolescent of 1830 in Stendhal, of 1848 in Flaubert. The one will probably be a legitimist whose dreams have been rudely broken into by the new aristocracy of finance, and who has been crowded out of the professions with prestige like law and medicine. The other will be a reader of the new history of the old days

moves by a rhetorical schematism controlling him; is not restive. Shakspeare is under no comparable degree of control; has no loyalty to what of a metrical scheme he may appear to have chosen. In his twenty-three 'lines' not once is he willing to have sense and sound terminate together at the end of a 'line'. That (thanks to his easy rule of stressed syllables) he stands midway between North and Plutarch tells us nothing. Nothing has come of this approach.

The one hope, then, is to return to Shakspeare's additions. That they exist is difference. What they are may be, or may reveal, all the difference wanted. Otherwise the opportunity given by so rare an example of literary triplication cannot be taken. But, as it happens, these additions bring something new into the old Plutarch. It is no longer a matter between Antony and Cleopatra, this parade, and no more a matter of politics-through-love. Political complications have disappeared. Love is present, not prospective. New votaries are on their knees: the winds are love-sick and the water is amorous. And so once more Greek tragedy's techniques are successfully exploited, as Shakspeare passes from the particular to the universal, as far as words may be called physical physically exceeding nature. o'er picturing his Venus in words by the fancy which outworks. At last a chasm of difference has split into clear view. The unique Cleopatra's Progress of Plutarch, North, and Roman History becomes Eve's Progress: the bride no longer wears a veil lent for the occasion and is attended by two bridesmaids, but leads a jubilee of Nature. An excess over fact has been achieved —apparently the one obviously important point of difference where so much is identical or similar. No doubt Shakspeare took North's hint: "The goddesse Venus was come to play with the god Bacchus, for the general good of all Asia". Plutarch, who first gave that hint, could not follow what he gave. He was writing as a historian, not a hierophant of the flesh, and thus was the wrong thing for this poetic occasion.

However, the matter of Shakspeare's additions prompts to examine for 'economy'. Words (it is said) should not be idle. From there it is a short step to the doctrine that a word can never be doing too much; that it is idling unless loaded with a complementary secret sense and a recondite literary allusion. But none of our three exhibits knowledge of such modern doctrine. Each has an eye on 'economy', as he understands the business. North, in comparison with Shakspeare, reads loose and extravagant. If that is a sign of prose, Plutarch too should read comparatively loose. In fact, he does not. His composition is tight, from here to there, no waste of words, in transit from topic to topic. He has to use small words to joint his sentences. Shakspeare can, and does, take his advantage. But Plutarch is quite certainly in Shakspeare's class for this lesser economy. Even it might be urged that three epithets (beaten, pretty-dimpled, smiling) are so far implied by the nature of their context as to be superflous for Shakspeare's intelligent readers, and that they serve no more than alliteration—assonance. They do such service indeed. But they may conceivably function for the satisfaction of the greater economy. We have yet to find out what that greater economy is. For the same reason we cannot here draw favourable or unfavourable conclusions from Shakspeare's larger additions already listed. These may be said to retard the description in its development from here to there. But the description has in fact, incorporating the additions, developed from here to there. And the further fact remains, that without the additions Shakspeare would come closer to Plutarch—who is not the poet.

The Shakspeare is 'verse': the Plutarch and the North are not 'verse'. The equal contest has resulted in victory for Shakspeare bound? The record of vers libre is such as to suggest that poets are better bound—and tight. Something should come of this approach. But, while North is certainly free, how far is Shakspeare bound in comparison with Plutarch? Plutarch elects to be bound by his rule of balanced sentences;

like Plutarch and North following; in four periods reproducing his predecessors' divisions of the total description. Summarised these divisions contain: (i) the ship's progress and equipment, (ii) the queen and her fan-boys, (iii) the fair of the crew on deck, (iv) the perfume. But he adds facts and comments against both Plutarch and North, and also omits some comment added by North to Plutarch and some fact common to both North and Plutarch.

His omissions of North-Plutarch fact amount to this, that in the Shakspearian description there are no citherns and no Graces coupled with flutes and Nereids. His omissions of added North-comment are simply rejection of North's editorial foot-notes, (i) howboyes, violls, and such other instruments as they played upon in the barge, (ii) which are the mermaides of the waters; which do not serve as descriptive matter, but as guidance to the English reader less familiar with ancient Greek life.

His additions are by no means so slight as are his omissions, and must be listed: (i) like a burnished throne burned on the water, (ii) so perfumed that the winds were love-sick with them, (iii) made the water which they beat to follow faster as amorous of their strokes, (iv) it beggar'd all description, (v) where we see the fancy outwork nature, (vi) [pretty-] dimpled... smiling, (vii) divers-coloured, (viii) whose wind did seem to glow the delicate cheeks which they did cool, and what they undid did, (ix) tended her i' the eyes and made their bends adornings, (x) the silken tackle swell with the touches of those flower-soft hands which yarely frame the office.

Of these (iv) and (v), and possibly (i), may rank as comment. The rest are facts of the description—so much physical history reproduced in words. And thus at last Shakspeare separates himself from Plutarch and North. He adds to them, and succeeds by plumpness where they are thin and fail? A given poem has an optimum right size? But that, of course, is nonsense. There are no given poems; there is no size until it is brought into the world by its producing poem.

Plutarch (we can say with confidence) is conscious of his occasion for fine writing, intends and achieves a purple passage; is prepared to fetch his colour from Parnassus, though with a certain caution. As for Shakspeare, his ambitions are obvious. Assume these realised, the hows and whys remain to explore.

First, let R.L. Stevenson's estimates of Shakspeare's debt to alliteration—assonance be written, if not off, down, since differentials, not descriptions, is now to be the thing. Plutarch's Greek provided something there for North's attention: πλεῖν... ποταμὸν ἐν πορθμείῳ χρυσοπρύμνῳ; ἀργυραῖς κώπαις ἀναφερομένης πρὸς αὐλὸν ἅμα σύριγξι ... συνηρμοσμένον; κατέκειτο ... σκιάδι χρυσοπάστῳ κεκοσμημένη γραφικῶς; Ἔρωσιν εἰκασμένοι παρ' ἑκάτερον ἑστῶτες ἐρρίπιζον; θαυμασταὶ τάς ὄχθας ἀπὸ θυμιαμάτων.

North, in a tenth of Shakspeare's time, perhaps, and to all appearance in the task's normal confident stride, provides the following: gold... sailes of purple... silver... stroke; sounde... musicke... flutes, howboyes... violls; pavillion of cloth of gold; apparelled and attired; pretie faire boyes apparelled as painters...; Nymphes Nereides; tending the tackle; wonderfull passing sweete savor of perfumes that perfumed. Shakspeare had no monopoly-lien on the letter L in love.

Pass to vocabulary, and see how often (and often, of course, necessarily) North is followed by the poet: barge, poop was gold, purple the sails, the oars were silver, of flutes kept stroke, for her own person, pavilion cloth-of-gold of tissue, picturing that Venus, pretty-dimpled boys, with fans, whose wind, her gentlewomen, Nereides mermaids, helm, steers, tackle, from the barge, perfume, wharfs. So far as we can venture to convaluate the Greek and the English, nowhere Shakspeare seems to stumble upon a word or phrase closer to poetising Plutarch than to prosy North.

As to material content, Shakspeare incorporates almost everything proposed by Plutarch first. Further, he paragraphs

a wonderfull passing sweete savor of perfumes, that perfumed the wharfes side... And there went a rumor in the peoples mouthes, that the goddesse Venus was come to play with the god Bacchus, for the generall good of all Asia.

Finally, Shakspeare:

> The barge she sat in, like a burnished throne,
> Burned on the water; the poop was beaten gold,
> Purple the sails, and so perfumed, that
> The winds were love-sick with them, the oars were silver,
> Which to the tune of flutes kept stroke, and made
> The water which they beat to follow faster,
> As amorous of their strokes. For her own person,
> It beggar'd all description: she did lie
> In her pavilion—cloth-of-gold of tissue,—
> O'er picturing that Venus where we see
> The fancy outwork nature; on each side her
> Stood pretty-dimpled boys, like smiling Cupids,
> With divers-coloured fans, whose wind did seem
> To glow the delicate cheeks which they did cool,
> And what they undid did.
> Her gentlewomen, like the Nereides,
> So many mermaids, tended her i' the eyes,
> And made their bends adornings; at the helm
> A seeming-mermaid steers; the silken tackle
> Swell with the touches of those flower-soft hands,
> That yarely frame the office. From the barge
> A strange invisible perfume hits the sense
> Of the adjacent wharfs.

Of the three pieces that of North alone makes no purposeful bid for relationship with the poetic. North, indeed, exploits one musical technique less honoured in prose than in poetry. But as a translator he should not altogether forget his original document. And he knows his duty to the English reader so well that he is willing to incorporate two footnotes in his text.

αἱ καλλιστεύουσαι Νηρηΐδων ἔχουσαι καὶ Χαρίτων στολάς, αἱ μὲν πρὸς οἴαξιν, αἱ δὲ πρὸς κάλοις ἦσαν. ὀδμαὶ δὲ θαυμασταὶ τὰς ὄχθας ἀπὸ θυμιαμάτων πολλῶν κατεῖχον...... καί τις λόγος ἐχώρει διὰ πάντων ὡς ἡ Ἀφροδίτη κωμάζοι παρὰ τὸν Διόνυσον ἐπ' ἀγαθῷ τῆς Ἀσίας.

This, for present purposes. may be represented in English: So she despised and derided this Antony she came up Cydnus on a craft gilt-pooped, her coloured canvas spread in purple, her rowers striking with silver sweeps in time to flute with pipes and lutes harmonious. Under a sunshade shot with gold she reclined, the queen, adorned the Aphrodite of the picture: lads likening twin pictured Loves stood left and right to fan. Likewise too maids-in-waiting, gowned Nereids and Graces, beauty's pick, these at the steering-oars, those were at the sheets. Marvellous odours from a multitude of incense possessed the banks... And word went everywhere out how Aphrodite made carnival with Dionysus to bless the country.

North presents Shakspeare with this version of Plutarch: ...She made so light of it, and mocked Antonius so much. that she disdained to set forward otherwise, but to take her barge in the river of Cydnus, the poope whereof was of gold, the sailes of purple, and the owers of silver, which kept stroke in rowing after the sounde of the musicke of flutes, howboyes, citherns, violls, and such other instruments as they played upon in the barge. And now for the person of her selfe: she was layed under a pavillion of cloth of gold of tissue, apparelled and attired like the goddesse Venus, commonly drawen in picture: and hard by her, on either hand of her, pretie faire boys apparelled as painters doe set forth god Cupide, with litle fannes in their hands, with the which they fanned wind upon her. Her Ladies and gentlewomen also, the fairest of them were apparelled like the nymphes Nereides (which are the mermaides of the waters) and like the Graces, some stearing the helme, others tending the tackle and ropes of the barge, out of the which there came

ARS POETICA?

BY

D. L. DREW

The metaphysician (What is mind? No matter...) has begun to rub off the fatal itch of definition. But the philosopher of letters, in every text-book and encyclopaedia since Aristotle, still resolutely scratches, till the credulous modern poet fits himself with some professorial hair-shirt before he dares to pen a line. In the old days it was enough to be a lord of language. Simply, if laboriously, one had to possess oneself of a private dialect ranking (by the tests of envy and imitation) significantly superior to the common. Without that possession one was no poet and was saved by no theory of the nature of poetry. With that possession one could be sure that everything else would follow. But did everything else follow? At least it may plausibly be urged in answer that no possessor of that superior private dialect was wholly denied poet's honours. Enough, perhaps, to instance Pindar, the inspired sycophant. The poet's way is indeed pointed him—in practise.

Nevertheless it may be of interest to discuss once more the poetic claims of Shakspeare's Cleopatra-on-Cydnus, desultorily, but with an eye on theory, viâ her genesis. Plutarch and North have to be assembled. And both here repay attention.

Plutarch comes first (*Antony* 26): ... οὕτω κατεφρόνησε καὶ κατεγέλασε τοῦ ἀνδρὸς ὥστε πλεῖν ἀνὰ τὸν Κύδνον ποταμὸν ἐν πορθμείῳ χρυσοπρύμνῳ, τῶν μὲν ἱστίων ἁλουργῶν ἐκπεπετασμένων, τῆς δὲ εἰρεσίας ἀργυραῖς κώπαις ἀναφερομένης πρὸς αὐλὸν ἅμα σύριγξι καὶ κιθάραις συνηρμοσμένον. αὐτὴ δὲ κατέκειτο μὲν ὑπὸ σκιάδι χρυσοπάστῳ κεκοσμημένη γραφικῶς ὥσπερ Ἀφροδίτη, παῖδες δὲ τοῖς γραφικοῖς Ἔρωσιν εἰκασμένοι παρ' ἑκάτερον. ἑστῶτες ἐρρίπιζον. ὁμοίως δὲ καὶ θεραπαινίδες

The manuscript comes abruptly to an end with the entry quoted above which is followed by a pious wish "that it will come safely from the hands of Elis Gruffydd a soldier of Calais, to the hand of Tomas vab Gruffydd Vychan at Panty Llongdy in Gwespur in the parish of Llanassaph, Flint in in Tegaingyl".

It found its way from there to Mostyn Hall and is now in the National Library of Wales (Mostyn Mss. 158).

This translatiom covers, with a few omissions, the last sixty nine folios of the Manuscript (620b-689). What happened to the author is unknown but passages like that on p.75 indicate that he had become old and garrulous and that he was conscious of it.

The only other contemporary chronicle which treats the reign of Henry VIII with any thing like the same detail is that of Edward Hall entitled. "The Union of the Two Noble and Illustrate Houses of Lancaster and York", which was first published in1542 and republished by Grafton in 1548 and 1550. Hall's Chronicle reflects the feeling of Protestant London and there are indications that Elis Gruffydd had drawn to some extent upon the first edition of Hall. Elis Gruffydd's chronicle as it goes on certainly testifies to his increasingly virulent anti-papalism, but whereas in Hall's chronicle the king can do no wrong, Elis Gruffydd's natural reverence for the Tudor dynasty is tempered by a scepticism as to the motives which actuate the decisions of kings and a pronounced sympathy for the common people. As the chronicle draws to a close the scepticism and the sympathy become merged in a spirit of apocalyptic resignation buttressed with texts from the old Testament, and apparitions in the sky, of which there were enough and to spare.

An inquest of Lords was called in this Parlt. to indict the Duke of Somerset for treason to some of the council and inciting Sir Miles Partridge to urge the pepole of London to rise against some of the king's Council. This accusation the Lords held over but he was attainted of felony with the two kinghts after a long hearing. On the 22nd January the Duke's head was cut off on Tower Hill.

This winter was very severe and the wind blew in a gale for 14 days from the South west and made such an ebb on the coasts of Spain that rocks appeared which had been hidden till then and according to English seamen coming from there they were still exposed six weeks later.

A great tempest of thunder and lightning blew to the north west on Thursday full moon and Friday 13th January the wind rolling the waves into such a torrent that the high tide at Calais was four and a half feet higher than in man's memory. It broke into the country in several places across the dykes and sea walls and did great damage in Calais and would have done more if it had been night time. On this tide was a shipman called John Bartlett from Calais on his way from the Isle of Wight. The tide was so strong that he was thrown ashore in Flanders more than a quarter of a mile inland above the tidemark. This tide did great damage in Zealand and Antwerp where night had fallen before it came to Holland and also further east where it did great damage.

It also did much damage in England in the marsh in Kent of Shoreditch. According to a Welshman it also did much damage in Flintshire the same day and night.

The 25th February 1550 Sir Ralph Vane and Sir Miles Partridge were hung and Sir Thomas Arundel's head cut off, with that of Sir Michael Stanhope for being in league with the Duke of Somerset. These composed their crime before dying and Sir Ralph said openly that he was losing his life for a fragment of land, not for keeping the counsel of the king's uncle secret.

expelled the ill, and also keeping a sick man awake for twelve hours at least. This affliction made people cry again to God in London and from there it came to Calais where it was very unwelcome, but it performed its mission dauntlessly, visiting both rich and poor while its commission was valid, from Thursday to Tuesday and especially when the moon was full and its course in the Lion. On Friday and Saturday some of the best and worst men in the town died, not so many on Sunday and Monday, and then it abated. The same day it reached Antwerp among the English merchants, most of whom caught it and many of them died but only those who had been in Britain were attacked which greatly amazed the foreigners. Many a stubborn man called on God in his sickness and promised to change his way of life.

It was said among the common people that the Duke of Northumberland was sending frequent messengers to the Earl of Arundel to come to court but he excused himself and stayed at home. In the end the Council drew up letters under the hand of the king ordering him to receive the queen of Scotland on landing which she did at Hastings and rode with great splendour to the Palace of the Bishop of London on the 2nd November. She was well received at Court and on taking her leave rode north with little gold and jewellery, although she received many gifts in England.

By order of the Council and the king a Parliament was summoned at Westminster which ordered Lord Paget into the custody of the warden of the Fleet, and than Lord Arundel to the Tower where Lord Paget was taken that afternoon. The Duke of Northumberland ordered Lord Grey to the Tower where there was little love lost between them, Lord Grey calling the Duke the son of a notorious traitor. The same was done with Mr. Strangways. They were accompanied by Sir Ralph Vane, a man from Kent Sir Miles Partridge who never did a thing to justify his knighthood except for being always ready to play at cards and dice, and who in his youth had been servant to a Welshman called Hari vab Thomas Conwy.

A discourse of the learned Dr. Philip Mallangton on this Luwckri etc. followed by lugubrious reflections on the end of the world see Amos etc. especially the misdeeds of the last two years in Germany where God sent a fountain of blood to burst out of the soil of Brunswick as a sign for us to amend our lives.

This year 1551 nothing happened during the summer and harvest worth recording so I will set down what happened in France.

Towards the end of August the Franch king sent some ships full of thieving soldiers from Britanny to Scilly towards Spain. The ships from the East were coming home from the south and they had heard that some hulks of the imperial power were coming heavily loaded with treasure. These passed through the ysdret ysdjiwrbal (1) which led to the sea of Ockshian (2). The French ships attacked the Dutchmen some of which belonged to the Vrenin pool and others to the great towns of Danzig Lubeck Hamburg Bremen Holland Brabant Zeeland which paid more than a million gold ducats apart from the bars of gold and the ships and their equipment. The Emperor wrote to the French king who said he would not give up anything unless the Emperor released the people taken at Parma.

The Queen of Scots wanted to return from France and the king sent messengers to England asking for a safe conduct.

I had nearly forgotten God's chastisement of the English people. At the beginning of this summer a great pestilence and sudden death appeared in big towns especially London where more than 400 of the most honest died in 24 hours. The London physicians recommended keeping warm for twenty four hours and drinking a whey posset of ale and milk and collecting sorrel leaves and sage with other herbs which brought on a sweat which

---

(1) The straits of Gibraltar.

(2) Mor Ockshan. la mer Occitane (Mediterranean).

On Monday 3rd August the French ambassador crossed to Calais. The king gave him and his retinue 3,550 pounds in gold coin besides plate and the best horses he could find around London. Even so it was said he did not make a haporth of profit but left them behind in England in expenses and gifts. The same was true of the Marquis of Northampton who left his own gifts behind him in France. As soon as he had taken leave of the king he came to Boulogne and sailed for Dover on the 6th August, and then rode to London.

On the 16th August the money was cried down 9d to 6d, and 2d to 2d, 2d to 1d and 1d ½d. So everyone in the kingdom lost half his money especially that which had been minted six years before, which was a great affliction to many. There was much ill feeling between the king's uncle the Duke of Somerset, and the Earl of Warwick who wanted to order the Duke to the Tower because he was opposed to the rest of the Council none of whom dared tell him to come or go because he was a Duke, and it is contrary to usage among lords for a man of lower rank to order one of higher rank to do something against his will, so they all got together to deliberate on the matter and brought it about on Sunday the 8th November when the Earl of Warwick was proclaimed Duke of Northumberland. the lord Marquis of Dorset who married the daughter of the Duke of Suffolk by the French queen, sister to Henry VIII, Duke of Suffolk, Sir William Herbert Marquis of Pembroke. and Sir William Palet Earl of Wiltshire, Marquis of Winchester. The following Thursday or Friday they put the Duke of Somerset and his wife in close confinement in the Tower. On the 16th February Stephen Gardner Bishop of Winchester appeared before the Council in Lambeth and was lawfully derived of his ecclesiastical honours for his obstinate opinions and chiefly for his disobedience to the king. So ended the 4th year of the reign.

On the 23rd March 1550 according to the English count there appeared five rainbows woven together in the west.

have taken the womanly if contrary course as will appear later on.

On the 6th May 1551 the Marquis of Northampton landed in Calais as ambassador to France with six French lords.

On the 25th May an earthquake shook the mansion of an old knight of 80 years old in Surrey called Sir Matthew Brown who was asleep in his chair after dinner. The shock woke him up from his nap. It lasted half an hour or more and people fled from their houses from the dreadful noise of the shaking which extended over a district of seven miles by seven. News reached Calais of an earthquake in the same place the following July.

At the beginning of June there was a great storm of thunder and lightning at Calais which lasted from 6 to 8 in the evening with a great shower of rain. Within three miles of Calais there were hailstones six inches in circumference and many sided so said a servant to the Controller of Calais who was out with his master between Calais and Gravelines. One of them fell on his head like a blow from a man's fist and so dazed him that he nearly fell off his horse. On the 17th an even worse storm of thunder and lightning but no hailstones and a little rain at evening. The men who were watching said they saw a fire bolt falling in kwtter vndur which is by the brewery to the west of the Boulogne gate and smoked for a long time in the mud if the watchers are to be believed, who also saw two pillars of fire in the firmament.

(Monstrosity in Kent at Cranbrooke apparently a Siamese twin. Also another monstrosity with a nose like the horn of a unicorn, etc.)

On the 6th July a great lord of France and his retinue landed in Rye and Hastings to treat of the matters in the commission of the Marquis of Northampton.

On Thursday the 9th the money was depreciated, the shilling to 9d and the groat to 3d. But since the value of the penny or the two penny piece was not understood everyone kept the small money in order to profit by it which was useless.

he was not the only one who did this in Calais for it was common among most of the controllers of the realm. Wherefore God sent ministers to preach his word and threaten vengeance on sinful men which as usual they made mock of.

(The murder of Arden of Feversham).

(Another revelation in Germany—fodder for preachers but stony hearts among the people).

In England there was much unrest and the men of Kent began to gather which the Council heard of in time although messengers were being sent everywhere. These were hedgemen (efrychod?) pedlars and inn keepers, so the gentry arranged for the king to order every justice of the peace to detail people to guard the fords and entrances to the villages. In the cities they kept watch and ward and in London some sackers and canons were placed in the streets and at the gates with men to guard them night and day. Some of the gentry of England, Wales and around came three miles to guard their fields and cattle and the enmity grew daily between the gentry and the commons who had the worst of it first and last. The Council promised to rectify the grievances but when it was due to assemble this was put off till later. The reason was that the lords especially the Duke of Somerset and the Earls of Derby and Shrophshire did not agree. All the lords of the Council were only agreed upon their own aggrandisement in rank and wealth.

The king gave Knoles which had belonged to the Archbishop of Canterbury to Lord Cobham which made Sir John Dudley the Earl of Warwick so envious that he wanted Lord Cobbam to give it to him. He gave no firm answer to the Earl so without warning he sent some of his servants and threw out those of Lord Cobham who whether from cowardice or prudence did not make much to do about it. About the same time the Earl got a manor from a knight in Kent called Sir Ralf Fane in the same way but who trusting in the Duke of Somerset, stoutly opposed him. But in the long run it would have been better for him to

been-none for love or money. Indeed animal flesh was never so dear in the kingdom though there were never so many oxen. cows and sheep. Nevertheless you could not buy fat mutton in the market under 8 shillings so that a poor man could very rarely eat roast or boiled meat this summer. At the beginning of winter there was much talk in England of sending an army to Ireland to defend the miners and appointing captains with Lord Cobham as chief.

At the end of January three big hoys were loaded with guns and munitions and three crayers with spades and mattocks and such stuff and sent to Rye and from Rye to Bristol to wait for the new year.

(War between the Pope and France. Capture of Parma. Emperor offended because it was the key to the roads to Milan Genoa and Germany. He sends aid to the Pope. A battle in which the French lose 4,000 and Mr. Daungiers one of the best French captains who is captured and whom the Emperor refuses to ransom. The French take the offensive and plot against the Emperor).

Letters from the King and Council arrived for the Deputy of Calais Lord Willoughby asking him to send the soldiers who had been in Calais since the surrender of Boulogne to the French with the exception of the gunners and men of the guard, in three ships to go to Bristol. They waited three weeks and more till the wind served and then went on board leaving their wives and children behind them with a large number of wantons and idle women smooth handed of bad habits in great want.

Still this idleness and vanity and sloth did not allow them to live in the Xian faith and they did not continue in a fickle peace because some of the Council ordered them to collect their goods and go to England by a certain time under threat of expulsion. Some complained to Sir John Fogge the Marshal who preferred to spend his time with a whore than with his wife although she was prettier than those he made more love to. But

But he was caught on the border between Flanders and Calais which saved his life at the time because if the Flemings had caught him they would have hung him on account of his being well known in St. Omer, Bruges and Antwerp. But the customs officers and tollkeepers of the towns were very suspicious of him so that the captain of Gravelines detained his wagons which were full of dry pipes, full of harness and other merchandise. Among all this ware was 3,000 pounds worth in gold crowns plate and iockendals. The owner of all these was the king. All were siezed in the name of the Emperor who however great his loss could not for very shame lay suit to a groat of them but had to put up with the loss. In order to conceal the matter from the merchants of worship especially the greater part of the Council who were ruling around the king, Lord Cobham sent the man as a prisoner to England where he stayed for two months and in truth I cannot say what sort of punishment he was given by the Council when he appeared before them but within less than three weeks of his return to Calais a man died there in a room of 12d a day which the Council gave to John Abealle.

At the same time a servant of the Earl of Warwick called York who had taken the mints from the place where the striking of gold and silver was farmed out at Antwerp was stealing money to take to England to depreciate the king's money. He collected a great sum in plate and locendals which he put in barrels and hogsheads mixed up with different wares and shipped them on different ships. But he was detected, the ships were searched and they found 2,000 or 3,000 florins in one or two of the barrels which were all confiscated in the name of the Emperor. So York had to wipe his nose in his shirt and return to England to kiss his uncle and make the king and the realm put up with the loss as they had been doing for the previous six years.

The Council was also making great preparations to get geldings because horsemeat was a byeword for dearness and if everyone had taken to it as they took to beef there would have

Scriptures. He answered them humbly and lovingly with inexhaustible patience. This widened the knowledge of all his listeners but they did not suffer scholars from any nation except France to dispute with them. Where there had been a church of the Augustinian Friars the king allowed three nations to worship God—Italians, Germans and Flemings, over whom as director and chief preacher there was a nobleman who was one of the most godly scholars in Xendom. Yet he is more humble and loving to Christians of England than any of the English scholars because he admitted all nations to his lectures and disputations. The scholars of Oxford and Cambridge took such a dislike and envy to his goodness that they put their heads together to ensnare the saintly man in his teaching. So they brought the most skilful and glib scholar in Sophistry and Logic accompanied by some students to start an argument. They decided to deal with Transubstantiation to which he amicably agreed and after a long dispute and for all their learning and skill he overcame the students of Oxford so that the chief scholar who had abused the man fell on his knees and gave in, while praying God for forgiveness for contradicting the Holy Scriptures and for his misconduct towards the Doctor.

This year the Council started gathering the gold of the kingdom into its own hands and sending merchants to the east to collect all the silver they could steal minted or plate against the Emperor's law whose officers made a strict search. But as the vulgar proverb says 'The pot which is taken to the water too often comes back in bits!' So a soldier of Calais called John a Bealle was overtaken while carrying silver plate and the kind of coins called Iochendals worth six shillings or more in English money because they paid 11 groats and the ounce troy weighed only ten groats and twopence while the merchants of the king's Council paid 20 groats the ounce of pure silver and at the end of this year they would give 15 shillings in groats and shillings for a gold angel or florin which when first issued was only equivalent to 80d of English money.

so infrequently that the strongest were like poor dreary cripples. Also they were hooted and jeered at in every place they passed through and the men and women who lodged them who were forced to follow their debtors 40 or 60 miles to get paid for their food.

When these soldiers happened to get some of their just returns they had to give part of it to the people who had the authority to pay the money so that when they got home it was all spent. The evils were two, the soldiers spending their money recklessly on playing backgammon and cards, on wine and beer and fruit and chalking it up on the walls and in chips and splinters, hoping that on the day of reckoning they would be far enough away for the hosts to be unable to follow them. So all of them were sinning and breaking the law of God which forbids us to wrongly covet our neighbour's goods. All paid lipservice to the law but their thoughts and actions ran contrary to it so that God sent a wind which blew no good to either the debtors or the creditors. Thus they spent the spring, the summer and the harvest which was as the year before, so that flour was very dear throughout the realm.

Discovery of a mine of silver in Ireland which the council decided to exploit with miners from Germany.

Two hundred miners came to Antwerp at Michaelmass and waited for a wind till All Saints day when they came to London where a great many foreigners were coming from France, Flanders, Burgundy, Deutschland, Sarmania who were being driven away because they tried to follow the Gospels. They were allowed two churches to preach in their own language and take communion. One was St. Anthony before called, Golaitsh of which a learned man was the director and chief preacher. In this church there was a godly order—two days for preaching, two days for disputing the matters he had treated of in his sermons, when everyone of the congregation could bring up those faults which their judgement and conscience could not reconcile with the Holy

to Abbeville. That afternoon six young French lords arrived in Calais and amused themselves till Saturday the 12th April when they took ship between 7 and 8 in the morning for Dover. The next morning St. George's Day Earl Huntingdon left. He would have done better to stay in England because he spent not only his own money but the king's to no purpose. On St. Mark's Day Boulogne was handed over to the French and in the afternoon the English lords rode to Calais with all their soldiers and equipment. 29th April 1550.

The king and Council sent letters to Lord Cobham to meet the French and seal the acts and indentures made between the two kings and their loving peoples. He went from Calais very gallantly.

* * *

Lord Cobham rode leisurely to Pinckiney on the 12th May to meet the French king where the documents were sealed with great solemnity and after the usual leavetakings and exchange of gifts he returned to Calais on the 13th May.

The French king sent some of his lords to England. They arrived by sea in galleys during Whitsun and were greated with much rejoicing and triumph. The day before they left they came with four galleys under London Bridge to the King's Court at Charing Cross where they fired guns and threw wild fire at each other as if they were fighting at sea. All this in full view of the king and his nobles. The French were very proud of themselves and said they had not only captured Boul ogne but paid for Calais where there was much disputing between the Picards and Calaisians which would take too long to tell of here. On their departure the king and Council distributed gifts to each of the French nobles which led to the raising of more money than would have been necessary to maintain enough soldiers to keep Blackness, Newhaven, Boulogne Barg and Boulogne itself. All the soldiers from these places were staying at Calais and roundabout as well as in London on wages, although their payday came

'if it had not succeeded I would do it again if I had the chance'. So he was condemned by his own lips and was hung on the 24th.

On the 28th Humphrey Arundel, Bury and two others who were captains of the Cornishmen during the rebelion were hanged, drawn and quartered.

On the 6th February the Duke of Somerset was released from the Tower against the will of some of the Council who had sealed the letter declaring him a traitor so that they did not come to court for a year after. But the king as well as the common people rejoiced greatly at the release of his uncle.

To return to the Earl of Bedford and his council. There was long discussion of the differences between the kingdoms and especially the delivery of Boulogne and its dependencies to the French which was kept very secret. The common talk was that the French would attack Boulogne again and that the king would give up to the Scots all the towns and castles under his rule in Scotland. But the bargain was not successful for as soon as the counsellors on each side agreed a number of young men of rank and wealth were chosen to be hostages.

After much discussion the English Council agreed to send some young lords to France and they landed in Calais on the 6th April, 3 in the afternoon and were accommodated as follows.

The Duke of Suffolk, 14 years old and Earl Hertford eldest son of the Duke of Suffolk ten years old, were lodged at Etaples with Lord Cobham the Deputy. Lord Maltravers, 12, eldest son of the Earl of Arundel and Lord Straiuge, 15, eldestson of Lord Derby, with Master Hall the Controller. Lord Talbot, 26 eldest son of the Earl of Shropshire and Lord Fitzwarren eldest son of the Earl of Bath at the castle with Sir Edward Bray. The rest were put in honest houses where they stayed till Easter Wednesday by which time the French hostages had arrived at the bailey by Boulogne and rode to Calais. The English lords rode to Boulogne between 7 and 8 in the morning and then

But the citizens more by luck than skill fired through the door and sent the bridge up in the air. After this they left the town and the citizens of Constance enjoyed the spactacle of a. just retribution for arrogance. I should not wish this great deed to be forgotten).

Maximilian the son of Ferdinand is married.

There is a paean of praise for the steadfastness of the Prince of Soxony in his captivity.

Eldest son of the Sultan runs off to Peraia and raids Turkey, the Turks collect half a million men to repel the attack. The Persians retreat but there is so much devastation that he loses 100,000 men by starvation and returns himself.

Algiers and other places in Africa are captured from the Portuguese.

There merchants and a boy on their way from Antwerp to Brunswick and singing Veni Creator Spiritus saw a vision in the sky. Also seen by a postman from Lubeck etc. All these visions are a warning. A great false God is ruling called Duwy homen with a new gospel unknown to the prophets and apostles preaching how man can follow both God and the evil of this world.

Because of all these manifestations I pray God to give us the grace to recognise his only son and to suffer all injustice and be faithful to the last hour when on the dreadful day He will come and recognise us before the father and all the angels in heaven amen.

This year on the 20th January two Spanish captains met Gamboa mentioned three or four years ago in this book with another and killed him near Newgate because of an enmity which had developed during the war. He was caught and on being brought before the judge he immediately confessed the outrage saying in Spanish with his hand on his heart 'Here is the heart that planned the deed here is the hand that executed it, and

and all who believed him into debt. Then after having robbed and impoverished many of the people who used to buy and sell his wares he left the kingdom like a false snake. During the war he used to send reports of the intentions of the French to the King of England so that Henry VIII gave him his 'protection' so that none of his creditors dared arrest him and he could come across the sea and wander about France and places as he thought fit, since he had plenty of the king's money to pay his expenses. He would then report to the King of England on the unusual efforts the French were making against the English. He was very assiduous and those who knew his character and habits suspected he was playing the lawyer and taking fees from both sides. But whether he was pulling two faces under the same hood or not, he sent such reports to the Council that they sent Sir John Russell, then the Earl of Bedford, only son to Lord Russell, Lord Paget and Master Peter Sekretrarei who landed on Wednesday the 29th January. Between then and the 2nd February there arrived from Ardres 50 or 60 mean, simple men of little ability.

The 2nd February it rained all day and that morning there arrived Lady Palmer, wife of Sir Henry Palmer who was captain of the Old Man when his brother Sir Thomas went to the war in the North and Mistress Wingfield, wife of the squire Sir Henry Wingfield who was provost marshal in Boulogne.

Mr. Francis Hall the Controller of Calais got leave from the captain of Newhaven for them to go from Calais to Boulogne.

On the 15th February Earl Bedford and the Council of England went from Calais to Boulogne by permission of the Captain of Hampilton.

(There is an account of a surreptitious attack by the Spaniards on Constance while the Bishop and the legates were negotiating. On the loth August the Spaniards overcame the lower part of the town and captured the bridge leading to the upper part.

When a veteran began to talk of the friendship, the comradeship the good order there was among soldiers and men of war in the time of the wars in Spain, Gelderland, Tournai and Therouanne and the two expeditions under the Duke of Norfolk at the siege of Heding, and the Duke of Suffolk at Montdidier then those squires or rascals arrogant, vain reckless, ignorant in their behaviour would drop on him.

'Aha sirs now we must listen to an old man of the king's with a red nose. Bring him a stool to sit on and a cup of beer warmed up and a piece of burnt bread to clear his throit so that he can talk of his exploits at Therouanne and Tournai up to today'. The soldiers passed their time in this insubordination and blindness in the town and country, and the captains were careless about getting their men into proper shape. Instead they spent their time on cards and dice and especially the Earl and his chief captains who started dicing and playing cards as soon as the meal had been cleared away. Although the king and Council had made a daily allowance to the chief captains to keep a good table to help the poor soldiers, they would have died before they could have had either dinner or supper in the house of any one of them. In truth if my heart could record all the ungodliness, bad living and greed among the captains who came to Calais at this time a realm of paper would not suffice to contain all their misdeeds, without any of them ever venturing either on horse or foot across the English pale to look at their enemies.

At this time there was a merchant born in the Guines who married to the daughter of a customer at Southampton, who would have done better to marry her to the poorest tradesman in the town. After his marriage he stayed in Southampton where he acted the merchant so liberally that he ran both himself, his father in law

---

(1) This appears to be Antonio Guidotti, a Florentine banker resident in Southampton who acted as the go between in arranging the resumption of negotiations.

oaths for every dissipation by every member of God's body and the suffering of Christ.

In truth there was hardly one of the common soldiers who was not cutting purses or dipping into the purses of others. This was not surprising because of all the necessitous extravagant men who were sent to Boulogne, Haddington or the places which the English had captured in Scotland. It was by the grace of God that these had been taken out of the hands of the English because of the iniquity of the soldiers, for the house which is not served in love and fear will not stand, nor will the house be without retribution where strange oaths are the rule on the lips of the people. This God revealed to the English people during this time and it is likely to continue unless God send his holy spirit to lead them towards righteousness.

In 1549 all the strongholds in Scotland were lost. After Lord Huntingdon had landed in Calais with his people of all nations, he billeted them in the low country or in Guines and Ham to consume the food and goods of the country. The owners of houses were only half masters of their own property. Everyone spent his time idly, wastefully, unprofitably. There was disagreement and dislike between the foreign and the English soldiers. Each complained of the other with the utmost enmity. Each upbraided the other with the utmost scorn. Thus the English upbraided the Dutch for their drunkenness, the foreigners the Englishmen for their vanity, their whoring, their inability to suffer hardships in time of war. Especially, said the foreigners the English could not lift their heads unless they had beds to lie on and in spite of that they could not put up with heat or cold, and keep the field throughout the year like men strong in the art of war to defeat their enemies. Also everyone despised the apparel of the other. Thus the man in a jerkin derided the man in a jacket, the man in the jacket those who went in gowns, like this 'Ah sr dgèrkyn man whatt wold yow kotting or gwn man'.

reason was that the French and Scots had retaken all the places which the English were holding in Scotland except for Haddington which they had fortified. It was very short of food which could not be brought from England without a large escort which was assembled in Cheshire, Lancaster, York and the north and moved there suddenly. Then they demolished the defences, and retired to Berwick and Newcastle on Tyne with the king's ordnance and his belongings.

So the English army left Scotland after an intolerable loss of men and artillery. They lost more artillery of bronze without counting the pieces of iron than there was in the whole kingdom in the time of Harry of Monmouth, not to speak of Newhaven, which cost the kingdom more than the whole ransom of Richard the Lionheart.

Nevertheless the realm of England must abide by the loss, defeat and distress which was God's penalty for her false life, and the mock which was made and still is made of the men who preached and professed the word of God, and whom the people trampled underfoot more every day from now on. Therefore God laid his stick on their backs more heavily every hour.

As soon as the English army arrived at Newcastle the Germans there were shipped to arrive in Calais in January. On Monday the 29th the Earl of Huntingdon and many gentlemen landed to take up their martial duties such as Marshal. Treasurer. Provost, Controller. Master of the Ordnance with his marshal, treasurer, and controller, and the master gunner. The Earl directed the artillery to take the field as quickly as possible but though the tongue was active the fulfilment was rather delayed. Truth to tell there was not one soldier of renown among them except for Master Audley and Sir James Akrost the captain of Haddington. Under him came captains and soldiers than whom the rakings of hell could not have been worse in their pride and deportment. They were so rooted in vice and so used to sin that they mocked at every godly work. Among them there was nothing but vain

it, but as always the dog who is to be killed is the one who kills the sheep. The indictment was drawn up and presented in the form of a letter from the Emperor, from whom Sir Philip Hoby the English ambassador had just arrived. After much discussion with Lord Warwick and the rest of the Council he went to Windsor as though to report the result of his embassy, and by the force of his eloquence persuaded the Protector to promise to come to Westminster with the king. But on the 6th October shortly after his arrival the Council sent the Protector to the Tower.

On the 1st October by act of the Council Bonner the Bishop of London was pulled down from his high office for his papistry and sent to the Marshalsea.

Now for the men who came to Calais from Blackness, Newhaven and the country round. Many of them were naked and penniless but they were greatly helped by the soldiers of Calais with food, drink and clothes, although very few of them deserved this charity from the soldiers of Calais who termed the soldiers of Boulogne and Newhaven 'y gwyr gowmne' the gowned men. In fact everyone from the three places held up the other to ridicule with senseless envious words. God had realised this long before and threatened to dispossess them for their loose living but most of them set little store by the word and law of God, who punished them for their pride by imprisoning them under a foreign unmerciful prince, so that they might realise their disobedience to God.

As soon as the Council had the body of the Protector in the Tower, which caused the gentry and the commons to grieve, because although he was bad still he paid the most attention to the welfare of the common people of all the Council, they sent in their apparent benevolence men and provisions to reinforce Boulogne and keep it English at whatever cost. They boasted that they would immediately send a large army under the Earl of Huntingdon to retake the Newhaven and its dependencies. But however loud the people talked of making haste to come to Calais they had time to equip themselves between All Saints Day and Xmas. The

take his ship with food into Boulogne harbour would be paid by the king for whatever damage was done to the ship by the French. Then some ships from Sussex, Kent, Essex, Suffolk and Norfolk ventured and this appeased the murmurs of the common people while the large ships were being got ready. Most of the commons were chattering and saying it was the fault of the Lord Protector alone that Newhaven had been lost and they called him a traitor to the king and the realm which greatly pleased his enemies two or three of whom were waiting for the chance to pull the stool from under him and make him fall naked to the ground. The Protector realising this took the king and left Westminster for Hampton Court from which he called on Lord William Howard and the Duke of Norfolk to raise forces to protect the king from the traitors who were trying to abduct him. The Protector meanwhile kept the king out of sight of the guard and most of the servants of the court among whom there arose such rumours that only the sight of the king in person could appease them. Then the Protector moved by night with the king to Windsor Castle by which time Lord William had raised many men in harness.

Now the Earl of Warwick, the Earl of Arundel and the rest of the Council stayed in London discussing the best means of getting the Protector away from Windsor and putting him in the Tower because of common report, which called him a false traitor and shoved all the faults of the Council and the realm on him alone i.e. the different risings, the slaughter of the commons in Devon and Norfolk, his own carelessness and improvidence which lost Newhaven and its dependencies with most of the strongholds in Scotland, and that he was destroying the nobility. It is true that even if these things had happened because of his neglect and laziness nevertheless, if one considers the matter justly, each one of them, even if none dared tell the truth, was equally responsible and guilty of all these things. For not one of them happened without all knowing about them and more over, each one had the same authority to prevent his doing wrong had he wished to use

But as soon as the French realised the shortage of soldiers in Boulogne and that some of the English remained behind after every skirmish, they moved their tents nearer to the pier and launched several violent assaults against it while they had so riddled it with gunshot that it was terrible to see. But whenever the French came to launch the assault the English would have closed the breach and made it stronger than before, so that it was not often that the French returned smiling to their tents. Every twelve hours if the weather served the captain of Boulogne had to send 160 fresh men to relieve the stone tower or the pier. Among them were many anxious to harm their enemies and seize on every advantage. The English noticed how the French went to their beds to recover from the labour of the assaults as soon as the tide had come into the harbour so that no one could cross the water by foot or on horseback. So Lord Clinton ordered a large number of people with horsemen to go to the pier secretly one dark morning and attacked the French, many of whom were asleep, without mercy. The noise of the shrieks of the slain wakened the sleepers who got up quickly and ran to seek shelter from the bailey of Sattiliwn. Many of the French were killed and many more would have been if there had been plenty of men with longbows.

The same day 300 French and Germans were going from Newhaven to Ardres and were met by the soldiers from Guines on the field between Guines forest where they clashed and fought a fierce battle in which according to the men from Guines more than 200 Frenchmen were killed and 40 Englishmen. From that day onward the French were less arrogant and overbearing. Here I leave the events in Boulogne for the moment. Those nobles who were playing bears and wolves with the commons and killing them like sheep came to London at this time and there was great grief for the loss of Newhaven and Blackness. Also the soldiers of Boulogne were likely to surrender the town before long for lack of food, so the Council made a proclamation in the king's name that anyone who ventured to

most of the French army, leaving only the captain Reingraf with 4,000 Germans to contain the men of Boulogne. Men and artillery were ordered to renovate Boulogne Barg to hold artillery to fire on Boulogne and keep them so strait that they could not show their heads outside the town or go from Boulogne to Calais except with the greatest risk in the dark of night.

To the west of the harbour the French built a bailey on the side of the hill directly opposite the Old Man which they called Satiliwn from which they shot fiercely at both towns by a cross fire which greatly inconvenienced the English. Then the French brought some great artillery to the shore and besieged the pier made to protect the harbour which they wanted to close so that no boat would be able to come in. So they filled one of the galleys with large stones and brought her on a dark night close to the pier. When they had got her across the centre of the harbour they pulled out the plugs and let the water in. They did this very hurriedly at high tide, nevertheless the English being resourceful men lightened her of her load by closing the holes directly so that she would float at the next tide, when they dragged her to the lower town in full view of the French who wasted much powder and shot on her.

Shortly before this Lord Clinton was appointed captain of the town. He was a man who ran into danger and risked his body in great undertakings in order to gain the praise which would offset the dishonour and disgrace he had before. He played his part like a brave and noble captain by risking his life among his soldiers, fighting with them face to face with the enemy and courteously thanking and rewarding generously those soldiers who did any brave deeds by a cunning venture while courteously rebuking those who were to blame. Thus he was greatly beloved among all ranks and gave them confidence to defend the town. In truth there was a great deal of misery and sadness among all the people of England which made it likely that they would get no more help from England than the soldiers in Newhaven.

told me that in one corner of the bailey more than forty Welshmen were killed. Many brave men were killed in this assault and for fear of another they abandoned the place as soon as they heard that the French king had captured Newhaven, and moved all their belongings by night to the Old Man where they were very welcome because of the great shortage of men.

I must turn back to talk of Lord John Grey whom I left negotiating with the French king to be released from his imprisonment when I allowed my mind and pen to go astray in recounting other matters. After much pleading, by favour of the king, they were allowed to leave in their coats and stockings with nothing in their hands which pleased him. The next morning the king sent some lords to guard them until the time came for the king to get up and watch them leaving. As soon as he came to the appointed place to look at them they began to dribble out of the gate when the French made all of them take their purses from their girdles and threw them to those who had entered the town and were guarding the gate. If any man or woman came out wearing any good clothes the French stripped them cruelly, and so many left with very little on them at all to protect them from the hoar frost on their way to Calais on the 26 August.

The French entered the town the same day and found copper guns of much value, apart from iron guns and large quantities of salted beef and fish, cheese, and butter and many quarters of wheat, malt, oats and barley, with a large store of gold and silver apart from what they found on the people.

As soon as the king had appointed a captain and men to hold Newhaven and Blackness he sent his train of heavy artillery on in front to lay siege to the Old Man and then came there himself. He ordered a large number of men to take the place by assault in which the English said he lost many of his people. He was watching the attack in person and was said to have been wounded in the leg. From there he rode to Montreuil preceded by the heavy artillery and the greater part of the heavy baggage with

they should be caught sleeping in their beds like men careless of their trust. So as God willed it he disappeared from his rank in the French army and ran without stopping to the bailey on Boulogne Barg and shouted to the sentinels to call up the captains in their harness and arms in hand to defend themselves against the French who were advancing in great strength. After the talk he was pulled into the bailey over the wall.

In a turn of the hand the French came like a plague around the bailey and attacked it fiercely from three sides with their ladders in the trenches, and there was fierce fighting between both the attackers and the defenders. It was said that the women in the stronghold were of great service in defending it, some bringing up stones to the wall, others bringing fresh arms to the men who were breaking theirs in defending it, and some even throwing stones and darts in the faces of the men trying to enter by the ladders. This attack lasted for two hours. Many brave men were killed on both sides especially, so the English said, on the side of the French who, according to their custom took their corpses away with them except for forty, among whom were found men in very richly appointed armour. There was a great deal of blood in many places between there and Montreuil where, if a man from Flanders who was in Montreuil when the news of the result arrived is to be believed, it was as welcome to the ladies and noble girls who had come there from beyond Paris in order to enjoy the first fruits of victory as salt water in ships is to sailors. Similarly it was a great shock to the ladies to hear that their lovers had failed in their venture and were returning unvictorious and many of the more venturesome returning corpses on carts, which put them in great grief and depression. How true is the proverb—after ungodly rejoicing grief comes suddenly—which they realised on this occasion.

After the French had retreated and the day had come everyone went to look for the corpses to bury them. A man called Owain Gwyn who was one of the horsemen there at the time

cattle and 40 or 50 fat oxen belonging to the king. But among all these soldiers there was not a single man sufficiently stout hearted to seize the French and the captain and bind them and take them to Calais or to kill them and carry everything to Calais. This they could have done without hindrance before the dawn of day. There was no such man among them any more than at Newhaven although they had heard the King of France was advancing ten days before he appeared and they had time to have sent 2,000 pounds and as much again to Calais. Moreover after the host came into the Boulonnois they could have sent the money to Calais with the boats which were supplying them with powder shot and wild fire.

But none would admit he had any money. As soon as the people of Boulogne realised that the captain of Newhaven had had to surrender they felt that they could not face an onslaught under the eye and hand of the king for as the old people say, dreadful and fearful is the glance of a king in anger. So they waited the attack on the night of the 1st of May in front of Boulogne Barg. The French tried to take them by surprise. This enterprise the French had been talking of in secret in the court among the voluptuous gentlemen who were pledged to do gallant deeds for their mistress' sake. After all was ready to make their venture they came with many of their ladies to Alvi and Montreuil to amuse themselves while the young squires were risking their bodies in this venture.

They sent their people very secretly to the forest near Hardilow and from there to Boulogne Barg. When the time came at night for the people to move across the river from the French bailey to the appointed places there was among them an English soldier, Carter by name, who had fled from Boulogne to the French because of the unlawful outrages he had committed in Boulogne. As soon as he realised that the French intended to take Boulogne Barg and kill everyone inside, Carter felt sorry for them and endangered himself in order to warn his own people lest

-door in the English pale he would declare war on France, but he said he would not intervene concerning the title to Boulogne and the Boulonnois concerning which there was never any agreement by me to keep them English. The squire had to accept this instead of a proper answer and return to Calais. The English blamed the Emperor greatly for this unfriendliness and rightly, because if he had sent to France to tell him to abandon the expedition until the answer of the Council had arrived there is no doubt he would never have crossed the River Somme. And if Henry VIII had shown himself as unfriendly to the Emperor after the death of Maximilian he would not have been in possession of a single town in Flanders today, but he decided to forget this so that the King of England gained nothing.

The following August 1549 Henry II led a host of 25,000 men, 12,000 in harness, 13,000 workmen besides the baggage train, with all the lords who had been at the coronation, and surrounded Newhaven 5 miles from Boulogne. The captain was Lord John Grey a son of the Marquis of Dorset. After undergoing a bombardment of two days, and realising that he and his people could not keep them out he went out over the wall to the French camp and after a long parley got permission to leave empty handed in their tunics and stockings in the most dishonourable way possible, forgetting the graciousness and kindness shown by the King of England to the French on leaving Boulogne a short time before. But as Caesar says of the nature of the French, they are like lions in victory and like sheep in defeat.

At this time there was a captain at Blackness called Master Brigandein, the son of the chief shipwright of the king, who realising that he could not hold out three hours against the French made a bargain with a gentleman from the host of the French king to treat with the king and leave with all his equipment. He came from the camp to Blackness where they discussed throughout the night behind closed doors with the baggage train ready, horses saddled, the carts ready to go to Calais with the geldings and

which is well known to anyone who is acquainted with the histories of the kings and princes of this country till today. Because of this disturbance the king had to use the army he had gathered to fight the Scots against his own subjects which showed that God was displeased with both weak and strong. This displeasure became more manifest every day from then on as will be shown at the proper time.

As soon as the French king heard of the stirrings and disunion there were likely to be in England between the gentry and commons concerning the common weal and the Christian faith which were falling into decay in Britain he sent 800 French soldiers to reinforce the Scots. At the beginning of July he summoned his lords to assemble at Paris to crown him king which they did in the most gallant way in order that the English should take less trouble in the matter. At this meeting the French went into council and planned to send a force suddenly to seize engill (1) Boulogne or at least Boulogne hill the Old Man and Newhaven. But though they kept their intention so secret the captains of these places heard of it and sent to England to ask the Protector and Council to send 1,000 horsemen and 3,000 footmen to reinforce engill Boulogne or to send an army capable of standing up to the enemy. This the Protector and his Council took very lightly. For this reason the Council of Calais went into session and agreed to send a Controller from Calais to the Emperor's Council in Flanders asking him to be good enough to write to the French king telling him to drop his quarrel with the King of England for the time being in view of the disagreement between the king and his own subjects. To this request the Emperor answered that only Calais and Guines were included in the treaty of friendship between the King of England and the Dukes of Burgundy, that he would maintain this treaty with all his might and promised the squire that if the French burnt one

(1) lit. 'pinions or forelegs'. Here it means the outworks or positions which covered Boulogne itself.

the two counties had fled. They laid siege to it and made an assault by order of their captain who was called Keitt or Kite. Some of the gentry who had come to the town were killed which put Captain Kite and his people in less favour when the time came. After the attack failed they withdrew and pitched their camp and fortified it. From there the captain sent through the country for food especially cows and flocks of fat wethers from the farms of the wealthy which they consumed unsparingly with great show and bragging like fools as they realised a few days later. For as soon as Lord Lisle came with an army and surrounded the camp of these unreasoning people, which was too strong to be taken by assault, he sent some cunning men to talk with the rebels and persuaded most of them to go to the field to talk with Lord Lisle and throw themselves on the king's mercy. By that time the Lord had ordered some soldiers to enter the camp suddenly from the other side and there was a cruel battle, from which none of the commons escaped. More than ten thousand of them were killed and the men of the country were said to have buried more than fifteen thousand corpses from both sides. Then the captain and many honest men were hanged, many of them without deserving it for any harm they had done, and some who had not even raised a stick to go to the field. But God was angry with the people of England for their neglect of his Word and Law which many people had at their finger tips and on their lips, but their acts did not agree with their professions. So as a punishment God sent these pitiless oppressions to consume them and their goods on their doorsteps. Many were so impious as to mock the godly preachers and would not hear of the service of God in English, especially those of the West who rose to establish the Mass and to bring back Cardinal Pole to be on the king's council. But they failed as the men of Kent and Norfolk failed to bring order into the chattels and farms of the nobility as fails the effort of the common people of every kingdom when they rise to avenge their wrongs and set things right with their own hands. They had to abandon the struggle in shame and disgrace and as if that were not enough, to go one living in greater misery than before,

among sheep. After this the resentment of the commons flared into a blaze against the gentry who were despoiling them everywhere. So the commons of Devonshire and Cornwall rose and laid siege to Exeter which the townsmen defended valiantly through the help of two men from Calais who had come there on their way. One of them, Robert Dillon, was servant to the master of the king's ordinance where he had learnt how to make gunpowder of which there was great need in the town and he made enough to fire against the besiegers till help came. For Gray had overthrown many of the commons near Stony Stratford and then went on to Devonshire to meet the Lord Privy Seal who was commander of the king's troops there. Sir William Herbert was also gathering horsemen in Wales to overthrow the rebels. But after he had raised them they would not move one foot over the border until they saw the king's commission under the Seal of the Realm which forced him to wait till it arrived. During this time the Lord Privy Seal saw his opportunity to attack the besiegers before the Cornishmen arrived and killed more than 5,000. Many were killed on the side of the king and council but no one was allowed to talk about them. Early next morning Sir William Herbert arrived with his Welshmen who were given permission to ravage the land as well as the foreign horsemen from Calais under Captain Dgermayn who undoubtedly did great destruction in the country on the goods as well as by capturing people and forcing them to pay ransom like soldiers.

In August the Commons rose in Suffolk and Norfolk. Lord Lisle was sent as chief commander and called on the men of Cleves whose Captain said that the Emperor had given him and his men a commission to fight with the enemies of the King of England, not with his his perverse subjects so Lord Lisle had to send to North Wales, Lancashire and Caerleon for horsemen. In the bustle and hurry some rascals took some artillery out of one of the king's ships which they found in one of the havens on the coast of Norfolk and marched with a great host on Norwich where many of the nobles and wealthy men of

did but others kept them, especially those struck by King Henry before he went to Boulogne. After the king's minters had sorted the better from the worse, whether for the king's profit or their own I cannot say, but the latter was the more likely in the common view because the minters moved about like emperors every day after the king had allowed the depreciation of the currency. The worst coins were sent overseas to pay the soldiers.

During this time the Protector offered to reduce the cost of his upkeep by lowering the taxes on the farms which the new gentry were renting so high that the tenants could not live unless they sold two pence worth of produce for sixpence so that people were getting out of control and likely to rise in many parts of England. But the truth is not all the Council were agreed on the way to deal with these matters. So some of the common people rose in Kent, Surrey, and Sussex under a captain they called Common-wealth and made havoc on the wild beasts in many of the parks in these parts. But they paid for their food in every place.

Then the Council sent for all the horsemen in Calais to go against the Scots. They were about 600 in all from Cleves and Burgundy. The captain of 200 of them was a Spaniard called Dgiermaen. The captain of the men of Cleves had 300 horsemen under him, 100 of whom were on horses which were armoured.

At this time Sir William Herbert made the Mayor of Salisbury muster the townsmen suddenly in the king's name and confiscated all weapons which he took to a stronghouse he had built two miles from the town where there had been a nunnery. Around this he had made a great park on which he enclosed a large field of common land belonging to the people of the town. These rose and came out of the town with spades, hoes, mattocks and billhooks, and broke down the pale and the ditch. The knight, hearing of this came with 200 men in harness who by his order attacked the commons and slaughtered them like wolves

take the king away secretly from the guardianship of the Protector.

The second year of the king's reign Sir Thomas Seymour took many men into service, collected a great quantity of harness and arms and made Sir William Sherington master of the mint in Bristol to coin a great deal of gold and silver for him. For these reasons and by the vengeance of God he was suddenly arrested during the Xmas holiday and taken to the Tower, with Sir William Sherington. Sir William was condemned to death in the Guild Hall on the 9th February and taken to the Tower with the axe of justice carried before him on the shoulder of one of the soldiers facing him. But the king pardoned him as well as those accused except for Sir William Seymour who had to face so many accusations in the Parliament during Candlemass that it would take too long to relate them all. In the end he was condemned to death on Tower hill where in the sight of God he denied having intended any harm to the king's body. But he said on the scaffold 'I have been brought here to suffer death, for as I was lawfully born into this world so I must lawfully leave it because there is some work to be accomplished which cannot be fulfilled unless I am put out of the way'. Then he begged all to pray God of his mercy to receive his soul, fell on his knees, put his head on the block and it was cut off. After his death the merchants and foreigners made a great suit to the council to recover a share of the goods they had seen with their brands and marks in his storehouses but I never heard that any of them got his goods back.

At this time nothing was mending, food and fodder was rising in price, and every day there were promises to amend the coinage, chiefly to appease the common people who were complaining and murmuring in large numbers in all districts within a hundred miles of London.

The shillings were proclaimed at 10d and everyone was ordered to bring them to the Mint by a certain day which many

At the same time through the carelessness of one of the gunners one of the ships caught fire and was burnt out. The English lost heavily, some dying while fleeing across the rocks, others by arms, others by drowning. So the king lost many of his worthiest servants. After this he burnt and looted the town of Dundee with a small number of men with many other exploits which I shall deal with in order.

After the victory in Scotland there was great jealousy among the nobles, especially between Sir Edward Seymour the protector and his brother Thomas who had married Catherine Parr and got her with child. His devotion was such that he would not leave her palace except to come to court and there was no understanding between the two sisters in law because of each trying to get the upper hand, the wife of the Protector being a devil in pride and wanting to be given precedence of the Queen, which the Protector would not allow. So there arose great enmity between the brothers each of whom wanted the greater part of the royal state. Others of the Council were very discontented because they took on themselves to execute matters of state without the consent of the Council. So a lot of talk started that the Lord Admiral and Lord Clinton were chiefly to blame for the French galleys getting back to France from Scotland without molestation. The more so because they did not guard the seas better against the robbers who were spoiling merchant men of all countries on their way across the narrow seas. All these things developed into a large boil ready to break and run out filthily for the word went among the common people that the admiral had tried to kill his brother from rage at having made himself Protector and because everybody was praising him for his victory at Pinkie (1). Because of this the Council took the matter very seriously and waited the occasion to trap the man suddenly when the time came. It was also said at this time that Sir Thomas Seymour tried to

(1) 'ymwsgyl bwrrw' = Musse lburgh or Borough Muir?

the smalls of his legs tied to a ring which was very strongly nailed to one of sides of the ship. In the king's ship there were no more than 32 in all only, two of whom were injured. But in the galley 22 gentlemen were wounded and 4 were killed while some of those who were landed died the same week. The next morning the Deputy sent the lieutenant of the castle and some of the officers of the town among whom I Elis Gruffydd was one, to see to the release of the rowers and bring them ashore. There I saw an old man of 40 at least throwing himself on his knees as soon as he landed and kissing the earth and then he raised his face and hands to the skies and said, 'O Lord of Earth and Heaven to you alone I gave thanks for this freedom to set my foot on earth which I have not done for thirty years. And I also thank his grace the King of England who has set us free from our chains.'

I must say something about Scotland where several strongholds had been planted, etc.

* * *

The French gave up hunting the English ships from the Scotch coast by means of the galleys which could not do any harm to the English ships while they were there. Nevertheless they threatened them frequently in the firth and on the north by St. Munctt where the English landed in defiance of the galleys and set fire to the town killing many of the people. But on the way back many of the English were lost because they had not left the ships in a place where they would be easy to board. They were far below the limit of the high tide and the beach was full of enormous stones which the sea had quarried from the cliffs. The English had to flee across these in front of the Scots who followed them down to the water's edge where hardly one had a moment to get into the boat because of the urgent need for everyone to turn and face the enemy to save their lives. Two or three of the smaller ships came to help and shot among the Scots till they had to retreat a little giving the soldiers time to get on board the ships.

The Bishop of Winchester still in prison for what he preached on the 9th of June 1547.

The building of Haddington).

At the end of the summer the French galleys got ready to return to France. The king's council ordered the king's ships to oppose them and guard the sea. They assembled at Holy Island near Berwick as well as in the south and the narrow seas. Some of the ships which were keeping the Scots sea came under lord Clinton the vice admiral to where the king's fleet was watching eagerly for the galleys but the English confessed they had slipped past unobserved for which the vice admiral got the blame. The galleys kept their course along the coast of England and caught some English ships and did great damage to both men and goods. At last they came to the narrow sea between Dover and Boulogne where on the 11th September the Falcon, one of the king's ships struck on one of the galleys called the Mermaid. The fighting was so fierce that the captain had to turn the rudder to avoid a collision leaving three or four of the sailors who had boarded the galley and were fighting like lions and shouting loudly for the ship to come closer. One of the sailors who heard them jumped and took the rudder from the hand of the captain and shouted to the seamen to be men enough to work the sails and board her again so that they could at least save the lives of the men who had jumped on board. Everyone worked with frenzy and as soon as the bowmen came in range they let fly such a storm of arrows that the men in the galley could not raise their heads and live, so lively and so sharp was the onslaught. This made the chiefs of the galley surrender and because the wind and tide served better to come to Calais than Dover they threw a rope from the stern of the king's ship to the prow of the galley, made it fast and in this way with the help of a ship from Dover she was towed into the harbour of Calais. She was carrying 140 soldiers and sailors all able to fight apart from 184 rowers chained to their seats, each one with a bar on

the wind had fallen and the tide was setting to the west of Ocksian the sailors had to drop anchor and ride there to await the tide. This was about twelve miles to the north of Calais and could be seen in the country round therefore the beacons were lit but the sun was so strong that the flame could not be seen further than the smoke. At first everyone thought they were French ships and they stayed there like a grove of tall trees until the tide was making when they raised anchor, set sail and went to the east, the Spaniards and Portuguese landing in Zeeland.

At 8 in the morning on the following Wednesday the galleys and the French fleet appeared off Boulogne. By ten they were off Calais where the hulks and the Spaniards had turned because the wind had turned against them the night before. There was a splendid view of ships, 300 in the French fleet alone and about 600 great ships in all who took their way to their destination as explained before, the French to the north where they were lying at anchor till Saturday morning when they raised anchor to go on.

On the 8th June the Rindgraf came with his crowd of Germans and French to protect the pioneers and workmen who were making a bailey worth defending to hinder the English from the harbour of Boulogne entering with their ships and provisions. Also at the beginning of this summer Lord Gray the captain of Boulogne was moved together with the best soldiers in the town to the border of Scotland, while Sir John of Brudgius the marshal was made overseer of the town, and Sir Harry Palmer master of the ordnance overseer and keeper of the 'heliwr' instead of his brother Sir Thomas Palmer.

On the 9th June news came to Calais by letter of a great victory won by Lord Grey near Edinburgh where they took 8,000 cattle besides large numbers of horses, sheep and pigs.

(An account of the expedition of Somerset and Warwick and the battle of 'Pinkers' i.e. Pinkie.

After Henry II had been proclaimed King of France on the death of his father Francis, the Council met to consider affairs of state and especially the winning back of the Boulonnois and the rupture of the peace made by the two dead kings, Henry and Francis. The French said the English had broken some of the conditions already, especially by fortifying the castle of Seals and the church of Fiennes. These commanded the road leading from Ardres to Tavarn and would do much harm if war broke out again between England and France, because if the English and Flanders controlled the road Ardres would have to be surrended because there would be no road open to send reinforcements.

In November a thousand Frenchmen in harness descended suddenly on Fiennes with workmen and began to fortify it. The Council was informed of this immediately by word of one of the spearmen of Calais called John Cookson. No glory resulted from this expedition and the captain John Backer was recalled to Guines.

In the second year of the reign Captain Rindgraf came to Fiennes with a crowd of soldiers and speeded up the work. Henry II of France was preparing an army to strengthen the Scots with his fleet which was at sea during April. But the French kept their plans so secret that no one knew whether this army was going to Scotland or intended to descend near Calais to ravage the low country from the safe keeping of Calais, which was opposed by the Emperor and the Council of Flanders who immediately warned the people of Flanders. When the French fleet came in sight of the English they made great beacons on the hills between Calais and Boulogne and one on the belfry of St. Nicholas in Calais and a watch was kept on the coast of England and between Boulogne and Calais, from April to the 4th of June 1547. On Monday a large fleet of hulks and Spaniards appeared to the west of Calais with many Portingals and some other nations, altogether about 300 of them. Because

[After the cessation of hostilities the Boulonnois was farmed out to a hundred Englishmen at 8d the acre.

The Duke of Norfolk attained and the Earl of Surrey executed. The excution of the Duke was postponed and he was 'kept in the Tower, where he still is'.

January 28th 1547 Henry died just in time to save Norfolk from the scaffold.

When his body was opened up all the arteries were found to be swollen and 'there was hardly half a pint of pure blood in his whole body'.]

REIGN OF EDWARD VI

At this time the men of Boulogne, Calais and Newhaven began to build and repair houses and mansions and castles in the Boulonnois. In one of the places Captain Ovden took the castle of Sell or the Cock tower which he fortified. Then the men of Guines took the church of Fiennes to keep the office of the lordship of Fiennes, as English. This the king gave to one of the spearmen of Calais called Robart vab Reinalld from Oswestry, while the men of Newhaven and Boulogne and some from Calais were fortifying Margeisyn and the boundaries of the English pale from Calais to Guines and its dependencies.

(The pulling down of images in churches.

Death of Francis.

Bridge of Michael in Calais carried away by floods).

The French made the fortifying of Seals castle a pretext for breaking the peace. This was most inconvenient since Ardres is between France and Flanders.

(Complaints about bad money.

Negotiations for marrying Edward VI to a Scottish princess).

palace of the bishop of London was prepared to receive him while the cross in Cheap and the conduits were painted in the most gallant way possible. The king made a great feast in his court in Greenwich to receive him on the first night then at the palace of the Bishop of London and then at the court. After much talk and expectation he came to the Thames on the 15th of August in the Sackyr of Dieppe with 12 galleys carrying Mr. Annebault the admiral of France and the Bishop of Evreux and two earls with their contingent of people.

Their coming was much cursed by the gentry within 40 miles of London who were under warning to come to London to wait on the king, because they were very occupied with the harvest and more concerned with their own affairs than with serving the king and the realm. Most of them were the children of clothiers, others of farmers, some even of lawyers and butchers and carters if they had money enough to buy the lands of the monasteries or take them on lease, for the vengeance of God by means of the king had corrupted the ancient gentry of the kingdom. The king handed their means and authority to people who were more negligent and cared less about serving the king and the common good. In general they all put their reliance on the God of the groat and the goods of this world to buy up all the lands belonging to the crown if they were on sale, or on buying offices to fleece the common people. In their way of speaking and deportment they appeared to be gentlemen but boors in their behaviour. And since the branches of no tree can bear fruit better than it is in the nature of the tree to put forth, from now on there arose a great discord and hatred between the gentry and the common people. In the end the gentry came to the court while the triumph was on for the French.

A little before the Earl broke up his army who all returned to England except for those kept to defend Tempylton or Hampulto which the king ordered to be called Newhaven, Blackness and Boulogne barg.

his cause. By permission of the king he got ready as quickly as possible and the King of England sent a noble knight Sir Harry Knevett to present him. Both the knight and the Spaniard arrived at dead of night the day before the battle. The French had ordered a great banquet for the English in which Mr. Knevett had such a surfeit that he died. Still the Spaniard appeared the next morning on the ground before the French king where his challenger was waiting. In front of the French king and the whole crowd the English Spaniard won the victory over the French Spaniard who like a coward cried for mercy. So the French king ordered to intervene between them and he was deprived of his armour and left to stand like a false traitor in his short tunic while to the sound of trumpets and the address of heralds he was expelled from all the parts of France for ever under pain of hanging for his crime and falsehood. To the English Spaniard he sent a gold ring worth 40 pounds in English money and 2,000 gold crowns for his trouble.

Shortly after the Admiral of England and the French Council concluded the matters and sealed the two treaties which had been drawn up on parchment between the two kings and their kingdoms.

(There follows an account of the agreement and the Admiral goes back with the news to England).

But the servants did not praise the welcome and cheer they had on this journey for there was no sign of plenty either for men or animals. And at Montreuil on their way back they were treated very barbarously. Two Englishmen and a boy were killed and while in France itself Sir Harry Knevett died of the surfeit described before.

When the King of England heard that the French king was sending his admiral so gallantly to England he sent to the mayor of London to make special preparations to receive him. Men were set to work to make a working bridge so that he could step from the galley on to the bridge at the gate. And the

Master Wyatt who was a man of great experience in war and had served the king well since the war began and deserved to be captain in a place where his services would be more appreciated. But he was not of the same school as Sir Anthony Brown or a disciple of the bishop so they prevented him from being made captain of Tempylton and instead appointed a lord of the Roman church, a lustful man called Lord Stourton who made more of his mistresses than his lawful wife, and who had never served the king in war before in the army, being as lazy there as in his own mansion.

To the fortress on the top of the hill by Boulogne they appointed a Fleming and at Blackness Sir Richard Candish, with many soldiers and workmen under them.

(The French dauphin has a daughter to whom the King of England is asked to stand god father, and the Admiral is sent to France to conclude the treaty).

On this expedition many knights and squires of the king's household and of his own bodyguard were appointed. There were 500 of them all dressed in scarlet and rich red cloth, the knights and squires in velvet, silk and gold. Each of the gentlemen had gold chains round their necks which hung below their girdles, each one of them more gallant than gelded cocks and each putting his best foot forward. So in this way in the greatest pride and poverty chiefly because of the lack of men of good sense wisdom and experience in negotiating matters between kingdoms at this time they landed at Tempilton and went on towards France. The king heard that a large host of English were coming and the Admiral of England had to wait longer for his answer. At this time two Spanish captains had made a compact to fight to the death because one had called the other a traitor, while they were serving the King of England. And he wished to defend himself before the French king and the ambassador of the King of England. An account of the matter was sent to him so as to send the Spaniard to France to support

500 pounds in the form of a penny rent for every year to him and his heirs for ever, and to Cortpennei 1,000 pounds a year and a month's wages for every captain. So they went very happily through the English land in great haste because they had heard that the German Protestants were raising soldiers against the emperor and his allies, who were threatening to destroy the princes of Germany and the followers of the gospel unless they would accept the bishop of Rome once more as god on earth. So within seven days the soldiers had left, some to go to the Emperor some to the Protestants.

After they had left every soldier was placed under his captain and the tasks appointed for them every day established. After the places had been fortified to resist the enemy everyone was paid his wages and allowed to go home. This made everyone do more work in one day than he had done in three before so that they completed the work until it was strong enough to resist the enemy. Afterwards the earl ordered money to be got ready to pay the people. The king knew of this and sent two members of his council the Bishop of Winchester and Sir Anthony Brown the master of the Staple who were both attached to the faith of the pope and stubbornly opposed to those who loved to read or hear the Gospel whom they used in derision to call Beiblers or Babblers. Nevertheless the king gave authority to these two to place captains and soldiers in each of the three bailies they had built. The day they landed at Tempilton all the soldiers and workers were staring at them open mouthed and one of the people said—Ah sirs what are these men doing this side of the sea. I hope myself that there are none of the people whom they chase and take to be hung or burnt or imprisoned for life—. The two heard these words clearly as well as the shout of laughter that followed. They were so amazed that they stared at each other and at the people without saying a word, but they showed no shame or repentance for their wickedness. The noble earl appointed a young squire called

A few days later 8 galleys came to Portel to supply the bailey by Boulogne from where they could see the English fleet in the anchorage by Ievan where the Earl of Hertford was building the bailey. So the galleys came out under oar and sail to attack the English fleet which quickly got ready and welcomed each with the noise of artillery both great and small in full view of the Earl of Hertford and his army, till sea and land reechoed to the sound, and the sea was on fire with the smoke rising from the ships.

The people of Flanders heard the noise of firing thirty miles away. In this skirmish one of the big galleys came between two of the English ships which pressed her so hard that she had to surrender and was brought to Kent that afternoon and then to London with all the crew. The value of the silver plate, the jewels and the treasure came to more than 2,000 crowns apart from the prisoners. Shortly after, the war was suspended again and the Lord Admiral of England came to Guines, the admiral of France to Ardres, from which they met on the boundary and talked about the affairs of the two kingdoms and agreed to declare peace between England and France, Scotland excepted. This was proclaimed in Calais and Ardres and London the following Whitsun. Shortly after the French broke up their camp and went back to France.

The Earl of Hertford realised that the danger was not such as to justify keeping so many soldiers idle so like a noble captain he announced to the English that whoever was getting 8d or 6d if he was called on to work for the king would get 4d a day more which made the work go on much faster.

Shortly after the King sent letters to the Earl to pay off the foreigners. The treasurer paid them up to the last penny they claimed, together with some gold to cheer them on their way home and to get a good word for the King of England letters were sent to bring Monsieur Gamboa to England to whom he gave as a gift for his trouble 1,000 crowns a year and

the two admirals were daily meeting and discussing, 13 galleys arrived in the narrow sea. Lord Cobham sent one of the king's ships which was in Calais harbour to take letters about their arrival. She put to sea very late and there was so little wind that she was at sea the whole night and the next morning met two French shallops which pursued her to Portel where the galleys were lying at anchor. As soon as they saw what was happening they put out their sails and oars to catch her as quickly as they could. The sailor then turned his rudder towards Calais and in his course met an English shallop on her way from Dover to Calais and in his anger he took her for a French ship and tried to sink her. When he got within gunshot he opened fire very rapidly. The ship was carrying Sir Thomas Seymour the brother of the Earl of Hertford, but like a man in a frenzy he came so close that he nearly ran her down though they were shouting at him in English. At last the captain recognised the knight who was very angry, by the sound of his voice. The sailors then turned the ship towards England. By this time three galleys with some small boats had closed the way so that he could not escape so he turned his ship to the shore and fled to land with his crew in a boat. So the French captured the king's ship called Sackyr. The captain came to Calais and was put in prison as he deserved. The admiral of England was quickly informed about the loss of the ship which the French towed towards Boulogne. He was very indignant and swore violently that he would be equal with them before long, and broke off the talks and rode from Guines to Calais. Then he sailed as fast as he could to Dover, rode to the king and reported the negotiations to him. Then the king ordered him to send more ships to sea and give strict orders to the captains not to fight with any of the French ships except by gunshot. The captains put to sea as soon as possible without many soldiers on board to fight against their enemies who were triumphant.

At the end of February the Spaniards were embarked in the harbour of Newcastle to the great joy of every honest man in the town who praised the Earl of Shrewsbury for the good word he had put in to get rid of them. On the 10th March soldiers began to arrive in Calais from England. On the 20th the Earl of Hertford landed with Lord Bray and Lord Stourton and many knights and squires. When all was ready he took all the people newly arrived from England together with the Spaniards who were lying on a field between Ardres and Guines.

They all marched from the English land with banners flying towards the Boulonnois early on Tuesday morning 30th March 1546 with plenty of artillery great and small.

The pioneers were then set to work to build a ditch around the place. As soon as it was ready they were set to work to make a large rampart to hold a place sufficiently strong to take enough men and artillery to protect the haven of Newport and finished it in five weeks. Four thousand Almayns in harness under a captain general called Cortpennei came there and also a large army of French to the Boulonnois who pitched their tents on the top of a hill to the south of Pont de Bricques. There they set people to work to raise a stronghold to hold men and horses from which they could overlook Boulogne and the greater part of the Boulonnois. The same month men were set to work to build a stronghold to protect the anchorage by Blackness. These three places were set up very quickly. During this time the French and English ships kept their place each looking at the other like the two armies on shore without doing anything worth talking about except digging and raising heaps of earth like the mounds of a badger.

At this time men were trying to bring peace between France and England, and got so far that the two kings agreed to send their admirals to discuss it. They met on the field between Balinggam and Ardres. They discussed the matters which the King of England's secretary had discussed before. But while

In January the King had sent Lord Hertford and Sir John Dudley the Lord Admiral of England to Calais where they went around the upper country looking for a convenient place to plant an army to lay siege to Ardres, and from there to the Boulonnois to find the best place to plant a stronghold to guard the haven of Tempylton which is 6 miles between Calais and Boulogne. After their investigations they returned to England to explain matters to the King. After being told of it and realising that the French soldiers had gone back to France leaving behind them a great dearth of food for men and beasts, the King and Council thought that the Scots would not make any raid on England on their own the following summer, so he sent the Earls of Derby and Shrewsbury with authority to raise enough men to protect the borders from the lands north of Trent and specifying the Spaniards and Italians who were at Newcastle. The Earl of Shrewsbury asked for permission to give his own opinion and said 'In so far as your majesty has seen fit to entrust me with your gracious confidence to protect the north of your Kingdom I pray for your majesty's own welfare that you allow me to do so with the men who are born in this kingdom so that we can understand them and they us. As far as my own country is concerned we are willing and ready to risk our lives in the struggle'. The king was very content and sent to withdraw the foreigners from Newcastle where it was a sad sight to see the ungodly beastly lives they led defiling and corrupting the purity of the girls and women of the town and country until the men of the town rose against them and killed them when any one of them was caught astray. Shortly after they were moved to Calais. The king prepared food from every part of the kingdom to be sent there and a London quarter of wheat cost 28 shillings in English money. The butter, cheese, meat, salt fish, and beer was half again as dear as it had been in England for the previous two hundred years. So it was very difficult for a soldier to live on 9d a day. But as usual the common English soldier got not a halfpenny more.

The King of England had recalled his soldiers from Scotland after having ravaged the best part of Lothian. Then the army was broken up and everyone dispersed except for some Spaniards and other foreigners in Newcastle on Tyne and the border horsemen. This was why the French king recalled his soldiers to France.

The 20th day after Michaelmas the king called a parliament in Westminster of the burgesses from all parts of the kingdoms. It was agreed to level a tax of 8 groats in the pound on each man who had £ 5 worth of goods and on every £ 5 after, 2 shillings in the pound and so on.

Also it was decided that the king should take over all the property of the guildsmen with the chapels, chantries and colleges in the realm. The King and Council spent the winter preparing men and ships to defend the sea and carry an army to Calais and Boulogne. At the end of February a French fleet put to sea to protect the small ships which were going to carry supplies to the fortress by Boulogne. The King knew this well and ordered the admiral not to come to grips with any one of the French ships which astonished the soldiers. It was said that the king had heard that the French had prepared enough wild fire to destroy any ship that came near, others said it was for another reason which I could not find out. So each fleet watched the other from afar and though the wind served the English did not come nearer, but they captured six of the supply ships and took them to England.

At this time an English hoy had to fly from the French to the shore on the east of Boulogne under the guns of the Old Man. A storm of wind from the north-west flung her on the shore in pieces and thirty women and girls were drowned as well as the crew, and with her two other ships full of cattle and fat sheep. Those which were on deck swam ashore but those which were under hatches were drowned.

swore they would never return there again while they lived or anyone who listened to them, because of the bad climate and the brutishness of the people who according to them killed many Frenchmen chiefly for food for men and beasts of which there was a great scarcity, especially after the English burnt Lothian which is the most fertile district in Scotland. As for their lodgings they said there was a yard of horn in each feather in their beds. In this shape the French came in two batches from Scotland to Flushing from which the gentlemen rode to France very gallantly in green velvet jackets with broad crosses of white satin, and were called chevaliers le camp. Shortly after they were sent to Boulogne and Guines where they created a good deal of alarm without doing much. If the English captains had been generous, courteous, skilful sensible men which is unusual in giddy improvident young men the French would not have been so gay in their array.

* * *

At this time the Duke of Lorei (Lorraine) had raised men to recover his towns from the French king while the latter was weaving a web against the King of England. During this time Francis was in Paris getting an army ready under the Duke of Vendome to go to Lorraine, as well as a great host against the King of England to recover Boulogne. In order to achieve this the French intended to build a very strong town and castle on the sea between Boulogne and Calais at Tempylton so that they could moor their galleys in the haven and be able to serve against the English throughout the year when the weather was favourable, and from there to Blackness so that no ship or boat would be able to set sail to cross the sea from Sussex, Kent and Essex towards Calais without being caught, and so close the way between England, Calais and Boulogne. The King of England heard of this plan and sent men to Boulogne and Calais very quickly and suddenly seized these places before the French had taken the field which surprised them greatly.

aforesaid 22 of them were killed in one bunch which led to the loss of many more soldiers from lack of captains. But the council interrogated those who had escaped very diligently to find out who was the first to turn his back and flee. One was discovered and they asked him why he had turned to fly before the two armies had exchanged a blow. He tried to excuse himself by saying that he had turned back because he saw those behind turning their backs on him. The earl caused him to be hung the next morning with two or three of the poor soldiers, more for telling the truth about their captains than for anything they had done against the king.

So the English had to be content and put up with the great loss of men but the exact number who were killed the council of Boulogne would not say.

At the end of February the French king sent a large number of people by land to reprovision the fort by Boulogne which by that time was very necessary.

On the 13th the Bishop of Winchester returned from his embassy to the Emperor to Calais with a covenant for a lasting peace drawn up by the emperor with the French king and his heirs which did not last a minute as will be told at greater length when the time comes. On the 16th the Bishop took ship for Dover and rode to London. Eight days later the French came with a large convoy to replenish Ardres.

* * *

At the end of January the French king sent orders by some of his gentlemen from France to Scotland recalling the captains who had gone there the summer before with 800 men, to France with all the survivors. These sailed to the north of Flanders and landed at Flushing and went from there to Bruges from which all those who could not march or ride, who were the majority, were taken to klevionoor. Most of them were very poor and 200 of them stayed in the hospitals too sick to go on. Many of them died. Those who were left were full of praise for the kingdom of Scotland and the civility of its people. They

of Boulogne in a mass in the one place. So for this and other reasons the footmen had to retreat because of the onslaught of the enemy and because they had to get back to safety before night fell and the tide came up the river. They went towards pwnd bryg (Pont de Bricques) where there was not much room for men to cross the bridge in order and since the tide had risen the footmen and horsemen had to cross together so that many of the footmen were thrown off the bridge and drowned while flying for fear of the French army which was following and killing without quarter.

In order to face the attack the Earl cried loudly on the people to turn and fight but they would not listen and only retreated faster. This made the earl cry out and lament like a man in a frenzy and he begged Sir John of Brudgus and some of the gentlemen who were with him to stick their swords through his guts and make him forget the day. One of the common soldiers who was running at the heels of the earl's horse heard this and told him to turn on his enemies who would finish him off quickly enough as they were doing to all they overtook. After all the survivors of the English army had crossed the bridge they went on to Boulogne which they reached about 9 o'clock at night like defeated men one after the other.

As soon as the Earl and his council had come to the town and taken off their arms and armour they assembled in the council house to draw up letters with the approval of the whole council informing the king and his council of this unhappy expedition. Most sensible men thought it happened because of the lack of any sense of the virtue in praying to God and of trusting in him for the victory, but chiefly because of the Earl their leader, whose head and heart were swollen with pride, arrogance and empty confidence in his own unreasoning bravery. And when they saw that the responsibility lay heavily on the Earl because of his lack of patience and in order to pass the blame from him and his gentlemen they sent for those captains who had escaped, who were the minority because as

No, the Earl paid no heed either to the hand of God and his favours nor to the unwillingness and delay of his soldiers, but in the pride of his folly he gave orders to destroy the stores which were going to the bailey nearby. This the cavalry did like daring men which discomforted the French host so much that many on that wing of the host turned to flee from the seams of the people who were killed. During this time the French destroyed much of the provisions with their own hands.

Then the French footmen advanced towards the English most of whom were veterans from Germany. The Earl arranged his people to receive them. But he did not do it like a kindly, well intentioned captain who kept God in mind to comfort the soldiers with kindly, tender, godly words, and called on God to strengthen the hearts and hands of his soldiers in order to get the upper hand more by the grace of God than his own efforts. This was very far from the Earl's mind who had never followed such teaching though he was a good scholar, because the practice of the captains of this time and generation was to call on the soldiers with vain contemptuous words. And this was what the Earl and his captains did now by beating and shoving the common soldiers forward. One of them called on the earl to hold his hand and let them go on to meet their enemies uninjured, he and his fat captains and the foreigners with double pay as he could see the ravage which they were making better than the common soldiers, and he told him frankly that they were advancing more rapidly than was justified by their pay and rations. This caused a lot of talk among the English so that the Earl ordered the captains to go forward. In the shock the handgunners on each side fired together and after firing had to retire behind the line in order to load their guns to fire again. The ignorant cowardly soldiers saw this as well as those who had never before seen two armies in the course of joining battle, so they turned and began to flee which greatly encouraged the enemy and made them as cruel as wolves among the sheep. Thus the French won the victory over the English and killed 22 of the best and bravest captains

because the English had not been paid for nine months. So they had to take what they could from the king's storehouses, where it had been kept too long. The bread was hard and baked with corn and meal which had lost its taste and savour. The salt meat stank when it was taken out. The butter was of many colours and the cheese dry and hard and this was the best they could get from the king's stores, which made most of ths soldiers miserable and reckless. The captains and those who were getting double pay were very happy and lecherous, which caused hatred and envy between them and the common soldiers.

However all obeyed to the orders of the chief captain, some to guard the town, others to take the field. On Thursday morning Sir Rafe Eldercard took the cavalry to reconnoitre the French and they charged fiercely on the French horsemen, killed the waggoners and destroyed the food. By nine o'clock the footmen were coming out from Boulogne to the field. The marshal saw the French host advancing in full battle order, 7,000 footmen in one 'battle', from fear of whom the English cavalry had to retreat towards the Earl of Surrey and his footmen. Among them were many obstinate men who did not wish to fight and were very late in advancing to meet the enemy for they were following their captain like geese following their leader in single file so that when the head of the column was on the field the tail was still in the town more than two miles away. When the marshal met the Earl he explained to him fully why they could not fight the French for lack of footmen and he urged the Earl to keep to the trench which the French had dug the year before.

But the Earl would not listen to him and he wanted nothing better than to turn on them and fight but not like a saintly godly soldier who would put his trust and hope in God and look to victory more from the intervention of God than from the strength of brutish men as testified by John and Judas Maccabaeus and many other devout soldiers as recorded in the Holy Scriptures.

armour. They made great ravages in the supplies of food and burnt three big ships full of wheat and other food as well as more than a dozen small food ships in the haven. They also burnt the town which contained the breweries of the French king which were filled with food in the pipes hogsheads barrels and vats, and burnt all the houses which had been built to keep the grains of corn to be baked and brewed, and killed a number of people. Then he returned to his stronghold. Shortly after his return some small ships came to provision the French in the big bailey. They landed in Portel and he sent some men during the night to burn them. So the people in the bailey were very short of food till the first Thursday after Epiphany.

(Ravages by the Turk in Hungary all explained by signs in the firmament in Poland taken down by a clerk in Germany called John Cariwn in his chronicle. Martin Luther died on the 18th February who wrote many good books on the relations between the gospel, God and Christians.)

The Sally of the Earl of Surrey from Boulogne (642 ff.) Now the English had destroyed all the provisions sent to le Portel and stored in Etaples the French king could not hold the bailey by Boulogne unless it was supplied, so he raised 10,000 men, horse and foot, most of whom especially the footmen, were Almains to escort the provisions for which the French soldiers had been clamouring for they were in great need.

News of this came to the Earl of Surrey who could have sent for the soldiers in Calais and the Guisnes who were doing nothing, but this his pride would not allow him to do for he wanted the glory for himself alone. When the time came he called the soldiers suddenly without warning and without giving any reason or saying anything which would have raised their hearts which had fallen from sadness and pity at their great poverty. This was for lack of food which was eatable and which would have strengthened them, and for lack of money to buy such food, for there was not a penny in the pockets of the common soldiers

arrange peace between England and France. The King of England sent Stephen Gardner the Bishop of Winchester as ambassador to the Emperor. He landed in Calais on the 7 October and rode to Bruges where he met the Emperor and the French ambassador. But the French ambassador would not agree to make peace unless the King of England surrendered Boulogne and the Bishop answered haughtily and firmly that the king his master had ordered him not to listen to one single word concerning the handing over of Boulogne in exchange or for money, whatever the blandishments offered, except to the prince who would recapture it as he had taken it from French king. So because of these fiery answers there was no more friendly talk between the two ambassadors.

Still at the request of the Emperor the king sent his Secretary Doctor Peter, Dr. Tunstall Bishop of Durham, and Dr. Tergoynion (Tregonwell) who by order of the king requested the doctors from Germany to meet three of the French doctors on the boundary between Ballingam and Ardres. The English set up their tents on the English side, the French on the French side and both came from the Guines and Ardres and talked for an hour after which the talk was broken off and both parties went home. The French did not meet the English again but the German doctors rode once or twice during the week from Calais to Ardres and Ardres to Calais. During the talks at the beginning of December the King of England dismissed all the German horsemen expect for a hundred and as many Italians whom he kept on during the winter and who served him faithfully.

On the 3rd August the men of the English fleet burnt Treport. The King of France and the Dauphin were in a township within 10 miles of Treport and they fled to a castle nearby, leaving their baggage train and all the valuables behind. If the English had been able to venture so far from the ships they could have captured the whole of the king's baggage.

In this month the Earl of Surrey left Boulogne where he had been victorious and rode to Etaples with his people in full

people who knew the real reason the beginning of this obstruction was due to some gentlemen and men from that part of France who put their heads together and raised a large sum in crowns to see if they could persuade the Almains to turn the other way and they preferred to have the gold than venture to wait the onslaught of the French soldiers. These men realised that the French king was hard put to it to face the English soldiers on the sea from Britain to Picardy and that he would not send them any help until the country was destroyed. For this reason they sent some cunning people to treat with the German captains. Now there was not a single Duke, Marquis, Earl or any lord of note among them who would have refused to sell his good name and honour for money. These men made a great confusion in the army so that the captains would neither go on or go back until the end of the month and they demanded a month's wages for each man to go home. And to make sure of the treasurer and the clerk they seized Mr. Fane, Master Arri (Averey) and all the English who were there and kept them prisoner until the King sent his warrant to Antwerp to the English merchants to pay in gold and silver what they demanded. After it was paid they turned back after the captains had filled their pockets double with what they had got from the French as well and the English king got nothing for his money except to be held up to ridicule. And so this expedition finished on the 20th December in 1545 but many of the King's servants did not get home till the end of January.

(There follows a reference to the banding together of the Protestant princes against the Pope and the Emperor and the arrival of the Duke of Brunswick to stop the Germans who were going to support Henry.)

Some of the princes of Germany had forced the Emperor to stay among them but in June he came to Cologne and then to Bruges. On the 12 September the Duke of Orleans died. It was at this time that some learned men from Germany went to

to report to the king the damage made by the French in the low country. No one was less fitted to do so because as explained before he was the first to run away from the enemy. Still by means of letters from the council of Calais to their friends and supporters he made them believe that not more than a hundred Englishmen had been killed as against more than two hundred French, and that the French had not done more than a thousand marks worth of damage. This was one of the worst lies the Council ever made the king believe for the truth was that the French burnt three parishes, namely Olderkyrk, Newkyrk and Hesskyrk where there were seven farms, the poorest of which was worth seven thousand pounds together with five hundred farmers' houses each of which was worth a hundred pounds.

It has already been told how Master Fane, Chamberlain, and Francis Hall went from Calais to Germany till they came to Cologne where they met a man who was a clerk in the ordnance train of the Emperor when he invaded France the year before. According to his own countrymen he was a much better banker than a soldier. At their request he engaged to raise men for the King of England in that part and after each had been given a month's pay in advance to equip himself they began to muster near Cologne and went on to Maestricht.

Every day letters were coming from England to tell them to hurry and after delaying until all the horse and foot were ready and under captains they were led in a day's march into French territory near the castle of Guys where they stayed waiting further instructions from the King of England. Meanwhile Master Hall who was the best English soldier there and in whom the German captains had the most confidence, fell sick. He mounted and rode in haste to Brussels in Brabant. Shortly after he left the soldiers began to dispute whether to go on. Some wanted a month's wages before crossing the boundary into France and others seeing that winter was coming on wanted to return home with their month's wages safe in their purses. But according to

After this I went on quickly to Calais meeting with no one till I came to Peters Church within a mile of Calais. There I found the lord Howard second son of the Duke of Norfolk beating and buffeting the poor soldiers some of whom were sick and had neither boots nor stockings, others hatless and a large number without a single weapon in their hands. He was driving them to pursue the French, who about seven in the morning had sent the firelighters to make a torch of the town of Waaldam as a sign for the people of Calais to come there and dine. This was very cunning of Lord de Biez and his council for their whole object was to return scatheless to the camp by Boulogne. So he sent his artillery early across the river and followed with the whole host. But it happened that some English horsemen who were riding along the coast caught the French out of order with many of the people who were lighting fires and searching for booty scattered all over the country. The horsemen charged on these and killed them without mercy. Still some of the footmen took eight of the French prisoners and they were brought as an offering to the Deputy who ordered them to be killed from his sight. He was taken at his word in the cruellest way by heady drunkards and young boys. There was a great deal of talk among the foreigners in Calais about this deed, and the news soon reached the French Council who swore a great oath that they would not spare the life of any Englishman they took prisoner from that day onward and they put the chief blame on Lord Cobham. When he had recovered his wits he was very sorry for the murder and being fickle he tried to excuse himself and throw the blame on the others by denying that he had ever ordered them to be killed or said any such words. To try and deceive the French and relieve himself of the shame he caused one of the men who had done this deed to be hanged. Nevertheless the French did not forget it.

As soon as the French had turned back to Picardy and then to France the lord Deputy sent his son Richard Brook to England

with corn and hay and others from hay cocks which shortly burst into flames and so surprised the Marshal that he omitted the speech he should have made to the soldiers except for a few words about obeying our orders to guard the place. Instead he called for a horse and leapt on its back very quickly to go to Calais leaving us there without any oration. We spent the night watching the country burning through the night like a silent thunder. Half way through the night the French began to come back with the booty they had found in the low country and rejoicing greatly. After John of Calais and I realised there was neither bread or drink enough for the people there we had to abandon the house before the French came. One of us had to go and explain this to the Council of Calais and because he could not walk fast enough or run in case of need I had to go with one or two men before day broke. I walked to Bwtthacks thinking to find 200 people there but there was not a single man which made me very angry. So I stopped to consider whether I had better go on along the road to see if they were in the neighbourhood preventing the French from making a bridge across it, or to cross the river. Then I heard a man coming and I waited till he came near and saw that he was alone. I asked him who went there and he answered in broken English that he was a man from the low country born in the parish of Kemp. I asked him where he was coming from. He said from the French camp, where he had been one of those who had been running with the French from one house to the other setting fire to them until the dead of night, when he got a chance to get away and found a mare which he was leading by the rein on his way to hide in the reeds of the marsh by the Johns bailey. Then he told me how the horsemen had not left their saddles throughout the night, and the footmen had been standing, lying and sitting in battle order throughout the night with very little food and drink which was the reason why they had to turn back before midday.

people around them as well as the country burning throughout the night for the French had set fire to a place in Waaldam that morning. So each looked helplessly at the others not knowing what to do, whether to defend the town or go and give battle on the field.

I must explain how I know of these matters both in the country and the town. At this time there was a Welshman from South Wales called Thomas Johns who was captain of the bailey by the bog of Ardres with forty soldiers under him, many of them Welshmen. He fell sick of the hot fever at this time so the Deputy and Council hurriedly ordered me to go to guard the bailey in his place and promised me a reinforcement of 200 soldiers who were lying at Bwtthacks within a mile of the bailey. I had to leave on Monday morning and while I was going from the market to the house to fetch some things, they ordered a paunchy gross stiff man called John of Calais a bad footman to go there. I overtook him two miles south of the town where I happened to stop a boy riding on a mare whom I dismounted and put the man on its back instead and so carried him to the baily where I arrived about 11 in the morning. Shortly after there arrived Sir Simpson vice-marshal of Calais on the back of a mule who came to the top of the bailey where all the soldiers were mustered to hear the order given to him by the Deputy telling them to obey both of us. But while I was looking at the tents of the French beneath the ring of Ardres only a falchion shot away where everything was very quiet and then turned to the left, I saw the smoke of powder and I said 'Well, so the French have come to make their cuisine in the low country!' Master Simpson and John of Calais disagreed violently and said the smoke came from Flanders but I stuck to my opinion and told them that if they had the patience to wait another half an hour they would see more smoke. This was so for in less time than it takes a man to say his pader there were three or four smokes rising, some from houses and barns stocked

that night (1). But if the English captains had been prudent and sensible and as ready to fight the enemy in wartime as all of them were to cheat the king and oppress his soldiers they would have spent that night at Mark where they could have stayed safely because there were many deep ditches between them and their enemies who stayed on the open field two long miles from there. In addition there was a deep canal which the French could not have crossed if someone had had the spirit to break down the two bridges across it. Also from there they could have taken their way secretly along the side of the river and made a surprise attack on the men guarding the fords and roads by which they came through, which would have forced the French to turn back in a hurry. But it is useless to talk of what they might have done for their minds were more set on getting to Calais to preserve their bodies and gold rings than to risk them in fighting againt their French enemies. These were so afraid lest the Englishmen should get between them and the fords that they spent the whole night in the saddle or on the ground for fear of an attack from the English who however preferred to take their ease in Calais. The Deputy caused the gates to be closed at 8 o'clock on Tuesday and there was a poor show on the soldiers around the town—the men out of order within a gunshot of the town, with all the possessions of the country people, the baggage train of the army, the long waggons three abreast which stretched over a mile and all waiting to get inside. If the French had arrived before, they could have taken all the baggage of the army and the country as well, together with the waggons and draught animals and cattle with very little loss. And if they had had the men they could have filled up the ditches and scaled the walls of the town by means of the waggons and provisions, for the Deputy and Council were bewildered and helpless at seeing the

(1) This is the fight described by Mon. luc, who criticises the French for not having followed up their victory which would have enabled them to take Calais.

horsemen to pursue the enemy on their way back they would doubtless never have come nearer the low country than Brennard. But the Council did neither and only sent the horsemen in haste to hinder Lord de Biez and the whole French army.

Before they got as far as the lordship of Mark the French horsemen had taken their course burning and ravaging the two parishes of Harmai and Newkyrk and had proceeded to a large field between the parishes of Newkirk and Oy and had pitched a strong camp with the horsemen on both sides of the main battle of the footmen and between each horseman there was a hackbuteer and a large number of Dutch horsemen trained in the use of guns and lances. Some of the English rode out to skirmish on light lively geldings to try and break the ranks which they failed to do because of the fierce fire from the battle of both the horsemen and footmen. So they had to turn back to shelter behind their own horse and foot who were standing within three furrow lengths of the French. Among the foreigners on horseback there were Saxons, Cleves, Almains and Italians to the number of 2,500 and more than 6,000 foreign footmen and there were 8,000 Englishmen in the king's pay although among them were many callow boys, and many captains too weak, cheerless, and senseless to advise joining battle with the enemy.

As soon as the English advanced and some of them broke their lances they expected the foreign horsemen to support them but they did not move a foot so the English had to retreat. As soon as the English footmen saw the horsemen doing nothing but standing in order although the light horsemen were running back from the French who were trampling the earth and looking daggers at the footmen, they began to move back, on which all turned back, each one getting in the way of the other, the horsemen pushing the footmen into the ditches, and the footmen doing the same to the horsemen when they were in the majority. By this time night was falling and the English army returned to Calais leaving the French to do what they would

come, leaving all his soldiers out of order and no captain to support them. All the captains there did the same except Francis Engloeys who got his soldiers together and put them in order to try and make a stand against the enemy. But they attacked so fiercely that they forced the English to break their ranks which they could not have done had there been even three soldiers among them who knew how to keep them in order while they retired to the trenches at their leisure. These were all dry without a drop of water in them and would have been a great help to footmen against the French horsemen. But these realised that the soldiers had no plan so they drove their spurs in and rode ruthlessly through the English and killed them all without taking any prisoners except for Francis Engloes only. Four hundred men were killed and their bodies lay on the face of the earth with dogs and wolves and birds gnawing them for six weeks after. Even then many were left unburied.

To return to the English in Calais and the Guines who were so wise as to think themselves too strong for the French to do more than look at them and retreat after they had revictualled Ardres. They were so careless and improvident that they undertook no preparation to defend the town, rather the contrary. When the council of Calais realised that the French host had pitched its camp near Balinggam they put their heads together and decided to send all the horsemen from the low and the high country to skirmish with them on Monday morning when they hurried out towards Guines. But before they were half way there the French were in Brennard and marching towards the low country. So the Council sent hurriedly to recall the horsemen to Calais but in spite of all this stir they had not enough sense to order the captains to muster their soldiers and go to the limit of the low country to be ready to welcome their foes, or at the least to look at them from a distance. This would have so alarmed the French that they would have taken their council back to Ardres before entering the low country. If they had then ordered the

call the chastiser of Boulogne. By this time they had made it very high and strong and able to stand a siege of three weeks before being relieved. So Lord de Biez thought the time was ripe to make his expedition into the low country in accordance with the counsel of the two lying traitors Peltsh and Bartholomew.

He left some people to guard the bailey and came with the rest of his host, banners flying, to the English ground in Guines. This was known to all the king's captains in Calais, Guines, etc., but not one of them would cross the threshold to hail the French though they had heard of their intention to destroy the low country as was reported hourly by the captain of Gravelines. But they would not believe him. Then on Sunday afternoon the 22nd October the French alighted in the field between Ballingham and Ardres. They stayed till midnight and then moved to the north of Ardres but as near under the artillery on the wall as they could. Then they went to Haynives through the lordship of Brennard, and on to a great common field which belongs to the parish of Olderwick which is separated by a small stream from Olderkyrk in the English ground. There the French put themselves in order and sent several footmen along the ditch to attack a bailey of turf on that corner of the English ground, while another part were to follow the horsemen who were trying to cross the stream to a road going from Olderwick to Olderkirk near the bailey of Krabler. After all was ready they advanced very gingerly which was quite unnecessary because they found both the baileys empty except for the wife of the gunner in the further one, and set them on fire. Then they ran west to help the horsemen to cross the river. All this they could have done before because on that day there was a fair at Burbrw (Bourbourg) in Flanders and most of the country people were there. As for the captains they were in Calais except for two or three. One of these was Master Brook a bastard of Lord Cobham who as soon as he saw the French crossing took his horse and galloped to Calais to tell his mother, his father I should have said, that the French had

the common soldiers were compelled to lie in the low country where there was great shortage of bread and drink. When they did come to Calais to fetch provisions and ask for help and advice the captains drove them out of the town with foul words as the Deputy Lord Cobham often saw and heard, but whether from indifference or the hand of God which fell so heavily on the common people, the Council never said one word against the captains whatever complaints were made against them and their misdeeds. Some believed it was because Lord Cobham and the Treasurer had a crew of people in wages under them and wanted to put the profit in their own purses though it was unlawful. So neither Deputy nor Treasurer would punish any of the captains who were defrauding the king and his subjects for it is not in the nature of the wolf to punish the foxes for killing the sheep. In fact no one defrauded the king as much as the men in command, for there is no doubt that if they had done their duty properly they would never have allowed the vain senseless captains to stay night and day in Calais spending the soldiers' money on their own desires, since most of them took the money in advance.

During this time Lord Gray Captain general of the soldiers in Guines, Ham and the borders of Calais fell sick. His appointment was a pain in the bowels of Lord Cobham who made a great suit to be chief of all the captains and soldiers in the low country. This made many of them neglect the king's affairs, one was as bad as the other, for jealousy and greed were so predominant that not one would do good to anybody. Because of this sickness Lord Gray had to come to Calais for change of air and to try and get rid of his disease. Sir Edward Bray was sent in his place to be as it were lieutenant and draw more pay without doing anything for it.

To return to the camp of the French king which was covering the workmen who were building a bailey on the west of Boulogne which the French call 'koreckoor Boulogne' and which I shall

English received them as warmly as before for it is their nature till now always to do more for foreigners than for their own nation and to put their trust in those who serve them more for money than for love.

It is certain that all the captains from England in Calais, Guines and the vicinity took things as merrily as the heart of man could desire, eating and drinking of the best, spending the time in cards and dicing, each one with his oaths, blasphemous in the mouths of people who called themselves Christians, and plenty of shameless whores on whom they spent all their own money. But their whole object was to go home wealthy, if by no other way, then on the wages of their men, who were the palest and weakest and the least able to look after themselves that ever came out of England till then under the name of soldiers. They were too wretched in body and too weak in sense to be soldiers under a lot of feckless boys who were sent to school to learn to count money and become auditors rather than soldiers, and learn by the hardships of wind and rain, heat and cold and frost, to be ready early and late to serve and achieve honour and glory for the king and his realm as the captains of old who achieved their victories by determination, and did not rely only on their own bodily efforts but used their own goods to help the soldiers in their need instead of stealing what was their due, and their praise and glory is frequently referred to in the histories of foreign countries.

But it is hardly fitting to talk about the deeds of those who preferred honour and glory and the affection of weak and the strong to wordly wealth when the so-called chieftains of this time were so changed as to prefer it to God and his creatures. All the captians desired wealth quite shamelessly without bothering where it came from. And as far as taking pain and trouble in the service of the king went, the only pain they took was to lie with whores in their beds at Calais until dinner time which they took at the table of the Deputy or one of the Council of Calais while

the Emperor and the French king. This stronghold would have been a great buckler to protect the low country from the onslaught of the French who could only injure the English land by the district of Braincard and the parish of Olderwick. The council of the Emperor had dismissed a certain Steven Peltse from his captaincy in Olderwick where he was supported for three years without daring to enter Flanders because of the blood-money due for a man he had killed in Twrnehaan, and because of the understanding between him and the farmers in the English pale, he came to Oldekyrk where he offered to serve the King of England under Sir Edward Grey. His terms were the pay of three men or 18d a day. But the knight refused and put off the matter from day to day. The people of the country said that he would have agreed readily if he could have got a penny a day out of it for himself. So he told him positively that he would not give him more than 6d a day upon which he went to the French at Ardres who received him with joy and paid him more than 2/- a day. He consulted with the traitor Bartholomeo and Lord de Biez who on the advice of the two false captains got ready to lay waste the low country near Calais which the two lying-traitors promised to do with 10,000 men. As soon as he got his wages captain Bartholomeo put off paying the vitlers in the low country and the Guines until Sunday the 16th. About midnight he roused some of the soldiers to go and set an ambush for the French. Some protested that it was no time of night to go about such a business. But he made them get up and dress and follow him from Guines to Margeisyn where there were 5,000 French on horse and foot to meet him lest the English captains followed after as they did when Captain Morus fled. Then Bartholomew went to Lord de Biez who received him very kindly and sent him on to the French king. But the common soldiers did not get much of a welcome and most of them returned to the Guines. I could not find out why they returned whether from a cunning wish to do harm or because their wages were higher under the English than the French king. Nevertheless the

Ruisbanck. The same month Charles Duke of Suffolk fell ill in the isle of Wight where the king was among his soldiers. There was a sad look on strong men some of whom were suffering from the ague, some from the plague, some dying of the black pox and the pestilence. Among them were many apprentices and craftsmen from London who were delicate and disliked lying on the ground and on planks, and sometimes in straw and so were the more open to infection. The Earl of Surrey brought the news of the death of the Earl of Suffolk which distressed the king greatly, and with reason, because of his courtesy and ability, for he was the flower of all the captains of the realm and had the necessary patience to control soldiers. Besides that he was of the same age of the king and been in his confidence since his childhood.

The king and Council now realised that they could do no more damage to the French king in the north of France, from the shortage of English soldiers to face the French and Scots in the north besides protecting Calais and the south all of which had to be guarded. So the king sent three squires from among his servants to Germany to raise men on horse and on foot and lead them into France from the East. These three, Francis Hall, Vane, and Chamberlain arrived in Calais with their commission at the end of August and went on towards Deutschland. After the Earl of Surrey had taken a muster of all the deformed people who had arrived he went on to Boulogne to take over his post.

The 9th of August the Italian captains were paid their wages. Among them was a certain Bartolommeo whe had spent the winter with his people in the parish of Aldermarei or Olderkyrk. During this time he spied out all the ways by which he could lead a host of enemies to ravage the whole of the low country round Calais, and after making his bargain with Monsieur De Biez was only waiting the time to fulfil his evil design.

There was also a good soldier, captain of the church of Olderwick at Brennart in Artois while the war was on between

spectacles in a man who intends to pursue righteousness and honour. But the highest of that world have gone to earth with their ancestors. Instead God sent a swarm of people cunning, profane, senseless, unmanly, cowardly, great their fear, greater their desire for worldly wealth, respect and honour, but I leave this in the hand of God to amend when he sees fit to do so.

You may remember that people were dying of the plague in Boulogne where the captain, Lord Poynings fell sick, some said from the plague others from the hot ague, others from sorrow because the king refused to send him 3,000 soldiers from England to drive the French from the fort they were building. Anyhow he died on the eve of the 21st of August and because of certain dropsical symptoms his body had to be buried shortly afterwards as secretly as possible. But however secret they kept his death an English soldier heard of it (the English said he was a Welshman but no matter) who was so disloyal to his king and country that he hurried across the river as fast as he could to the French camp where he told Lord de Biez that Lord Poynings Lieutenant of Boulogne was dead. So for joy the French rang his knell with fifty cannon shots from the French bailey at the upper and lower town on the same day, and on every day of the following week. The talk went among the ignorant soldiers that Lord Poynings had gone over to the French and some went so far as to dig up the hole in the place where he was buried in the sight of the crowd and found only an empty coffin. This increased the talk among the ignorant people who preferred the false to the true. At the same time a horseman from England was caught trying to cross to the river to go to the French camp who admitted that as many as fifty of them had pledged themselves to escape and serve the French.

After hearing of the death of Lord Poynings the king immediately sent the Earl of Surrey eldest son of the Duke of Norfolk as Lieutenant at Boulogne. He landed in Calais the 27th August about 11 at night and spent the rest of the night at

days, from the 21st July to the 12th of August when there arose enough wind from the north east to carry the French fleet to Normandy. The English fleet intercepted the rear and captured or sank thirty French ships large and small. But three galleys from Flanders came with this wind to the narrow seas and met a ship crossing to Calais and followed it so close that the sailors had to beach her between Sandgatte and Whitesands bay. Because of the boats from the galleys which were rowing after them they had to abandon her and fly ashore for help. The boat boarded the ship and took away two anchors and two large ropes which they took to the galley and returned for more and also to set fire to the ship. By this time the sailors had roused some men who were guarding the carcase of a castle at Sandgatte and six of them followed the sailors with hackbuts to the ship. They fired a shot or two at the galley men who turned round and went back to their ship. From there she sailed down the coast of England and met a ship belonging to Sir Thomas Scamer a brother of Queen Jeanne which was full of armed men who tried to attack the galley but she turned tail and fled towards land and fastened the sails fast enough round her and set towards the land between Dover and Folkestone by Hyde and captured a ship full of provisions on its way to Calais. All this happened on Sunday the 24th August.

As soon as the French fleet had returned to Normandy the King of England ordered all the men in harness who were guarding the coast in Kent and Sussex to cross over to Calais. These landed at every tide when the wind served, and among them many a flatfooted crooked ankled, squint-eyed, crooked shouldered, skew headed, unshapely man, unfit to carry arms in fact many admitted they had never carried any. Over these were captains, the dregs, short in body shorter in sense, vulgar, ignorant and young, who like the soldiers wandered about the streets chewing berries as if they were children chewing apples, plums and pears, which is one of the most objectionable and filthy

baked from the powder of grey corn, and old meat which had got spoiled in the air and was fly blown before it was put in salt. Or old butter gone so mouldy and of so many colours that a man had to hold his nose before coming near it, or old hard dry cheese. But there was plenty of savoury bread and food kept for the captains and foreigners who were paid their wages every fifteenth day and received twice as much as the English which created a great deal of rancour and resentment between them. If the people coming and going between Calais and Boulogne at this time are to be believed many more people fell sick from the rottenness of the food than from a fit of fever, and this made people of spirit turn to the French who promised them the highest pay... But as soon as ten or a dozen arrived they were sent to the galleys.

To return to the French fleet lying at anchor in Tre Ieuan. The soldiers in Calais and on the borders heard this soon after the horsemen had mustered with some footmen and gone quietly as if to look at the fleet. They arrived suddenly and found a large number on land some playing, others filling their barrels with water. They killed all they found on shore except 12 who were taken prisoners, broke up the boats and destroyed them. In fact many more could have been destroyed if the captains had taken the advice of the soldiers and people who were familiar with the country. But at this time none of the captains would take advice because none of them intended to risk his body and belongings to do harm to the enemy but their whole thought was how to keep themselves safe and make money. After this the French moved to le Portel west of Boulogne from which it is an open passage to England so that no one could come from Dover to Boulogne and only with difficulty to Calais except for the skiffs which slipped through the fleet with letters by oars and sails at great risk like the gnat from the martins who are its chief enemy because they cannot feed on earth and so have to eat flies and gnats. During this time the weather was so mild that no ship could do anything on the sea. This lasted for 22

from England to Boulogne and two vessels from Calais which was a great help to the French army about Boulogne where there was much lack of food and drink before these arrived. At that time half a gallon of the weakest English beer fetched 8 stivers which was the equivalent of 10d in English money and the bread accordingly.

It happened at this time that one of the quartermasters of the bastile the French were building fled to Boulogne. He said it was because the French captains were always beating him because he did not shoot wild fire into Boulogne to set fire to the houses, which was impossible first because of the range, which was too great, and secondly because the balls had been made many years before and the stuff had lost its power. So he was sent to St. Omer to buy the pills necessary to strengthen him escorted by two French weavers. But in St. Omer he gave his two guardians the slip and went to the low country where he fell into the custody of a captain named Master Brook a son of Lord Cobham by his mistress. He brought him to Calais where he abused the French and showed the marks on his body from the blows they had given him, and told of the dearth in the army before Boulogne and how the French could be driven away. After a reply from England he was sent to Boulogne where he intended to spend his life in avenging himself on his countrymen. This man should have been an example to the captains in Boulogne who beat and pummelled the soldiers and workmen and made them flee to the French who offered 10d a day to each English archer who deserted.

The bread, of which there were five kinds each more bitter and worse than the other, was very hard, and the common soldiers and workmen got the worst except for those who could pay cash and there were few of those for they all got 6d a day and there was so much poverty that it was said many men fell sick and died for lack of food which could be digested. It was an abomination to weak bowels to have to eat hard dry bitter bread

memory and reason and which were occupied iustead by the spirits of forgetfulness, anger, cruelty and unreason. So he paid no attention to the advice of the king but fell to pounding, beating, and even killing the sailors because they could not make the ship move faster to bring him among the enemy which only made them more careless or as the proverb says: More haste less speed, and an angry man will always regret it. So as soon as the ship was under sail and Pliding through the water, while going about on the other tack all the ports being open from the stern to the rudder she took in so much water at one gulp that she suddenly fell over on the other side and sank to the bottom of the sea. The shock when she struck the ground was such as to throw all the people on deck into the sea and only 20 were saved out of 400 apart from 60 men of rank who had gone with the captain to risk their lives in the king's service on that day so as to win their golden spurs, had God prospered the event. All this happened in sight of the king who was very gloomy at the carelessness shown by officers and men.

Still the whole fleet kept on its way against the enemy and when they realised they would either have to receive the onset or make it the French admiral threw over his rudder to turn the ship on the other tack with the wind filling the sails in order to put out to sea. The rest of the French fleet followed suit and sailed along the coast towards Dover. But since the Admiral was dead and there was no one with the authority to order the English fleet to follow they turned back to Carisbrooke.

The French fleet went on to Arundel in Sussex where they landed to get fresh water aud burn the cottages of fishermen on the sea shore. The countrymen rose against them, followed them to the shore and killed more than a hundred before they could get into their boats to go back to the ships. From there they sailed to the bay or inlet between Calais and Boulogne called Angorfa Ieuan and from there to the place the English call Black ness (Gris Nez) where they caught some people carrying provisions

had made that year on the Tyne. Those who were there said it was a royal fleet, as many as fifty great ships apart from those of the king which were gilded in the most gallant way possible. Besides these there were 60 French ships which had been captured at different times, three of the greatest ships in Scotland together with some hoys of 40 and 60 tons. The sailors in Calais said that the English had captured more than 300 French ships since the war began including the fishing boats which was a great loss to the commons of France. But it did not matter to the French king because of the great number of ships in France and especially in Brittany and Normandy where most of the common people make their living by fishing. From among these he assembled a fleet of 300 ships with 26 galleys or galleasses which he sent to the narrow seas at the beginning of July. On the 22nd they were seen off the south of England where they tried to land in Island of Wight. The king and the Duke of Suffolk were there in person with a large force of people. They sent word to the French offering them permission to land to pitch their tents and shake off the weariness of the sea. The French planted some artillery on the shore with the galleys and the galleasses close by to protect the people who had gone to fetch fresh water. They took advantage of this to go further and look for fresh food. Then the men of the island who had been waiting night and day rose and struck at them and forced them to fly back to the shore when it was said that as many as 500 were killed. After this the French fleet weighed anchor and set the sails which they had adorned as fairly as possible, as though they were going to fight and turned towards Carisbrooke where the king's fleet was ready the sails trimmed for action by order of the king himself. The vice admiral an inhumanly taciturn man called Sir George Carew was on board the Mary Rose, and the king told him with his own lips to shut the ports before raising the sails. But he was so eager to move against the French who looked uncommonly as though they could sink the whole of the English fleet, that he lost all patience from his heart and brain which are the seats of

as good a man by birth and with as many relatives in Spain as Master Gamboa, a better fighter and better able to be a head of captains. After a long debate on this matter they came to blows and made a cruel affray in which John Dehaar and many of the Spaniards were killed. And even more would have been killed if Captain Boutcher had not been near, since the English hated the foreigners because the king gave them twice as much pay as the men of his own realm so there was no love lost between them. So this was how John Dehaar ended his life while seeking to do treason to the King of England.

Six weeks later Lord Poynings made a secret expedition to meet the people guarding Etaples which the men of Boulogne found undefended and where most of the people who went off with Captain Morus were killed. Many more would have been killed had the captain of the horsemen of Boulogne been as merciless as he might have been. But he heard that the French in the town had killed a man called Sion vab Sion vab Pritchart vab Adam, who by birth was an Englishman or a Norman since he was born on the island owned by the King of England on the coast of Normandy of a woman of that land and who was one of the king's footmen and at this time was a captain of hackbuteers. On hearing of his death the Marshal made the trumpet sound the Retreat. This was the last expedition made that year by the men of Boulogne against the French, because shortly after they closed in so that they could skirmish at any hour of the day. Shortly after the soldiers of Boulogne began to sicken and die from the black pox or plague. In the opinion of the English the soldiers brought this affliction back with them from Etaples.

In June the king sent letters to all the towns, havens, and harbours of the south and west ordering his own ships as well as those of his subjects to assemble fully equipped at Portsmouth by a certain date. To tell the truth the order was not so urgent as to overcome their slowness but they came at last, 200 large ships besides some shallops and galleasses which the king had

part of the spoil so he sent word to all his people who were in Calais and the villages near to come over the bridge as secretly as they could. So they mustered on Sunday morning and began crossing the bridge one by one. But the captain informed the Deputy of Calais that more than 200 of the Italians had gone away from the bridge so the Deputy sent horsemen to turn them back by persuasion or force. But before the horsemen, most of whom were Italians also, could overtake them they had met with a number of French soldiers at Arques who had come there to meet Captain Morus from the fatigue. He received the French captains with the greatest praise and rejoicing and they did not look back till they reached Etaples where many people were working night and day to strengthen the town to guard the provisions landed there. This was the way in which Captain Morus repaid the King of England for his maintenance and rest during the winter by serving the French king during the summer, where his heart had been during the winter.

John Dehaar tried to play the same trick. He was captain of some Spaniards and Burgundians in the low country. After he and his company had received their wages he hurried to pay the soldiers and when the Burgundians asked for their wages he said mockingly that he would pay them when they crossed the river between the English pale and Flanders. The Burgundians reported this to some Englishmen who told the Council of Calais. They, realising that he intended to cross the boundary, ordered a man who was captain of a hundred and one of the people of the country, called Master Boutcher, to set some men to watch the roads between the low country and Flanders secretly night and day. This the captain did willingly. In the end Dehaar was caught with many of his Spaniards on their way to Flanders across the ditches between Oey and Owlderkyrk. The English told him to stop or go back because they had strict orders not to let him go any further until he had talked with the captain general of the Spaniards. He took it very lightly saying he was

a wise captain, who had been Captain General two or three times under the Emperor himself and a man of great rank in the realm of Spain, where there was not a mound, a hill or mountain which was not a blood relation to Captain Gamboa. There was another Spaniard a Captain Morgan (de Mora) who made a great suit for this post, still the King gave it to Captain Gamboa Danibantte and he came to Calais. The other two captains were very angry with the king for thinking them of less worth than a cripple who had three notable faults which should have disqualified him—first he was insignificant and lame one leg being shorter than the other, and so deaf that he could only hear if he was shouted at so that the whole town could hear within a boltshot of the place where he was in secret. So that though he might keep a secret he could not hear advice tendered in secret. After his arrival the greater part of the captains said openly that the worse of other two would have been better as general than Gamboa and especially John Dehaar because he knew Spanish, French, English and Flemish whereas Gamboa only knew Spanish.

A short time after the captain's arrival the wages were paid to the foreigners who then began to protest their affection for the King of France and to say that they would rather serve under him than the King of England if it were not that the latter paid much better wages. Indeed one or two of the Italians got as much as 40s. a day, while the foreigners got twice the ordinary pay.

But as soon as Captain Morus (de Mora) had received the wages for his retinue he told his soldiers all round that he had heard secretly from one of his relatives who was serving with the King of France that a company of French was coming to Ardres with treasure. To make the matter certain he took Lord Gray's messenger and his passport, with two of the guides to lead him through the forest to the place where the French would be coming. Lord Gray agreed immediately on condition of having

Greeks, Turks, Tartars. Almains, Germans, Burgundians, Flemings who had come there from the French king who was very angry with them for going to have a good time under the king of England who by nature was too hospitable to foreigners. When the summer had come and the weather was fine the French king sent secret messengers to ask them to return to his service and sent gifts to one or two of the captains who were suspected of being in the pay of the French king during the winter to spy a place to do a bad turn on Calais and at any rate to spy out the strength of the country. Among all these nations none was so hard to control as the Spaniards who by nature are proud, unreasonable, quarrelsome, contentious, very scornful and haughty, so there was not much agreement between them and the Italians who are equally proud by nature but who because of their cleanliness and polite manners were more in favour with the Council of Calais. So not a day passed without one or two affrays in the market place contrary to the law and custom of the town. In spite of complaints to the Deputy and Council they would not keep their hands off each other until the regular soldiers of the town assembled in the market place where the Spaniards and Italians were in full combat. The soldiers called on them to hold their hands and go and fight outside in the fields. The foreigners took this as a jest so in feigned alarm they struck down so many on both sides that the proudest had to seek his lodgings. The whole affair was reported to the king in England who took it fairly well and ordered a Spaniard who was a Fleming by birth and descent to be in authority as Captain General over all the Spaniards and to punish them by martial law for the offences they had committed.

This man John Dehaar (de Haro) had been captain of the Spaniards in Guines three years before where he had pleased everybody. He made a great suit to Lord Gray to write in his favour to the king for this office but he had not occupied it long before the king gave it in England to a man who was said to be

freedom to sin without fear of retribution. For a little before this the king had ordered the stews to be demolished so the women scattered over and around London and did much harm wherever they went by corrupting the conscience of the young people by their obscene talk and bold ways as well as by their flouncing coquettish way of carrying their clothes. These descended on Boulogne dressed as gallantly as they knew how in velvet and silk of the finest cloth and the soldiers took them up so that no one could call himself worthy without a whore or two following him from every house like the sheath after the dagger. At this time God showed his loving kindness by plucking them often by the sleeve and calling on them to look around at their fellow Christians, especially the common men who were sent from England by order of the king to work at the fortifications around the town and the Old Man. Among them were many so enfeebled by sickness that they could not obtain the food that their weak bowels could digest. For there was not a morsel of meat to be had except by him who had money to hand or by the captains and foreigners. Thus the food of the common soldiers and workmen was bread, cheese, meat and salt fish from the king's stores, and many men sickened and died from the lack of any supply from the tables of the officers of all ranks. But they preferred cards and dice and mistresses and ungodly whores to giving a penny or a groat out of charity for a man enfeebled by sickness. Indeed the captains spent on vain banquets of food and drink more in one week than would have kept many a strong man alive. But it is hardly fitting to harp on the inhumanity of people at this time for pity, charity, mercy and loving kindness had deserted the hearts of the people of England.

And now to return to Calais Guines Ham and their marches where there were many depraved brutish foreign soldiers from all nations under the sun-Welsh, English, Cornish, Irish, Manx, Scots, Spaniards, Gascons, Portingals, Italians. Arbannoises,

namely lust and gluttony, besides abundance of whoredom and whorers and married people breaking their pledges and living in adultery besides those men and women who swore such rude oaths by the body of Christ and his wounds. Indeed today we admit in our heart that it was as a punishment for her many sins that God took this town out of our hands, for in the time of the French it was no better than Sodom and Gomorrha and no sin of drunkenness and gluttony which was not rampant, like animals without shame or fear in the sight of God and man. Truth to tell no one here was esteemed except according to the size and strangeness of his oaths. For these reasons therefore my advice to you is to watch over yourselves while there is time and shun such sins and lead a better life than in the time of the French. It is certain that the King of England will not be lord of the town much longer, for the word went in the court of my master that there was great shortage here of meat and drink. This I now see to be false for I see here no lack of any sweetmeats however costly, and plenty of ladies and noble girls with every wordly solace to rejoice the flesh!' with which he brought his speech to an end.

It is true the captains of Boulogne kept expensive tables with plenty of the dainties that could be procured from Flanders and England, for the king allowed every great captain a large sum of money every day to keep a table and give food and drink to the poor soldiers. But none of these were ever invited except some of the petty captains, who were proud foul mouthed tyrants full of every ungodly vice. These faults began to blossom at this time among the captains both great and small. Adultery was frequent among them for scarcely one lived with his married wife but kept a mistress or two, an example which was followed by most of those who called themselves gentlemen and plenty of cards and dicing, great false oaths and anger and jealousy.

Especially when numbers of shameless prostitutes came at every tide from England when there was great rejoicing at the

Lord Poynings, Shion Wenlock a man from Elsmere and the master gunner of Boulogne placed a barrel or two of powder at the base of the belfry and blew it up, burning also the church and the house which had been cleared of its contents.

After this he returned to Boulogne where he was greeted with affection as he deserved.

At this time Lord Poynings heard through a spy that the French captain of Hardilow whom the Earl of Hereford had left behind when he made the French flee towards Montreuil without driving him out of his hold, was in the habit of hunting daily with hawks and hounds around the castle. So he sent some soldiers to lie in ambush for him a few days later and captured him without loss.

Shortly after an old herald came from the French king to ransom the captain. It was said in France that there was the greatest want and scarcity in food and drink and money at Boulogne. So the herald was kept some days in the town and given the greatest welcome. He was taken from the house of one councillor to another and given so much hospitality that he could see there was no truth in the rumours of the scarcity.

He recalled these while he was sitting at the table of Lord Poynings and he suddenly sat back without eating or drinking or speaking. This made one of the men opposite him bid him take heart and be merry and ask him why he was so sad 'If it is because Boulogne is English, your sadness is senseless for this is only the change of fortune which we see in this world and especially in the course of war'. Then the French herald said:

'Aha Boulogne Boulogne, ever till today thou wast a town full of delights and of voluptuous people who ever loved to hold feasts and banquets and follow every worldly delight according to their whims and desires, yea and also the chief town in this part of the world for all kinds of sins and ungodly doings, and especially for those two so filthy in the sight of God and man

hovels, they put their heads together and suddenly seized the belfry and a strong church near Tavarn which in three weeks they made so strong that it could not be taken except by bombardment. Lord Poynings heard of this. He was an experienced man of great purpose and design in the art of war and if what was said about him is true the best soldier under the king and the most skilful in accomplishing things, for on his way from Boulogne to Montreuil during the siege he had achieved a feat by his capture of the castle of Hardilow. He sent a trumpet and a herald to summon the commander to surrender the castle before the king's artillery came which would be in three or four hours and if he held out till after its arrival he and his people would be killed without mercy. The fear of this made the captain surrender on condition that they should leave with as much of their equipment as they could carry. This time also he proved his craft for he knew very well that a hundred beasts could not drag a single cannon from Boulogne to Tavarn because of the mud and rain. So Lord Poynings took two trunks of oak which he had fashioned both in form and colour like two cannon of the largest kind. He then hoisted them on a cannon carriage and went quietly with them and some horsemen and smaller artillery and footmen to Tavarn where he arrived early. After surrounding the church he sent a trumpet to summon them to surrender their stronghold and come out before he was obliged be begin cannonading, swearing a great oath that if he had to fire one gun shot and risk his soldiers' lives in taking it by assault not one would be left with enough life in him to piss against a wall. As soon as they saw the train approaching with the two sham cannon they surrendered on condition of being allowed to carry as much as they could with them [1]. Then the English soldiers went in and took all they could carry after which by order of

[1] No mention is made of this device in Poynings' report to Henry VIII. It is said there that he fired the cannon off twice to show they were not counterfeit. S.P.D. 37 Hy VIII 708.

and one of the great guns was being charged either the match or a spark, I do not know which, fell into the powder barrel which exploded in the bowels of the ship.

This made the flame run right through the ship in full view of the king and his nobility who sent orders to the galleys to fire at her under water so that she would sink the faster and disappear from his sight, but it was no use until all the superstructure had burnt to cinders when she sank far away from the shore in a passage ten fathoms deep at ebb of tide. Nothing could be saved of what she was carrying except those people who jumped from her into the sea and had the spirit to struggle for their lives against fire and water, the two cruellest enemies of the life of man. Many leapt into the sea to seek death from the water rather than fire among whom the boats of the ships rescued many alive. This was about the 12th July 1545.

Still the French king ordered the fleet to proceed carefully and keep the sea between Dover Calais and Boulogne which they did diligently till the 19th July during which the French enjoyed the control of the narrow seas because of the galleys and the mildness of the weather.

To return to the Earl of Hereford who after his success before Boulogne and the dispersal of the French army sent Sir John Dudley Lord Lisle and Admiral of England to serve in his post on the king's warrant. In his place he promoted Sir Thomas Poynings now Lord Poynings as Deputy or chief captain instead of second captain. After the Earl had put everything in order under the command of the captain and his soldiers he returned again to Calais where he was greeted with joy by the soldiers and feasted by the chiefs. A short time after he sailed to Dover and then rode to his brother in law the king from whom and such lords of the realm as were present he received a warm welcome.

As soon as the French realised that a new captain had been appointed in Boulogne and that the English soldiers were not in

Not long after there was a great storm of wind and lightning in France which set fire to houses and mansions as well as churches and houses in which were stored powder and materials of war, and the talk went among the common people of Normandy that the King of England had raised devils to do it.

At this time the French king and his two sons were staying at a castle in Normandy between Nienport and Dieppe. Here the fleet and the galleys had come to collect men and stores and artillery in order to make a landing in the Isle of Wight and with the help of the galleys to ravage the coast as far as St. Michael's Mount as well as to force the English to keep their ships in harbours far from the sea and deep inland, while the army before Boulogne was strengthening itself to punish the town. At the same time they intended to build a strong castle above the shore by St. Helen in the Isle of Wight.

It was said that there were assembled there 26 long galleys and 300 ships great and small with cross sails apart from a great ship of the King's called 'y Grawnd diabyl' which was reported to be of 900 tons, and in which there were noted 300 gentlemen of France as well as a large number of common soldiers and sailors all arrayed in the most gallant fashion. The ship carried the treasure to pay the fleet, 600,000 gold crowns, all of which, according to reports from some of the spies, she was carrying to pay the Scots to make war in England. But whether it was so or not is immaterial in view of the explosion which occurred while she was departing and saying goodbye to her owner. When everything was ready and everyone on board they all weighed anchor and set the foresail and sailed here and there within the harbour in front of the king and his sons. Each ship in passing saluted the king with the thunder of guns great and small, and many men were displaying their musical skill on such warlike instruments as trumpets, shawms, sackbuts drums, tappretts and fifes until land and sea re-echoed to the sound. But when the Great Devil was getting ready to depart

of these the men of Boulogne killed before reaching the galleass, which was empty except for the rowers who were chained and many of whom had died from exhaustion while others had been suffocated by the impact of the seas and been drowned inside the vessel. But as many as survived were taken to Boulogne and sent to England, and since the vessel had broken her back in striking the shore all the equipment was carried to Boulogne and the hull was burnt.

During these two seasons the French strengthened the castle of Etaples and spent a lot of money on repairing and building houses in the town which the French king filled with wine and wheat as well as a great brewery because he intended to attack Boulogne again and build the stronghold mentioned above. A short time after he sent 12,000 men on horse and foot who occupied the camp made by Monsieur de Biez before and whose ditches and trenches the men of Boulogne had left untouched. There they pitched their tents and booths and pavilions and then set 2,000 men to work to raise a great mound on the top of the hill opposite Boulogne from which they could damage the houses in each of the two towns and more especially the ships coming into the harbour.

At the same time the galleys and the fleet of the French king were ready to come out to keep the sea. The king of England sent a large number of ships against them which sailed towards Normandy. At the dawn of day they saw first three or four ships, then twenty and as the sun rose more than two hundred which greatly surprised the English and especially the appearance of the galleys on a day so calm with occasionally a breath of wind but otherwise not enough to move the sails from the masts. So the galleys rowed towards the English, then as soon as the wind rose they rowed back and in this way they shot and played base or barriers with each other the whole live long day. Then with the fall of night the English got a light breath of wind which carried them back to England.

But he gave no such commission to the Council of Calais which held the King's treasure so nailfast that they would not disburse a hundred pounds to do a thousand pounds worth of good without commission. At this time many soldiers and sailors deserted and came to Calais to offer their service to the King and were sent to England.

The ninth day after arriving at Dunkirk the wind dropped, the sea was calm and they came driven by their oars to where six of the King's ships were waiting for them in the narrow seas. But narrow as they were the galleys slipped through uninjured since owing to the calm the king's ships were unable to put on enough sail to move anywhere but were stuck like an old man on his stool shaking his stick in his rage at those who were facing him. But God did not intend that they should get back to France unscathed. It happened that a pickard or a big craar belonging to a man from Dover got a breath of wind and he like a brave man set sail and steered his ship as straight as he knew how on to the prow of one of the smaller galleys in front of him. This so upset the men on board who were fearful lest the ship should strike them under water that they did not fire one shot and the vessel sailed so strongly along the side of the galley that all the oars on that side were broken and there she was floating away like a goose which has broken a wing and is still trying to fly. She surrendered very quickly although there were more than forty soldiers alive on her beside the rowers and sailors while in the craar there were only twenty four. This encouraged one of the King's ships called the Rowbark to attack the second from the side. All this was in full view of the men of Boulogne who could see that the galleass would either have to surrender or run for the shore between Hardilow and Daan (Dannes). So the horsemen from Boulogne galloped in haste to the sea shore west of Hardilow where the galleass had been beached, and the French soldiers fled ashore towards Hardilow. Some

admiral weuld not allow the English fleet to join battle until he saw the hulks separating from the French. By this time the French fleet was nearing the coast of Normandy where the chickens of the smallest draught ran from the danger of the English. But in spite of this the English captured fifty French ships great and small filled with provisions which frustrated the object of the French king for the time being and obliged him to allow his soldiers to land and stay along the coast until a better opportunity occurred while provisions were being collected anew from the different parts of France.

About the 20th June the King of England heard that the French king intended shortly to put to sea in great force. To forestall this he ordered some of his ships to put to sea to receive them on the coast between Normandy and Brittany but they were so careless in carrying out the order that they got up either too late or too early so that the French fleet reached the New Haven in Normandy before the English reached the border of Brittany. From this haven four of the galleys you have heard about, two large and two small shot across the sea till they came to the Channel between Boulogne and Dover, when there arose a storm of wind from the west which forced them to flee to Flanders and take shelter in the harbour of Dunkirk 24 miles east of Calais, where they remained for some time waiting for a mild breeze in order to put back to France, where it was thought they had been destroyed which caused great grief until it was known they were in the harbour of Dunkirk. Certain people were sent to look at the excellence of these galleys among them Master John Hussey a soldier of Calais who through his smooth tongue made acquaintance with the captains and led them to the point where if the Deputy and the Treasurer of Calais had given them two thousand crowns, they would have come to Calais and gone from there to England to serve the King, in spite of the rewards they got from the King of France. This would have been a great discomfort for the King of France and a great help to the King of England.

To occupy the springtime the French king sent some men in harness in ships from Britanny to scour the sea on the borders of Britain between west Wales and Ireland. They made several attempts to land in different places between Cornwall and Bardsey to plunder the country. Finally they tried to land in Anglesea. They reached the anchorage at Beaumaris where they tried to land; but all the countryside on the coast was on the alert and came to the coast wherever they saw ships nearing the land so as to close the Menai straits which forced the French to keep to their ships. The excuse they made was that they did not intend to land but only to seek for shelter from the wind. But others said that the weather was fair enough when they came to the harbour and that the storm did not arise until they began to lower their boats to land, when there arose such a storm of wind that they raised anchor, shortened sail and put to sea. Then they continued their course by the north east to the north west of Scotland where they landed with fourteen ships full of men in harness near the castle of Dumbarton, whose lord was the Earl of Olmi, one of whose sons married Mary Douglas the niece of the king on his sister's side. Throughout this spring provisions were brought from all over France to the ports and sent from there to Scotland where there was a great scarcity of food because of the ravages made by the English during the previous summer and autumn. So the French king sent plenty of corn and wine. This was well known to Henry who sent some ships to skim the sea half way through Lent. On Easter morning 1545 they met the French fleet which was twice as strong as the English fleet. Nevertheless the Admiral Sir George Carew ordered all the ships to clear for battle. Still it was said that he was very afraid of attacking because there appeared to be so many great ships coming against them. But as God willed it these great ships were hulks which were gathering salt in the bay and the French ships sailed in among them in order to terrify their enemies. But the crafty wiles of soldiers however cleverly planned do not always succeed and for the reasons given above the English

and the borders, and appeared early before sunrise on the hill to the east of Boulogne.

From here a large number of men on horse and foot descended and went across the river in the places prepared for the footmen to cross. This upset the French because they saw the English were fully ready to fight with them on their own ground so the French captains put their men in order to give battle. A wing of the French army came to skirmish with the English and obstruct them as they came across the hill to the flat and this made some delay, but by then the English horsemen had crossed the hill and were beginning to bicker with the horsemen. The main French battle was beginning to march towards Hardilow and drew the rearguard after it, which made those who were facing the English turn their backs and follow. By this time the French were putting their best foot forward towards Montreuil and there was a good deal of skirmishing between the horsemen on both sides. But when the Earl realised that the French were retiring and did not desire to fight, he would not allow the English horsemen to charge in and destroy them as they could have done, but allowed them to go by and attack the tail of the army where they cut off the greater part of the baggage train including the tents and pavilions and the largest artillery and killed more than two hundred of the French who did not look back till they reached Montreuil, except for the captain who kept the castle of Hardilow. The French king took this venture and fall very lightly.

Still his wits were busy night and day turning over plans with his council of soldiers to try and find out the best way to harm the King of England and recover Boulogne, whatever the cost and whatever the loss and labour and to put enough hemp on the King of England's distaff to keep him busy until the summer came, with light weather and smooth seas when he could put to sea with the full strength of those galleys which he and his friends had been preparing from Turkey and Africa for three years previously.

food as well. But more, together with the food got through to the town so the men of the castle got little praise for their venture.

But in six weeks after the spring began and summer to appear, the roads went hard and dry and the French prepared a number of carts and provisions with a sufficient body of men on horse and foot to escort the victuals to Ardres to defend themselves against any attack. This the men of England did not know and orders came to Lord Grey to demolish and destroy the castle of Owttings and take back the garrison to the place they were serving before, which was done with a will, for both captain and men were sick of the post.

A short time before this the King of France sent a body of twelve thousand men on horse and foot and much artillery under Monsieur De Biez the Seneschal of Picardy to pitch his people and tents in the field to the west of Boulogne, a little nearer to the town than the place where the Lord Privy Seal had lain on his way from Montreuil. He encircled the host with deep trenches against a sudden attack, though the weather was bad for a host of people to lie out on the bare field without bush or brake to shelter them or anything they could hire except what they brought with them. The object of the French King and his Council was to build a bailey of great strength on the top of the hill above Boulogne which would hold men and artillery and from there, failing an assault on the wall, to cannon the English in both the Upper, and Lower Town and the houses as well, and to so rake the harbour that no ship could enter without breaking her belly whether at high or low tide, so that it would be impossible for the King of England to provision the town from the sea.

During this time the Earl of Hereford was at Calais. On receiving the order of the King and Council and after consulting his captains he sent word to Boulogne to be ready at a certain time on the appointed day. Then he gathered all the fighting men, horse and foot, who could be spared from Calais Guisnes

"There was then much want among the soldiers of Ardres and it would have been greater by far, had it not been for the victual that came there secretly from Flanders. For owing to the wet and the distance neither men nor beasts were able to drag their feet through the mud. Still the French sent women who carried food on their heads for thirty miles from there: these the horsemen from Guisnes often overtook, seized the victuals and ordered them not to come there again under threat of having their hair and ears cut off and being sewn in sacks and thrown into the lakes near Guisnes.

At this time the Lord Grey by order of the King took all the soldiers who could be spared from Guisnes, Hams and the low country with four cannon and their trains to lay close siege to the tower or castle of Owttings on the other side of the fortress of Ardres. This was so battered by the artillery that the French had to surrender it to the Earl of Hereford who was there in person as chief of this expedition. After he had seen that the castle was strong enough to hold against the enemy, unless he came with artillery, and after clearing it of the French, he appointed a man called John of Calais as captain over some men to guard the castle for the King of England and hinder the provisioning of Ardres unless the French came in force [1].

They stayed for some time here catching some of the boys and women who were carrying food to the town. A company of French happened to come with food. The people of Guisnes got wind of this and went into ambush in the forest between Ardres and Licques. There the French fell into the lap of the men of Guisnes who struck at them crying their cry in English Kil kil kil. This made the French turn and flee back to Licques. Many of them were killed and captured and a good deal of the

(¹) Our only other knowledge of this exploit is contained in a letter written by the Imperial Ambassador in France to Covos which is quoted in S.P.D. 36 Hy VIII 457.

BOULOGNE AND CALAIS
From 1545 to 1550

BY

M. BRYN DAVIES

The following is a translation of the remainder of the Chronicle written by Elis Gruffydd a 'soldier of Calais' of which the part dealing with the capture of Boulogne by the English in 1545 has already appeared in the Bulletin for May 1949.

The part printed here is remarkable chiefly because of its uncommonly detailed account of the 'bickering' around Boulogne up to 1547, and the raid into the Terre d'Oye, the low country around Calais in which Monluc took part and to which he devotes several pages of his Commentaires. The latter part, dealing with the reign of Edward VI shows that Elis Gruffydd had become more self righteous and more Puritanical. His guarded approval of Somerset and his policy is due chiefly to Somerset's attitude to religion. On the whole however he finds that the policies of those in great positions are only so many more counts in the indictment on the inevitable day of reckoning, of whose imminence he is assured by the many signs in the firmament which he painstakingly records.

One of the interesting features of the latter part of the chronicle, after all his cantankerous diatribes against the cowardice and inefficiency of the soldiers of the time, is a curious piece of self dramatisation when he describes how the younger soldiers jibe at the veterans of the earlier French wars.

This extract begins with the position after the capture of Boulogne by the English, and describes the French attempt to recover it.

CONTENTS

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XII—PART I

MAY 1950

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Fouad I University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to **Dr. Fû'âd Hasanein 'Ali**, Editor of the Bulletin, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

Fouad I Univ. Press, CAIRO
1950





المجلد الثانى عشر — الجزء الثانى

ديسمبر ١٩٥٠

تصدر هذه المجلة مرتين فى السنة . فى مايو وديسمبر . وتطلب من مكتبة جامعة فؤاد الأول بالجيزة . وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى المشرف على تحريرها الدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

مطبعة جامعة فؤاد الأول

١٩٥٠

تأسف الكلية لتنحى الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين على
عن الاشراف على تحرير هذه المجلة بسبب ضيق وقته ،
ونتقدم اليه بوافر الشكر على المجهود التى بذلها فى هذا
الاشراف طوال السنوات الأخيرة .

فهرس القسم العربي

أوجولينو دِلّا جيرارْدِسكا [1]

في جحيم دانتى

بقلم

حسن عثمان

شهدت إيطاليا فى أواخر العصور الوسطى عهداً مضطرباً صاخباً ، سادته تيارات متنوعة فى الفكر والفن والأدب والعلم والسياسة ، آذنت جميعاً بميلاد عصر جديد . وظهر خلال ذلك رجال بارزون أثروا فى حياة دانتى منذ نشأته الباكرة ، فخلق منهم نماذج بشرية ، وأوجد طريقاً للتعبير عن خفايا الانسان ، وحطم الحواجز والتقاليد التى فرضتها العصور الوسطى . كان دانتى بذلك ، وقد عاش حتى مطلع القرن الرابع عشر للميلاد ، أحد بناة العصر الحديث .

من هذه النماذج البشرية التى خلقها دانتى ، شخصية الكونت أوجولينو دِلاّ جيرارْدِسكا ، الذى اشترك فى معمعان السياسة ، وخاض غمار الصراع الحزبى بين الجلف أنصار البابا والجيبلّين أنصار الامبراطور ، ثم غدر به أصدقاؤه ، وخرجوا عليه ، وأسروه ، فمات هو وأولاده فى سجنه فى بيزا . أخرج دانتى شخصية أوجولينو من نطاق السياسة ، وأوضح عنده معانى العنف والقسوة والكراهية والانتقام ، مع مشاعر الأبوة البارة الرحيمة .

استمد دانتى هذه المعانى من الأفكار والعواطف التى جاشت فى صدور أهل العصر ، كما استمدها من ظروف حياته هو . فالويلات التى انصبت عليه ، وحياة المنفى والتشريد والجوع ، والحرمان من الأهل والولد ، الذى فرضه عليه خصومه ، أوجد كل ذلك عنده القسوة والعنف وحب الانتقام .

كانت القسوة وكان العنف إذاً جزءاً من شخصية دانتى المتعددة الجوانب ، وقد عبّر عن ذلك فى آثاره الرائعة . عندما قست عليه بيترا ولم تبادله حباً بحب ، قال إنها إذا وقعت فى يده فلن يكون بها رحيما ، وسيعاملها كالدب عندما يمزح [٢] . وفى الجحيم عامل بوكّا دِلّى آباتى بعنف وقسوة ، لأنه خان قضية الجلف [٣] . وعندما سأله الراهب ألبريجو دى مانفريدى فى الجحيم أن يزيل عن عينيه الثلج المتجمد ، حتى تجد دموعه لها مخرجاً ، سخر به ولم يجب سُؤْله ، واعتبر أن من الكياسة والذوق أن يعامله بعنف وقسوة ، لأنه غدر بالأصدقاء [٤] . وفى الفردوس امتدح دانتى القديس دومنيكو لأنه كان قاسياً على أعدائه [٥] .

وكذلك كان حب الانتقام عنصراً هاماً فى شخصية دانتى . وقد عبر فى آثاره عن لذته ورغبته فى الانتقام . قال فى بعض قصائده إن الانسان ينال شرفاً عظيماً إذا ما انتقم [٦] . وتكلم فى الجحيم عن الانتقام الإلهى [٧] . وجعل فى المطهر امرأة تطلب من الامبراطور تراجان لا العدالة ، ولكن الانتقام من قاتل ابنها [٨] ، وكأن العدالة قد فات أوانها ، ولن يعوضها شىء عن موت ابنها . وفى الفردوس يجعل دانتى الامبراطور جستنيان ينطق بأن الانتقام مجد [٩] . وحتى بياتريتشى فانها تتكلم فى السماء عن عدالة الانتقام [١٠] . وارتفع دانتى بالانتقام إلى الله ذاته ، الذى يغضب من خطايا البشر ، فيسلط عليهم عذابه وانتقامه . وتحوى الكوميديا الالهية كلها معنى الانتقام . فهى تعويض وانتقام مثالى ، قدمه الفنان لنفسه وللناس . وكان فن دانتى ملاذه الأعلى وسط زوابع الحياة التى عصفت به . وضع دانتى فى الكوميديا خلاصة فنه ، وجعل منها أداة للانتقام مما أصابه من أهل العصر .

وكان شعور الأبوّة والبر بالأبناء جزءاً من شخصية دانتى . فقد دانتى منذ حداثته حنان الأم وعطف الأب ، وخبر بنفسه معنى الأبوة عندما تزوج وأنجب أولاداً ، وأدرك معنى الحرمان من الأهل والولد عندما عاش حياة

المنفى والتشريد. وقد عوض دانتى عن ذلك الحرمان كله بالتعبير عن معانى البنوة والأبوة فى أجزاء كثيرة من الكوميديا. فكان يلذ له أن يسمع نداء الابن العزيز، من شخصيات متعددة[11]، كما كان يحلو له أن ينطق بلفظ الأب الحبيب، الذى وجهه إلى ڤرجيليو مرات عديدة[12].

هذه هى معانى العنف والقسوة والانتقام؛ مع مشاعر الأبوة البارة الرحيمة، التى استمدها دانتى من روح العصر؛ ومن ظروف حياته هو، واتخذها جميعاً أساساً فى خلق شخصية الكونت أوجولينو دلّا جيرار دِسكا.

أما شخصية الأسقف رودجيرى دِلّى أوبالدينى[13] فهى شخصية ثانوية، لا يكاد يكون لها وجود إلى جانب شخصية أوجولينو. يمثل رودجيرى الخيانة والغدر لتحقيق الأطماع الشخصية على حساب الآخرين. ولكن دانتى لم يحاول هنا أن يبرز صفاته خاصة، بل جعله شيئاً ميتاً بغير حياة، واتخذه وسيلة لاظهار العنف والكراهية والانتقام عند أوجولينو.

هبط دانتى وڤرجيليو حلقات الجحيم واحدة بعد أخرى، وشهدا معاً صنوف المعذبين، يلاقى كل منهم العذاب الذى يستحق. فرأيا أولئك الذين غلّبوا العاطفة على العقل فى أثناء الحياة، وجعل دانتى عقابهم أن تدور بهم ريح عاتية على الدوام[14]. وشهدا الجشعين[15]، والبخلاء والمسرفين[16]، الذين جعل دانتى عقابهم أن يغمروا فى الطين. ثم اخترقا منطقة الهراطقة، وعقابهم أن يعذبوا فى قبور من نار[17]. ومرا بالقتلة السفاكين، وعقابهم أن يغوصوا فى الدم المغلى[18]. ورأيا المنافقين، وعقابهم أن يرفعوا على الدوام أحمالاً من الرصاص الثقيل[19]. وشهدا اللصوص، وعقابهم أن يتحولوا إلى أفاعى[20].

وصل الشاعران أخيراً إلى الحلقة التاسعة آخر دركات الجحيم، وهى موئل أولئك الذين ارتكبوا الخيانة، رأس الخطايا عند دانتى. ويغطى الثلج هذه الحلقة، ويسودها الزمهرير، وهو عقاب الخونة من كل صنف، خونة الأهل والأقارب[21]، وخونة الوطن والمبدأ السياسى[22]، وخونة

الأصدقاء[٢٣] ، والخائنين إلى من أحسنوا إليهم[٢٤] . رأى دانتى أن الخونة قوم قد ماتت قلوبهم فى أثناء الحياة ، وتعطلت مشاعرهم ، وجمدت إحساساتهم ، فأهملوا رابطة الدم ، وعبثوا بحقوق الوطن ، وقتلوا أصدقاءهم ومن أحسنوا إليهم ، ولم يراعوا فى ذلك عهداً ، ولم يعبأوا بضمير ، وجعلوا مصلحتهم الذاتية فوق كل مصلحة ، لأن قلوبهم قد ماتت ، وأصبحوا هم والثلج سواء ، بل ربما كانوا أشد برودة من الثلج والجمد ، الذى يحفظ لهم صفاتهم باردة إلى الأبد .

عند ما وصل دانتى إلى هذا المكان وجد أنه قد استعصت عليه القوافى ، وأعوزه الكلام فى وصف هذا الجحيم المظلم القاسى . فاستنجد بربة الشعر أن تحل عقدة لسانه ، وتزيل عنه هذه الرهبة العميقة . وجد دانتى نفسه ، وإلى جانبه ڤرجيليو ، على سطح بحيرة باردة متجمدة ، أقسى من تجمد مياه الدانوب أو الدون فى الزمهرير القاسى . وبرز منكساً فوق الجليد أكثر من ألف رأس من رؤوس الخونة المعذبين ، مثل ضفادع الغدران فى الصيف ، وبدا عليهم إمارات البؤس وعلائم الشقاء ، واصطكت أسنانهم من شدة الزمهرير ، وانهمرت دموعهم وتحولت إلى ثلج . كانت تلك هى الدائرة القائينية [٢٥] ، حيث يعذب أولئك الذين خانوا الأهل والأقارب ، وقتلوهم تحقيقاً لأطماعهم الدنيئة .

ثم انتقل دانتى وڤرجيليو إلى منطقة الأنتينورا [٢٦] ، حيث يعذب خونة الوطن والمبدأ السياسى . وعندئذ اصطدمت قدم دانتى برأس أحد المعذبين ، فصاح به ، وظنه رسول مونتأبرتى آتياً للانتقام منه ، وحادثه بعنف وقسوة ، فبادله دانتى عنفاً بعنف ، وجذبه من شعر رأسه ، وحاول بذلك أن يرفع رأسه المنكس ، لكى يعرف من هو . ولكن ذلك الآثم قاوم محاولة دانتى رؤية وجهه ، فانتزع دانتى من رأسه بعض شعره ، وهو يئن ويصرخ . وأخيراً عرف دانتى من أحد المعذبين بجواره أن اسم ذلك المعذب هو بوكا دِلّى أباتى ، فأدرك أنه أمام أحد الخونة الذين سببوا هزيمة قوات الجلف الفلورنسية ، أمام قوات الجبلّين ، فى موقعة مونتأبرتى فى ١٢٦٠

بعد أن ابتعد دانتى وفرجيليو عن بوكا دلى أباتى ، شهدا عن بُعد رأسى آثمين يخرجان معاً من ثغرة واحدة وسط الجليد ، دون بقية الرؤوس المنفردة . وعندما اقترب دانتى منهما وجد أحد الرأسين فوق الآخر ، ورأى الرأس الأعلى كقلنسوة للرأس الأدنى ، وارتاع دانتى عندما رأى صاحب الرأس الأعلى ينهش مؤخر الرأس الأدنى . سأل دانتى صاحب الرأس الأعلى من يكون ، وما السبب الذى دعاه إلى أن يقوم بهذا العمل الوحشى . وجال بخاطر دانتى لأول وهلة أنه لابد هناك من سبب فظيع أدى إلى هذا العمل الوحشى ، فحاول أن يخفف من عنف الموقف وقسوته ، وأظهر لصاحب الرأس الأعلى أنه على استعداد لأن يساعده فى عمله الانتقامى ، ووعده إذا عرف حقيقة الأمر ، فانه سيفصح فى الأرض عن كل شىء ، وبذلك ينال الآثم ما يستحقه من التشهير به وسوء السمعة فى الدنيا ، فضلا عن عذابه فى الجحيم .

وهنا أنهى دانتى الجزء الأول من هـذا الموقف ، فى نهـاية القصيدة الثانية والثلاثين من الجحيم ، ثم إستمر الموقف كله فى أغلب القصيدة الثالثة والثلاثين . ولعل دانتى أراد بهذه التجزئة أن يقف بالقارئ هنا عند هذه المقدمة الرهيبة ، لكي يثير انتباهه ويزيد تأثره عما قليل .

عندما سمع صاحب الرأس الأعلى كلام دانتى ، وعندما أدرك أنه حريص على معرفة حقيقة الأمر ، وأنه يريد أن يعاونه فى عمله الانتقامى ، رفع رأسه عن رأس غريمه . ولم يكن الرأس الأعلى لذلك الآثم يشبه أى رأس آخر . كان جسده كغيره من الآثمين قد غمره الجليد كله ، ولكن تجمعت حيـاة الجسد بمـادته وروحه فى هذا الرأس وحده ، كأنه قلعة شامخة وسط ذلك الجليد . وكأن ذلك الرأس قد أصبح عقلا وقلباً وروحاً وجسداً فى وقت واحد . عبّر الوجه بخطوطه وحركاته عن كل ما فى نفسه ، ثم تركزت فى لحظة واحدة كل معاني القلب والعقل والجسد والرأس والوجه فى الفم وحده . وعندما خاطب دانتى صاحب الرأس الأعلى ، وعندما ارتفع رأسه عن الرأس الأدنى ، لم ير دانتى عندئذ من ذلك الرأس المرتفع سوى الفم وقد علاه الدم

الاحمر ، وبدت منه أسنان حادة بيضاء ، تركزت فيهـا قوة الانسان كله . ولم يقل دانتى إن ذلك الآثم قد رفع رأسه كلها ، ولكنه قال إنه رفع « الفم » وحده . جعل ذلك للفم قوة الوحش الكاسر المنقض على فريسته بغير رحمة . وكأن ذلك « الفم » يعيش وحده ويرتفع عن رأس غريمه . ولم يقل دانتى إن الفم كان يعلوه الدم ، ولكنه قال إن الفم قد مسح نفسه فى شعر غريمه . وترك للقارئ أن يتصور الدم وقد غطى ذلك الفم المفترس . أراد دانتى بذلك أن يُشرك القارئ معه في خلق هذه الصورة الرهيبة ، وهو بذلك يعمل على إيجاد التجاوب والتأثر المتبادل بينه وبين ذوى الشعور من الناس .

جعل دانتى صاحب الرأس الأعلى ، ينهش مؤخر الرأس الأدنى ويلتهمه ، كالجائع النهم الذى يلتهم الطعام التهاماً . وقد يبدو الانتقام على هذه الصورة أمراً بشعاً مثيراً للرعب والفزع . ولكن البشاعة تزول إذا ما عرفنا أن المنتقم قد عبر بعمله الوحشى عن بشاعة الجريمة التى ارتكبت فى حقه . لم يثر هذا المشهد الوحشى الرعب فى نفس دانتى لأنه أحس أنه أمام خيانة عظمى ، وأن الانتقام لابد أنه يوازى الجريمة التى ارتكبت ، وربمـا يقل عنها . أصبح ذلك الانتقام الوحشى والرأس المنهوش والدم المراق أمراً ثانوياً أمام الجريمة التى أدت إليه . ولم يفكر دانتى فى ذلك العمل الوحشى فى ذاته ، ولكن تجاوزه إلى الدافع إليه . ولا يجوز أن يُلام المنتقم دون مرتكب الجريمة التى استحق صاحبها الانتقام . وعنده أن الرأس المنهوش ليس سوى وسيلة للانتقام ، وهو يرى أن ألم صاحب الرأس الأعلى وانتقامه أقوى وأهم من العمل البشع ذاته . إن ألمـه ألم يائس يهصر قلبه عندما يفكر فيه . وإذا كان مجرد التفكير فى مأساته ، قد هصر قلبه وأثار ألمه ، كما قال صاحب الرأس الأعلى ، والذى أيقظه دانتى بسؤاله ، فأى ألم يحسه إذا بدأ الكلام عن مأساته ! فى الواقع أن الانسان عندما يبوح بمـا فى نفسه ويعبر عن عواطفه يزيدها تأججاً . وذلك لأن وقع الكلمات ونطقها يزيد العواطف اشتعالا ، ويجعلها أكثر حياة وأعظم تأثيراً فى قرارة النفس . يشبه هذا القول ضربات ميكلانجلو بالازميل عندما خلق تمـاثيله الشاهقة . وكذلك اقترب

شاكسبير فى مأساة ماكبث من فكرة الانتقام عند دانتى ، وإن لم يصل إلى المستوى الذى وصل إليه دانتى ، وذلك لأن ماكدوف عند شاكسبير ، لم يجد للقاتل أبناء ينتقم بقتلهم لموت أبنائه وزوجته (٢٧) . أما المنتقم هنا فيجد تحت أسنانه الوحشية عدوه وغريمه وهو يصليه انتقاماً جزاء ما ارتكب. وعنده. وعند دانتى أنه ليس هناك إنتقام يعوضه ويكفيه عما لحقه من الخيانة والغدر والعذاب ، على الرغم من ذلك العمل الوحشى الذى قام به . إن ألمه وكراهيته وانتقامه لا حد له ، وروحه تعلو على العمل الوحشى الذى صدر عنه .

قال صاحب الرأس الأعلى ، إنه على الرغم من الألم الذى يسببه حديثه عن ذكرياته الفاجعة ، وحرصاً على إذاعة أخبار الخيانة التى ارتكبها عدوه ، ورغبة فى التشهير به وإساءة سمعته فى الأرض ، فيكون فى هذا مزيد من الانتقام ، لهذا كله فإنه سيتكلم ويبكى فى وقت واحد .

هناك تشابه واختلاف بين أوجولينو — صاحب الرأس الأعلى — وفرنتشسكا دا ريمينى. هما يتشابهان فى البكاء مع الكلام ، وإن كان أوجولينو يتكلم ويبكى ، بينما فرنتشسكا تبكى وتتكلم (٢٨) . وهما يختلفان فى العاطفة التى سيطرت على كل منهما ، ودفعتهما للبكاء مع الكلام . وكل منهما يذكر الماضى فى أسى ولوعة وشجن. ولكن ماضى فرنتشسكا يحمل فى طياته ذكرى الحب واللذة والسعادة إلى جانب الخطيئة والموت واللعنة والعذاب ، وبذلك نجد فرنتشسكا أقل بؤساً من أوجولينو وحديثها أخف مرارة من حديثه . ومن غير شك أنها ازدادت ألماً عند ما قصت تاريخها السعيد ، وقارنت بين الماضى والحاضر . ولكن لا بد أنها نسيت لحظة ذلك الجحيم الذى يحيطها ، واهتزت جوانحها لذلك الحب الجامح ولتلك القبلة الخالدة . وفوق هذا فإن فرنتشسكا تعيش فى الجحيم أبداً مع الرجل الذى أحبته ، والذى لم يحل الموت واللعنة والعذاب دون تدفق عواطفهما . على حين أنه ليس لأوجولينو — صاحب الرأس الأعلى — أى ماض سعيد يلجأ إليه ويعتصم بذكراه ، حتى ولو لحظة واحدة . إن ماضيه وحاضره سواء فى الخيانة والغدر والأسر والبؤس والعذاب والموت . إن أوجولينو يبكى ، ولكن تلمع

فى دموعه شعلة الكراهية والغضب والانتقام ، على حين تبكي فرنتشسكا بكاء عذباً رقيقاً أثماً ، جمع بين الحب والجمال واللذة والخطيئة واللعنة والموت . ويتكلم أوجولينو لكي يُشهّر بسمعة عدوه الغادر ، ولكى يصبح كلامه مزيداً فى الانتقام ، بينما تتكلم فرنتشسكا برقة وأسى ولذة ، لكى ترضى رغبة دانتى فى المعرفة ، عندما شاركها إحساسها المرهف وعطف على مصيرها الأليم .

وعند ما سمع فارِيناتا دلّى أوبرتى صوت دانتى عرف أنه مواطن فلورنسى صادق أمين ، جاء لزيارة مدينة الشيطان[٢٩] . ونسى فاريناتا لحظة ذكريات السياسة والحزبية ، وسأل دانتى فى رفق ولين أن يقف قليلا حتى يحادثه . ولكن سرعان ما عادت إليه ذكريات السياسة الفلورنسية ، وساوره الشك فى أن يكون من أعدائه . ونظر إلى دانتى نظرة الاحتقار لمجرد الشك فى لونه السياسى ، وسأله عن أسلافه لكى يعرف إلى أى حزب ينتمى : ولكن أوجولينو — صاحب الرأس الأعلى — لم يفكر فى أسلاف دانتى ولا فى أصله ولا فى حزبه السياسى ، وعند ما سمع صوته أدرك أنه مواطن فلورنسى . إن فاريناتا هو الرجل الوطنى الذى تشغله مسائل السياسة والحزبية حتى تنسيه نيران الجحيم ، ولذلك لا يكفيه أن يعرف أن دانتى مواطن فلورنسى صادق أمين ، بل لا بد له أن يعرف هل هو من الأصدقاء أو من الأعداء . أما أوجولينو وهو الرجل الذى اشترك فى معمعان السياسة ، ولقى الغدر والعذاب من أجل هذه السياسة ، قد نسى هنا السياسة والحزبية ، وأصبح مجرد إنسان يحرص على حياة أبنائه ، واشتعل بين جوانحه عوامل الكراهية والانتقام لما أصابه هو وأبناءه . وهو بذلك يمثل الرجل والإنسان والأب ، وعنده أن حب الأبناء فوق حب الوطن وفوق السياسة . وهو فى هذا يشبه كافالكانتى دى كافالكانتى الذى لم يكن يعنيه لا السياسة ولا الحزبية ، ولكنه بحث عن ابنه الحبيب[٣٠] . إن أوجولينو لا يعرف شخص دانتى ، ولا بأية طريقة وصل إلى هذا الجحيم ، ولكن يكفيه أن يعرف أن دانتى مواطن فلورنسى ، بل يكفيه أن يرى أمامه رجلاً وإنساناً ، لأنه يعتقد أنه لا يوجد إنسان يجهل معنى الأبوة البارة الرحيمة . ارتاح أوجولينو

عند ما عرف أن دانتى مواطن فلورنسى لأن هذا يوفر عليه الكلام . فهو يستطيع أمامه أن يقول إنه الكونت أوجولينو ، وإن غريمه هو الأسقف رودجيرى . قال أوجولينو إنه سينبؤه كيف أنه يجاور غريمه على هذه الصورة الوحشية . وإن كلمة « الجار » لتدل على الصداقة والود ، بين قوم يعيشون فى صفاء وسلام . ولكن كلمة « الجار » التى نطق بها أوجولينو لا تحمل معنى الصداقة ، بل تحمل معنى السخرية المريرة . وكأنه أراد أن يقول إنه ينهش رأسه على ذلك النحو دون أن يخون الود بين الأصدقاء !

عمل دانتى بفنه الرائع على أن يذيب الثلج ويبعث الحياة فى هذه المنطقة الباردة من الجحيم ، وذلك عند ما أبرز معنى الخيانة والكراهية والانتقام . وهكذا حول دانتى عالم الثلج والجمد إلى عالم الفن الرفيع . وإذا كان دانتى قد وضع أوجولينو نفسه بين الثلج كخائن لحزب الجبليين ، فانه وضعه هناك كضحية للخيانة ، أكثر منه كخائن . ووضعه هناك فوق رأس غريمه كأداة للعدل الإلهى ، وكانسان خُدع وعُذّب ، فنفث كل عواطف الغضب والكراهية والانتقام على تلك المتوزة الوحشية . ومع ذلك فان أوجولينو لا يكاد يدرى أنه منفّذ للعدالة الإلهية ، وهو لا يعرف سوى شىء واحد : الانتقام من عدوه الخائن الذى هو تحت أسنانه الوحشية . لقد أخذه هذا الانتقام وملك حواسه ، فلم يعد يعرف شيئاً سواه . قال أوجولينو إن رودجيرى ، الذى كان موضع ثقته ، قد خانه وتآمر عليه ، فأسره وحبسه غدراً ، وقتله هو وأولاده . وقال إن ذلك كله ليس سراً خافياً على أحد ، ولكن السر الخفى الذى لا يعرفه إنسان ، هو العذاب والموت الوحشى الذى لقيه وأولاده ، في السجن المظلم الملعون . وقف التاريخ صامتاً أمام ذلك السجن المظلم الرهيب . وعند ما دخله التاريخ لم يجد فيه سوى جثث الموتى . وكان على الفن إذاً أن يكمل الصورة المستوحاة من التاريخ .

أشار أوجولينو فى سطور قلائل إلى حياة الأسر والسجن ، التى لقيها على أيدى أعدائه الغادرين . تمر السنوات والشهور كأنها الساعات عند السعداء الذين ينعمون بالحياة السهلة الطيبة ؛ أما الشهور التى يقضيها الأسير المعذب

فى سجنه فانهـا تمضى ثقيلة طويلة كقرون مظلمة ، يعدها الأسير السجين دقيقة دقيقة ، وكأنه لا آخر لهـا ولا نهاية . حُبس أوجولينو فى سجن مظلم لا يدخله سوى بصيص من نور ، عند ما يأخذ القمر دورته ، وبذلك أدرك مرور الوقت . وكان السجن عنده أشبه بالمكان المظلم الذى تفرخ فيه الطيور . رسم دانتى بريشته البارعة صورة أوجولينو الانسان ، الذى ساوره فى سجنه وعزلته مشاعر متفاوتة : شعور المرارة والكراهية نحو أعدائه ، وعدم الثقة بالمستقبل ، وخامرته فكرة الموت المرتقب ، ومع ذلك فقد كان يحدوه الأمل فى النجاة من الخطر الداهم . وظل كذلك حتى جاءه النوم القلق البغيض الملعون ، لأنه اكتنفته تلك المشاعر الرهيبة ، ولأنه بدد أمله فى الخلاص . وكم من أحلام بددها النوم البغيض الملعون ! والنوم حجاب كثيف يرى الانسان وراءه رغبات اليقظة الحبيسة . وبقى ماثلا أمام أوجولينو صور أعدائه الألداء . رأى فى نومه أن الأسقف رودجيرى قد قاد حملة صيد بكلاب سريعة مدربة ، وفى مقدمتها خصومه من حزب الجبلين فى بيزا ، وقد خرجوا جميعاً متعقبين ذئباً وجراءه ، وبعد شوط قصير بدا التعب على الذئب وجرائه ، فأدركتها الكلاب ونهشوا جوانبها . عبّر ذلك الحلم عن الخطر الداهم الذى كان يساور نفس أوجولينو الأسير المعذب .

وعندئذ لم يعد أوجولينو منفرداً أمامنا ، بل ظهر ومعه أولاده فى تلك اللحظة الحرجة ، وكأنهم أطفال صغار ، وقد رأوا حلماً مزعجاً مشابهاً ، وأحسوا بخطر مبهم وشيك الوقوع . وعندما أفاق أوجولينو من حلمه المزعج أحس بأولاده وهم يبكون فى نومهم ، وسمعهم يطلبون الخبز . والحلم من الوسائل الهـامة التى يستخدمها الفن فى التعبير عن جوهره . وإن من أهم أهداف الفن أن يشبع رغبة الانسان ويحقق المثل الأعلى للفنان . ويحمل الحلم الفنان على أجنحته القوية الثابتة الممتدة ، ويحلق به إلى عوالم لا يجرؤ غيره على الاقتراب منها . ولكن حلم أوجولينو لا يغطى آلامه بالورود والرياحين ، بل حلم مشؤوم ينبئه بالمستقبل الفاجع الذى ينتظره هو وأولاده . . . .

عندما يتألم إنسان مرهف الحس، يود أن يشاركه الناس آلامه، ويؤلمه أن يرى من لايشاركه شعوره أو من يبدو أنه لايشاركه شعوره. ولما قص أوجولينو على دانتى حلمه السابق، نظر إلى وجهه فلم ير عليه علائم التأثر، فاعتقد أنه رجل لاقلب له. ولذلك أخذ يسخر منه ويؤنبه، وقال له إنه قاسى القلب، وإذا لم يبك لما سمعه فتى وفيم يكون البكاء! خرجت هذه الكلمات سريعة صادقة من قلب أوجولينو، تعبّر عن الغضب والألم الذى أحسه، عندما لم يبد على دانتى أنه شاركه مشاعره.

لم يكن دانتى جلموداً بليد الحس، غير عابئ بآلام الآخرين، بل إنه أحس وتأثر بكل ماسمعه من أوجولينو. ولكن لم تظهر عليه علائم التأثر، لأنه أراد أن يكبح جماح نفسه لحظة، حتى يعرف جلية الأمر. وسنرى كيف يعبّر دانتى عن تأثره ومشاركته لأوجولينو بعد قليل. ولا بد أن أوجولينو كان يعرف تماماً أن اختفاء التأثر من وجه دانتى ليس دليلا قاطعاً على جمود حسه. وهو يعرف أن البكاء ليس مقياس الألم الوحيد. وفى أيامه الأخيرة كبت أوجولينو مشاعره ولم يستطع أن يذرف دمعة واحدة، حتى لا يزيد فى شقاء أبنائه المعذبين. ولكن لعل أوجولينو أراد أن يشاركه دانتى شعوره فى الباطن والظاهر على السواء، وربما كان فى هذا نوع من العزاء، أو لعله أراد بسخريته من دانتى أن يقاوم بكاءه هو ويبرره فى وقت واحد.

كان الأبناء قد استيقظوا من نومهم البغيض الملعون عند حلول وقت الطعام المرتقب. وسمع أوجولينو صوت إغلاق البرج الذى سجنوا فيه وأدرك أن معنى ذلك قطع صلتهم بالعالم الخارجى حتى الموت. فنظر إلى وجوه أبنائه يقرأ مافى نفوسهم، لانه خشى أن يدركوا معنى إغلاق البرج. ولكن الابناء — وقد جعلهم دانتى أطفالا — لم يدركوا شيئاً. وعندما قال أوجولينو إنه نظر إلى وجوه أبنائه، اختفى منه لحظة معنى الكراهية والعنف والانتقام، وغمره الحب الابوى، فأضفى عليه جمالا وأعطى صوته عذوبة وحلاوة. هكذا تحول أوجولينو لحظة من العنف والانتقام إلى العطف والحنان خلال أبنائه. وكان هؤلاء الابناء أطفالا صغاراً، لايدركون العواطف

العنيفة ، ولايفهمون الصراع السياسى ، وليست لهم بعد تجربة بالحياة ، وهم يحضورون جوعا فى سجن مظلم رهيب ، ولا يعرفون لذلك سبباً . كان ظهور الاطفال الأبرياء فى تلك اللحظة عاملا خفف من وطأة تلك المأساة الانسانية ، ثم زادها عنفاً بعد قليل . وكم يحلو للانسان أن يلجأ إلى سلام الطفولة وطمأنينتها ، خلال زوابع الحياة العنيفة !

وكلما قل إدراك الطفل للخطر الذى يهدده زاد عنصر المأساة فى الحياة . إن عدم إدراك الطفل للخطر الداهم ، يكاد يصبح سخرية من القدر غير مقصودة . وما شعور الأب الذى يدرك الخطر المحدق بأبنائه ، ويعرف أنهم قد أوشكوا جميعاً على النهاية ، وهم لا يفهمون شيئاً ! عندما سمع أوجولينو صوت إغلاق البرج الرهيب ، وعندما نظر إلى وجوه أبنائه ، بدا كأنه يريد أن يقول لهم وقلبه ينفطر : يا أولادى المساكين ! ومع ذلك فلم ينطق لسانه بكلمة واحدة ، ونطقت عينه بما يعصر قلبه ، وتجمعت حياته كلها فى تلك النظرة الوالهة الأليمة يوجهها إلى أبنائه . وما أكثر ما تحويه نظرة إنسان من معان لا يدركها إلا من يفهم !

حبس أوجولينو دمعه ، وكتم أنفاسه ، ولم يبك ، بل تحول إلى حجر صلد أصم ، حتى لا يلفت نظر أبنائه إلى الخطر الداهم . وما أقسى على النفس المرهفة الموجعة أن تحرم حتى من البكاء ! لم يبك أوجولينو ، ولكن بكى أبناؤه . بكى الأبناء ، لا لأنهم فهموا شيئاً محدداً مما ينتظرهم ، ولكنهم بكوا لأنهم رأوا أباهم ينظر إليهم تلك النظرة الهلعة الوالهة ، التى لم يقو على منعها ، بعد أن حبس دمعه . لم يدرك الأبناء معنى تلك النظرة الوالهة ، ولكنهم أحسوا خلالها بشىء رهيب مبهم . ومع أن أنسلموتشو الصغير لم يدرك معنى تلك النظرة الأليمة الوالهة ، إلا أنه أحس رهبتها فبكى . سأل أنسلموتشو أباه وهو يبكى ماذا به ، ولماذا ينظر هكذا ! نطق أنسلموتشو بكلماته فى بساطة وسذاجة وصدق . أى تقابل طبيعى وأى إحساس عميق فى هذا كله بين الأب الصامت المعذب والابن الساذج الباكى !

إن فكر الأب فى أبنائه وفكر الأبناء فى أبيهم . إذا كان الأب لم يتكلم ولم يبك عندما سمع صوت إغلاق البرج الرهيب ، وإذا كان قد كتم مشاعره بين جنبيه ، وتحول إلى حجر صلد ، حرصاً على أبنائه الصغار الأبرياء ، فانه الآن ، بعد فزع أنسلموتشو وبكائه ، لم يبك أيضاً ولم يتكلم . كان عليه أن يتلقى هذه المشاعر الرقيقة الساذجة البريئة وهو صلب لا يتحرك ، حتى لا يدرك الأبناء حقيقة الخطر الذى يهددهم ، وكان عليه أن يدرك الخطر وحده . وأى احتمال وأى صبر هذا كله ! إن العاطفة فى حاجة دائماً إلى الافصاح والتعبير عنها . ولكن كان على أوجولينو أن يقاوم نفسه ، وأن يأكل ألمه فى صمت وسكون . عندما نطق أوجولينو باسم أنسلموتشو الصغير ، وهو يحادث دانتى ، عبر بذلك عن عاطفة الأبوة البارة الرحيمة ، وأفصح عن ذكريات الأسرة العزيزة . ظل أوجولينو على صمته طول ذلك النهار والليل التالى كله ، وبقى منطوياً على نفسه كتمثال صلد لا يتحرك .

ولكن كان لابد لهذا الصبر من آخر ، وكان لابد لهذا الصمت من نهاية . وما كان أوجولينو ليستطيع أن يمضى دواماً فى صمته وصبره على هذا العذاب الأليم . وتحول ذلك التمثال الصامت إلى إنسان . فى ذلك النهار وتلك الليلة التى ساد فيهما الصمت ، كان الجوع قد حول الأبناء وأباهم إلى وجوه شاحبة وأجسام هزيلة . وعندما لاح ضوء الفجر التالى انتهى ذلك الصمت لحظة ، وعبّر أوجولينو عما فى نفسه بعنف وقسوة ، وعوض عن صمته السابق الطويل . وحدث ذلك فجأة وعلى غير انتظار . قال أوجولينو إنه عندما تسرب شعاع من ضوء الشمس إلى ظلام ذلك السجن الرهيب ، رأى وجوه أبنائه الأربعة ، وقد علاها الشحوب وأشرفوا على الموت ، كما أحس هو تماماً ، لأنهم تعرضوا جميعاً لعذاب واحد . عندئذ لم يحتمل أوجولينو صبراً ، ولم يقو على كبت ذلك الألم الحبيس فى نفسه ، فأخذ يعض يديه بأسنانه فى حركة عصبية ، وقد كان منذ هنيهة ينهش بأسنانه الحادة رأس الأسقف الغادر الأثيم . ولكن بأى شعور عض أوجولينو أصابعه أمام أبنائه الأربعة المعذبين ! دلت تلك الحركة العصبية على ما يتجاذبه من شعور

العطف والأبوة والألم والعذاب والقلق على مصير أبنائه الأبرياء المعذبين . كانت تلك المشاعر كلها عاطفة واحدة امتزجت فى نفس أوجولينو الأب اليائس المعذب .

إن الأثر الذى أحدثه ذلك الفعل فى نفوس الأبناء ، زاد الفعل ذاته عمقاً ، وجعله يتغلغل فى نفوسنا بشدة وعنف . لم يفهم الأبناء هذه الحركة العصبية ، التى جعلت أوجولينو يعض أصابعه ، كما أنهم لم يفهموا تلك النظرة الأليمة الوالهة التي حدجهم بها من قبل ، وفسروها على غير حقيقة . أحسوا بالجوع الشديد ، فحكموا على أبيهم بما أحسوا هم به . وكان عض اليدين عندهم يعنى الرغبة الشديدة فى الطعام ، والأب عندهم جائع يوشك أن يأكل يديه . فزع الأبناء وتولاهم الرعب ، ووقفوا على أقدامهم ، على الرغم من الجوع والإعياء الذى أصابهم ، وصرخوا قائلين : « يا أبتاه إننا سنكون أقل ألماً إذا أكلتنا نحن . . . إن لحمنا البائس هو بضعة منك تخذه إليك » . وهذا شعور رقيق ساذج تجاوب فى هذه القلوب البريئة الرقيقة . وهذه تضحية صادقة ، تحولت إلى توسل وضراعة صادرة من هذه القلوب الصادقة الصغيرة .

أعادت هذه الكلمات الصادقة أوجولينو إلى صوابه ، فأدرك أنه فعل بحركته العصبية مالا يجوز أن يصدر عنه ، وأحس أنه لا يزال أباً بائساً معذباً أمام أبنائه البؤساء المعذبين ، وأنه لايجوز له أن ينسى أبوته ، وأن عليه أن يحتمل وحده ذلك العذاب الرهيب . وعاد أوجولينو إلى سكونه ، ورجع مرة أخرى كتمثال صلد لا يتحرك . وساد الصمت من جديد . وسكت الأب والأبناء . كان سكوت أوجولينو سكوت الأب الغاضب الثائر المعذب الذى يعرف المصير المحتوم . أما سكوت الأبناء فكان سكوت الجائع المتألم الذى لا يكاد يدرك حقيقة الموقف الرهيب . وما ذلك السكوت الناطق الذى يعجز الكلام عن التعبير عنه ! سكتوا جميعاً يومين كاملين . وعبّر أوجولينو عما فى نفسه من العذاب عند ما لعن لنفسه هذه الأرض الصلدة القاسية ، ودعاها أن تنشق لكى تبتلعه وتطويه فى جوفها السحيق . وبذلك كاد ينتهى عنده الصبر والألم . ولم يعد يطيق صبراً على النهاية الفاجعة ، فتمنى

التعجيل بها ، وليس يريحه من كل ذلك سوى الموت . لقد تحمل أوجولينو طويلا ، ولم يعد عنده مزيد من الصبر والاحتمال . ومع ذلك فقد كان عليه أن يحتمل فوق طاقة البشر . ولم يكن أمامه سوى الصبر ، ولا شيء سوى الصبر !

وفي اليوم الرابع ارتمى جادو عند قدمي أبيه وهو يصيح طالباً المعونة ، ويتساءل لم لا يساعده أبوه ! وإلى من يتجه الابن عند ما يحس بالخطر ؟ أمل الابن أن يجد عند أبيه العون والخلاص ، واتجه إليه عند ما أحس النهاية الأليمة ، واعتقد أن أباه قادر على كل شيء . وما أقسى أن يرى الأب فلذة كبده يطلب المعونة ، ويتمسك بأهداب الحياة ، وهو لا يقوى على شيء! نطق جادو بتلك الكلمات ثم سقط بين يدي أبيه بغير حياة . وكيف كانت مشاعر أوجولينو وهو يرى إبنه يرتمي عند قدميه طالباً المعونة ، ثم يسقط وقد فارق الحيـاة ! قال أوجولينو إنه رأى بعينيه ، بين اليوم الخامس والسادس ، بقية الأبناء يسقطون وقد لفظوا النفس الأخير . وبأي قلب رأى أوجولينو أولاده يموتون واحداً فواحداً ! ومع ذلك كله فقد ظل صامتاً طيلة يومين آخرين ، وكتم أنفاسه ، حتى لا يؤلم بقية أبنائه الذين كانوا لا يزالون يصارعون الموت ، بين يديه . وأية لحظات رهيبة تلك ، التي كان على أوجولينو أن يهصر الألم قلبه خلالهـا ، وهو صامت بغير كلام !

وأخيراً جاء الانفجار الرائع بعد طول صمت وعذاب . عند ما مات الابناء زال السبب الذي من أجله ظل أوجولينو يكتم ألمه الهـائل بين جنبيه ، ذلك الوقت كله . عبرت النفس المعذبة عندئذ عن آلامها الهـائلة ، التي استعرت طويلا بين جوانحها . ولم يكن ذلك تعبيراً واضحاً لشعور إنسان يحس بنفسه وبالناس ، ولكن كان تعبير نفس معذبة مصهورة في حالة هذيان وأسى لا يوصف . ولم يكن ذلك التعبير صوتاً محدداً أو كلاماً واضحاً ، ولكنه كان صراخاً وعواء ونواحاً رهيباً مفجعاً . عندما كان الابناء أحياء ينازعهم الموت لم يقو أوجولينو على ندائهم بأسمائهم ، وقد كان كل اسم منهم جزءاً من روحه وقلبه . أما الآن وقد ماتوا جميعاً فقد انطلق أوجولينو

من عقاله ، وتحرر من قيد الابوة الرهيب . فقد أوجولينو بصره من فرط الأسى والجوع ، وسقط فوق أبنائه ، وأخذ ينوح عليهم ، وظل يناديهم بأسمائهم الغالية واحداً فواحداً ، ثلاثة أيام متوالية . وما نداء إنسان لعزيز لديه وهو حى أمامه ! فما بالنا إذا ولى الأعزاء وماتوا ! وهل يلبي الموتى النداء !

قبل أن يموت فى أوجولينو الجسد ، كاد أن يموت فيه الانسان ، وظهر فيه الوحش ، الذى يتجاذبه حب أبنائه والفجيعة فيهم . أصبح أوجولينو بهذا كله كالوحش الضارى . واختلط عنده الغضب والألم والحسرة والأسى . وعندما كان أوجولينو ينادى أبناءه فى هذا السجن المظلم الرهيب ، لم يكن يبين أكان ذلك صوت إنسان يصرخ ، أوصوت وحش يزأر ! قال أوجولينو إنه بعد نواحه ثلاثة أيام متوالية ، فعل به الجوع ما لم يفعله الأسى والعذاب . لم يقتله الالم ، ولكن قتله الجوع . وكأنه يقول إنه كان يود أن يعيش على الألم . أو ليس الألم غذاء العبقرية ؟ وهل يقوى كل الناس على الألم ؟ وهل يحسب نفسه إنساناً من لا يعرف الألم ؟ كان الألم عنده كافيا لأن يمده بالحياة ، وبذلك يظل دواما يحمل ذكريات أبنائه ، ويناديهم بأسمائهم العزيزة الغالية . ولكنه حرم حتى ذلك الألم . وحال الجوع والموت دون أن يحظى بذلك الألم . وآه من الجوع الذى فعل به مالم يفعله الألم !

استمرت هذه المأساة الهائلة ثمانية أيام كاملة . بدأت بذلك الحلم الذى جعل أوجولينو وأبناءه يحسون الخطر القريب ، وانتهت بموتهم جميعاً . قص أوجولينو هذه المأساة فى إيجاز . ومع ذلك فان ماقاله قد أعطى صورة كاملة لهذه المأساة الفاجعة . وعند ما انتهى أوجولينو من قصة مأساته الدامية ، عاد إليه شعور الكراهية والانتقام مرة أخرى ، وأخذ ينهش ذلك الرأس الغادر الآثم ، فى عنف وغضب ، لكى يعوض مافاته ذلك الوقت كله . ألم يكن هذا الانتقام الوحشى دون تلك الجريمة الوحشية الشنعاء ؟

ارتبط باولو وفرنتشسكا برباط الحب الوثيق وبالخطيئة واللعنة والموت والعذاب . وتكلمت فرنتشسكا عن حبها وخطيئتها ، على حين ظل باولو

ساكتاً لا يتكلم . وعندما انتهت فرنتشسكا من كلامها العذب الأليم ، رأينا باولو ، الذى سكت عن الكلام ، قد صحب كلام فرنتشسكا بالدمع . وبذلك ظهر باولو أمامنا بعينيه اللتين تقطران الدمع ، وبصدره الذى يصعّد الزفرات. كان باولو بذلك روحاً مليئاً بالحياة الزاخرة . ولا ندرى أيهما كان أشد أثراً فى النفس ، كلام فرنتشسكا العذب الأليم ، أو بكاء باولو الصامت بغير كلام [٣١] ؟

ولكن أوجولينو ارتبط بالأسقف رودجيرى برباط الكراهية والانتقام . تكلم أوجولينو عن مأساته الدامية ، وبكى ، ونهش رأس غريمه ، وعبّر بحركاته وتقلصات وجهه ، عن معنى الكراهية والانتقام ، وعن الحنان والعطف على أبنائه الأبرياء . على حين لم يتكلم الأسقف رودجيرى ولم يحرك رأسه فى أثناء حديث أوجولينو ولا بعده . ولم يبد على الأسقف أى دليل على الحياة . ولم نر وجهه ولكن رأينا رأسه المنهوش وشعره الملطخ بالدم . ظهر رأس الأسقف كميت بغير حياة . بينما تجمعت الحياة كلها فى رأس أوجولينو ، وتركزت فيه حياة أوجولينو ومشاعره وحياة الأسقف الغادر الآثم فى وقت واحد .

لم يقاطع دانتى حديث أوجولينو عن مأساته الفاجعة ، ولم يعقب عليه بشىء . وظل ساكتاً ذلك الوقت كله ، وابتعد عنه ساكتاً . ولم يجد كلاماً يعبّر به عن نفسه إزاء هذا الموقف الرهيب . وكم تعجز اللغة عن التعبير عن آلام الناس ومشاعرهم ! ومسكين ذلك الراهب ألبريجودى ما نفريدى الذى لقى دانتى وهو على هذه الحال الرهيبة [٣٢] .

تأثر دانتى لمأساة أوجولينو الدامية . وأخذه التأثر فسكت طويلا ، حتى ظن أوجولينو لحظة أن دانتى إنسان لا قلب له . وكما انفجر أوجولينو بعد طول صبر وسكوت أمام أبنائه البؤساء المعذبين ، بصراخه ونواحه عليهم بعد موتهم ثلاثة أيام متوالية ، انفجر دانتى بعد طول صمت وسكوت أمام مأساة أوجولينو الرهيبة ، وعبّر عن غضبه وألمه ، بأن صبّ لعناته

على المدينة التى قتلت هؤلاء الأبناء الأبرياء . فنعت بيزا بأنها عار إيطاليا .
ولم يوجه كلامه إلى البشر ولا إلى ڤرجيليو ، ولكنه حادث الطبيعة وأهاب بها
أن تخرج عن قوانينها ، ودعا الصخور والجبال إلى أن تتحرك من مكانها
وسط البحر ، لكى تسد مصب نهر الأرنو ، فتطغو مياهه وتغرق كل أهل بيزا .
أراد دانتى أن تنتقل الجبال لعقاب أولئك القتلة الذين سفكوا دماء الأبرياء .
إن دانتى العبقرى لا يجد فى هذا الارتفاع الشاهق سوى هذه اللغة العنيفة .
هل كان أوجولينو الذى نهش بأسنانه الحادة رأس الأسقف الخائن ،
هل كان أقسى من دانتى الذى أراد أن ينتقم لقتل هؤلاء الأبناء الأبرياء ،
بهلاك كل أهل بيزا بمن فيها من الآباء والأبناء والأحفاد الآثمين منهم
والأبرياء ! هذا كله انسجام وتوافق بين الألم ، والأسى ، والصمت ،
والعنف ، والانتقام ، الذى تجاوب فى نفس دانتى وأوجولينو على السواء ،
وهذه سلسلة واحدة من مشاعر واحدة .

يمثل أوجولينو الكراهية الدائمة والانتقام بغير رحمة ، وهو الرجل
الساخط العنيف الذى لا يرضيه شىء . وهو جبل شاهق ، وتمثال ضخم ،
ومارد عظيم ، لا يرقى إليـــه إنسان . ومع ذلك فان هذه الكراهية
وهذا الانتقام لم يكن شيئاً أصيلا فى نفسه ، ولكنه كان تعبيراً طبيعياً
عما أصاب أبناءه وأصابه من غدر وعذاب وموت . فهو يمثل فى الوقت نفسه
معنى العطف والرحمة والأبوة . عندما تحول أوجولينو إلى الأب العطوف
الرحيم ازداد الموقف عمقاً . وظهر لنا خبايا أخرى من النفس البشرية .
وتحولت براءة الأبناء إلى أداة لتعذيب الأب وإيلامه من غير قصد ،
فمزقوا نفسه ، وحولوه بعد موتهم إلى وحش ثائر فى ذلك السجن الرهيب .
وشارك دانتى أوجولينو فى ذلك كله ، وإن كان قد كتم مشاعره ، كما فعل
أوجولينو تمـاماً أمام أبنائه .

هكذا رسم دانتى العنف والقسوة والكراهية والانتقام الوحشى، مع الأبوة
البارة الرحيمة ، وصور الصمت والسكون والصبر واليأس ، مع الصراخ
والبكاء والنواح . واحتفظ دانتى فى هذا كله بوحدة الفكرة العامة ،

وجعل هذه الصور المتعددة تخدم الغرض الأساسى عنده ، ألا وهو خلق صورة صادقة لإنسان حىّ غاضب منتقم ، ومع ذلك فهو بار عطوف .

إن نفس أوجولينو ليس لها مثيل فى التاريخ ، لأنه ليس لدانتى ذاته مثيل فى التاريخ . وإن روح المأساة عند أوجولينو هى روح المأساة فى حياة دانتى . وهى من أرفع العناصر فى حياة هذين الروحين العظيمين . إننا نجد فى شخصية أوجولينو تلك النظرة الأخيرة لدانتى المنفى المشرد ، نحو وطنه وأعزائه . وهنا نجد دموع الغضب والأسى والعطف والرحمة التى ذرفها دانتى فى وحدته المريرة ، كما نلقى الرغبة فى الانتقام العنيف الذى أراد دانتى أن يصبه على أعدائه جزاء ما لقيه على أيديهم . وهنا نجد ذلك المزيج من المشاعر الانسانية التى قد لا تعبر عنها الكلمات : غضب الرجل الذى صودرت أملاكه ، وعذاب الأب الذى تفرقت أسرته ، وألم الصديق الذى خانه صديقه ، وأسى الفنان الذى جهل أهل العصر قدره ، وعذاب الأبىّ الذى جاع وطلب المأوى . اتخذ دانتى من كل هذه الويلات والمحن التى انصبت عليه ، وسيلة لخلق شخصية أوجولينو ، كما فعل ميكلا نجلو عند ما خلق تماثيله الشاهقة ، وكما وضع بيتهوفن روحه فى موسيقاه الخالدة .

لم يكن دانتى فى أثناء حياته صاحب سلطان ، ولم يملك سلاحاً يعوض به فى ميدان الحياة العملية ، عما أصابه من جحود أهل العصر . ولكنه ملك سلاح الفن . وأى سلاح أقوى : الجهل المطبق ، والحسد البغيض ، والنفاق المهين ، والجاه الكاذب ، والسلطان الزائل ، والمال المزيف ، أو الفن العبقرى الخالد ! وإنه لمن سخرية القدر أن جعل الجهلاء الأذلاء من أنفسهم قضاة ليحكموا على دانتى الأبى العالم الفنان ! صحيح أن بعض المعاصرين قد حاولوا أن يحكموا على دانتى ويقيسوه بمقاييسهم التافهة ، ولكن كانت أحكامهم فى الحقيقة حكما عليهم لا عليه . وصحيح أن دانتى قد خسر فى أثناء حياته وأخفق . ولكنه خسر وأخفق لكى يكسب مالم يكسبه أحد . إنه خسر أشياء زائلة ، ولكنه ظفر بما لم يكد يظفر به إنسان . ولم يكن لظفره حد ، عند ما أكسبه فنه الخلود . وماذا فعل العجزة من معاصريه ؟ وأى شىء كانوا

يستطيعون أن يفعلوه ؟ إن هؤلاء المعاصرين الذين حكموا عليه بالنار تارة ، وبالحديد تارة أخرى ، فى فترة سنوات قلائل ، قد ماتوا وهم أحياء ، وأصبحوا تراباً تذروه الرياح . أما هو فقد ظل وحده ، ورغم كل شىء ، شامخاً خالداً منتصراً على الانسان الغادر وعلى الزمان الفانى !

عند ما رسم دانتى صورة أوجولينو على هذا النحو ، أفصح عن بعض خفايا النفس البشرية ، وهو ما كانت تحول تقاليد العصور الوسطى دون ظهوره . خلق دانتى هذه الشخصية ، التى تدب الحياة فى أوصالها ، وتتجاذبها مشاعر إنسانية متفاوتة ، وتتنفس وتعبر ، بصدق وبساطة ، عما جاش بين جوانحها ، وبذلك كله ضرب معولا فى تقاليد العصور الوسطى ، ووضع إحدى دعامات التاريخ الحديث ، الذى بدأت عناصره تظهر أولا فى مجال الروح الانسانى ، ثم أخذت آثاره تسرى في شتى مرافق الحياة الانسانية . وأى إعجاز فى الفن هذا كله ! وأية أعجوبة خالدة رسمها دانتى بريشته العبقرية !

استعان دانتى بالفن والتاريخ على السواء ، فى خلق هذه الصورة الانسانية الرائعة ، وبذلك وضع بعض أسس التاريخ الحديث . أكمل الفن عنده التاريخ ، وملأ صفحاته البيضاء ، وأعطى التلوين المناسب ، الذى أفلت من سجل التاريخ . واستوحى دانتى فنه من الواقع ومن غير الواقع ، من أحداث السياسة ، ومن صراع الأحزاب ، ومن مشاعر الانسان ومن أحلامه وأمانيه . إن الفن والتاريخ متحدان ومفترقان على السواء . لا يخلق الفن بغير التاريخ ، الذى يمده بالأساس الذى يبنى عليه ويعمل فى نطاقه : ولا يتحرك التاريخ ويحيا بغير الفن . لابد من التاريخ فى الفن ، ولابد من الفن فى التاريخ .

آوجولينو دِلَّا جيرارْدسكا

دانتي أليجييري : الكوميديا الإلهية

الجحيم : ٣٢ : ١٢٤ — ١٣٩

١٢٤ وكنا قد ابتعدنا عنه [٣٣] ،
عند ما رأيت اثنين متجمدين فى ثغرة واحدة ،
وكان رأس أحدهما [٣٤] كقلنسوة لرأس الثانى [٣٥] ؛

١٢٧ وكما يلتهم الجائع الخبز ،
نهش الأعلى صاحبه
بأسنانه فى مؤخر رأسه [٣٦].

١٣٠ وعند ما نهش تيديو صدغىْ
مينالِپُّو [٣٧] ، وهو فى ثورة الغضب ، لم يفعل
غير ما فعله هذا ، بجمجمة الآخر وبقية أجزائها [٣٨].

١٣٣ فقلت : « يا من تُظهر بهذا العمل الوحشى
الكراهية لمن أنت تنهش رأسه ،
أخبرنى هل لذلك سبب ! ولك عندى

١٣٦ أنك إذا كنت تأسى بحق من سوء
فعله ، وإذا عرفتُ أنا من أنتما وعرفتُ خطيئته ،
فانى سأعوضك فى ذلك العالم الأعلى [٣٩] ،

١٣٩ إذا لم يجف لسانى [٤٠] » .

الجحيم : ٣٣ : ١ — ٩٠

١ رفع ذلك الآثم فمه [٤١]
عن الطعام الخبيث ، ومسحه
فى شعر الرأس الذى نهش مؤخره [٤٢].

UGOLINO DELLA GHERARDESCA

Dante Alighieri: La Divina Commedia

INFERNO: XXXII. 124–139.

124. Noi eravam partiti già da ello,
ch'io vidi due ghiacciati in una buca,
sì che l'un capo a l'altro era cappello;

127. e come 'l pan per fame si manduca,
così 'l sovran li denti a l' altro pose
là 've 'l cervel s' aggiugne con la nuca.

130. Non altrimenti Tideo si rose
le tempie a Menalippo per disdegno,
che quei faceva il teschio e l' altre cose.

133. "O tu che mostri per sì bestial segno
odio sovra colui che tu ti mangi,
dimmi 'l perchè" diss' io, "per tal convegno,

136. che se tu a ragion di lui ti piangi,
sappiendo chi voi siete e la sua pecca,
nel mondo suso ancora io te ne cangi,

139. se quella con ch' io parlo non si secca".

INFERNO: XXXIII. 1–90

1. La bocca sollevò dal fiero pasto
quel peccator, forbendola a' capelli
del capo ch' elli avea di retro guasto.

٤ ثم بدأ قائلا : « أتريد أن أجدد
الألم اليائس ، الذى يهصر قلبى مجردُ
التفكير فيه ، وقبل أن أقصه عليك [٤٣] ؟

٧ ولكن إذا كانت كلماتى تثمر
سوء السمعة الى من أنهش رأسه ،
فانك سترانى أتكلم وأبكى معاً [٤٤].

١٠ لست أعرف من أنت ، ولا بأية طريقة
هبطت هنا [٤٥] ؛ ولكن عند ما أسمعك
تبدو لى فى الحقيقة رجلا فلورنسياً [٤٦] .

١٣ يجب أن تعرف أنى كنت أُدعى الكونت أوجولينو ،
وكان غريمى هذا يُدعى الأسقف رودجيرى :
وسأخبرك الآن لماذا أنا على هذه الصورة أجاوره [٤٧].

١٦ وليس سراً خفياً أن أقول [٤٨]
إنه بسبب النوايا الخبيثة لمن وثقتُ به [٤٩].
قد وقعت أسيراً ولقيت حتفى .

١٩ ولكنك سوف تسمع ما كان يستحيل عليك أن
تسمعه من أحد [٥٠]، ألا وهو كيف كان الموت الذى لقيته وحشياً،
وسوف تعرف ما إذا كان قد أساء إلىّ [٥١].

٢٢ ومن فتحة ضيقة [٥٢] فى ذلك القفص [٥٣]
الذى أصبح بسببى برج الجوع ،
وكان على غيرى من الناس أن يحبسوا فيه [٥٤]،

٢٥ ظهر لى خلالها أشعة
القمر عدة مرات [٥٥]، حتى استغرقتُ فى ذلك
النوم المزعج [٥٦] الذى أزاح عنى حجاب المستقبل [٥٧].

4. Poi cominciò: "Tu vuo' ch' io rinovelli
disperato dolor che 'l cor mi preme
già pur pensando, pria ch' io ne favelli.

7. Ma se le mie parole esser dien seme
che frutti infamia al traditor ch' i' rodo,
parlare e lacrimar vedrai insieme.

10. Io non so chi tu se' nè per che modo
venuto se' qua giù; ma fiorentino
mi sembri veramente quand' io t' odo.

13. Tu dei saper ch' io fui conte Ugolino,
e questi è l' arcivescovo Ruggieri:
or ti dirò perch' i son tal vicino.

16. Che per l' effetto de' suo' mai pensieri,
fidandomi di lui, io fossi preso
e poscia morto, dir non è mestieri;

19. però quel che non puoi avere inteso,
ciò è come la morte mia fu cruda,
udirai, e saprai s' e' m' ha offeso.

22. Breve pertugio dentro de la muda
la qual per me ha il titol de la fame,
e 'n che conviene ancor ch' altrui si chiuda,

25. m' avea mostrato per lo suo forame
più lune già, quand' io feci 'l mal sonno
che del futuro mi squarciò il velame.

٢٨ وفى الحلم بدا لى هذا الرجل[٥٨] رئيساً وقائداً
لحملة صيد ، طاردت الذئب وجراءه[٥٩] فى شعاب ذلك الجبل[٦٠]
الذى يحجب لوكا عن أعين بيزا[٦١] .

٣١ ووضع فى المقدمة ،
آل جوالاندى وسسموندى ولانفرانكى[٦٢] ،
مع كلاب ضامرة متحفزة مدربة على الصيد[٦٣] .

٣٤ وبعد شوط قصير بدا لى
الأب وأبناؤه[٦٤] فى حالة إعياء ، ورأيت
الأنياب الحادة قد نهشت جوانبها[٦٥] .

٣٧ وعند ما استيقظت قبيل الفجر ،
سمعت أولادى[٦٦] ، الذين كانوا الى جانبي ،
وهم يبكون فى نومهم ويطلبون الخبز[٦٧] :

٤٠ إنك قاسى القلب ، إن كنت لم تتأثر بعد ،
بما أفصح عنه قلبي ومر فى خاطرك :
وإذا كنت لا تبكى لهذا ، ففيم يكون البكاء[٦٨] ؟

٤٣ وكانوا قد استيقظوا عند
حلول وقت الطعام المرتقب[٦٩] ،
بينما كان كل منهم من حلمه فى قلق[٧٠] ؛

٤٦ وسمعت فى أسفل ، صوت إغلاق باب
البرج المخيف[٧١] ؛ وعندئذ نظرت
الي وجوه أبنائى دون كلام[٧٢] .

٤٩ ولم أبك ، ولكنى تحولت الى حجر[٧٣] .
وبكوا هم[٧٤] ؛ وقال طفلى العزيز
أنسلموتشو[٧٥] : " أبتاه ما بالك تنظر هكذا ! ماذا بك ؟ "[٧٦]

28. Questi pareva a me maestro e donno,
cacciando il lupo e i lupicini al monte
per che i Pisan veder Lucca non ponno.

31. Con cagne magre, studiose e conte,
Gualandi con Sismondi e con Lanfranchi
s' avea messi dinanzi da la fronte.

34. In picciol corso mi parieno stanchi
lo padre e i figli, e con l' agute scane
mi parea lor veder fender li fianchi.

37. Quando fui desto innanzi la dimane,
pianger senti' fra 'l sonno i miei figliuoli
ch' eran con meco, e domandar del pane.

40. Ben se' crudel, se tu già non ti duoli,
pensando ciò che 'l mio cuor s' annunziava;
e se non piangi, di che pianger suoli?

43. Già eran desti, e l' ora s' appressava
che 'l cibo ne solea esser addotto,
e per suo sogno ciascun dubitava;

46. e io senti' chiavar l' uscio di sotto
a l' orribile torre, ond' io guardai
nel viso a' mie' figliuoi sanza far motto.

49. Io non piangea, sì dentro impetrai:
piangevan elli; e Anselmuccio mio
disse: 'Tu guardi sì, padre! che hai?'

٥٢ ومع ذلك فلم أبك ولم أتكلم
طول ذلك النهار والليل التالى ،
حتى بزغت على العالم شمس اليوم التالى[٧٧] .

٥٥ وعند ما تخلل السجن الأليم
شعاع ضوء طفيف ، ورأيت فى
وجوه أبنائى الأربعة وجهى ذاته[٧٨] ،

٥٨ عضضت يدى من فرط الألم[٧٩] ،
فظنوا أنى فعلت ذلك لرغبتى
الشديدة فى الطعام ، ونهضوا سريعاً[٨٠] ،

٦١ وقالوا : " أبتاه ! إننا نكون أقل ألماً ،
إذا أكلتنا نحن : إن لحمنا البائس
هو بضعة منك ، فخذه إليك "[٨١] .

٦٤ فهدأتُ نفسى حتى لا أزيد ألمهم[٨٢] ؛
وسكتنا جميعاً ذلك اليوم واليوم التالى[٨٣] :
إيه أيتها الأرض القاسية ، لماذا لا تنشقى ؟[٨٤]

٦٧ ولما أشرفنا على اليوم الرابع[٨٥] ،
ارتمى جادّو[٨٦] عند قدمىّ ،
قائلا : " ألا تساعدنى يا أبتاه ؟ "[٨٧]

٧٠ وهناك سقط ميتاً . وكما أنت ترانى[٨٨] ،
رأيت الثلاثة يسقطون واحداً واحداً
بين اليوم الخامس والسادس ، وكنت قد أصبحت

٧٣ أعمى[٩٠] فأخذت ألمسهم واحداً واحداً[٩١] ،
وظللت أناديهم بأسمائهم يومين كاملين ، وهم موتى[٩٢] :
ثم فعل بى الجوع ما لم يفعله الألم »[٩٣] .

52. Perciò non lacrimai nè rispuos' io
tutto quel giorno nè la notte appresso,
infin che l' altro sol nel mondo uscìò.

55. Come un poco di raggio si fu messo
nel doloroso carcere, e io scorsi
per quattro visi il mio aspetto stesso,

58. ambo le man per lo dolor mi morsi;
ed ei, pensando ch' i' 'l fessi per voglia
di manicar, di subito levorsi,

61. e disser: 'Padre, assai ci fia men doglia,
se tu mangi di noi: tu ne vestisti
queste misere carni, e tu le spoglia'.

64. Queta' mi allor per non farli più tristi;
lo dì e l'altro stemmo tutti muti:
ahi dura terra, perchè non t' apristi?

67. Poscia che fummo al quarto dì venuti,
Gaddo mi si gettò disteso a' piedi,
dicendo: 'Padre mio, chè non m' aiuti?'

70. Quivi morì; e come tu mi vedi,
vid' io cascar li tre ad uno ad uno
tra 'l quinto dì e 'l sesto; ond' io mi diedi,

73. già cieco, a brancolar sovra ciascuno,
e due dì li chiamai, poi che fur morti:
poscia, più che 'l dolor, potè 'l digiuno".

٧٦ وعند ما انتهى من قوله انقض بأسنانه
الحادة على تلك الجمجمة البائسة ، وبعينين
يتطاير منهما الشرر ، مثل كلب ينهش قطعةً من عظم [٩٤].

٧٩ أواه منك يا بيزا ، يا وصمة [٩٥] فى جبين
شعب هذا البلد الجميل[٩٦] الذى تصدح فيه اللغة الحلوة [٩٧] ،
ما دام جيرانك متباطئين فى عقابك [٩٨] ،

٨٢ ألا فلتتحرج كابرايا[٩٩] وجورجونا[١٠٠] من مكانهما ،
ولتسدان مصب نهر الأرنو [١٠١] ،
حتى يغرق فيك كل إنسان حى [١٠٢] !

٨٥ وإذا كان قد أشيع أن الكونت أوجولينو
قد سلم بعض القلاع خيانةً [١٠٣] ،
فما كان ينبغى أن تصبى على أبنائه ذلك العذاب الأليم[١٠٤].

٨٨ يا طيبة الجديدة [١٠٥] ! إن خداثة السن
كانت كفيلة ببراءة أوجوتشونى[١٠٦] وبريجاتا [١٠٧]،
والاثنين الآخرين [١٠٨] اللذين ذكرتهما فى قصيدتى آنفاً .

76. Quand' ebbe detto ciò, con gli occhi torti
riprese 'l teschio misero co' denti,
che furo a l' osso, come d' un can, forti.

79. Ahi Pisa, vituperio de le genti
del bel paese là dove 'l sì suona,
poi che i vicini a te punir son lenti,

82. muovasi la Capraia e la Gorgona,
e faccian siepe ad Arno in su la foce,
sì ch' elli anneghi in te ogni persona!

85. Che se 'l conte Ugolino aveva voce
d' aver tradita te de le castella,
non dovei tu i figliuoi porre a tal croce.

88. Innocenti facea l' età novella,
novella Tebe, Uguiccione e 'l Brigata
e li altri due che 'l canto suso appella.

الحواشى

(١) الكونت أوجولينو دلا جيراردسكا (Conte Ugolino della Gherardesca) عاش فى أثناء القرن ١٣ م ، ويرجع إلى أسرة لباردية نبيلة ، كانت لها السيطرة على بعض القلاع فى سهل بيزا . وتزوج وأنجب عدة أولاد ، وآلت إليه بعض أملاك فى سردينيا ، وتزوج أحد أبنائه حفيدة الامبراطور فردريك الثانى ، وبذلك أصبح أوجولينو جداً . وكان أوجولينو من زعماء الجبليين ، وخاض ممعمان السياسة ، وأصبح له نفوذ كبير فى بيزا ، ورأى من مصلحته التحول إلى قضية الجلف ، وقد حاول أن ينقل بيزا من سياسة الجبليين إلى سياسة الجلف . وتنبه الجبليين إلى هذا السعى ، وحدث قتال مسلح بين الجانبين ، وعاونت فلورنسا وغيرها من المدن الجلفية فى تسكانا أوجولينو فى قتاله ضد الجبليين ، وبذلك نجح فى استرجاع سيطرته ، وأصبح صاحب السلطة العليا فى جمهورية بيزا ، وقاد أسطولها ضد أسطول جنوا . ولكن بيزا هزمت فى موقعة ميلوريا فى ١٢٨٤ ، وأدت هذه الهزيمة إلى قيام التفاهم بين فلورنسا وجنوا ولوكا على حساب بيزا . وحاول أوجولينو أن ينقذ بيزا من الخطر الذى يهددها ، وعمل على تفريق أعدائه — وهم أعوانه منذ قليل — مع ترضيتهم فى وقت واحد ، فسلمهم بعض القلاع ، وأظهر استعداده للتحول نهائياً إلى حزب الجلف . وهكذا أبعد الخطر مؤقتاً عن بيزا . وأقام فيها حكماً دكتاتورياً فى ١٢٨٦ ؛ ولكن الجبليين لم يسكتوا عن ذلك ، ونهضوا لاستعادة نفوذهم ، بقيادة الأسقف روديجيرى دلى أوبالدينى . ونجح الجبليين فى تنحية أوجولينو عن سلطته فى ١٢٨٨ ؛ وأسروه غدراً مع اثنين من أبنائه واثنين من حفدته — وسنعتبرهم جميعاً بمثابة أبنائه — وحبسوهم فى بيزا حيث ماتوا جوعاً . ووضع دانتى أوجولينو فى منطقة الخونة ، لأنه كان من زعماء الجبليين ومع ذلك فقد صادق الجلف وأبدى استعداده غير مرة لتحويل بيزا إلى جانبهم ، وقد عاونه الجلف فترة ، ثم انقلبوا عليه . وكانت المصلحة هى الدافع على هذا التذبذب السياسى .

(٢) Rime, CIII. 66-73.

(٣) Inf. XXXII. 97-99.

(٤) Inf. XXXIII. 149-150.

(٥) Par. XII. 59.

(٦) Rime, CIII. 83.

(٧) Inf. XI. 90.

(٨) Purg. X. 83-84.

(٩) Par. VI. 88-90.

(١٠) Par. VII. 19-21.

(١١) Inf. VII. 61, 115 ; XV. 31 ; Purg. VIII. 88 ; XXVII. 35 : Par. XV. 52 ; XXVI. 115 ; XXVII. 64.

(١٢) Inf. VIII. 44, 110 ; Purg. XIII. 34 ; XVIII. 13 ; XXIII. 4.

(١٣) الأسقف رودجيرى دلى أوبالدينى (Ruggieri degli Ubaldini) هو قريب الكردينال أوتاڤيانو دلى أوبالدينى (Inf. x. 120) وعاش فى أثناء القرن ١٣ م . دخل سلك الكهنوت وعاش فى شبابه فى بولونيا . واستدعاه الجبليين لكى يشغل منصب أسقف راڤنا ، ولكن قامت منافسة بينه وبين مرشح الجلف ، وانتهى الأمر بابعاد المرشحين المتنافسين معاً . وفى ١٢٧٨ أصبح أسقف پيزا ، وناصر قضية الجبليين ، وإن كان قد أظهر أنه صديق للجلف والجبليين على السواء . وقاد حركة الجبليين ضد أوجولينو ، وأصبح حاكم پيزا فترة قصيرة بعد سقوط أوجولينو . وقد أثار عداء الأسقف رودجيرى للجلف غضب البابا نقولا الرابع ، وأنقذه منه موت البابا نفسه . ومات رودجيرى فى ڤيتربو فى ١٢٩٥ ؛ وخيانة رودجيرى عند دانتى هى اتفاقه مع زعماء الجبليين فى پيزا ضد الجلف ، وغدره بأوجولينو وحبسه وموته مع ابنيه وحفيديه .

(١٤) Inf. v.

(١٥) Inf. vi.

(١٦) Inf. vii.

(١٧) Inf. ix, x, xi.

(١٨) Inf. xii.

(١٩) Inf. xiii.

(٢٠) Inf. xxiv, xxv.

(٢١) Inf. xxxii.

(٢٢) Inf. xxxii, xxxiii.

(٢٣) Inf. xxxiii.

(٢٤) Inf. xxxiv.

(٢٥) الدائرة القائينية أو دائرة قايين الذى قتل أخاه هابيل . وقايين فى الايطالية هى (Caina) . وآثرت الابقاء على اللفظ الايطالى .

(٢٦) منطقة الانتينورا نسبة إلى (Antenore) أمير طروادة الذى خان وطنه وسلم جزءاً من أرضه إلى الأعداء .

(٢٧) عندما فقد ماكدوف أبناءه وزوجته فى مأساة ماكبث ، تولاه حزن مخيف ، فحاول مالكولم أن يعزيه ويهدئ من روعه ودعاه إلى الانتقام من القاتل . فأجاب ماكدوف على الفور بأن ليس للقاتل أبناء ! وكانت تلك إجابة مرعبة صدرت من أب يائس لايقوى على الانتقام .

Shakspeare, Macbeth, iv. 3.

(٢٨) Inf. v.

(٢٩) Inf. x.

(٣٠) cit.

(٣١) Inf. v.

(٣٢) Inf. xxxiii. 109-150.

(٣٣) يقصد بوكا دلى أباتى (Bocca degli Abati) وهو مواطن فلورنسى من حزب الجلف ، خان حزبه وقطع يد حامل العلم الفلورنسى الجلفى ، وكان ذلك من عوامل هزيمة فلورنسا على يد الجبلين فى موقعة مونتابرتى فى ١٢٦٠

(٣٤) صاحب الرأس الأعلى هو أوجولينو .

(٣٥) أى الأسقف رودجيرى . وهناك تشابه بين منطقة الجمد والزمهرير عند دانتى وبين ما ورد فى القرآن وفى ثقافة الشرق . وسنعود إلى دراسة هذه الناحية فى بحث خاص .

(٣٦) أى أن أوجولينو المتعطش للانتقام نهش بأسنانه الأسقف رودجيرى عند اتصال الرقبة بالرأس .

(٣٧) يروى ستاتزيو أن مينالبو من طيبة فى اليونان القديمة قد جرح تيديو جرحاً مميتاً ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقتله وهو جريح ، وسأل أصحابه أن يحملوا إليه رأس مينالبو ، فنهشها وهو ملىء بالغضب والكراهية .

Stazio, Theb. VIII. 140...

(٣٨) بقية الأجزاء أى لحم الرأس والمخ . وهذا دليل على بشاعة ذلك العمل الوحشى . ولم يذكر دانتى هذه الأجزاء واكتفى بالاشارة إليها . وأجريت بعض تعديل فى ترتيب هذه الأبيات .

(٣٩) أثار هذا العمل الوحشى دانتى ، فحاول أن يعرف السبب ، وحاول أن يحرض المنتقم على الافصاح عن كل شىء ، ووعده بأنه سيزيد الانتقام باشاعة أمر هذه الجريمة فى الدنيا ، وربما ظن أن المنتقم لن يلتفت إليه لأنه مشغول بانتقامه .

(٤٠) يقصد لسانه . أى أنه وعده بذكر هذه الجريمة فى الدنيا ، ولن يمنعه عن ذلك سوى الموت ، وذلك رغبة منه فى أن يحمله على الكلام .

(٤١) بدأ دانتى هذه القصيدة بالفم المفترس المتوحش ، وكان الفم عنده أهم مافى الرأس .

(٤٢) يدل هذا على الدم الذى غطى فمه ، ولم يشأ دانتى أن يذكره .

(٤٣) يعبر ذلك عن الألم العنيف الذى سيطر على أوجولينو . يشبه هذا قول فرجيليو فى الانيادة :

"Infandum, regina, iubes renovare dolorem".

Virg. Æn. II. 3.

(٤٤) ومع أن الكلام عن مأساته يزيده ألماً ، فانه سيتكلم ويبكى فى وقت واحد ، مادام أن هذا سيثمر سوء السمعة لذلك الآثم الغادر . ويشبه هذا بكاء فرنتشسكا مع الكلام ، مع الفارق بين الموقفين .

Inf. V. 126.

(٤٥) لايهم أوجولينو أن يعرف شخص هذا الزائر . ويكفيه أن يعرف أنه مواطن فلورنسى .

(٤٦) عرف أنه مواطن فلورنسى من طريقة كلامه . وكذلك عرف فاريناتا من قبل أن دانتى مواطن فلورنسى .

Inf. X. 25.

(٤٧) بعد أن عرف شخصيهما سيخبره عن سبب ذلك الانتقام الوحشى .
(٤٨) عرفت كل تسكانا بهذه المؤامرة ، ولا يخفى خبرها على دانتى الفلورنسى .
(٤٩) عندما انتصر الجبليين على الجلف وطردوهم من بيزا فى يونيو ١٢٨٨ ، كان روجييرى وغيره من زعماء الجبليين قد طلبوا الاجتماع بأوجولينو للوصول معه إلى اتفاق . فوثق بهم وذهب للقائهم . وجرت الحادثات فى صباح أول يوليو ، وكان من المتفق عليه أن تستمر بعد ظهر اليوم نفسه ، ولكن حدث أن نكث الجبليين بالعهد وأسروا أوجولينو ومن معه .
(٥٠) أى أن هناك تفصيلات وحشية لايعرفها أحد .
(٥١) عبر أوجولينو بكلمات موجزة عما لقيه فى السجن من العذاب .
(٥٢) فى يوليو ١٢٨٨ وقع أوجولينو فى الأسر مع ولديه جادو (Gaddo) وأوجوتشونى (Uguccione) ، ومع حفيديه نينو (Nino) الملقب باسم بريجاتا (Brigata) وأنسلموتشو (Anselmuccio) ، حيث حبسوا أكثر من ٢٠ يوماً ، ثم نقلوا إلى برج جوالندى (Gualandi) الذى بقوا فيه حتى ماتوا جوعاً فى مايو ١٢٨٩
(٥٣) هو برج جوالاندى . وسمى برج الجوع بعد موت أوجولينو وسلالته فيه جوعاً . واستخدم البرج كسجن حتى ١٣١٨ . واستخدمته حكومة بيزا أحيانا كمكان لتفريخ النسور . ثم أصبح برج الكومون وقد أقيم فى مكانه قصر الساعة فى بيزا فى الوقت الحاضر .
(٥٤) أى أن أوجولينو يفكر فى غيره من الناس الذين سينالهم الغدر والخيانة فيحبسوا فى هذا البرج ذاته .
(٥٥) عرف الوقت بالقمر ، ويدل هذا على أنه قضى فى هذا البرج عدة شهور .
(٥٦) النوم البغيض الذى اكتنفه الغدر والسجن والعذاب والشك فى المستقبل والأمل فى الخلاص .
(٥٧) أى أنه رأى حلماً أوضح له المصير المحتوم .
(٥٨) يقصد الأسقف روجييرى .
(٥٩) يمثل الذئب وجراؤه أوجولينو وأولاده .
(٦٠) هو جبل سان جوليانو (San Giuliano) الذى يقع بين أملاك بيزا ولوكا . وهكذا يعنى دانتى بتحديد هذا الوضع تحديداً جغرافياً .
(٦١) يقول النص : الجبل الذى لا يستطيع أهل بيزا أن يروا خلاله لوكا . وقد أحدثت بعض التغيير فى طريقة التعبير ، وإن كان ذلك لم يغير المعنى المقصود .
(٦٢) هذه هى الأسر الجبلينية فى بيزا التى حرضها روجييرى على مهاجمة أوجولينو . (Gualandi, Sismondi, Lanfranchi)
(٦٣) يقصد شعب بيزا الذى اشترك فى مهاجمة أوجولينو .
(٦٤) أى الذئب وجراءه كناية عن أوجولينو وأولاده .
(٦٥) يعبر هنا عما لحق أوجولينو وأولاده من العذاب .
(٦٦) يقصد ولديه وحفيديه .

(٦٧) هذا عذاب للأب الذي كان يرقب بناءه في نومهم ، ويستمع إلى تأوهاتهم .
(٦٨) لم يلحظ أوجولينو تأثر دانتي بما سمعه فأخذ يؤنبه ويسخر به ، وإن كان ذلك لا يعني أن دانتي لم يتأثر فعلا .
(٦٩) يقول النص : كانوا قد استيقظوا واقتربت الساعة التي اعتاد أن يحمل إلينا فيها الطعام .
(٧٠) أي أن الأبناء قد رأوا حلماً مشابهاً لما رآه أوجولينو ، واستيقظوا وقد سيطرت عليهم الهواجس .
(٧١) أمر الأسقف رودجيري بإيصاد باب البرج وإلقاء مفاتيحه في نهر الأرنو ، وكان معنى ذلك الموت للسجناء . وثق أوجولينو من الموت الوشيك الوقوع .
(٧٢) تفرس في وجوه أبنائه وحاول أن يعرف الأثر الذي أحدثه في نفوسهم سماع صوت الباب المغلق . ولم ينطق أوجولينو بكلمة حتى لا يجعل أبناءه يحسون بالخطر .
(٧٣) حبس أوجولينو دمعه وتحول إلى حجر حتى لا يشعر الأبناء بشيء .
(٧٤) أي أن الأولاد بكوا ، وتمتعوا بنعمة البكاء التي حرم أوجولينو إياها .
(٧٥) في هذه الكلمات حنو الأب على أبنائه .
(٧٦) جزع الابن من هذه النظرة التي لم يفهمها ، وحاول أن يعرف السبب .
(٧٧) تألم أوجولينو ولم يبك ولم يتكلم من أجل أبنائه .
(٧٨) كان قد ظهر أثر السجن والجوع على الجميع ، وعندما لاح بصيص من نور رأى أوجولينو في وجوه أبنائه من الشحوب والهزال والألم ما حدث له ، وهو يرى نفسه في أبنائه .
(٧٩) عض أوجولينو يديه من فرط الألم . وتلك حركة عصبية صدرت عنه على الرغم منه .
(٨٠) نهضوا هم الأربعة واقفين لأنهم ارتاعوا عندما ظنوا أن أباهم يأكل يديه جوعاً .
(٨١) عرضوا على أبيهم أن يأكلهم ، لأن لحمهم منه . وهذا عرض الأطفال السذج ، الذين يريدون أن يضحوا بأنفسهم من أجل أبيهم .
(٨٢) أي وقف عن عض يديه بأسنانه حرصاً على شعور أبنائه .
(٨٣) بعد هذه الحركة العصبية عادوا إلى الصمت مرة أخرى .
(٨٤) يشبه هذا قول فرجيليو في الانيادة :

"Et nunc palantes, video, gemitumque cadentum accipio. Quid ago? aut quae iam satis dehiscat terra mihi?"

Virg. Æn. x. 673.

(٨٥) اليوم الرابع منذ إغلاق باب البرج .
(٨٦) أحد أبناء أوجولينو . وكان في الحقيقة شاباً حصل على لقب كونت . ولكن دانتي اعتبره والابن الآخر والحفيدين كأطفال صغار ، لكي يصبح الموقف أكثر تأثيراً .
(٨٧) اعتقد الابن أن أباه يستطيع مساعدته ، على غير حقيقة .

(٨٨) أى أن الأمر حقيقى كرؤية دانتى لأوجولينو .
(٨٩) الثلاثة الباقون هم أوجوتشونى وبريجاتا (أو نينو) وأنسلموتشو .
(٩٠) فقد أوجولينو بصره حزناً وألماً وجوعاً .
(٩١) أخذ ينوح عليهم من فرط الحزن والهلع . ويشبه هذا قول أوفيد :
"Corporibus gelidis incumbit, et ordine nullo oscula dispensat natos suprema per amnes".

Ovid. Met. v. 274.

(٩٢) هذا تعبير عن منتهى الحزن والألم .
(٩٣) أى قتله الجوع ولم يقتله الألم .
(٩٤) عاد أوجولينو إلى عمله الانتقامى السابق .
(٩٥) لم يقاطع دانتى حديث أوجولينو ولم يعقب عليه بشىء . وظل ساكتاً منصتاً كل الانصات . وعندما انتهى أوجولينو من كلامه عبر عن شعوره بهذه اللعنات التى صبها على أهل بيزا ، عار إيطاليا . وهو يعبر بذلك عن كراهية الرأى العام الفلورنسى لبيزا الجبلينية .
(٩٦) أى إيطاليا .
(٩٧) أى اللغة الايطالية .
(٩٨) يقصد أهل فلورنسا ولوكا .
(٩٩) جزيرة كابرايا (Capraia) فى جنوبى غرب ليفورنو ، وكانت تابعة لبيزا .
(١٠٠) جزيرة جورجونا (Gorgona) فى شمالى غرب جزيرة إلبا ، وكانت تابعة لبيزا .
(١٠١) يخترق نهر الأرنو (Arno) مدينة بيزا قبل مصبه بقليل ، فاذا ماسدت الجزيرتان المصب طغت الماء وأغرقت كل أهل بيزا .
(١٠٢) هذا هو الجزاء الذى يستحقه أهل بيزا عند دانتى .
(١٠٣) كان أوجولينو قد سلم بعض القلاع إلى فلورنسا ولوكا فى ١٢٨٤ عندما اتحدتا على بيزا ، وبذلك أنقذها من الخطر ، ولم يكن فى هذا أى خيانة . ولكن أعداءه صوروا الأمر على ذلك النحو .
(١٠٤) لم يكن هناك مايدعو إلى موت الأبناء الأبرياء .
(١٠٥) يشبه بيزا بطيبة فى اليونان القديمة التى قتلت بعض أبنائها الأبرياء .
(١٠٦) أوجوتشونى أحد أبناء أوجولينو .
(١٠٧) بريجاتا حفيد أوجولينو وابن الكونت جلفو .
(١٠٨) أى جادو وهو ابن أوجولينو وأنسلموتشو حفيده .
قمت ببعض التصرف فى ترجمة النص الايطالى من الكوميديا فى بعض الأحيان ، مثل تغيير نظام بعض الأبيات أو وضع كلمة بدلا من جملة أو العكس أو إضافة كلمة غير موجودة بالنص الايطالى ، وذلك لتوضيح المعنى لقراء اللغة العربية .
وإنى أشكر زميلى الدكتور جمال الدين الشيال مدرس التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالاسكندرية لتفضله هذه المرة أيضاً بمراجعة هذا البحث .

مكتبة البحث

أولاً — مؤلفات دانتى أليجيرى :

Dante Alighieri: La Divina Commedia.
— commentata da L. Pietrobono. Torino, 1932.
— „ „ V. Rossi. Città di Castello, 1923.
— „ „ I. Del Lungo. Frienze, 1928.
— con il commento di T. Casini. Frienze, 1932.
— nel testo critico della Società Dantesca Italiana, esposta e commentata da E. Mestica. Frienze, 1921.
— nella Figurazione Artistica e nel Secolare Commento, a cura di G. Biagi. Torino, 1924.
— Il Poema Sacro. Riassunti e Schemi per lo Studio della D. C. fatti da A. Gustarelli. Milano, 1934.
— La D. C. Schemi, riassunti, analisi dei singoli canti di E. Bigami. Milano, 1948.
— The Divine Comedy, Eng. Trans. by H. Cary. Florence ?
— „ „ „ „ „ by M. Anderson. U.S.A. ?
— „ „ „ „ „ by J. Carlyle, Ph. Wicksteed, Th. Okey. U.S.A., 1944.
— „ „ „ „ „ by L. G. White. New York, 1948.
— „ „ „ „ „ by D. L. Sayers. v. I. London, 1949.
— La Divine Comédie. Trad. Franç. par P. A. Fiorentino. Paris, 1892.
— „ „ „ „ „ par A. de Montor. Paris ?
— „ „ „ „ „ „ H. Longon. Paris, 1938.
— „ „ „ „ „ „ Brizeux. Paris, 1943.
— „ „ „ „ „ „ A. Masseron. Paris, 1947-1949.

— جحيم دانتى ، ترجمة أمين أبو شعر . القدس ، ١٩٣٨

Dante Alighieri: Opere Minori. Firenze, 1935.

ثانيا — مراجع خاصة وعامة :

Chiari, A.: Letture Dantesche. Firenze. 1939.

Dal Borgo, F.: Dissertazioni sopra l'Istoria Pisana. Pisa. 1761-1768.

De Sanctis, F.: Storia della Letteratura Italiana. 2 vol. Milano, 1934.

" " ": Saggi Critici. Milano, 1936.

D'Ovidio, F.: L'Eipsodio di Ugolino. Nuovi Studi Danteschi. p. II. Napoli, 1934.

Gillet, L.: Dante. Rio de Janeiro, 1941.

Messeri, A.: Lectura Dantis. Il Canto XXXII. dell'Inferno. Firenze, 1925.

Papini, G.: Dante Vivo. Firenze, 1943.

Romani, F.: Lectura Dantis. Il Canto XXXIII. dell'Inferno. Firenze, 1928.

Villari, P.: The Two First Centuries of Florentine History. Eng. Trans. by L. Villari. London, 1901.

حسن عثمان : دانتي أليجييري : حياته وشخصيته . مجلة الكاتب المصري مجلد ٨ عدد ٣١ القاهرة ، أبريل ١٩٤٨

» : فرنتشسكا دا ريميني عند دانتي أليجييري . مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . مجلد ١١ جزء ١ . القاهرة ، مايو ١٩٤٩

» : فارينانا دلي أوبرتي وكافالكانتي دي كافالكانتي في جحيم دانتي . مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . مجلد ١١ جزء ٢ . القاهرة، ديسمبر ١٩٤٩

محاورة المهدى مع تيموتاوس

للدكتور محمد حمدى البكرى

(١)

كان لانتشار الاسلام ، وفتح العرب لبلاد السريان ، أثر كبير فى انتشار اللغة العربية وتغلبها على اللغة السريانية ، وكان من أثر ذلك أن أخذ الأدب السريانى يتضاءل شيئاً فشيئاً ، وقل عدد الذين يؤلفون فى السريانية ، وبقى الحال على ذلك طوال الفترة التى كان ساعد الدولة العربية فيها قوياً ، فلما فسد الأمر على الدولة العربية من الناحية السياسية بدأ الأدب السريانى يستجمع قواه لينهض مرة أخرى ، وتبدأ معالم هذه النهضة فى الظهور بانتصاف القرن الحادى عشر الميلادى ، ولكنها لم تدم طويلا فقد تدهور الأدب السريانى ثانية حينما خضعت بلاد السريان للحكم التركى .

وقد ظفر الجدل من عناية الكتاب فى عصر هذه النهضة الأخيرة بما لم يظفر به غيره من فنون الأدب ، فقد كان الكتاب يريدون أن يكسبوا لدينهم مركزاً ممتازاً بعد أن رأوا أن سلطان الدولة الحاكمة قد أخذ يضعف . ويقولون إن هرب مرقس بن قيقى مفريان الموصل إلى بغداد سنة ١٠١٦ ميلادية ودخوله فى الاسلام هو السبب المباشر فى مضاعفة إيقاظ الشعور الدينى وحفز الكتاب إلى زيادة الاهتمام بالكتابات الدينية والجدلية ، ولعل نظرة واحدة إلى الفهرس الزمنى للمؤلفين الذى ألحقه شتينشنيدر بكتابه [١] كافية لتعزيز فكرة أن كثرة كتب الجدل الموضوعة فى العربية بين الاسلام والمسيحية مؤلفة خلال القرن الحادى عشر وبعده . فاذا عرفنا أن التأليف

(١) Steinschneider, Polemische und apologetische Literatur in arabischer Sprache, Berlin, 1877.

فى السريانية كان هزيلا فى العصر الاسلامى قبل عهد النهضة : وأن أقدم إشارة إلى ما وضع من كتب الجدل قبل القرن الحادى عشر هو ما جاء فى فهرس عبد يشوع ابن بريخا المتوفى سنة ١٣١٨ م . أى فى الفترة التى ختم بها الأدب السريانى ، استطعنا أن نصل من دراسة كتب الجدل المنسوبة إلى هذه الفترة — سواء فى اللغة السريانية أو العربية — إلى أن أكثر هذه الكتب ليست صحيحة فبعضها مدسوس على مؤلفيها كما رأينا فى رسالة الهاشمى إلى الكندى [١] . وبعض المناظرات إن صحت نسبته إلى أحد المتناظرين فلا يمكن أن تصح نسبتها بحال من الأحوال إلى المتناظر الثانى كما سنرى فى هذه المحاورة موضوع البحث .

(٢)

نشر منجانا الصورة الشمسية للرسالة السريانية التى تشتمل على هذه المحاورة فى مجموعة دراسات وود بروك [٢] وهى صورة المخطوط الذى نسخه لمنجانا القسيس ابراهام شيكوانا القوشى عن أقدم مخطوط محفوظ لهذه المحاورة بدير العذراء بالقرب من القوش والموضوع فى فهرس أدى شر تحت رقم ٩٠ ويذكر منجانا أنه يمكن نسبة هذا المخطوط القديم الى القرن الثالث عشر . وقد نسخ من هذا المخطوط القديم عدة نسخ أقدمها نسخة سيرت التى كانت تحت رقم ٦٥ نسخت فى القرن الثامن عشر ، ويقول منجانا إنه علم أثناء رحلته التى قام بها الى الشرق سنة ١٩٢٥ أن الأكراد قد أعدموا هذا المخطوط أيام الحرب الكبرى الأولى فيما بين سنتى ١٩١٤ و ١٩١٨ ، ويوجد غير هذه النسخة ، نسخة محفوظة فى الفاتيكان تحت رقم ٨١ ، ونسخة ماردين رقم ٥٠ ، ونسخة منجانا رقم ١٧ ، وكلها نسخت فى القرن التاسع عشر . ويؤكد منجانا مطابقه نسخته للنسخة القديمة ويذكر أنه راجعها عليها بنفسه أثناء رحلته الى الشرق .

---

(١) انظر مجلة كلية الآداب العدد التاسع ، المجلد الأول ، مايو ١٩٤٧

(٢) A. Mingana, The Apology of Timothy the Patriarche before the Coliph Mahdi. Wood brooke Studies, vol. II. p. 91 Manchester. 1928.

وعدد ورقات مخطوط منجانا ٧٢ ورقة لا ٧١ كما هو مرقوم على الورقة الأخيرة ، وذلك راجع الى خطأ الناسخ الذى كرر الرقم ٦٢ (هد) مرتين كما يرى في صفحتى ١٥٢ و١٥٣ من النشرة ، وقد نشر منجانا قبل هذا النص مقدمة وترجمة انجليزية له [1] . ونشر الأب لويس شيخو ترجمة عربية لهذه المحاورة فى مجلة المشرق مجلد ١٩ ص ٣٥٩ — ٣٧٤ و ٤٠٨ — ٤١٨ .

فاذا سلمنا جدلا بوقوع هذه المناظرة فالأمر الذى لاشك فيه أنها لم تسجل وقت وقوعها ولكنها سُجلت بعد ذلك بحين ، يدل على ذلك ما جاء فى مقدمة هذه الرسالة : « ليكن فى علم حكمتكم يا محب الرب أنى تشرفت برؤية مليكنا المظفر قبل هذه الأيام » . ولا يمكن تحديد هذه الفترة التى انقضت بين وقوع المناظرة وتدوينها لعدم وجود ما يدل على مقدارها فيما بقى لنا من النصوص .

والذى لا يمكن أن يكون موضع شك أيضاً — إن صحت هذه المناظرة — أنها وقعت باللغة العربية ، وأن الذى سجلها هو المناظر المسيحى وأنه كتبها باللغة السريانية بما أوحته اليه نزعته الدينية كبطرق نسطورى . وبذلك فان هذا النص لا يمثل صورة صحيحة لهذه المناظرة ولكنه يمثل وجهة النظر المسيحية أصدق تمثيل . وقد شعر منجانا نفسه بذلك فقال فى مقدمته : « والرسالة عبارة عن حوار دينى خاص بين تيموتاوس وبين المهدى ، وليس من الضرورى أن نفترض أن كل كلمة فى هذه الرسالة قد قيلت حرفياً ، ولكن هناك احتمالات كثيرة تدعونا الى أن نصدق أنها تحتوى على تحليل دقيق لأسئلة الخليفة وإجابات البطرق ، ويمكن أن نقول هنا بصيغة التأكيد أن غرض البطرق الرئيسى هو أن يعرض على مخالفى دينه صورة إجاباته على أسئلة الخليفة . وربما كان قد أهمل فى تسجيل كل كلمات الخليفة ولكنه اكتفى بذكر خلاصة اعتراضاته » .

ونستطيع أن نفهم من المقدمة التى قدمها تيموتاوس لمناظرة اليوم الثانى التى يقول فيها « وفي اليوم الآخر قابلت أمير المؤمنين وكان بيننا كثير من هذه

(١) ص ١٥ — ٩٠ من الكتاب السابق .

المقابلات ، أحيانا لشئون الدولة وفي أحيان أخرى حبا في الحكمة والعلم اللذين كانا يتوقدان في نفس أمير المؤمنين » أن المهدى كان يناظر تيموتاوس في كثير من الأحيان فاذا رجعنا الى كتب التاريخ لما وجدنا فيها ذكراً لمثل هذه الصلة الدائمة بين المهدى وتيموتاوس ، وإنما الذى يرويه التاريخ عن المهدى أنه كان « أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف كتب عن الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم » [١] .

وقد حاول منجانا أن يرجع هذه المناظرة الى سنة ١٦٥ هـ (= ٧٨١م.) مستنداً في ذلك على فقرة وردت في المناظرة [٢] « قال ملكنا المظفر : ألم يسم الأنبياء المسيح خادما عدة مرات ؟ فقلت : أنا واثق أيها الملك أن المسيح قد سمى خادما . ولكن هذه التسمية لاتدل على خدمة حقيقية ، ويمكن التدليل على ذلك بما يؤخذ من حالة هرون زهرة ملكك فالمعروف الآن لكل الناس أنه ولى العهد ولكنه سينادى به ملكا وحاكما للجميع بعد حكمك الطويل فقد قام بالمهمة الحربية في الغزوة التى أرسله أمير المؤمنين الى القسطنطينية من أجلها ليحارب البيزنطيين الثوار الظلمة . وهو بالخدمة في هذه البعثة لن يفقد حريته وبنوته الملكية ، ولا مجد الامارة وشرفها ويتصف بصفة الخدمة والخضوع » والمعروف أن المهدى أرسل الرشيد على رأس غزوة الى القسطنطينية سنة خمس وستين ومائة للهجرة [٣] وعبارة النص تفيد أنه إما أن يكون الرشيد مايزال في تلك الغزوة أثناء المناظرة أو أنه عاد منها منذ زمن قصير .

وليس في المناظرة ما يمكن أن نستدل منه — صراحة أو بطريق غير مباشر — على شخصية أمير المؤمنين المناظر إلا هذه الفقرة . والأمر الذى لا شك فيه عندى أن المؤلف قد أقحمها هنا إقحاما ، وأنه قد ابتكر هذا الاعتراض لكى يحصل منه على إجابة يستطيع القارىء أن يستنتج منها أن أمير المؤمنين هذا هو المهدى ، إذ أن هذا الاعتراض جديد على كتب

---

(١) المسعودى ٢ : ١٠٤ .
(٢) وجه ورقة ٦٦ من المخطوط المرقوم خطأ ٦٥ (هامش) .
(٣) الطبرى ج ٣ : ١ ص ٥٠٣ — ٥٠٥

الجدل التي بقيت لنا ، سواء منها ماصححت نسبته إلى مؤلفيه وما لم تصح نسبته، ومع أن ابن الصليبي قد جمع اعتراضات المسلمين على المسيحية التي وردت في كتب من سبقوه جميعاً في كتابه في الرد على العرب إلا أن هذا الاعتراض لم يرد في كتابه هذا .

والمفهوم من النص أن الحوار كان على دفعتين في يومين مختلفين . وقد بدأه المهدي بقوله : « ياجاثليق ، رجل مثلك أوتي كل هذا العلم ، ويقول مثل هـذه الكلمات الجليلة عن الله لا يحق له أن يقول إن الله تزوج امرأة ورزق منها بغلام » وختم أمير المؤمنين الحوار في اليوم الأول بقوله [١] : « سنسمع كلامك عن هذا في وقت آخر إذا أعطتنا ظروف العمل فرصة سانحة لمثل هذا الحوار الودي » وأمير المؤمنين كذلك هو الذي بدأ الحوار في اليوم الثاني بقوله : « هل أحضرت الانجيل معك كما قلت لك » وختم بقيام الملك المظفر ودخوله إلي منظرته .

(٣)

وقد سجل تيموتاوس هـذه المناظرة في خطاب وجهه إلى مجهول اسمه سرجيس ، والغريب أن اسم سرجيس هذا يلازم عدداً من كتابات الجدل ، فسرجيس كان من بين الذين حضروا مناظرة البطرق يوحنان مع أمير المؤمنين [٢] وقصـة بحيرا تتحدث عن سرجيس [٣] ، والكندي في رسالته [٤] يشير إلى سرجيس بحيرا وجميع مارويه عنه في رده على الهاشمي مشابه لما تشتمل عليه قصة بحيرا .

ولما كان (Gottheil) ناشر قصة بحيرا، هو ومؤلف فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الأهلية بباريس [٥] يذهبان إلى أن قصة بحيرا قد ألفت

---

(١) وجه ورقة ٣٢ من مخطوط منجانا : صفحة ١٣٢ من مجموعة ، وود بروك .

(٢) F. Nau. Un colloque du patriarche Jean avec l'emir des Agareéns. Journal Asiatique 11ème serie. t. V. p. 248-253, Paris, 1915.

(٣) Gottheil. A Christian Bahira legend. Zeitschrift für Assyriologie, B. XIII : 189-242.

(٤) رسالة الهاشمي إلى الكندي — لندن ١٨٨٠

(٥) فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الأهلية بباريس ج ١ ص ٧٠

حوالى القرن الثانى عشر ، لهذا وجب أن يكون الناقل عنها قد عاش فى القرن الثانى عشر أو بعده ، ولما كانت رسالة الكندى تشتمل على قسم كبير مشابه لما جاء فى قصة بحيرا وهذا غير ممكن إلا إذا فرضنا أن مؤلف رسالة الكندى قد اطلع على قصة بحيرا أو بمعنى آخر أن رسالة الكندى قد كُتبت فى القرن الثانى عشر على الأقل إن لم يكن بعده وهو دليل أضمه إلى غيره من الأدلة التى سقتها في بحثى عن رسالة الكندى — الذى سبقت الاشارة إليه — على أن هذه الرسالة قد ألفت بعد القرن الثانى عشر .

وقد اختلف الباحثون فى أمر سرجيس هذا ، ولكن المفروض — إذا سلمنا بصحة هذه الكتابات كلها — أن سرجيس الذى يكتب إليه تيموثاوس هو شخص يعيش فى ختام القرن الثانى الهجرى ، ويجب أن يكون بذلك شخصا آخر غير سرجيس بحيرا فى قصة بحيرا وهو الذى ينقل عنه الكندى وتشير إليه كتب السيرة والذى عاش قبيل مطلع التاريخ الهجرى وعند بدايته ، والذى يظن شبرنجر[1] أنه والد عبد الله بن سرجيس أحد الذين عاصروا النبى ، كما يقول عنه المسعودى أنه كان من قبيلة عبد القيس . . الخ . ولكن أمره لا يعنينا كثيراً فى هذا البحث .

(٤)

والحوار فى هذه المناظرة على طريقة السؤال والجواب ، ونستطيع أن نتبين من استعراض كتب الجدل منذ نشأ الجدل بين الاسلام والمسيحية حتى مطلع القرن السادس الهجرى أنه لم يطرأ عليها اختلاف جوهرى إذ أنها جميعاً تتفق فى موضوعات أسئلتها وإجاباتها والصورة التى تمثلها أحسن تمثيل هو كتاب ابن الصليبى فى الرد على العرب الذى ألف فى أوائل القرن السادس الهجرى والذى أرجو أن أوفق إلى نشره قريباً . وأبرز ما بين مؤلفى هذه الكتب من خلاف أن ابن الصليبى كان معتداً بنفسه فلم يحاول نسبة كتابه إلى غيره ، فأما غيره من المؤلفين فقد أنكروا ذاتهم وحاولوا نسبة مؤلفاتهم إلى غيرهم

(١) Sprenger. Leben Mohammeds, II : 385

من الشخصيات البارزة ، وتنكروا لعصرهم وحاولوا نسبتها إلى عصر قريب من صدر الاسلام لكي يُكسبوا قضيتهم قوة كما نرى فى قصة بحيرا ورسالة الهاشمى إلى الكندى . أو عملوا على إشراك شخصية بارزة معهم كما نرى فى محاورة يوحنان مع أمير المؤمنين ، وكتاب الدين والدولة فى إثبات نبوة النبى محمد (صلعم) لعلى بن ربَّن الطبرى وساعده فيه جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين[1] ، ومحاورة تيموتاوس مع أمير المؤمنين .

وأبرز ما بين هذه المؤلفات من اختلاف أن الذين وضعوها قد لاءموا فى كتاباتهم بين العصر الذى يريدون نسبتها إليه فيه وبين علم المسيحيين بالقرآن فى ذلك العصر . فمناظرة البطرق يوحنان خالية من الاستشهاد بالقرآن لأنه يراد نسبتها إلى الربع الأول من القرن الأول الهجرى . فاذا انتقلنا إلى مناظرة تيموتاوس رأينا المجادل المسيحى على بعض العلم بالمعتقدات الاسلامية ، وبما ورد عن المسيحية فى القرآن ، لأنه يراد نسبتها إلى آخر القرن الثانى للهجرة ، ومع ذلك فان علمه بالقرآن مستمد من غيره .

فأما أنه عالم بما جاء فى القرآن عن المسيحية فذلك واضح فى عدة مواضع: ففى ورقة ١٥ من المخطوط [2] « وهذا هو السبب أن الملاك جبريل عند ما بشر مريم بالمسيح ظهر لها من ناحية الشرق كما هو مكتوب فى كتابكم »[3] . وفى وجه ورقة ٢٤ من المخطوط [4] . فقلت له مكتوب فى سورة عيسى : « والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا »[5] . وكذلك قال الله لعيسى « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ »[6] . وكذلك فى ورقة ٥٠ من المخطوط « ومن الممكن أيضاً أن تكون الأحرف الموضوعة قبل بعض

---

(١) نشره منجانا فى القاهرة سنة ١٩٢٣

(٢) ورقة (١٥) السطر الأول .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة مريم (١٩ : ١٦) « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً » .

(٤) ورقة (٢٤) سطر ٧

(٥) سورة مريم ١٩ : ٣٣

(٦) سورة آل عمران ٣ : ٥٥

سور القرآن مثل ألف لام راء ، وطاء سين ميم ، وياء سين ميم ، وغيرها وهي ثلاثية العدد تشير في كتابكم إلى الله وكلمته وروحه » .

وأما أن علمه بالقرآن مستمد من غيره فواضح أيضاً في عدة مواضع ففي وجه ورقة ٥٥ من المخطوط « والقرآن تبعاً لما علمت من العارفين بكتابكم » وفي وجه ورقة ٦٦ من المخطوط [١] « وقد سمعت أيضاً أنه مكتوب في القرآن أن المسيح كلمة الله وروحه » . وكذلك في ظهر ورقة ٦٧ [٢] « وقد سمعت أيضاً أنه مكتوب في كتابكم أن المسيح لم يكن مرسلاً كخادم ولكن كابن . أقسم بهذا الجبل ووالد وولده فالولد كأبيه سواء أكان عبداً أم حرّاً » .

فأنت ترى من هذه الجمل التي نقلناها أن واضع المناظرة يريد أن يدلل على أنه على بعض العلم بالقرآن لأنه لم يستشهد به كثيراً كما استشهد بغيره من الكتب . كما سجل على نفسه أن علمه بهذا البعض كان مستمداً من غيره عن طريق السماع ، ولعلك قد لاحظت أن علمه به كان سطحياً في قوله « أقسم بهذا الجبل ووالد وولده » ونص القرآن « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ بهذا البلد ، ووالد وما ولد » [٣] . وكذلك في قوله « ومن الممكن أيضاً أن تكون الأحرف الموضوعة قبل بعض السور في القرآن مثل ألف لام راء ، وطاء سين ميم ، وياء سين ميم وغيرها وهي ثلاثية العدد .. » : وأنت إذا راجعت القرآن فلن تجد سورة تبدأ بالأحرف يسم . وليس في القرآن من فواتح السور الثلاثية الأحرف إلا الم [٤] ، الر [٥] ، طسم [٦] وستجد بعد ذلك سوراً تبدأ بحرف واحد مثل ص ، ق [٧] ، ن [٨] ، وسوراً تبدأ بحرفين

---

(١) رقمت خطأ ٦٥ (هـ) في اول الورقة .

(٢) سطر ٤ وقد رقمت خطأ ٦٦ (هـ) .

(٣) سورة البلد ٩٠ : ١ — ٣

(٤) في أول البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة .

(٥) في أول يونس وهود ويوسف وابراهيم والحجر .

(٦) في أول الشعراء والقصص .

(٧) في أول سورتي ص ، ق .

(٨) في أول سورة القلم .

مثل طس[1]، حم[2]، يس[3]. وسورتين تبدأ بأربعة أحرف : فالأعراف تبدأ بالأحرف المص . والرعد تبدأ بالأحرف المر . وهناك سورتان تبدآن بخمسة أحرف : فمريم تبدأ بالأحرف كهيعص ، والشورى تبدأ بالأحرف حم عسق .

والغريب أن منجانا يجعل لهـذا القدر السطحى من العلم بالقرآن أهمية كبرى من الناحية العلمية فهو يريد أن يصور تيموتاوس عالماً حجة فى القرآن على الرغم من تصريحاته السابقة التى عرضتها عليك والتى تدل على أن معلوماته البسيطة عن القرآن مستمدة من غيره . ثم يبنى منجانا على الأخطاء التى تورط فيها تيموتاوس شكوكا حول سلامة المصحف الموجود بين أيدينا ، فهو يعلق على الأحرف التى فى أوائل السور بقوله[4] « ومن الممتع أن نعلم أن المسيحيين قد فهموا فى أوائل الدولة العباسية أنها تشير إلى الثالوث المقدس . وفى القرآن الموجود اليوم توجد الأحرف . . وأما الأحرف يسم فلا توجد قبل أية سورة إلا أن سورة ٣٦ تبتدىء بالحرفين يس فقط فلماذا هذا التغيير فى القرآن الحالى ؟ ليست المسألة مسألة خطأ فى النَّسْخ فهذه الأحرف مرسومة فى كلمات وليست فى حروف »

والواقع أن المسألة ليست مسألة خطأ فى النسخ وإنما هى مسألة جهل ليس غير ، إذ الواقع أن المسلمين كانوا — حتى منتصف القرن الثالث — يكرهون أن يقرئوا القرآن لأهل الذمة وكانوا يكتفون بتلاوة ما تدعو الحاجة إلى تلاوته ، وكان المسيحيون يحاولون حفظ ما يتلى عليهم من الآيات فيوفقون إلى ذلك حيناً ويخطئون فى كثير من الأحيان .

ثم يعلق منجانا مرة أخرى على قول تيموتاوس « أقسم بهذا الجبل ووالد وولده » بقوله[5] « يفسر المفسرون المسلمون المتأخرون (لا أقسم

---

(١) فى أول سورة النمل .
(٢) فى أول غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف .
(٣) فى أول يس .
(٤) مجموعة دراسات وود بروك ج ٢ ص ٦٨
(٥) ص ٨٥ دراسات وود بروك .

رب هذا البلد) على حين أن الكلمة الأولى كانت فى العصر الاسلامى الأول (لأقسم) بدلا من (لا أقسم) وأنا أعتقد أن القراءة القديمة وتفسيرها كما بقيا فى هذه المحاورة أقرب فى النغمة إلى نص القرآن » . والواقع أن تدليل منجانا على صحة قراءة « لأقسم » بقربها فى النغمة إلى نص القرآن دليل فاسد وإلا فكيف كانت تقرأ هذه الآيات فى العصر الاسلامى الأول (لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) [1] ، (فلا أقسم بمواقع النجوم) [2] ، (فلا أقسم برب المشارق والمغارب ، إنا لقادرون) [3] وفيم شذوذ هذه الآيات فى النغمة عن نص القرآن ؟ إذ أن الواضح أن القراءة القديمة فى رأيه ، هى البعيدة فى النغمة عن نص القرآن . وليس لذلك من تعليل إلا جهل المؤلف بالقرآن .

(٥)

ونستطيع أن نستخلص مما عرضناه فى هذا البحث الحقائق التالية :

١ — أن أقدم مخطوط لهذه المناظرة محفوظ بدير العذراء بالقرب من القوش ، وقد نسبه منجانا إلى القرن الثالث عشر .

٢ — أن أقدم إشارة إلى هذه المناظرة وردت فى فهرس عبد يشوع ابن بريخا المتوفى سنة ١٣١٨م . وقد ذكرها تحت عنوان « محاورة مع المهدى » .

٣ — لم يرد اسم المهدى صراحة فى النص السريانى . أما الاسم الذى يتكرر دائماً فهو أمير المؤمنين ، والملك المظفر .

٤ — أشير إلى المهدى بطريق غير مباشر فى الاجابة على الاعتراض الذى عمد المؤلف إلى إقحامه فى النص ، ومضمونه أن الأنبياء سموا المسيح خادماً عدة مرات ، وهذا الاعتراض جديد على كتب الجدل ، ولم يرد فى كتاب ابن الصليبى « فى الرد على العرب » الذى جعل منه مؤلفه سجلا

---

(١) القيامة ٧٥ : ١ — ٢
(٢) الواقعة ٥٦ : ٧٥
(٣) المعارج ٧٠ : ٤٠

وافياً لكتابات من سبقوه فى الجدل ، ولم أره فى غير هذه المناظرة ، والغرض من إقحامه هو دفع القارىء إلى استنتاج أن أمير المؤمنين هذا هو المهدى وأن هذه المحاورة قد وقعت حوالى سنة ١٦٥ هـ .

٥ — إن صحت هذه المحاورة ، فقد وقعت باللغة العربية ، وسجلت بعد وقوعها بفترة لا يمكن تحديدها من النص ، وكان تسجيلها باللغة السريانية ولهذا فإن ذلك النص يمثل وجهة النظر المسيحية فحسب .

٦ — يقول أمير المؤمنين فى ختام حوار اليوم الأول « سنسمع كلامك عن هذا فى وقت آخر إذا أعطتنا ظروف العمل فرصة سانحة لمثل هذا الحوار الودى » أى أن المؤلف يسجل هنا أن ظروف العمل عند أمير المؤمنين كانت لا تسمح له بمثل هذا الحوار إلا نادراً ولكنه يعود فيناقض نفسه فى العبارة التى وضعها مقدمة لما سجله عن اجتماع اليوم الثانى « وفى اليوم الآخر قابلت أمير المؤمنين وكان بيننا كثير من هذه المقابلات أحياناً لشئون الدولة ، وفى أحيان أخرى حباً فى الحكمة والعلم اللذين كانا يتوقدان فى نفس أمير المؤمنين » .

٧ — أن المهدى — فيما يرويه المسعودى — كان أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف كتب عن الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم .

ونستطيع استناداً إلى هذه الحقائق أن نقول إن هذه المناظرة قد ألفت قبل القرن الثالث عشر لأن أقدم إشارة إليها وردت فى كتاب يرجع إلى مطلع القرن الرابع عشر وأقدم مخطوط لهـا يرجعه منجانا إلى القرن الثالث عشر .

وأن هذه المناظرة إن صحت نسبتها إلى تيموتاوس فلا يمكن أن تصح نسبتها إلى المهدى لأن اسم المهدى لم يرد فيها صراحة ، ولأن الفقرة التى تدل على المهدى من طريق غير مباشر إنما أقحمت فى النص إقحاماً لأن الاعتراض الذى وضعت هذه الفقرة جواباً عليه جديد على كتب الجدل ، ولم ترد — فيما أعلم — إلا فى هذه المناظرة ، ولو رفع هذا الاعتراض والجواب

عليه من النص لما أمكن نسبته الى أحد مطلقاً ، واذا كانت ظروف العمل لاتعطى أمير المؤمنين فرصة سانحة لمثل هذا الحوار إلا نادراً، كما يفهم من أسلوب واضع الرسالة ، فانه يناقض نفسه اذا حين يقول إنه كانت بينه وبين أمير المؤمنين كثير من هذه المقابلات أحيانا لشئون الدولة وأحيانا لشئون العلم . ويناقض ما يرويه المسعودى من أن المهدى لم يكن هو الذى يناظر ، ولكنه كان أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين . ومن هنا استبعد نسبة الحوار فى هذه المناظرة الى المهدى .

فاذا عرفنا — مما ترويه المصادر المسيحية عن سيرة تيموتاوس — انه كان بعيداً عن بغداد [1] الى أن توفى سلفه الجاثليق حنانيشوع الثانى سنة ٧٧٩ م . وانه جاهد عاما في سبيل الوصول الى كرسى الجثلقة ، الذى لم يستقر تحت قدميه إلا فى مايو سنة ٧٨٠ م . وان عيسى طبيب البلاط كان يناصر مرشحا غيره هو جرجس الراهب : وان جرجس هذا هو الذى فاز بالجثلقة قبل تيموتاوس ، ولكنه توفى فجأة . وأن تيموتاوس لم يصل بعد ذلك الى كرسى الجثلقة إلا عن طريق حِيَل وضيعة تمكن بها من الحصول على مساعدة رئيس الشمامسة وعدد من الأساقفة ، ومع ذلك فان كرسى الجثلقه لم تخلُص له ، فقد لقى معارضة قوية من افريم مطران جنديسابور ويوسف مطران مرو وسليمان أسقف الحادثة وغيرهم ، فقد عقد هؤلاء مجمعا فى دير بيت حالى قرروا فيه عزل تيموتاوس ونقض ما فعله ، فعزلوا جميع من عينهم . وأجاب تيموتاوس بنفس السلاح فعزل يوسف المروزى . وعرض يوسف الأمر على الخليفة المهدى . ولم يشأ الخليفة أن يتدخل فى هذا النزاع . ولم يكن عيسى طبيب البلاط يميل إلى أحد المتنازعين فلم يتدخل فى الأمر . فلما يئس يوسف المروزى من أى أمل فى الاصلاح اعتنق الاسلام . واجتمع افريم وأصحابه ثانية فى بغداد وعزلوا تيموتاوس للمرة الثانية . وأجاب تيموتاوس بعزل آخر . واضطرب الأمر واختل النظام بشكل مخجل بين رجال الكنيسة ، وعندئذ اضطر عيسى طبيب البلاط

---

[1] ولد فى مدينة حزا من إقليم حذيب وتعلم فى مدرسة باشوش ثم عين أسقفا لبيت باغش.

إلى التدخل لاقرار النظام[1] ؛ وبذلك وحده استقر الأمر لتيموتاوس في مايو سنة ٧٨٠ م .

ونستطيع أن نستخلص من هذا العرض السريع للقسم الأول من سيرة تيموتاوس :

١ — أنه لم تكن هناك صلة بين المهدى وتيموتاوس حتى مايو سنة ٧٨٠ م. على الأقل .

٢ — وأنه لم تكن هناك صلة بين عيسى طبيب البلاط وتيموتاوس .

٣ — وأن طبيب البلاط لم يتدخل إلا حينما هالته الحال التى وصلت إليها طائفته .

ويفهم من ذلك أنه لم تكن هناك صلة بين المهدى وتيموتاوس ، حتى حوالى منتصف سنة ٧٨٠ م . تُعين على قيام حوار دينى خاص بينهما فيما يقول منجانا . وأنه لم يكن هناك وقت بين منتصف سنة ٧٨٠ وسنة ٧٨١ — وهو التاريخ الذى يقترحه منجانا لوقوع هذه المحاورة — يكفى لقيام « كثير من هذه المقابلات ، أحيـاناً لشئون الدولة ، وفى أحيان أخرى حباً فى الحكمة والعلم » فيما يقول واضع هذه المحاورة .

ومع إن بومشتارك يخبرنا[2] أن تيموتاوس كان ذا حظوة عند المهدى إلا أنه لم يذكر لنا المصدر الذى استقى عنه هذا الخبر جرياً على عادته ، ولعله استقاه ممـا جاء فى هذه المحاورة التى أشك فى نسبتها الى تيموتاوس ، ولكن مهما تكن حظوة تيموتاوس عند المهدى فلن تشفع له أن يتحدث عن القرآن أمام خليفة المسلمين — وكانت الدولة بعدُ فى عنفوانها — بمثل قول واضع هذه المحاورة : « ليس من شأنى أن أقرر إن كان [القرآن] من عند الله أم لا ، ولكنى سأقول شيئاً يعلمه أمير المؤمنين جيداً ، وهو أن كل كلمات الله الموجودة

---

(١) انظر هذه القصة كاملة فى كتاب « تاريخ الكنيسة لابن العبرى ج ٢ : ١٦٥ — ١٦٩ » .

(٢) فى كتابه تاريخ الأدب السريانى ص ٢١٧

فى التوراة وكتب الأنبياء، والموجود منها فى الانجيل وكتابات الرسل مثبتة بعلامات ومعجزات. أما كلمات كتابكم فلم تدعم بمعجزة واحدة» ومع أن المسلمين يقولون بتحريف ماوصل الى عصرهم من الكتب، ويؤمنون بأن القرآن وحده معجز، فان أمير المؤمنين — فى رأى واضع المحاورة — لم يجبه بشىء، وإنما راح يسأله « فمن الراكب على حمار، ومن الراكب على جمل؟ »[1] وقبل من مناظره أن يهاجم القرآن من غير أن يرد عليه، وأن يمتدح كتبه فلا يجيبه حتى بما ورد في القرآن من اعتراض عليها وهو خليفة المسلمين. وكما أن العقل لا يقبل هذا السكوت من المهدى فانه يستنكر كذلك أن يقول تيموتاوس مثل هذا الكلام فى حضرة أمير المؤمنين. وأمثال هذه الفقرات التى يستبعد صدورها عن تيموتاوس فى حضرة الخليفة المهدى كثير فى هذه المحاورة.

ولما كانت هذه المحاورة غير ممثلة فى كتاب ابن الصليبى « فى الرد على العرب » كما أسلفنا، ولم يشر إليها ميخائيل السريانى فى تاريخه، ولا ابن العبرى في كتابه « تاريخ الكنيسة » مع كثرة ما كتبه عنه[2]. ولما كانت أقدم إشارة إليها وردت في فهرس عبد يشوع المتوفى سنة ١٣١٨، وكان منجانا يرجع أقدم مخطوط لها إلى القرن الثالث عشر، لهذا فانى أرجح أن هذه المحاورة قد وضعت فى ختام القرن الثالث عشر وبهذا تسقط نسبتها إلى تيموتاوس الأول أيضاً.

(٦)

فاذا لم يصح نسبة هذه المحاورة إلى المهدى ولا إلى تيموتاوس فمن مؤلفها؟

ومع أنى أظن أن الاجابة على هذا السؤال غير ميسورة — ولو فى الوقت الحاضر على الأقل — فانى أحب أن ألفت النظر إلى ظاهرة غريبة فى هذه

---

(١) يشير إلى ما جاء فى أشعيا ٢١ : ٧

(٢) تاريخ الكنيسة ج ٢ : ١٦٥ — ١٧١

المحاورة تلك هى خلوها من أسماء المتناظرين ، وخلوها من التواريخ أو الحوادث التاريخية إلا من حادثة تاريخية واحدة فى العصر الذى يراد تأريخها فيه حتى لا يقع بها تضارب يذهب بقيمتها ، وهذه الحادثة هى هنا قصة غزوة الرشيد للقسطنطينية ، وقد رأينا نفس هذه الظاهرة فى رسالة الكندى إذ أورد المؤلف فيها قصة بابك الخُرَّمى .

ويغلب على ظنى أن الذى أوحى إلى المؤلف بهذه المحاورة هى الفكرة التى عرفت عن المهدى من أنه كان أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين . كما استوحى واضع رسالة الكندى فقرة وردت فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى [1] فى وضع رسالته وهى « وكذلك حكى عبد المسيح بن اسحق الكندى عنهم فى جوابه عن كتاب عبد الله بن اسماعيل الهاشمى أنهم يعرفون بذبح الناس ولكن ذلك لا يمكنهم اليوم جهراً » .

وكما حور واضع رسالة الكندى فى موضوع الرسالة فجعل منها موضوع جدل دينى بين المسيحية والاسلام ، على حين لم يشر البيرونى إلى أن الرسالتين فى الجدل ، كذلك فعل واضع هذه المحاورة ، فحَوَّر فيما نسب إلى المهدى فى كتب التاريخ فجعل منه مناظراً ، على حين لم يذكر المسعودى إلا أنه « كان أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف كتب عن الملحدين » على ما سبقت الإشارة إليه .

وتتعدد هذه الظاهرة فى عدد من كتب الجدل التى زُيِّفت — فى أغلب الظن — فيما بين الربع الثانى من القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر أو بعد ذلك بقليل ، بشكل يوحى أنه كانت هناك مدرسة تقوم على صناعة هذه الكتب ، وأنه كان لهذه المدرسة منهج يقوم على استغلال الآثار التاريخية وتحويلها إلى أغراض جدلية ، كاستغلال ما ورد فى كتب السيرة عن مقابلة النبى صلى الله عليه وسلم لراهب مسيحى عرف فى هذه الكتب باسم بحيرا

---

(١) ص ٢٠٥

فى وضع قصة بحيرا [1] ، أو قصة إسلام أحد المسيحيين فى وضع كتاب الدين والدولة لعلى بن ربّن الطبرى [2] أو قصة بابك الخرمى فى رسالة الكندى. وقصة غزوة الرشيد للقسطنطينية فى محاورة تيموتاوس موضوع هذا البحث. والغرض من ذكر هذه الحادثة فى أغلب الأحيان هو محاولة دفع القارئ بطريق غير مباشر الى استنتاج نسبة هذه المؤلفات الى شخص بعينه أو عصر بعينه.

وكان لهذه المدرسة — فى سبيل تطبيق هذا المنهج طرائق هى وإن اختلفت فى الشكل إلا أنها متفقة فى الجوهر. فانك لن تجد فى هذه الكتب شيئاً من أسماء الأعلام ، كما هو الحال فى رسالة الكندى : فقد خلت حتى من اسمى المتراسلين وجاء فى المقدمة إنه كره ذكر اسميهما لعلة من العلل ! واستعاض المؤلف عن اسميهما بكلمة فلان (من فلان بن فلان . . . الى فلان ابن فلان) فان ذكر أحد الاسمين حذف الآخر ، كما هو الحال فى محاورة البطرق يوحنان مع أمير المؤمنين ، التى سبقت الاشارة إليها ، أو محاورة تيموتاوس مع أمير المؤمنين وذلك لكى يكون الميدان واسعاً غير مقيد بشخص معين يمكن أن يعرف أسلوبه أو بعض خصائص كتابته . وذلك ما حدث بالفعل فقد سمى ميخائيل السريانى المؤرخ أمير المؤمنين الذى ناظر البطرق يوحنا باسم « عمرو بن سعد » ، واقترح (Nau) المستشرق الفرنسى — الذى نشر هذه المحاورة — بأنه عمرو بن العاص أثناء ولايته على الشام بعد أبى عبيدة . وفى الوقت الذى ذكر فيه عبد يشوع محاورة تيموتاوس تحت إسم « محاورة مع المهدى » ، نجد (Wright) المستشرق الانجليزى يتردد فيها بين المهدى أو خلفه الهادى [3].

وكان من منهج هذه المدرسة عدم التعرض للتواريخ ، فلن تجد فى إنتاجها أى تاريخ يشير إلى الزمن الذى يراد نسبتها إليه ، أو تاريخ لبعض ما يرد

---

(1) Gottheil, A Christian Behira legend. in Zeitschrift für Assyriologie XIII : 189-242

(2) طبع مصر سنة ١٩٢٣

(3) أنظر W. Wright. A Short History of Syriac Literature. p. 193.

فى كتاباتها من حوادث ، على عكس ما نألفه عند السريان فى كتبهم فى مختلف العصور ، وذلك حتى لا تستطيع أن تتخذ من بعض خصائص هذا العصر أو غيره من التواريخ التى توضع فى الكتاب دليلا تحكم به على صحته أو فساده ، وهذه الظاهرة مشتركة فيها جميعاً .

ودراستنا للخصائص الفنية لهذه الكتب تدل على أن أسلوبها جميعاً واحد ، وإن تفاوتت قليلا تبعاً لتفاوت المؤلفين ، وأن طريقتها واحدة يعتمد أكثرها على نظام السؤال والجواب ، وأن ترتيب هذه الأسئلة يكاد يكون على نمط واحد فيها جميعاً ، مع استثناء سؤال أو اثنين ينفرد بهما كل واحد من هذه الكتب ، وهذا يدل على وجود وحدة بين هذه الكتب .

هذه هى الخصائص الواضحة فى منهج هذه المدرسة ، وربما استطعنا — على ضوء دراسة الأسلوب الفنى فى الكتابة فى عصر النهضة الأدبية السريانية — أن نتعرف أصحاب هذه المدرسة . وسنفرد لهذه الدراسة بحثاً خاصاً .

حكيم الإشراق وحياته الروحيــــة

للدكتور محمد مصطفى حلمى

(١)

مصادر ترجمة حكيم الإشراق

كتب كثير من المؤرخين والمترجمين عن حياة حكيم الاشراق شهاب الدين السهروردى الحلبي المقتول ، فعرض بعضهم له بالذات ، وأفرد لسيرته ووصف أحواله وذكر مقتطفات من نثره ونظمه ، صفحات تختلف طولا وقصراً ، وتتفاوت إجمالا وتفصيلا ؛ وذكره بالعرض بعضهم الآخر ، فأشار إليه في سياق حديث عن ملك من الملوك ، أو شخصية أخرى من الشخصيات ، أو عصر من العصور الاسلامية . وإنهـا لإشارات عابرة وعبارات موجزة تلك التى يقدمها هذا الفريق من المؤرخين والمترجمين . وهذه العبارات لإيجازها لا تكفى لإعطائنا صورة كاملة واضحة لحياة الرجل وأطوارها ، والظروف التي أحاطت بهـا ، والصروف التى عرضت لهـا ، والعوامل التى أثرت فيها وفى تكوين شخصية صاحبها ومذهبه ، ولكنها على إيجازها إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وفهم بعضها على ضوء بعضها الآخر ، أعانت إلى حدّ ما على تكوين فكرة عما يتصل بهذه المسائل التى لا بد من أن يلم بهـا الباحث عند ما يريد أن يخرج ترجمة لحياة حكيم جليل الشأن عظيم الخطر كالسهروردى الذى كان له فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية آثار قيمة وصفحات صادقة ونفحات مشرقة : فابن خلكان وياقوت وابن تغرى بردى وابن شداد وغيرهم ، قد قدّم كل منهم طائفة من المعلومات التى تتصل من قريب أو من بعيد بحياة السهروردى العامة والخاصة ، وبالآثار التى خلفها ، وبالمذهب الذى ألفه ودعا إليه ، وبالمحن التى لقيها فى سبيل هذا المذهب ، وبالنهاية المؤلمة التى انتهت بها حياته .

على أن مايقدمه هؤلاء المؤرخون والمترجمون ؛ وإن كان له أثره فى كشف النقاب عن بعض النواحى فى حياة السهروردى ؛ إلا أن هناك كثيراً من النواحى الأخرى كان سيظل مغموراً غامضاً لو لم يتح لإظهاره تلميذ للسهروردى لعله أوفى تلاميذه له وأبرهم به وأحرصهم على إذاعة مذهبه ونشر تعاليمه ، وأشدهم عناية بوصف أحواله ، وإحصاء مصنفاته وبيان موقف خصومه منه ، وموقفه من خصومه ، وذكر طائفة صالحة من أقواله المنثورة وأشعاره المنظومة .

وهذا التلميذ الوفى لأستاذه البار به هو شمس الدين محمد بن محمود الشهرزورى الاشراقى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م : فقد وضع الشهرزورى كتاباً جامعاً عن حياة الفلاسفة والحكماء من لدن آدم أبى البشر إلى السهروردى إمام الحكماء والاشراقيين المسلمين ، وجعل لهذا الكتاب عنواناً هو : « نزهة الأرواح وروضة الأفراح » . منه نسخة فوتوغرافية بالمكتبة العامة لجامعة فؤاد الأول برقم ٢٤٠٣٧ تاريخ وفلسفة ، وهذه النسخة هى التى رجعنا إليها وعولنا عليها فيما قصدنا إلى تحقيقه هنا من العناصر التى تتألف منها سيرة حكيم الاشراق وحياته الروحية .

وليس من شك فى أن ترجمة الشهرزورى لحياة أستاذه السهروردى هى أتم وأوفى ما وصلت إليه أيدينا من مصادر عن حياة حكيم الاشراق ومذهبه ، وما يتصل بحياته من أخبار مولده ونشأته ، وإقامته ورحلته ، ودراسته وثقافته ، وسلوكه وتجرده ومفارقته ، وما يتصل بمذهبه وعقيدته من آراء الفقهاء والفلاسفة : فقد وقف أولئك من هذه العقيدة موقف المشككين فيها ، الطاعنين عليها وعلى صاحبها ؛ ووقف هؤلاء من ذلك المذهب موقف الناقدين المجرحين محاولين الابانة عما فيه من نقص وفساد وتناقض ؛ ووقف الشهرزورى بين أولئك وهؤلاء موقف المدافع عن أستاذه ، المهاجم لخصومه المبين لما وقعوا فيه من فساد الرأى فى عقيدة الرجل وسوء الفهم لمذهبه وسوء النية فى الحكم عليه بالزيغ والضلال . ولقد كان الشهرزورى فيما عرض له من هذا كله من سعة الأفق ووفرة الثقافة الدينية والعقلية والتصوفيـة ، ومن دقة النظر وحب الاحصاء والاستقصاء ، ومن حرية الفكر وجرأة القول وحرارة

الدفاع ، بحيث استطاع أن يقدم لنا عن حكيم الاشراق وحياته ومذهبه مالم يستطع أن يقدم غيره ممن ترجموا هذا الحكيم . على أن دفاع الشهرزورى عن أستاذه ، ورده هجمات خصومه من دونه ، لم يسلم أحدهما أو كلاهما من تعصب التلميذ لأستاذه ، ولا من تعصبه على خصومه ؛ ولكن اصطناع التحفظ والاحتياط من ناحية ، والركون الى التدقيق والتحقيق من ناحية أخرى ، وتمحيص ما يذكره الشهرزورى على ضوء ما يقرره السهروردى فى كتبه ورسائله من ناحية ثالثة ، كل أولئك يكفى لأن نتبين وجه الحق فيما يعرض الشهرزورى ويذهب اليه .

على أن قيمة الشهرزورى وكتابه « نزهة الأرواح » لا تقف عند هذا الحد من تجلية الغامض من حياة السهروردى ، وإنما هى تتجاوزه الى شىء آخر : ذلك أن الشهرزورى قد عرض لشرح كتابين هامين من كتب السهروردى أحدهما « التلويحات » والآخر « حكمة الاشراق » ناهيك بأن له كتابين يعرف أحدهما باسم « الرموز والأمثال » ويعرف الآخر باسم « الشجرة الالهية » وبأنه قد أبان عن تسلسل الأنبياء والحكماء والفلاسفة تسلسلا تاريخياً له قيمته الكبرى وخطره العظيم فى رد المذهب الاشراقى الى مصادره الأولى التى صدر عنها واعتمد عليها السهروردى فى إقامة صرح حكمة الاشراق . فكل أولئك من شأنه أن يبين لنا الى أى حد يمكن أن يعد الشهرزورى أهم من كتب عن السهروردى ، وعلى أى وجه يمكن أن تعتبر كتاباته أوفى المصادر عن حياة حكيم الاشراق وأحفلها بذكر أخباره وأحواله ومصنفاته. واذا أضفنا الى هذا كله ما كان يمتاز به الشهرزورى من ثقافة واسعة فى الحكمة البحثية ومعانيها ، وفى الحكمة الذوقية ومراميها ، خلصنا الى أنه كان أعرف من غيره بمذهب أستاذه ، وأقدر على فهم هذا المذهب ، وأدنى الى روح صاحبه .

(٢)
اسم حكيم الإشراق ولقبه

اتفق أكثر الذين ترجموا لحكيم الاشراق على أن اسمه هو أبو الفتوح يحيى ابن حبش بن أميرك ، وعلى أن لقبه هو شهاب الدين السهروردى الحكيم المقتول بحلب[١] ، وقيل إن اسمه أحمد ؛ وإن كنيته اسمه وهو أبو الفتوح[٢]. هذا ما ذكره ياقوت وابن خلكان ، ويزيد عليه هذا الأخير ما نقله عن ابن أبى أصيبعه فى (طبقات الأطباء) وهو أن اسم السهروردى هو عمر دون أن يذكر اسم أبيه . وقد عقب ابن خلكان على هذا بقوله إن الصحيح هو الذى ذكره أولا ، إذ وجده بخط جماعة من أهل المعرفة بهذا الفن ، وأن جماعة أخرى لا يشك فى معرفتهم قد أخبروه به ، فقوى ذلك عنده ، وجعله يترجم للحكيم عليه[٣] . وأكبر الظن عندنا أن يكون ابن أبى أصيبعه قد ذكر السهروردى باسم عمر لما عسى أن يكون وقع فيه من خلط بين حكيم الاشراق وبين شهاب الدين أبى حفص عمر السهروردى البغدادى المتوفى ٦٣٢ هـ وصاحب كتاب (عوارف المعارف) . وقد أعاننا ابن خلكان على ضبط ما ورد فى اسم السهروردى من ألفاظ غريبة أو أعجمية قد يلتبس نطقها أو فهمها فقال عن لفظ (حبش) إنه بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة والشين المعجمة ، وقال عن لفظ (أميرك) إنه بفتح الهمزة وبعدها ميم مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها راء مفتوحة ثم كاف ، وهو اسم أعجمى معناه أمير ، وهو تصغير (أمير) لأن الكاف التى تلحق بآخر الأسم هى للتصغير[٤] . والسهروردى نسبة إلى (سهرورد) بضم السين المهملة

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣١٤ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ، ص ٢٦١ ، والشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦١

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦١

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخرها دال مهملة وهي بليدة عند زنجان من عراق العجم[1] .

ويلقب السهروردى بالمؤيد بالملكوت ، وذلك لما عرفه من العلوم الالهية والأسرار الربانية التى رمز الحكماء عليها وأشار الأنبياء إليها ، ولما أيد به من قوة التعبير عن هذه الأسرار وتلك العلوم فى كتابه العظيم (حكمة الاشراق)[2] . ويلقب أيضاً بخالق البرايا ، وذلك لما كان يظهره فى الحال من العجائب ، ويروى الشهرزورى أن واحداً رأى السهروردى فى المنام فقال له الأخير : لا تسمونى بخالق البرايا[3] .

ولما كان السهروردى قد مات مقتولا على نحو ما سنذكره مفصلا فى موضعه بعد ، فقد أطلق عليه المؤرخون لقب (الشيخ المقتول) ، وذلك تمييزاً له عن غيره ممن يشتركون معه فى النسبة إلى سهرورد : فثمت عالمان صوفيان آخران يعرف كل منهما باسم السهروردى ، وأحدهما هو أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله الملقب ضياء الدين السهروردى ، المولود سنة ٤٩٠ ﻫ والمتوفى سنة ٥٦٣ ﻫ ، وثانيهما هو ابن أخى أبى النجيب هذا وهو أبو حفص عمر بن محمد الملقب شهاب الدين السهروردى ، والمولود سنة ٥٣٩ ﻫ والمتوفى فى مستهل المحرم سنة ٦٣٢ ﻫ ، وله صيت ذائع فى عالم التصوف من الناحيتين العلمية والعملية . وترجع أهميته من الناحية العلمية إلى كتابه (عوارف المعارف) كما ترجع قيمته من الناحية العملية إلى طريقته الصوفية المنسوبة إليه والمعروفة باسم السهروردية .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٩٩

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، والشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٢

(٣) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣

(٣)
حياة حكيم الإشراق : بين سهرورد وحلب

يلاحظ المتأمل فى حياة حكيم الاشراق أنه قد تعاقب عليه فيها أطوار ثلاثة : طور يبدأ بمولده ، ويشتمل على نشأته الأولى وما تلقاه فيها من تربية ومعرفة فى موطنه الأول الذى ولد وعاش فيه ، وينتهى برحيله عن هذا الموطن إلى غيره من البلاد ؛ وطور كانت حياته فيه حياة تنقل من هذا البلد الى ذاك البلد ، يقيم هنا حينا ثم يرتحل ، ويقيم هناك حينا آخر ثم لايلبث أن يقوم فى نفسه ما يدعوه الى النزوح فيولى وجهه شطر بلاد يلقى فيها عالما من العلماء ، ويكتسب منها علما من العلوم أو معرفة من المعارف أو تجربة من التجارب ، وطور يمكن أن يعد خاتمة المطاف وبداية الاستقرار ، وإن كان الاستقرار قد شابه كثير من الاضطراب ، وانتاب الحكيم فيه ألوان من الأذى وضروب من المحن انتهت كلها بالمحنة الكبرى التى كان فيها حتفه ونهاية حياته . ومن هنا يمكن أن نطلق على الطور الأول اسم طور النشأة الأولى والاقامة فى سهرورد ، وعلى الطور الثانى اسم طور الأسفار والتحصيل ، وعلى الطور الثالث اسم طور الاقامة والنهاية . ولكى تتبين لنا حياة السهروردى ، والظروف التى أحاطت به والعوامل التى أثرت فيه ، وأعانت على تكوين شخصيته من الناحيتين العلمية والعملية ، فلا بد من أن نقف وقفة قصيرة أو طويلة عند كل طور من هذه الأطوار .

فاذا وقفنا عند الطور الأول من أطوار حياة ذلك الحكيم العظيم ، ألفينا أنفسنا أمام طائفة قليلة من المعلومات التى لاخطر لها ولاغناء فيها ، والتى لا تكفى لأظهارنا على صورة واضحة لحياة الرجل فى طفولته وصباه . ولعل كل ما نعرفه عنه ، أو كل ما يمكن أن يقال عنه فى هذا الطور الأول من أطوار حياته إنه ولد بسهرورد وإن تاريخ مولده يقع بين سنتى ٥٤٥ هـ سنة ١١٥٠ م و سنة ٥٥٠ هـ سنة ١١٥٥ م ، وإنه قضى حياته الأولى بتلك البلدة القريبة من زنجان من أعمال آذربيجان بالعراق العجمى ، وهنالك تلقى

أول ما تلقى من ثقافات دينية وفلسفية وتصوفية . أما على من تلقى هذه الثقافات ، وما مبلغ وقوفه عليها وتحصيله لها ، وما الخصائص العلمية وغير العلمية التى امتازت بها بيئته المنزلية من ناحية وبيئته الاجتماعية من ناحية أخرى ، ومن أبوه ، وما كانه هذا الأب ، وما أثره فى تنشئة ابنه وتثقيفه وتوجيهه ، فكل أولئك أمور لانكاد نظفر بها أو نقف على بعضها فيما بين أيدينا من المراجع عن حياة حكيمنا فى طورها الأول . ولهذا ستظل الأسئلة القائمة حول هذه الأمور بغير جواب إلى أن تتاح المصادر والمعلومات التى تكفى لتجليتها والابانة عما خفى منها .

وإذا انتقلنا مع السهروردى من طوره الأول إلى طوره الثانى رأينا حكيمنا لايقر له قرار ، ولا يستقر به مقام ، وإنما هو يحب الأسفار ، ويتنقل من بلد الى بلد ، ويلقى أجناسا شتى من العلماء والحكماء ، يأخذ عن أولئك علمهم وعن هؤلاء حكمتهم ، ويصاحب الصوفية ويجالسهم ، ويأخذ نفسه بالتجريد وسلوك طريقهم والتخلق بأخلاقهم وإخضاع نفسه لما يخضعون له أنفسهم من رياضات ومجاهدات كانت سبيله الى ما أشرقت به نفسه من أنوار المكاشفات والمشاهدات . فقد حدثنا الشهرزورى عن السهروردى فقال ما نصه : « كان قدس الله روحه كثير الجولان والطوفان فى البلدان ، شديد الشوق الى تحصيل مشارك له فى علومه ، ولم يحصل له . قال فى آخر (المطارحات) : وهو ذا قد بلغ سنى الى قريب من ثلاثين سنة وأكثر عمرى فى الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم ، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ، ولا من يؤمن بها . قال الشهرزورى : فانظر الى قوله : ولامن يؤمن بها ، وأكثر العجب من ذلك . وكان رحمه الله غاية فى التجريد ، ونهاية فى رفض الدنيا ، يحب المقام بديار بكر ، وفى بعض الأوقات يقيم بالشام ، وفى بعضها بالروم »[1] . وحدثنا الشهرزورى عن السهروردى فى موضع آخر فقال ما نصه : « . . وسافر فى صغره فى طلب العلم والحكمة الى مراغة ، واشتغل بها على مجد الدين الجيلى ، وإلى أصفهان ،

---

(1) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٤

وبلغني أنه قرأ هناك بصائر ابن سهلان الساوى على الظهر الفارسي ، والله أعلم بذلك ، إلا أن كتبه تدل على أنه فكر في (البصائر) كثيراً . وسافر الى نواحي متعددة ، وصحب الصوفية ، واستفاد منهم ، وحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد ، ثم اشتغل بنفسه بالرياضات والخلوات والافكار، حتى وصل الى غايات مقامات الحكماء ، ونهايات مكاشفات الأولياء . . »[1] .

وقد اتصل السهروردى فوق هذا كله بفخر الدين المارديني (الماردانى) الساكن بماردين ، وكانت بينه وبينه صداقة واجتماعات[2] وللمارديني رأى في السهروردى سنذكره في موضعه بعد ، وذلك عند ما نعرض لآراء معاصريه فيه .

فاذا عرفنا أن مجد الدين الجيلى[3] كان فقيهاً وأصولياً ومتكلماً ، وأن كتاب (البصائر) لابن سهلان الساوى إنما هو كتاب في المنطق ، وعرفنا مما أثبته الشهرزورى في أقواله المتقدمة أن السهروردى اشتغل في المراغة بطلب العلم والحكمة على مجد الدين الجيلى ، وأنه قرأ في أصفهان بصائر ابن سهلان ، وأنه سلك طريق الصوفية فتجرد وتزهد وخلا إلى نفسه وربه ، إذا عرفنا هذا كله تبين لنا أن ثقافة السهروردى التى تهيأت له في الطور الثانى من أطوار حياته كانت ثقافة لها طابعان : أحدهما طابع علمى قوامه الفقه والأصول والكلام والحكمة النظرية ، والآخر طابع عملى قوامه التصوف وما فيه من أعمال أساسها الذوق والتجربة .

على أن حياة التجوال التى كان يحياها حكيم الاشراق لم تقف به عند حد البلاد التى أشرنا إلى أنه دخلها ، وأفاد منها ما أفاد من ثقافات ، واتصل فيها

---

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣

(٢) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٥ ، وياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ١٢٥ ، وله المارديني في ماردين ومات فيها في ٢٥ من ذى الحجة سنة ٥٩٤هـ ، ولزمه سديد الدين ابن رقيقة ، وكان طبيبا ، وشرح ابن سينا وقام بالتدريس في أماكن عدة منها دمشق . (ابن أبى أصيبعة طبقات الأطباء ، ج ١ ، ص ٢٩٩ — ٣٠١) .

(٣) مجد الدين الجيلى هو شيخ فخر الدين الرازى ، وعليه تخرج ، وبصحبته انتفع ، وكان إماما في فنونه (وفيات الأعيان : ج ٢ ، ص ٢٦١) .

بمن اتصل بهم من شخصيات ؛ وإنما هى قد امتدت به إلى الشام حيث قدم إلى مدينة حلب سنة ٥٧٩ هـ ، وكان قدومه إليها نهاية الطور الثانى وبداية الطور الثالث من أطوار حياته ، بل وخاتمة حياته كلها . وهناك فى حلب نزل فى المدرسة الحلاوية[1] ، وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ؛ وبحث مع الفقهاء من تلاميذ هذا الشيخ وغير تلاميذه ، وناظرهم فى مسائل عدة فلم يجاره أحد منهم ؛ بل ظهر عليهم ، وظهر فضله للشيخ افتخار الدين فأدناه إليه ؛ وقرب مجلسه منه ، وأظهر فضله للناس ، وعرف مكانه فيهم[2].

على أن ما ظهر من فضل السهروردى وعلمه ، وما أظهره من براعة فى المناظرة وإفحام فى الحجاج ، وما كان له من منزلة كبرى عند الشيخ افتخار الدين ، كل أولئك قد أحنق عليه الفقهاء ، وأوغر صدورهم ، فجعلهم يرجفون به ويشنعون عليه ، الأمر الذى ترتب عليه أن استحضره الملك الظاهر ابن صلاح الدين وصاحب حلب فى ذلك الحين ، وعقد له مجلسا من الفقهاء والمتكلمين يباحثونه ويناظرونه فيظهر عليهم بحججه وبراهينه وأدلته ، ويظهر فضله للملك الظاهر كما ظهر من قبل للشيخ افتخار الدين ، وإذا بالملك يقربه ، ويقبل عليه ، ويتخصص به ، وإذا بالحانقين عليه والضيقين به من الفقهاء يزداد حنقهم وغيظهم ، وإذا هم يرمونه بالالحاد والزندقة ، ويكتبون إلى الملك الناصر صلاح الدين يحذرونه من فساد عقيدة ابنه الظاهر بصحبته للشهاب السهروردى ، ومن فساد عقائد الناس إن هو أبقى عليه . فلم يكن

---

(١) كانت المدرسة الحلاوية كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين ، ثم تحولت إلى مسجد على أثر بعثرة الافرنج قبور المسلمين ، وإحراقهم حين حصارهم حلب سنة ٥١٨ هـ ، وكانت تعرف قديما بمسجد السراجين ، فلما ملك نور الدين جعلها مدرسة ، وقال ابن شداد : هى من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامكية ، وهى إلى يومنا هذا من مدارس حلب الشهيرة ، ولكن لم يبد لها المركز العلمى الوطيد الذى كان لها فى ماضيات الأيام (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٢ ، ص ٧١ — ٧٢) .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣١٥ ؛ افتخار الدين هو الشيخ افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمى ، شرح (الجامع الكبير) شرحا لطيفاً وافياً ، وقام بما شرط ، وولى التدريس بالمدرسة الحلاوية (إعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٧٣) .

من صلاح الدين إلا أن كتب إلى ابنه الظاهر يأمره بقتل السهروردى ، ويشدد عليه فى ذلك ويؤكده . وما هى إلا أن استفتى فقهاء حلب فى أمر السهروردى فأفتوا بقتله[1]. وقد صور لنا الشهرزورى هذه الفتنة التى أثارها الفقهاء حول السهروردى ، وذلك فيما نقله فى (نزهة الأرواح) من قول فخر الدين الماردينى وهذا نصه : « . . . ولما فارقنا (يعنى السهروردى) من الشرق ، وتوجه إلى حلب ، وناظر بها الفقهاء ، ولم يجاره أحد ، كثر تشنيعهم عليه ، فاستحضره الملك الظاهر ، واستحضر الأكابر والفضلاء المتفننة لسماع ما يجرى بينهم من المباحث ، فتكلم معهم بكلام كثير ، وبان له فضل عظيم ، وعلم باهر ، وحسن موقعه عند الظاهر ، وقربه وصار مكيناً عنده ، مختصاً به ، فازداد تشنيع أولئك عليه ، وعملوا محاضر بكفره ، وسيروها إلى دمشق إلى صلاح الدين ، وقالوا له : إن بقى أفسد اعتقاد الملك وإن أطلق أفسد أى ناحية سلك . وزادوا عليه أشياء كثيرة ، فبعث الى الظاهر يقول بخط القاضى الفاضل : ان هذا الشهاب لا بد من قتله ، ولا سبيل إلى إطلاقه بوجه »[2] .

وهكذا نتبين الى أى حد كان فقهاء حلب مسرفين على أنفسهم وعلى الحق مدفوعين بدافع الحقد والحسد إلى إثارة هـذه الفتنة حول السهروردى والى تشكيك الملك فى عقيدته وتعاليمه ، ونتبين أيضاً الى أى حد كان الملك الظاهر معتدلا ومنصفاً ومقدراً للعلم والعلماء والحكمة والحكماء حين وقف من السهروردى ذلك الموقف الذى لم يستجب فيه لأول وهلة لدعوى الفقهاء أن السهروردى إن ظل طليقاً أفسد عقيدة الملك والناس . حقاً لقد كان الملك الظاهر معتدلا وعادلا حين رأى أن يمسك عن البت فى أمر السهروردى ، وأن يتردد فى تصديق مايدعيه الفقهاء حتى يعقد له ولهم ذلك المجلس الذى جمعهم جميعاً ، ودارت فيه المناقشة بين الحكيم وبين خصومه الذين خصمهم وأفحمهم

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣١٥ — ٣١٦
(٢) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٥

على وجه أكبره لدى الملك وعظم منزلته عنده . ونتبين من ثنايا هذا كله أن الملك الظاهر لم يكن متزمتاً ولا متعصباً لأحد على أحد ولا لعقيدة دون عقيدة ، وانما هو ملك يحب العلم ويقدر العلماء ويعرف للحكماء حقهم فى حرية التفكير والتعبير . ونتبين بعد هذا كله أن الحكم على السهروردى بالقتل لم يكن عن رغبة منه ، بل هو على العكس من ذلك على الرغم منه ؛ اضطر الى إصداره تحت تأثير أبيه صلاح الدين الذى كان بدوره واقعاً تحت تأثير الفقهاء من ناحية ، وكان بطبيعته ملكا سنياً بكل ما فى الكلمة من معنى ، لا سيما أنه أنشأ دولته على أنقاض الدولة الفاطمية وهى دولة شيعية لها من التقاليد والعقائد ، ولمن ظهر في ظلها من أهل العلم والأدب والفلسفة من الكتب والرسائل والآثار المنثورة والمنظومة ، ما يتنافى كثيراً أو قليلا مع تعاليم الكتاب والسنة . فاذا كان ذلك كذلك ، وكان من أهم أغراض صلاح الدين القضاء على تعاليم الفاطميين ومحو آثارهم ومحاربة كل من تسول له نفسه أن ينشر في الناس عقيدة مضلة أو بدعة مزيغة ، وكان الفقهاء في كل عصر من عصور الاسلام هم الموكلين بالشريعة وتعاليمها ، القائمين على الكتاب والسنة والمحافظة عليها ، وكان لهم من الكرامة والاجلال عند أصحاب السلطان ، ومن الهيبة والخشية والطاعة عند الخاصة والعامة ، ما يجعل لحكمهم خطره العظيم وأثره العميق في الحياة الروحية فضلا عن الحياة السياسية والاجتماعية اذا كان ذلك كذلك ، فلا أقل اذن من أن يكون السهروردى ملحداً وزنديقاً لأن الفقهاء قالوا إنه ملحد وزنديق ، ومن أن يقتل لأن الفقهاء أباحوا دمه وأفتوا بقتله .

على أن موقف القصد والاعتدال الذى وقفه الملك الظاهر من السهروردى وموقف التطرف والاسراف الذى وقفه فقهاء حلب من ذلك الحكيم كان لهما من غير شك أثرهما فى حياة الناس وأفكارهم وآرائهم فى ذلك الحين : فقد كان الناس وقتئذ بين مؤيد للسهروردى وبين معارض له . فأما المؤيدون فهم أحرار الفكر من الشباب الذين يدعون إلى التجديد ويميلون إلى كل مبتكر وعلى رأسهم الملك الظاهر . وأما المعارضون فهم المتعصبون المتمسكون بحرفية

النصوص وظاهر الألفاظ من الشيوخ الذين كان على رأسهم السلطان صلاح الدين ، وكان أشدهم نعياً على السهروردى وإرجافاً به الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا جميد اللذان جمعا الجموع ، ودبرا الكيد ، وحرضا العلماء على أن يضعوا الملك الظاهر أمام الأمر الواقع ؛ ويحرجوه فيضطر إلى إنفاذ أمر أبيه في السهروردى . وها هو ذا ابن شداد الذى كان معاصراً للسهروردى ، وواقفاً على دقائق هذا النضال بين الفلسفة والدين ، أو بين الفكر الحر والتعصب الذى لم يقصد به إلى وجه الدين ، بل كان الدافع إليه إشباع شهوات النفس من حقد وحسد وغيرة ، قد حدثنا عما وقع فيه معاصرو السهروردى من خلاف حول عقيدة الرجل ومذهبه فقال : « أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه ، والله أعلم » .

بقى بعد ما وقفنا عليه من خصومة الفقهاء للسهروردى وتشنيعهم عليه ، أن نتبين هل كان الحسد والحقد والغيرة هى وحدها الدوافع التى حملت أولئك الفقهاء على هذا التشنيع وتلك الخصومة ، أم أن هناك أسباباً أخرى ، وأموراً تنسب إلى السهروردى وكان للفقهاء الحق أو بعض الحق على الأقل فى دحضها وهدم ما زعمه السهروردى فيها . الحق أن الشهرزورى قد فصل القول فى ذلك تفصيلا ، وأظهرنا على أن السهروردى كان يصرح فى البحوث بعقائد الحكماء ، ويناضل عنها ، ويسفه رأى مخالفيها ، وأنه كان يناظر الفقهاء فيقطعهم فى المجالس ، وأنه قد انضم إلى ذلك ما كان يظهره من العجائب بقوة روح القدس ، وما نسب إليه من العظائم ، وأنه ادعى النبوة [1] . فكل أولئك كان سبباً فى أن يجمع الفقهاء أمرهم على تكفير السهروردى وإباحة دمه والحكم عليه بالقتل . ولكن الشهرزورى يرى أن السهروردى برئ من ذلك ، ويرده إلى الحسد بدليل قوله : « فالله حسب الحساد » [2] . ومن الأشياء التى نسبت إلى السهروردى واتهمه فيها الفقهاء أنه قال فى بعض

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٤

(٢) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٤

تصانيفه إن الله قادر على أن يخلق نبياً ، وهذا مستحيل ، وان السهروردى رد على ذلك بقوله : « ما وجه استحالته ؟ فان الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شىء » .

على أنه يلوح أن السهروردى قد أعطى نفسه حرية واسعة النطاق فى التفكير والتعبير فلم يتحفظ في بعض ما صدر عنه من أقوال وأحوال ، فكان ذلك سبباً لوقوع ما وقع بينه وبين الفقهاء من شنآن وتباغض . وليس أدل على ذلك من قول فخر الدين الماردينى الذى صحبه السهروردى واجتمع به زماناً : وهذا نصه : « ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ، ولم أجد أحداً مثله فى زمانى ، إلا أنى أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه أن يكون ذلك سبباً لتلافه »[1] . وقد روى ابن رقيقة قول الماردينى هذا وزاد عليه قوله هو : « لما بلغ شيخنا فخر الدين الماردينى قتله ، قال لنا : أليس كنت قلت لكم عنه هذا من قبل ، وكنت أخشى عليه منه ؟ ! »[2] . وليس من شك فى أن الماردينى لم يكن متحاملا على السهروردى ، بل كان على العكس من ذلك منصفاً له بدليل أنه إعترف بذكائه وفصاحته ، ولم يأخذعليه إلا تهوره واستهتاره وقلة تحفظه . ومن يدرى فلعل السهروردى لو قد اصطنع كثيراً أو قليلا من التحفظ والاعتدال ، وأمسك عن كثير أو قليل من تصريحاته وعباراته ، لكان للفقهاء معه شأن آخر . . ولكنه وقد أطلق نفسه على سجيتها وأطلق لأذواقه وأفكاره ومذاهبه كل حريتها ، لم يستطع أن يكون غير ما كان ولا أن يقول غير ما قال ، ولم يستطع الفقهاء إلا أن يجرحوه ، ويدحضوا مزاعمه وينسبوه الى الكفر والضلال ، ويفتوا بقتله .

ومهما يكن من شىء فقد حكم على السهروردى بالقتل ، وقتل بالفعل . أما كيف نفذ فيه الحكم وعلى أى وجه قتل ، فذلك ما اختلفت فيه الروايات ، وتضاربت حوله الأقوال : فمن قائل إنه لما بلغ السهروردى نبأ الافتاء بقتله

---

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٥

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٦٧ — ١٦٨

وتحقق من ذلك ، اختار أن يحبس فى مكان ويمنع من الأكل والشرب الى أن يموت ، ففعل به ذلك ، ومن قائل إنه منع نفسه حتى مات ، ومن قائل إنه خنق بوتر ، أو إن الظاهر أمر بخنقه فى السجن فخنق ، ومن قائل إنه قتل بسيف ، أو إنه حط من القلعة وأحرق ، ومن قائل إنه قتل وصلب أياماً [1] . ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات وتضاربها ، فان هناك رواية رواها أحد معاصرى السهروردى وهو ابن شداد ، وذلك إذ يقول : « لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذى الحجة سنة ٥٨٧ هـ سبع وثمانين وخمسمائة ، أخرج الشهاب السهروردى ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه » [2]. وهذه الرواية من شأنها أن تنفى الرواية القائلة بأن السهروردى قد قتل بأن حط من القلعة ، وإن كانت لا تثبت غيرها من الروايات الآنفة الذكر ، ولكنها على كل حال ترجح عندنا القول بأن السهروردى قد سجن وقتل فى سجنه وأخرج من هذا السجن ميتاً . أما أن قتله كان بأن منع من الأكل والشرب أو بأن منع هو نفسه عن الأكل والشرب ، أو أنه خنق بوتر فى السجن ، فكل أولئك أقوال لا سبيل إلى إثبات أحدها إثباتا حاسما ، أو نفى أحدها نفياً قاطعاً ، أو ترجيح بعضها على بعض أو الأخذ ببعضها من دون البعض . ومهما يكن من شىء فان الذى لاشك فيه هو أن السهروردى لم يمت موتا عاديا ، وإنما مات مقتولا .

على أن الملك الظاهر الذى كان أداة الفقهاء وأداة أبيه صلاح الدين فى تنفيذ حكم الاعدام فى السهروردى ، قد استشعر الندم على ما فعل بذلك الحكيم العظيم ، ونقم على كل من أفتى بقتله أو شارك فى تدبير هذه المحنة له : « فيقال إنه قبض عليهم ، واعتقلهم ونكبهم ، وصادر جماعة منهم بأموال عظيمة » [3] . وليس أدل على ذلك من أن الظاهر لم يفعل بالسهروردى

---

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٤ ، وياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣١٦ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

(٣) ياقوت : معجم الادباء ، ج ١٩ ص ٣١٦ والشهرزورى : نزهة الارواح ، ص ٢٣٥

ما فعل به عن رغبة منه ، ولا عن اقتناع بما رآه فيه الفقهاء من إفساد للدين وتعاليمه وزعزعة لعقائد الناس ، وإنما هو قد فعله مضطراً إليه اضطراراً ومكرهاً عليه إكراهاً ؛ ناهيك بما يظهرنا عليه هذا كله من تقدير الظاهر للسهروردي وإعجابه به ؛ ومن أن الفقهاء لم يكونوا صادقين ولا مخلصين للدين في دعواهم ، وإنما هي الأهواء والشهوات التي سوأت فهمهم للسهروردي ، وأفسدت رأيهم فيه وحكمهم عليه ، ولو لم يكن ذلك كذلك ، ولم يستشعره الظاهر أولا وأخيراً ، لما تردد في الاستجابة للفقهاء حين شنعوا على حكيم الاشراق في حياته ، ولما نقم عليهم ونكبهم بعد مماته .

والمؤرخون الذين قدموا لنا طائفة من الروايات المختلفة عن كيفية مقتل السهروردي ، قد اختلفوا كذلك في تحديد التاريخ الذي وقع فيه هذا المقتل :

فابن أبي أصيبعة يذكر أن السهروردي قد قتل في أواخر سنة ٥٨٦ هـ (ست وثمانين وخمسمائة) ، وأن عمره كان حينذاك نحواً من ست وثلاثين سنة ، وقد نقل ابن خلكان عن ابن أبي أصيبعة ذلك التاريخ في أوائل ترجمة السهروردي ، ولكنه عقب عليه بما يشكك فيه ، وذلك إذ يقول : « والصحيح ما سنذكره في أواخر هذه الترجمة إن شاء الله تعالى » [1] . ويتفق الشهرزوري مع ابن أبي أصيبعة على اتخاذ سنة ٥٨٦ هـ تاريخا لمقتل السهروردي ، ويختلف عنه في تحديد عمر الحكيم وقتئذ ، إذ ذكر ما روى من أنه ثمان وثلاثون وما قيل من أنه خمسون [2]. أما ما يذكره ابن خلكان في أواخر ترجمته للسهروردي ويعده صحيحاً ، فهو أن قتل السهروردي كان في خامس رجب سنة ٥٨٧ هـ سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب ، وأن عمره كان ثمان وثلاثين سنة [3] . ويتفق ياقوت مع ابن خلكان على السنة التي وقع فيها مقتل السهروردي ؛ وإن كان مختلفاً معه في تحديد

---

(١) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ١٦٧ وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) الشهرزوري : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٥

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

عمره عند ما وقع القتل : فعلى حين يقول ابن خلكان إن عمر السهروردى كان ثمان وثلاثين سنة ، إذا بياقوت يقول إنه كان قد قارب الأربعين [١] . ويتفق ابن شداد مع كل من ياقوت وابن خلكان على السنة ولكنه يختلف عنهما فى تحديد الشهر: فقد نقل سبط ابن الجوزى فى تاريخه عن ابن شداد أنه قال: « فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أخرج الشهاب السهروردى ميتاً من الحبس بحلب ، فتفرق عنه أصحابه » [٢] . وإلى جانب سنتى ٥٨٦ هـ و ٥٨٧ هـ تذكر سنة ٥٨٨ هـ على أنها تاريخ لمقتل حكيمنا ، وقد أشار ابن خلكان إلى هذه السنة الأخيرة ، ولكنه نظر إليها على أنها ليست شيئاً [٣] .

وهكذا نجد أنفسنا بين ثلاثة تواريخ يذكرها المؤرخون ، ويختلف بعضهم عن بعض فى موقع مقتل السهروردى من أحدها . ولكننا نرجح من بين هذه التواريخ جميعاً سنة ٥٨٧ هـ ، وهى السنة التى اتفق عليها ابن خلكان وابن شداد وياقوت وإن كان أولهم وثانيهم مختلفين فى اليوم والشهر ، وكان أولهم وثالثهم مختلفين فى تحديد العمر . ولعل ترجيحنا لهذه السنة على السنتين الأخريين راجع إلى أن ابن خلكان لما يمتاز به من تحقيق وأمانة فى النقل وتحرى الدقة فيما يقال أو يروى لا سيما فيما يتعلق بضبط الأعلام وتحديد سنى المولد والوفاة ، وأن ابن شداد بحكم معاصرته للسهروردى ، ووقوفه على ما وقع له من تشنيع الفقهاء عليه واختلاف الناس فيه بين مصدق ومزندق وأن ياقوت لأنه لم يكن أقل دقة من ابن خلكان وإن كان أقل منه تحرياً لبعض التفاصيل ، يمكن أن يعد أحدهم أو ثلاثتهم مصدراً تاريخياً صحيحاً يطمأن إليه فيما يذكر من سنين. ولما كان ابن خلكان أكثرهم عناية بالتفاصيل وأوفرهم على تحقيق التواريخ بتعيين اليوم والشهر فضلا عن السنة ، لذلك كان الأرجح عندنا أن يكون مقتل شهاب الدين السهروردى الحلبى قد وقع

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣١٦
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

فى التاريخ الذى ذكره ابن خلكان ، وفصله على أنه كان فى الخامس من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ ، وهو يوافق ٢٩ يوليه سنة ١١٩١ ، وأن يكون عمره عند مقتله ثمان وثلاثين سنة . وهذا من شأنه أن يرتب عليه أن يكون مولد ذلك الحكيم فى سنة ٥٤٩ هـ خلافا لما تردد بينه المؤرخون إذ جعلوه بين سنتى ٥٤٥ هـ و ٥٥٠ هـ ، وسبق أن أشرنا إليه فى مستهل حديثنا عن أطوار حياة حكيمنا [١] .

(٤)

الحياة الروحية فى عصر حكيم الإشراق

انتهينا فى الفقرة السابقة إلى أن مولد شيخ الاشراق كان فى سنة ٥٤٩ هـ ، وأن مقتله كان فى سنة ٥٨٧هـ ، ومعنى هذا أن حكيمنا قضى شطراً من حياته فى عهد الدولة الفاطمية ، وقضى شطراً آخر منها فى عهد الدولة الأيوبية ، أو هو بعبارة أخرى قد شهد فترة انتقال الحكم الاسلامى من الخضوع لمذهب الشيعة إلى الخضوع لمذهب أهل السنة . وإذا كان لهذه الفترة قيمتها الكبرى وخطرها العظيم فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية فضلا عن الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية ، فلا بد إذن من أن يكون لها أثرها فى تكوين شخصية السهروردى وتغذيتها بما كان شائعاً وقتئذ من ثقافات ، ومن أن يكون لها صداها فى الحياة الروحية لحكيمنا سواء من الناحية النظرية أم من الناحية العملية .

فنحن نعلم مما يحدثنا به التاريخ أن الفاطميين ملكوا مصر والشام ، فانتقلت الخلافة فى عهدهم إلى القاهرة التى ظلت زهاء قرنين عاصمة الامبراطورية الفاطمية ، وأن دولة الفاطميين ما زالت قائمة فى مصر حتى سنة ٥٦٧ هـ = ١١٧١ م ، وأن مذهب الشيعة ظل شائعاً فى أنحاء الامبراطورية الاسلامية مسيطراً على نواحى الحياة فيها ، مؤثراً فى ثمرات العقل والروح والشعور ، حتى ذلك

---

(١) أنظر ص ٦٤ من هذا البحث .

التاريخ ، وحتى كان صلاح الدين الأيوبى ، فاذا هو يأخذ نفسه بمحاربة الشيعة ، والقضاء على آثارهم فى المذاهب والعقائد ؛ واحياء السنة ونشر تعاليمها : وذلك بانشاء كثير من مدارس الفقه والحديث بصفة عامة ، وإنشاء المدارس الشافعية بصفة خاصة : وإبطال علوم الشيعة التى كانت تدرس فى الأزهر باعتباره أثراً من آثار الفاطميين [1] .

ونحن نعلم مما يحدثنا به تاريخ الحياة الروحية الاسلامية أيضاً ، أن الغزالى الصوفى قد وقف فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة ذلك الموقف الذى نقد فيه المتكلمين والفلاسفة على السواء ، فأبان عما فى مذاهب أولئك من نقص وقصور ، وعما فى مذاهب هؤلاء من عجز وتلبيس ؛ وانتهى الى أن العقل وحده عاجز عن إدراك الحقيقة ، وأن الذوق وحده بما يهيئه للانسان من صفاء القلب وجلاء البصيرة ، هو الذى يستطيع أن يتصل اتصالا مباشراً بالحقيقة العليا التى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها . ولقد كان الغزالى من التمسك بالكتاب والسنة والمحافظة على تعاليمهما ، ومن حرارة الايمان وقوة اليقين ، ومن بلاغة الأسلوب وبراعة التعبير وروعة التصوير ، بحيث استطاع أن يحبب الناس فى دينهم الحق الذى يوصلهم الى معرفة الحق معرفة يقينية لا شبهة فيها ولا غبار عليها ، وأن يصور لهم الحياة الروحية بصفة عامة ، وحياة الصوفية بصفة خاصة ، فى صورة جميلة رائعة تجذبهم اليها وتحببهم فيها ، وتجعلهم يأخذون أنفسهم بما فيها من تصفية للنفس وتنقية للقلب وتخل عن الصفات المذمومة وتحل بالصفات المحمودة ، حتى يتهيأ لهم الظفر بالسعادة التى وعد الله بها المتقين ، والتى لم تكن عند الغزالى شيئاً آخر غير المعرفة التى لم تكن هى الأخرى إلا معرفة الله وذاته وصفاته وأفعاله وآثاره فى الكون وحكمته فى خلق الدنيا والآخرة . ومن هنا أصبح التصوف عند أهل السنة منذ أيام الغزالى منهجا ومذهبا فى المعرفة ، كما أصبح دعامة تقوم عليها الحياة الروحية الاسلامية من الناحيتين النظرية والعملية [2] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٠٢

(٢) راجع تفصيل هذا كله فى كتابنا : الحياة الروحية فى الاسلام ، ص ١٢٢ — ١٢٦ ، ١٣٢

على أن القرن السادس الهجرى لم يكد يظل الحياة الروحية الأسلامية حتى كانت قد ظهرت طائفة من غلاة الصوفية الذين أباحوا لأنفسهم حرية واسعة النطاق ، والذين وإن لم يعدلوا عن الذوق والوجد واصطناع طريق التصفية إلى العقل والنظر وانتهاج سبيل المنطق ، إلا أنهم خلطوا مسائل الكلام والفلسفة الالهية بعلمهم الذوقى وفهمهم الروحى ، فتكلموا فى النبوات والشرائع ، وحقائق الموجودات العلوية والسفلية وتركيبها وصدورها عن موجدها ، وتحدثوا عن الاتحاد بين الرب والعبد ، وحلول الحق فى الخلق ، وعن التجلى ووحدة الوجود ووحدة الشهود ،وغير ذلك من المسائل الكثيرة التى تناولوها فى مؤلفاتهم ، وعبروا عن مذاهبهم فيها نثرا تارة ونظما تارة أخرى . هذا إلى ما كان مازال متردداً في الآذان ماثلا فى الأذهان من عقائد الشيعة بصفة عامة وعقائد الاسماعيلية الباطنية بصفة خاصة ، ومن تعاليم أولئك وهؤلاء فى النظر والعمل : فقد ترتب على ذلك أن اختلط كلام الصوفية والشيعة والاسماعيلية الباطنية ، وتشابهت عقائدهم ؛ فظهر عند الصوفية القول بالقطب الذى يدل عندهم إما على الحقيقة المحمدية التى كانت قبل أن يكون الخلق ، وإما على الانسان الكامل الذى تحقق بكمال العلم والعمل حتى صار أهلا لأن يكون على رأس العارفين من مراتب الصوفية . وما يقوله الصوفية عن القطب من أنه لايدانيه أحد فى مقامه من المعرفة حتى يقبضه الله إلى جواره ، فيورث مقامه الى أحد غيره من أهل العرفان ، هو ما تقول به الرافضة من إلهية الأئمة ، وكذلك ما يأخذ به الصوفية من ترتيب الأبدال بعد القطب يشبه كثيراً أو قليلا ما يأخذ به الشيعة والاسماعيلية الباطنية من ترتيب النقباء بعد الامام . ومثل هذا يمكن أن يقال فى كثير من المسائل والعقائد التى أخذها الصوفية عن الشيعة والاسماعيلية الباطنية والتى لا بد لها من أن تفعل فعلها فى الحياة الروحية الأسلامية بصفة عامة ، وتأتى أكلها فى آثار الصوفية ومصنفاتهم ومذاهبهم بصفة خاصة [1] .

---

(١) أنظر كتابنا : الحياة الروحية فى الاسلام ، ص ١٣٢ — ١٣٣

وهكذا نتبين أن مانعاه الغزالى على علم الكلام والفلسفة من قصور وعجز وتلبيس فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة، وما قرره حجة الاسلام وقتئذ من تباعد بين علم الكلام والفلسفة من ناحية، وبين التصوف من ناحية أخرى، قد استحال فيما بين النصف الثانى من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السابع إلى شىء من الامتزاج والتزاوج بين هذه العلوم الثلاثة من ناحية، وبينها وبين تعاليم الشيعة والاسماعيلية الباطنية من ناحية أخرى. وآية هذا التزاوج ما كان شائعا فى ذلك الحين من مذاهب المتكلمين والفلاسفة فى الصانع، وصدور الموجودات عنه، وغير ذلك من عوالم الأرواح وشئون الآخرة، وما كان ظاهراً من تعاليم الشيعة والاسماعيلية، أو ما كان خفياً منها فى بعض النفوس أو محفوظا فى بطون بعض الكتب. فكان طبيعياً إذن أن تتطور الحياة الروحية الأسلامية، وأن تصطبغ بصبغة العوامل التى تؤثر فيها والعناصر التى تشيع فى ثناياها، وأن يتغير موضوع التصوف ومنهجه وغايته تغيراً ملائماً لطبيعته من ناحية ولطبيعة العناصر التى دخلت اليه وانبثت فيه من ناحية أخرى. هنالك أخذ الصوفية يتحدثون عما كان يتحدث عنه المتكلمون والفلاسفة، وهنالك أيضا مزجوا كلامهم بكثير من أقوال الشيعة والاسماعيلية، واستبدلوا بعض الألفاظ التى كان يستعملها أولئك وهؤلاء بألفاظ أخرى وإن كانت تقرب كثيراً أو قليلا فى مدلولها من مدلول الألفاظ الشيعية أو الاسماعيلية، وكان الصوفية فى هذا كله إنما يتحدثون على منهجهم الذوقى الذى وإن كان أخص خصائصه أنه لايستند إلى نص، ولايعتمد على نظر، إلا أنه كان هنا مزاجا من الذوق والنظر، وجامعاً بين طريق الصوفيه من أصحاب الرياضات والمجاهدات وأرباب المكاشفات والمشاهدات، وبين طريق الفلاسفة من أهل النظر العقلى والدليل المنطقى. والصوفية فيما يتحدثون عنه من أذواقهم ومكاشفاتهم؛ وفيما يصورون من أحوالهم ويعرضون من مذاهبهم، انما يصطنعون أسلوبا قوامه الرمز والالغاز اللذان يقصر عن فهمهما وتعرف ما يشيران إليه كل من لم يشاركهم فى طريقهم، ولم يذق ذوقهم، لاسيما أن ما يعرض لنفوسهم من أذواق،

ومايتكشف لقلوبهم من حقائق ، ومايشرق على بصائرهم من أنوار : إنما هو من قبيل الوجدانيات التي لا تصدر عن العقل ، ولا تخضع له : ولا يرجع في الحكم عليها إليه . ومع أن الطابع الوجداني هو أخص ما تمتاز به الآثار الصوفية عامة ، إلا أن تاريخ الحياة الروحية الاسلامية قد ظفر فيما بين القرنين الخامس والسابع للهجرة بطائفة صالحة من الصوفية الذين مزجوا التصوف بالفلسفة ، وزاوجوا بين الذوق والنظر ، وبثوا في تضاعيف مذاهبهم كثيراً من العناصر الميتافيزيقية ، فجاءت مذاهبهم لا هي إلى التصوفية الخالصة التي تقوم على الذوق وحده ، ولا هي إلى الفلسفية الصرفة التي تستند الى العقل وحده ، وانما هي مزاج من هذه وتلك ، أو هي شيء يمكن أن يقال عنه تصوف فلسفي أو فلسفة تصوفية . وليس من شك في أن مذاهب السهروردي المقتول في حكمة الاشراق ، ومحي الدين بن عربي في وحدة الوجود ، وعمر بن الفارض في الحب الالهي ووحدة الشهود ، كل أولئك انما يصور هذا التصوف الفلسفي أو هذه الفلسفة التصوفية أصدق تصوير ، ويعبر عما يشتملان عليه من أذواق وأنظار أدق تعبير .

فاذا كان ذلك كذلك ، وكان التصوف الاسلامي قد امتزجت به عناصر شيعية واسماعيلية باطنية من ناحية ، وعناصر فلسفية يونانية أو فارسية أو هندية من ناحية أخرى ، فقد كان طبيعياً إذن أن تنطوي المذاهب الصوفية التي تأثرت كثيراً أو قليلا بهذه العناصر أو تلك على كثير من المعاني الشيعية أو الاسماعيلية أو الفلسفية التي تتنافى كثيراً أو قليلا مع تعاليم الكتاب والسنة ، وأن يعمد الصوفية إلى التعبير عن تلك المذاهب في حرية لا تتقيد بنص من نصوص الشرع ، وعلى وجه يجعلهم في نظر الفقهاء من أهل الزيغ والضلال ، أو من دعاة الزندقة والالحاد . ومن هنا كان ما كان من انتداب كثير من الفقهاء وأهل الفتيا للرد على الصوفية فيما صرحوا به من مقالات ، وما أذاعوه من مصنفات . وها نحن أولاء قد رأينا آثار ذلك فيما وقع للسهروردي من فقهاء حلب ، وما أنكره عليه هؤلاء الفقهاء من أحواله وأقواله ، وما انتهى إليه أمره بين أيديهم إذ أفتوا باباحة دمه والحكم عليه

بالقتل . ولقد وقع لكل من ابن عربى وابن الفارض مثل ماوقع للسهروردى، من تشنيع الفقهاء عليهما ، وتجريحهم لمذهبيهما ، وتشكيكهم فى عقيدتيهما وإيمانهما وخلقهما ، وإن لم ينته أمر هذين الصوفيين إلى مثل ما انتهى اليه مصير السهروردى من قتل ، إلا أنهما كانا فى نظر الفقهاء من الخارجين على أحكام الكتاب والسنة ، الداعين إلى العقائد المضلة ، والبدع المزيغة .

(٥)
حياة حكيم الإشراق الروحية

ليس من شك فى أن الحياة الروحية لأى من قادة الفكر والروح إنما هى صدى أو رد فعل للحياة الروحية العامة فى هذا العصر أو ذاك : فهى إما متأثرة بها وآخذة عنها ومعبرة عما يشيع فيها ويسيطر عليها من ألوان الثقافات وضروب العقائد ، وإما ناقدة لها وثائرة عليها وخارجة على ماتوارثته الأجيال من عقائد وتقاليد . وها نحن أولاء قد ألممنا فيما سبق بصورة عامة للحياة الروحية وسماتها فى عصر السهروردى ، ونريد الآن أن نحلل الحياة الروحية لشيخ الاشراق إلى عناصرها التى تتألف منها محاولين أن نبين ماأفاده السهروردى من ثقافات عصره ، وما آثره وتأثر به من تقاليد أمته وجيله ، وماذا جدد من عناصر قديمة أو أضاف من عناصر جديدة كان لها أثرها فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية بصفة عامة ، وفى تاريخ الفلسفة والتصوف الاسلاميين بصفة خاصة .

لحياة السهروردى الروحية طابعان : أحدهما نظرى ، والآخر عملى . وتتألف حياة السهروردى الروحية من عناصر ثقافية ودينية مختلفة : منها الفلسفى الخالص ، والشرعى البحت ، وفيها الاسلامى المستمد من مصادر فقهية وأصولية وكلامية ، والفارسى الذى يرد إلى أصول زرادشتية أومانوية . واليونانى الذى يقوم على دعائم مشائية أو أفلاطونية أو أفلاطونية محدثة . ولها إلى جانب هذا كله ذلك الطابع التصوفى الذوقى الذى طبعها به ، والاتجاه الاشراقى الذى وجهها اليه : فهو قد سافر فى صغره الى المراغة طلباً

للعلم والحكمة التى تلقاها عن مجد الدين الجيلي واشتغل بها على يديه . ثم سافر الى إصفهان حيث قرأ (البصائر النصيرية) فى المنطق لعمر بن سهلان الساوى كما يستدل الشهرزورى بكتبه على أنه فكر كثيراً فى ذلك الكتاب [١] .

ولابن سهلان غير هذا شرح بالفارسية على (رسالة الطير) وهى إحدى رسائل ابن سينا التصوفية . وقد ذكر الشهرزورى أن السهروردى ترجم هذه الرسالة الى الفارسية[٢] . وترجمة السهروردى لرسالة ابن سينا هذه من شأنها أن تظهرنا على الصلة بين شيخ الاشراق وبين مذهب الشيخ الرئيس فى أصفهان نفسها ، وعلى مبلغ ماتركته قراءة ابن سينا وترجمة (رسالة الطير) من أثر فى أسلوب حكيمنا لاسيما فيما يتعلق بالرموز والتشبيهات التى اصطنعها ، وعبر بها عن كثير من الحقائق التى تضمنها مذهبه .

وقد نشر أشبيس وختك ترجمة السهروردى لرسالة الطير لابن سينا مع شرح ابن سهلان عليها [٣] . كما قام هنرى كوربان بتحقيق هذا قبل ذلك النشر [٤] .

ولم تقف ثقافة السهروردى عند حد الحكمة والمنطق ، وإنما هى قد تجاوزتهما الى الفقه وأصوله ، والأدب وفنونه ، والمناظرة والجدل ، حتى لقد وصفه المؤرخون فقال عنه ياقوت : « . . . كان فقيهاً شافعى المذهب ، أصولياً أديباً شاعراً حكيماً متفنناً ، نظاراً لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه » [٥] . وقال عنه ابن أبى أصيبعة : إنه كان أوحد أهل زمانه فى العلوم الحكمية ، جامعاً للعلوم الفلسفية ، بارعا فى الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله [٦] . وقال عنه ابن خلدون : « السهروردى أحد أذكياء بنى آدم ، كان رأساً فى معرفة علوم الأوائل ،

---

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣

(٢) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٦

(٣) Spies — Khattok : three treatises, p. 39-89.

(٤) Journal Asiatique, juillet-septembre, 1935 ; p. 31-33.

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣١٤

(٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٦٧

بارعا فى علوم الكلام ، مناظراً محجاجا . . . »[1] . وقال عنه أبو المحاسن : « كان السهروردى يعانى علوم الأوائل والمنطق ، والسيمياء وأبواب النيرنجيات، فاستمال بذلك خلقاً كثيراً وتبعوه ؛ وله تصانيف في هذه العلوم »[2] .
فكل أولئك شواهد صدق وأدلة حق على ما تهيأ لحكيمنا من ثقافات عقلية وشرعية أعانه على تحصيلها وتمحيصها والتبريز فيها ذكاء نادر ، ونظر عميق ، وفكر دقيق ، ومهارة فائقة ، وقدرة عجيبة على معرفة الحقائق واستقصاء الدقائق ، مما يدل عليه مذهبه الذى لا يمكن فهمه فهماً مستقيما إلا متصلا بحياته الروحية من ناحية ، وفى حدود الثقافات الذى أتيحت له ، وعلى ضوء الخصائص التى امتاز بها من ناحية أخرى .

على أن حكيمنا لم يكن فيما وقف عليه من ثقافات عقلية وشرعية ، مجرد عقل يحصل العلوم ويستوعبها ، ويقف عند حد الالمام بما قاله المتقدمون فيها ، وإنما هو عقل يفحص ويمحص بعد أن يحصى ويستقصى ، وهو من حرية الفكر والاستقلال فى الرأى والانفراد فى الحكم بحيث لا يقبل شيئاً ولا يطمئن الى شىء لم تقم عليه الحجة ولا أيده الدليل ، وهو بحكم ما تهيأ له من هذه الخصائص كلها قد أقام صرح الفكر الاسلامى على دعائم جديدة ، ولو أنه لم يعرض فى هذا التجديد عن المواد القديمة إعراضاً تاماً ، إلا أنه قد تمكن من أن يحطم الأغلال التى تقيد بها النظر ، وألا يخشى ما كان يلوح به أصحاب السلطان ورجال الدين والعلم من ألوان التهديد والوعيد لكل من حاول شيئاً من ابتكار أو تجديد . وقد أشار السهروردى نفسه فى مقدمة كتابه (حكمة الاشراق) الى منزعه الحر وميله الى التجديد وسلوكه سبيل الاجتهاد في العلم : وذلك فى قوله : « فليس العلم وقفاً على قوم لينغلق بعدهم باب الملكوت ، ويمنع المزيد عن العالمين ، بل واهب العلم الذى هو بالأفق المبين ما هو على الغيب بضنين ، وشر القرون ما طوى فيه بساط

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) : ج ٦ ، ص ١١٤

الاجتهاد ؛ وانقطع فيه سير الأفكار ، وانحسم باب المكاشفات ؛ وانسد طريق المشاهدات » [1] .

وإذا كان ذلك كذلك ؛ فقد ترتب عليه أن نظر السهروردى الى المشتغلين بالحكمة وعلومها من المتأخرين ، فألفاهم قد هبطوا فى الصناعة النظرية الى مايدانى فن الكلام الملى ، وغفلوا عما فى الحكمة القديمة من نكت ودقائق ؛ ومن ثم أقبل هو على ماخلف المتقدمون من حكماء الفرس واليونان من آثار ومذاهب يقوم بعضها على العقل النظرى ويقوم بعضها الآخر على الذوق الروحى ، فاذا هو يستكنه أسرارها ويستعمق أغوارها، ويستشف رموزها وألغازها، ويوغل فيما عرضت له من دقائق ، وما عبرت عنه من حقائق ، وهو فى هذا كله معنى كل العناية بالنقد والتمحيص ، والابانة عن وجه الحق فى حكمة الحكماء ، وعلم العلماء ، وعما عرض لها من تزييف الدخلاء . وإنه ليحدثنا فى مقدمة كتابه (حكمة الاشراق) عن المصادر التى استقى منها مذهبه ، والقواعد التى ابتنى عليها هذا المذهب ، فنتبين من خلال حديثه أنه وقف على أقوال هرمس وانباذقلس وفيثاغورس وأفلاطون وغيرهم من حكماء اليونان ، وعلى أقوال جاماسف وفرشادشور وبوزرجمهر ومن قبلهم من حكماء الفرس ، وعلى مذاهب المجوس والمانوية وغيرها من المذاهب الفارسية القديمة القائلة بالنور والظلمة ، والمفضية الى الشرك بالله تعالى وتنزه [2] . وليس هنا موضع تفصيل القول فيما أفاد السهروردى من أولئك وهؤلاء ، فان لذلك موضعاً آخر سنتناوله فيه بالتفصيل عند ما نعرض لمذهب السهروردى فى حكمة الاشراق . وإنما قصدنا هنا الى أن نشير الى أن حكيمنا قد عرف من مذاهب المتقدمين ما أعانه على تأسيس مذهبه الاشراقى ، وأنه لم يأخذ من هذه المذاهب ما أخذه إلا بعد بحث وتمحيص ، وإقبال على ما كان ملائماً لطبيعة مذهبه ، وإعراض عما كان منافياً لها . وليس أدل على ذلك من أنه حين تحدث عما يبتنى عليه قاعدة الاشراق فى النور والظلمة ، قد أظهرنا على أن ذلك ليس قاعدة كفرة

---

(1) السهروردى : حكمة الاشراق (طبعة طهران) ، ص ١٤ — ١٥

(2) السهروردى : حكمة الاشراق ، ص ١٦ — ١٩

المجوس وإلحاد مانى ، وما يفضى الى الشرك بالله تعالى وتنزه[1] : فهو هنا قد أخذ بالرمز القائل بالنور والظلمة ، وأشاع هذا الرمز في كل ناحية من نواحى مذهبه ، ولكنه لم يؤله النار كما ألهها المجوس ، ولا النور والظلمة كما ألههما مانى .

على أن أظهر ما يظهر فيه روح النقد عند السهروردى هو مخالفته لأفلاطون فى بعض المسائل الرئيسية ، ونعيه على مناهج المشائين ومذاهبهم بصفة عامة : وعلى مذهب أرسطو بصفة خاصة ، وعلى منطق المعلم الأول بصفة أخص . وحسبنا أن نقف معه هنا عند بعض ما أبان به عن عقم هذا المنطق وقصوره : فالتعريف كما وضع قواعده أرسطو إنما يكون بالجنس والفصل ، ولكن حكيم الاشراق يرى أن الصفة المميزة للشيء المعرف ، والتى لا يمكن أن تحمل على أى شيء آخر ، لا تظهرنا على حقيقة الشيء المعرف : فنحن نعرف الحصان مثلا بأنه حيوان صاهل ، وهنا تكون الحيوانية مفهومة لأننا نعرف حيوانات كثيرة توجد فيها هذه الصفة . أما الصفة « صاهل » فليس من الممكن فهمها ، إذ أنها لا توجد إلا فى الشيء المعرف بها ، والمقول عليه إنه حيوان صاهل وهو الحصان . ولهذا كان تعريف الحصان على هذا الوجه خلواً من المعنى لدى الشخص الذى لم ير حصاناً قط ، وكان التعريف الأرسطى مبدأ عقيما قليل الجدوى فيما يتعلق بالمعرفة . وهنا يلاحظ الدكتور محمد إقبال أن شيخ الاشراق فى نقده لتعريف أرسطو قد نظر نظرة تشبه نظرة بوزانكويت (Bosanquet) إذ يعرف التعريف بأنه عبارة عن جمع الصفات[2] . وينتهى شيخ الاشراق الى أن التعريف الصحيح ينبغى أن يحصى كل الصفات الذاتية التى إذا أخذت جملة لم توجد إلا فى الشيء المعرف ، ولو أنها قد توجد فرادى فى أشياء أخرى .

---

(١) السهروردى : حكمة الاشراق ، ص ١٨ — ١٩ .

(٢) M. Iqbal : Development of Metaphysics in Persia, P. 125.

ومهما يكن من نقد السهروردى لمنطق أرسطو ، ومن مخالفته لأفلاطون والمعلم الأول فى كثير من المسائل التى تتعلق بالفلسفة الالهية والفلسفة الطبيعية ، ومن إيثاره الذوق على العقل ، إلا أن حكيمنا لم ينكر على المنطق والفلسفة ما لها من قيمة كبرى وخطر عظيم وأثر كبير فى إعداد طلاب الحكمة وتثقيفهم : فهو يرى أنه لابد للطالب من أن يلم إلماما تاما بالفلسفة الأرسطية والمنطق والرياضيات والتصوف ، وأن يخلص نفسه من شوائب الهوى والشهوة بحيث يستطيع أن ينمى تدريجاً هذه الحاسة الباطنة التى تحقق وتصحح ما يأخذه العقل على أنه نظرى خالص ، والتى تعرف عند الصوفية باسم الذوق : فان العقل الذى يعمل وحده دون أن يكون له عون أو مؤيد من الذوق ، لا يصح أن يوثق فيه ثقة مطلقة ، أو يطمأن اليه اطمئناناً لا شبهة فيه ولا غبار عليه .

ومن هنا كان حكيمنا حريصاً على أن يؤيد العقل بالذوق ، وعلى أن يجمع فى حكمته الاشراقية بين الفلسفة والتصوف ، أو بين الحكمة البحثية والحكمة الذوقية . ومن هنا نتبين أن حكيمنا حين نعى على منطق أرسطو ، أو حين نقض بعض مذاهبه ومذاهب أتباعه من المشائين ، وحين نظر الى الحقائق التى كشفوها على أنها ليست من اليقين بحيث لا يزعزعها الشك ، لم يكن يعنى هدم الفلسفة ، وإنكار قيمة العقل ، وإنما هو يعنى أن يجدد الفلسفة والعقل ، ويقيم صرح الفكر الانسانى على دعائم روحية قوامها تصفية النفس ، وتنقية القلب ، وتذوق الحقائق العليا تذوقا باطناً اذا أضيف الى تعقلها ، كان ذلك سبيل العارف الى معرفة الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان عونه على تحقيق السعادة التى لا يشوبها شقاء ، والظفر بالطمأنينة العظمى والسكينة القصوى اللتين تمحوان من النفس كل قلق ، وتقضيان فيها على كل شك .

أما كيف جمع السهروردى بين الحكمتين البحثية التى تعتمد على العقل والذوقية التى تستند الى الذوق ، وكيف كانت حياته الروحية مرآة صادقة تتجلى على صفحتها أنظاره العقلية من ناحية وأذواقه القلبية من ناحية أخرى

والى أي حد كان مذهبه فى حكمة الاشراق صورة لحياته الروحية ، وثمرة من ثمرات عقله وذوقه معاً ، فكل أولئك أمور يمكن ان نتبينها واضحة جلية اذا وقفنا عند الجانب العملى لحياة ذلك الحكيم ، وهو الجانب الذى كان يأخذ نفسه فيه بسلوك طريق الصوفية : وإخضاعها لما يخضع له القوم من رياضات ومجاهدات : فقد أشرنا فيما سبق الى أن السهروردى سافر الى نواح متعددة ، وهنالك فى هذه النواحى كان يصحب الصوفية ، ويأخذ عنهم ، ويؤثر طريقهم ، ويتأثر حياتهم فى القول والعمل ، الى جانب ما حصل له من ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد ، وما هى إلا أن اشتغل بالرياضات والخلوات والأفكار ، ومارسها بنفسه حتى وصل — كما يقول الشهرزورى — الى غايات مقامات الحكماء ، ونهايات مكاشفات الأولياء[1] .

أما رياضاته التى أخضع نفسه لها ، فقد ذكر الشهرزورى منها أنه كان يفطر فى كل أسبوع مرة ، وان طعامه لم يكن يزيد على خمسين درهما ، وان أكثر عباداته كان الجوع والسهر والفكر فى العوالم الالهية ، وأنه كان قليل الالتفات الى مراعاة الخلق ، ملازما للصمت والاشتغال بنفسه ، محبا للسماع والنغمات الموسيقية ، صاحب كرامات وآيات[2] . ولقد كان السهروردى زاهداً ، لا يلتفت الى الدنيا ، قليل الاهتمام بها ، لا يبالى بالملبس والمأكل ولا يسعى الى الشرف والرياسة[3] ، وكان فى بعض الأحيان يلبس كساء وقلنسوة حمراء طويلة ، وفى بعض الأحيان الأخرى مرقعة وخرقة على رأسه ، وفى بعض الأحيان يتزيا بزى الصوفية[4] وليس أدل على أن حكيمنا لم يكن مكترثا بالاعتبارات الاجتماعية ، ولا معنيا بالمظاهر الدنيوية ، مما رواه سديد الدين محمود بن عمر الملقب بابن رقيقة والمولود سنة ٥٦٤ ه والذى كان تلميذاً ملازماً لفخر الدين الماردينى وعاين الصلة الوثيقة التى كانت بين

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣
(٢) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣
(٣) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣
(٤) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣

الشيخين : فقد روى ابن رقيقة القصة التالية فقال : « كنت أنا وإياه (يعنى السهروردى) نتمشى فى جامع ميافارقين ، وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء ، وعلى رأسه فوطة مفتولة ؛ وفى رجليه زربول ؛ ورآنى صديق لى ، فأتى إلى جانبى وقال : ما جئت تماشى إلا هذا الخربندا [1] ؟ فقلت له : اسكت ! هذا سيد الوقت ، شهاب الدين السهروردى . فتعاظم قولى وتعجب ومضى » [2] .

فمن هذا كله تتبين أن السهروردى لم يكن صاحب عقل ونظر فحسب ، وإنما كان كذلك صاحب حال ووجد ، يحيا حياة الصوفية ، ويأخذ نفسه برياضاتهم ، ويخضعها لمجاهداتهم ، ولا يعنيه من أمر الدنيا والاتصال بالخلق ، ما يعنيه من شأن الآخرة والاقبال على الحق : فهو زاهد في كل شيء ، منصرف عن كل ما يقبل عليه الناس من مال وجاه وسلطان ، مزدر لكل ما فى الحياة من مظاهر زائلة ، وأعراض حائلة . ولقد كانت هذه الحياة الروحية الخالصة خليقة بأن تجعل من السهروردى صوفيا متحققا بحق ، وحكيما إشراقيا جمع فى حكمته بين طريق النظر والذوق .

على أن هذه الحياة الصوفية التى كان يحياها حكيم الاشراق ، والقطوف الروحية التى دنت فى ظلها ، لم تكن موضع رضي كل من عاصره أو أرخ له ، بل إن منهم من أكبره وأعجب به وعده وليا من أفضل الأولياء ، وحكيما من أجل الحكماء على نحو ما فعل الشهرزورى ، ومن بالغ فى ذلك حتى قال عنه : « أبو الفتوح رسول الله » على نحو ما فعل بعض أصحابه [3] ، فى حين أن منهم من أرجف به ، وشنع عليه ، وأنكر عليه حاله ، وذهب فى هذا كله إلى حد أن صوره فى صورة منفرة ، على نحو ما فعل بعض المؤرخين إذ وصفه فقال إنه كان زرى الخلقة ، دنس الثياب وسخ البدن ، لا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يداً ، ولا يقص ظفراً ولا شعراً . وبالغ هؤلاء المؤرخون

---

(١) خربندا : هو المكارى فى الفارسية ، ويطلق على زرى الهيئة .

(٢) ابن أبى أصيبعه : طبقات الأطباء ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، وج ٢ ، ص ٢١٩ — ٢٣٠

(٣) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥

فقالوا : « وكان القمل يتناثر على وجهه ، ويسعى على ثيابه ، وكل من يراه يهرب منه »[1] .

وبينا كان بعض من عاصره وأرخ له يعترف له بذكاء العقل وشدة التقوى والصلاح وسلامة العقيدة ، اذا بفريق آخر من هؤلاء المعاصرين والمؤرخين ينكر عليه ذلك كله ، ويرى فيه قلة العقل ، وانحلال العقيدة ، ومعاندة الشرائع . وقد أعطانا ابن خلكان صورة لهذا الخلاف الذى وقع بين الناس فى أمر السهروردى فقال ما نصه : « أقمت بحلب سنين للاشتغال بالعلم الشريف ، ورأيت أهلها مختلفين فى أمره (السهروردى) ، وكل واحد يتكلم على قدر هواه : فمنهم من ينسبه الى الزندقة والالحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح ، وأنه من أهل الكرامات ، ويقولون ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك ، وأكثرهم على أنه كان ملحداً لا يعتقد شيئاً »[2] . ويكفى أن نذكر هنا بعض ما ورد فى هذا الصدد من أقوال متضاربة ، وآراء متباينة : فقد سئل فخر الدين الرازى عن السهروردى فقال : « إن ذهنه متوقد ذكاء وفطنة »[3] . وروى الشيخ سيف الدين الآمدى فقال : « اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لا بد أن أملك الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر ؛ فقلت : لعل هذا يكون اشتهار العلم ، وما يناسب هذا ، فرأيته لا يرجع عما وقع فى نفسه ، ورأيته كثير العلم قليل العقل »[4] . وحدث الشهرزورى بأنه سمع من علماء العامة ، وممن لاحظ له فى العلوم الحقيقية ، أن السهروردى كان يعرف السيميا ، وأن بعضهم يزعم أنه متخيل . وقد دفع الشهرزورى هذه الشبهة عن السهروردى فعقب بقوله : « . . . وكل ذلك خرافات وجهل بمقامات إخوان التجريد ، بل هو (يعنى السهروردى) وصل الى نهايات مقاماتهم . ولاخوان التجريد مقام يقدرون فيه على إيجاد أى صورة أرادوا ، والى هذا المقام وصل

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٥

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

(٣) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٥

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

أبو يزيد والحسين بن منصور الحلاج ، وغيرها من إخوان التجريد . . . »[1].
وذكر ابن خلدون السهروردى فمدحه من الناحية العلمية وقدح فيه من الناحية الدينية ، وقال عنه إنه كان متزهداً ، مزدرياً للعلماء ، مستهزئاً رقيق الدين[2] . وذكره ابن شداد قاضى حلب فروى إنه قتل لما قيل عنه من إنه كان معاندا للشرائع مبطلا [3] .

ومهما يكن من امر هذا الاختلاف حول السهروردي فيما كان يحياه من حياة روحية ، ومن حكم له أو حكم عليه ، ومن ان الذين تعصبوا له والذين تعصبوا عليه كانوا موفقين أو كان قد اخطأهم التوفيق ، فان الذى نستخلصه من هذا كله أن حكيم الاشراق كان يحيا حياة الصوفية ، وكانت له فى هذه الحياة رياضات ومجاهدات ، وأذواق ومواجيد ، واختلفت عليه أحوال ، وصدرت عنه أقوال ، وأنه سلك فى أحواله وأقواله مسالك أهل الباطن الذين قل أن يسيغها ويقرها أهل الظاهر ، ومن ليس من أصحاب الاحوال وأرباب الأذواق فى شيء .

ولكى يكون السهروردى صوفيا من الصوفية المتحققين ووليا من أولياء الله المقربين ، فلا بد من أن يكون له كرامات ، ومن أن يجرى على يديه بعض خوارق العادات . وقد أشار الشهرزورى إلى ذلك اشارة خفيفة موجزة لم يزد فيها على أن قال عن السهروردى إنه « صاحب كرامات وآيات »[4] ، وإنه لو حكى ما بلغه من كراماته لطال ، وإن بعض الجاهلة الغافلين كذب به العاقلين[5] ، ولكن ابن خلكان لا يقف هنا عند حد الاشارة ، وإنما هو يتجاوزها إلى ذكر قصة نتبين من خلالها بعض ما كان لحكيمنا من خوارق . ولما كان تفصيل القول فى هذه الخوارق مما يخرجنا عما

---

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤
(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص
(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣
(٤) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٠
(٥) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٥

قصدنا اليه من الألمام بحياة السهروردى الروحية إلماما يظهرنا على ما كان له من ثقافات عقلية وشرعية وصوفية وما أخضع له حياته من قواعد عملية ، فقد رأينا ألا نخوض فى هذا الموضوع ، وأن نحيل القارىء إلى مواضعه من كتاب ابن خلكان ، [1] وغيره من الكتب التى عرضت له وفصلت القول فيه .

فاذا أردنا بعد هذا كله أن نجمل القول فى الحياة الروحية لحكيم الاشراق ، وفى العناصر الثقافية العلمية والتهذيبية العملية التى تألفت منها ، والخصائص العقلية والذوقية التي امتازت بها ، قلنا إن حكيم الاشراق كان صاحب ثقافات فلسفية وفقهية وكلامية ، وصاحب رياضات ومجاهدات نفسية ، وأحوال وأذواق روحية ، وإن حياته كانت ملتقى لهذه الثقافات التى عرف بما له من ملكة التأليف كيف يزاوج بينها ، وبما امتاز به من قدرة على النقد والتمحيص كيف يحللها ، ويبين صحيحها من فاسدها ، ويختار أصلحها وأكثرها ملاءمة لمذهبه الذى أراد أن يؤسسه ، وبما أتيح له من ملكة الاستقلال أن يخرج منها نسقا واحدا جديدا له طرافته وقيمته بين المذاهب التى ظهرت في تاريخ الحياة الروحية الاسلامية . وها هى ذى التقاليد الفارسية القديمة ، والعقائد الاسماعيلية الباطنية ، والمذاهب الفلسفية اليونانية ، والأنظار الكلامية الاسلامية ، كل أولئك قد أتيح للسهروردى أن يقف عليه ، ويعبر عنه ، ويؤلف بينه وبين أذواق الصوفية ، حتى طبعت حياته ومذهبه بطابع الجمع بين الحكمتين البحثية والذوقية جمعا تدل عليه حياته النظرية والعملية التى صورناها فى هذا البحث ، وينطق به مذهبه فى حكمة الاشراق ، ويعبر عنه الشهرزورى تعبيرا نتبين منه قدرة السهروردى عليه ومهارته فيه ومنزلته بين الحكماء ، وذلك فى قوله : « جمع بين الحكمتين ، أعنى الذوقية والبحثية : أما الذوقية فشهد له بالتبرز فيها كل من سالك سبيل الله عز وجل ، وراض نفسه بالأذكار المتوالية ، والمجاهدات المتتالية ، رافضا عن نفسه التشاغل بالعالم

---

[1] ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٢ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢

الظلمـانى ، طالبا بهمته العالية مشاهدة العالم الروحانى : فاذا استقر قراره ، وتهتك بالسير الحثيث الى معاينة المجردات أستاره ، حتى ظفر بمعرفة نفسه ، ونظر بعقله الى ربه ، ثم وقف بعد هذا على كلامه ، فيعلم حينئذ أنه كان فى المكاشفات الربانية آية ، والمشاهدات الروحانية نهاية ، لا يعرف غوره الا الأقلون ، ولا ينال شأوه الا الراسخون . وأما الحكمة البحثية فانه أحكم شانها ، وشيد أركانها وعبر عن المعانى الصحيحة اللطيفة : بالعبارات الرشيقة الوجيزة ، وأتقنها اتقانا لا غاية وراءه لا سيما فى الكتاب المعروف (بالمشارع والمطارحات) ، فانه استوفى فيه بحوث المتقدمين والمتأخرين وتقصى فيه أصول مذاهب المشائين ، وشيد فيه معتقد الحكماء الأقدمين . وأكثر تلك البحوث والمناقضات ، والأسئلة والايرادات ، من تصرفات ذهنه ومكنون علمه ، وذلك يدلك على قوته فى الفن البحثى والعلم الرسمى »[1] . وفى قوله أيضاً : « واعلم أنه لم يتيسر لأحد من الحكماء والعلماء والأولياء ما تيسر لهذا الشيخ من اتقان الحكمتين المذكورتين ، بل بعضهم يسر له الكشف ولم ينظر فى البحث كأبى يزيد والحلاج ونظرائهما . وأما اتقان البحث الصحيح بحيث يكون مطابقاً للوجود من غير سلوك وذوق فلا يمكن . وجميع الحكماء المقتصرين على مجرد البحث الصرف مخطئون فى عقائدهم . فان أردت حقيقة الحكمة ، وكنت مستعداً لها ، فاخلص لله تعالى ، وانسلخ عن الدنيا انسلاخ الحية من جلدها ، عساك تظفر بها »[2] .

---

(١) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٠ — ٢٣١

(٢) الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٢٣٢

محنــــة الشيعة بافريقيــة

فى القرن الخامس الهجرى

للأستاذ حسن أحمد محمود

علت كلمة الشيعة بافريقية والمغرب مذ تم النصر للفاطميين فمكنوا لأنفسهم وبسطوا سلطانهم ودانت لهم شعوب المغرب بالطاعة والولاء ، ولكن لم يكد يمضى على قيام الدولة الفاطمية حول قرن ونصف من الزمان — أعنى فى أوائل القرن الخامس الهجرى — حتى تغيرت الأوضاع تماماً وراح أهل السنة بعد أن ابتلوا فى أنفسهم وامتحنوا فى عقائدهم ونزلت بهم ألوان العذاب يتنفسون الصعداء ويتطلعون إلى الخلاص .

إذ ليس من شك فى أن المذهب الذى يضطهد أتباعه يكثر أنصاره ويزداد عدد مؤيديه سراً ؛ ويسمو دعاته فى نفوس العامة إلى مراتب الشهداء فى سبيل الله . ويخيل إلينا أن ساعد أهل السنة بدأ يشتد نوعاً ما فى أواخر عهد الأمير باديس بن المنصور الزيرى (٣٨٦ — ٤٠٦ هـ : ٩٩٦ — ١٠١٦ م) وأن المسئول الأول عن ذلك هو الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله الذى شاء أن يقف من البيت الزيرى موقف المتاضل ، فانتهز السنيون هذه الظروف لمصلحتهم ، وظفروا بنوع من الحرية عن ذى قبل ، وليس أدل على ذلك من أن مربى ولى العهد[1] أبا الحسن بن على الرجال[2]

---

(١) المعز بن باديس .

(٢) وصفه الحسن بن رشيق فى مقدمة العمدة فقال « علم العليا ودانى المكارم وآبى الضيم رجل الخطب وفارس الكتب أبى الحسن على بن أبى الرجال » انظر العمدة ج ١ ص ٢

السنى المالكى المذهب ، قد عهد إليه تربية الأمير الصغير[1] ويخيل إلينا أن باديس لم يكن يعرف أن مربى ولده سنى المذهب فقد ذكر ابن عذارى « أن ابن أبى الرجال كان سنى المذهب ؛ والشيعة لا يعلمون عنه ذلك الأمر »[2] فطوى النفس على المذهب الذى كان يعتنقه حتى يستطيع أن يحقق غايته ويؤدى رسالته وهى الفوز بالمعز بن باديس وجذب قلبه ناحية أهل السنة وتنشئته على كره المذهب الاسماعيلى وبغض الخلفاء الفاطميين، ويعد ذلك فوزاً بعيد المدى للحركة السنية بافريقية والمغرب . وقد ظهر أثر ذلك فى فجر ولاية الأمير المعز بن باديس (٤٠٦ — ٤٥٤/٣ هـ = ١٠١٦ — ١٠٦٢ م) وكان أهل السنة وأنصارهم يعلمون علم اليقين أن الحسن بن أبى الرجال قد أدى مهمته كما يؤديها السنى المخلص ، وأن المعز بن باديس ينشأ على حب أهل السنة وبغض المشارقة والانحراف عن المذهب الاسماعيلى .

وقد تم هذا الفوز بعيد أخذ البيعة للأمير المعز بن باديس ، فذكر المؤرخون[3] أن المعز غداة مبايعته بالامارة قد سار فى موكب حافل فدخل القيروان فى طريقه إلى المسجد يحف به الجند الصنهاجيون والسودان ورجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وخرج أهل المدينة إلى الطرقات ليروا موكب الأمير الجديد ، فلما كان المعز فى طريقه إلى المسجد كبا به جواده فاستنجد بالشيخين أبى بكر وعمر[4] . وقال آخرون إنه رأى طائفة من المشارقة فسأل عنهم فقيل له أنهم يسبون الصحابة فقال « رضى الله عن الصحابة »[5] ، فما كادت العامة تسمع ذلك من الأمير حتى انفجر غيظهم المكبوت وانصرفوا إلى المشارقة ينتقمون منهم ، ومضوا إلى الحى الذى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٩ ؛ الدباغ : معالم الايمان فى طبقات فقهاء القيروان ج ٢ ص ١١٢

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص٢٧٩ : الدباغ : معالم الايمان ج ٣ ص١١٢

(٤) Marçais: Les arabes en Berberi, p. 40

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٧٩

ينزلون به بالقيروان فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى لقد قيل إنهم قتلوا ثلاثة آلاف [1] ؛ وجرى الدم غزيراً حتى غطى بقعة كبيرة من الأرض أطلق عليها فيما بعد اسم « بركة الدم » [2] . وقام الفقهاء من كل مكان يحرضون العامة للأخذ بالثأر وأضحت هذه الحركة السنية ثورة جامحة ، وخرج الزمام من يد المشرفين على الأمن فى المدينة فلم يستطيعوا كبح جماح العامة أو الفقهاء المتحرقين إلى الانتقام منذ أمد بعيد ؛ وسرعان ما علم أهل السنة بالمدن الأخرى بأمر هذه النقمة العاجلة التى حلت بالشيعة بالقيروان ، فاشتعلت نار الثورة بالمنصورية [3] ، وخرج أهل القيروان إليها فأتوا على دار الامارة ونهبوا المدينة نهباً وأشعلوا النار فى الأسواق [4] ، وقتلوا عامل القيروان الذى نجا بنفسه واعتصم بالمنصورية [5] . ولجأت طائفة من المشارقة إلى قصر السلطان ولكن العامة أمسكوا بخناقهم وأمعنوا فيهم تقتيلا وذبحاً . ثم اندلع لهب الفتنة بمدينة المهدية [6] نفسها ولجأ طائفة من المشارقة إلى المسجد الجامع ، ولكن ذلك لم يعصمهم من الشر ، فاقتحم المسجد عليهم وقتلوا أشنع قتل ، وروى المؤرخون أن أغلب مدن افريقية قد قلدت القيروان [7] .

ولكن يجب أن نلاحظ أن هؤلاء الرواة من أهل السنة الذين يكرهون المشارقة كرهاً عظيما أدى الى مبالغتهم فى التقدير ، إذ مما لا شك فيه أن أهل القيروان أو المهدية أو المنصورية أو تونس ليسوا غالبية الشعب الزيرى ، لأن أهل المدن قلة إذا قيسوا ببقية الشعب النازلين فى السهول والضاربين فى الوديان الجبلية والمناطق الرعوية ؛ كما أن قبيلة صنهاجة

---

(1) الدباغ : معالم الايمان ج ٣ ص ١٩٣

(2) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥

(3) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٥

(4) ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٠

(5) Marçais: Les arabes en Berberie, p. 58

(6) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٢

(7) الدباغ : معالم الايمان ج ٣ ص ١٩٢

وعشائرها وبطونها المختلفة كانت بلا شك تكون نسبة كبيرة جداً من السكان. ولما كانت صنهاجة تدين بمذهب الدولة الرسمي وتحمي زمار المشارقة فليس من المقبول أن نصدق ما رواه المؤرخون من القضاء على الشيعة قضاء تاماً. فاذا كان المشارقة قد قتلوا بالقيروان أو المهدية أو بالمنصورية فقد بقيت غالبيتهم منتشرة بافريقية والمغرب الأوسط، وكانت الدولة لا تزال تشد أزرهم وتحمي ذمارهم وتدافع عنهم، وكانت الدولة ما زالت اسماعيلية المذهب.

ويكاد يجمع أغلب المؤرخين على أن استنجاد المعز بالخليفتين أبي بكر وعمر هو المسئول الأول عن اشتعال الفتنة واندلاع نار الثورة، ولكن رواياتهم تشف عن كثير من مواطن الضعف، أولها أن المعز كان لا يزال غلاماً لم يتجاوز التاسعة أو الثامنة من عمره [1]، لم تهيء له سنه الغضة أن يتفقه في فهم المذهب السني أو الشيعي، كما أن غلاماً هذا شأنه لا يعتبر بأية حال مسئولا عن مثل هذه الأعمال [2].

كما يجب ألا يفوتنا أن نتساءل قائلين لم وقعت هذه الحوادث في هذا اليوم بالذات؟ وهو يوم خروج المعز الى المسجد الجامع بالقيروان، ولم لم تقع في غيبة المعز أو قبل وصوله الى القيروان بوقت طويل؟ وإذا كان أهل السنة قد أحبوا الانتقام من المشارقة فلم اختاروا هذه الساعة بالذات لاشعال نار الفتنة والانتقام من الشيعة؟

إما أن فتنة الشيعة هذه كانت أمراً مبيتاً وفق خطة مرسومة وضعها أهل السنة واختاروا ساعة قدوم المعز الى القيروان واحتشاد الناس لاستقباله لتنفيذ خطتهم والنيل من المشارقة والقضاء عليهم قضاء تاماً، وهذا — في رأيي — بعيد التحقيق لأنه لم تبلغ الجرأة بزعماء أهل السنة حداً يستطيعون معه أن يوقعوا بالمشارقة على مسمع ومرأى من رجال الجيش الصنهاجي وعبيد المعز،

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥

(2) Marçais: Les arabes p. 48

إذ لو صح أنهم فعلوا ذلك لما استغربنا أن ينقض عليهم جند المعز فينتقمون منهم انتقاماً شنيعاً . وإما أن يكون أهل السنة قد استغلوا ظروف طارئة حدثت فى أثناء سير الموكب فى طريقه الى مسجد القيروان فرأوها مناسبة للانتقام من أهل الشيعة انتقاماً مروعا .

ولكن المؤرخين ذكروا أن عامل القيروان كان يخشى أن يبطش به رجال الدولة بعد وفاة باديس فأحب أن يوقع بين الفاطميين وبين بنى زيرى حتى تسوء العلاقات بينهما فينجو بنفسه ، فلما رأى الفتنة تقع بين أهل السنة والمشارقة أثناء مسير المعز ، أذكى نارها وتغافل عن العامة وتركهم يتمادون فى غيهم ويعيثون ولم يؤدبهم فى سرعة ليضع حداً لعدوانهم ويحمى المشارقة الآمنين المطمئنين ، ولو فعل لكبح جماح أهل السنة وأنقذ أرواحا بريئة [1]. ونحن نعتقد أن أبا البهار بن خلوف عامل القيروان يعد مسئولا عن هذه الفتنة الى حد كبير ، وإنه لا يبعد أن يكون قد أذكى نارها انتقاماً لنفسه وإرواء لغيظه .

وقد ذكر ابن عذارى[2] أيضاً أن ثمة نزاع حدث أثناء سير الموكب بين الفرق الصنهاجية والفرق السودانية ، فقد كانت صنهاجة تكره هؤلاء العبيد وترى فيهم منافساً خطيراً ، ولا يبعد أن يكون بعض هؤلاء الجند السودان قد انتهز الفرصة السانحة وحاول أن يسلب وينهب ، فحدث اشتباك بين الجند والعامة ورأى أهل السنة أن الفرصة ملائمة للانتقام من الشيعة فحرضوا العامة فانحدروا الى حيهم فنهبوا وقتلوا .

من هذا يتضح أن الدولة لم تكن مسئولة عن فتنة القيروان ، وأن هذه الفتنة قامت بتدبير من عامل هذه المدينة وأن أهل السنة انتهزوا فرصة شغب الجند فحرضوا العامة على الشيعة وانتقموا منهم انتقاماً شنيعاً .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٢
(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٨٥

والدليل على أن الدولة فى أوائل عهد المعز لم تكن قد انصرفت بعد عن تأييدها للشيعة وشد أزرهم ما كان من اعتصام طائفة من المشارقة بقصره بعد أن غادر القيروان الى المنصورية[1] وأنه منحهم الحماية ورد عنهم العامة وحال دون أن يصيبهم مكروه . كما أن ابن ناجى[2] روى رواية تصور لنا تماماً كيف أن الدولة الزيرية لم تكن راضية عن هذه الثورة السنية فى القيروان وغيرها وأنها حاولت أن تكبح جماح أهل السنة وتهدىء من ثائرتهم ، فقد قال إن الشيخ أبا على حسن بن خلدون ، أحد زعماء هذه الثورة والمحرضين على إشعال نارها ، كان بمسجده غب المحنة فانقض عليه الشرطة فأثخنوه بالجراح ثم قتلوه لأن رجال المعز أرادوا التنكيل بزعماء أهل السنة بالقيروان بسبب مسلكهم فى هذه الحوادث الدامية . فلما أذكى أهل المدينة نار العصيان مرة أخرى انقض عليهم الجند فقتلوا ونهبوا وسلبوا « حتى لم يدعوا حانوتاً وألقيت النار فى كبار الأسواق ونهبت أموال التجار فذهب الناس واشتغلوا بأنفسهم عن مقتل الشيخ أبى على »[3].

وقد أحس الفاطميون بما كان يجرى فى افريقية فأرسلوا إلى المعز ابن باديس يستفسرون فأرسل إلى الخليفة يعتذر عما حدث ويلقى اللوم على العامة الذين لم يستطع أن يكبح جماحهم[4] .

من ذلك كله يتضح أن هذه المحنة الدامية لم تكن الدولة مسئولة عنها ولم تغير من موقف الأمير الزيرى من الخلافة الفاطمية ولا من سياسته إزاء المشارقة وظلت الخطبة تقام للفاطميين وتضرب السكة باسمائهم[5] :

---

(1) ابن أبى دينار : المونس ص ٨١

(2) معالم الايمان ج ٣ ص ١٩٣

(3) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٣

(4) السلاوى : الاستقصا ص ١٦٧

(5) ليس أدل على ذلك من الدنانير التى ذكرها ابن بول فى مجموعته ومنها القطعة رقم ١٠٥١ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨٥ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦

ولكن الانتصار الذى أحرزه أهل السنة قد أعلى كلمتهم وشد من أزرهم وأضعف الدعوة الاسماعيلية وقلل من شأن المذهب الاسماعيلى وفرق شمل المشارقة بمدن افريقية فى الوقت الذى كانت فيه تعاليم أبى الحسن على بن أبى الرجال تؤتى أكلها وتثمر ثمراتها ، وكان المعز كلما اشتد عوده وتقدمت به السن كلما تقرب من أهل السنة وانحرف عن مذهب الاسماعيلية رغم أن العلاقات بين البيتين الفاطمى والزيرى كانت لا تزال تجرى وفق التقاليد الموروثة سواء فى عهد الظاهر أم فى أوائل عهد المستنصر[1] .

وكان أهل السنة بالقيروان من الفقهاء والعلماء يعلمون تمام العلم أن المعز ابن باديس يؤيد قضيتهم ويشد أزرهم ويدين بمذهبهم فاشتد ساعد مذهب مالك[2] ، ويبدو أنه ظفر من المعز بالتأييد الصادق ، فقد روى المؤرخون أن مذهب أبى حنيفة بالقيروان قد ضعفت كلمته وعلا صوت مذهب مالك وظفر من تأييد المعز ما رفع شأنه .

ولعل انصراف الفاطميين إلى مشاكلهم الداخلية وإعراضهم عن إحلال السياسة المغربية من نفوسهم محلا لائقاً قد فت فى عضد الشيعة بافريقية ، كما أن انصراف المعز إلى العبيد والإكثار منهم قد كره فيه صنهاجة فلم يعد يعتمد اعتماداً كبيراً على تأييدها . ولما كانت كتامة قد ضعف شأنها منذ عهد بعيد وبدأ شمل صنهاجة يتفرق فى عهد المعز ، فليس غريباً أن تضعف قضية الشيعة ويشتد أزر أهل السنة وتتم الغلبة لمذهب مالك وينحرف المعز ابن باديس إلى أهل السنة نهائياً .

---

(١) السلاوى : الاستقصا ص ١٦٦

(٢) ابن خلكان : الوفيات ج ٢ ص ٥٥٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ١٠٧
o'leary : Hist. of the Fatimids p. 200.

نظام الشفرة فى المكاتبات العربية
فى العصور الوسطى

للدكتور ابراهيم أحمد العدوى

تزخر المخلفات الإسلامية ، ولاسيما الأدبية منها ، برسائل الملوك والوزراء وأولى الأمر فى البلاد الإسلامية ، وهى تدل على علو كعب المسلمين فى فنون الرسائل السياسية العامة والخاصة . وليست أساليب البلاغة فى تلك الرسائل بيت القصيد ، بل الغرض هنا إماطة اللثام عن ناحية جديرة بالإعجاب فى هذه الرسائل ، وهذه الناحية فى الاصطلاح هى استخدام « التعمية » ، أى ما يعبر عنه بنظام الشفرة فى المصطلح الحديث .

صدرت المكاتبات السياسية فى العصور الوسطى عن ديوان خاص يتولى الإشراف عليه موظف اسمه « كاتب الرسائل » ، ووظيفته من أجلّ مناصب الدولة وأرفعها وأعظمها خطورة ، لما لها من هيمنة على أسرار الحكم والإدارة . لذلك كان الشخص الذى يُعهد إليه بتلك المهمة « ينتخب أو يختار من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فانه معرّض للنظر فى أمور العلم لما يَعرض فى مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ماتدعو إليه عِشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، ومع ما يُضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها »[1] . وبلغ من أهمية ذلك المنصب أن صاحبه كان يتناول راتباً كبيراً تجلّى فى راتب صاحب الإنشاء والمراسلات

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٢٠ وأحب أن أقرر فى هذه الحاشية أن المراجع الأوربية التى تيسرت لى لم تمدنى بمعلومات جديدة فى هذا الصدد ، وأشكر هنا صديقى الاستاذ الدكتور فؤاد حسنين لما بذل معى من جهد فى دراسة المراجع الألمانية .

فى الدولة الفاطمية ، ولعل ذلك يرجع إلى الرغبة فى إحاطة تلك الشخصية بجو من حياة راضية مرضية ، بعيدة عن مجال الشبهات أو التردى فى مهاوى إذاعة الأسرار ، وما ينجم عن ذلك من خطر وفشل سياسات . على أن أهمية ذاك المنصب لم تقف عند ذلك الحد ، وإنما كل من اضطلع بأعبائه كان يحرص على قدسية المهمة التي وكلت إليه ، لأنها كانت خطوة إلى الأمام فى سبيل رفع صاحبها إلى منصب الوزارة . وقد انعكس تقدير أولئك الكتاب لجلالة مهمتهم فى تدبيج المراسلات وتدوينها بوسائل شتى ، يخفون بها المقاصد الحقيقية للرسالة ولا يتمكن من الاطلاع على مكنونها إلا من يقصدونه بتلك الرسالة [1] .

كان هناك نوعان من الشفرة فى كتابة الرسائل :

الأولى أن يتخذ الكاتب لنفسه قلما خاصا ، ويبتكر لرسالته حروفاً يصورها ليس بينها وبين الحروف العربية صلة ، أو يكتب رسالته مستخدما حروف الأبجدية العربية بترتيب خاص .

أما النوع الثانى من الشفرة فلا يتعلق بالخط ، وإنما هو رموز وإشارات.

فالنوع الأول — من الشفرة — كان يعرف فى مصطلح ذلك الوقت «بالتعمية» ، وأحيانا يطلق عليه «حلّ المترجم» . وترجع تلك التسمية الثانية إلى حل اللفظ بإزالة العقد وكشف أسرارها [2] ، ومن هنا يمكن القول بأن «حل المترجم » هو ترجمة للشفرة أو « كشف المعمّى» ، وكانت تتبع عدة طرق فى كتابة الشفرة أو « المعمى » ومن هذه الطرق :

(ا) أن تعكس كتابة حروف الكلمة ، فمثلا تكتب محمد « دمحم » ، وعلى « يلع » .

---

(١) لن أتعرض هنا لاخفاء مافى الكتب باستخدام بعض المواد ، كأن يكتب فى الورق مثلا بلبن حليب خلط به نوشادر ، بحيث لا ترى الكتابة إلا إذا قربت الورقة من النار . . . . . الخ .

(٢) من تلك التسمية يقال للمعبر لغيره عن لغة لا يعرفها بلغة يعرفها بالترجمان .

(ب) أن يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانية مطلقاً ، ويتبع ذلك في سائر الكلام فيكتب مثلا محمد أخو علي «حمدم خاعويل .. الخ ».

(ج) أن يكتب الشخص الأبجدية العربية بترتيب حروف المعجم ، ثم يجعل لكل حرف شكلا لا يماثل الآخر ، وحين كتابة الرسالة على هذا النحو يفصل بين كل كلمتين ، إما بخط أو بنقط أو بترك بياض أو دائرة أو غير ذلك . ومن الجلي أن تلك الوسيلة قريبة الشبه جداً بما هو متبع في كتابة الشفرة في العصر الحديث .

وكان على المتصدى لحل ذلك النوع من « التعمية » أو الشفرة أن يتسم بجودة الحدس وذكاء الفطرة . فضلا عن حسن الالمام بقواعد اللغة العربية ، فمن ذلك :

(ا) لابد أن يعرف مقادير الحروف التي تتركب منها الكلمة . وفي اللغة العربية تتضح هذه الصعوبة ، لأن منها كلمات تبنى على حرف واحد مثل « ق » وهي صيغة الأمر من وقى ، ومنها ما يبنى على حرفين من الافعال مثل « قم » في الأمر بالقيام .

(ب) أن يعرف الحروف التي لا يقارب بعضها بعضاً ، بمعنى أنها لا تجتمع في كلمة واحدة ، وأن يعرف تلك الكلمات التي حدث فيها ذلك مثل صنحق وستجق . . . الخ ، ومعظمها غير عربية الأصل .

(ج) أن يعرف ما يجوز تقديمه على غيره من الحروف ، وما لا يصح تقديمه مطلقاً .

(د) أن يعرف أكثر الحروف دورانا أو استخداما في اللغة [1]، ثم الذي يليه من الحروف في الكثرة إلى أقلها دورانا [2] .

---

(١) تعتبر « الالف » أكثر الحروف دورانا أو استعمالا في اللغة العربية ويليها « اللام » حيث تشاهد ملتصقة أو تابعة للألف في كثير من الأحيان .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٩ ، ص ٢٣١ و٢٣٣

ويبدو أن استخدام الحدس وإعمال الفكر كانا الطابع السائد في حل الشفرة في المراسلات العربية ، وربما كان السبب فى ذلك روح التنافس التى سادت القائمين على إدارة شئون الولايات العربية فى العصور الوسطى ومحاولة كل شخص من أولئك الولاة توسيع رقعة ولايته ، أو النيل من منافس له يهيمن على أمور إقليم آخر . وربما كانت تلك الأسباب وغيرها من العوامل التى يمكن لمستعرض حوادث الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى أن يلمسها أو يستنتجها ، قد حملت على استبعاد المفتاح الذى يمكن أن تحل به الشفرة ، والاكتفاء بإعمال الحدس والفطانة فى فهم الرسائل والوقوف على مكنونها . على أنه كانت توجد بعض القواعد المقررة يتبعها المترجم فى حل أشباه تلك الرسائل التى تعتمد الى حد كبير على الحدس ، ومن ذلك مايلى :

(ا) يبدأ المترجم بعدد الحروف التى تحويها الرسالة ، ويرى كم تكرر من كل شكل منها ، ويثبت تحت كل شكل عدد المرات التى استخدم فيها.

(ب) كذلك يحاول المترجم فى تلك المرحلة الأولى أن يستخرج الشكل الذى استخدم فاصلا بين الكلمات . وتلك المهمة ليست يسيرة ، إذ كثيراً ما يعمد كاتب الشفرة أو « المعمى » إلى المبالغة فى إخفاء الفاصلة ، بوضعها ضمن الحروف التى تتكون منها كلمات الرسالة . وهنا يجب على المترجم أن يعمد الى التجربة والمحاولة ، فيأخذ مثلا أى حرف يظن أو يفترض أنه الفاصلة ، ثم يجربه على الكلمات ، فان وجده قد تكرر فى كل كلمة ، اى لاحظ اتفاقه فى سائر كلمات الرسالة اعتبره الفاصلة ؛ وإلا أخذ الثالث أو الرابع .. الخ حتى يصح لديه انفصال الكلمات ، والوقوف على عددها .

(ج) ينظر المترجم بعد ذلك الى الرسالة مستخرجا أكثر الحروف دورانا او استعمالا ، ثم يثبت ذلك ، وما يليه من الحروف الأقل استعمالا وهكذا [1] .

(1) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٢٤ : ٢٣٨

ومما يسترعى النظر فى هذا الصدد أن المتصدين لحل تلك الرسائل كانوا يدربون تدريباً حسناً يبدأونه على مراحل تدريجية ، فمن ذلك أن المبتدئين فى الدراسة كانت تكتب لهم التمارين من جمل الشعر دون النثر ، حيث يساعدهم وزن الشعر على حل الكلمات وسرعة التعليم . ومن أمثلة ذلك نذكر انموذج الذى أورده القلقشندى ، فإنه يساعدنا على فهم الطريقة التى كان يلقن بها المترجمون دروسهم ، كما أنه يجلو لنا كذلك الحقائق السالفة الذكر . فإذا نظرنا إلى تلك الأسطر :

نجد أن هذا الشكل « ٥ » قد تكرر أكثر من كل الأشكال ، وبذلك يعتبر الألف ، ونلاحظ أن هذا الشكل « 3 » يليه فى مرات التكرار فيرجح أنه اللام ، ومما يحقق هذا الظن أن هذا الشكل الأخير يتبع الشكل الأول الذى هو الألف فى سبعة مواضع من الكلام ، وهكذا يأخذ المترجم فى عد باقى الأشكال وعدد المرات التى تكررت فيها استخدام هذا الشكل ويفترض لذلك الشكل حرفاً من حروف الأبجدية العربية يتفق مع كثرة استخدامه أو قلة دورانه ، ويكرر ما قد يلتبس عليه من الحروف المتشابهة ، متتبعاً ما يهديه إليه ذوقه السليم وسير الكلمة ومعناها . وبهذا يتحول المبتدئ فى تعلم

نظام الشفرة الى حل الكلمات ومعرفة ترجمتها ، ومن ذلك ترجمة النص السابق هو :

صُدَّ عَنّى فلا تلم يا عذولى   لست أسلو هواه حتى المات
لا تقل قد أسا فى الوجه منه   حسنات يَذْهبن بالسيئات[1]

على أن هناك نوعا آخر من التعمية يتعلق بالخط ويعتمد اعتماداً كليا على الحدس وقوة الملاحظة والفطانة . فمن أمثلة ذلك ما حدث فى القرن الخامس الهجرى حين توترت العلاقات بين سديد الملك على بن مقلد صاحب قلعة شيزر وصاحب حلب تاج الملوك محمد بن صالح . اذ اضطر سديد الملك إلى الهرب إلى طرابلس وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار . ولما علم بذلك تاج الملوك أراد الاحتيال فى استقدام سديد الملك إليه للفتك به ، فأمر كاتبه أبا النصر محمد بن الحسين أن يكتب إلى سديد الملك كتابا يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه إليه . . . ولكن أبا النصر فهم الغرض الحقيقى من ذلك الكتاب وكان صديقاً لسديد الملك . ولما لم تكن هناك مندوحة من كتابة الرسالة كتبها كما أمر تاج الملوك ، حتى إذا بلغ إلى جزء من الرسالة فيها قوله : « إن شاء الله تعالى » شَدَّدَ النون فى « إنْ » وفتحها فجعلها « إنَّ » ، وأرسل الكتاب بعد أن انتهى من إملاء تاج الملوك . فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك قرأه ، ولحظ تغيير الترقيم فى « إنّ » أخذ يعمل فكره وحدسه . ثم عرض الرسالة على ابن عمار صاحب طرابلس ومن فى مجلسه من الخاصة ، ولما قرأوها استحسنوا عباراتها وأعظموا ما فيها من رغبة تاج الملك فى إزالة أسباب الخلاف واستدعاء سديد الملك ، وإيثاره قربه . غير أن سديد الملك قال لهم : « إنى أرى فى الكتاب ما لا ترون » ثم أجاب على الكتاب بما اقتضاه المقام من عبارات الشكر والثناء ، وكتب فى ختام خطابه « أنا الخادم المقر بالانعام » وكسر همزة « أنا » وشدد نونها فصارت « إنّا » . فلما وصل الكتاب إلى تاج الملوك ورآه أبو النصر ،

(1) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٤٠ : ٢٤٤

علم الأخير أن حيلته قد نجحت ، إذ كان أبو النصر قد قصد بتشديد نون «إنْ» الاشارة إلى الآية «إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك» فأجابه سديد الملك بتشديد نون «أنا» وكسر الهمزة إشارة إلى الآية «إنَّا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها»[1] .

إن تلك الرسالة السابقة والرد عليها يبين لنا إلى أى حد كان نظام الشفرة يعتمد على الاطلاع الواسع وذكاء أصحاب الرسائل ونجاح كلا الطرفين فى تغيير علامات الترقيم على بعض الحروف للتعبير عن مدلول مسهب يحمل معانى جسيمة . وإن المستعرض لحوادث الحرب العالمية الأخيرة وما كتب عنها خاصاً بنظم الجاسوسية فيها ومراسلاتهم ليرى أن الرسالتين السابقتين لا تقل فى أهميتهما لنظام الشفرة عن أية رسالة كتبها بعض رجال الجاسوسية للتعبير عما يريدون .

أما النوع الثانى من الشفرة فى المكاتبات العربية فكان يختلف اختلافاً بيناً عن النوع السابق الذكر ، إذ لا يمت إلى الخط وتحويره على نحو ما وضح فى الأمثلة السالفة . فكان ذلك الضرب الثانى من الشفرة رموز وإشارات سميت فى مصطلح ذلك الوقت «بالاستعارة بالكناية» أو «الوحى»[2] . ومن ذلك رسالة جاءت الى مصر زمن السلطان برقوق بعد غزوة تمرلنك للعراق ومحاولته الاستيلاء على الممالك الشامية . إذ بعث حاكم حلب إلى سلطان مصر كتابا جاء فيه : «أنه وقع بتلك البلاد سيل عظيم ساق جملةً من الأسد والنمورة والحيَّات ، وأنه دفع حيَّة عظيمة سعة رأسها بقدر قَوْس» . فلما قرئ الكتاب أمام مجلس السلطان أخذ على ظاهره ، من أن المراد سيل حقيقى دفع أمامه لشدته وقوته تلك السباع والحيات ، ولكن الهدف الحقيقى للكتاب كان يرمى إلى تنبيه الأذهان إلى الخطر الداهم على البلاد الشامية على يد تمرلنك وجنوده ، وأنه شبه بالحية العظيمة وجنوده بالسباع والحيات[3] .

---

(1) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٤٨

(2) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٤٩

(3) نفس المرجع ، ص ٢٥٠

وكان يغلب على هذا النوع من الشفرة تضمين بعض الأبيات الشعرية التى تحمل معنى التهكم أو مجرد الإشارة إلى أمثال تلك الأبيات . فمن ذلك رسالة جاءت من حاكم تونس في بلاد المغرب إلى السلطان « فرج بن برقوق » فيها « وعلى إحسانكم المعـَوّل ، وبيت الطغرائى فى لاميّة العجم لايتأوّل » ، وفيما عدا ذلك كانت الرسالة تحوى رجاء بأن يوضع الحجاج المغاربة محل رعاية السلطان والعمل على تأمين سلامتهم ، إذ كان الحجاج المغاربة فى العام السالف لتلك الرسالة قد قاسوا كثيراً من غارات عرب الحجاز الذين قتلوا من أولئك الحجاج عدداً كبيراً ونهبوا أموالهم . وقد عرضت تلك الرسالة على القلقشندى نفسه صاحب ديوان الانشاء بعد أن عجز كبار رجال الديوان عن فهم المراد من تلك الرسالة . فأعمل القلقشندى فكره وحدسه ، مقلباً الوجوه المختلفة التى يمكن أن تحمله تلك الفقرة من الرسالة : فاهتدى إلى أن كاتب تلك الرسالة يشير إلى قول الطغرائى :

فقلْتُ أرْجوكَ للجُلّى لتَنْصُرَنى ... وأنت تَخْذُلُنى فى الحادث الجلل

وشرح القلقشندى وجهة نظره بأن الجلى بضم الجيم هى الأمر الجليل العظيم ، والجلل بفتح الجيم من أسماء الأضداد ، تؤدى معنى الشىء الجليل والشىء الحقير ، فكأن الكاتب يقول : كنت أعلق عليك الآمال الواسعة لتشد أزرى فى الأمور العظيمة ، فاذا بك تخذلنى فى هذا الأمر الحسيس ، وهو الأخذ بثأر حجاج بلادى ممن اعتدى عليهم من عرب بلادك . وقصد الكاتب بقوله لا يتأول أى أن الجلل لايحتمل معنى الشىء الجليل [1] .

وإن المستعرض لكتب الأدب يلمس مقدار ماوصل اليه ذلك النوع من الشفرة من التقدم وحسن السبك . ولا غرو فى ذلك فاننا يمكن أن نعزو أصول هذا الضرب من الشفرة إلى الأحاجى والألغاز التى أسهم فيها العرب قبل الاسلام بنصيب وافر . فمن ذلك تلك القصة المشهورة التى تروى عن امرؤ القيس الذى آلى على نفسه ألا يتزوج إلا بالمرأة التى تجيبه عن تلك

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٥٠ : ٢٥١

الأسئلة وهى : ماهى ثمانية وأربعة واثنان ؟ . وقد اهتدى أخيراً إلى ضالته التى أجابته بأن الثمانية أطباء الكلبة والأربعة أخلاف الناقة والاثنان ثديا المرأة [١] .

على أننا نستطيع أيضاً أن نلمس فى كتب الأدب حادثة تعتبر مقدمات أو أصول شيد عليها صرح ذلك الضرب الثانى من الشفرة . فقد حدث أن قبيلة طيء أسرت فى إحدى غاراتها غلاما يافعا ، وجاء أبوه يطلب إطلاق سراحه مقابل دفع مبلغ من المال . لكن طيء غالت فى اشتراطاتها ، فقال أبو الشاب : لا والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ! ماعندى غير ماعرضته عليكم من مال ، ثم ترك ابنه وعاد إلى قبيلته حيث قال لأهله : لقد ذكرت لابنى كلاما لو فهمه تهيء له بذلك سبيل النجاة . وقد تمكن الابن من الإفادة من كلام أبيه ، إذ كان أبوه يرمى إلى إبلاغ إبنه خطة رسمها له للهرب ، وهى أن يفر عن طريق جبل طيء مهتديا بالفرقدين . وتم للابن طرد بعض إبل لطيء كانت على الجبل وولى الأدبار ليلا [٢] .

هذه بعض نماذج من الشفرة فى المكاتبات العربية فى العصور الوسطى لعل الأبحاث المقبلة توضح لنا الطريق الذى سلكته تلك الشفرة وأصولها حتى خرجت الى تلك الصورة التى عُرِضَتْ سالفا ؛ وإن كان الضرب الثانى من الشفرة يبدوا أنه خطوة تالية للأحاجى والألغاز التى اشتهر بها العرب أيام الجاهلية ، والتى سادت كثيراً من الندوات الأدبية فى العصور الاسلامية الوسطى .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣ ، ص ١٥٥
(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣ ، ص ١٥٨

التصوف الشعبي فى الأدب التركى

حمزه طاهر

وصل التصوف الى الأتراك بالتركستان مبكراً جداً ؛ فمنذ القرن الرابع كانت المدن الاسلامية الكبيرة كبخارى وسمرقند وكاشغر ملأى بالمتصوفين القادمين من خراسان التى عرفها الأتراك من زمن بعيد . وكان الأتراك يطلقون على أولئك المشايخ المتبرعين بوعظهم وإرشادهم حسبة لله ، أسماء كالباب والأب (آتا) ويقبلون عليهم باخلاص ، لما يجدون فى مجالس الذكر التى يقيمونها من مشابهة لصور عبادتهم القديمة المعروفه بـ « أوزان » وقد بقى من أولئك الأخيار القدامى أسماء « آرسلان باب »[1] الذى تزعمه الأساطير صحابياً ، و « قورقودآتا » الذى ذهب فى المناقب الاسلامية إلى جزيرة العرب ليطلع بنفسه على حقيقة الاسلام ، وقابل هناك أبا بكر الصديق ، و « چوبان آتا » و« أوليا آتا » وغيرهم كثير من أوائل المتصوفة الذين اختلطت أسماؤهم بالأساطير . وأما الصوفى التركى الأول الذى عرف تاريخه تحقيقاً وانتقلت الينا أنباؤه صحيحة فهو الشيخ أحمد اليسوى .

* * *

ولد الشيخ أحمد بمدينة « يسه أو يسى » (مدينة تركستان الحالية) فى تاريخ غير معروف وتوفى بها سنة ٥٦٢ ﻫ (٦٧ — ١١٦٦ م) . تتلمذ أولا لشيخ يدعى « بابا آرسلان » ثم انتقل الى بخارى ، ولحق بالشيخ يوسف الهمدانى المولود سنة ٤٤٠ والمتوفى سنة ٥٣٥ ﻫ (١٠٤٨—١١٤٠م) وتلقى عليه التصوف وصار فيما بعد خليفته الثالث . حتى اذا بلغ مرامه من الشيخ

---

(١) محمد فؤاد كوپريلى : تورك أدبياتى تاريخى ، استنبول ١٩٢٦ ص ٢٢٧

عاد الى بلده « يسه » فانشأ طريقته التركية الجديدة المسماة « اليسوية » . استمر قائما بالوعظ والارشاد حتى توفى ودفن فيها . وصار قبره مزاراً عظيما يؤمه الزوار من بلاد نائية . ولما كانت سنة ٨٠٠ ﻫ (١٣٩٧ م) أى بعد نحو قرنين ونصف قرن على وفاته ، بنى الأمير تيمور (تيمور لنك) ضريحاً عظيما على قبره ، وهو الأثر الوحيد لهذا الملك فى خارج ولايتى سمرقند وشهر سبز[1] . وكان قبره موضع إجلال الناس حتى الانقلاب الروسى سنة ١٩١٨ ولعله لا يزال مطمح الانظار .

كان للشيخ أحمد يسوى أو « آتا يسوى » أثر كبير فى نشر الاسلام والتصوف فى آسيا الوسطى وسهوبها . وقد امتد نفوذ طريقته اليسوية الى أتراك الصين شرقا والى خوارزم وحوض نهر فولجا وآذربيجان والأناضول غربا . وكان ديوانه المسمى « ديوان حكمت » الذى طبع مرات كثيرة فى مدينة قازان وطشقند ، أنموذجا لشعراء كثيرين فى أتراك الروسيا ينسجون على منواله . وقد استعمل اليسوى فى شعره المشتمل على آداب السلوك ، لغة تركية سهلة بسيطة على أوزان تركية معروفة فى الأدب الشعبي ، بالرغم من وقوفه التام على الفارسية والعربية ، وتضلعه فى علم التصوف بتينك اللغتين . ولعل هذا الأمر كان سبباً أكبر لانتشار طريقته وذيوعها فى صورة واسعة محبوبة .

من أشهر اتباع الشيخ أحمد يسوى رجل يدعى « حكيم آتا » أو « سليمان باقرغانى » ، وهو صوفى تركى خوارزمى لا نعلم شيئا عن تاريخ ولادته ولا وفاته . وقد اتخذ طريقة شيخه فى آرائه ، ولا يكاد يفارقه فى شىء إلا أنه كتب نثرا ، وله مجموعة تشتمل على نصائح : « وقد كتب حكم حكيم آتا كذلك بلغة تركية سهلة كحكم احمد ، لخطاب طبقة شعبية عريضة »[2] .

كان تأثير هذين الصوفيين التركيين عظيما فى أتراك الروسيا عامة حتى أواخر القرن التاسع عشر . ومن الممكن أن يقال إنه قلما خلا بيت

---

(١) بارتولد : اورته آسيا تورك تاريخى ، استانبول سنة ١٩٢٦ ص ١٩٩

(٢) بارتولد : اورته آسيا تورك تاريخى ، ص ١٢٩ ؛ ودائرة المعارف الاسلامية .

من بيوت المثقفين قليلا أو كثيراً من ديوان الحكمة ومجموعة الباقرغانى؛ بالرغم من انتشار الطريقة النقشبندية فى العصور المتأخرة. وأما فى عصور السلاجقة والمغول فقد لعب أتباع الطريقة اليسوية دوراً عظيما فى الدعوة المحمدية مع رجال سائر الطرق الصوفية الذين أبلوا بلاء حسناً فى هذا الشأن [1].

***

هذا شأن التصوف فى أتراك آسيا الوسطى والشرق الأوسط. وأما فى آسيا الصغرى أو الأناضول فكان لهم شأن آخر. لأن السلاجقة، وهم سنيون، كانوا يعطفون على المتصوفة [2] ويكرمونهم، وكانت أبواب قصورهم مفتحة لهم. ولما قامت المغول بغاراتهم المكتسحة تسرب إلى الأناضول عدد كبير من رجال الصوفية، اكتظت بهم مدنها الكبرى خاصة، فى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى). وكانوا يقومون بارشاد السلاطين وكبار الأعيان فى قصورهم. وقد ساعدت الاضطرابات السياسية والنفسية على زيادة تأثير المتصوفين الروحى فى الطبقات الشعبية كذلك.

وفى هذا العهد انتشر أتباع الطريقة اليسوية ونجم الدين الكبرى القادمين عن طريق خوارزم، وأتباع قطب الدين حيدر القادمين من خراسان وشرعوا فى القيام بنشر طرقهم؛ ففى قونيه الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربى، والشيخ صدر الدين القونوى، الذى يمكن عدّه شارحا لآراء الشيخ محي الدين بالفارسية، وأوحد الدين كرمانى. وفى مدينة توقاد فخر الدين العراقى يقوم بالارشاد فى الخانقاه التى أنشأها « معين الدين پروانه »، وفى قيصرية وسيواس « نجم الدين داية » ومؤيد الدين جندى وسعد الدين الفرغانى وغيرهم، وقد اكتسبوا شهرة واسعة وأتباعا كثيرين حول المدن التى عاشوا فيها. وكانوا جميعاً على مذهب وحدة الوجود، مذهب الشيخ الأكبر. وكان مولانا جلال الدين محمد الرومى [توفى سنة ٦٧٢ هـ : ١٢٧٣ م]

---

(١) أحمد زكى وليدى : عومى تورك تاريخنه كيريش استانبول ١٩٤٦ ص ٢٥٥؛ ابن بطوطة : رحلة، القاهرة ١٩٢٨ ج ١ ص ٢١١

(٢) محمد فؤاد كوپريلى : تورك أدبياتى تاريخى، استانبول ١٩٢٦ ص ٣٢٨

أكثر أولئك المشايخ تأثيراً ، إذ استطاع بقدرته العظيمة على النظم بالفارسية ، أن يوضح تلك النظريات العويصة المغلقة وينشرها فى طبقة المثقفين . واستمر هذا التيار حتى قبيل سقوط الدولة العثمانية . لأن معظم المثقفين ورجال الدولة المعجبين بالثقافة الفارسية كانوا منتمين إلى ذلك النادى الأدبى الذى أخرج عظماء الشعراء أمثال الشيخ غالب وراغب باشا وغيرهما ، وكبار الموسيقيين . لقد بهر مولانا جلال الدين أدباء الترك والفرس والهند على السواء ، بكتابه المثنوى وديوانه الكبير ، كما بهرت طريقته المولوية المستندة إلى وسائل جذابة كالشعر والموسيقى والسماع ، فجذبت إليها دائماً المغرمين بالثقافة الايرانية ببلاد الأناضول ، وراجت الفنون الجميلة الاسلامية فى الخوانق المولوية . كما أن شيوخ المولوية عملوا كثيرا على حفظ النظام الاجتماعى بعيدين عن الأطماع والمنازعات السياسية ، ومن هذا نشأ إنشاء زوايا كثيرة للمولوية فى مصر والشام والعراق وآذربيجان حتى بلاد البلقان والنمسا من البلاد التابعة للدولة العثمانية ، دون أن يتعرضوا للاضطهاد ، وقد كانوا منذ البدء ضد الباطنية .

كان إلى جانب هذا التيار الخاص بطبقة المثقفين أو الطبقة الارستقراطية تيار أدبى صوفى آخر ولكنه ضده ، يمثله الولى الحاج بكتاش .

* * *

« السيد محمد بن ابراهيم آتا » الشهير بالحاج بكتاش ولى تركى من أتباع الشيخ أحمد اليسوى ، قدم إلى الأناضول من خراسان فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وأنشأ الخانقاه المعروفة بـ « پيرأوى »[1] ببلدة « صوليجه قارا أويوك » القريبة من « قيرشهر » وشرع فى الدعوة إلى طريقته البكتاشية . وهى طريقة خليطة من « القلندرية واليسوية والحيدرية » أى أن بها آثاراً وبقايا لمذاهب مختلفة من « الشامانية » حتى الأفلاطونية

---

(1) Hasluck بكتاشيلق تدقيقلرى ، ترجمة راغب خلوصى ، استانبول سنة ١٩٢٨ ص ٣

الحديثة ولذا ليس من الخطأ اعتبارها امتداداً للطريقة البابائية الباطنية [1] ، وللحاج بكتاش كتاب باللغة العربية عنوانه « مقالات » ترجمه سعد الدين أحد مريديه إلى التركية نثراً ثم نظمه رجل يدعى ابن الخطيب باللغة التركية فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) . وهو كتاب المبتدئين ، فلهذا لا نرى فرقا بينه وبين سائر الكتب الصوفية ، إلا أنه يدل على تشيع المؤلف فى مسألة الاعتقاد بالأئمة الاثنى عشر و « التولى » و « التبرئة » من مصطلحات الشيعة ، وهى مسائل يقربها البكتاشيون . ظل الحاج بكتاش قائما بالارشاد فى تكيته المار ذكرها حتى توفى سنة ٧٣٧ ﻫ . ومن هذه التكية انتشر التصوف التركى الشعبى إلى أطراف الأناضول أولا ، وأرجاء الامبراطورية العثمانية بعد ذلك مدة تقرب من خمسمائة عام ما بين إنشاء البكتاشية فى القرن الثامن الهجرى والقضاء عليها فى سنة ١٢٤٢ ﻫ : ١٨٢٦ م ، فى عهد السلطان محمود الثانى .

اتخذت البكتاشية فى تكاياها المعزولة بعيداً عن العمران ، والطرق المشايعة لها ، طريقة مخاطبة الشعب بلغته ، وإلقاء المبادئ الصوفية بطريقة سهلة ميسورة مفهومة أو شبه مفهومة لافراد الشعب البعيدين عن الثقافة الايرانية التى يقوم بنشرها أتباع مولانا جلال الدين الرومى وابنه سلطان ولد فى زوايا المولوية المنتشرة فى المدن الكبرى ، والتى تجمع محبى الطريقة من المتعلمين وكبار الموظفين ؛ فهؤلاء يترنمون بأشعار جلال الدين الرومى والعطار وسنائى وحافظ وسعدى وغيرهم من فطاحل شعراء الفرس الذين تفننوا فى شرح التصوف . ويترنم أولئك بأشعار قايغوسز سلطان ويونس أمره وأحمد فقيه وغيرهم من عظماء البكتاشيين الذين يشرحون الآراء الصوفية نفسها بلغة تركية سهلة بعيدة عن التعقيد والتقيد بالفن .

يقر البكتاشيون باليسوية ويجعلون الشيخ أحمد اليسوى المرشد الثانى لشيخهم ، أى أن الحاج بكتاش أخذ عن لقمان الخراسانى الذى أخذ عن الشيخ أحمد اليسوى ، وبذلك تكون طريقتهم متأثرة باليسوية فى مبدئها ،

(١) محمد فؤاد كوپريلى : تورك أدبياتى تاريخى ص ٢٩٣

إلا أنها تغيرت فيما بعد بتأثير البيئات والظروف السياسية، فأصبحت البكتاشية منذ أوائل تأسيسها موضع عطف سلاطين آل عثمان . يروى أن السلطان اورخان أخذ بعض الانكشاريين الألف المكونين نواة هذا الجيش ، فذهب إلى الحاج بكتاش فى خانقاه بـ « صوليجه قارا أويوك » وطلب اليه أن يدعو لجيشه ويباركه ، فوضع الحاج بكتاش يده على رأس أحدهم ودعا لهم قائلا :

« فليكن اسمهم انكشاريا ، اللهم اجعل وجوههم بيضا ، وسيوفهم قاطعة ، ورماحهم قاتلة ، منتصرين على أعدائهم قاهرين دائما » [1] .

ولعل هذا هو منشأ تسمية الانكشاريين أنفسهم بالبكتاشيين وافتخارهم بالانتماء اليها ، وقد تعززت هذه العلاقة بين البكتاشية والانكشاريين مع مرور الزمن ، وازدحمت اطراف الدولة العثمانية بتكايا هذه الطريقة التى طالما كانت موئل الانكشاريين كما كانت أماكن إقامة الشعائر الخاصة بالطريقة . يقول هاسلق (Hasluck) : يمكن أن نقر محققين ضرورة وجود شيخ بكتاشى بكل ثكنة من ثكنات الفرق الانكشارية ووجود تكية بكتاشية بالقرب منها مذ تمكن البكتاشيون من التسلط على الانكشاريين حوالى سنة ١٥٩٠ م حتى سنة ١٨٢٦ وهى تاريخ القضاء عليهم » [2] .

انتشرت البكتاشية فى تلك العصور فى الطبقات الشعبية التى كانت تجد تسلية روحية فى الأشعار الصوفية السهلة المفهومة ، كما تجدها من رجال هذه الطريقة الذين يمتازون بالرقة واللطف والبعد عن مواقف المناقشة والجدال . وقد كانت تكاياهم مثالا للنظافة وحسن الترتيب والنظام ، مع احتوائها على شهرة « السر البكتاشى ! » .

ولما كانت البكتاشية طريقة شعبية لم تنجب شعراء عظاما كالطريقة المولوية ، ومعظم الأشعار المنسوبة اليها مناجيات دينية خاصة تسمى « نفس » . وأكبر شاعر معروف أفادت منه البكتاشية أيضا هو الشاعر الصوفى العظيم « يونس أمره » .

---

(١) أحمد راسم : عثمانلى تاريخى ج ١ ص ٢١

(٢) هاسلق Hasluck : ترجمة راغب خلوصى « بكتاشيلق تدقيقلرى » ، ص ٣

لا نعرف شيئاً عن تاريخ ولادة « يونس أمره » . وخلاصة ما ذكر فيه أنه تركمانى ولد ونشأ فى الأناضول الغربى وانتسب الى شيخ من الطريقة البابائية يدعى «طابدق أمره» ، وجال فى بلاد الاسلام المختلفة ثم عاد الى وطنه بجهة « سقاريا » بالأناضول واستقر فيه . ولما مات شيخه انتقل أتباعه الى يونس الذى ظل يرشدهم حتى توفى فى تاريخ غير معروف كذلك ، وإنما يمكن أن يقال إنه كان بعد سنة ٧٠٧ التي ذكرت فى بعض أشعاره .

ليونس أمره ديوان مشتمل على مناجاته وبعض قصائده الصوفية التى يهز بها أتباعه ، والتى كانت عصوراً غذاء روحياً لسالكى الطرق الصوفية والبكتاشية خاصة ، كما صارت أنموذجاً ينسج بعض الشعراء على منواله الشعر التركى الحديث فى العهد الأخير .

ولهذا الشاعر الخالد الذى اشتهر بالورع والزهد والتقوى والاستقامة تسعة أبيات في السلوك اشتهرت بالنطق والالهى . وهذه الأبيات التسعة هى التى تهمنا من شعره الآن . وهى ألغاز يكاد يكون ظاهرها لا معنى له ، ولكن أهل الطريقة استعملوها كدستور للسلوك . فلذا لاتجد «مجموعة أشعار» من التى كانت من الأدوات البكتاشية المعلقة على حزام كل درويش ، إلا وتجد فيها هذه الأبيات بروايات مختلفة ، وكانوا يشرحونها على أنها من الأمور السرية لا يفهمها غير البكتاشى .

بقيت هذه الأبيات كذلك حتى القرن الحادى عشر الهجرى الذى نشأ فيه الصوفى العالم محمد نيازى الشهير بالمصرى . وكان نيازى منتسباً لعدة طرق ، حتى يقال إنه هو الذى أدخل الخلوتية فى مصر . وقد سجن ونفى عدة مرات وله ديوان مطبوع ببولاق وكتب كثيرة . ولكن المهم لنا هنا رسالة كتبها فى شرح تلك الأبيات التسعة ليونس أمره . وكأنه حل بهذا الشرح طلسما تعسر حله طوال أربعة قرون ، وقد طبع هذا الشرح ومنه نسخ مخطوطة .

وإنا ننشر اليوم فى مجلة كلية الآداب — وقد انقرضت الطرق أو كادت تنقرض والبكتاشية معها — ترجمتنا لهذا الشرح مع أصله التركى ، كى يطلع القراء

على ما وصل اليه التصوف الشعبي عند الأتراك على أيدى أصحاب الطرق ، ولا سيما البكتاشيين الذين ملئوا بلاد الدولة العثمانية بتكاياهم ، وأفادوها أيام أن كان الجيش الانكشارى — وله اتصال بالبكتاشيين[1] — جيشاً منظماً مطيعاً ، وعنواناً لعظمة الدولة . إلا أن البكتاشية ككل المنظمات البشرية تغيرت مع مرور الزمن وتأثير الأحداث ؛ واستخدمت فى صورة مخالفة لما خلقت له فى أصل تكوينها ، فأدى ذلك الى القضاء عليها ، حينما قضى السلطان محمود الثانى على الجيش الانكشارى سنة ١٢٤٢هـ — ١٨٢٦م . ولم تبق البكتاشية بعد ذلك إلا فى جهات متفرقة فى تكايا جميلة يسكنها أفراد يعدون بالأصابع . وانقطعت عن تركيا نهائياً بعد سنة ١٩٠٨ ، وليست لها الآن تكية فى الجمهورية التركية . وأقوى مراكز للبكتاشية اليوم هو بلاد الأرناءوط ، فلهم فيها تكايا وممثلون كثيرون يتبعون هذه الطريقة كمذهب دينى .

ولعل أجمل مركز لهم فى البلاد العربية تكية المغاورى بجبل الجيوشى . وهى التكية التى يرقد فيها « قايغوسز سلطان » المعروف بمصر بعبد الله المغاورى وهو أحد أقطاب البكتاشيين ومن شعرائهم . وكانت لهم قبل ذلك تكية عظيمة فى قصر العينى[2] . وسكان المغاورى هم الذين يمثلون البكتاشيين فى إفريقية الشمالية[3] . وهم عدد قليل من الدراويش يرأسهم شيخهم الوقور البابا أحمد سرى بإدارته الحكيمة .

وبمكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة نسخة مطبوعة لهذا الشرح وعدة نسخ مخطوطة فى تواريخ مختلفة ، اخترنا منها نسخة مكتوبة بخط النسخ الجميل فرغ ناسخها من نسخها فى غرة ربيع الآخر سنة ١١٢٣ ، وهى أصح النسخ وأسلمها وأقربها الى رسم الحروف الحالى ، فلذا نشرناها برسم هجائها بدون تغيير شيء منه . وإذا وجدنا كلمة قد يؤدى رسمها الى الشك فى فهم معناها كتبناها فى أسفل الصفحة بالرسم الحديث .

---

(١) تاريخ ، استانبول ١٩٣١ ج ٣ ص ١٠٤

(٢) أولياچلبى ، رحلة ، طبع استانبول سنة ١٩٣٨ ج ١٠ ص ٢٤٦

(٣) هـساق . بكتاشيلق تدقيقلرى ، ص ١٩

إلهيات يونس أمره

١ — طلعت على شجرة البرقوق وأكلت منها العنب ، ونهرني صاحب البستان قائلا لم تأكل جوزي ؟!

٢ — وضعت لبنةً في القدْر وأغليتها بالشمأل ، واندمت بلبها وقدمته لمن سألني ما هذا ؟

٣ — أعطيت غزلا للناسج فلم يجعل منه كبة ، ولا يزال يوصى مستعجلا ، فليحضر وليأخذ بزّه !

٤ — حملت جناح عصفورة على أربعين مركباً فلم تقدر على حمله وبقي مبسوطاً !

٥ — رفعت ذبابةٌ عقابا فألقته على الأرض ، وهذا حق وليس بكذب لأني رأيت غباره !

٦ — صارعت عجزا فأخذ عديم اليد برجلي فلم أقدر على صرعه وغرني .

٧ — ألقوا على حجراً من جبل قاف وقع على طريق الظهر ، وكاد يفسد وجهي .

٨ — طلع السمك على شجرة الحور ليأكل مخلل الزفت ، وأنتج اللقلق جحشا ، انظر إلى كلامه !

٩ — قال يونس قولا لا يشبه كلاما ؛ وحجب وجه المعنى من أجل المنافقين .

شرح محمد نيازى المصرى على قصيدة
ليونس أمره فى التصوّف

(١)

« طلعت على شجرة البرقوق وأكلت منها العنب »
« فنهرنى صاحب البستان قائلا لم تأكل جوزى ؟ »

(١) المراد من هذا البيت هو أن لكل شجرة عمل ثمر خاص . وكما أن لكل فاكهة شجراً خاصاً ظاهراً ، فان لكل عمل آلة خاصة به يتم بها . فآلة علم الظاهر مثلا : علوم اللغة ، والصرف ، والنحو ، والمنطق ، والآداب ، والكلام ، والمعانى ، والأصول ، والحديث ، والتفسير ، والحكمة ، والهيئة . وآلة الحصول على علم الباطن هى المداومة على ذكر الله بالاخلاص الدائم ، والمرشدُ النفسى ، وقلة الطعام ، وقلة الكلام ، وقلة المنام ، والعزلةُ عن الأنام . وأما الآلة التى يصل بها المرء إلى علم الحقيقة فترك الدنيا وترك العقبى وترك الجسم .

(٢) وأشار الولى الشاعر قدس سرُّه بالبرقوق والعنب والجوز إلى الشريعة والطريقة والحقيقة . فان البرقوق يؤكل منه ظاهره ولا يؤكل داخله . وكل ما يشبه البرقوق مثال لظاهر العمل . والعنب يؤكل وتصنع منه نِعَم مختلفة كالصوجق والرقاق والدبس والخلل والخل وغيرها ولكنه يُسمى عمل الباطن ولا يُسمى عمل الحقيقة، لأن بداخله قدراً من بذر الرياء والسمعة والعُجب والتزكية . وأما الجوز فمثال للحقيقة الخالصة وليس بداخل الجوز شىء يرمى ، فهو يؤكل ويحصل منه شفاء الكثير من الأمراض والعلل .

(٣) إذا طلب امرؤ برقوقا التمسه من شجر البرقوق ، وإذا أرادَ عنبا طلبه من الكرم ، وإذا أراد جوزاً طلبه من شجر الجوز . فمن طلب العنب من شجر البرقوق فهو أحمق يتحمل المشاق عبثاً ، تعبه هباء ونتيجة عمله عناء .

(٤) إن علمت هذا فينبغى أن تعلم أيضاً أنه إذا أراد أحد معرفة صلاح علم الظاهر وفساده، طلبه من الشرع. يرجع إلى كتب الفقه ويتعلمه منها ويعمل به. وإذا أراد معرفة صلاح علم الباطن وفساده، وانحطاطه ونهوضه، فيرجع إلى التلقين وأصول أسماء الله وكتاب القلب وعلم التعبير، ويعرض على المرشد ما يحدث له يومياً فيبين المرشد له الأحوال، وينحل المشكل بهذه الطريقة ويسلك. وأما من أراد معرفة ذوق علم الحقيقة وحاله، وهو معرفة النفس التى هى معرفة الله، فلا تحصل هذه المعرفة إلا بعد إحراق جميع أوصاف النفس وأخلاق البشرية والأنانية بنار الرياضة الشاقة، بعناية المرشدين الكاملين، ومحو الجسم الظلى بأن يصير عين الجسم الحقيقى ويتحول فناؤه عين البقاء بنفى ما سوى الله من القلب.

(٥) ولهذه الأعمال الثلاثة طرق مختلفة، وإذا طلبتها بتلك الطرق فالمرجو حصول المقصود فى زمن وجيز. وكما أن للبرقوق والعنب والجوز أشجاراً مختلفة وكل ثمرة منها تلتمس من شجرتها، فإن رجلا من القائمين بعلم الظاهر لو حاول الحصول على علم الحقيقة بالأعمال الظاهرية، وتحمل ضروبا من المشاق كمثابرته على ذكر أسماء الله والصيام والخلوات والعزلة، فهو كأنه طلب العنب من شجرة البرقوق.

(٦) وصاحب البستان هو المرشد الكامل. ونهره قائلا «لم تأكل جوزى؟» تنبيه بأنك ترتاض وتتعب عبثاً. تظن أنك تحصل على هذه العلوم الثلاثة رأساً بعمل واحد، فى حين أن لكل علم منها طريقه وذوقه ومعلمه ومرشده الخاص، وأن ما ينبغى لك عمله أولا أن تعرف شجرة كل ثمر، ثم أن تلازم العمل. وإن مثالك مثل رجل ذهب الى بستان رجل ليسرق البرقوق والعنب وصعد على شجرة الجوز، فرآه صاحب البستان ورماه بحجر صائحاً «لم تأكل جوزى؟». لأن علم الحقيقة علم المرشد الكامل وملكه. ومعرفة آلة علمه متوقفة على الحصول على ملكة الاستعداد، وهى الرياضة الشاقة بإذن المرشد الكامل وتربيته، وتسليم نفسك له تسليما تاماً، وانسلاخك من لونك وتلونك

بلونه . فاذا رأى المرشد رجلا يداوم على ذكر الأسماء والرياضة من تلقاء نفسه قال له « لم دخلت الحديقة سارقاً بدون إذن صاحبها ؟ » .

(٧) إن علم الطريقة والحقيقة هو حديقة المرشد الكامل . والمداومة على ذكر أسماء الله والرياضة النفسية ثمرة تلك الحديقة . وكل من سلك من تلقاء نفسه فكأنه دخل فى بستان غيره للسرقة .

ومثل هذا فى الخارج مثل رجل اشترى من السوق أنواعاً من أدوات النجارة وأراد أن يعمل نجاراً من تلقاء نفسه دون تلقى الصناعة من أهلها ، فانه لن يعرف استعمال كل آلة منها فيما جُعلت له . فاذا رآه نجار ماهر على هذه الحال ، فلا شك فى أنه يقول له : « يا لص الصناعة ، لم اتخذت أدواتنا ؟ أتريد سرقة صناعتنا ؟ » هذا مع العلم بأن الرجل اشترى الأدوات من السوق بنقوده !

(٨) ومراد الولى من هذا البيت هو البيان بطريق التمثيل أحوال أولئك الذين يسعون للوصول إلى الشريعة والطريقة والحقيقة بعملهم بما يعلمون . يعنى أن مثلهم كمثل رجل يجهل أية فاكهة تنتج من أى شجر . فكأنه رجل اشتهى عنبا وظنه فى شجرة البرقوق وطلع على شجرة الجوز ظاناً أنها شجرة البرقوق . فقد زعم أنه يسلك هذه السبيل بغير مرشد ، كأعمى يظن الألوان كلها سواداً .

(٩) ونسب يونس أمره ، قدس سرّه ، هذه الحال لنفسه : يجوز أن يكون قد اجتهد فيما مضى وقتا من الزمن بدون مرشد ولم ينل شيئاً حتى يذهب إلى مرشد . ويجوز أن يكون مراده تنبيه غيره عن طريق نفسه .

(٢)

« وضعت لبنة فى القدر وغليتها بالشمأل »

« وائتدمت بلُبّها وقدمته لمن سألنى ما هذا ؟ »

(١٠) بين يونس أمره بطريق التمثيل حاصل أعمال من يرتاض من تلقاء نفسه ، يعنى أن عمله هذا كعمل من يسلق الطين بالشمأل ، ثم يأكل منه

ويطعم منه غيره . إذ أن المرء يطعم غيره مما يأكل منه . والشمأل لا تنضج الطعام بل تثلجه .

ولو فرضنا وقوع ذلك فرضاً ، فانه كما أن الطين لا يصلح طعاما فان الغذاء الروحى لا يحصل من مثل تلك الرياضة . وإذا لم يحصل الغذاء الروحى فلا تحصل معرفة الله والالهامات الربانية والواردات الالهية . دع عنك الغذاء الروحى فقد يصيب القلب مرض كالوساوس الشيطانية والأفكار الفاسدة من مثل تلك الرياضة ، كما يصاب جسم آكل الطين بأمراض . وتلكم أمور مهلكة للقلب والروح والسر ، نعوذ بالله من ذلك .

(١١) وقوله « بالشمأل » إشارة الى عدم وجود الجوهر المحمدى وتلقين المرشد . ومثال آخر أن الفواكه لا تظهر فى أيام الشتاء . وكذلك لا ينتج شيء من المجاهدة العندية . واذا لم تصل شرارة الى «صوفان» قلب الطالب من نفس المرشد بواسطة زناد التلقين ، أو إن لم يكن الطالب مواجها لبلّور أنظار الكمل بتسليم نفسه تسليما تاماً ، فكل تعبه هباء وكل مساعيه ضائعة ، فلن يجد تلك النار ويسوى بها ما به نيّيء . فمن لا يولى وجهه نحو الموقد لن يوقده مهما نفخ فيه ، ولن ينضج الطعام ، فيلزم أن يأكل الطين . فأمثاله يأكلون الطين دائماً وينتهون إلى الالحاد ، ويطعمون الطين دائماً من احتاج إليهم ، وأكثر الملحدين من أمثالهم . ويظهر الالحاد منهم ، وإذا اجتمع امرؤ من أهل السلوك مع أحدهم برّده كالبَرَد وجمده كالثلج ، فلذا ينبغى لأهل السلوك أن يتجنبوا ذوى الأنفاس الباردة من أمثال المذكورين .

(١٢) ومراد الولى من هذا البيت منع مجاهدة الطالبين من تلقاء أنفسهم وتحذيرهم من التقرب ممن كان كذلك .

(٣)

« أعطيت غزلا للناسج فلم يلفّه ولم يجعل منه كبّة »

« ولا يزال يوصى مستعجلا ، فليحضر وليأخذ نسيجه ! »

(١٣) هذا البيت يبين أحوال المرشد الناقص . لقد علمنا أنه يجب على كل طالب الحق أن يلتزم مرشداً ، ويجب عليه ألا يسلّم قلبه لكل مرشد

بل يجتهد للعثور على أستاذ عامل ومرشد كامل . فكأنه يقول : إنى سلمت قلبي المضطرب إلى مرشد ، بشرنى بأنى قد وصلت إلى مقام الخلافة وتم عملى ، قبل أن أجد دواءً شافياً لأسرار آلامى حتى أحصل على سلامة القلب . فعلمت أنه مرشد ناقص ، لأن الغزل إشارة إلى التفرقة الأولية ، وحال الكبَّة إشارة الى الجمع ، وصيرورة الغزل بزًّا إشارة الى الجمع بعد التفرقة وهذا هو الكمال .

ويدل هذا البيت على ما هو المقصود من تسليم المريد نفسه الى الشيخ ، ليطّلع عليه ويفهمه ، حتى إذا ذهب الى المرشد فهم أهو كامل أم لا . إذ لا يوجد دواء قبل معرفة الداء . فلذلك يجب على الطالب أن يعرف أولا أن المراد من الذهاب إلى المرشد هو السعى الى أن يظهر بالفعل ، ما فى جسمه من الكمالات الانسانية بالقوة . فمثلا تقول بذرة للبستانى بلسان حالها : أيها البستانى إعتن بى عناية حسنة حتى أخرج ما بداخلى من كمال بالقوة ، واعلم بسرى حتى تُذكر أنت كذلك بالكمال . والبستان وصاحبه إنما يعرفان بعنايته له .

(١٤) وتمثيل الولى بكلمة « أعطيت غزلاً للناسج » جد لطيف ، إذ أن للكمالات الانسانية أطواراً ومنازل كثيرة ، إلا أن أصولها ثلاثة ، وهى الفرق ، والجمع ، وجمع الجمع . ويسمي المشايخ الكرام جمع الجمع بالفرق بعد الجمع أيضاً . فالغزل إشارة الى الفرق ، والكُبَّة الى الجمع ، والبز الى جمع الجمع . وليس المقصد الأصلى أن يصير الغزل كُبَّة . بل أن يصير بَزًّا . وهذا المرشد لم يجعل بعد ولا الكُبَّة ! إن معرفة الحق سبحانه وتعالى سهلة ، وشواهدها ودلائلها كثيرة ، ولكن العسير أن يعود المرء فيجد الخلق بعد وصوله إلى الحق ، لأنه ليس له جسم مستقل . وأما الكمال فهو أن يعود المرء فيجد الخلق مع الحق كمرآة ، وألاَّ يُحجَب بأحدهما عن الآخر . وهذا المرشد يحاول أن يجعلنى أسير الشهوات مثله ، بأن يجعلنى خليفة مدعياً جزافاً بأنى قد بلغت الكمال ، على حين أنى لا أزال مضطرب القلب ، ولم يتم عمل من أعمالي . وأما التعبير بأن ذلك المسكين العاجز « لا يزال يوصى

مستعجلا » بصيغة الغائب فاشارة الى أن البون بعيد بين مراد المرشد ومقصد الطالب ، وأن حال المرشد قد اتضح للطالب ، والمرشدُ يجهل مقصدَ الطالب . لقد أدرك الطالب أن الكيّة لم تتم بعد ، ولم يفهم المرشد أن الطالب فهمته . وجائز أن يكون قد قال له ذلك لاختباره بهذه الوسيلة .

(١٥) وأما المصرى الفقير العاجز فقد سوّد شرح هذه الأبيات التسعة من كلام يونس أمره بالتماس بعض الاخوان ، وظل الشرح نحو ثمانية أشهر مشوشاً بين الأوراق . لتردده فى الشرح أجاء مطابقاً لمراد الولى أم لا ؟! ففى ليلة رأيت يونس فيما يراه النائم فاستقبلنى ببشاشة عظيمة ، وقال : أخرج شروحك التى كتبتها لكلماتى ، حتى ينتفع بها الفقراء ، ولكن احذف شرح البيت « أعطيت غزلا للناسج » . واكتب هذا المعنى ، مشيراً الى المعنى الذى كتب هنا . وكان الشرح المحذوف غير هذا .

(٤)

« حمّلت جناحَ عصفور على أربعين مركبا »

« فلم تستطع جرّه ، وبقى مبسوطاً »

(١٦) هذا البيت فى بيان شرف علم الطريقة ولزومه ، وبيان حال أهل السلوك ، والترغيب فيه . وهو يبين أن زيادة الاهتمام بالباطن ألزم من الاعتناء بالظاهر . لأن ظاهر العلم سهل ، وباطنه جد عسير .

(١٧) السير بالمركب مثال لعلم الظاهر ، فلذا يجد الظاهريون من أهل الدنيا صعوبة كثيرة فى علم أهل الباطن ، لأن العمل المشوب بالرياء سهل ، ولكنه قليل القيمة وإن كثر مقداره : كالتبن . والعمل المؤدّى بالخلوص عسير ، ثقيل ولكنه قيم : كالذهب . فان « فكر ساعة خير من عبادة سنة ؛ وجذبة من جذبات الرحمن توازى عمل الثقلين» . ثم إن لأهل الباطن التّرك ، وعملهم ليس كالسير بالمركب ، لأن أول أعمال أهل الطريقة ترك الدنيا ، والترك جناح للطيران نحو الملكوت . والمراد من هذا ، الطاعة مع اليقين « فلهم أجنحة تطير بغير ريش الى ملكوت رب العالمين » ، والجناح

الذى يمسكهم ينبت لهم بتركهم ، وبتلقين المشايخ ، وبالجوهر المحمدى صلى الله عليه وسلم ، وبمواظبتهم على أصول الأسماء الإلهية ، والرياضة الشرعية .

(١٨) وحاصل الكلام : أن خلوص أدنا أهل الطريقة وصدقه ويقينه وحسن اعتقاده ، لا يقدر على حملها قلوب أربعين عابداً ، لأن لأهل الطريقة تركا ، و « حب الدنيا رأس كل خطيئة وتركها رأس كل عبادة » . فان قال أحد :حملت جوهرة كالحمصة أربعين مركباً فلم تستطع جرّها ؛ فمراده قيمة الجوهرة . والحق أنه يمكن تحميل أربعين أو خمسين مركباً جوهراً يساوى مائة ذهباً . وهذا التمثيل نظراً لمن هم فى أدنى مراتب أهل الحال . لأن العصفور أضعف الطيور ، لا يقدر على السفر الى مسافات بعيدة . وأما الذين هم فى المراتب العليا يشبهون الصقور والشواهين ؛ فان عمل واحد منهم ويقينه وذوقه ليفوق على يقين ألف عابد وأعمالهم ؛ فليس فى طاقة الأرض والسماء والعرش والكرسى حمل جناحهم ، بله المركب .

(٥)

« رفعت ذبابة عقابا ، فطرحته أرضاً »

« وهذا صحيح وليس بكذب ، لقد رأيت غباره بنفسى »

(١٩) يبين هذا البيت أحوال المدعين من ذوى الرياسة والجاه ، ومنكرى أهلَ الطريقة من غربان جيف الدنيا ، المتظاهرين بالكمال فى أعمالهم ، ويبين كمال من يُرون فى الظاهر فقراء مساكين ، وأذلاء محتقرين ، وحال الظرفاء المنعّمين فى العز والدلال . رأى أحد أولئك الوجهاء المنعّمين مظاهر هؤلاء من الفقر والمسكنة والفناء وعدّه أحقر من الذباب ، فشرع فى التظاهر بالعلم والعرفان ، ووجه الى أحد الدراويش أسئلة بطريق الاستهزاء فما كان من هذا الذى كالذباب إلا أن صار شاهيناً ، ورفع ذلك النسر وطرحه أرضاً . يعنى أن الدرويش الحقير المنظر غلب ذلك السيد العظيم وألزمه .

(٢٠) وقوله : « لقد رأيت غباره » يدل على أن الولى نفسه كان أمياً فقير الحال ، قد سأله كثير من الزهاد والعلماء أسئلة بطريق الالزام فرد

عليهم ، ثم أفحمهم بأسئلة وجهها إليهم . ويريد أن يقول : وقع لي هذا الأمر وقابلت نسوراً من أمثاله . « من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت على لسانه ما بقلبه من ينابيع العلم » .

(٢١) لقد أخلص بعض هؤلاء أربعين أسبوعا ، وبعضهم أربعين شهراً وبعضهم أربعين سنة ، فهل يُستغرب إن انتصر أحدهم على قلب لم يخلص في عمره أربعين يوما ؟ .

(٢٢) وثمة مناسبة بين النسر والغراب ، والنحل ، فالنسر وإن كان عظيما في المنظر إلا أن طعامه جيف ، والتي تخرج منه جيف أيضاً . والنحل صغير في منظره إلا أن طعامه أزهار ذات أريج لطيف ، والذي يخرج منه عسل حلو لذيذ . فلا شك في أنه لا مناسبة بينه وبين أمثال الصقر والشاهين .

(٦)

«صارعت[1] عجزاً فأخذ عديم اليد برجلي»

« ولم أقدر على صرعه وغــرني »

(٢٣) ولما فُهم من البيت السابق شيء من العُجب أراد أن يعرف الطالب بهذا البيت طرق كسر النفس ، فقال : « صارعت عجزاً » والمراد من العجز النفس التي زين في عينها حب الشهوات ، فلا تفتأ ترغب في المشتهيات . والمراد من « عديم اليد » الشيطان المخلوق من النار . وقد نشأت صفة الغضب التي في الانسان من شعلة تلك النار . والنفس كالطفل إن منعت عنها غذاءها انفطمت . ولكن تنشأ من الجوع حرارة ويبوسة ، فتُعطى البرودة والرطوبة ، أي الطعام والشراب ، وهما ما تطلبه النفس ، فيعني بذلك أنه لم ينتصر على النفس كما يريد .

(٢٤) وهذا البيت ضد البيت السابق . وقد أراد يونس أمره أن يقول: إني وإن كنت ضعيفاً صورة قد غلبت كل عضو من أعضائي بإذن الله ، إلا أنني لم أقدر على هزيمة النفس هزيمة تامة ، وأتحرر منها فغرتني .

---

(١) في نسخة « بركوتي » ومعناه السيء الرديء .

وفي هذا البيت تنبيه بأن السالك العارف مهما قهر الشيطان يجب عليه أن يعرف أنه مغلوب أمام النفس . وإن لم يكن مغلوبا ، فلاينبغى أن يكون من المدعين ، بل يكون من أهل الفناء والذل والافتقار ، ويظهر دائماً عاجزاً ذليلا ، ويحذر من الوقوع في العُجب . لأن كل امرىء يعجب بنفسه ويصادقها ، فهو عدو الكل ، ومغلوب للعدو وإن كان عزيزاً ؛ وكل امرىء في عداوة مع نفسه ، ولم يخل من عداوتها ، فهو صديق الجميع ، وهزم كل أعدائه ولو كان ذليلا .

(٢٥) المراد من العجُز النفس التى هى جاذبة وليست لها يد ولا رجل . والمراد من عديم اليد صفة الغضب التى لها رجل وليست لها يد ، ويقصد بها الشيطان . فالولى يقنع السالكين بأن يكونوا دائما موافقين لمراد الله ، ومخالفين للنفس والشيطان . قائلا : وعندما أوشكت أن أقهر نفسى عاونها الشيطان بصفة الغضب واتفقا معاً وغلبانى . فكلما رغبت فى العبادة وطاعة الله منعنى الشيطان بالقاء الكسل على ، ودفعنى إلى ترك العبادة ، وما تركتها ، ولكن النفس ساعدت الشيطان باحداث اللذة ، فصرت فى حرب دائمة معهما ، فحيناً غلبتهما ، وغلبانى حيناً ، ولم أنج منهما نجاة تامة ، ولم أخلص من شرهما .

(٢٦) انظر إلى الدرويش الضعيف كالذباب ، ما أعجبه ! يغالب الجن والشياطين كأنه بطل أو كأنه سليمان عليه السلام . النفس والشيطان عدوان خبيثان . ما نجا من الشكاية منهما حتى الأولياء والأنبياء ، إذ لا ينجو من شرهما إلا من انسلخ من أنانيته ، وفنى فى الله ، فهو وحده الذى ينجو منهما ويخلص :

(٧)

« رمونى بحجر من جبل قاف فوقع »
« فى طريق الظُّهر وكاد يفسد وجهى »

(٢٧) المراد بجبل قاف الشرع ، لقد أحاط بجميع الناس وشملهم فى دائرته .. والعلماء العظام ، زادهم الله ورفع شأنهم ، يقفون فوق ذلك الجبل مراقبين

أحوال الخلق من كل الأرجاء . فاذا ظهر خلل فى جهة بادروا برمى الحجر إلى ذلك الخلل : وعمروا المكان المهدوم من تلك الجهة : باجراء الواجب : من قتل : أو تعزير ، أو تأديب . إذ لا يقوم النظام والانتظام إلا بوجودهم. وإذا رأوا رجلا مخالفاً للاسلام والشرع ، أو سمعوا عنه ، تحركت فيهم باذن الله غيرة دينية ، وعملوا على منعه .

(٢٨) ولما كان كلام المشايخ العظام مطلقاً فى غالب الأوقات : وعسير الفهم مغلقاً ، بزعمه العلماء مخالفاً للشرع ، فيقذفونهم بحجارة الطعن ، ولكن لما كان مراد المشايخ من كلامهم ذلك غير ما تبادر إلى فهم العلماء من المعنى ، فلا تصيبهم حجارة الطعن . لأنهم حتى ولو طعنوهم يمكن المشايخ أن يثبتوا موافقة كلامهم للشرع الشريف ، وينجوا من ذلك الطعن ، فيكون الطعن لم يبلغهم .

(٢٩) قال يونس أمره : إن العلماء لم يفهموا كلامى المطلق ، فرمونى بحجر الطعن . وإذ كان مرادى خلاف مافهموه ، فقد وقع الحجر فى منتصف الطريق . ومراده من التعبير « بطريق الظهر » : أن الظهر منتصف النهار . وعلم الظاهر نصف العلم ، لأن العلم المتعلق بالعقائد والأعمال هو علم الكلام ، وعلم الفقه ، وهما من العلوم الظاهرية . وأما ما يتعلق بالخلق وتصفية الباطن ، فعلم الأخلاق ، وعلم الحقيقة ، الذى هو علم الباطن . فعلم العلماء الظاهريين من الفطاحل فى منتصف الطريق . هذا مقصده من « طريق الظهر » . وأما قوله « كاد يفسد وجهى » فيريد أن يقول : إنهم كادوا يفهمون مرادى ، وكدت أكشف لهم علماً يجب على إخفاؤه ، وخشيت ذلك ، لأن إفشاء السر كفر . وقد ورد فى تفسير القاضى البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك (المائدة الآية ٧٠) » ، « فان فى الأسرار الالهية ما يحرم إفشاؤه » . وذكر فى إحياء العلوم نقلا عن زين العابدين :

يارب جوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونه حسنا [١]

(١) الكواكب الدرية للمناوى ص ١٤٠ طبع مصر سنة ١٩٣٨

(٨)

« طلع السمك على شجرة الحور ليأكل مخلل الزفت »

« وأنتج اللقلق جحشا ، انظر إلى كلامه ؟ »

(٣٠) السمك معرفة الله الواردة إلى القلب عن طريق الالهام ، وهى فى بحر التوحيد . ويكون ذلك البحر فى قلب العارف . وينثر العارف بالله ، ويبذل لمن كان بالساحل من الناس الأسماك التى تصعد حين يتموج البحر أحياناً ، ويتولد من لذته غذاء روحانى للقلب والروح .

(٣١) وشجرة الحور طويلة جميلة ، وليست لها فاكهة ، ومراد الشاعر بها الزاهد الجاهل المدعى المعرفة وأسير الرياسة ، يحفظ من تعبيرات أهل الله العظام ومصطلحاتهم ثم يتبجح بها لمن يحضر أمامه من الأغفال الأغرار على أنها بضاعته ، وغرضه من ذلك أكل الدنيا وبلعها . وأما قوله : « مخلل الزفت » فمعناه أنه لا يتلذذ ، لا هو ولا من يسمع كلامه . هو لا يتلذذ ، لأنه يعلم أن معلوماته ليست ببضاعته ، ولا يتلذذ من يستمع إليه ، إذ لا لذة لمعرفة لا تصدر من الروح . وقد وصف أحد الكمّل أمثالهم بقوله :

أما الخيام فانهـا كخيامهمْ   وأرى نساءَ الحىّ غير نسائها

أى أن الجاهل قد ينطق بأقوال تنم عن المعرفة ، ليستحوذ على الدنيا ، فيراه العارف ويتجاهله . يشرع الجاهل فى التشدق بالعرفان ، ولكن الكامل يفهم ما صنعه من الخلل .

(٣٢) المراد بقوله « اللقلق » أهل الله العظام . لأن اللقلق يبدو للناس ظاهراً بأحواله من الأكل والشرب والتناسل ، ولكن له سفراً لا يدرى أحد إلى أين . كذلك أهل الله الكمّل ، فهم فى أحوالهم الظاهرة مع الناس ، وأحوالهم الباطنة مجهولة . فى أى مطلع قلب العارف وفى أى حال ؟ لا يمكن الاهتداء إلى مكان العارف بالله ، ولو فتشت السموات السبع والعرش والكرسى .

(٣٣) وقوله : « أنتج اللقلق جحشاً » يعني : أن أهل الله العظام طالما يكونون مقيدين بستر الخال . ولا جرم طلوع السمك على شجرة الجوز : فانه إيغال في الستر ، وقد يستترون تحت قباب الغيب ، وينطقون بكلمات جديرة بالجهال ، كما قد ينطق الجاهل الشبيه بشجرة الجوز بكلمات العارفين ، محافظة على بقائه في العلو والرفعة . يتظاهر اللقلق بالجهل كيلا يلفت أنظار الناس ، فيحولوا بينه وبين سفره ، ويصدق الناس كلام شجرة الجوز ، ويطعنون في كلام اللقلق ، قائلين : « انظر إلى كلامه ! » . وأما أهل الفهم فلا يعتمدون على قول كليهما ، ويتعجبون منهما قائلين : « انظر إلى كلامهما ! » .

(٩)

« نطق يونس بكلمة لا تشبه كلاما »

« وحجب وجه المعنى من أجل المنافقين »[1]

(٣٤) الحق أن قولا كقول يونس أمره هذا ، لم يصدر ممن سلف من المشايخ ، فهو في ظاهره شبيه بالهزليات والصبيانيات ، وهو في باطنه كنقاب و « زواق » مسدل على وجوه أبكار الأسرار الالهية ، والمعانى الحقانية ، التي هي عرائس الله ، لسترها عن غير المحارم ، حتى لا تتطلع عليها عين الغريب ، ولا تبلغها يده . وقد صدق على يونس أمره هذا البيت :

كل عاشق وسم العشق بوسام ولكن وسام أحد لم يفق على وسامى

(٣٥) مثل هذه القصيدة كمثل عجل رُبط على وجهه جلد قنفذ ، لتمنعه أمه من الرضاع ، فكأن الشاعر يقول : لا تطلعوا الغرباء على سر معانى هذه الأبيات . وهى من أغرب القصائد ولم يسبق لها مثيل ، فلذلك هى خاصة بيونس أمره ، قُدّس سرّه .

---

(١) نسخة : ولكن يظهر معناها فى مجلس الواصلين .

إلهيات يونس أمره

١ — چقدم أريك دالنه ، آنده يدم أوزومى
بوستان أسى قاقيوب ، ديزنه برسن قوزومى ؟!

٢ — كرپيچ قويدم قازانه ، پوپراز ايله قاينتدم
نه بو ديو صورانه ، باندم ويردم أوزونى

٣ — ايلك ويردم چلجتيه[1] ، صاروب يومق اتمـامش
بجد بجد اصمرلر ، كلسون آلسون بزينى !

٤ — برسرچه نك قنادين ، قرق قاكلى يه يوكلتدم
آنلرده چكمدى ، قالدى شويله يازيلى .

٥ — برسكك برقارتالى ، قالدردى يره اوردى
يلان دكل گرچكدر ، بنده گوردم توزونى .

٦ — بر گوت ايله گولشدم ، السوز آياغم آلدى
شونيده بصا مدم ، گويندردى أوزومى .

٧ — قاف طاغندن برطاشى ، شويله آنديلربكا
أويله للك يوله دوشدى ، بوزه يازدى يوزومى .

٨ — بالق قواغه چقمش ، زفت ترشيسن يمكه
لكلك قودق طوغرمش ، بقه شونك سوزونى .

٩ — يونس برسوز سويلمش ، هيچ برسوزه بكزه مز
منا فقلر أوجندن ، أورتمش معنى يوزونى[2] .

---

(١) چولها .

(٢) نسخة : « أرنلر بجنسنده بولور معنى يوزونى » .

یونس أمره حضرتلرینك متصوفانه بوطقوز بیت
إلهیلرینی مصری افندی حضرتلری شرح ایتدکاریدر
وبه نستعین

« چقدم أریك دالنـــه ، آنده یدم أوزومی »
« بوستان اسی قاقیوب دیرنه یرسن قوزومی !؟ »

(۱) بوبیتدن مراد اولدر که هر عمل شجرینك بردرلو ثمره سی اولور. ظاهرده هر میوه نك بر مخصوص شجری اولدیغی گیبی هر عملك دخی بر مخصوص آلتی واردر ، آنکله حاصل اولور . مثلا علم ظاهرك حصولنه آلت : لغت ، وصرف ، ونحو ، ومنطق وآداب وکلام ومعانی وأصـول وحدیث وتفسیر وحکمت وهیئت . وعلم باطنك حصولنه آلت أولا خلوص دائم ، ومرشد نفسی ایله ذکره دوام ، وقلت طعام ، وقلت کلام ، وقلت منام، وعزلت عن الأنام . وعلم حقیقتك حصولنه آلت ترك دنیا ، وترك عقبا ، وترك وجوددور .

(۲) ایمدی عزیز حضرتلری قدس سره اریك وأوزوم وجوز ایله ، شریعت وطریقت وحقیقت اشارتن ایدرلر . زیرا اریکك طشره سی یینور ایچی ینمز . جمله اریك گیبلر عملك ظاهرینه مثالدر . زیرا أوزوم هم یینور هم نیجه درلو نعمتلر آندن ظهوره گلور : صوجق ، وکوفتر وپکمز وترشی وسرکه وبونلرك امثالی دخی نیجه نعم کثیره حاصل اولور . لکن ایچنده برمقدار ریا وسمعه وعُجب وتزکیه چکردگی اولمقله عمل باطن دنیلور ، حقیقت دنیلمز . جوزصرف حقیقته مثالدر . جوزك ایچنده اصلا یابانه آتاجق برشی یوقدر . هم یینور وهم نیجه مرضلره وعلتلره آندن شفا حاصل اولور .

(۳) ایمدی برکسنه اریك طلب اتسه اریك شجرندن طلب ایلر . وأوزوم طلب اتسه باغدن ایدر ، وجوزطلب اتسه جوز شجرندن ایدر :

کیمکه أوزومی اریك آغا جندن طلب ایله یه اول احمقدر . قوزی یره زحمت چکر ، امکی هبادر وحاصل ومحصولي عنادر .

(٤) پس ایمدی معلوم اولدی ایسه بوبیتدن دخي ملوم اولسونکه برکسنه ظاهر علمنك صلاحن وفسادن بیلمك ایسته رسه آنی شریعتدن طلب ایلر ، فقه کتابلرینه مراجعت ایلر ، آندن بیلور وأوکرنوب عمل ایلر . واکر علم باطنك صلاحن وفسادن وتنزل وترقیسن بیلمك ایسته رسه آنی تلقین واصول اسماایله گوکل کتابنه وعلم تعبیره مراجعت ایلر ، هرگون نه واقع اولورسه مرشده عرض ایلر وآکه احوال بیان ایلر ، آندن اول مشکل حل اولو نوب سلوك ایلر . وبرکسنه دخی علم حقیقت که معرفت نفسدر که عین معرفت ربدر ، بوعلمك ذوقنی وحالنی إیسته رسه ، مرشد کامللر تربیه سیله ریاضت شاقه آتشی ایله نفسك جمیع اوصافنی وبشریت وانانیت اخلاقنی یاقوب گوکلدن نفی ماسـوا ایله بالکلیه محو وجود ظلی قیلدقدن صوکره عین وجود حقیقی اولوب فناسی عین بقا اولمق ایله اولور .

(٥) ایمدی بو أوچ عملك باشقه باشقه طریقی واردر . بویله طلب اولونورسه امیددرکه آززمانده مقصودی حاصل اولور . نتکم اریکك وأوزومك وجوزك باشقه باشقه شجرلری اولوب هربری کندی شجرندن طلب اولوندیغی گبی ، ایمدی[1] برکسنه ظاهرعلمنی ایشلرکن بن علم باطن وعلم حقیقتی ظاهر عمل ایله أله گتورریم دیسه وعندیچه برآلایی زحمتلر چکسه ، مثلا کندیلکندن اسمایه مداومت ایله سه ، اورجلر طوتسه ، وخلوتلر ، عزلتلر اتسه ، اول کیشی همان اریك شجرندن أوزوم طلب اتمش کبی اولور .

(٦) بوستان اسّی[2] مرشد کاملدر . « نیچون یرسن قوزوی » دیوب قاقدیغی تنبیهدر که اولمـازیره ریاضت وتعب چکرسن . سن بو أوچ

---

(١) ورد فی الأصل « أمی » وهو غلط .

(٢) ورد هذا اللفظ فی صورة « اصی » فی بعض النسخ وهو علی کل حال بمعنی صاحب وهو فی اللهجة الترکیة الچغتائیة « ایکه » وفی اللهجة الترکیة القازانیة « ایه » ویتحول إلی « ایکه سی » و « ایه سی » أی صاحبه ، فی حالة الاضافة .

علمی براوغوردن بر عمل ایله اله کتوریرم صنورسن؛ وهر برینك باشقه باشقه طریق ووقتی ومعلمی ومرشدی واردر ، دیو أهل اولنلر بونلرکبی عندیجه سلوك ایدنلری گوردکلرنده آزار ایدوب نیچون بویله ایدرسن ؟ أولا سکالازم اولان هر میوه نه شجرده بیتدوکن بیلمکدر . وآندن صوگره عمله ملازم اولمقدر . سنك مثالك بوکه بکزرکه بر کسنه نك اوغریلقله باغچه سندن اریك وأوزوم یمکه واروب جوز شجرینه چیقار ، وبوستان اسی دخی آنی گوردکده «نیچون برسن قوزوی» دیو طاش آتار. زیرا حقیقت علمی مرشد کاملك علمی وملکیدر . وآنك علمی آلتنی بیلمکه ملکهٔ استعداد حاصل اتمکدر . مرشد کاملك اذنیله وتربیه سیله ریاضت شاقه در ، وآکه کال تسلیمدر . وکندی رنکندن چیقوب مرشدك رنکیله همرنك اولمقدر . ایمدی مرشد گورسه که بر کسنه کندیلکندن اسمایه وریاضته مداومت ایله سه اول کسنه یه ایدرکه : صاحبندن اذنسز باغچه یه اوغریلقله نیچون کیررسن ؟

(۷) ایمدی علم طریقت وحقیقت مرشد کاملك باغچه سی وملکیدر . ومداومت اسما وریاضت اول باغچه نك میوه‌سیدر . هر کیمکه کندی رأییله سلوك ایلر بوغیری کیمسه نك باغچه سنه اوغریلقله گیرمش کبی اولور . بونك خارجده برمثالی ده آکه بکزر که بر کسنه بازاردن برآلایی دولگرآلتی آلسه ، وکندیلکندن دولگرلك اتمك ایسته سه ، مباشرت ایلدیکنده هرمراد ایلدیکی ایشده قنغی آلت اقتضا ایدجکنی بیلمز . براستاد آنی گورسه ، بزه صنعت اوغریسی ، بزم صنعتمزی اوغریلقمی استرسن ؟ بو بزم آلتمزی نیچون آلدك ؟ دیر . اکرچه اول کمسنه آلاتی بازاردن کندی آقچه سیله آلمشدی .

(۸) ایمدی عزیزك بوبیتدن مرادی ، مرشد سزین شریعته وطریقته وحقیقته ، کندی بیلدیکم ایله عمل اتمکله واصل اولورم دیوسعی ایدنلرك احوالنی تمثیل طریقیله بیان بیوروررلر . یعنی مثلا بویله اولان کمسنه نك حالی اوکه بکزرکه هرمیوه قنغی شجرده بیتدوکن بیلمیه . کوکلی أوزوم

ایستدکده اریکده بیتر صانوب اریك آغاجی دیو جوز آغاجنه چیقان کمسنه کبی اولور . مرشدسز بویوله کیدرم صانور . مثلا اعمی اولان جمله رنکلری سیاه صاندوغی کبی .

(۹) ایمدی یونس أمره قدس سره بوحالی کندویه نسبت ایتدوکی جائزکه کندی برزمان بویله مرشدسز چالیشوب برشی حاصل ایده میوب صوکره مرشده وارمش اولا . ویودخی جائز درکه کندی یوزندن مرادی غیری یه تعریض وتنبیه اولا .

* * *

« کرپیچ قویدم قازانه [1] ، پوبراز ایله قاینتدم »

« نه بو دیو صورانه ، باندم[2] ویردم أوزونی »

(۱۰) یونس امره حضرتلری قدس سره بوبیتدن کندیلکندن ریاضت ایدنلرك ریاضتنك حاصلین تمثیل طریقی ایله بیان ایدرلر . یعنی چامودی پوبراز ایله قاینادوب یمکه ویدرمکه بکزر . زیرا برکمسنه کندی هرنه برسه أشنه دخی اوندن ویرر . پس ایمدی پوبراز طعامی پشرمك دکل دوکدیرر . فرضاً اولدیغی تقدیرجه بیله چامور یمکه یارامدیغی کبی بونك کبی ریاضتدن دخی غذای روح حاصل اولمز . نه غذا ، بلکه چامور یینلره مرض جسم حاصل اولدوغی کبی اول ریاضتدن مرض قلب حاصل اولورکه وسوسهٔ شیطانیه وافکار فاسده مثللو شیلردر . بلکه بونلر مهلك قلب وروح وسردر . نعوذ بالله تعالی .

(۱۱) «پوبراز ایله» دیدیکی مایهٔ محمدیه وتلقین مرشد اولمدیغنه اشارتدر . برمثالی ده بودرکه قیش کونلرنده بزدرلو میوه ظهور ایتمز . پس ایمدی عندی صورت مجاهده ایله نسنه حاصل اولمز . ایمدی مرشدك نفسی آتشندن تلقین چاقمغی ایله طالبك قلبی قاونه برقفلجم یاپشمزسه ، یاخود کشّلینك نظری بللورینه طالب تسلیم تام ایله مقابل قلمزسه امکی هبادر . هرنه قدر

---

(۱) وفی نسخة : قزغانه .

(۲) وفی نسخة : « بن ده ویردم » ونسخة : یاندی دیردم أزوی » .

سعی ایدرسه ضایعدر . اول آتشی بولوب چیکلرینی طبخ ایده مز . نتکم
یوننین اوجاغه دوتمین هر نه قدر اوجاغی اوفورسه اوجاغی یقامز وطعامی
پشوره مز . لازم کلور که چامور بیه . پس ایمدی بومثللو کسنه لر دائم
چامور یرلر ، عاقبت الحاده دوشرلر . و کندیلره محتاج اولنلرده دائم چامور
یدوررلر ، الله ، صقلیه اکثریا الحاده دوشنلر بونلردر . بونلردن ظهور ایدر .
بزاهل سلوك بونلردن بریسنه صتاشورسه قارگیبی صوغودوب بوز گیبی
دوکدیرر . سلوك اهلنه هر بونك گیبی صوغوق تقسلیلردن احتراز لازمدر .

(۱۲) عزیزك بوبیتدن مرادی ، عندی طالب اولنلرك مجاهده سین منعدر .
وبونك امثالی کسنه لره مقارنتدن تحذیردر .

* * *

« ایلك ویردم چلحتیه [1] ، صاروب بومن اتمه مش »
« بجد بجـد اصمرلر ، کلسون آلسون بزینی »

(۱۳) بوبیت ناقص مرشدلر احوالن بیان ایدر . ایمدی طالب حقه
مرشد لازم اولد یعنی بیلد کدن صوکره هر مرشده کوکل ویرمیوب
بر استاد عامل ومرشد کامل بولمغه سعی اتمك گرکدر که یعنی قلب پریشانمی
برمرشده تسلیم ایتدم ، سلامت قلب بولمق ایچون هنوز دردلریمك سرینه
درمان وعلاج بولمدن بکا ، خلافت مقامنه ایزدك ، ایشك تمام اولدی دیو
مژده لر ایلر . بیلد مکه ناقصدر . زیرا ایلك تفرقه اولی یه اشارتدر . بومق
حالی جمعه اشارتدر . بزاولق فرق بعد الجمعه اشارتدر . کمال برنده در .
بوبیت شیخه تسلیم اولمغدن مقصود نه در ، آنی بلدررکه تاطالب آگاه
اولوب بله ، مرشده واردیغی زمان کامل اولدیغین واولمدیغین آکلیه .
زیرا درد بلنمینجه درمان بولنمز . أولا طالب بلمك گرکدرکه مرشده
وارمقدن مقصود کندی وجودنده بالقوه بولنان کمالات انسانیه هر نه ایسه
بالفعله کلمه سنه سعی اتمکدر . مثلا برچکردك لسان حال ایله برباغبانه
دیرکه ای باغبان لطف ایله بکا ، برخوش تربیه ایله ، حتی درونمده بالقوة

[1] نسخة : « جُلاحه » . = چولها .

اولان کمالاتم طشره کله . سریمی بل ؛ سندخی کمال ایله یاد اولناسن .
ایمدی باغچه وآنك ایوسی تربیه سندن بللودر .

(١٤) أما عزیزك « ایلك ویردم چلحّیه » دیو تمثیلی غایت لطیفدر .
زیرا اگرچه کمالات انسانیه ده اطوار ومنازل چوقدر ، لکن اصولی
أوچدر : بری فرق ، بری جمع ، بری دخی جمع الجمع که آکه مشایخ کرام
فرق بعد الجمع دخی دیرلر . پس ایمدی « ایلك » فرقه اشارتدر . « یومق »
جمعه اشارتدر . « بز » ایسه جمع الجمعه اشارتدر . أصل مقصود ایسه ایلك
یومف اولمق دکلدر بلکه بز اولمقدر ؛ اول ایسه یومق بیله اتمامش . ایمدی
حتی آکلامق آساندر وآنك شاهدی ودلائلی چوقدر . حقه واصل اولدقدن
صوکره دونوب خلق بولمق گوجدر . زیرا مستقل وجودی یوقدر .
کمال ایسه دونوب کلوب حق خلقله آیینه بولوب احدهما ایله آخردن
محجوب اولمامقدر . ایمدی بنم هنوز قلبم پریشان ایکن وایشمدن برایشم
دخی بتمدن ، سن کامل اولدك دیو بنی لاف وگذاف ایله خلیفه ایدوب کندی
گیبی بنی دخی اسیر شهوت ایده یمدیر . بوفقیر وبیچاره « بجد بجد اصدرلر »
دیو غایب صیغه سیله بیان اتدیکی مرشدك مرادی ایله طالبك مقصودی
بینی اوزاق اولوب مرشدك حالی طالبه معلوم اولوب طالبك مقصودی
مرشده معلوم اولمدیغنه اشارتدر . زیرا طالب یومق اولمدوغین بلدی .
مرشد طالبك بلدوکین بلمدی . ویاخود جائز که بر واسطه ایله تکلیف
اتمش اوله ، گوره یم آلدانورمی دیو .

(١٥) بوفقیر بیچاره مصری ، یونس حضرتلرینك بوطقوز ابیاتنی شرح
ایتمکه بعض اخوان التماسیله تسوید ایدوب سکزآی مقداری کاغذآراسنده
شویله پریشان قالمشیدی . سبب اولدیکه عجبا عزیزك مرادی أوزره اولدیمی
ویا اولمدیمی ؟ برگیجه یونس حضرتلرینی گوردم . بوفقیره عظیم بشاشت
ایله التفات گوستروب بیوردیکه بنم اول سوزلریمه یازدیغك شرحی چیقار ،
فقرا منتفعتلنسونلر . « ایلك ویردم چلحّیه » بیتنه یازدیغك سوزی یازمه ،

شو معنانی یاز دیو یازیلان معنانی بیوردیلر. بو بیته بر آخر معنا یازلمشدی.
آندن فراغت اولنوب بو معنا یازلدی.

* * *

« بر سرچه نك قنادین، قرق قاتکیه بوکلتدم »
« آنلرده[1] چکمدی ، قالدی شویله یازیلی »

(١٦) بو بیت طریقت علمنك شرفی ولزومی ، وسلوك اهلین سلوکه ترغیب بیاننده در. وظاهرین تصحیحدن باطن طرفنه اهتمام زیادة اولمسی[2] لازم ایدوکین بیان ایدر. زیرا علمك ظاهری آسان وباطنی زیاده گوج اولدغین بلدرر.

(١٧) ایمدی قاکلی ایله بورومك ظاهر علمنه مثالدر. ایمدی باطن اهلنك علمی، ظاهرین اولان أهل ریایه زیاده آغر گلور. زیرا ریالی عمل آساندر. هر نه قدر چوق اولسه ده بهاسی آزدر، صمان گیبی. خلوص ایله اولان عمل گوجدر، آغردر، هر نه قدر آز اولورسه ده بهاسی زیاده در، آلتون گیبی. « فکر ساعة خیر من عبادة سنة، وجذبة من جذبات الرحمن توازی عمل الثقلین » در. ودخی بونلرك[3] ترکی واردر: عمل[4] قاکلی ایله کتمك گیبی دکلدر، زیرا طریقت اهلنك أول عملی دنیانی ترك، ترك ایسه ملکوت عالمنه طوغری اوچمغه قناتدر. مرادی یقین ایله اولان طاعتدر: « لهم أجنحة تطیر بغیر ریش إلی ملکوت رب العالمین » یعنی أهل اللهك قنادلری واردر، توبی یوقدر، ملکوت عالمنه طوغری اوچارلر. اول قنادکه بونلری طوتر، ترکلری سببی ایله، وتلقین مشایخ ایله، ومایه* محمدیه ایله، صلی الله علیه وسلم، وأصول اسمایه مداومت ایله، وریاضت شرعیه ایله بتر.

---

(١) نسخة « اودخی » ونسخة الأصل « چقت دخی » ونسخة أخری « آنلرده » وهو الأصح.
(٢) اولماسی.
(٣) نسخة « بونلرده ».
(٤) « عملری ».

(۱۸) حاصل کلام ، دیمك اولدرکه طریقت اهلنك اك ادناسنك خلوص وصدقن ویقینن وحسن اعتقادن قرق عابدك گوکلی چکمز ، زیرا بونلرك ترکی واردر : «حب الدنیا رأس کل خطیئة وترك الدنیا رأس کل عبادة».
ایدی برکمسنه دیسه اولورکه برنخود قدر جوهری قرق قاکلی یه یوکلتدم ، چکمدی ، مرادی آنك قیمتیدر . حد ذاتنده یوز آلتون ایدر برجوهری قرق اللی قاکلی یه یوکلتمك قابلدر . بو تمثیل اهل حالك ادنا مرتبه سنده اولنلرینه گوره در . زیرا سرچه قوشلرك ضعیفیدر ، اوزاق سفر ایدمز .
اعلی مرتبه اولنلر طوغانلر وشاهینلر گبیدر . آنلرك برینك عملی ویقینی وذوق بوبیك عابدك یقینلرندن وعملرندن زیاده در . آنلرك قنادینی قاکلی دگل بلکه یر ، گوك وعرش وکرسی چکمز .

***

« برسـکك برقارتالی ، قالدردی یره اوردی »
« یلان دکل گرچکدر ، بن ده کوردم توزونی »

(۱۹) بوبیت بعض ریاست وجاه صاحبلری اولن دعواجیلری ، وعملده کامل گچنن ، وجیفهٔ دنیا قوزغونلرینك ، اهل طریقت منکرلرینك حاللرینی وگوزده خوار وحقیر وفقیر ومسکین اولنلرك کماللرینی ، وعز وناز ایله اولان ظرفانك حاللرینی بیان ایدر . بعضی بونلرك ظاهرلرینك فقر وفناسی ومسکنتلرینی گوروب استهزا طریقیله آنلره بعض سؤال أیلیوب فقرانك بریسی گوزینه سنك گیبی کورنمیوب عزونازایله اولن ظرفا سوزه وعرفانه کلدکده قتنده سنك مثالی اولن فقیر ، شاهین گیبی قارتالی قالدیروب یره اوروزغین بیان ایلر . یعنی گوزده خوار اولن درویش ، عظمت وشهرت أسّی اولن فلان افندی یه غالب اولوب الزام ایلدی .

(۲۰) « بن ده کوردم توزونی » دیدیکی ، عزیزك کندیلری ده امّی فقیر الحال اولوب نیجه زاهدلر وعالملر آکه الزام طریقیله بعض سؤاله شروع ایلدکلرنده جوابندن صکره کندیلری ده آنلره بعض سؤال ایدوب جوابنده آنلری عاجز ایتدوکین بیان ایدر . یعنی او حال بکاده واقع اولدی

آنلر کبی قارتاللره بن ده راست کلدم دیمکدر، «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهر ينابيع العلم فى قلبه على لسانه» . حد ذاتنده بر کمسه که قرق کون خالص ومخلص صباحه داخل اولوب یعنی قرق کون خلوص اوزرینه اولور ایسه، علم بیکارلری آنك قلبندن لسانی اوزرینه جاری اولور .

(۲۱) ایمدی بونلرك خود بعضسی قرق هفته ده وبعضسی قرق آی وبعضسی دخی قرق یلده خلوص ایله صباحه داخل اولمشلردر . ویاعمرنده قرق کون خلوص کورمین کوکله غالب اولسه عجبمیدر؟

(۲۲) ایمدی قارتالك وقوزغونك آری ایله مناسبتی واردر . قارتال هرنه قدر کوزده بیوك ایسه ده بدوکی جیفه در . کندیدن چقان دخی جیفه در . اما آری هرنه قدر کوزده کوچك ایسه ده بدوکی کوزل قوقولی چیچکدر، وکندیدن چقان دخی کوزل داتلی[1] باللردر . ایمدی طوغان وشاهین مثللولرله مناسبتی اولمدیغی بطریق اولی .

***

« برکوت[2] ایله کولشدم، ألسوز آیاغم آلدی »
« شونی ده بصــامدم، کویندردی[3] أوزومی »

(۲۳) بوقاریکی بیتده برمقدار عجب آکلتدوغندن بوبیت ایله ینه طالبلره کسر نفس یولن تعلیم ایدوب بیورد لرکه « برکوت ایله کولشدم » دیدی . کوتدن مراد نفسدرکه کوزینه حب شهوات مزین اولمشدر . دائم ارزوی مشتهيات ایدر . « السوز » دن مراد شیطاندرکه ناردن خلق اولنمشدر . إنسانده غضب صفتی اول آتشك یالکننده[4] اولمشدر . نفس طفل کبیدر، غذا سن . ویرمزسه ك کسلور . لکن آجلقدن بر حرارت ویبوست حاصل اولور . بو حرارات حاصل اولوب برودت ورطوبت که نفسك استدیکی جانبدرکه أکل وشربدر، نفسك مرادین ویردم، یعنی مراد أوزره نفسی یکمدم دیمکدر .

---

[1] خ تلی

[2] فی نسخة « برکوتی » .

[3] خ کوکنمك، خ کوونمك .

[4] فی البهجة الترکیة التدزانیة « یالقین » ومعناها الشعلة .

(٢٤) بو بيت يوقاريكى بيتك ضديدر ، يعنى ديركه صورتا هرنه قدر ضعيف إيسمده هر عضومه إذن حقله غالب اولدم . نفس شيطانه بالكليه غالب اولوب اللرندن خلاص اولمدم ، أوزدمى گويندردى،ديرو . بو بيتده تنبيه واردركه سالك عارف هرنه قدر شيطانه غالب اولورسه‌ده ينه كندوبى نفسك مغلوبى بله . مغلوب دكل إيسه ده بارى دعوا أهلى اوليه . فنا أهلى، وذل وافتقار أهلى اوله وكندوبى دائم عاجز وذليل گوستره ، ونفسنى عُجبه دوشورشدن صاقنه . زيرا هركيم نفسنى بكندى وآنكله دوست اولدى جمله دشمن اولدى ؛ دشمنه مغلوب اولدى ، عزيز إيسه ده . وهركيمكه نفسى إيله عداوت أوزره اولدى ودائم نفسنه عداوتدن خالى اولمدى ، جمله دوست اولدى وهر عدوبه غالب اولدى ، هرنه قدر ذليل إيسه ده .

(٢٥) پس ايمدى گوتدن مراد نفسدركه جازودر[1] ، الى وآياغى يوقدر . والسوزدن مراد غضب صفتيدركه آياغى وار الى يوقدر ، مراد شيطاندر . يعنى مراد اللهه موافقت ومرادات نفس وشيطانه مخالفت اوزره اولمقدر . نفسه غالب اولمق وقتنده شيطان نفسه ياردم ايدوب غضب صفتى ايله نفسمه معين اولوب ايكيسى براولوب بكا غالب اولديلر . وعبادت وطاعته راغب اولدقجه شيطان بنى منع ايدوب واوزريمه كسل براغوب عبادت تركنى سوردى[2] . فارغ اولمزدم ، نفس شيطانه ياردم ايدوب لذت ويردى . دائم جنك ايله آنلره گاه غالب اولوب گاه مغلوب اولوردم . بالكليه اللرندن خلاص بولوب شرلرندن امين اولمدم ، ديوسلوك اهلنى بوايكيسى ايله دائم مخالفت اوزره اولمغى قندرر .

(٢٦) گور ايمدى كه درويش نه عجب سنك دركه ديولر ، پريلر ايله قهرمان وسليمان گيبى جنك ايدر . نفس وشيطــان نه براماز دشمنلر دركه بوايكيسنك اللدن انبيا وأوليا آغليوب ايكله مكدن خالى اولمـا مشلر .

---

(١) فى نسخة رقم ٢٣٦٩ تركى بمكتبة الجامعة وردت هذه الكلمة فى صورة « جاذبة » وهى التى ترجناها . وأما ما فى هذا النص فلا تستقيم مع ما قبلها وما بعدها .

(٢) سهودردى .

زیرا بو ایکیسنك الندن کسنه خلاص اولمز ، مگر کندیلکندن بالکلیه فانی اوله ، اول قورتلور آنجق .

***

« قاف طاغندن برطاشی ، شویله آتدیلر بکا »
« اویله لك یوله دوشدی ، بوزه یازدی یوزوی »

(۲۷) قاف طاغندن مراد شرع شریفدر . جمله خلقی احاطه ایدوب دائره سنه آلمشدر . علماء عظام ، کثّرهم الله ورفع شأنهم ، اول طاغ اوزرنده هرجانبدن احوال خلقه نظر ایدوب طورورلر که هرنه جانبدن برخلل ظهور ایتملو اولسه اطرافندن آکه طاش آتوب قتلیمی ایجاب ایدر یاخود تعزیری ویا تأدیبی ایجاب ایدر ، في الحال امری اجرا ایدوب اول طرفك یقیلن یرنی تعمیر ایدرلر . زیرا نظام وانتظام آنلرك وجودلری سببی ایله در . هرنه یوزدن بودین اسلامه وشرع شریفه مخالف برکسنه کورسه‌لر ویا ایشتسه لر ، من عند الله بونلره برغیرت دینیه دوشر ، آنی منعه چالشیرلر .

(۲۸) مشایخ عظامك سوزلری ایسه اکثریا مطلق اولمغله فهمی غایت مغلق اولوب علما بونلرك مطلق کلاملرینی شرعه مخالف ظن ایدوب أکثریا طعن طاشنی بونلرك اوزرینه یوارلرلر[1] . ولکن اول سوزلردن مشایخك مرادی علمانك فهمنه طلوع ایدن معنی اولمامغله آنلرك طعن طاشلری مشایخه طوقنمز . زیرا اوزرینه هجوم ایدرلرسه اول سوزك شرعه موافقتنی بیان ایدوب اول طعندن خلاص اولورلر ، اول طعن آنلره یتشامش اولور .

(۲۹) یونس حضرتلری بیوررلرکه علما بنم مطلق کلامم فهم ایتمامکله بکا طعن طاشی آتارلر . بنم مرادم ایسه آنلرك آگلدقلری کبی اولمامغله طاش یول اورتاسنده قالدی . « أویله[2] لك یول » دیمکدن مراد أویله گونك اورته سیدر . علم ظاهر نصف علمدر . زیرا تلمك عقایده واعماله متعلق

---

(۱) یووارلارلر .
(۲) « أوکله لك » .

اولانی ، علم کلام وعلم فقهدرکه علم ظاهردر . واخلاقه وتصفیه باطنه متعلق اولانی علم اخلاق وعلم حقیقتدرکه اول علم باطندر . ایمدی علماء ظاهرك زیاده فهم ایدنلرینك علمی یول اورتاسنده درکه « أویله لك یول » دیدیکی آ که اشارتدر . « بوزه یازدی یوزومی » دیدیکی ، یعنی آزقالدیلرکه مرادمی آ گلیه‌لروستری أوزریمه فرض اولن علمی آنلره کشف اتمش اولهم ، دیوقورقاردم . زیرا سری کشف اتمك کفردر . تفسیر قاضی ده « یا آیها الرسول بلّغ ما انزل إلیك من ربك » آیتنك تفسیرنده دیورکه اسرار الهیه ده بعض سرواردرکه افشاسی حرامدر . و « احیاء علوم » ده زین العابدین دن نقل ایدوب بیوررلرکه :

یارب جوهر علم لو أبوح به　　لقیل لی أنت ممن یعبد الوثنا

معنا سنی بیان لازم دگل ، اهلنه معلومدر .

* * *

« بالق قواغه چقمش ، زفت ترشیسن یمکه »

« لکلك قودق طوغرمش ، بقه شونك سوزونی »

(۳۰) بالق الهام طریقی ایله گوکله وارد اولن معرفة الله درکه دریای توحید ده اولور . اول دریادخی دل عارفده اولور . گاهی تموج ایدوب ماهینك دریا آراسندن طشره گلنلرین عارف اولن ساحلده اولنلره بذل ونثار ایدر . لذتندن جان ودله غذای روحانیلر اولور .

(۳۱) قواق بزمیوه سز بوبی گوزل شجردر . مرادی دعوای معرفت ایدن زاهد خشکدرکه اسیر ریاستدر . أهل الله عظامك عبارات واصطلاحا تندن بعض کلمات ازبرلیوب یانته گلن گوزلری باغلولره اول معارفی کندی مالی اولیق أوزره صتار . مقصودی دنیایی اکل وبلع اتمکدر . « زفت ترشیسن » دیدیکی اولدر نه کندی حظ ایدر ونه دیکلاینلر حظ ایدر . ایمدی کندی حظ اتمزکه زیرا بلورکه کندی مالی دکلدر . ودیکلاینلر حظ اتمزکه زیرا جاندن کابیان معرفتك لذتی اولمز . بونك مثللولری ، کاملاردن بریسی بویله وصف وبیان اتمشدر :

أما الخیـــام نخیـــامهم　　وأری نساء الحی غیر نسائها

یعنی معرفت سوزن جاهل دلنه آلور دنیایی یمك ایچون . عارف آنی بورر تجاهل ایدر. معارف سوز لرینه آغاز ایدرکه نه ترشی قور دیغنی کاملر بلورلر.

(۳۲) و «لکلك قودق طوغرمش» دیمك اولدرکه لکلکدن مراد أهل الله عظامدر . زیرا لکلك ظاهر ده أکل وشرب وتناسل یوزندن اولن حالن خلقه گوسترر . اما برسفری واردر آنی کسه بلمزکه اول سفری نزیه در . کذلك عارف بالله اولن کامل ده ظاهر حالی خلقله در ، اما باطن احوالن کسه بلمزکه نه در ، وعارفك گوکلی نه مطالعه ونه حالده در . یدی قات گوکاری وعرش وکرسی یی آراسه لر ، عارف بالله نه یرده ایدوکین بلمزلر .

(۳۳) لکلك قودق طوغرمش ، دیدوکی اکثریا اهل الله عظام سترحال ایله مقید لردر . باخصوص بالق قواغه چقدوغی زیاده ستردر . بلکه غیب قبه لرینك آلتنده پنهان اولورلر. حاللرین سترایچون جاهلانه سوزلر سویلرلر . تنکم قواق گیبی اولن جاهل ، عارفانه سوزلر سویلر که دائم رفعتده اوله . لکلك جاهلانه حرکت ایدوب کندوسن اویله گوسترر ، خلق یکا التفات اتمسونلر ، سفرمدن گیرو قالیم دیو . خلق ایسه قواغك سوزینه اینانور . لکلك سوزینه طعن ایدوب « بقه شونك سوزینه » دیوب تعییب ایدرلر . أما اهل اولنلر ایکیسنك ده سوزینه اعتماد ایتمیوب « بقه شونك سوزینه » دیو تعجب ایدرلر .

* * *

« یونس برسوز سویلمش ، هیچ برسوزه بکزه مز »
« مناققلر أوجندن أورتمش معنی یوزنی[1] »

(۳٤) حد ذاتنده یونس أمره حضرتلرینك بوسوزی گیبی سوز سلفده اولن مشایخدن صدوراتمامشدر . گرچه صورتا هزلیات وسخریات وملعبهٔ صبیانه بکزر اما باطنا عرایس الله اولن أسرار الهیه ومعانیٔ حقانیه ابکارینك یوزلرینه نامحرمدن ستر ایچون چکلمش «طواق» ونقاب گیدر .

(۱) نسخة : « أرنلر مجلسنده ، بولور معنی یوزونی » .

تاکه نامحرم گوزی گورمیه والی ازمیه . یونس أمریه بو بیت صحیح اولور که هربر عاشق بو عشقدن بز درلو نشان ویردی . إیمدی بری نشان ویرمدی نشانمدن ایلرو .

(۳۵) بو قصیده نك مثالی بوکه بکزرکه بوزا غونك بورننه کیرنی بورنسالق باغلرلر[1] ، تاکه آناسی دپسون امزرمسون دیو . ایمدی نامحرم اولنلره بوابیاتك معناسی سرینی ویرمزین دیر . بو قصیده اغرب الغرایبدن اولوب مثلی کلمدیکندن آنجق یونس قدس سره العزیز حضرتلرینه مخصوصدر .

---

(۱) باغلارلر .

عقد بيعة بولاية العهد

لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى

٢٣ ربيع الأول ٥٩٥ — ١٠ شعبان ٦١٠ ﻫ

٢٢ يناير ١١٩٩ — ٢٤ ديسمبر سنة ١٢١٣م

للدكتور حسين مؤنس

(١)

لم يوفق إلا القليلون من منشئ الحركات الدينية السياسية فى الاسلام إلى ما وفق اليه محمد بن تومرت . والمتأمل فى أقواله وأعماله يستبين منها أنه جمع فى شخصه خلالا كثيرة نادرة ، أهمها الايمان العميق فى نفسه وفى أن الله قد هيأه لأمر عظيم [١] ، ثم القدرة على التنظيم الادارى [٢] . ويلاحظ كذلك أنه امتاز الى جانب ذلك بحس سياسى مرهف ، وفهم دقيق للرجال ، وقدرة نادرة على السيطرة عليهم وتوجيههم [٣] .

وعلى الرغم من أنه لا ينتسب إلى إحدى القبائل المصمودية الكبيرة ، إلا أنه استطاع ، بذكائه وقدرته وبُعد نظره ، أن يسيطر على مجموعات قبائل مصمودة الكثيرة العدد التى كانت تسكن السوس الأدنى ومعظم النواحي الممتدة من المحيط الأطلسى عند مبادئ جبال درن (الأطلس) ، وتنتشر

---

(١) راجع رسائل المهدى إلى جماعة الموحدين فى : كتاب أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق (طبعة ليڤى پروڤنسال ، باريس ١٩٢٨) ، ص : ١ — ١٧

(٢) راجع تنظيمه لجماعات الموحدين ، فى كتاب البيدق الآنف الذكر ، فصل : « ذكر تمييز الموحدين على يد الامام المهدى ... » ص ٣٥ — ٤٨

(٣) ابن خلدون : « العبر » — (طبعة بولاق) ج ٦ ص ٢٣٦

حتى تصل الى سهل مراكش ، ثم تمتد في ذراع يتجه من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى حتى تصل الى ناحية تلمسان [1] .

ولسنا نجد بين فقهاء المسلمين جميعاً واحداً مثل محمد بن تومرت خلط بين المذاهب الاسلامية كلها هذا الخلط الغريب الذى يتجلى فى مذهبه وآرائه وأفكاره ، مما يدل على أن ذهنه لم يكن مؤهلا للفقه وما يتصل به من علوم : فهو يقول بالامامة وبعصمة الامام على مذهب الشيعة ، ويقول بالظاهرية ويكره التأويل على رأى أبي داوود وابن حزم ، ويتشدد فى العقيدة تشدد الحنابلة ، ويفهم التوحيد فهم المعتزلة ، ويذهب في كثير من المسائل مذهب الأشاعرة . وكتاباته الباقية بين أيدينا مثل « أعز ما يطلب » و « العقيدة » و« المرشدة » خليط غريب من مذاهب المسلمين كلها . وقد حاول «إجناتس جولدتسيهر» و«هنرى ماسيه» أن يستوضحا معالم مذهبه ، وخيل اليهما أنهما استطاعا . ولكن القارىء لأبحاثهما يتبين الافتعال في محاولة التأليف بين المتعارضات والتوفيق بين المتناقضات [2].

---

(١) راجع توزيع قبائل المصامدة فى الخريطة التى ألحقها ليفى بروفنسال بترجمته لكتاب البيدق ، أمام ص ٢٧٦

(٢) كتاب « أعز ما يطلب » يجمع آراء ابن تومرت الفقهية كلها ، ولدينا منه نسخة كاملة نشرها جولدتسيهر (الجزائر ١٩٠٣) وهو من إملاء خليفته عبد المؤمن ابن على نفسه على طلبة الموحدين ، وفى ختام آراء ابن تومرت الفقهية أورد عبد المؤمن ابن على نص « العقيدة » التى تعتبر الأساس المذهبي للموحدين (ص ٢٢٩ — ٢٣٨) ويليها « التنزيهان » وهما فصلان يسمى أولهما « توحيد البارى سبحانه » والثانى « المرشدة » (ص ٢٤٠ وما يليها) . ولابن تومرت « مرشدة » أخرى أوردها صاحب « الحلل الموشية » (طبعة علوش ، رباط سنة ١٩٣٦) ص ٩٦ وما يليها . وقد ترجم « المرشدة » الأولى جولدتسيهر ونشر الترجمة مع تعليق فى صحيفة جمعية المستشرقين الألمانية ، عدد ٤١ ، وعاد إلى الموضوع فى نفس المجلة عدد ٤٤ :

IGNATZ GOLDZIHER : *Materialen zur Kenntnis der Almohadenbewegung in Nordafrika*, *Z. D. M. G.* Band 41, 1887 S. S. 30-140

ثم عاد فكتب دراسة بالفرنسية عن محمد بن تومرت تعتبر كالمقدمة لكتاب «أعز ما يطلب » .

GOLDZIHER : *Mohammad ibn Tumart et la Théologie de l'Islam* Alger, 1903

وتناول هنرى ماسيه نفس الموضوع بعد ذلك فى :

HENRI MASSÉ : *La Profession de fois(aqida) et les guides spirituels (Morchida) du Mahdi ibn Toumert* ; dans : *Memorial Henri Basset.* (Paris 1928) pp. 105 *sqq.*

والواقع أن ابن تومرت كان رجل سياسة قبل أن يكون رجل دين ، والقارئ لكتاباته الفقهية ينبغى ألا ينسى أن الرجل كان يأخذ من كل مذهب ماعساه يفيده فى تحقيق مراميه السياسية ، وأنه لم يدرس هذه المذاهب دراسة الفقيه العالم ، بل ألم بها إلماما سطحياً سريعاً . فقوله بالامامة والعصمة هدفه التمكين لنفسه بين البربر وإيهامهم بأنه ينطق عن وحى إلهى علوى ، وبأنه معصوم من الخطأ ، فلا يجوز نقده ولا معارضته ، واتباعه لمذهب الظاهريين علته الرغبة فى تحدى المرابطين وفقهائهم ، وكانوا على مذهب مالك ، وكانوا يترخصون فى التأويل . وقوله « بالتوحيد » ، على النحو الذى بينه ، إنما كان دعاية سياسية ماهرة ضد المرابطين ، فقد رماهم بالتجسيم والكفر ، واعتبر نفسه وأصحابه أنصار «التوحيد» . وقد جازت هذه الدعاوى على معظم أهل المغرب فى زمانه ، فانضموا اليه ومضوا يحاربون المرابطين وكأنهم يحاربون كفرة مارقين . وما كان المرابطون إلا جماعة من أخلص من عرفهم التاريخ الاسلامى للعقيدة وحرمتها ، عاشوا للاسلام واستنفدوا قواهم فى الذياد عن حياضه .

والمهم عندنا أن « ابن تومرت » استطاع ، بدعوى التوحيد التى ابتدعها ، أن يجمع الناس حوله . وهداه حسه السياسى إلى تنظيمهم من أول الأمر . فاختار جماعة من المقربين إليه ومن رؤساء القبائل الضخمة القوية وجعل منهم هيئة رسمية عليا تدير أمور الجماعة كلها وسماهم « أهل عشرة » [1] . واختار خمسين آخرين من البارزين من رجال القبائل ذوى الأهمية الثانوية وكوّن منهم هيئة رسمية ثانية ، أشبه بمجلس للشورى وسماهم « أهل خمسين » [2] . وألزم الصبيان والناشئين والراغبين فى الانضمام للحركة بقراءة كتبه ورسائله وفق نظام معلوم وسماهم « الطّلبة [3] » . واختار رجال الادارة والمشرفين على سير الأمور فى النواحى من بين هؤلاء الطلبة ، فأصبحوا هيئة إدارية رسمية ثالثة تعاون الحكام على إدارة النواحى وتراقبهم فى أعمالهم . ووضع

---

(1) ويسمون أيضاً « أهل الجماعة » . البيدق ، نفس المصدر ، ص ٣٢

(2) نفس المصدر ، ص ٣٣

(3) وينطق اسمهم فى بعض الأحيان «الطُّلْبَة» وهى لهجة مغربية فى « طَلَبَة » .

نظاما ثابتا يتبعه كل من يريد أن ينضم إلى الحركة ويصبح فى جملة «الموحدين»، وهذا النظام شبيه بالامتحان ويسمى «بالتمييز»[1] وكل من مُيّز وثبت توحيده عد موحداً وسجل فى سجل خاص فى العاصمة والنواحى. ورتبت لهؤلاء الموحدين الأرزاق وفرضت عليهم الواجبات، وكانوا عمد الدولة ودعامتها فى القلب والنواحى، وكانوا عمد الحركة ومؤيديها وأنصار سياستها وسياسة رئيسها.

وعندما مات ابن تومرت قام بالأمر «طالبه» الأول وصفيه عبد المؤمن ابن على. ولما كان عبد المؤمن يعتقد اعتقاداً ثابتاً أن ابن تومرت هو الامام المهدى المعصوم الذى بعثه الله لإنقاذ الاسلام وقيادته، فقد اعتبر نفسه خليفته كما اعتبر أبو بكر الصديق نفسه خليفة الرسول، ثم أخذ لنفسه لقب الخلفاء وهو «أمير المؤمنين»، وأعانه الحظ بالاستيلاء على آخر معاقل المرابطين، فزاد جاهه وعلت مكانته، وأصبح جديراً بإمارة المؤمنين التى ادعاها، ومد سلطانه حتى وصل إلى قفصة من أحواز طرابلس، وقضى على بقايا دويلات الزيريين فى آشير وقلعة بنى حماد، وعبر إلى الأندلس وأدخل ما بقى للاسلام منه فى طاعته، وتصدى لما كان المرابطون قد تصدوا له من حرب النصارى، فلم تنته حياته فى ٨ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ/يونيه ١١٦٣ م إلا وقد صارت دولته إمبراطورية ضخمة عزيزة الجانب عظيمة الاحساس بتبعاتها، تقبض بيدها على مصائر الغرب الاسلامى كله من طرابلس إلى المحيط، ومن أحواز طليطلة إلى أقصى السوس الأقصى. ثم وضع لدولته من الأنظمة الادارية ما جعلها فى مقدمة دول العالم خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى)[2].

---

(١) البيدق، نفس المصدر: «ذكر تمييز الوحدين على يد الامام المهدى ...»، ص ٣٥ وما يليها.

(٢) ابن أبى زرع، روض القرطاس (إبسالا ١٨٤٣) ص ١٣٢ وما بعدها.
عبد الواحد المراكشى، (طبعة القاهرة سنة ١٩١٤) ص ١٠٧ وما بعدها.
ابن خلدون، «العبر»، ج ٦ ص ٢٢٨ وما يليها. الحلل الموشية، ص ١١٧
LÉVI PROVENÇAL: *La naissance d'un Empire: Ibn Tumart et Abd AlMu'min, Le Fakih du Sus et le Flambeau des Almohades*, dans: *L'Islam d'Occident*, (Paris 1948). pp. 256 *sqq.*

وخلفه ابنه يوسف (شعبان ٥٥٨ / يونيه ١١٦٣) الملقب بأبي يعقوب « فسار على منهاج أبيه وسلك سبيله واهتدى بهديه وسار بسيرته واقتدى بأفعاله ، وجمع أموالا كثيرة . وهو أول ملك من ملوك الموحدين جاز إلى جهاد ، فغزا بنفسه ورغّب عليه ، واقتنى الذخائر واستكثر من الجيوش والجنود ومهد البلاد ، وطاع له من بالعُـدوتين من العباد . وضخم الملك ، فكان ملكه من سُويْقة بنى مطكوك قاصية بلاد إفريقية إلى أقصى بلاد نون من أرض السوس الأقصى إلى آخر بلاد القبلة . وملك بلاد الأندلس من مدينة تُطيلة قاصية بلاد شرق الأندلس إلى بلاد شنترين من بلاد غرب الأندلس ، يجبى إليه خراج ذلك كله دون مكس ولاجور ، وكثرت الأموال في أيامه وتمهدت البلاد . . . »[1] وهكذا أخذت أسس دولة الموحدين ترسخ فى هذه المساحة الشاسعة . واجتهد أبو يعقوب فى الغزو والقيام على حراسة أراضيه . فلما توفي (فى ١٩ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م) خلف لابنه أبي يوسف يعقوب الملقب بالمنصور دولة تشمل الغرب الإسلامى كله وتؤمنه وتقود مصائره قيادة موفقة[2] .

والمنصور من غير شك أعظم ملوك الموحدين ، بل أعظم سلطان عرفه الغرب الإسلامى (عدا الأندلس) فى تاريخه كله : جمع فى نفسه من خصال الذكاء والنشاط وبعد الهمة والحمية ما رفع الدولة كلها إلى أوج رفيع . وكان ذو نفسه ميالا إلى العلم والفلسفة ، فكان مجلسه مجلس علم وفلسفة وفقه . كان من أصحابه وجلسائه ابن الطفيل وابن زهر وابن رشد ، وكان لا يؤمن بعصمة المهدى [3] ، وكان ظاهريا متشدداً ، وهو الذى انتصر فى « وقعة الأرك »

---

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣٥

(٢) إلى جانب المراجع العربية المشار اليها فى الحاشيتين السابقتين أشير إلى الفصل الذى تقدمه جوليان لدولة الموحدين ونظامها :

Ch. André Julien : *Histoire de l'Afrique du Nord* (Paris, 1931) pp. 402 sqq.

(٣) عبد الواحد المراكشى ، المعرب ، ص ١٥٧ — ١٥٨

(شعبان ٥٩١هـ/يوليه ١١٩٦م) وحاصر طليطلة بعد ذلك[1]، وكانت هذه آخر مرة حاصرها المسلمون فيها. ثم أراد تنظيم ولاية إفريقية (تونس) في أقصى شرق الدولة، فعهد إلى أبي محمد بن حفص شيخ قبيلة هنتاته، وابن أبي حفص عمر الذي استشهد في معركة «الأرك»، في حكومة الجزء الشرقي من دولته وجعل مركزه تونس، فكان ذلك مبدأ الدولة الحفصية، لأن أبا حفص وخلفاءه من بعده حرصوا أشد الحرص على أن يستبدوا بهذا الجزء الذي صار إليهم أمره. وحينما تولى «أبو زكريا» ورأى اضطراب دولة الموحدين في مراكش استقل بناحيته فقامت الدولة الحفصية فعلا، وهي في واقع الأمر استمرار لدولة الموحدين ومبادئهم ونظامهم[2].

وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر، الذي نورد نص كتاب بيعته الأولى هنا. كانت سنه يوم تولى سبع عشرة سنة، وكان عظيم المواهب، ولكن ظروفه لم تكن مواتية له، إذ أن ألفونس الثامن ملك قشتالة كان قد عول على الانتقام للهزيمة التي أصابت جيوشه على أيدي الموحدين عند «الأرك»[3] وتطلبت جبهة الاسلام في الأندلس مدد أعظيا، فجمع

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٣٨
ابن خلدون، تاريخ، ج ٦ ص ٢٤٤
وراجع عن علاقاته وعلاقات أبيه بالنورمانيين في إفريقية وصقلية:
Ch. A. Julien, *Hist. de l'Afrique du Nord*, p. 403 *sqq.*

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج ٦ ص ٢٧٥
ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤ (الذي نشره هويثي باسم «تاريخ الموحدين»)، ص ٨٧ وما بعدها. وترجمه إلى الاسبانية، ونشره بعنوان:
A. Huici, *El Anònimo de Madrid y Copenhague*. Madrid, 1917.
وانظر عن الأسس الموحدية لدولة الحفصيين:
Robert Brunschvig: *La Berbérie Orienatle sous les Hafsides* (Paris, 1940). Vol. I.

(٣) في ٣ شعبان سنة ٥٩١ هـ/١٨ يوليه ١١٩٦ م واسمها في الاسبانية (*Alarcos*) ولما كانت في الأندلس بلاد كثيرة بهذا الاسم، فقد كان من العسير تحديد موضعها بالضبط حتى استطاع زيبولد أن يحدد موضعها على مقربة من بطليوس.

جيوشاً ضخمة وأقبل يغازى بلاد المسلمين . ثم إن بنى غانية المسوفيين — بقية الدولة المرابطية — كانوا قد اعتصموا فى الجزائر الشرقية الأندلسية واشتدوا فى العيث بما استطاعوا نزوله من بلاد الموحدين فى شرقى الأندلس ، فغزوا إفريقية أكثر من مرة وأعانتهم على ذلك بقايا العرب الهلاليين ، وكانت جماعات كثيرة منهم لاتزال تقيم فيما بين الجزائر وتلمسان [1] ، فضاع جهد الناصر بين حرب بنى غانية والعرب ومحاولات إيقاف تقدم ألفونس الثامن فى بلاد الأندلس . وانتهى الأمر بهزيمة « العقاب » [2] التى كسرت ظهر الدولة الموحدية فبدأ انهيارها السريع بعدها مباشرة [3] .

(٢)

ونعود الى أيام المنصور — أبى الناصر — لأن الوثيقتين اللتين ننشرهما ترجعان إلى منتصف سنوات حكمه على وجه التقريب ، فنلقى نظرة عامة على أحوال دولة الموحدين فى ذلك الحين ، لنفضى بعد ذلك الى دراسة الوثيقتين .

بدأ أبو يعقوب المنصور حكومته فى جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ يونيه ١١٦٣ م . وكانت الظروف العامة تدل على أن المغرب الأسلامى مقبل على عصر طويل من الاستقرار والرفاهية ، فقد كان أبوه وجده قد مهدا أمر المغرب تمهيداً طيباً ، فأزالا ما كان قد بقى فى نواحى « آشير » وقلعة بنى حماد من بقايا الزيريين ، وكان عبد المؤمن وابنه يوسف كذلك قد كسرا

(١) انظر عن بنى غانية :

ALFRED BEL : *Les Banou Ghānya, derniers représentants de l'Empire Almoravide et leur lutte contre l'Empire Almohade.* Paris, 1903

(٢) فى صفر ٦٠٩ هـ / يوليه ١٢١٢ م . واسمها فى الاسبانية (Las Navas de Tolosa) . وتفاصيلها كثيرة فى مراجعنا المعروفة ، وانظر عنها أيضاً :

BALLESTEROS, *Historia de Espana*, II. p.

(٣) لم يشر إلى ذلك من مؤرخينا القدماء إلا :

ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥٨ وما بعدها .

وابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٢٤٩ — ٢٥٠

شوكة جماعات العرب الهلاليين من زغبة ورياح التي كانت قد احتلت المنطقة الواقعة بين جزائر بني مزغنا (الجزائر الحالية) وتلمسان ، واستبدت بنواحيها وقطعت الطريق وفصلت المغرب الأوسط عن المغرب الأقصى . فلم يزل عبد المؤمن ، ومن بعده ابنه يوسف ، يواليان الغزوات عليهم حتى ألقوا بيد الطاعة . واجتهد عبد المؤمن في نقل جماعات منهم الى المغرب الأقصى والأندلس ، وأوسع لهم المجال هناك ، وفعل ابنه يوسف مثل ذلك ، فخلا هذا الإقليم الفسيح من السكان تقريباً ، لأن بقايا الهلالية التي تخلفت فيه انجفلت بعد ذلك نحو الغرب والشرق ، واختفت في أهل البلاد شيئاً فشيئاً ، وأصبحت هذه المنطقة التي تقع « بجاية » في وسطها أشبه بالخلاء الذي لا يعمره أحد .

لهذا سكنت أحوال المغرب كله على أواخر أيام يوسف أبي يعقوب ، وسكنت كذلك رياح الفتن والمطامع في قلوب قبائل المغرب الأقصى بعد أن انقطع أمل آل محمد بن تومرت في السلطان ، ولهذا يصف ابن أبي زرع أيامه بقوله : « وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة حسنة ، صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والأندلس ، فكانت الظعينة تخرج من بلاد نون لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يكلمها » [1] . وفي كلامه مبالغة ، لأن هذا الوصف لا ينطبق إلا على السنوات الخمس الأولى من حكمه ، أي قبل أن تنجم فتنة بني غانية المايرقيين التي أفسدت أحوال المغرب الأوسط إفساداً تاماً .

وبنو غانية هؤلاء هم بقايا المرابطين ، وهم أولاد محمد بن غانية المسوفي ، من كبار أمراء الدولة المرابطية على أيام علي بن يوسف ، كان يلي له بعض نواحي قرطبة . فلما اضطرب أمر المرابطين في الأندلس ، وثار عليهم الناس هناك جمع محمد أهل بيته ورجاله وعبر إلى جزيرة ميورقة فاحتلها ، ثم استولى على منورقة ويابسة ، وبقي فيها يشهد الصراع بين الموحدين والمرابطين عن كثب . فلما أدال الله للموحدين من المرابطين ، ودان لهم الأندلس

(1) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٣ .

دعا في هذه الجزائر الشرقية لنفسه ولبني العباس على سنن المرابطين ، ثم خلفه ابنه أبو عبد الله فخيده أبو ابراهيم ، فجعل يتقرب من الموحدين ويهاديهم عليهم يتركونه فى أمان ، فتركوه على حاله ريثما تم استتباب الأمر لهم .
ثم أقبلوا فى أواخر أيام أبي يعقوب يوسف يطالبونه بالدخول فى طاعتهم ، وتردد فى ذلك واختلف عليه رجاله . ثم خلفه ابنه علىّ وكان من عتاة الناس ، ففكر فى أن يحتل من إفريقية هذه المنطقة الخالية التى تركها العرب ، ولعله كان يرجو أن يستعين ببقاياهم هناك على الاستيلاء عليها ، ومن ثم طرق « بجاية » في أوائل أيام المنصور سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م . واستولى عليها ، ثم أخلاها وعاد إليها بعد ذلك حوالى ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م .
وأصبحت المسألة مطاردة لا تنتهى بينه وبين الموحدين : كلما أقبلوا نحوه عاد إلى ميورقة ، فاذا انصرفت جيوشهم عاد . واستمر على ذلك أعواماً فسد خلالها أمر نواحى المغرب الأوسط فساداً تاماً بتوالى الحروب والغزوات والتخريب ، وأصبح جهد أبي يوسف يعقوب المنصور وابنه أبي محمد الناصر موزعا بين محاربة هؤلاء الميورقيين في إفريقية وألفونس الثامن فى الأندلس.
ولعل شيئاً لم يخضد قوتهم العسكرية مثل هذا التنقل المستمر بجيوشهم بين المغرب الأوسط وجبهة طليطلة وبطليوس فى الأندلس ، ففى رجب سنة ٥٨٥ هـ — مثلا — طرق «الميارقى» إفريقية ، فأسرع إليها المنصور ، فانتهز ألفونس الثامن الفرصة وهاجم مدائن شِلْب وبَاجة ويَابُرَة على الجبهة الغربية الأندلسية ، فعاد المنصور مسرعا إلى الأندلس فى سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠م ودفع ألفونس عن قصر أبى دانس وباجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة ، ثم عجل فى السنة التالية ٥٨٧ هـ/١١٩١ م إلى إفريقية ، فطرد ابن غانية عنها .
ويبدو أن هذا الجهد البالغ قد أضر بصحته ، فمرض مرضاً خطيراً أشفى منه على الموت ، وأراح بتلمسان فترة ، تحرك بعدها نحو مراكش محمولا على « أَجْرَوَاوْ » أى محفة . وقد كان لمرضه هذا رجة كبيرة

فى دولة الموحدين كلها ، حتى أطلق الناس على هذه السنة « سنة أجرواو » أى سنة المحنة [1] .

وصل المنصور مراكش وأبل من مرضه ، وأشرف عليه عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م . وهو فى حال من الخوف من أن يصيبه مرض كهذا جعلته يفكر فى تأمين العرش لابنه أبى عبد الله محمد ، وكانت سنه إذذاك عشر سنوات ، فجمع كبار رجال الدولة وأشياخ الموحدين وطلب إليهم أن يبايعوا لابنه من بعده . فبايعه رجال الحضرة — أى مراكش — وطولب أهل النواحى بإرسال بيعاتهم . والوثيقة الأولى التى أنشرها هنا إنما هى نص بيعة أهل قرطبة ونواحيها ، ولابد أن كل ناحية من نواحى الدولة المرابطية كان عليها أن تبعث مثلها . وأسلوب الوثيقة يدل على أن العرف فى دولة الموحدين جرى على أن تسارع النواحى بإرسال بيعات أهلها حالما تصلهم أخبار مبايعة أهل الحضرة .

---

(١) انظر عن هذه الحوادث كلها كتاب « ألفريد بيل » المشار إليه آنفاً . وانظر كذلك المراجع العربية المشار اليها فى التعليقات السابقة . ويضاف اليها هنا :

ابن الأثير ، الكامل ، (طبعة تورنبرج) ج ١١ ص ٣٣٤ وما بعدها .

السلاوى ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ص ١٦٥ وما بعدها .

كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار (طبعة فون كريمر ، فينا ، ١٨٥٢) ص ٣٢ ، ٩٩

البكرى ، صفة إفريقية والمغرب (طبعة دى سلين الجزائر ١٨٥٧) ص ٤٩

الأدريسى ، نزهة المشتاق (طبعة دوزى ودى غويه) ، ص ٥٢ ، ٨٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

Mercier, *Histoire de l'Afrique Septentrionale* (Paris, 1898) II p. 93 *sqq.*

Codera, *Decadencia y desaparición de los Almoràvides de España* pp. 70 *sqq.*

وتسمية تلك السنة « بعام أجرواو » ذكره ابن أبى زرع فى « روض القرطاس » ، ص ١٤٤ ؛ وأجرواو هى المحنة ، انظر :

Dozy: *Supplément aux Dictionnaires.*

مادة أجرواو .

(٣)

الوثيقتان

كانت دولة الموحدين قد وصلت فى ذلك الحين إلى درجة عالية من الانتظام الادارى ، فانتظمت إداراتها ورتبت سجلاتها وضبط ديوان إنشائها ووضع نظامه على أسس ثابتة . وكان يشرف على ديوان إنشائهم هذا نفر من كبار الناثرين الأندلسيين فى الغالب ، ويذكر لنا عبد الواحد المراكشى اثنين منهم توليا الكتابة للمنصور هما أبو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة . وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش أكبر كتاب الموحدين على الأطلاق ، وكلاهما أندلسي[1] .

ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى ، فى كلامه عن نظام مكاتبات ملوك الغرب : « والعادة الجارية فى الكتب الواردة عنهم أن تكون على نمط واحد من الورق مع تقارب الحال فى الترتيب ، وتكون كتبهم فى طومار واحد ، في عرض نحو شبرين ، فى طول ثلاثة أشبار . والبسملة بعد بياض نحو شبر وثلاثة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة ، والسطور منحطة الأوائل مرتفعة الأواخر ، حتى يصير البياض الذى فى أعلاها فى آخر سطر البسملة قدر شبر فقط ، وبين كل سطرين قدر عرض إصبع ونصف إصبع ، وكل سطر ينقص عن الذى فوقه قليلا من جهة اليمين على التدريج ، حتى يكون السطر الأخير قطعة لطيفة فى زاوية الطومار التى على اليسار من أسفل . ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله ، آخذاً من آخر السطر الأخير ، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدر رأس خنصر . ويبتدئ السطر الأول منها بقطعة لطيفة منحطة الأول مرتفعة الآخر ، ثم السطر الثانى قطعة أول من ذلك ؛ ولايزال

---

[1] عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٨ — ١٤٩

كذلك حتى يكمل السطر فيكتب أسطراً كاملة . إلا أنه فى أول كل سطر ينقصه قليلا عن الذى قبله ؛ حتى يكون السطر الأخير قدر الأنملة فى زاوية الطومار من جهة البسملة . ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدر أصبعين بياضا إلى سمت البسملة : أسطرا متضايقة حتى ينتهى إلى آخر الكلام ، ويكتب فى آخره بقلم الثلث : (وكتب فى التاريخ المؤرخ) ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف » [1] .

وقد كتب القلقشندى هذا الكلام عن المكاتبات التى كانت تصدر عن ديوان إنشاء الحفصيين فى تونس . ويذكر ابن خلدون فى كلامه عن تنظيم أمور الدولة الحفصية على يد عبد الرحمن بن أبى محمد بن أبى حفص، ثانى أمراء الحفصيين بتونس، أنه أخذ قواعد الديوان والمكاتبات والادارة فى كل شىء عن أنظمة دولة الموحدين فى مراكش [2] . ومن هنا نستطيع أن نقول إن كتب خلفاء الموحدين من بنى عبد المؤمن كانت تحرر على هذا النحو الذى وصفه القلقشندى ذلك الوصف الدقيق .

ولم تصلنا الوثيقتان اللتان أقدمهما فى هذا البحث فى صورتهما الأصلية ، بل فى نسخة منهما وردت فى مجموع من النماذج البلاغية محفوظة فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ٤٨٨ مخطوطات عربية . والوثيقتان بخط مغربى متوسط الجودة ، وطول الصفحة سبعة عشر سنتيمتراً وعرضها أحد عشر ونصفاً ، وفى كل صفحة سبعة عشر سطراً ، وفى كل سطر أحد عشر كلمة على وجه التقريب . وقد أصاب المخطوط عطب من أثر الرطوبة فى الغالب ، ولكنه مقروء إلا فى السطور الأولى من كل صفحة ، فقد انطمست الكلمات فى معظم الأحيان ، وتعذرت القراءة ، وقد أشرت إلى ذلك فى مواضعه ..

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) ج ٨ ص ٧٨ — ٧٩

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٢٨٠ — ٢٨١

والوثيقة الأولى هي كتاب بيعة أهل قرطبة ، وقد بعثوا به إلى الحضرة الموحدية في مراكش ، يوافقون فيه على بيعة أبي محمد بن أبي يوسف يعقوب المنصور لولاية العهد . ولم تكن قرطبة إذ ذاك عاصمة الأندلس الاسلامى ، بل كانت العاصمة إشبيلية . فيها كان يقيم عامل الأندلس للموحدين ، وإليها كان يقصد خلفاؤهم إذا أقبلوا إلى الأندلس ، ولهذا لم أستطع التعرف على شخصيات من وجهوا هذا الكتاب ، وكل ما تذكره النصوص هو أن عامل قرطبة في ذلك الحين كان اسمه محمد بن يوسف ، فلعله هو الذى كتب هذا الكتاب يعاونه كبار أهل البلد والموحدون وطلبتهم فيها .

ويبدو بوضوح من الوثيقة الثانية أن الأمر بأخذ بيعة الناس كان يصدر من قرطبة إلى الوالى و « طلبة » الموحدين في وقت واحد ، وكان على هؤلاء الطلبة أن يدعوا الناس إلى إجابة طلب البيعة ، بل يأخذونها عليهم ويقومون على ذلك حتى تتم بيعة الناس أجمعين ، فيتوجه نفر منهم إلى الحضرة بالبيعة ، فيبلغونها ويبشرون بها .

والظاهر أن « طلبة » الموحدين في قرطبة قصروا في أداء واجبهم هذه المرة ، فكتب إليهم ديوان الانشاء في الحضرة يستحثهم ويلومهم على التأخر. ولم يصل إلينا نص هذا الخطاب ، وإنما الذى وصلنا هو رد الطلبة عليه واعتذارهم عن التقصير والتأخير. وهذا الرد هو الوثيقة الثانية التى أنشرها هنا.

والوثيقتان على جانب عظيم من الأهمية التاريخية ، ففيهما من الاشارات ، والحقائق ما يعيننا على تعرف الكثير من أنظمة الدولة الموحدية في هذه الفترة، وقد بينت ذلك في مواضعه في الحواشى التى علقتها على النص .

(١) عقد بيعة أهل قرطبة

(١٥٩ ا) بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

« عقد البيعة المباركة السعيدة الأولى بولاية العهد لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، أدام الله علو أمرهم وسمو ذكرهم ، عن أهل قرطبة وأنظارها من الموحدين والعرب [١] والأجناد [٢] وأصناف الرعية ، وفق الله جميعهم. وذلك في العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة » .

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونؤمن به ، ونتوكل عليه ونشكره ولانكفره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده [٣] لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده الذى اصطفاه ، ونبيه الذى اجتباه ، ورسوله الذى أرسله . والحمد لله الذى رضى الاسلام دينا ، وثبت قواعده تمكينا ، وأوضح معالمه تبيينا ، وقدر فيه الامامة النبوية [٤] والخلافة المهدية العصمية [٥] ، علما

(١) هذه الاشارة إلى العرب تدل على أن الجماعة التى انتقلت إلى قرطبة منهم على يد عبد المؤمن وابنه كانت تتمتع بمركز كبير هناك . وفى تفاصيل موقعة « الأرك » وغيرها من المواقع التى دارت بين الموحدين والنصارى ما يؤيد ذلك .

(٢) تلاحظ هذه الاشارة الخاصة إلى الأجناد ، وقد كانت جيوش الموحدين مكونة من جماعات مختلفة أهمها عنصرا الأندلسيين والمغاربة ، وكان فيها كذلك أعداد عظيمة من السود والنصارى . ولم يكتب إلى الآن بحث عن أنظمة الدولة الموحدية ، والمعلومات عنها كثيرة ، وهى متفرقة فى تاريخ ابن خلدون وروض القرطاس لابن أبى زرع ، والجزء الرابع من ابن عذارى الذى نشره هويثى باسم « تاريخ الموحدين » ، ورحلة ابن جبير والمعجب لعبد الواحد المراكشى ، والاحاطة لابن الخطيب ، ونفح الطيب للمقرى ، وانظر كذلك عنها إشارات لا بأس بها فى :

José Alemany, *Milicias cristianas al servicio de los sultanes musulmanes del al-Magreb.* apud *Homenanaje a Francisco Codera* (Madrid 1904) pp. 133 *sqq.*

(٣) لاحظ تكرار التوحيد فى فاتحة الخطاب .

(٤) الامامة النبوية اصطلاح ابتدعه محمد بن تومرت ، راجع بيان ما أراده به فى كتاب « أعز ما يطلب » (طبعة جولدتسيهر سنة ١٩٠٣) ، فصل « الامامة » ص ٢٤٥ وما بعدها .

(٥) الايمان بعصمة المهدى أساس من أسس العقيدة الموحدية ، راجع « العقيدة » المشار إليها آنفاً .

[illegible] الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

عقد البيعة المباركة السعيدة الأولوية بولاية
العهد لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أدام الله علو
أمره وسمو قدره عن أهل قسنطينة وأنظارها من الموحدين
والعرب والأجناد وأصحاب الرتبة وبواديها جميعهم
وذلك في العشر الأواسط من ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين [illegible]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل
عليه ونشكره ولا نكفره ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ونشهد أن محمدا عبده الذي اصطفاه ونبيه الذي
اجتباه ورسوله الذي أرسله والحمد لله الذي رضي
الإسلام دينا وثبت قواعده تمكينا وأوضح معالمه تبيينا
وقرن به الإمامة النبوية والخلافة المهدية علما أظهره
من أعلامه وحكما أوجبه من أحكامه جعل بها أمور الملة
الحنيفية تحصينا وجعلها لمن حمله حبلها الشديد وأنزل
عليه كلمها المجيد معقلا أمينا وحرزا حصينا لتستوي به
الأمة في نظام وتطرد سياسة أهله على قوانين معتبرة وأحكام
مقررة أو تقع بها المعالم الدينية إتماما وتحصينا والمعايش الدنيوية

الصفحة الأولى من كتاب عقد البيعة ، وهى صفحة (١٥٩ — ١) من المخطوط رقم ٤٨٨ مخطوطات عربية بمكتبة الاسكوريال . وخط هذه الوثيقة والتى تليها يختلف عن خط بقية المخطوط .

أظهره من أعلامه ، وُحكما أوجبه من أحكامه ، حصن بها أمور الملة الحنيفية تحصينا ، وجعلها لمن ضمه حبلها الشديد وانسدل عليه ظلها المديد معقلاً أشبا وحصنا حصينا ، لتتسق بذلك مصالح الأمة فى نظام ، وتطرد سياسة الملة على قوانين مقدرة وأحكام ، تدبيراً أوسع به المعالم الدينية إتماما وتحسينا ، والمعايش الدنياوية (١٥٩ ـ ب) إحكاما وتزيينا ، وأوجب للقائم بها بحقها والمستولى عليها بشرطها طاعة بطاعته تعالى موصولة ، وحقا بحقه مقرونا ، وأتم إنعامه عليه وظاهرَ بكرامته لديه فأورثه أولا من مقام النبوة وآخراً من مقام الهداية إرثا مطيَّبا وحقا مستوجبا ، لاممنوعا ولاممنونا . نحمده حمد من أنعم عليه بالنظر إلى براهينه الواضحة ، والتدبر لآياته البينة اللائحة ، فأبصرها بعين قلبه حقا يقينا ، ونشكره شكر من لجأ اليه ، وعول فى جميع أموره عليه ، فأحله من كنف حماه ، وأباح له من نصَف نعماه [حصنا] منيعا ومعينا . ونصلى على محمد رسوله وعبده الذى اصطفاه وليا وابتعثه نبيا وأرسله أميا [1] ؛ ظهره تشريفا من العيب ، وأظهره تعريفا على الغيب ، فما كان على غيبه ظنينا ولا به ضنينا ، بل أبلغ فى الرسالة ، ونصح فى الهداية والدلالة ، واستنقذ من الغواية والجهالة ، واسترد عن التيه فى العماية والضلالة ، بما شرعه بأمر ربه مفروضا ومسنونا ، وأطلعه بما جاء عنه به برهانا قاطعا وفرقانا ونوراً مبينا .

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يصدع بنور الحق من ظُلَم الباطل دجونا ، كلما رفع من الاسلام شأنا وضع من الاشراك شؤونا ، وكلما أقر للايمان عينا أسخن للكفران (١٦٠ — ا) عيونا ، حتى أتم الله نعمته بكمال الدين ، وأقر عيون عباده المهتدين ، فجاءته البشرى من ربه إذ [انتقل] إلى جواره الأعلى ، وقربه فأرقاه مرتقى عليا ، وأحله مكانا مكينا ، وخيره فاختار الرفيق الأعلى مرافقا ومصاحبا وخدينا .

ورأى الصّديق رضى الله عنه خليقا بالقيام مقامه فى الصلاة وقمينا ، ورادّه أهله القولَ فى ذلك فردهم ، بعد أن علم صلى الله عليه وسلم باعتدائهم

(١) فى الأصل : أمينا ، وقد قومتها على هذا النحو لتتصل القافية .

فصدهم ، وقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » تخصيصا له بالكرامة وتعيينا ، واقتدى المسلمون به فى فعله ونعم القدوة ، فرضوه لدنياهم إذ كان قد رضيه لدينهم ، فسكنوا إليه سكونا . ووضعوا أيمانهم فى يمينه الكريمة ، بوركت على الاسلام يمينا ، فصارت هذه سنة العقد بالاجماع أمراً مبرما وحبلا متينا [1] .

واستخلف ، رضى الله عنه ، الفاروق قويا فى دين الله أمينا ، فأطلع منه على آفاق الاسلام بدرا منيرا وغيثا هتونا ، وتلقى الأمر بالقوة وخلوص النية فلم يُرَ إلا معانا أو معينا ، ودون الديوان ووضع الخراج ومصر الأمصار وفتح الفتوح شمالا ويمينا ، وصارت هذه أيضا سنة العقد بالاستخلاف قصدا أمما ميمونا ومركبا أمونا [2] .

(ص ١٦٠ — ب) صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأكرمين الأرشدين ؛ الذين عمروا ببيعة الرضوان من معاهد الايمان صفا وحجونا ، واشتروا ببيعهم الذى بايعوا عليه حظا لامبخوسا مشتريه ولا مغبونا ، واعتاضوا من النفوس والأموال عوضا لامعدولا بعظيم من أمر الدنيا ولا مثمونا ، وعلم الله تعالى مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم الفتح قريبا ، ووعدهم أضعافه كاليا مضمونا .

---

(١) لاحظ النص الواضح هنا على اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر خليفة رغم معارضة أهل بيته ، والمقصود بهذا النص اقناع الناس بأن ابن تومرت حينما اختار عبد المؤمن لخلافته فى قيادة الدعوة إنما تقلد سنة الرسول ، والمراد بهذا محاربة الدعوى التى كان ينادى بها آل محمد بن تومرت والتى قضى عليها عبد المؤمن بن على وبنوه بالقوة ، ويفهم من النص عليها فى هذا التاريخ أن أهل تينملل — وهم آل محمد بن تومرت — كانوا لا يزالون يطالبون بحقهم .

(٢) هذه أيضاً إشارة لها مغزاها ، فهى تشير إلى شرعية نص الخليفة على من يخلفه ، والوثيقة التى ننشرها إنما هى وثيقة استخلاف .

ورضى الله عن الإمام المعصوم المهدى المعلوم سر الوجود وبشارة جده صلى الله عليه وسلم[1] الظاهرة لوقتها الموعود كنزا كان مذخورا ، وجوهرا من نور النبوة مكنونا ، وذلك عندما انسحبت أذيال الضلال ، وطلعت نجوم الدين كاسفة مما انسدل عليها من أغطية المحال ، واشتعلت أقطار الأرض فتونا ، واستولى الولاة الطغاة وملك الأملاك البغاة يتسارعون فى سبيل الغى سباقا ويتنازعون من أحاديث النكر شجونا[2] ، فيستبيحون ما كان محرما ويهينون ما كان معززا ويزيلون ما كان مصونا ، فأحيا الله به من معالم الدين ما قد كان دفينا ، وعادت الحنيفية السمحة إلى قويم مجراها وشيدت وشدت (ص ١٦١ — ا) [ ][3] وعن الخليفتين الأكرمين الطاهرين العلمين اللذين ورثا من أنواره العلمية وأسراره الحكمية علما كان لهما مخزونا[4] ، فأوسعا الدين والدنيا نظرا كان بالنجاح كفيلا وللصلاح والإصلاح ضمينا ، وأمد الله من استرعاه عهدهما واستخلفه فى الأرض بعدهما ، سيدنا ومولانا الإمام الأهدى الخليفة العدل المرتضى ، نور الحق المشهور وسيف الله المنتضى ، أمير المؤمنين أبو يوسف ابن سيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين أعز الله أمره وفسح للاسلام وأهله عمره ، بما مده من ظلال العدل والأمان ، وبثه من أنوار الهدى والإيمان ، بصنع يجنيه من ثمر النصر والفتح فنونا ، ويجعل سعيه الكريم للتوفيق لزيما ولليمن عتيدا وللسعد قرينا .

---

(١) اصطنع محمد بن تومرت لنفسه نسباً يرتفع إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان يقول فى كتبه : « من محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الحسنى الفاطمى المحمدى » .

راجع رسائل ابن تومرت فى أول : « كتاب أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى البيدق » (طبعة ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨) : ص ١١

(٢) المراد هنا المرابطون ، راجع الرسالة الأولى من رسائل المهدى فى كتاب البيدق الآنف الذكر ، ص ١ وما يليها .

(٣) بياض بقدر سطر ، هو السطر الأول من ص ١٦١ — ا من المخطوط ، وهو مطموس تماماً .

(٤) المراد هنا عبد المؤمن بن على وابنه أبو يعقوب يوسف .

وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها، حرسها الله، من الطَّلَبة[1] والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية من حاضر منهم ومن باد، أجمعوا بتوفيق الله وعونه وإحسانه العميم ومَنّه، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد السيد الأوحد الأكمل المرجو لعهد أمير المؤمنين، المؤهَّل المؤمَّل الحائز لشرف الانتساب، الموفى بحسبه الكريم ومجده الصميم على الأحساب، فرع الشجرة المباركة الطيبة الانتماء، التى أصلها فى مقر الهدى ثابت وفرعها فى السماء، نجل الخلافة الأطهر، ونور الامامة الأزهر، الذى نشأ فى حجر العلى مربوبا بثدى الندى والهدى، حتى وافى مترعرعا مستوليا على كل غاية من الفضل ومدى، أبو عبد الله محمد ابن سيدنا الامام المنصور، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى، أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين، أعلى الله أمرهم وأسماه، كما أعز بهم جانب الإسلام وحماه، وذلك عند ما ورد عليهم وصح لديهم ما كان من إجماع من بالحضرة الامامية العلية[2]، كرم الله آثارها وأعلى منارها، من إخوانهم «الموحدين» الذين هم طائفة الحق وأنصار الدين، على سؤال سيدنا ومولانا أمير المؤمنين والرغبة إليه وإعادة الطلب له[3] ثقة بما رجوه من الإسعاف لديه فى أن يعلق أيمانهم من هذا الأمير السيد السعيد بيمين، ويحتله عهده الكريم بتخصيص له لذلك المقام العظيم وتعيين.

وإن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (١٦٢ — ا) أعلى الله أمره وشريعته، بما جعل الله إليه من قبض الأمور وبسطها، وملكه إياه من إمضاء العهود وربطها، وأوجب عليه من النظر للأمة فى يومها وغدها، والتحصين[4]

---

(١) لاحظ الاشارة الواضحة إلى «الطلبة» كأنهم طائفة متميزة بنفسها عن بقية الموحدين.

(٢) المراد هنا حضرة مراكش.

(٣) أى أن الرعية هى التى طلبت اليه أن يبايع لابنه من بعده.

(٤) فى الأصل: التحسين.

لها وعليها فى أقرب الآماد وأبعدها ، وبما علمه من صدق نيات الطالبين فى مطلوبهم ، وخلوص غيوب الراغبين فى مرغوبهم ، وأنهم مع ذلك هم الطائفة التى مطالبها خليق أن يصاحبها التوفيق ويكانفها ، وآراؤها جدير وحقيق أن تلازمها العصمة ولا تخالفها ، رأى إسعاف رغباتهم وتيسير طلبتهم ، وكل لهم إراداتهم ، وأسعدهم على الأمر المؤذن بكمال سعاداتهم ، لما اجتمع فى ذلك من أسباب الصلاح واقترن به من لوائح النجاح ، فبايعوه بمقتضى أمره العلىّ ، وبنصه الواضح الجلى ، بيعة مباركة سعيدة ، استقبلوا بها آمالا فسيحة مديدة ، وأعمالا من البر والتقوى جديدة ، انسكبت بها عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وانسحبت فواضل الانعام والاحسان ، وازدادت بهاء وجمالا معالم الاسلام والايمان ، فانعقد بها الاجماع ، [١٦٢ — ب] ووجب البدار إلى التزام حكمها والاسراع ، وبادر جميع من ذكر فى صدر هذا الكتاب من أهل قرطبة وأعمالها ، من الطلبة والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية من حاضر منهم ومن باد ، وفقهم الله أجمعين ، بادروا إلى التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فبايعوا للأمير الأجل السيد(١) السعيد الأوحد الأكمل الأفضل ولى العهد الكريم ، وذى المجد الصميم ، أبى عبد الله محمد ابن سيدنا أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين ، بيعة إخوانهم الموحدين على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من غيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمائرهم ، وتوافق من بواطنهم وظواهرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من السمع والطاعة فى السر والجهر والمنشط والمكره والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالاة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفقة قلوبهم وأيمانهم ، وعهدة إسلامهم ، وإيمانهم ، وخالصة سرهم وإعلانهم ، لا يحلون (١٦٣ — ا) [ ](٢) ولا يتحولون

(١) لاحظ استعمال لفظ « السيد » كلقب من ألقاب الأمراء عند الموحدين . هذا الاستعمال هنا اصطلاحى .

(٢) بياض بقدر نصف سطر فى أعلى الصفحة . وهو مطموس فى الأصل .

عما اعتقدوه منه أبدا، معتقدين أنها إن شاء الله بيعة رضوان وجُنَّة أمان، وعارفة حُسن وإحسان. أشهدوا الله على أنفسهم بمضمونها طائعين، وكتبوا عليه خطوط أيديهم على أحوالهم الموصوفة مبادرين ومسارعين، والله يُعرفهم خير ما أبرموه ويمن ما أحكموه، إنه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير وإليه المصير، وهو نعم المولى ونعم النصير. وعلى ذلك كتب اسمه فى العشر الأوايل من ذى القعدة من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة فلان بن فلان وفلان ابن فلان[1] وتتابعت الأسماء حتى كملت أسماء الحاضرين من أهل الحاضرة والمستنفرين من أهل البادية والحمد لله رب العالمين.

(ب) كتاب هيئة طلبة الموحدين بقرطبة الى الحضرة الامامية بمراكش

(١٦٣ ب) نسخة الكتاب المتوجه مع البيعة المباركة، وهو الجواب على كتاب الحضرة الإمامية أيد الله أمرها وأعز نصرها.

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم

الحضرة الامامية العلية، المعظمة المكرمة السنية، الطاهرة القدسية، معلية منار الأسلام وممضية أحكام الخلفاء الكرام والأئمة النصحاء الأعلام فى تحسين النظر لأمة محمد، عليه أفضل الصلاة وأطيب السلام، حضرة سيدنا ومولانا، الامام الأهدى الخليفة المرتضى، نور الحق المشهور وسيف الله المنتضى، أمير المؤمنين ابن سيدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين ابن سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين، قرن الله أمرهم وعمرهم بالدوام، وزين عقدهم وعهدهم بالاتساق والانتظام، وأطلع بدور سعدهم وشموس مجدهم على أجمل أحوال الكمال والتمام، كما جعل لهم عواقب الأيام، وفرض

---

(١) لم ير مؤلف هذا المجموع من النماذج البلاغية ضرورة لذكر الأسماء فأغفلها، فضيع علينا بذلك فوائد تاريخية عظيمة القيمة. وقد فعل ذلك فى معظم النماذج التى أوردها، وفعل فعله كثيرون من كبار مؤلفى الكتب الأدبية الكبرى كابن بسام فى الذخيرة والقلقشندى فى صبح الأعشى.

طاعتهم على كافة الأنام . من عبيدهم[1] المتلقين لأوامرهم العلية بالسمع والطاعة ، الممهدين لدينهم ودنياهم بصدق الاجابة والانابة ، لما أهيب بهم إليه وحضوا عليه من الالتزام لقوانين الشريعة والانتظام فى سلك الجماعة ، المبادرين لاغتنام حظوظهم من الخيرات المشاعة والمسرات المذاعة ، الذين (١٦٤ — ا) نشأوا فى حجور الخلافة السعيدة وتحت أروقة عزها المديدة ولدانا يربيون ، وهاهم متكلين في فواضل نعمها العميمة وطوايل كرمها الجسيمة يترددون ويتقلبون ، الطلبة الذين بقرطبة : سلام طيب مبارك كريم عميم ، روحه نسيم وورده تسنيم ، تتجلى بالبشاير غرره ، وتتصدى فى أجمل المناظر صوره ، على[2] الحضرة الامامية العليا ، والمثابة التي أشرقت بأنوار هديها القويم وآثار سعيها الكريم أقطار الدنيا ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى أعلى كلمة التوحيد ، ورفع مبانيها المؤشبه المحصنة ومغانيها المنجدة المحسنة على قواعد التمكين والتمهيد ، واختار لطائفته السعيدة ، لما أمضى عزائمهم وجمع قلوبهم على ابتغاء الحظ الذى يعمهم بنفعه ، وسؤال الأمر الذى يضمهم بجمعه اختيارَ الموفق ، وعصم آراءهم بنور التحقيق من ظلم التشكيك والترديد ، وشد أزرهم وأيد أمرهم بالظافر الميمون والنيِّر السعيد ، وأفضى بعهدهم منه الى الكفى الكفيل والولى الحميد ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله وعبده المخصوص من بين الأنبياء بأولية السبق المعنوى والشرف التليد ، فقد كان صلى الله عليه وسلم نبياً وآدم بين الماء والطين ، يتردد من أطوار الخلقة بين تصويب وتصعيد ، ثم أرسله لما كلت بفضل الله تصفيته ، وأعقبت دعوات الرسل دعوته مؤيداً بالبرهان الباهر والقرآن المجيد ، حائزاً لقبول الشفاعة وإيجاب الوسيلة لعاقبة الشرفين (١٦٤ — ب) [ ][3] وصحبه الأكرمين ، الذين جلت مناقبهم عن الاحصاء والتعديد ، وأعطوه صفقة أيمانهم مبايعة على السمع والطاعة

---

(١) المراد بالعبيد هنا الطلبة .

(٢) أى سلام على الحضرة .

(٣) بياض بقدر سطر ، فى أعلى الصفحة .

فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، حازوا بها من سوابق الفضائل وسوامق الرتب الجلائل ، ما ليس فوقه من مزية ولا بعده من مزيد ، والرضا[1] عن الامام المعصوم المهدى المعلوم بأوضح الدلائل وأصح الأسانيد ، الصادع بالحق والقائم بالصدق هادماً من أركان الباطل كل ركن مشيد ، منتهضاً بأمر الله ذا عزم ماض وأيد شديد ، فأعاد الحنيفية السمحة إلى مهيعها القويم ومنهجها السديد ، وعن الخليفتين[2] الأكرمين الطاهرين العلمين ، اللذين سارا يهتديان ويهديان بمنار هديه اللاحب ، ويقتفيان ويقفيان لآثار سعيه الصائب ، مستألفين على أمر الله كل نافر شريد ، ومناضلين عن دين الله كل باغ عنيد، تارة بالقول السمح السهل وآونة بالسطو المبير المبيد ، والدعاء[3] لوارث مقاماتهم وحائز كراماتهم مستولياً من غايات السبق والتبريز وإحراز خصال المؤهل المرتضى لحمل أمانة هذا الأمر العزيز (١٦٥ — ا) [ ][4] والإمام الخليفة المنصور المؤيد المعان الموفق المسدد أمير المؤمنين ابن سيدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين ابن سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين ، المتلقى لأمر الله إذ أصار خلافته إليه، وجمع القلوب فى التخير لها والانتقاء عليه بالذراع الرحب والباع المديد ، بصنع يتكفل له بدوام النصر والتأييد ، ويعرفه فى نعم الله التى قبله ومنحه التى خوله صلة السالف منها بخالف والقديم بجديد ، وللأمير[5] الأجل السيد السعيد الأكمل الأفضل سليل مجده الصميم وولى عهده الكريم ، أبى عبد الله بما يبلغ به من مزايا الرضى والتنفيذ للأقدار على وفق إرادته والامضاء مالم يبلغه أمل آمل ولا إرادة مريد.

وكتب عبيد الحضرة الامامية العلية ، والمثابة الطاهرة القدسية ، كتب الله لها يمن المساعى والمقاصد ، وأمدها بالسعد المساعد فى المصادر والموارد ، وأبقاها ولديها من دلايل صنع الله لها فى شد أزرها وعضد أمرها أدل الدلايل وأعظم الشواهد ، من قرطبة حرسها الله والبشاير قد شدت

---

(١) أى : وبعد الرضا .

(٢) أى : وبعد الرضا عن الخليفتين .

(٣) أى : وبعد الدعاء .

(٤) بياض بقدر السطر الأول من الصفحة .

(٥) أى : والدعاء للأمير .

(١٦٥ — ب) [ ][1] والتأمت شواردها فى اتصال
واتساق ، وأنوار الهدى وأسرار الأمر الأعلى قد تبلجت فى ظهور وإشراق ،
والنفوس قد تملكها من الأفراح وسرى فيها من الاهتزاز والارتياح مالا تبلغ
صفته باطناب فى الشرح ولا إغراق .

والحمد لله رب العالمين على ما كمله من أسباب الائتلاف ، وتممه من مضاء
العهد الكريم والاستخلاف ، وأبرزه للعيان مما[2] كان فى كفالة الوعد الالهى
والضمان ، مؤقتاً له وقته الذى قدر كونه فيه على أحمد الأحوال وأجمل
الأوصاف ، حمداً يستغرق حمد الحامدين صدوره وأوائله ، وتدلى بسبب
متين إلى رتب المصطفين المقربين تواليه وفواضله ، ويكون لكل نعمة مستفادة
وإن عظمت عديلا وكفياً ، ولكل زيادة مستزادة وإن كبرت ملياً ووفياً .

وإن الكتاب الكريم ، كتاب سيدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين
شكر الله أنعامه ، ووصل بالسعد أيامه ، وصل إلى العبيد مبشرا بما أجمع
عليه الكافة من إخوانهم الموحدين ، طائفة الحق وأنصار الدين ، وخلاصة
عباد الله المهتدين ، أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه من الرغبة فى البيعة
المباركة السعيدة ، وإخلاص الطلب لعقد شرايطها الموثقة الأكيدة (١٦٦ — ا)
[ ][3] فان أمير المؤمنين [وولى] رب العالمين ، أيد الله أمره
وأعز نصره بما أطلعه الله عليه من صدق نياتهم وأراه إياه من خلوص
ضمايرهم وطوياتهم ، وهم الطائفة المرضية المتخيرة ، والجماعة المهدية المستبصرة ،
وبما جعل الله تعالى أيضا لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين من أمور العقد والربط
وملكه من أحكام القبض والبسط ، رأى إسعاف رغباتهم وتيسير طلباتهم
وتكميل إراداتهم ، وإسعادهم بالحظوة الموجبة لسعاداتهم ، فبايعوا للامير الأجل
الملك السعيد السيد الأفضل النير الأتم الأكمل سليل الخلافة الأطهر ونور
الامامة الأظهر ، أبى عبد الله محمد ابن سيدنا أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير

(١) بياض بقدر السطر الأول من هذه الصفحة فى الأصل .
(٢) فى الأصل : من ما .
(٣) بياض بقدر السطر الأول من هذه الصفحة فى الأصل .

المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين الكريم عرقا ونسبا ، العالى نجاراً ومنصبا ، المستولى على غايات الشرف التليد والطريف : العلم المعروف قبل دخول أدوات النعت والتعريف ، بسط الله ظله على العباد والبلاد ، وشد أمره وأعز نصره بالعدد من عالم أمره الآلهى والأعداد ، وبلغ به أفضل ما يؤمله ويؤمله المخلصون له من أمل ومراد ، وحفظ من نوره الباهر الذى أشرق ، وغصنه الناضر الذى أثمر بالبركة وأورق [1] ما هو سام فى اعتلاء ونام فى ازدياد ، بايعوه (١٦٦ — ب) [ ] [2] .

وصحة من البصاير على أكمل عقود البيعة وشروطها ، وأتم حقوقها الواجبة وربوطها ، وأهيب بالعبيد إلى ورود مناهلها السايغة المعينة ، والادراع لجنتها السابغة الحصينة ، والاعتلاق بحبالها القوية المتينة ، والاستضاءة بأنوارها المشرقة المبينة ، فحين ورود هذه المسرة العظمى عليهم ، وحلول وافد البشرى بها لديهم ، أجابوا على الفور مهطعين ، ولبوا فى الوقت متزعين ، وأعطوا صفقة قلوبهم وأيمانهم مستبشرين ، لجميع ما ألزمه إخوانهم الموحدون من شروط هذه البيعة المباركة ملتزمين ، وللوفاء بعهودها والقيام بحدودها مستشعرين ، وما تقدمهم فى هذا المضمار الكريم من تقدم فيه بنية سبقت عقودها عليه ، ولاهمة طمحت قديما طوامحها إليه ، إذ كان هذا هو مرغب العبيد ومبتغاهم ، ومطلبهم ومتمناهم وموددوهم ومؤملهم ومجملهم من أنواع الرجاء ومفصلهم ، إليه كانت هممهم أبدا طامحة ، وفى رياض الأمل له كانت قلوبهم قديما سارحة ، فأخرهم عن إظهار التقدم بالفعل إليه سابق الأقدار [3] وما منوا به (١٦٧ — ا) [ ] [4] .

(١) هذه الكلمة مطموسة فى الأصل بسبب نقطة حبر سقطت من الناسخ .

(٢) بياض فى أول الصفحة .

(٣) هنا يعتذر طلبة قرطبة عن تأخرهم فى إرسال بيعتهم الخاصة بهم مع البيعة الكبيرة التى أرسلها أهل قرطبة ، ونصها فى الوثيقة الأولى . والظاهر أن التقليد جرى بأن يرسل الطلبة بيعتهم فى نفس الوقت الذى ترسل فيه بيعة أهل الناحية ، فتأخر هؤلاء لسبب ما ، وهم هنا ينسبون التأخر إلى الأقدار وإلى ما أصابهم فى ذلك الوقت .

(٤) بياض بقدر سطر .

قد أكمل الله تعالى من ذلك ما أعظم النعمة به على جميع المؤمنين ، فالحمد لله رب العالمين :

ذاك الذى كنا نؤمل أن نرى   لاح الصباح لنا فأحمدنا السرى

ثم إن العبيد تقدموا لاشاعة البشرى بأتم ما تكون به الاشاعة ، وإذاعة خبر النعمى على أوفى ما تترتب عليه الاذاعة [1] ، أكمل بشرى سفر عنها سفير ، وأعظم نعمى أخبر بها خبير ، تهللت لها الوجوه والأسرة ، واهتزت لذكرها المنابر والأسرة ، واعتز بها ركن الاسلام وجانبه ، وذل شانيه ومجانبه ، واستظهر بها الأمر الأعلى على عداه ، وأشرق نوره الأجلى وانفسح مداه ، وما كان الله ليعدل بها عمن [2] أهله لها فى الأزل وارتضاه ، وأنفذ له بها حكمه السابق وأمضاه ، فهو كان أحق بها وأهلها :

ولم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها

ثم إن العبيد تقدموا فى أخذ العهد الكريم على كافة من قبلهم وفى جهتهم من الموحدين ، أعانهم الله ، والعرب والقواد والأجناد ، وسائر طبقات الناس والخاصة والعامة والحاضر والباد ، وعقدوا بذلك عليهم عقداً مباركا توثق مبناه وحسن إن شاء الله [3] [١٦٧ — ب] [ ] [4] لداعيه ، وسارعوا من كل قطر إلى كتب أسمائهم وإثبات شهاداتهم فيه ، وأبكار المسرات تؤكد عقدها ، وخواتم البشائر تؤدى ما عندها ، وكؤوس التهانى تدور ، ووجوه الآمال لها سفور .

وتمشى العمل فى ذلك أياما ، ود العبيد أن لو كانت أعواما ، رغبة فى الاستمتاع بما أبدته من محاسن صور الجلال والجمال ، وحرصاً

---

(١) من هنا يفهم أن الطلبة كانوا مكلفين بإذاعة مطالب الدولة بين الناس والدعاية لها وحضهم على إجابتها . وهم يؤكدون هنا أنهم قاموا بواجبهم من هذه الناحية .

(٢) فى الأصل : عن من

(٣) هذه العبارة على جانب عظيم من الأهمية ، فهى تدل على أن الطلبة كانوا مكلفين بأخذ بيعة الناس فى العاصمة والنواحى ، أى أنهم كانوا عماد الدولة والدعوة .

(٤) بياض بقدر سطر فى أول هذه الصفحة من الأصل .

على الاستزادة مما أهدته من طرائف ثمر الاحسان والاجمال ، فكأنما كانت أيام أعياد العمر قد نظمت لهم في عقد ، ونسقت فيما قبلهم على سرد ، فالله تعالى يعرّف سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أعلى الله أمره وأعز نصره ، وولىّ عهده الكريم — أنمى الله سعده وأسمى جده — بركة هذا العقد الكريم ويمنه ، ويُسبغ به على كافة المؤمنين إنعامه الجسيم ومنته ، وجزى الله سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أفضل جزاء ، مَن نظر للأمة الاسلامية والملة الحنيفية بأحسن النظر لليوم والغد ، وشفع اليد السالفة العظمى عندهم بمثل هذه اليد . وله ، بَعدُ ، بفضل الله وكرمه من طول البقاء واتصال العلو فى درجات الكمال والارتقاء وحراسة (١٦٨ — ا) [ ][1] العظيمة ، وإدرار البركات الجسيمة ، ما يُربى شأوه الكريم فيه على السابقين الأولين ، ويوفى عمله فيه على أعمال المحسنين المجلين ، إن شاء الله . وله فى فعل من فعل مثل فعله من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين أفضل قدوة ، آثر الاقتداء بها إسعافا عند الرغبة والسؤال وأكرمُ أسوة تأسّى بها ، إفاضةً للاحسان والاجمال . والعبيدُ ، بعدُ ، منتهون إلى ما أمروا به من ربط أمور مكانهم [2] ، ومبادرون إلى الباب الكريم فى جماعة [3] إخوانهم تهفو بهم هبّات المسرة والارتياح ، ولو تمكن لهم لركبوا إسراعا أجنحة الطير أو متون الرياح ، والله تعالى يوردهم من باب الحضرة الامامية العلية أفضل مورد ، وينيلهم من قبولها وإقبالها كل حظ مُسعِد ، ويجعل بيعتهم المباركة التى أحكموا عقدها والتزموا عهدها بيعة رضوان وجُنَّة أمان وعارفة حسن وإحسان ، بمنه وفضله وجوده وحوله .

---

(١) بياض بقدر سطر فى أول هذه الصفحة من الأصل .

(٢) عبارة هامة تدل على اتساع مدى المهام التى كان الطلبة مكلفين بالقيام بها .

(٣) أى أنهم متوجهون عن قريب إلى الحضرة ، ويغلب على الظن أن الذهاب إلى العاصمة كان من واجباتهم ليؤدوا حسابا عما بيدهم من أعمال أو ليقوموا بالتهنئة وليشتركوا فى الاحتفالات والمناسبات الرسمية وما إلى ذلك .

وكان بعد هذا دعاء للحضرة الامامية يليق بمقامها العظيم لم يثبت فى المبيضة ولم أذكره عند نقل المبيضة إلى هنا لبعد العهد بذلك التاريخ إذ كان نقل المبيضة في شهر رمضان المعظم من سنة تسعين وخمسمائة ولم أذكر شيئاً من الدعاء الثابت فى آخر كتاب البيعة [1] .

(1) هذه العبارة الأخيرة تدل على مصنف هذا المجموع من النماذج البلاغية والرسائل الرسمية كان ينقل عن المبيضة الرسمية أن التى أرسلت إلى الحضرة المراكشية ، وعلى أنه نقلها قبل أن تتم كتابتها ويثبت فيها الدعاء الأخير للحضرة . وقد نقل الصورة فى ورقة ثم عاد فأثبتها فى الكتاب بعد حوالى خمس سنوات . وذلك كه يزيد فى قيمتها التاريخية ، ويؤكد أنها صورة أمينة من الخطاب الذى أرسل لا ينقصها غير الدعاء الأخير والأسماء .

العدد فى اللغــــة العربية

للدكتور فؤاد حسنين على

اختلفت تعاريف العرب للعدد فمن قائل : إنه الواحد وما يتحصل منه ، ويقصد هنا الواحد ، والكسور . وأولئك الذين يقولون بهذا التعريف يختلفون حول : الواحد : فمنهم من يقول : إن الواحد ليس عدداً إذ نسبة الواحد إلى العدد كنسبة الجوهر الفرد إلى المادة : نعم انه الاساس لكل الأعداد إلا أنه ليس عدداً .

وتعريف آخر يعرض للعدد من حيث الكم : فالعدد هو الكمية المتألفة من الوحدات : أو : الألفاظ الدالة على الكمية بحسب الوضع .

ويخرج هذا التعريف الكمى : واحداً : و : اثنين : من الأعداد وذلك بدليل اننا عند الاجابة عن السؤال المصدر بكم مثل : كم رجل جاء ؟ لا نجيب بالعددين : واحد : أو : اثنين : بل تقول : رجلٌ : أو : رجلان .

وتعريف ثالث للعدد وهو : ما وضع لكمية الآحاد ، ومن خواصه مساواته لنصف مجموع حاشيتيه المتقابلتين ، ومعنى التقابل أن تزيد العليا عليه بقدر نقص السفلى عنه كالاربعة فان حاشيتيها إما خمسة وثلاثة أو ستة وإثنان أو سبعة وواحد ونصف مجموع كل متقابلين من ذلك : أربعة :

مثلا ٤ = $\frac{٣ + ٥}{٢}$ أو $\frac{٢ + ٦}{٢}$ أو $\frac{١ + ٧}{٢}$

ونحن هنا لا نعنى كثيراً بتتبع هذه التعريفات ، وذلك لأن بحثنا لغوى قبل أن يكون رياضياً ، وقد سقنا بعض هذه التعريفات لندرك مدى إدراك العربى للعدد وطرق التعبير عنه .

ولعل أقدم صورة من صور التعبير عن العدد عند الساميين عامة والعرب خاصة هي هـذه الرسوم التي حفظتها لنا بعض النقوش القديمة أولا والأبجدية ثانياً .

الأبجدية والعدد

حوالى القرن الثالث ق . م نجد اليونان والعبريين يستخدمون الأبجدية للاشـارة إلى الأعداد أصولا وفروعا أفراداً وتركيباً ، وتوضيح ذلك أن للأعداد أصولا أربعة آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً يشتمل كل واحد من هذه الأصول على أفراد متناهية هي تسعة ؛ سوى الأصل الرابع فان له أفراداً غير متناهية ، فاذا اعتبر أفراد الأصول الثلاثة الأول ونفس الأصل الرابع كان المجموع ثمـانية وعشرين عدداً على عدد حروف الجمل ؛ فجعل تلك الحروف أرقاما لهـا على أن تكون من الألف إلى الطاء أرقام أفراد الأصل الأول أعنى الآحاد ومن الياء إلى الصاد أرقام أفراد الأصل الثانى أعنى العشرات ومن القاف إلى الظاء أرقام أفراد الأصل الثالث أعني المئات والغين رقم الأصل الرابع ، وباقي الأعداد ، كما كانت فروعا وشعبا لهذه الأعداد مؤلفة منها ، كذلك أصبحت أرقامها مركبة منها ، أى من أرقام هذه ، وذلك بتقديم رقم العدد الأكثر على رقم العدد الأقل اصطلاحا فنقدم اليـاء التى هى رقم العشرة على الألف التي هي رقم الواحد كما تقدم الكاف التي هى رقم العشرين على البـاء التى هى رقم الاثنين ، ونقدم اللام التى هى رقم الثلاثين على الجيم التي هى رقم الثلاثة ، ونقدم القاف التي هي رقم المـائة على الميم التى هى رقم الأربعين . وتقدم الميم على الهاء التي هي رقم الخمسة ، وتقدم الغين التى هى رقم الألف على الذال رقم سبعمائة .

وتقديم رقم العدد الأكثر على رقم العدد الأقل معمول به ما لم يتضاعف عدد الألوف فاذا تضاعف عددها قدم رقم عددها على رقم أنفسها ، وان كان عددها أقل من أنفسها دفعا للاشتباه ، فان البـاء لو أخر عن الغين مثلا لمـا علم ان المراد ألفان أو ألف واثنان .

ويبدأ العدد عادة فى العربية بلفظ : واحد : وليس بالصفر كما يفعل الرياضيون ، وإذا أردنا التعرف إلى هذا اللفظ وجب علينا الرجوع إلى المعاجم اللغوية لنتبين إلى أى حد توجد صلة بين العدد و لفظه ، فاذا نجحنا فى هذه المحاولة أصبح من السهل اليسير الاهتداء إلى إدراك كنه العدد وحقيقته .

نحن نعلم مثلا أن : الوحْد : من الوحش المتوحد ، ورجل لا يعرف نسبه وأصله . و : وَحِدَ . و : وَحُدَ . يحد . وحادة . ووحودة . ووحودا ووحدا ووحدة و : حدة : بقى مفردا . و : رجل وحَدٌ : و : أحد . و : وحِد . و : وحيد . و : متوحد . منفرد وهى : وحِدة :

فمن هذه التعريفات المختلفة وما اليها نعلم أن لفظ : واحد : يستخدم فيما أرجح للدلالة على الشىء الذى لا يعرف نسبه وأصله أو بتعبير آخر الجوهر الفرد ، كما يتضح لنا أيضاً أن : واحد : تقابل : أحد : إذ يقال إن : ألف : أحد : هنا بدل من : واو : وذلك لأنه فى سائر صيغ هذا اللفظ يغلب وجود : الواو : مما يؤيد أنها أكثر إصالة من الألف .

ولفظ : أحد : له صورتان : الأولى أن : أحد : هى التى فى العدد معناها : ١ : أى بمعنى الانفراد ، ولا ترد إلا مركبة فى مثل : أحد وعشرون : وهى عوضا عن : واحد : لذلك اعتبرت الهمزة هنا بدلا من الواو .

أما إذا جاءت كلمة : أحد : بمفردها فمعناها أى : واحد : أى : العموم والكثرة : إلا أنها ترد فقط في هذا المعنى فى الجمل المنفية مثل : ما جاءنى أحد .

و تستخدم العربية القديمة لفظ : أحد : مذكرا ومؤنثا ومثال الحالة الأولى قوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره » ومثال الحالة الثانية قوله تعالي أيضا « يانساء النبى لستن كأحد من النساء » .

ولا يقف أمر لفظ : واحد : عند الافراد بل نجده يثنى : واحدان . ويجمع : واحدون : فكأنما العربية تستخدمه فى حالة التثنية فى معنى الألفاظ الدالة على إثنين وفى حالة الجمع للتعبير عن أكثر من اثنين .

وإذا قلبنا كتب اللغة وجدناها تختص لفظ : واحد : بخصائص مميزة ، فالواحد لا يضاف إلى المعدود فلا يقال : واحد رجل : كما لا يقال أيضا : اثنا رجلين ، كما يقال : ثلاثة رجال .

و : الواحد : اسم واقع فى الكلام — على حد تعبير ابن يعيش — على ضربين أحدهما أن يكون اسما علما على هذا المقدار ، كما أن سائر أسماء العدد كذلك ، ولا يجرى وصفا على ما قبله جرى الصفة المشتقة .

وأما الثانى : وهو ما كان وصفا فهو أن يكون مأخوذا من : الوحدة : ويجرى وصفا صريحا نحو : مررت برجل واحد : قال تعالى : « إنما الله إله واحد » . وإذا جرى على مؤنث أنث نحو : مررت بامرأة واحدة . وقال تعالى : « كنفس واحدة » .

وقد استعملوا : أحداً . بمعنى : واحد : الذى هو اسم قالوا : أحد وعشرون وأحد عشر ، بمعنى : واحد وعشرين ، وواحد وعشرة .
هذا هو الرأى العام عن العدد ، واحد : وهو يستخدم صفة مثل العدد اثنين بينما تستخدم سائر الأعداد أسماء .

أما اللغات السامية الأخرى فقد اختصت هذا اللفظ ببعض الخصائص التى تلقى ضوءا على تاريخ هذا اللفظ وتطوره ، ففى الحبشية مثلا نجد لفظ (አሐድ) احد : وهو لفظ تتجلى فيه الصيغة الأصلية ، ولو أن هذه اللغة السامية تغلب استخدامه متصلا بعلامة المذكر أعنى مضموما فهى تقول : (አሐዱ) ، احدو والمؤنث : (አሐቲ) ، احتى ، عوضا عن المؤنث الحقيقى للفظ : (አሐድ) ، احد : ألا وهو : (አሐቱ) ، احت ، والتى أصلها : (አሐድት) ، احدت .

والحبشية لا تلتزم استخدام صيغة : (አሐዱ) احدو . أو (አሐቲ) . احتى فى جميع الحالات ، بل نجدها فى حالة النصب تقول : (አሐደ) . آحَدَ . للمذكر و (አሐተ) . آحتَ ، للمؤنث .

أما العبرية فتستخدم لفظ (אֶחָד) احد للمذكر . و : (אַחַת) احت للمؤنث

وفي السريانية نجد : حَدْ . ومؤنثه : حدا . وهكذا تقريبا في بقية اللغات السامية .

ويلاحظ أن لفظ : واحد : أو : أحد : يظهر في اللهجات العربية الحية في صيغ مختلفة ، ففي عمان نجد : واحى : للمذكر ، و : وُحده : للمؤنث وذلك إلى جانب : احد : للمذكر . و : احدى : للمؤنث ، وصيغة احدى هذه التى نجدها في العربية عامة سواء قديما أو حديثا مصدرها ميل العربية خاصة اللهجة التميمية إلى الامالة أى امالة الفتحة الى كسرة .

وفى العربية الأندلسية نجد صيغة : اَحده . كما نجد فى العربية المصرية الصيغ الآتية .

حد ، وهى تستخدم مع المذكر والمؤنث حيث يقال :

فات حد ورا حد ، ولا حد سأل عن حد . وكذلك : ما حدش جه من البنات .

وكذلك نجد مؤنث لفظ : واحد . هو : وَحْدَه : ١ أو : وِحْده .:

ويشار إلى هذا العدد عادة في سائر اللغات وعند مختلف الشعوب بخطيط عمودى : ١ : وإن كان قد ورد في المصرية القديمة أحياناً فى صورة خط أفقى : —: ويرجح أن إشارة الواحد رمز للاصبع وذلك لاعتماد الشعوب غالبا على النظام العشرى نسبة إلى أصابع اليدين وتتضح لنا هذه الحقيقة من التسمية التى أطلقها الرومان على الاعداد من ١ — ٩ إذ تسمى فى اللاتينية (digiti) كما يطلق الانجليز على الأحاد أى من ٠ — ٩ لفظ digits ،ولفظ (digit) معناه أحد أصابع اليد أو الرجل وهو من اللفظ اللاتينى (digitus) أى إصبع ، وليست هذه الاشارة للواحد قاصرة على الغرب بل نجدها فى الشرق أيضاً عند الساميين ، فقد عثر فى كثير من النقوش السامية القديمة على هذه الاشارة أيضاً .

وقد وردت فى نقش آرامى قديم كلمة : حده . ومعناها : الاولى . وذلك فى العبارة التالية .

نىسن شنت حده لملكو ملكا

ومعناه نيسان السنة الأولى للملك . مَـلِكْ ، راجع

(Corpus Inscriptionum Semiticarum T. I. P. II p. 256)

إثنان

قد تكون هناك علاقة بين هذا اللفظ وبين : ثنى الشىء أى رد بعضه على بعض فتثنى وانثنى فيكون معنى لفظ : اثنان ، أو : مثنى ، جزءين أعيد أو رد كل جزء إلى الآخر .

وهذا المعنى لا يبعد كثيراً عن مدلول كلمة : أثنونى ، أى : انعطف : أما المعانى المختلفة لهذه المادة فأرجح انها متأخرة كقولهم مثلا . الاثنان ضعف الواحد . و : ثناه تثنية جعله اثنين ، وجاءوا مثنى وثناء أى اثنين اثنين وثنتين ثنتين .

أما : الاثنان . وهو اسم يوم من أيام الأسبوع فمعنى متأخر أيضاً ويقصد به ثنى الأحد أو الواحد أو الذى يلى الواحد ، كما هو الحال فى : الثنيان بالضم الذى بعد السيد ، وتستخدم العربية لفظ : اثنين . للمذكر و : اثنتين . أو : ثنتين : للمؤنث . كذلك الحال مع سائر اللغات السامية ، إذ نجد فى الأكادية شينا . للمذكر و : وشتين . أو شتاشو . للمؤنث .

وفى العبرية (שְׁנַיִם) شنايم . للمذكر ، (שְׁתַּיִם) شتايم . للمؤنث .

وفى الفينيقية نجد : شنم . كما نجد فى السريانية : ترين : للمذكر و . ترتين . للمؤنث ، أما الحبشية فتستخدم لفظ (ሰኑይ) سنوى . فى معنى اليوم الثانى من الأسبوع أو الشهر ، كما نجد فيها أيضاً لفظ : (ሳኒት) سانيت . بمعنى اليوم التالى .

لكن العربية لم تكتف بهذا اللفظ ، بل استخدمت ، شأنها فى ذلك شأن بعض اللغات السامية الأخرى ، ألفاظا متعددة للدلالة على هذا العدد مثل

زوج (في العربية المصرية جوز) و : كلا : وفي الوقت الذي تستخدم فيه العربية لفظ «زوج» ، للمذكر والمؤنث نجدها تختص . كلا ، بالمذكر و : كلتا ، بالمؤنث .

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن اللغة الحبشية تستخدم لفظ كلاْ (ክልኤ) وتتصرف فيه تصرفها في سائر الاعداد فمع المذكر (ክልኤቱ) كلاْتو . ومؤنثه (ክልኤቲ) كلاْتى . وفي حالة المفعولية نجد صيغة واحدة مشتركة بين المذكر والمؤنث ألا وهى صيغة (ክልኤተ) كلاْت .

ويلاحظ أن لفظ (ክልኤ) كلاْ ، في الحبشية يدل على معنى ، فصل ، أو ، نصَّف ، أعنى أن دلالة هذا اللفظ على التثنية نشأت لا عن إضافة واحد إلى واحد أو ثنى جزء إلى جزء بل فصل الكل وجعله جزءين .

وتستخدم العبرية لفظ (כִּלְאַיִם) ، كلاْيم ، للدلالة على معنى اثنين من نوعين مختلفين ، وذلك إلى جانب (שְׁנַיִם) شنيم للمذكر و (שְׁתַּיִם) شتيم ، للمؤنث . كما يلاحظ على العبرية أنها تلحق الضمير المتصل باللفظ الدال على اثنين فتقول (שְׁנֵיהֶם) شنيهم ، أى كلاهما ، كذلك الحال مع السريانية إذ تقول : ترهون ، أى كلاهما ، : تريكون ، أى كلاكما .

وفي العربية الحديثة نجد عوضا عن : اثنين ، و اثنتين ، و ثنتين ، الصيغ : إتنين ، و : تنين ، و : نتنين ، كما أن العربية الحديثة تتفق مع القديمة في أنها لا تضيف هذا العدد إلى المعدود شأنه في ذلك شأن العدد واحد ، فكما أنه لا يقال ، واحد رجل ، كذلك لا يقال ، اثنان رجلين ، بينما يقال مثلا ثلاثة رجال ، وذلك لأن اللفظ الثاني فيهما يغنى عن الأول في إفادة الوحدة والزوجية ويزيد عليه بإفادة جنس المعدود .

وكان يشار إلى هذا العدد في النقوش الآرامية القديمة بخطيطين عموديين (‖) كما هو الحال في اللاتينية أيضاً أو هكذا (U) .

ثلاثة أو ثلاث

قد يكون معنى هذا اللفظ مأخوذاً من قولهم : سقى نخله الثِّلْث بالكسر أى بعد الثنيا ، أما سائر المعانى الواردة فى معاجم اللغة فقد تكون متأخرة .

واللفظ فى العربية : ثلاثة . أو : ثلاث . وهذه هى الصيغة الكثيرة الورود فى النقوش الآرامية القديمة ، إذ ورد مثلا .

ا ل ف ى ن   ت ل ت   ح ر ت ى

وترجمته ثلاثة الاف حارثى .

(راجع C. I. S. T. I. P. H. p. 237) .

وفى المعينية السبأية : ثلث . وفى السبأية المتأخرة ثلث . وفى الحبشية . (ሠለስቱ) ثَلَسْتُو . والمؤنث : (ሠላስ) شلاس . أو (ሠልስ) . شلس .

وفى العبرية . (שְׁלֹשָׁה) . شلشه . للمذكر . و . (שָׁלֹשׁ) للمؤنث . والسريانية تلثا ، للمذكر و : تلث . للمؤنث .

وفى الأكادية نجد : شلاشو . المذكر و شلشتو للمؤنث .

أما العربية الحديثة فاننا نجد فيها : تلات . أو : تلاتة ، وقد يرد هذا اللفظ سواء فى العربية القديمة أو الحديثة متصلا بالضمير المتصل إذ يقال : ثلاثتهم وتلاتتهم . وشأن العربية فى هذه الظاهرة شأن بعض اللغات السامية الأخرى إذ نجد فى العبرية (שְׁלָשְׁתָּם) . شلشتم . وفى الحبشية . (ሠለስቲሆሙ) شلستيهومو . وفى السريانية : تلثيهون ، أى ثلاثتهم .

ويرسم هذ العدد فى النقوش السامية القديمة هكذا (ا) أو III أو /// أو ω كما ورد فى المصرية القديمة [1] أيضاً هكذا I I I .

ومن الجدير بالملاحظة هنا قبل أن نترك الحديث عن هذا العدد أن الساميين

---

(١) اعتمدت فيما يتصل بالمصرية القديمة على Kurt Sethe : Von Zahlen and Zahlworten bei den alten Aegyptern ; Strassburg 1916.

كانوا يعتبرونه حدا فاصلا بين سائر الأعداد ، فكانوا اذا أرادوا التعبير عن العدد أربعة رسموا ثلاثة وبجانبها واحد ، وكذلك الخمسة ثلاثة ثم اثنين والستة عبارة عن ثلاثة وثلاثة وهلما جرا حتى التسعة ، وذلك لتغلغل مذهب التثليث بينهم فأصول الكلمة ثلاثة : وينقسم الكلام الى اسم وفعل وحرف والضمير متكلم ومخاطب وغائب والعدد مفرد ومثنى وجمع وهكذا .

أربعة أو أربع

جاء في اللغة : ربع وقف وانتظر وربعت الأبل وردت الربع ، بأن حبست عن الماء ثلاثة أيام أو أربعة أو ثلاث ليال ووردت فى الرابع وهي إبل روابع .

وقد تكون هناك صلة بين العدد أربعة ، وبين هذا المعنى أو مايقرب منه ونحن نجد فى العربية إلى جانب أربعة ، أيضا ، أربع ، كما نجد فى العربية المراكشية ربع

أما فى اللغات السامية الأخرى فنحن نجد فى الآكادية ، أربع ؟ أو إربع إربعت .

وفى الحبشية (አርባዕቱ) ارباعتو ، للمذكر و (አርባዕ) إرباع للمؤنث .

وفى العبرية (אַרְבַּע) أربع ، للمؤنث و (אַרְבָּעָה) أربعة المذكر وفى السريانية أربعا للمذكر و : اربع ، للمؤنث ويشار الى هذا العدد فى نقوش آرامية قديمة هكذا (١) ١ أو ١٥ أو ٣ + ٢ = ٤ ، وفى المصرية القديمة نجد II/II أو IIII والاشارة الاخيرة تتفق والاشارة الرومانية .

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن الصيغة الوحيدة لهذا العدد التى عثرت عليها فى النقوش الآرامية القديمة هى صيغة : اربع .

راجع (C. I. S. T. I. P. II. pp. 232, 248, 265.)

خمسة أو خمس

خميس الناس جماعتهم ولعل هذا المعنى هو الذى لحظه أولا فى اسم العدد .

وتستخدم العربية أيضا ، خَمْس ، كما نجد فى بعض اللهجات الحديثة ، خَمْس .

ونحن نجد هذا اللفظ في اللغات السامية الأخرى ، إذ هو فى الحبشية ، (ኀምስቱ خمستو) ، للمذكر و (ኀምስ) خمس أو (ሐምስ) خمس للمؤنث .

وفى العبرية (חָמֵשׁ) حمش للمؤنث و(חֲמִשָּׁה) حمشه للمذكر ، وفى السريانية حمشا ، للمذكر و : حمش : للمؤنث ، ويشار اليه فى نقوش سامية قديمة بالاشارة (١) II أو ||| أى ٣ + ٢ = ٥ ، أو بالاشارة ر .

وفى المصرية القديمة نجد II III أو $\overset{III}{II}$ كما أن الصيغة الوحيدة المعروفة لى فى النقوش القديمة هى حمش .

(C. I. S. T. I. P. II. pp. 229, 237, 242) راجع

ستة — ست

ربما من : سدس : وحدث أن أدغمت الدال فى السين فصارت ، سس وثقل نطق السين المشددة وجرى عليها ما جرى على الثاء حتى صارت تاء مثل ثاب > تاب وثور > تور > طور وثعلب > تعلب و : ثلج > : تلج . . . .

وأصبحت الصيغة : ست .

ومن حسن الحظ أن بعض اللغات السامية الأخرى احتفظ بالصيغة الأصلية القديمة ، ففى العربية الجنوبية أعنى المعينية السبأية نجد : سدث = ٦ بينما : ستى = ٦٠

وفى عصر متأخر نجد : سثث ، و : سثت ، = ٦ ، أما الحبشية فاننا نجد فيها : (ሰድስቱ) : سدستو : للمذكر و : (ሱሱ) : سسو ، أو (ሰድስ) سدس : للمؤنث .

وفى العبرية نجد (שִׁשָּׁה) : ششه : للمذكر و (שֵׁשׁ) : شش للمؤنث .

وفى السريانية : شتّا ، أو اشْتا : للمذكر ، و : شتْ للمؤنث

وفى الأكادية : ششيت .

وقد ترد صيغة : ست ، مصغرة في العربية الحديثة حيث نجد : ستيتة ، كما وجدنا : خميسة : تصغير : خمسة ، أو : خمس .

ويشار إلى هذا العدد في نقوش آرامية قديمة بالاشارة (١) (١) أو ɷɷ أو //// /// أى ٣ + ٣ أو ɲ ا أى ٥ + ١ وفى المصرية القديمة III III أو $\overset{III}{III}$.

كما أن الصيغة الوحيدة الواردة فى معظم النقوش القديمة هى : شت .

راجع (C.I.S.T.I.P. II. pp. 229, 239) .

سـبعة

أو سبع : فى العربية ، وفى الحبشية : (ሰብዐቱ) : سبعتو : للمذكر و (ሰብዑ) سبعوا ، أو (ሰብዕ) سبع : للمؤنث ، وفى العبرية (שִׁבְעָה) شبعه : المذكر و (שֶׁבַע) شبع ، المؤنث وفى السريانية شبعاً ، للمذكر وشبع : للمؤنث .

وإلى جانب : سبعة ، و : سبع ، فى العربية ، نجد أيضاً : أسبوع وسبوع ، أى سبعة أيام . كما نجد أيضاً : السبع ، أو : سبيع : $=\frac{1}{7}$ والسُّباعى الجمل العظيم الطويل ، وهذه الصيغة تذكرنا بالصيغة الحبشية (ሰብዒ) سوباعى ، أى : أسبوع .

وفى الاكادية : سبعتى ، أو : سبع .

أما الصيغة الكثيرة الورود فى النقوش الآرامية القديمة ، والتى لم نعثر على غيرها ، فهى شبع فقط .

راجع (C. I. S. T. I. P. II. PP. 201, 207) .

كما أنها كانت ترسم قديما هكذا ||| |||| | أى ٣ + ٣ + ١
أو ω ω ١

وقد رسمت فى المصرية القديمة ||| |||| أى ٣ + ٤ أو ||||/|||

ثمانية

أو ثمان ، كما نجد فى العربية الحديثة . ثمان ، و : ثمانية .
وفى طرابلس : تمين .

أما اللغات السامية الأخرى فقد استخدمت الصيغ التالية ، ففى السبأية :

ثمن ، و : ثمنيت وفى الحبشية نجد : (ሰመን) سمنتو : للمذكر و (ሰማኒ:)
سمانى : أو (ሰምን) سمن ، للمؤنث .

وفى العبرية (שְׁמֹנָה) شمونا‌ه للمذكر ، و (שְׁמֹנֶה) شمونيه : للمؤنث .

وفى السريانية : تمنيا : للمذكر ، و : تمنا للمؤنث .

وفى الاكادية : شمنتُ . و : شمنتْ .

وفى العربية نجد أيضا : ثمن : او : ثمين : = $\frac{1}{8}$

وقد تكون صيغة : ثمان ، فى العربية نسبة الى : ثُمن : لأنه الجزء الذى صير السبعة ثمانية ، فالعدد : ثمان هنا منسوب وليس بنسب ثم فتحوا أوله لأنهم يغيرون فى النسب وحذفوا منه احدى ياءى النسب وعوضوا منها الألف ، كما فعلوا فى المنسوب الى اليمن فثبتت ياؤه عند الاضافة فتقول ثمانى فتيات ، وثمانى مائة ، وتسقط مع التنوين عند الرفع والجر ، وتثبت عند النصب ، وان كانت هناك لغة تحذف الياء عند الاضافة كقول الأعشى :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا   وثمان عشرة واثنتين وأربعا

أما الصيغة المعروفة لهذا العدد فى النقوش الآرامية القديمة فهى : تمونا .

راجع : (C. I. S. T. I. P. II pp. 251, 252).

وقديما كانت ترسم (Ɨ) (I) II أو ω ω υ أى ٣ + ٣ + ٢ = ٨

تسعة

أو : تسع ، والتسع،ظمء من أظماء الابل وبالضم تُسع جزء من تسعة كالتسيع لكن : تسَعُ ، الليلة السابعة والثامنة والتاسعة من الشهر والتاسوعاء قبل يوم عاشوراء .

وجاء فى المعاجم اللغوية أيضاً : اتسعوا أى صاروا تسعة ، وأرجح أن هذا العدد يتصل بلفظ : وسع ، وهو : اتسع ، وقد جاء هذا اللفظ فى اللغات السامية الأخرى فهو فى الحبشية (ተስዐቱ) تسعتو ، أو (ተስዐቱ) تسعتو . للمذكر و (ተስዐ) تسعو ، أو (ተስዐ) تسع للمؤنث .

وفى العبرية نجد (תִּשְׁעָה) تشعه للمذكر ، (תֵּשַׁע) تشع للمؤنث .

وفى السريانية : تشعا للمذكر وتشع للمؤنث ، كما نجد فى الأكادية . تشعيت .

وقد وردت فى النقوش الآرامية القديمة الصيغة : تشع .

راجع (C. I. S. T. I. P. II. p.158)

كما رسمت /// /// ///أو ϖ ϖ ϖ أى ٣ + ٣ + ٣

عشرة

أو : عشر : ، وقد توجد صلة بين هذا اللفظ وبين مادة عشيرة فتكون دلالة العدد اصلا منصرفة الى الكثرة .

والمادة موجودة فى اللغات السامية أيضا وهى فى الحبشية (ዐሥርቱ) عشرتو ، المذكر و (ዐሥሩ) عشرو ، أو (ዐሥር) عشر للمؤنث .

وفى العبرية (עֲשָׂרָה) عسره للمذكر ، و (עֶשֶׂר) عسر المؤنث .

وفى السريانية : عسرا المذكر ، وعسر للمؤنث .

وفى الاكادية . عشرتى أو عشريت .

ويرسم هذا العدد فى النقوش القديمة هكذا ح أو ح

أو راجع : (C.I.S.T.I.P.I. pp. 13, 36. 40)
(C.I.S.T.I.P.II. pp. 162, 174. 185)

والصيغة المعروفة فى النقوش القديمة هى . عشر

راجع (C.I.S.T.I.P.II. pp. 207. 231, 259)

الأعداد من ٣ — ١٠

جرت العادة بالقول إن العدد من ٣ — ١٠ يخالف المعدود أعنى يؤنث مع المذكر ، ويذكر مع المؤنث ، والعبرة بتذكير الواحد وتأنيثه وان كان الجمع بخلاف ذلك أحيانا . تقول ثلاثة رجال وأربع نسوة وكقوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام » .

أما اسم الجمع واسم الجنس فالعبرة فيهما أنفسهما لا بواحدها ، تقول ثلاثة من القوم والغنم بالتاء لتذكيرها ، وثلاث من الأبل والنحل بلا تاء ، لتأنيثهما وثلاث من البقر بالتاء وعدمها لأن البقر يذكر ويؤنث .

وقد كثرت الآراء وتعددت حول تعليل هذه الظاهرة فسيبويه[1] يذكر فى كتابه ما نصه : اعلم أن ما جاوز الاثنين إلى العشرة مما واحده مذكر فان الاسماء التى تبين بها عدته مؤنثة فيها الهاء التى هى علامة تأنيث ، وذلك قولك له ثلاثة بنين وأربعة أجمال وخمسة أفراس اذا كان الواحد مذكرا . وان كان الواحد مؤنثا فانك تخرج هذه الهاءات من هذه الاسماء وتكون مؤنثة ليست فيها علامة التأنيث وذلك قولك ثلاث بنات وأربع نسوة . . . وكذلك جميع هذا حتى تبلغ العشرة .

فعبارة سيبويه واضحة لا غموض فيها ولا تناقض وهو يقرر أن الأسماء التى تبين عدة المعدود مؤنثة سواء اتصلت بها الهاء أو لم تتصل ، أعنى مثلا العدد سواء كان ثلاثة أو ثلاث فهو مؤنث .

وجاء ابن يعيش[2] وحاول فلسفة هذا الرأى فأخطأه التوفيق ، فهو يذكر

---

(١) سيبويه : الكتاب ج ٢ ص ١٧٦

(٢) ابن يعيش : المفصل ج ٦ ص ١٨ الطبعة المنيرية .

فى شرح المفصل : وانما اختص المذكر بالتاء لأن أصل العدد قبل تعليقه على معدوده أن يكون مؤنثا بالتاء من نحو ثلاثة وأربعة ونحوهما من أسماء العدد ، فاذا أردت تعليقه على معدود هو أصل وفرع جعل الاصل للأصل فأثبتت العلامة، والفرع للفرع فاسقطت العلامة . . .

فهذا الرأى الذى يسوقه ابن يعيش والذى سبقه اليه سيبويه يقرر أن الصيغة الاصلية للعدد مؤنثة . وهذا لا يتمشى مع قوله : فاذا أردت تعليقه على معدود هو أصل وفرع جعل الأصل للأصل فأثبتت العلامة ، والفرع للفرع فأسقطت ، فمن أجل ذلك قلت : ثلاثة رجال ، و : أربع نسوة ، فالمفهوم من عبارة ابن يعيش هذه أن المذكر أصل والمؤنث فرع وهذا صحيح وهو يناقض رأيه ورأى سيبويه الذى يعتبر العدد المؤنث أصلا والمذكر فرعا .

والآن قبل أن ننتقل الى ناحية أخرى من نواحى العدد نقف عند هذا الرأى ونناقشه ، يقرر سيبويه أن أسماء الاعداد من ٣ — ١٠ مؤنثة سواء كانت متصلة بالهاء أو مجردة منها أعنى أن ثلاثة لغة فى ثلاث ، وكذلك أربعة وخمسة . . الخ ، ويقرر سيبويه أيضا أن هذه الهاء هى هاء تأنيث كأنما يريد أن يقول إننا اثنتا مؤنثا ، ويقرر سيبويه أيضا أن العدد من ٣ — ١٠ مؤنث أصلا .

والواقع أننا لو نظرنا الى العدد فى معظم اللغات السامية من واحد الى عشرة لوجدناه فى حالة الاطلاق كالآتى : واحد اثنان ثلاثة أربعة . . عشرة . فلو كانت الاعداد من ثلاثة الى عشرة مؤنثة لتحتم على اللغة بحكم قانون الجناس ان تجعل من : واحد ، و اثنين . صيغتين مؤنثتين تمشيا مع ثلاثة حتى عشرة ، وظاهرة الجناس هذه هى التى حدت باللغة الى أن تحمل الفاظ العقود من ثلاثين الى تسعين على صيغة : عشرين ، أو العكس إذ أن الصيغة الاخيرة اعنى : عشرين . ما هى فى الواقع إلا صيغة المثنى من عشر ، لأن العشرين ضعف العشرة بينما صيغ الفاظ العقود الأخرى من ثلاثين الى تسعين هى صيغ جموع إذ أن : ثلاثين ، ثلاثة أمثال عشرة ، وأربعين أربعة امثالها . . الخ . وقانون

الجناس أيضا هو الذى جعلنا فى العربية تحمل صيغة وضمير الغائبات على ضمير الغائبين إذ نحن نقول : هن : بضم الهـاء حملا على : هم ، والاصل : هن بكسر الهـاء لأنها جمع هى . بينما . هم : هى جمع : هو .

فالأسماء الدالة على الأعداد من ١ — ١٠ ليست فى الواقع مؤنثة كما تتبين هذا من واحد واثنين ، كما أن صدر اللغة لن يتسع لايجاد صيغتين من جنس واحد للتعبير عن عدد واحد ، وإلا للمسنا هذه الظاهرة مع العدد فى حالة الاطلاق أعنى واحد ، اثنان، ثلاث ، أربع . عشر ، لكن مثل هذه الصيغ المطلقة لم تحفظها لنا نصوص، ولم يتناقلها رواة ، وكل الذى وصلنا أنها متصلة دائما بالتاء (الهـاء) .

وإذا كانت أسماء هذه الأعداد من ٣ — ١٠ مذكرة فما حكم هذه النهاية إذن أعنى (التاء) هل هى أصيلة فى الكلمة أم دخيلة ، وسواء كانت أصيلة أو دخيلة هل هى علامة للتأنيث حقاً كما يقرر سيبويه وغيره ؟

الواقع أن اللغة العربية وسائر أخواتها غنية بالتاءات والهـاءات ، وإن كل تاء أو هاء لهـا وظيفتها اللغوية الخاصة فهناك (تاء) فى ضمير المخاطب أو المخاطبة أى فى : أنت ، و : أنت ، وهناك تاء فى أداة الاشارة : تى ، وهى بعينها التى نجدها فى : تيك ، و : تلك ، و : هاتى، و : ها ذاتى ، كما نجدها أيضاً فى أداة الموصول . التى .

ومع مضى الزمن نجد . التاء ، متصلة ببعض الظروف فى مثل . متى . فأصلها : م + تى . و . ثمت . و . رُبَّت ، كما نجدها أصيلة كما هو الحال فى مثل . عفريت ، و . صفريت ، ونجدها مستخدمة فى التصغير والتحقير وفى مواضع أخرى تنص عليها كتب النحو ، ومنها التأنيث . فمن أى نوع من أنواع التاءات هذه التاء الواردة مع العدد من ثلاثة إلى عشرة ؟ ليست علامة تأنيث بدليل ورود واحد واثنين ضمن أسماء الأعداد فى حالة الاطلاق، ولا يوجد دليل قاطع تستطيع أن تجزم به على أن ثلاثة وما إليها مؤنثة ، كما أنه لا توجد حكمة من مخالفة العدد للمعدود ثم ، لماذا يقوم الخلاف

بين العدد والمعدود ودأب اللغة الجناس ؟ وإذا كان ولا بد من خلاف فلماذا بين هذا الكم من الأعداد ؟ الواقع أن هذه التاء ليست تاء تأنيث بل هي أقدم من استخدام التاء عامة كعلامة من علامات الاسم المؤنث، أنها تاء إشارية مذكرة والأعداد بصيغها هذه أعنى متصلة بها التاء إنما هى مذكرة وليست مؤنثة ، وخاصة فهى كما بينا أصل وليست فرعا ، والمذكر أسبق من المؤنث من ناحية، كما أن التفرقة بين المذكر والمؤنث عن طريق العلامات ظاهرة متأخرة جداً ، فاللغة كانت فى مرحلتها الأولى مذكرة ومن ثم فرقت بين المذكر والمؤنت عن طريق خلق مفردات مستقلة مثل . اب . و . ام . وفيما بعد أخذت تصيغ المؤنث من المذكر عن طريق أدوات اصطلح على تسميتها أدوات تأنيث، مثل . كلب وكلبه .

والذى حدث مع أسماء الاعداد أنها كانت تستعمل فى الاصل مع المذكر والمؤنث على السواء، ولما أخذت اللغة تراعى الجنس وتفرق بين مذكر ومؤنث استخدمت الصيغة الأصلية مع المذكر الذى هو أصل كما استخدمتها مجردة من تاء الاشارة مع المؤنث فأصبحنا نقول ثلاثة رجال وثلاث نسوة .

وخلاصة الرأى عندى فى هذه المسألة ان أسماء الاعداد كما هى من ثلاثة الى عشرة مذكرة ، وليست مؤنثة ، كما أن التاء المتصلة بها ليست علامة تأنيث بل عنصرا شارى قديم من هذا النوع الذى نجده فى بعض الضمائر والظروف وغيرها، كما أن استخدام هذه الاسماء لاتخالفه فيه البتة للمعدود .

ويلاحظ فيما يتصل بهذه الأعداد أن المعدود إذا تقدم اسم العدد صفة له جاز إجراؤها وتركها ، كما لو حذف المعدود، تقول رجال تسعة ورجال تسع ومثل : وأتبعه ستا من شوال ، ويجوز إثبات التاء فى المؤنث مثل عندى ثلاثة وتريد نسوة .

أما إذا حذف المعدود ولم يقصد أصلا ، بل قصد اسم العدد فقط ، كانت كلها بالتاء كثلاثة خير من ستة .

ويلاحظ فى العربية المصرية الحديثة أنها إذا استثنينا صيغة — اتنين — تتفق والعربية القديمة فى صيغ العدد من ١ — ١٠ فى حالة الاطلاق لكن فى حالة ذكر المعدود تلتزم صيغة واحدة من ٣ — ١٠ وهى الصيغة المجردة من الهاء مع الجنسين فهى تقول تلات رجاله وتلات نسوان .

الأعداد من ١١ — ١٩

تختلف اللغات السامية فيما بينها حول هذه الأعداد وصياغتها ، فنى العربية ترد الآحاد قبل العشرات ؛ بدون حرف عطف يربط بينهما فيقال أحد عشر ، الخ ... وتتفق مع العربية فى هذه الظاهرة اللغة العبرية حيث نجد . (אַחַד עָשָׂר) أحد عسر . أحد عشر ، وكذلك اللغة السريانية حيث نجد . حد عسر ، أى أحد عشر .

أما اللغة الحبشية مثلا فتخالف اللغات السابقة وتذكر العشرات قبل الآحاد مع الاحتفاظ بجنس العدد وواو العطف مثال ذلك .(ዐሥርቱ : ወአሐዱ) عشرتو واحدو ، أى أحدعشر ، وليست الحبشية هى الوحيدة فى هذه الظاهرة فقد وصلتنا نقوش آرامية قديمة جاء فيها ذكر العشرات قبل الآحاد ومصحوبة بواو العطف مثل : عشر وشت وعشر وثلث وعشر وشبع راجع ، (C. I. S. T. I. P. II pp. 227, 229,)

ونستطيع على ضوء هذه الظاهرة أن نقرر أن السامية الام ما عرفت نظاما خاصاً ، ومن ثم تطور ، أو لم تعرف نظاماً بعينه فتصرفت كل لغة حسب استعدادها .

ومثل اللغات السامية فى هذه الظاهرة أعنى فى اختلافها فيما بينها حول ترتيب الآحاد والعشرات مثل اللغات الهندية الاوربية التى قد تتفق وقد تختلف ، مثال ذلك فى الألمانية (dreizehn) أى ثلاثة عشر وفى الفرنسيه (treize) وفى الانجليزية (thirteen) بينما نجد إلى جانب هذه الظاهرة ما يأتى :

فى الألمانية (siebzehn) سبعة عشر .

فى الفرنسية (dixsept) عشر وسبع .

فى الانجليزية (seventeen) سبعة عشر .

فنى الألمانية والانجليزية نجد الآحاد قبل العشرات ، بينما نجد العكس فى الفرنسية .

الأعداد من ٢٠ — ٩٠

الأصل فى لفظ : عشرين ، أن يكون مثنى ، وذلك لأن العشرين ضعف العشرة ، لكن صيغة المثنى هذه لم تثبت أمام صيغة الجمع التى نجدها فى ثلاثين وما بعدها حتى تسعين ، وتلاشت صيغة المثنى وحلت محلها صيغة الجمع شأن العربية فى هذه الظاهرة شأن العبرية والآرامية مثل (עֶשְׂרִים) ، عسريم . ٢٠ وفى الآرامية : عسرين .

لكن بينما نجد هذه الظاهرة فى كل من العربية والعبرية والآرامية ، إذ بنا أمام العكس فى كل من الحبشية والاكادية إذ نجد صيغة المثنى هى التى سادت وعممت فى أسماء سائر الأعداد حتى التسعين مثل (ዐሥራ) . عشرا .

تمييز العدد

من ٣ — ١٠ جمع مجرور مثل ثلاثة رجال :

من ١١ — ٩٩ مفرد منصوب مثل أحد عشر كوكبا .

وقد ترد صفة تمييز العدد فى حالة الجمع ، كما جاء فى قول عنترة :

فيها اثنتان واربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم

وفى اللهجة العربية المصرية يقال أيضا . عشرين صندوق مليانين .

١٠٠

وتمييز هذا العدد وما بعده مفرد مجرور مثل مائة رجل . وقد جاء أيضاً منصوبا كقوله تعالي : « ولبثوا فى كهفهم ثلث مائة سنين وازدادوا تسعاً »[1]

---

(١) سورة الكهف ى ٢٥

ومائة ضيفا [١] و مائتين عاما [٢] و المائة الغلاما [٣] .

وقد يرد التمييز أحيانا جمعا مجروراً مثل : مئو سنين ، و نادراً مايرد بدلا مثل : أذرعا مائة [٤].

ولفظ مائة أو مئة في العربية هو الذى نجده فى العربية المصرية : مايةَ ، او : ميت ، والصيغة الأولى منتشرة بين المسيحيين خاصة .

وتعبر العربية القديمة عن هذا العدد أيضاً بلفظ : هنيدة قال جرير .

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ... ما فى عطائهم من ولا سرف

وقال أبو عبيدة وغيره : هى اسم لكل مائة من الابل ، وقال ابن سيده هي اسم للمائة ولما دونها ولما فوقها ، وقيل هى المائتان حكاه ابن جنى عن الزيادى قال ولم اسمعه من غيره ، قال والهنيدة : مائة سنة والهند مائتان .

أما فى الحبشية فانا نجد (ምእት) : مئة . وفى العبريه (מֵאָה) مئة : والآرامية ما ، وفى الأكادية : مائة .

وربما توجد صلة بين هذا اللفظ وبين الكلمة المصرية القديمة : مت ، بمعنى عشرة ويقصد بذلك عدد كبير لانهاية له .

ألف ١٠٠٠

يستخدم لفظ ألف فى العربية للدلالة على العدد ١٠٠٠ ، إلا أن بعض اللغات السامية الأخرى تستخدم اللفظ ، للدلالة على عدد آخر كما تستخدم إسماً آخر للدلالة على العدد ١٠٠٠ ، فمثلا فى الحبشية نجد الاسم (እልፍ) : ألف يدل على ١٠٠٠٠ عشرة آلاف ، بينما إذا أرادت الحبشية التعبير عن ١٠٠٠ قالت : ዐሠርቱ : ምእት : عشرتو مئة .

---

(١) سيبويه ج ١ ص ٨٧

(٢) الامالى ج ٣ ص ٢٢١

(٣) اغانى ج ١٢ ص ٤٨

(٤) اغانى ج ٨ ص ٧٦

لكن العبرية تتفق مع العربية وتستخدم لفظ אֶלֶף. ألف للدلالة على ١٠٠٠ وكذلك السريانية حيث نجد : ألف .

العدد الدال على الترتيب

تعبر العربية وسائر اللغات السامية عن العدد — ١ — فى حالة الترتيب بلفظ لا علاقة له البتة بلفظ : واحد ، أو : أحد ، وهذا اللفظ هو فى العربية أول : ومؤنثه : أولى ، والجمع ، أُوَل ، أو : أوائل .

وفى العبرية (ראשון) . ريشون ، والآرامية : قدميا ، أو : قدماء وفي الحبشية (ቀዳሚ) قدامى،أو (ቀዳማዊ).قدماوى أو(ቀዳማይ)قدماى.

أما الأعداد من ٢ — ١٩ فتعبر عنها العربية بلفظ العدد الأصلى على وزن فاعل ، مثل ثاني ، ثالث . . . الخ . لكن للتعبير عن العدد ٢٠ فما فوقه تستخدم اللغة الاسم الأصلى للعدد إذ يقال : اليوم العشرون .

أما موقف سائر اللغات السامية من العربية فى هذه الظاهرة فيتفق حينا ويختلف أحيانا، إذ بينما نجد الحبشية تستخدم وزن فاعل فتقول(ሣልስ)شالس. أى ثالث ، إذ بالاكادية تستخدم وزن فَعُل : فتقول ، شن . أى : ثاني .

لكن عند التعبير عن جزء من عدد يؤتى باللفظ على وزن . فُعْل . مثل . ثُلْث ، أو : فُعُل ، مثل . ثُلُث ، أو : فعيل . مثل : ثليث .

ويلاحظ أن صيغة فَعِيل تستخدم في معنى فُعُل فى دلالتها على الكسور

والعربية لا تعرف من الكسور إلا تلك الواقعة مابين ½ إلى ⅒ وقد أطلقت عليها أسماء خاصة فهى : منطق ، أو : معلوم ، بينما البقية الأخرى لا تنطق بل يعبر عنها بوصفها فقط .

خصائص العدد

قد تضم الأعداد العربية إلى بعضها دون مراعاة نظام الآحاد أو العشرات أو الألوف ، إذ يقال مثلا : ثلاثا واثنتين وأربعا . أو مائة اسم غير واحد .

وكقول النابغة : باتت ثلاث ليالى ثم واحدة . وكقولهم ثلاثة أحوال وحول وستة . ومثل قول محمد الزيات :

خليفة الله طالت عنك غيبتنا عشرا وعشرا وعشرا بعدها أخرى

وكقول الاعشى :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا وثمان عشرة واثنتين وأربعا

وقد يؤدى الشاعر عملية الجمع فى نفس البيت مثل :

لها ثنايا أربعٌ حسان وأربع فثغرها ثمانُ

أو كقول النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

وهناك نوع آخر من التعبير ورد فى شعر الفرزدق :

ثلاث واثنتان فهن خمسٌ وثالثة تميل الى السهام

وقال آخر :

فسرت اليهم عشرين شهرا وأربعة فذلك حجتان

أو مثل قول الشاعر :

لقد عُمّرت حتى مل أهلى ثوائى عندهم وسئمت عمرى
وحُقَّ لمن أتى مائتان عاما عليه وأربعٌ من بعد عشر
يمل من الثواء وصبح يوم يغاديه وليل بعد يَسْرى
فبُلى جدتى وتركت شلوا وباح بما اجن ضمير صدرى

أو قول أكثم بن سيف التميمى :

مضت مائتان غيرُ ست وأربع وذلك من عد الليالى قلائلُ

التوزيع

عرض له الزمخشري عند حديثه عن الممنوع من الصرف أى معدول ، وصيغة . فعال ، المستخدمة للتعبير عن التوزيع لا تعتبر صيغة نحوية قائمة بذاتها . بل هى صيغة مشتقة من العدد أو اسم العدد ، وتستخدم اللغة صيغة أخرى ألا وهى : مَفْعَل .

وهذه الظاهرة لا نجدها في بقية اللغات السامية ، فاللغة الحبشية مثلا استعاضت عنها بتكرار العدد مثال ذلك (እሑዱ:እሑዱ) أحدو ، أحدو . أى واحداً واحداً . وأحيانا تستخدم (በበ) أو (ለለ) أو (HH) قبل العدد مثال ذلك : (በበ:ዲናር:ለዕለቱ) بب دينار لعلت ، أى لكل واحد دينار يوميا .

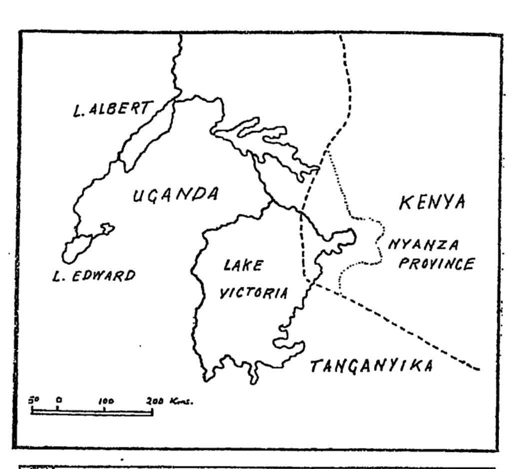
النسبة

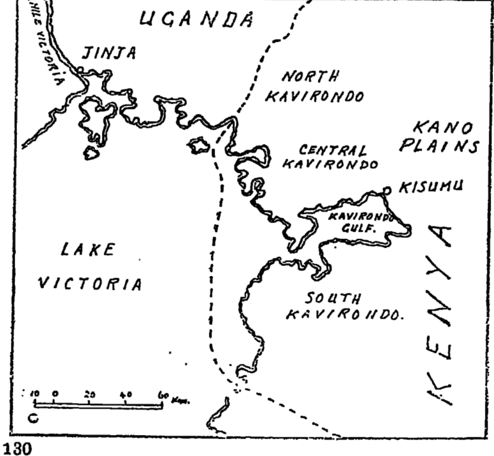
عرض لها ابن سيدة فقط فى مخصصه وهو يفرق بين : ثَلاثى . و : ثُلاثي .

تم طبع هذه المجلة فى عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأول" بمطبعة جامعة فؤاد الأول
فى ١١ من محرم سنة ١٣٧٠ (٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٠)

محمد زكى خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول

([illegible] ١٩٥ ــ ١٩٥٠ ــ ٥٦٠)


L. ALBERT
UGANDA
KENYA
NYANZA PROVINCE
L. EDWARD
LAKE VICTORIA
TANGANYIKA
50 0 100 200 Kms.


UGANDA
NILE VICTORIA
JINJA
NORTH KAVIRONDO
KANO PLAINS
CENTRAL KAVIRONDO
KISUMU
KAVIRONDO GULF.
LAKE VICTORIA
SOUTH KAVIRONDO.
KENYA
10 0 20 40 60 Kms.

them than formal supplication. Like most religions it was (and is) a way of like. It had both a social and a personal application. They had the virtues and the vices common to mankind the world over. They had their share in what is called natural religion, as distinguished from a revealed religion. A religion hammered out on the anvil of experience down the ages.

Kavirondo. The Bahanga came from Kaimosi, and the Maragole from Tanganyika Territory. Mixed in origin, they are mixed in tongue, and there are many more obstacles in the way of a unified Bantu speech than is the case with the Luo.

Like the Luo, they are agriculturalists, depending less on cattle keeping than the former, and showing a marked capacity for making the land carry a heavy population. Whatever be the cause or causes of this apparently greater capacity over the Luo, the fact remains that some of the Bantu Locations carry a population far exceeding the densest Luo Locations. Bunyore has about eleven hundred to the square mile and the neighbouring location of Maragole comes second with round about 800. This is very heavy for a purely agricultural population.

Again, the Bantu have thrown up rulers with more idea of a centralised authority than have the Luo. The House of Mumia with whom Hannington and Sir Fredrick Jackson made contact, had some small pretensions of a consolidated rule. It may be that the presence of Arab traders armed with guns, was a large element in his power, and while it is not possible to accept all the claims made by members of the Mumia family as to the extent and quality of their authority, it was admittedly such as the Luo had not produced. The growth of their authority was probably slow, at any rate it was not long enough established or powerful enough to prevent the oncoming of the Luo. But the powerlessness of an organized people to resist a less organised one is not new in history.

The Bantu in South Kavirondo have been much less progressive than those of North Kavirondo. And it was one of the South Kavirondo tribes, the Kisii, which took advantage of the upset caused by the First World War to get out of hand.

In religion both Bantu and Luo are animists. The worship of their ancestors, coupled with the diety, is the basis of their formal religion. But, of course, their religion was much more to

being much less marked than among the Bantu. It is very tonal, has a large vocabulary, tricky idioms, a very complete tense structure, and is altogether a difficult language for a foreigner to master thoroughly.

The Luo were never unified under one paramount chief. Each clan asserted its independence, and there is little evidence of any united action. Communication between the clans was hampered by clan enmities. Courts of justice were centred on the clan, there was no appeal to any overruling or central court. Disputes between clans were settled by fighting, in the final resort.

Their contribution to the evolution of an organized, orderly unit of society, appears to have been nil. And the same appears to be true with regard to the arts and crafts. The spear head of Alego, carefully preserved by the Seje Clan of Alego Location, which dates back some three or four hundred years, does not indicate that the art of the blacksmith has advanced appreciably down the generations.

But with the advent of western civilization they showed themselves quick to begin a new stage in their evolution. They soon sent their sons to the schools which spread over the land. Improved methods of agriculture, especially the use of the plough, soon took hold. Veterinary services especially made a strong appeal to them. They soon realized the necessity of improved courts of justice, and medical work elicited their strong support. In fact, in common with the other tribes of Kavirondo, they began to stride down the road to a fuller civilization.

The Bantu:

Unlike the Luo, who came from a common source, the Bantu appear to have been derived from stocks located in the west, east and south. The people of the Suna Location came from Uganda, as did also some of the clans now settled on the western border of

They trace their ancestry to a man named Podho [1] but, more particularly, they name Ramogi, a son of Podho, as the founder of their race.

The older men take a pride in memorising the names of their ancestors.

The story of the expansion of the Luo in Kavirondo is one of long struggle. The fact that place names in what is now the heart of Luo territory are of Bantu origin, supports references in clan tradition to driving out the Bantu. It would appear that the Bantu were in occupation right up to the western confines of the land when the Luo entered. Steadily down the centuries the Luo pressed the Bantu eastwards, usurping their territory. The advent of the British administration put a stop to the ousting of the Bantu by the Luo.

There has been much mingling of blood by the Luo men marrying Bantu girls. It was mainly a one-way traffic, for there is not much evidence of Bantu men marrying Luo girls, outside of a few of the ruling families, such as that of Mumia.

As well as fighting and ousting the Bantu, the Luo clans fought with each other the stronger ousting the weaker. Thus the clan of Ka Le has a tradition that their ancestor Le Silwal, (eleven generations ago), together with Owila began to drive out the clans now settled across the Gulf in South Kavirondo. The names of the clans driven out are given as Nyada, Nyamwa, Buoch and Rocwonyo.

The Luo are agriculturalists and cattle keepers, and among the Lake-side population, fishers. In a country subject to epidemics of rinderpest, east coast fever and other stock diseases, they were skilled enough to raise large herds of cattle. Their tongue called Dho-Luo, is a well-consolidated one, dialectical differences

---

(1) The Adam of Luo tradition.

caves; some of which are so large as to afford accommodation for hundreds of families. Unlike most East Africans, some of these clans, as those of Kavaras and Kavaren, do not circumcise.

There are many things about these people—for instance, their musical proclivities—that suggest that they are allied, to the tribes at the north of the Nyanza; but this is especially so of their language, which seems to belong to an entirely different family from that spoken by either the pastoral or agricultural races of this part of the continent.

From News account of the people of Kavirondo one understands that they are a homogeneous race. He writes as though they have one tongue in common. In fact, there are three races represented, with quite distinct families of languages, Hamitic, Bantu and Nilotic.

The Hamitic people are the fewest, with the Bantu and Nilotes about equal in number. Roughly speaking, the Nilotes occupy the locations bordering on the Lake([1]) while the Bantu occupy the higher lands back from the Lake. In other words, a belt of Nilotes separates the Bantu from access to the Lake. The islands adjoining the mainland, Rusinga and Mufangano, on the other hand, are occupied by Rantu, much influenced by Nilotes. They are bi-lingual.

The Luo:

The Luo people as the Kavirondo branch of the Nilote family is called, first began to settle in Kavirando somewhere about four to five hundred years ago. Their original home was along the Upper Nile near Wau, from whence began the migratory movement. They are rich in traditional lore, though with the passing of the older generation this is tending to become lost.

([1]) With the exception of the Bantu Samia location to the extreme west.

of storm water which has spoiled, and is spoiling, the fields. From below, the enemy is the formation of murram, a kind of panrock, formed from the soluble elements in the soil and bedrock, which in the alternations of wet and dry seasons, are first of all dissolved out and held in rain-soaked sub-soil, and then during the ensuing dry season, when the moisture evaporates, are left behind as a deposit. In this way beds of hard rock have been formed, up to two metres deep, below the surface of what is left of the good soil.

This constitutes one of the most serious difficulties faced by the men of Kavirondo of today.

The People:

According to New the people of Kavirondo are numerous, and are divided into many clans, occupying the country stretching northwards along the shores of Lake Nyanza. They are spoken of as "a fine race physically, but very barbarous, both sexes equally ignoring dress. They are great in farming, cattle-breeding, and fishing. They make good boats of boards, put together with wooden pegs, and caulked with bark and grass. Great smokers, they make excellent pipes, of soft white stone. The people of Mnioro are clever musicians, and make a variety of wind and string instruments, flutes, etc. Of the Kakamegas, especially, it is said that they are very fond of birds as food, and they have an ingenious method of obtaining them in large quantities. Poles of "miwale" and other soft wood, in which a large number of small holes are made, are planted about their huts, a number of birds' nests are procured and attached to these poles, to attract the birds. When birds come to the nests people take possession of them; other birds then come and build more nests in the remaining holes, and in this way they are brought together in large flocks; so that whenever the natives wish to dine on birds, they have them at hand. Of the people of Sumeki and other places it is said that they have no huts, but dwell in

Rainfall is ample, varying from 50 to 65 inches annually, and is well spread over the year, January is generally the driest month. In the rainy season eleven inches may fall in a month. Tropical hailstorms are not infrequent, a recent one produced hail stones larger than an egg.

Elephants, mentioned by New as affording abundant ivory, are no longer abundant; though in South Kavirondo there is said to be about eight hundred of them left. Elephants and an increasing population cannot co-exist in the same area. Rhinos, are found in South Kavirondo, and hippos along the shores of the Lake. They are a real nuisance to the lakeside cultivators and a menace to canoes.

Forests, of which the Kakamega Forest is an important one, are strictly preserved. Bush and scrub, especially in river valleys and along the Lake shores, harbour the tsetse fly, the carrier of sleeping sickness, and clearing projects have been undertaken in order to get rid of this pest.

The chief interest of the inhabitants of Kavirondo lies in the soil. It is on the soil that the life of the peasant depends. We have three main types with a number of less prominent varieties; (*a*) red soil; (*b*) sandy soil from the granite formations; (*c*) black cotton soil.

The land of Kavirondo is endowed with tremendous fertility long dry periods have parched it; strong winds have beaten it, and distributed the soil wholesale over thousands of square miles; pluvial periods have scoured its surface, and worn down its valleys; it has gone through cycle after cycle of renovation and decay, with the result that its fertility can carry a heavy agricultural population.

But to write of the fertility of Kavirondo soils, and not to mention the enemies which are destroying it would be to give an incomplete picture. It has its enemies which attack it from above and below. From above, it is soil erosion, mainly by the scouring

population of the Colony is inhabiting rather less than one-thirtieth of the total area".

The three Kavirondo Reserves, North, Central and South comprise an area of 7,114 sq. miles., and the population is estimated at about 1.100.000. Roughly, the population density is 144 to the sq. mile.

A physical feature of the country is the Nyanza Lake. It dominates the physical geography. The drainage system of the country flows into it; it influences the climate and rainfall; it supports a large fishing industry; and some of the very richest agricultural land consists of parts of the old lake bed, now left high and dry by a combination of earth movements and decreased rainfall.

The second prominent physical feature of the country is Mount Elgon. It rises to a height of about 4,000 metres above sea level, though it stands on a plateau varying between one thousand and one thousand and four hundred metres, its actual height above the surrounding country is reduced to three thousand metres. It lies to the extreme north of the country.

Mighty earth movements have been responsible for other physical features. Escarpments formed by the sinking of the earth's crust along certain lines, lie north and south of the Kano Plain. Another, the Nandi Escarpment, forms part of the eastern boundary of Kavirondo, while yet another runs west along the north of the Kavirondo Gulf, and still another bounds the Lambwe Valley in South Kavirondo, not to mention the escarpment near Kisii.

Kavirondo is blessed with a few big rivers. Nothing like the Congo, Niger, Zambezi or the Nile, in comparison with which they are but streams, but large enough in their comparatively small setting to dominate their neighbourhood. The Nzoia, the Yala, the Kuja, the Sondo and the Migori River are the most important.

for what is now Mumias, and the country up to Mount Elgon. The father of Chief Mumia, named Shiundu, was ruling in those days. By Hannington's time Mumia had succeeded Shiundu. Both these chiefs welcomed the Sawahili traders, and enlisted their services in enforcing authority on the lesser tribes round about. Hannington did not touch the Lake at Kisumu but followed a route further north, which brought him to Mumias from the east, not the south.

The lure for the Sawahili traders was the ivory of Kavirondo. No other article was worth exporting such a long distance to the coast. But it is evident from New that articles of local make, like the tobacco pipe, found their way to the coast, probably as curios, not merchandise. The Sawahili traders brought into Kavirondo, cloth, copper wire, beads of many kinds, and latterly, a few guns and ammunition.

These trade routes gave way to the Uganda Railway, which reached Kisumu at the end of 1901, and henceforth Kisumu became the distributing centre for commerce.

Kavirondo "came of age", as a British protected country in 1914. In 1920 the people of Kavirondo passed from the status of subjects of a British Protectorate to the full status of British subjects for in that year the Protectorate became a colony.

The Land:

It was the Arab traders who gave the name Kavirondo to New. The inhabitants did not know it by this name, nor can they tell us how it came to be known to the outside world as Kavirondo. It is certain that it is a name given to it by Arab travellers.

The Report of the Kenya Land Commission, issued in 1933, in the section dealing with Kavirondo says, "The first point that strikes us is the very large population in these Reserves. The position is that rather more than one-third of the total

famous of its early administrators was Sir Frederick Jackson, from whom Chief Mumia accepted the protection of the British flag in 1890. While Jackson was touring, hard on his heels came the German traveller, Dr. Carl Peters, who opened Jackson's mail bag, which was following Jackson round, read its contents and endeavoured to outwit Jackson, and secure the country for German interests. Peters relates in his book, "New Light on the Dark Continent" how he induced a rival of Mumia, named Sakwa, to accept the protection of the German flag. But these local contentions were resolved by agreement between the British and the German Governments, and in 1893 Uganda was proclaimed a British Protectorate, in which Kavirondo was included, as also was the large tract of country extending from Lake Victoria to Naivasha. The position of East Africa was clarified still further in 1895 when the lands between Naivasha and the east coast of Africa were proclaimed the Protectorate of East Africa.

This division of territory between the two Protectorates gave a very large preponderance to the Uganda Protectorate, and was unsatisfactory in many ways. The Lake formed a natural boundary between the lands to the east and west of it, and recognition was given to this in 1902 when the land to the east of the Lake was transferred from the Uganda Protectorate to that of East Africa. Eighteen years later, in 1920, the East Africa Protectorate was proclaimed a Colony, now known as Kenya Colony.

Unlike the Coastal region of East Africa, Kavirondo suffered but little from the Slave Trade. This immunity was due, in large measure, to the fact that the Masai, much dreaded as warriors in those days, held sway over a large area between Kavirondo and the Coast.

In pre-British days the trade caravans, according to New's map, headed for Kisumu, from whence one route went west to the border of the Uganda Protectorate, while another struck north

KAVIRONDO
LAND AND PEOPLE

BY

MOHAMAD MITWALLY

Historical Introduction:

The first published account of Kavirondo and its people is that contained in "Life, Wanderings and Labours in East Africa", written by New and published in 1873. This account is based on information supplied by Arab traders whose trade routes he plotted out on a map which was published with the book.

Kavirondo is an extensive country which lies to the north-east of Lake Victoria along the Kavirondo Gulf. It is a part of Kenya and is locally considered a part of Nyanza Province.

According to New it is very fine, open level tracts of meadow land backed with forests, well watered with numerous streams, and richly stocked with wild animals of every description, the elephant being very numerous. It was on the latter account that the Arab traders went to Kavirondo. ivory being abundant and cheap.

Thomson, who wrote "Through Masai Land" was the first white man to enter Kavirondo. This was in 1882. Bishop Haunington was the first European to cross it, from east to west, (1885) on his way to Uganda. It was Hannington's journey to Uganda by the Kavirondo route, round the north end of Lake Victoria, that led to the use of that route by missionaries, administrators and others, instead of the older and longer route round the south of the Lake.

After the death of Hannington, the Imperial British East Africa Company turned its attention seriously to the task of administering the territory allotted to it in the interior. The most

Another section of the papyrus outlines the chief duty of the eldest son in the control and the disposing of the funerary property. They were vested in him. He made the ancestral offerings and was the only one, among his brothers and sisters, entitled to control and, under certain conditions, to dispose of the funerary property of his father and ancestors as can be surmised from the following text:

"There are the houses which are built of stone or of brick for the burial of people in them. If people are not buried in them, their owner is entitled to sell the property to another man. If, however, people are buried in them, their owner has no right to sell the property. No man can say 'The property is mine, it is my father's' except the eldest son. He is entitled to say 'The property is mine, it is my father's'."

These tombs were actually in the form of houses, for besides the burial chamber there were others used for the funerary rites and for the visits of the deceased man's relatives, where they held their funeral feasts. At present, families go out to the cemetery to keep family anniversaries, living in the private enclosures of tombs; the same custom is shown in the Hawara cemetery, with baskets, fruit-stones, heaps of dates, pieces of bread, and various remains of the feasts which were held there.

two portions allotted to each of the other children, and so he gets three portions in all. Now this raises another point. Who are those other children who receive two portions each? Are they his brothers and sisters alike? And supposing they were equally allotted why did the legislator not mention *one* portion instead of two, and so the eldest brother would have received an extra portion to make in all *two* instead of three portions? I can only understand from this that a daughter did not stand on an equal footing with her brother as far as the inheritance of property is concerned. In a case like this, where daughters and sons are envolved, the daughter received *one* portion of the estate while the son received *two*. *The eldest son received one extra portion to make in all three portions.*

From what has already been mentioned it is quite evident that the lot which fell to eldest sons varied from one to another in proportion to the number of co-heirs, alive and dead alike: for while the first were a liability to an eldest son, as they were his natural rivals, the latter were an asset, as their rights reverted to him. Thus it seems that an eldest son was originally in remote antiquity the sole heir of his father's estate.

It may be worth while to allude to certain points of similarity between our laws of inheritance and those of Feudal Europe (in Normandy, Flanders, Piccardy and England) and also in Jerusalem. In both systems of laws *a*) the property was divided among the children according to the rank of their birth; *b*) the eldest son had the advantage of keeping for himself the best part of the estate, and *c*) he was given an extra share known in the latter as the '*préciput*'.

From the phrase '*according to the rank of their birth*' mentioned in (*a*) above, I can only understand that, while the rest of the male children received an equal portion each and the females an equal portion each, seniority entitled its owner to priority in choosing his or her portion of the estate: *same quantity but better quality.*

being the interested party since their shares revert to him, is made to swear to that effect, and, doing so, he is allotted their shares. We proceed to the text:

"If one of them (sc. his brothers) dies after the death of his father and he has no children, it is the eldest son who takes his share. If one of them dies after having been given share, it is the eldest son who takes his share. If one of them dies after having been given share, he being childless, it is the eldest son who takes his share."

"If the younger brother brings action saying 'The children, whom our elder brother said they belonged to our father, are not his children, the elder brother is made to swear concerning them saying 'The children whom I said they belonged to our father, were his children' they died before their father died, there is no falsehood in them. The one, concerning whom he swears, is allotted share. The one, concerning whom he refuses to swear, is not allotted share."

8. Now what is this 'customary' share of the eldest son referred to at the beginning of No. 6 above? When the legislator at that point of the clause simply mentioned that the eldest son was given his share, without fixing that share, it was only because it was too well known, whether by custom or by law, to be defined. But fortunately enough he did not omit to do so in two other places of this section of which we may quote the following one as the better preserved of the two:

"If a man has no property besides one house, the house is divided into shares according to the number of his children, those alive and those who died before their father died; *and the eldest son is given an extra portion to make in all three portions*; and portions are allotted to the rest of his children according to what is described above."

Here it is explicitly stated that he, as the eldest son, receives one portion of the real property of his father over and above the

4. Fourthly "If a man dies, leaving lands, gardens, temple offices (?) and slaves; if he had childen and he did not assign shares to them while alive, it is his eldest son who takes possession of the property of his father."

5. If the yourger brothers bring action against their eldest brother saying 'Let him give us shares of the property of our father', the eldest brother is to write a list of the names of his younger brothers, the children of his father; those who are alive and those died before their father died, as well as his own name".

6. The eldest son is then given his customary share, which he has the right to choose from within the real estate of his father; he is given in addition all the personal property of his father. The rest of the real estate is then divided among his brothers, alive and dead alike, the males receiving their shares at first and then the females after them:

"And he (the eldest son) is given the share he likes in the lands, the gardens and the houses. What is fitting to give him is given. The documents and the bills (lit, papyri) of purchase, the cereals and the things that belong to his father, even the men, are given him. Except the document (lit. papyrus roll) written at his father's bidding (? *disposition prise par le père de son vivant*) and the other things given him, the remaining property is next divided into shares according to the number of his children. Then his male children receive shares according to the rank of their birth and his female children receive after them according to their rank of birth."

7. The eldest son receives the shares of those of his brothers who died before their father's death and also the shares of such brothers as were allotted shares and died childless. Later on a litigation between him and one of his younger brothers ensues, in which the latter contests the authenticity of such brothers as have been declared by his elder brother as the children of his father and who died before their father died. The elder brother,

Let us now first see what our papyrus says about the eldest son before we attempt to account for these rises and falls in his fortune:

1. The epithet "eldest child" is applied to the male children: "If a man first begets female children, and later on he begets male children, it is from among the male children that he has his eldest child." Inverted comas refer to the literal translation of passages quoted from the Demotic text.

2. A father can assign all his property to his eldest son and thus deprive the rest of his children:

"If a man writes a title for one of his children saying 'Behold, my eldest son, I have given thee all my belongings'; if the man dies without having written otherwise, the younger children cannot bring action against their eldest brother to have the property shared."

3. But it seems from the next clause that a father can, on the other hand, assign all his property to his younger son:

"If a man dies, leaving his property in the hands of the younger son; and if the elder son brings complaint against his younger brother on account of the property; and if the younger son says 'The property, for which he has brought action against me, is mine; my father is he who gave it to me', he is made to swear saying 'It is my father who gave me this property, saying Take it for thyself'. If he swears, his elder brother is not given the property. If he dœs not swear, the property is given to his elder brother, and a title is written for him to the property of his father."

This clause shows how important the oath was in Ancient Egypt and how the Egyptians held it in awe and regarded it with the deepest respect. A man would not give a false oath even if this won him the whole of his father's estate; for this would certainly call forth the irrevocable wrath of the gods upon him and upon generations of his children after him.

RIGHTS AND DUTIES OF THE ELDEST SON

According to the Native Egyptian Laws of Succession of the Third Century B.C.

BY

GIRGIS MATTHA

One of the most important topics dealt with by a Demotic legal papyrus from Hermopolis West, now at the Museum of the Egyptological Institute, Giza, and dating from the end of the third century B.C., is the question of succession. The imperfect condition of this section of the papyrus is much to be lamented, for if more complete it would have furnished us with a still more much needed information about a subject, our knowledge of which is very inadequate. As it is, twelve lines towards the end being incomplete both in the middle and at the end, this section of the papyrus whets our curiosity without satisfying it. Nevertheless, the remaining lines which are in a comparatively good state of preservation and which form the major part of this section furnish us (*inter alia*) with information enough to solve once for all one of the much debated problems of succession, namely, the share of the eldest son. " Scholars have been at variance regarding this point. Gradenwitz in his *Erbstreit*, p. 3, stated it as a definite rule that the eldest son took two-thirds; and Mitteis, *Grundzüge*, p. 234, quotes other instances. But Kreller, *Erbrechtliche Untersuchungen*, 1919, p. 149 *seq.*, does not admit that he had an indefeasible right to it. In Demotic documents are found references to an elder son taking a larger share, *e.g.* P. Berlin 3099 (ed. Spiegelberg, p. 13) and 3118 (p. 14) and the P. dem. Wiss. Ges. Strassb. No. 16 (*Erbstreit*, u.s.), but the evidence so far hardly bears out Gradenwitz's statement" (*Cf.* Thompson, *Family Archive*, p. XXI).

TABLE 2

የኢትዮጵያ ፡		
ዓ.ም	መሪ ፡	ዓ.ም ፡
1922	ኘ	፲፱፻፳፪
1923	ጉ	፲፱፻፳፫
*	*	*
1924	ነ	፲፱፻፳፬
1925	ገ	፲፱፻፳፭
1926	ሡ	፲፱፻፳፮
1927	ተ	፲፱፻፳፯
*	*	*
1928	ጉ	፲፱፻፳፰
1929	ሠ	፲፱፻፳፱
1930	ነ	፲፱፻፴
1931	ገ	፲፱፻፴፩
*	*	*
1932	ተ	፲፱፻፴፪
1933	ኘ	፲፱፻፴፫
1934	ጉ	፲፱፻፴፬
1935	ሠ	፲፱፻፴፭
*	*	*
1936	ገ	፲፱፻፴፮
1937	ሡ	፲፱፻፴፯
1938	ተ	፲፱፻፴፰
1939	ኘ	፲፱፻፴፱
*	*	*
1940	ሠ	፲፱፻፵
1941	ነ	፲፱፻፵፩
1942	ገ	፲፱፻፵፪
1943	ሡ	፲፱፻፵፫
*	*	*
1944	ኘ	፲፱፻፵፬
1945	ጉ	፲፱፻፵፭
1946	ሠ	፲፱፻፵፮
1947	ነ	፲፱፻፵፯
*	*	*
1948	ሡ	፲፱፻፵፰
1949	ተ	፲፱፻፵፱

ንጉሠ ፡ ነገሥት ፡ ቀዳማዊ ፡ ኃይለ ፡ ሥላሴ ።
ለዘላለም ፡ ይኑሩልን ።

መስከረም ነሐሴ ታኅሣሥ መጋቢት ሰኔ ፦ ሚያዝያ
መጋቢት ጥር ጥቅምት የካቲት ኅዳር ሐምሌ ታኅሣሥ

ነ ሠ ጉ ኘ ተ ሡ ገ

እሁድ ሰኞ ማክሰኞ ረቡዕ ሐሙስ ዓርብ ቅዳሜ

1	2	3	4	5	6	7
8	9	10	11	12	13	14
15	16	17	18	19	20	21
22	23	24	25	26	27	28
29	30	*	*	*	*	*

የአወጣጥ ፡ ማመልከቻ ።
እያንዳንዱ ፡ ዓመተ ፡ ምሕረት ፡ መሪ ፡ ፊደል ፡ አለው ።
ለምሳሌ ፤ ፲፱፻፳፪ ዓ ፡ ም ፡ "ኘ" ፡ ተብሎ ፡ ለ "ኘ" ፡ የተገለው ፡
መሪ ፡ ፊደል ፡ በተሠለፈው ፡ ወር ፡ ትይዩ ፡ ሲደረግ ።
በስተግርጌው ፡ የሳምንቱ ፡ ዕለታት ፡ ከሞኙኙ ፡ የወር ፡ ዕለታት ፡
ቀጥሮች ፡ ይገኛሉ ። ሲሳሙም ፡ በዚሁ ፡ ዓይነት ፡ ወሩንና ፡ መሪ ፡
ፊደሉን ፡ በማነጻጸር ፡ ይታወቃል ። ዱ ፡ ሙሉጌታ ፡ ካሚሎ ።

የኢትዮጵያ ፡		
ዓ.ም	መሪ ፡	ዓ.ም
፲፱፻፶	ኘ	1950
፲፱፻፶፩	ጉ	1951
*	*	*
፲፱፻፶፪	ነ	1952
፲፱፻፶፫	ገ	1953
፲፱፻፶፬	ሡ	1954
፲፱፻፶፭	ተ	1955
*	*	*
፲፱፻፶፮	ጉ	1956
፲፱፻፶፯	ሠ	1957
፲፱፻፶፰	ነ	1958
፲፱፻፶፱	ገ	1959
*	*	*
፲፱፻፷	ተ	1960
፲፱፻፷፩	ኘ	1961
፲፱፻፷፪	ጉ	1962
፲፱፻፷፫	ሠ	1963
*	*	*
፲፱፻፷፬	ገ	1964
፲፱፻፷፭	ሡ	1965
፲፱፻፷፮	ተ	1966
፲፱፻፷፯	ኘ	1967
*	*	*
፲፱፻፷፰	ሠ	1968
፲፱፻፷፱	ነ	1969
፲፱፻፸	ገ	1970
፲፱፻፸፩	ሡ	1971
*	*	*
፲፱፻፸፪	ኘ	1972
፲፱፻፸፫	ጉ	1973
፲፱፻፸፬	ሠ	1974
፲፱፻፸፭	ነ	1975
*	*	*
፲፱፻፸፮	ሡ	1976
፲፱፻፸፯	ተ	1977

15	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت
16	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد
17	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين
18	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء
19	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء
20	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس
21	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة
22	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت
23	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد
24	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين
25	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء
26	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء
27	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس
28	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة
29	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت
30	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد

TABLE 1 (*contd.*)

	1	2	3	4	5	6	7
1	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت
2	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد
3	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين
4	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء
5	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء
6	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس
7	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة
8	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت
9	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد
10	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين
11	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء
12	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء
13	ዓርብ الجمعة	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس
14	ቅዳሜ السبت	እሑድ الاحد	ሰኞ الاثنين	ማክሰኞ الثلاثاء	ረቡዕ الاربعاء	ሐሙስ الخميس	ዓርብ الجمعة

١٦٣٠	1906	١٦٥٨	1934	5	7	2	4	6	1	3
١٦٣١	1907	١٦٥٩	1935	6	1	3	5	7	2	4
١٦٣٢	1908	١٦٦٠	1936	1	3	5	7	2	4	6
١٦٣٣	1909	١٦٦١	1937	2	4	6	1	3	5	7
١٦٣٤	1910	١٦٦٢	1938	3	5	7	2	4	6	1
١٦٣٥	1911	١٦٦٣	1939	4	6	1	3	5	7	2
١٦٣٦	1912	١٦٦٤	1940	6	1	3	5	7	2	4
١٦٣٧	1913	١٦٦٥	1941	7	2	4	6	1	3	5
١٦٣٨	1914	١٦٦٦	1942	1	3	5	7	2	4	6
١٦٣٩	1915	١٦٦٧	1943	2	4	6	1	3	5	7
١٦٤٠	1916	١٦٦٨	1944	4	6	1	3	5	7	2
١٦٤١	1917	١٦٦٩	1945	5	7	2	4	6	1	3
١٦٤٢	1918	١٦٧٠	1946	6	1	3	5	7	2	4
١٦٤٣	1919	١٦٧١	1947	7	2	4	6	1	3	5
١٦٤٤	1920	١٦٧٢	1948	2	4	6	1	3	5	7
١٦٤٥	1921	١٦٧٣	1949	3	5	7	2	4	6	1

TABLE 1

Year of Mercy ዓመተ፡ ምሕረት፡ 1891-1919 Martyrs للشهداء ١٦١٨—١٦٧٣				መስከረም፡ ሚያዝያ፡	ጥቅምት፡ ግንቦት፡	ኅዳር፡ ሰኔ፡	ታኅሣሥ፡ ሐምሌ፡	ጥር፡ ነሐሴ፡	የካቲት፡ ጳጕሜን፡	መጋቢት፡
للشهداء	ዓመተ፡ ምሕረት፡	للشهداء	ዓመተ፡ ምሕረት፡	توت برمودة	بابه بشنس	هاتور بؤونه	كيهك أبيب	طوبه مسرى	أمشير النسىء	برمهات
١٦١٨	1894	١٦٤٦	1922	4	6	1	3	5	7	2
١٦١٩	1895	١٦٤٧	1923	5	7	2	4	6	1	3
١٦٢٠	1896	١٦٤٨	1924	7	2	4	6	1	3	5
١٦٢١	1897	١٦٤٩	1925	1	3	5	7	2	4	6
١٦٢٢	1898	١٦٥٠	1926	2	4	6	1	3	5	7
١٦٢٣	1899	١٦٥١	1927	3	5	7	2	4	6	1
١٦٢٤	1900	١٦٥٢	1928	5	7	2	4	6	1	3
١٦٢٥	1901	١٦٥٣	1929	6	1	3	5	7	2	4
١٦٢٦	1902	١٦٥٤	1930	7	2	4	6	1	3	5
١٦٢٧	1903	١٦٥٥	1931	1	3	5	7	2	4	6
١٦٢٨	1904	١٦٥٦	1932	3	5	7	2	4	6	1
١٦٢٩	1905	١٦٥٧	1933	4	6	1	3	5	7	2

TABLES

= this gives an idea of the dryness of the season which begins after the rainy season and ends at the beginning of the rainy season in June. It shows, that the animals suffer from lack of food.

[rhymed 11/11]

(c) ዶሮ፡ ተጮኸ፡ ሌሊት፡ የለም፤
ተቡሔ፡ ወዲያ፡ ክረምት፡ የለም:: (or ቡሔ፡ ታለፈ፡ ዝናብ፡ የለም::)

or

ቡሄ፡ ታለፈ፡ የለም፡ ክረምት፤
ዶሮ፡ ተጮኸ፡ የለም፡ ሌሊት::

dōrō tačōha lēlīt jallam ;

tabūhē uadijā keramt jallam (or būhē tāllafa zenāb jallam).

The cock crows, the night is over ;

after Būhē, the winter is over (or after Būhē, the rain is over).

[rhymed 9/9 (or 9/)]

or

būhē tāllafa jallam keramt ;

dōrō tačōha jallam lēlīt.

After Būhē, the winter is over ;

the cock crows, the night is over.

= Būhē is the feast of Dabra Tabor or Transfiguration on the 13th of Nahāsē (August). The winter, the rainy season, ends on September.

[rhymed 9/9]

The intercalary days are the season of peace and the month of controversies.

[rhymed 3/5//5]

* * *

The four seasons are :—

Summer ዘመነ፡ በጋ፡ zamana baga : the dry season, that begins at the end of the rainy season and ends at the beginning of the rainy season of the following year in June. It is also called በልግ፡ balg : October–June. Balg is the name of autumn too.

Winter ዘመነ፡ ክረምት፡ zamana keramt : the rainy season or the Ethiopian winter from June–September.

Spring ዘመነ፡ ጽጌ፡ zamana ṣeggē : the season of flowers, or the spring of Ethiopia; it is also called መጸው፡ maṣaụ : the season which follows the rainy season.

Autumn ዘመነ፡ ዘርእ፡ zamana zar' : the seed-time from March to June. It is also called ጸደይ፡ ṣadāị the Ethiopian autumn, the season which comes before the rainy season or winter.

(*a*) ክረምቱን፡ የፈጃ፡ በጋ፤ ዕዳውን፡ የፈጃ፡ ዜጋ። (or ፀጋ።)
kĕramtūn ịafağğa bagū ; 'edūụen ịafağğa zēgā (or ṣaggā)
Summer comes after the winter is finished (being a true), subject (or richness) comes after the debt is paid.
[rhymed 3/5//3/5]

(*b*) ውሻ፤ ምን፡ ትበያለሽ፡ አለ፡ ጌኛ፡
ቢበልግም፡ እኔት፤ ባይበልግም፡ አንቺን።
ụĕšā ; men tĕbaịāllaš 'ala gēñā
bibalgem 'ellēt ; bāịbalgem 'ančine.
O dog ! what are you eating ? said the pack horse when it rains in the dry season, I will be content with the husk (of the grain) ; if not, with you.

= if the rain is drizzling in June, it will fall violently in July.

[rhymed 6/6]

(b) ሐምሌ፤ ወርኀ፡ ሰቈቃው፡ ወዋይሌ።

hamlē ; uarha sakuakāu uauailē.

July ; month of sadness and lamentation.

[rhymed 2/8/]

12.—Nahasē (= Misra = Aug.) ነሐሴ፡

(a) የነሐሴ፡ ወሀ፡ ጥሩ፡ ነው፤ የሚጠጣው፡ የለም፤

የድሃ፡ ነገር፡ ፍሬ፡ ነው፤ የሚሰማው፡ የለም።

janahasē uaha terū nau ; jamītattāu jallam ;
jadehā nagar ferē nau ; jamīsammāu jallam.

The water of August is good ; nobody drinks it ;
the talk of the poor has sense (= fruit) ; nobody listens to it.

= the water in August in the streams and rivers is clear, after two months' rain ; but as it is somewhat cold nobody feels like drinking it.

[rhymed 9/6/9/6]

(b) ነሐሴ፤ ወርኀ፡ መሰንቆሁ፡ ለውዳሴ።

nahasē ; uarha masankōhū laueddāsē.

August is the month of singing praises on the 'masanqo' (= stringed instrument with one chord.)

[rhymed 3/6/3]

13.—Pāguemēn (El-Nasī' = Epagomenai)

ጳጕሜን፤ ዕለተ፡ ፍርቃን፤ ወወርኀ፡ ተስናን።

pāguemēn ellata ferkān ; uauarha tasnān.

If they do not sow in June; if they do not reap in October, how will grain be found? by standing along the way!

= how can you get food without working?

[rhymed 7/7/6.6/]

(*e*) ሰኔ፡ ወርኅ፡ ዘአልቦ፡ ኵነኔ።

sanē; u̯arha za'albo kuennanē

June, month which gives no satisfaction (judgment).

[rhymed 2/8/]

(*f*) ለሞኙ፤ ሰኔ፡ በጋው፡ ነው።

lamōn̄; sanē bagāu̯ nau̯

To the foolish, June is summer.

= in June the sky is clear and it looks like summer, although the heavy rain begins in this month.

[rhymed 2/2.3/]

(*g*) ሰኔ፤ ነገ፡ በኔ፡ [1]

sanē; naga banē

June; will be to-morrow against me.

= as June is causing damage through its rain, everybody should know that the damage which is caused to the others will reach him in turn.

[rhymed 2/2.2/]

(*h*) *cf.* 11, *a*.

11.—Hamlē (= Abīb = July) ሐምሌ፡

(*a*) በሐምሌ፡ ወጨፎ፤ በሰኔ፡ እርክፍ፡ካፎ።

bahamlē u̯ačafō; basanē'erkefkāfō

In July violent rain; in June drizzling rain.

[1] Proverbes Abyssins, J. Faïtlovitch, Paris 1907, p. 34.

May ; the month of winds

or

May ; the month of spirits.

= this month is windy and the spirits move easily in it.
A spirit is supposed to come from heaven once a year, appearing in this month.

[rhymed 2/2.3/]

10.—Sanē (=Ba'ūnah = June) ሰኔ፡

(a) ሰኔ፡ መቃሬጣያ፤ ኅዳር፡ መገናኛ፡፡

sanē maḳḳāṭarii̯ā ; hedār magganāñā.

A date fixed in June ; the meeting will take place in Nov.
= the rainy season begins in June and ends in Sept.; but the people are not capable of travelling before the end of one or two months when the earth is dry again.

[rhymed 6/6/]

(b) አላጋጭ፡ ገበሬ፤ ይሞታል፡ በሰኔ፡፡ (or በሰኔ፡ ይሞታል፡፡)

'allāgāč̣ gabarē ; i̯ĕmōtāl basanē.

The festive farmer dies (suffers) in June.

[rhymed 6/6/]

(c) ጐኑ፡ የኔ፤ ቀኑ፡ ሰኔ፡፡

guanū i̯anē ; ḳanū sanē.

The ribs are mine, it is June.
= I am too weak to support the cold of June

[rhymed 4/4/]

(d) በሰኔ፡ ታልዘሩ፤ በጥቅምት፡ ታለቀሙ፤ እህል፡ የት፡ ይገኛል፡ በደምበር፡ ቢቆሙ፡፡

basanē tālézarrū ; baṭeḳemt tāllaḳḳamū ; 'ehel i̯at i̯egaññal badambar bīḳōmū.

3.—Hedār (= Hātūr = Nov.) ኅዳር፡

(*a*) የጎበዝ፡ ሹም፤ የኅዳር፡ ጉም፤ አገር፡ ይደረግም፡፡

jagōbaz šūm ; jahedār gūm ; 'agar jedaraggem.

The chief of the braves, the fog of November, destroy the country.

[rhymed 4/4/2.4/]

(*b*) *cf.* 10, *a*.

4.—Tahsās (= Kiyāk = Dec.) ታኅሣሥ፡

5.—Ṭer (= Tūbah = Jan.) ጥር፡

እንደ፡ ጥር፡ ጌኛ፡ ትወዘወዛለች፡

'enda ṭer gēñā tèuazauazālač.

Like the pack horse of January staggers in going. January is one of the dry months, with cold weather and no pasture.

6.—Yakātīt (= Amshīr = Febr.) የካቲት፡

7.—Magābīt (as pronounced in Ethiopic) or Maggābīt (in Amharic) (= Barambāt = March) መጋቢት፡

(*a*) መጋቢት፤ ወርኀ፡ መድኀኒት፡፡

maggābīt ; uarha madhānīt.

March is the month of remedy.

[rhymed 3/2.3/]

8.—Miyāzyā (Baramūdah = April) ሚያዝያ፡፡

(*a*) ሚያዝያ፤ ወርኀ፡ ሃሌ፡ ሉያ፡

mijazeja ; uarha hāllē lūjā.

April ; the month of singing Hallelujah.

[rhymed 4/2.4/]

9.—Genbōt (= Bashans = May)

(*a*) ግንቦት፤ ወርኀ፡ መናፍስት፡፡

genbōt ; uarha manāfest.

The Ethiopians have a sort of a popular calendar according to months and seasons. We may call it "devices which accompany the calendar". They are based on meteorological phenomena: rain, dryness, coldness, heat, etc. In the same way the Egyptians have their own devices, which are based on the results of keen observation of the climate of their country (1). The devices are, therefore, combined with topical and peculiar observations.

The proverbs mentioned below have been communicated to the present writer during his sojourn in Addis Ababa 1943–1945, by the natives. Some of them are to be found in Baeteman's Amharic Dictionary (Dire-Daoua 1929).

The texts of the proverbs in Amharic characters, their transcriptions and their meanings are given. The meter is counted by the number of syllabus :—

1.—Maskaram (=Tūt=Sept.) መስከረም :

No proverb was mentioned to the present writer regarding this month.

2.—Ṭeqemt (=Bābah=Oct.) ጥቅምት :

(a) አትረፊ : ያላት : ዎፍ : በጥቅምት : ትሞታለች ::

'attrafī i̭āllāt ṷōf baṭeqemt temōtāllač.

The bird that does not rest, dies in October.

or

The bird that (God) said to him "you should have no rest", dies in October.

= the harvest falls by the end of October.

(b) *cf.* 10, *d.*

---

(1) *Cf.* Yacoub Artin Pacha, Devises qui accompagnent les noms des mois Coptes dans la langue populaire arabe, en Egypte, in *Bulletin de l'Institut Egyptien* 1891, Série III, n. 2, pp. 250–270 ; and Supplément à l'Etude des Devises, *ibid.*, Série IV, n. 5, 1904, pp. 41–49.

Enno Littmann, Ein koptisch-arabischer Bauernkalender, in *Adhandlungen der Herder-Gesellschaft und des Herder-Instituts zu Riga*, sechster Band, No. 3, pp. 108–116, Riga 1938.

the year 1855. He is known as Dağäč Ubie of the North የሰሜኑ : ደጃች : ውቤ: (1)

2.—*The time of Egyptian rule or the time of Mestenger Basha or Musinger Basha* (Werner Munzinger Pasha, 1870–1880). ሙንሲንጀር : or ሙንዚጀር: or ሙንዚንጀር :

3.—*The war of Embabbo* የእምባቦ : ዘመቻ : ia'embābbō zamačā, a war which took place in the region of Embabbo (south of the Blue Nile in Galla Gudru) between King Menelik II, King of Shoa, and King Takla Hāymānōt, King of Goğğam. Menelik won the battle in the year 1882.

4.—*The pest period* ክፉ : ቀን : kefū qan (the bad day) or የከብት : እልቂት : iakabt 'elqīt (destruction of cattle). This was the year 1888.

5.—*The year of Intīčō* እንትጮ : i.e. the year 1096; the battle of Adua; general Baratieri proceeded from Intīčō to Adua.

6.—*The war of Sagalē* የሰገሌ : ዘመቻ : iasagalē zamačā. The war which took place in Sagalē (in the plane north of Ankabor) between King Mīkā'ēl and Liğ Iyāsū in 1916. Much blood was shed on both sides.

7.—*The coronation of the Emperor Haile Sellasse I*, 2nd November 1930. የዘውድ : በዓል : (23rd Teqemt 1923).

8.—*The Italian occupation* 1936–1941, or *The Italian period* የኢጣልያ : መንግሥት : (2).

9.—*The restoration of the Empire* የመንግሥታችን : መመለስ : iamangeštāčen mamallas (the return of our government) on the 27th of Miyāzyā 1934 (1941).

---

(1) *Cf.* TAKLA SADEQ MAKURIJĀ, The History of Ethiopia from the Emperor Theodore to the Emperor Haile Sellasse I, Addis Ababa 1945 (1937), p. 14

ተክለ: ጻድቅ: መኩሪያ ። የኢትዮጵያ : ታሪክ ። ከአፄ : ቴዎ ድሮስ : እስከ: ቀዳማዊ: ኃይለ: ሥላሴ ። አዲስ : አበባ : ፴፯

(2) *Cf. op. cit.*, p. 168.

made another version based on the same system (see Table 2). It begins with the year 1922, year of Mercy (1929 A.D.) i.e. the year of the coronation of H.I.M. Haile Sellase I. The columns represent 28 years each. Columns of 28 years each could be added before or after the columns printed. Each year is named by a letter of the seven letters ንጉሠ፡ ነገሥት "king of kings". For every leap year the letter in turn is omitted. Thus: 1922 (ን), 1923 (ጉ), 1924 (ነ instead of ሠ), 1925 (ገ), etc. To put it into practice turn the circle, fixing the column of the letter which indicates the given year as an extension in front of the column indicating the given month. Then the lower semicircle, which shows the days of the week, will point to the succession of the days of the given month.

* * *

Different peoples all over the world begin their computations with an event of historical or religious importance. This does not mean, that the computation beginning with events other than historical or religious was not adopted. In Ethiopia the beginning of a reign of a King or Emperor is taken as a starting date. A period of great wonders and signs is also taken as a starting date. They reckon the birth of their children by them or by the death of a well known man, or by the time of their robbing or their being robbed, or by the time of an interior war. This method of computation gives as only the year or the period of the event; but never the month and the day.

These are some of the events used in Ethiopia as starting dates :—

1.—*The year of the first Ubie* (1844). Dağāč Ubie ደጃ (ዝማ) ች: ውቤ: reigned in Northern Ethiopia about the middle of the 19th century and was vanquished by King Theodore in

continues for 19 years. This number indicates the difference between the solar year and the lunar year.

The Maṭqe' መጥቅዕ : means *a bugle* or *trumpet*. The Maṭqe' is a sort of a lunar regulation. The Epact and the Maṭqe' indicate the date of the first new moon of the year. The Maṭqe' determines the date of the moon of the autumnal equinox.

We get the same Epact each 19th year; but the cycle of the Evangelist occurs after four of these Epacts $19 \times 4 = 76$ years, i.e. after 76 years the same Epact and Evangelist coincide again.

The Ṭentyon ጥንትዮን (1) indicates the day of the week, in which the year begins. The succession of the days of the year repeats itself periodically each 28th year. Thus the years of grace or Misericordia ዓመተ፡ ምሕረት:: *'āmata meḥrat* represents the years of the lunar cycle 532 years, in the term that the periodicity of the lunar cycle of 19 years, the solar cycle of 28 years and the middle cycle of 76 years, begins with the same definitives.

Accordingly I propose a system of a permanent calendar for both the Coptic calendar of the Era of the Martyrs and the Ethiopic calendar of the Era of Mercy.

As the succession of the days of the year is repeated each 28th year, one can fill columns—each of 28 years—before or after the calumns given in the calendar of Table 1. In order to use this calender, the number put under any given month should be noted. This number, repeated at the top of the columns on the front page indicates the succession of days in that month. Since this table was not practical enough, the present writer

---

(1) Ṭentyon is a corruption of πλινθίων apparently due to the confusion between ጥ (ṭ) and ፐ (p) or rather to the confusion of the diacretical points in the transcription from Arabic تنتيون for بلنثيون

(532 years) to which they correspond. In Egypt, in the Xth and XIth centuries, the Coptic writers adopted the Christian era of the world of Annianus (1) beside the era of the Martyrs and the cycle of the moon of 532 years calculated according to the year of the creation 5501 or the year of the Martyrs 284 A.D.

The Ethiopians made use of the cycle of the moon, and they introduced later the Christian era. The era of the Incarnation, their national era, is thus according to the Christian era :—

Era of the creation of the world of Annianus also called Alexandrian	Era of the Incarnation according the Copts and the Ethiopians	Era of Dionysius
5492	9 B.C.	1 B.C.
5493	8 B.C.	1 A.D.
5500	1 B.C.	8 A.D.
5501	1 A.D.	9 A.D.
7442	1942 A.D.	1950 A.D.

In addition to a date in an Ethiopian Ms. four complementary definitions are usually given :—

The Evangelist, the Epact, the Maṭqe' and the Ṭentyon.

The Evangelist: the name of one of the Evangelists given according to the year as mentioned above.

The Epact አበቅቴ: 'äbaqte أبقطى (2) indicates the age of the moon in the first day of Maskaram (Tūt). The number of the Epact increases by 11 days from year to year. This progression

(1) It is known in the Coptic-Arabic manuscripts as :
السنة الميلادية الشرقية or السنة الميلادية القبطية .

(2) *Cf.* The Coptic Calenderical Computation and the System of Epacts known as "The Epact Computation" حساب الأبقطى ascribed to Abba Demetrius the XIIth Patriarch of Alexandria, by G. SOBHY, in Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, t. VIII, Cairo 1942, pp. 169-199.

IXth century the era of Annianus seems to have been completely transformed, combined with the era of Panodorus and assigned the name of the era of the Alexandrians. Accordingly, the era of the creation of the world begins on the 29th of August 5493 B.C., and the Christian era of the world begins on the same day in 5501 B.C. This is the system which has been inaugurated by these two Egyptian monks, and it was taken over by the Coptic chronographers.

In the course of time, the Christian era of the world, founded by Annianus, gave birth to an era of incarnation of Christ, which was adopted by the Copts and, above all, by the Ethiopians.

The Ethiopians adopted the date of the birth of Christ fixed by Annianus, i.e. in the year 5501 A.M. Though they do not ascrible to him the fixing of this date, as far as we are informed by the Mss. No mention of the names of Panodorus and Annianus is made in the existing Ethiopian Mss. The Alexandrian and Ethiopian eras are seven months earlier than the era of Annianus (Sept.—March), as they begin on the 29th August (Julian).

Therefore, in order to convert the Alexandrian and Ethiopian dates to Christian era dates, one has only to substract 5492 from the given year of the world, the remainder is the A.D. year, which agrees with the Ethiopian year from January the 1st to August 29th. From Sept. to Dec. 5493 is substracted from the given date of the world, and this gives the corresponding Ethiopian date.

According to the Ethiopian Mss. he date of the creation of the world is 5493 B.C. They used the 532 years, the cycle of moon, beginning with A.M. 5501. The difference between the era used by the Ethiopians and the era of Dionysius is 7 (8 leap) years.

The era "Year of Mercy" *'āmata meḥrat* is applied both to the years of the Lord and to the years of the cycle of the moon

The Eras used in Ethiopia are: —

1. The Era of the creation of the world.
2. The Era of Mercy.

The first chronology of the creation of the world, that was shaped under Alexandrian influence, was that of Julian the African. He composed his chronology about the year 221 A.D. and fixed the creation in the year 5500 B.C. (1).

This era has not been adopted by any Egyptian author.

It would appear from Georgius Syncellus that it was initiated by the Alexandrian monk Panodorus, who lived in the reign of the Emperor Arcadius (395–408 A.D.) and founded a system of chronology based on Egyptian and Biblical sources. In 412 A.D. he fixed the incarnation of Christ in the year 5493 of the era of the world, and he made the year 1 A.M. begin on the 1st of Tūt, the first day of the Coptic calendar = 29th August 5493 B.C. (9th Sept. Gregorian) = 1st Maskaram (Ethiopian).

A contemporary of Panodorus, an Egyptian monk Annianus by name, also mentioned by Syncellus (2), who was the contemporary of Theophilus, the 22nd Patriarch of Alexandria (385–412 A.D.) fixed the beginning of the creation of the world on 25th March 5492 B.C. and placed the birth of Christ the 25th December 5501 A.M. He put the beginning of the Christian era on the 25th of March 5501. He was also the first to conceive the 532 year's cycle. His era was accepted officially by the Empire, and it was considered the ecclesiastical era. In the VIIth century this era suffered various changes, which were due to the rules of the paschal computation and the civil era. In the

(1) *Cf.* H. Gelzer. Sextus Julius Africanus und die byzantinische Chronographie, Leipzig 1880–1898.

(2) *Cf.* H. Gelzer, *op. cit.*; Dindorf, Syncellus, Leipzig 1829; Serruys. De quelques ères unitées chez les chroniques Byzantins, in Revue de Philologie, de Littérature et d'Histoire anciennes, t. XXXI (1907): Fotheringham, in Journal of Theological Studies, Oct. 1921.

The Mss. testify that the Ethiopians made mention of different *Eras* (1):

The Era of the World ዓመተ፡ ዓለም፡ ('āmata 'ālam).

The Era of the Incarnation ዓመተ፡ ሥጋዌ፡ ('āmata šegāwē) or ዓመተ፡ ትሥጉት፡ እግዚእነ፡ ክርስቶስ፡

The Era of the Martyrs, or the era of Diocletian ዓመተ፡ ሰማዕታት፡ ('āmata samā'tāt).

The Era of the Synod of Nicea ዓመተ፡ ሃይማኖት፡ ኒቅያ፡

The Era of the Higra ዓመተ፡ ተንበላት፡ ('āmata tanbālāt).

The Era of the conversion of Ethiopia ዓመተ፡ እምነት፡ ኢትዮጵያ፡ ('āmata 'emnata 'ityopyā).

The Era of Mercy ዓመተ፡ ምሕረት፡ ('āmata meḥrāt).

The Era of the Martyrs of Antioch ዓመተ፡ ሰማዕታት፡ አንጾኪያ፡ ('āmata samā'tāta 'anṣōkīyā).

The Era of the World of Byzanz ሐሳበ፡ ቢዘን፡ (ḥāsāba bīzan) (2).

The Era of the birth of Christ: ዓመተ፡ ልደት፡ ክርስቶስ፡ መድኅኒነ፡; ዓመተ፡ ልደተ፡ እግዚእነ፡ እየሱስ፡ ክርስቶስ፡ ('āmata ledata krestos madḫanīna).

The Era of the Seleucids or Alexandrian ዓመተ፡ እስክንድር፡ ('āmata 'eskender) or ዓመተ፡ እስክንድር፡ ዘክልኤ፡ አቅርንቲሁ።

The Era of Jesdegerd the Persian ሐሳበ፡ የዠርዳዠርድ፡ ወልደ፡ ሻህሪን፡ ፋርሰዊ። (ḥasāba yaždāžerd walda šabrīn farsāwī).

It seems that most of these Eras were translated, as usual, from Arabic Mss. without being used or understood in Ethiopia (3).

---

(1) *Cf.* Catalogus Codicum Manuscriptorum orientalium qui in Museo Britannico asservantur, Pars Tertia, Codices Æthiopicos Amplectens, London 1847; Bibliothèque de l'école pratique des Hautes Etudes, 104ème Fascicule, Chronique de Galāwdēwōs, W.E. Conzelman, Paris 1895, ch. XLIV, XCV.

(2) *Cf.* P. Mauro da Leonessa, Un Trattato sul Calendario redatto al tempo di Rè 'Amda Ṣyon I, in Rassegna di Studi Etiopici, anno III, n. III, Settembre-Dicembre, p. 315, Roma 1943.

(3) *Cf.* M. Kamil, Bull. de la Soc. d'Arch. Copte, t. VII (1941), Le Caire 1942, N. 61-71.

The Ethiopian months coincide exactly side by side with the Coptic and are the following:—

Maskaram = Tūt

Ṭeqemt = Bābah

Khedār (Hedār in Amharic) = Hātūr

Takhśāś (Tahsās in Amharic) = Kiyāk

Ṭer = Ṭūbah

Yakātīt = Amšīr

Magābīt or Maggābīt = Baramhāt

Miyāzyā = Baramūdah

Genbōt = Bašans

Sanē = Ba'ūnah

Ḥamlē (Hamlē in Amharic) = Abīb

Naḥasē (Nahasē in Amharic) = Misrā

Pāguemēn = al-nasī' or al-Šahr al ṣaġīr الشهر الصغير "the little month". It is also called in Ethiopic Ne'ūs = little [month].

Of these Ethiopian months neither the origin nor the etymology of the names are known.

Each Ethiopian year is named after one of the Evangelists in the order of the New Testament: Matthew, Mark, Luke and John; thus: zamana Mātēwōs; zamana Mārqōs; zamana Lūqās; zamana Yoḥannes.

The leap year, with six days of Pāguemēn, is called the year of Luke (zamana Luqās).

The years divided by 4, leaving no remainder, are years of John; leaving a remainder of 1, are years of Matthew; a remainder of 2, are years of Mark; and a remainder of 3, are years of Luke (1).

---

(1) *Cf.* GINZEL, Handbuch der mathematischen und technischen Chronologie, Bd. III (1914). p. 321.

THE ETHIOPIAN CALENDAR

BY

MURAD KAMIL

The Ethiopians, like many other nations of the Mediterranean culture, have a calendar, a chronology according to local events and devices, that have to do with the calendar.

As to their Calendar it is a subject of considerable difficulty. It is not known when the Ethiopians adopted it, and its origin is rather obscure. The Ethiopians got their literary material from their co-religionists in Egypt ([1]), so we must look for the origin of their calendar in Egypt as well. The Calendar probably had its origin in different reasons connected with the fixing of the Easter date by the Mother Coptic Church of Alexandria.

They have a solar year of 12 months of thirty days each and five epagomenal or intercalary days, in a leap year a sixth day is added ([2]). The Ethiopian year, begins on the 29th of August (Julian). The reformed Calendar, of Pope Gregory XIII (1582), changed the date of the first day of Maskaram (= Tut), the first month of the Ethiopian (= Coptic) year, from August 29th (leap year 30th) to September 8th (leap year 9th). The Julian dates are converted into Gregorian by the addition of eleven days, thus: from 1582-1700 8th (leap 9th) Sept., 1700-1800 9th (leap 10th) Sept., 1800-1900 10th (leap 11th) Sept., 1900-2100 11th (leap 12th) Sept.

([1]) *Cf.* M. KAMIL, Translations from Arabic in Ethiopic Literature, in Bulletin de la Soc. d'Arch. Copte, t. VII (1941), Le Caire 1942, p. 61.

([2]) *Cf.* LEPSIUS, Chronologie der Ägypter, Bd. I, Berlin 1849, p. 177; MEYER, MORET, Histoire de l'Antiquité, t. II, Paris 1914, p. 113; M. CHAINE, La Chronologie de l'Egypte et de l'Ethiopie, Paris 1925, p. 73 ff.

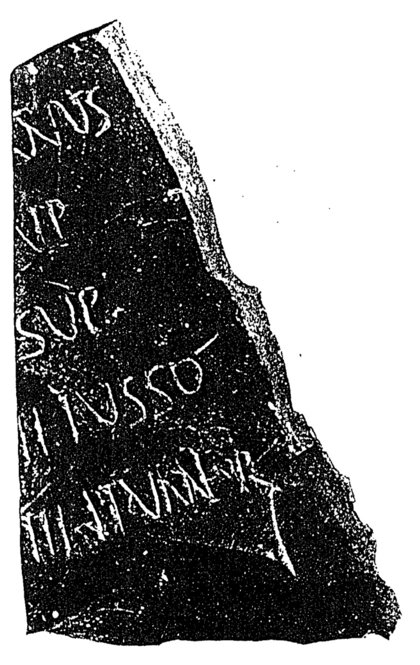


Plate II



Plate I

peculiar or mistaken way, the reference to a LEGATUS here (without even a name to follow it) remains a mystery.

In line 5 Prof. Jones suggests 7, the centurion sign, "mainly because it is the shortest abbreviation and space is limited here, though clearly the engraver is packing his letters tighter". There may be some doubt as to whether the 2nd or 3rd Ituraean cohort is referred to, as the first of the three upright strokes has a very clear T-form. It is known that the 2nd was in Egypt throughout the Roman period, but although the dates for the 3rd are less definite, there is nothing against its being in Egypt in 150-151 A.D. As COHORT. does not seem ever to be an abbreviation of any case of COHORS (COH. being the usual form) the probability is that the 3rd cohort is meant.

The verb of the inscription is missing. Arrius Juli(anus) (another new name)... did something to the garrison Eunicon(?). Prof. Jones suggests something like :— (*N*) ovam portam addidit.

Fragment C has a squared top and was a slightly thicker slab of stone. It seems to have recorded the name of the man who executed the work, and may have formed the base of the inscription.

The three fragments are now in the Græco-Roman Museum in Alexandria.

inscription and give the period. Munatius Felix was the Governor of Egypt 150–151 A.D. and his name gives the actual date of the inscription. SUP, appearing twice, in each case followed by an ablative, cannot be the usual abbreviation for SUPERIOR if the two stones are parts of the same inscription, and Prof. Jones has furnished numerous examples of P = B and an actual case of SUP = SUB, which must be its meaning here.

Line 4 is much more difficult and Prof. Jones' suggestion of P(RAEF. MON)TI as a possibility is based on the fact that a 'praefectus montis Berenicidis' is twice attested and the area seems to include a wide region of the S.E. desert with Berenice as its centre. In the CURATOR inscription too (A.D. XI, from the quarries in Wadi Semna, about 10 miles away) is the expression :—

ἐπαρχου Βερνικης και ἀρχιμεταλλαρχου της ζμαραγδου και βαζιου και μαργαριτου και παντων των μεταλλων της Αἰγυπτου.

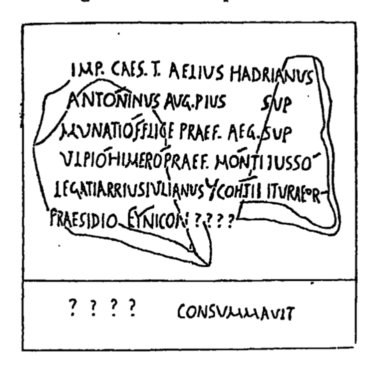
The commander of this district seems to be referred to, in descending order of importance after the emperor and the governor of Egypt. Ulpius Himerus is apparently a new name.

The expression IUSSO LEGATI is very puzzling, in view of the fact that the title of *legatus* was reserved for senators, who were not admitted to Egypt. At Prof. Jones' suggestion therefore I have re-examined the word on the inscription itself, and although the letters G A are somewhat frayed there seems to be no doubt that LEGATI is the correct reading. Dr. Drioton, Director-General of Egyptian Antiquities, who examined the word with me, is definitely of this opinion. The letter G is clear enough, and the main downward stroke of the A is three-quarters preserved, sloping at exactly the same angle as that in the following A of ARRIUS, and with the cross-striations made by the chisel quite clear. A piece of the shorter (left) downward stroke is also just visible beneath the worn central part of the letter. Unless therefore the writer of the inscription used the word in a

in the branch wadi Mereiwat a short distance to the East, and if this district were searched it is possible that the quarry might be found from which these slate-like slabs, so suitable for inscriptions, may have come.

In fragments *A* and *B* the letters are about 2 cms. high, and quite clearly cut. The groove is about 1 mm. wide, with continuous cross-striations left by the chisel. The space between the lines is about 2½ cms. In fragment *C* the lettering is about 1½ cms. high and the groove is rather narrower than in *A* and *B*, without any cross-striations in it.

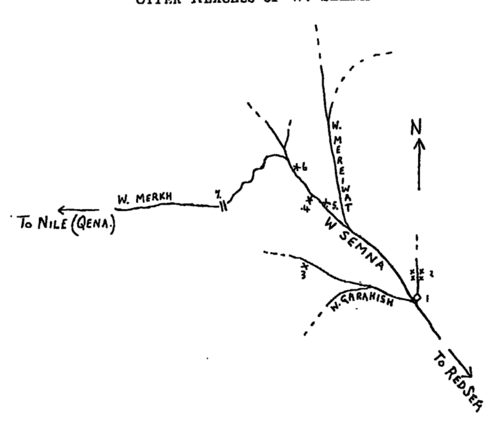
I am very much indebted to Prof. A. H. M. Jones of University College, London, for examining the copies and photographs of the inscription. His suggested solutions of the chief difficulties make the following reconstruction a possible one:—



Fragments *A* and *B* were found some yards apart, but the quality of stone and the lettering of each strongly suggest they were parts of the same inscription. B begins one line higher than A (assuming —ANUS to be HADRIANUS), and the first two lines, with the name and titles of the emperor, thus head the

antiquity. Whether it was Ancient Egyptian or Roman, or (at different periods) both, still remains to be proved. In all probability, however, it also served as a Roman road-station on the way from the main Castellum and quarrying area (Sites 1 and 2 on the Sketch map) to the Nile Valley.

UPPER REACHSS OF W. SEMNA



1. Roman Castellum.
2. Roman Quarries.
3. Ancient Goldmine.
4. Modern Company Well (soon after 1900).
5. British Army Well (1942-3).
6. Ancient Gold-crushing Site.
7. W. Semna—W. Merkh Watershed.

Distances:

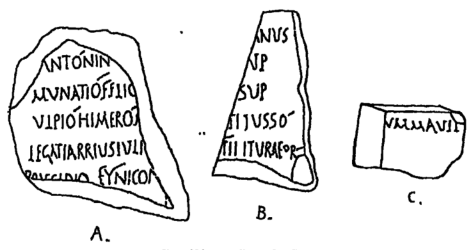
1-3	7	miles?
3-4	3 -4	miles across
4-5	1	mile
4-6	1 -1½	miles
6-7	5½-6½	miles

The stones are all three of the green mudstone type, well-known in places in the S.E. desert. They are seen outcropping

A LATIN INSCRIPTION FROM WADI SEMNA

BY

L. A. TREGENZA



See Plates I and II.

The above fragments, half buried in the main seyl of Wadi Semna, were found by me during a trip in the S.E. desert of Egypt in February, 1950. The locality is 26° 28′–29′ N, and 33° 35′–36′ E. [See Provisional 1·500,000 map of Egypt, sheet 9.] For the position in relation to the Roman remains of the district, see the Sketch map of the upper reaches of Wadi Semna.

The stones were found about 50 yards below the centre of Site 5, embedded in the silt of the wadi flow, and had obviously been washed there from the ruined buildings on the western edge of the site. As far as I know, no mention of this station has ever been made before, and as I reached it only on the last day of my journey, I had no time to examine it thoroughly. Its circumference is a large rectangular embankment of dug-up wadi-gravel, now partly washed away; and the large number of crushing-stones there (many of them built into the walls of the rooms) show that it was an important gold-washing site in

propre création. Frappé à la fois par les "intentions piquantes" qui s'y manifestaient (il était convaincu que Stendhal avait pris pour modèles Metternich et le Duc de Modène) et par leur caractère d' "un grand goût et d'une haute convenance", il était naturellement conduit à trouver la raison de ce double aspect des personnages dans un phénomène spirituel qui lui était familier et que nous avons longuement analysé : la modification de l'œuvre en cours d'exécution :

"Voilà sans doute, disait-il, ce qui est arrivé dans le travail même de ces deux créations. Emporté par l'enthousiasme nécessaire à qui manie la glaise et l'ébauchoir, la brosse et la couleur, la plume et les trésors de la nature morale. M. Beyle, parti pour peindre une petite cour d'Italie et son diplomate, a fini par le type du Prince et par le type des premiers ministres. La ressemblance commencée avec la fantaisie des esprits moqueurs a cessé là où le génie des arts est apparu à l'artiste". (*Ed. Conard,* O.D. III, 378).

Je n'ignore pas que les stendhaliens n'aiment guère cet article pourtant si généreux, où Balzac, parmi tant de fleurs de louange, s'est permis de glisser avec beaucoup de bonhomie et de loyale simplicité quelques critiques d'ordre technique. Je pense d'ailleurs que l'hypothèse ici proposée est, pour bien des raisons, assez hasardeuse et nous savons que Stendhal s'est défendu d'avoir pris pour Mosca et Ranuce Ernest les modèles que croyait Balzac. Mais si j'ai cité ce texte c'est pour montrer les riches perspectives qu'ouvrent à la critique les vues balzaciennes sur la genèse de l'œuvre littéraire. Si, au lieu de juger dans l'absolu, le critique essayait de se placer au point de vue de l'auteur, de voir ce qu'il a voulu faire, de nous faire sentir les obstacles qu'il a rencontrés, les solutions qu'il a trouvées pour les surmonter, quelles lumières précieuses ne projetterait-ils pas sur son œuvre ! Utilisant les documents lorsqu'il en aurait, faisant appel, à défaut d'eux, à une sorte d'intuition divinatrice, fondée sur une solide connaissance du "métier", il nous permettrait de porter sur cette œuvre le regard à la fois le plus sévère et le plus tendre—et par conséquent le plus intelligent et le plus juste—celui du créateur lui-même.

On aura sûrement fini ce soir. Et quand on la développe, quand on la déroule sur le papier, sur le plan du papier, dans ce développement, dans ce déroulement linéaire, qui est la condition même, qui fait l'institution, qui est la constitution de l'art d'écrire, qui fait la loi, on ne sait plus où l'on va, (si on est loyal, si on est probe, si on veut suivre, si on suit fidèlement les modalités, les modulations, les ondulations de la réalité). (Les courbes géologiques). (Les courbes, les plis du terrain). Si on ne truque pas, fût-ce pour des raccourcis (artificiels). On est constamment épouvanté des exigences de ce développement, de ce déroulement. C'est exactement comme en montagne. Cette cîme, que l'on avait, que l'on tenait sous la main, il faut des jours et des jours de ce travail, de cette marche forcément linéaire (et forcément par étapes), pour en atteindre seulement les premières avancées.. En verra-t-on seulement jamais la fin ?..."

Péguy ne nous fait-il pas ici, sous une forme différente, les mêmes confidences que Balzac. Et la rencontre précise des deux écrivains sur la métaphore de la marche en montagne n'est-elle pas significative ?

Des rapprochemente de ce genre multipliés, systématisés, coordonnés, permettraient peut-être de donner aux révélations balzaciennes une valeur moins strictement personnelle, plus générale, plus universelle. Ces révélations demanderaient d'ailleurs à être vérifiées par l'étude précise de la "genèse" de quelques-uns de ses grands romans. Il y a là une mine pour les jeunes chercheurs d'histoire littéraire. L'un des filons les plus précieux en serait l'étude des "échecs" de Balzac. Le plus connu est celui de *la Bataille* dont M. Marcel Bouteron a retracé fidèlement l'histoire [1]; mais il y en eut beaucoup d'autres. La vie de Balzac est jonchée de cadavres d'œuvres avortées. Il y aurait certainement une leçon à tirer de ces échecs.

Je citerai, pour conclure, un passage du fameux article de la *Revue Parisienne* sur *La Chartreuse de Parme*. Balzac, pour expliquer l'impression produite sur lui par les figures de Mosca et de Ranuce Ernest y faisait appel aux lois qui régissaient sa

---

[1] Dans les *Cahiers Balzaciens* n° 1. *Correspondance inédite* de H. de Balzac avec le Lt.-Colonel Périollas.

progressive, excellente ? Là certes était le livre". (*Ed. C. Lévy*, t. XXII, p. 547).

Pourquoi donc le romancier a-t-il fait précéder ce roman d'un autre tout différent d'esprit ? Uniquement parce qu'il a eu peur d'ennuyer un public trop frivole pour le suivre dans une voie aussi austère. Ecoutez son aveu formel :

"Il ne s'agissait pas tant ici, de même que dans toutes les *Scènes de la Vie de Campagne*, de raconter une histoire que de répandre des vérités neuves et utiles [...] Ainsi, dans le plan de l'auteur, ce livre, loin d'offrir l'intérêt romanesque assez avidement recherché par les lecteurs et qui fait tourner vivement les pages d'un in-8° qu'on ne relit plus, une fois le secret connu, lui paraissait si peu intéressant pour le gros public *qu'il lui a semblé nécessaire de le relever par une conception dramatique empreinte du caractère de la vérité, mais en harmonie avec le ton de l'ouvrage, deux immenses difficultés* dont le lecteur se soucie fort peu." (*Ibid*, p. 546)(¹).

Aux textes cités et commentés au cours de cette étude bien d'autre pourraient être ajoutés, textes de Balzac lui-même car je n'ai pas cherché à tout dire ; textes d'autres écrivains qui viendraient confirmer les analyses balzaciennes. J'ai fait plusieurs fois allusion à Proust si proche par tant de points de celui qu'il considérait comme son maître. Une étude attentive de la "genèse" de *Swann* montrerait à coup sûr un processus créateur très proche de celui que nous venons d'analyser. Mais s'attendrait-on à voir Péguy apporter de l'eau au moulin de l'auteur de *Père Goriot ?*

"Vous connaissez cet état Halévy—écrivait-il, en septembre 1910, dans son *Victor-Marie Comte Hugo*—quand on a une œuvre en tête on croit que ce n'est rien, pour la grandeur, pour les dimensions, qu'on la tient dans le creux de la main, *in cava manu*; on la voit comme un noyau, on ne voit qu'elle, on la voit toute en un point (organique), en un petit volume, on en voit tout de suite le bout, le dedans et le dehors, tout les tenants et les aboutissants, tous les morceaux, tous les membres, tous les organes, tout le tout ; ce n'est rien, c'est fini, on la tient là sous la main.

(¹) C'est moi qui souligne.

les grandes œuvres qui sont toujours des œuvres "commandées" ou "de circonstance", Balzac racontait l'anecdote (histoire ou légende qu'importe ?) de ce Prieur du couvent des Dominicains de Milan qui pria un jour un peintre de ses amis de garnir, dans le réfectoire, un pan de muraille "trop long pour son peu de hauteur". Le peintre s'appelait Léonard de Vinci et le pan de mur peint devint *la Cène*.

* * *

Les deux textes que nous venons d'analyser nous ont montré le développement de la création balzacienne soumis à deux séries d'influences : les unes d'ordre interne, qui se résument en une *prise de conscience progressive par l'auteur de l'importance de son œuvre* ; les autres d'ordre externe : les exigences draconiennes des directeurs de Revues, de Journaux, de maisons d'édition. Il en est d'autres encore qui, entre les deux premières, forment, en quelque sorte, transition : internes, dans la mesure où l'auteur, par une réflexion consciente sur sa création, se dicte à lui-même des modifications jugées nécessaires ; externes, dans la mesure où cette décision d'ordre esthétique lui est, en fin de compte, inspirée par un souci de réussite, par un désir de plaire au public. Balzac nous a fait sur ce point un véritable aveu dans la *Préface* de son *Curé de Village*. Le premier lecteur venu de ce roman ne peut manquer d'être frappé de la différence d'atmosphère qui existe entre la première partie du roman une admirable "scène de Vie de province" intensément dramatique où la profondeur de l'analyse psychologique unit ses prestiges à ceux d'un mystérieux roman policier et la seconde, pleine de vastes projets, de fortes pensées, de scènes édifiantes, de beaux paysages, mais calme, sans action, et sans passion. Or, il ne fait aucun doute que cette deuxième partie traitait seule, aux yeux du romancier, le vrai sujet du livre :

" Par quels moyens le curé Bonnet a-t-il fait, d'une population mauvaise, arriérée, sans croyances, vouée aux méfaits et même au crime, une population du meilleur esprit, religieuse,

déesse, la Fantaisie, l'invitait d'un mouvement si persuasif en remuant ses doigts blancs et roses, elle lui souriait d'un sourire si fascinateur [...] que lui, enfant aussi naïf qu'il était grand homme, allait et la suivait dans les recoins obscurs qu'elle se plaisait à illuminer. Ce grand génie, dupe de sa propre poésie, furetait avec la déesse..." (*Ed. C.L.*, t. XXII, p.497, 15 septembre 1838).

Seulement, Walter Scott était riche ; il pouvait tout se permettre, faire la loi aux libraires, les faire attendre selon sa fantaisie. Le "pauvre auteur français" ne saurait "avoir l'outrecuidance de penser ainsi". Il est pauvre et soumis aux conditions qui lui sont faites par ces deux puissances : le Journal et la Librairie. Voici précisément un exemple, pris sur le vif, des effets produits sur sa production par "les lois capricieuses du goût et de la convenance des marchands" :

"Tel journal a demandé un morceau qui ne soit ni trop long, ni trop court, qui puisse entrer dans tant de colonnes et de tel prix. L'auteur va dans son magasin et dit "J'ai *La Maison Nucingen.*" Il se trouve que *la Maison Nucingen* qui convient pour la longueur, pour la largeur, pour le prix, parle de choses trop épineuses qui ne cadrent point avec la politique du journal. *La Maison Nucingen* demeure sur les bras de l'auteur. Eh ! bien, prenez *La Torpille*. La Torpille est une grisette et l'on a déjà crié pour *La Vieille Fille*. Que faire de ces tableaux retournés dans l'Atelier ? On les expose dans les deux premiers volumes venus. Il faut subir les exigences de la Librairie. La Librairie vient ; elle veut deux volumes ni plus ni moins, ou un bout de conte pour mettre à ceci plus d'ampleur. Elle a ses habitudes de format, elle tient à ses marges. Elle abhorre aujourd'hui ces délicieux in-18 comme *Adolphe*, *Paul et Virginie*, etc..."

"Eh bien ! —ajoute Balzac, sur un ton d'enthousiasme triomphant, celui de l'artiste en pleine possession de ses moyens et capable de dominer toutes les difficultés—Eh bien, vous qui riez de cet état de choses, ou vous qui pleurez, croyez-vous que l'art y perde ? L'art se plie à tout, il se loge partout, il se blottit dans les angles, dans les culs de four, dans les segments de voûte ; il peut briller en toute chose quelque forme qu'on lui donne". (*Ibid.* p. 507).

Et pour illustrer cette orgueilleuse déclaration où nous croyons entendre un siècle à l'avance les théories valériennes sur

les révolutions d'une pauvre imprimerie de province, *en laissant prendre à ce tableau autant d'étendue qu'il en a dans l'exposition*, il est clair que *le champ s'est agrandi malgré l'auteur*. Quand on copie la nature, il y a des erreurs de bonne foi ; souvent en apercevant un site, on n'en devine pas tout d'abord les véritables dimensions ; telle route paraissait d'abord un sentier, le vallon devient une vallée, la montagne facile à franchir à l'œil a voulu toute une journée. Ainsi les *Illusions perdues* ne doivent plus seulement concerner un jeune homme qui se croit un grand poète et la femme qui l'entretient dans sa croyance, et le jette au milieu de Paris, pauvre et sans protection. Les rapports qui existent entre Paris et la Province, sa funeste attraction, ont montré à l'auteur *le jeune homme du XIX*e siècle sous une face nouvelle : il a pensé soudain à *la grande plaie du journalisme* qui dévore tant d'existences, tant de belles pensées et qui produit d'épouvantables réactions dans les modestes régions de la vie de province [...] *Le tableau s'est donc étendu. Au lieu d'une face de la vie individuelle, il s'agit d'une des faces les plus curieuses de ce siècle.*(¹) (*Ed. C. Lévy*, t. XXII, p. 389-390, 14 janvier 1837).

Dix-huit mois plus tard, Balzac publiait, en un seul ouvrage en deux volumes in 8°, trois fragments de son œuvre qui devaient un jour trouver place dans la *Comédie humaine* : *La Maison Nucingen*, *la Femme supérieure* (*les Employés*) et *la Torpille* (fragment de *Splendeurs et Misères des Courtisanes*). Dans le *Préface* où il s'excusait de ce mélange d'œuvres assez disparates, il revenait sur le problème de l'interférence entre les conditions matérielles de publication auxquelles il devait se soumettre pour vivre et les caprices de l'inspiration ; il expliquait longuement la cruelle nécessité où il se trouvait constamment de modifier ses plans, de passer d'un sujet à un autre, d'arrêter une publication, d'en raccourcir une autre, d'en allonger une troisième. Ah ! trop heureux Walter Scott ! A lui aussi on avait reproché " de ne pas suivre ses plans primitifs" car il était soumis aux mêmes lois de la création littéraire que son émule français :

"En travaillant d'après ce flamboyant carton que tout peintre littéraire se dessine sur la toile de son cerveau, il voyait grandir comme de sombres chinoises, une figure si attrayante, des existences si magnifiques, un caractère si neuf qu'au lieu d'une place mesquine, il la laissait se carrer dans son œuvre. La changeante

(¹) C'est moi qui souligne.

Cette longue et solennelle confidence du romancier sur la genèse de son œuvre prise dans son ensemble, qui nous donne la clef à la fois de certaines maladresses de composition et de l'ordre profond, organique, qui anime cette énorme masse, elle est valable pour la plupart des œuvres particulières : "Il en a été pour chacune des portions des *Etudes de mœurs*, comme de l'ouvrage pris dans son entier,—écrira-t-il dans la Préface du *Cabinet des Antiques* (1839, *éd. C. L.*, t. XXII, p. 515), toutes les proportions ont été dépasses à l'exécution ..."

Il n'est pas sans intérêt d'examiner à la lumière de quelques *Préfaces* où il est revenu sur ce sujet, le mécanisme de cette mystérieuse croissance de l'œuvre pendant que l'artiste la crée, et d'entrevoir ainsi quelques-uns des problèmes d'ordre esthétique qu'elle entraînait pour lui.

Voici par exemple les *Illusions perdues*. Lorsqu'il en offrit au public, en 1837, la première partie : *Les deux Poètes*, Balzac exprimait ses regrets de ne donner qu'une œuvre fragmentaire. Il invoquait, pour s'excuser, les conditions draconiennes qui lui étaient imposées par ses contrats d'édition. Mais la vraie raison (pour cette œuvre comme pour tant d'autres qui lui valurent tant d'ennuis d'ordre commercial) était que *la conception primitive s'était élargie au point qu'un simple roman s'était transformé en trois !* Dans sa Préface, Balzac décrivait ce phénomène avec la précision d'un clinicien. Du livre primitivement prévu, avouait-t-il, celui-ci n'est que l'introduction :

" Le plan primitif,—ajoutait-t-il—n'allait pas plus loin ; mais quand, *à l'exécution, tout a changé*, la tomaison inexorable était arrêtée, et la spéculation ne pouvait pas attendre. Il a donc fallu s'arrêter à la limite qu'il avait posée lui-même à l'œuvre ".

Ecoutons-le encore. Ses explications vont devenir passionnantes :

"Il ne s'agissait d'abord que d'une comparaison entre les mœurs de la Province et les mœurs de la vie parisienne [. . .] Mais, *en peignant avec complaisance* l'intérieur d'un ménage et

Préfaces que pour s'en gausser, mais, comme l'a bien vu Marcel Proust avec la divination d'un génie fraternel [1], parce que cela correspondait à une vivante réalité.

" L'auteur lui-même avait-il embrassé d'un coup d'œil l'étendue du canevas qu'il remplit chaque jour ?—fait-il dire à son porte-parole—. Nous ne le pensons pas. Si son plan avait pu jaillir complet de sa tête comme ces belles unités que les artistes d'autrefois mettaient toute une vie à concevoir, et que la dévorante précipitation de notre siècle ne permet presque plus d'accomplir, peut-être aurait-il laissé tomber sa plume [...].

Aussi est-ce un phénomène curieux et digne d'observation que l'enfantement des œuvres de M. de Balzac, ainsi que les développements inattendus qui les ont fécondées et les larges superpositions dont elles se sont accrues. L'histoire de la littérature offre assurément peu d'exemples de cette élaboration progressive d'une idée qui, d'abord indécise en apparence et formulée par de simples contes, a pris tout à coup une extension qui la place enfin au cœur de la plus haute philosophie.

Maintenant que l'élévation de quelques parties importantes nous laisse entrevoir la physionomie de l'édifice, maintenant que commence à poindre le sens intime de la formule générale dégagée par l'auteur de ses nombreux aperçus sur l'humanité, ne pouvons-nous pas naturellement supposer qu'un jour, en comparant les différentes pensées empreintes dans ses travaux, il a fait comme l'ouvrier qui, par hasard, quitte l'envers de sa tapisserie, et vient en regarder le dessin dans son entier. Dès lors, et *parceque le germe d'une haute synthèse était depuis longtemps en lui-même* [2], il s'est mis à rêver de l'effet de l'ensemble. *Soudain*, remplissant dans sa pensée les lacunes de sa construction couverte de fresques, supposant ici un groupe, là une figure principale, plus loin un second plan ou des teintes de rappel, il s'est épris de ces tableaux et s'est remis à l'ouvrage avec une *furie française*, parce qu'il était encore dans l'âge où l'on ne doute de rien. Puis, une fois engagé, cet homme à la constante volonté duquel ceux qui le connaissent rendent un éclatant hommage et qu'on estimera certes, un jour, autant que son talent, cet homme a toujours marché devant lui sans se souvenir le lendemain ni des efforts ni des fatigues de la veille ".

---

(1) *La Prisonnière*, p. 218-221. M. Proust emploie l'heureuse expression " d'illumination rétrospective ".

(2) C'est moi qui souligne.

Rien n'est fini en effet lorsque le peintre, donnant un coup de pied à son édredon, s'est écrié : " C'est fini ! Je ferai mon tableau !" Tout reste à faire au contraire. Le tableau n'est peint que dans son imagination, non sur la toile où le verront d'autres yeux que les siens. Alors commencent les mille difficultés techniques; alors commencent les douleurs de l'enfantement. Je ne suivrai pas le romancier dans l'analyse de ces difficultés, ce serait faire un livre entier sur son art ; ce serait surtout recommencer en grande partie le bel ouvrage de Maurice Bardèche (1). Je mettrai seulement en lumière un caractère essentiel de la création littéraire chez Balzac, qu'il a bien vu lui-même et dont il a fort exactement analysé les différentes causes : "Le poète n'avait qu'une idée et il se voit à la tête d'un ouvrage", disait-il dans la *Théorie de la Démarche* pour marquer le progrès accompli dans l'ombre par l'idée au cours du second âge. C'est par un processus tout à fait comparable qu'*au cours même de la rédaction*, l'ouvrage va prendre une ampleur de plus en plus grande et poser ainsi à l'auteur des problèmes esthétiques parfois insolubles.

* * *

C'est dans la création de la *Comédie Humaine* elle-même, prise comme un tout, que ce processus est apparu le plus clairement à l'esprit de Balzac. Il s'en est expliqué longuement dans l'*Introduction aux Etudes Philosophiques*, dictée à Félix Davin en 1834, à l'époque où, sans avoir encore trouvé pour l'ensemble de ses œuvres le nom prestigieux de *Comédie Humaine*, il les voyait déjà formant un tout, et disposées en deux vastes ensembles : celui des *Etudes de Mœurs* et celui des *Etudes Philosophiques*. Or, il tient à affirmer que ce vaste plan n'est pas sorti tout armé de son cerveau ; et cela, non point seulement pour excuser les défauts de groupement (lacunes, répétitions, morceaux mal mis à leur place) ni pour se faire de la réclame, comme l'ont trop souvent pensé les critiques qui ne citent guère ses

(1) *Balzac romancier*, Paris Plon, 1940.

pas encore entré dans le *troisième âge.* Comment y pénétrera-t-il? Une fois de plus par un événement apparemment sans importance, par ce qu'on appelle un hasard. C'est encore une conversation, dans un salon de Paris, avec deux femmes charmantes et spirituelles. De quoi voulez-vous qu'elles parlent, sinon de l'amour, du mariage, du malheur des maris trompés, de la vertu chancelante des femmes? Le romancier leur confie le "projet d'ouvrage par lequel il était persécuté"; "elles y sourirent et promirent beaucoup de conseils". Rentré chez lui, l'auteur dit à son démon: "Arrive! Je suis prêt! Signons le pacte!" Le démon ne revint plus..." (p. 11).

"*Le démon ne revint plus*". Il semble qu'il y ait ici un certain flottement dans la description de Balzac. Nous pensions qu'il avait enfin atteint le "troisième âge", celui de *l'exécution*, de la sérieuse et féconde mise au travail. Or, le voici soudain plongé dans ce "gâchis des difficultés" par lequel dans la *Théorie de la démarche* il caractérisait le "second âge":

> Il n'est peut-être pas indifférent à certains anatomistes de la pensée de savoir que l'âme est femme. Ainsi, tant que l'auteur s'interdisait de penser au livre qu'il devait faire, le livre se montrait écrit partout[...] Le jour où il se dit:—Cet ouvrage, qui m'obsède, se fera... tout a fui!..."

Regardons-y de plus près; ce flottement nous paraîtra moins sensible. En effet dans la *Théorie de la Démarche*, aussi bien dans le schéma initial que dans l'analyse de détail qui en est l'illustration, Balzac, après l'avoir rapidement défini, s'est arrêté au seuil de ce troisième âge de la pensée. Comme on le comprend! Car il ne s'agissait de rien moins désormais que de nous décrire les longues affres du créateur pendant la période qui est proprement celle de la production. Il s'agissait de nous décrire après les "extases de la conception", les "douleurs de l'enfantement". Cette description eût demandé de très longues pages. Balzac ne nous l'a donnée nulle part sous une forme systématique; mais il nous en a livré certains éléments, qu'il nous reste à passer en revue pour achever notre tâche.

blanches et bizarres *cristallisations* que dessinent les gelées capricieuses de la nuit. Ainsi l'ébauche vécut et devint le point de départ d'une multitude de ramifications morales. *Ce fut comme un polype qui s'engendra de lui-même.* Les sensations de sa jeunesse, les observations qu'une puissance importune lui faisait faire trouvèrent des points d'appui dans les moindres événements. Bien plus *cette masse d'idées s'harmonia, s'anima, se personnifia presque* et marcha dans les pays fantastiques où l'âme aime à laisser vagabonder ses folles progénitures. A travers les préoccupations du monde et de la vie, il y avait toujours en l'auteur une voix qui lui faisait les révélations les plus moqueuses, au moment même où il examinait avec le plus de plaisir une femme dansant, souriant ou causant. De même que Méphistophélès,..." (p. 5).

Et voilà Balzac embarqué dans une comparaison ultra-romanti où le Diable joue le rôle de la Muse pour nous faire sentir d'une manière concrète cet envoûtement de l'artiste par l'Idée. L'obsession est interrompue, pendant quelques années, parce que l'auteur est devenu amoureux et que "le diable aurait eu affaire à trop forte partie s'il était revenu dans un logis habité par une femme"; mais un jour, elle revient plus forte que jamais, provoquée par un de ces hasards "qui ne visitent pas les sots": un soir, dans un salon de Paris, il écoute le récit d'un terrible drame de l'adultère qui s'est autrefois déroulé dans l'une des familles les plus austères de la ville de Gand :

"Tout à coup, le mot ADULTÈRE sonna aux oreilles de l'auteur ; et alors, cette espèce de cloche réveilla, dans son imagination, les figures les plus lugubres du cortège qui naguère défilait à la suite de ces prestigieuses syllabes.

A compter de cette soirée, les persécutions fantasmagoriques d'un ouvrage qui n'existait pas recommencèrent ; et, à aucune époque de sa vie, l'auteur ne fut assailli d'autant d'idées fallacieuses sur le sujet fatal de ce livre. Mais *il résista courageusement à l'esprit, bien que ce dernier rattachât les moindres événement de la vie à cette œuvre inconnue* et que, semblable à un commis de la douane, il plombât tout de son chiffre railleur". (p. 9)

"*Il résista courageusement à l'esprit*". Cette résistance aux injonctions de l'inspiration, nous montre assez que l'auteur n'est

l'inspiration. En l'espèce, celle-ci prend forme tout de suite ; mais c'est une forme encore médiocre : " minime pensée où ses idées se formulèrent ", " petit pamphlet conjugal ". Cependant autour de cette nébuleuse primitive, s'opère aussitôt le travail de " *cristallisation* ". L'auteur, nous dit Balzac, " passa délicieusement une semaine entière à grouper autour de cette innocente épigramme la multitude d'idées qu'il avait acquises à son insu et qu'il s'étonna de trouver en lui ".

Ici, brusque arrêt de l'inspiration provoqué par une intervention extérieure sur laquelle malheureusement Balzac se montre avare de renseignements : " Ce badinage, nous dit-il, tomba devant une observation magistrale. Docile aux avis, l'auteur se rejeta dans l'insouciance de ses habitudes paresseuses". Cela ressemble assez au renoncement à la littérature provoqué chez le jeune Proust par les observations non moins "magistrales" de M. de Norpois, le jour où il lui montra ses premiers essais. Cependant, de même que le jeune Proust amassait sans le vouloir — et même sans le savoir —, dans cette vie mondaine où il s'était engagé en cédant lui aussi à l'insouciance de ses habitudes paresseuses et qui lui paraissait du " temps perdu ", les matériaux qui lui permettraient d'écrire un jour le " temps retrouvé ", de même le jeune Balzac continue de nourrir, dans les ténèbres de l'inconscient, l'idée de la *Physiologie*. Dès lors, on peut dire qu'il entre dans le " second âge" de la pensée. Mais la description qu'il nous en propose est un peut différente de celle que nous connaissons déjà. Plus que sur les difficultés de son sujet, il insiste ici sur le caractère *inconscient* du travail qui s'opère en lui et, cette fois, il emploie pour le décrire (découverte ou réminiscence ?) la célèbre métaphore stendhalienne :

" Néammoins, ce léger principe de science et de plaisanterie *se perfectionna tout seul* dans les champs de la pensée : chaque phrase de l'œuvre condamnée y prit racine, et s'y fortifia, restant comme une petite branche d'arbre qui, abandonnée sur le sable par une soirée d'hiver, se trouve couverte le lendemain de ces

Et dès le lendemain, ayant très rigoureusement délimité son sujet, mis au point sa méthode, s'arrêtant enfin de rêver, il se met vraiment au travail.

Dans l'*Introduction* de la *Physiologie du Mariage*, Balzac, nous l'avons dit, a davantage insisté sur le caractère complexe et même mystérieux de la création littéraire.

Ici encore à l'origine, il découvre une impression vive et ancienne qui a laissé dans son esprit une marque profonde, *sans que pourtant il en ait pris conscience*: cette impression vive est celle qu'il a ressentie lorsqu' étudiant en droit, il lut, dans le *Code civil*, les pages consacrées à l'adultère, principalement les paroles prononcées à ce sujet par Napoléon devant le Conseil d'Etat: "Ces paroles, dit-il, frappèrent vivement l'auteur de ce livre; et peut-être, *à son insu*, mirent-elles en lui, le germe de l'ouvrage qu'il offre aujourd'hui au public". (*Ed. Conard*, XXXII, p. 4).

Puis viennent une série de réflexions sur le mariage et l'adultère tels qu'ils se présentent dans les livres et dans la vie, et cette découverte que, "de toutes les connaissances humaines, celle du mariage est la moins avancée". Cependant, note finement Balzac, "ce fut une observation de jeune homme; et chez lui, comme chez tant d'autres, semblable à une pierre jetée au sein d'un lac, elle se perdit dans le gouffre de ses pensées tumultueuses". Donc, l'idée avorte. Mais non d'une manière définitive, car le travail de l'inconscient va l'alimenter jusqu'au jour où elle reparaîtra à la conscience claire:

"Cependant l'auteur observa *malgré lui*; puis, il se forma lentement dans son imagination, comme un essaim d'idées plus ou moins justes sur la nature des choses conjugales. Les ouvrages se forment peut-être dans les âmes aussi mystérieusement que poussent les truffes au milieu des plaines parfumées du Périgord." (p. 4).

Le voici donc entré, dans ce que la *Théorie de la Démarche*, appelle le "premier âge de la pensée", l'âge de

la Science nous prodiguent d'ineffables délices, indescriptibles, comme tout ce qui participe de l'intelligence dont les phénomènes sont invisibles à nos sens extérieurs. Aussi sommes-nous toujours forcés d'expliquer les mystères de l'esprit par des comparaisons matérielles. Le plaisir de nager dans un lac d'eau pure, au milieu des rochers, des bois et des fleurs, seul et caressé par une brise tiède, donnerait aux ignorants une bien faible image du bonheur que j'éprouvais quand mon âme se baignait dans les lueurs de je ne sais quelle lumière, quand j'écoutais les voix confuses et terribles de l'inspiration, quand, d'une source inconnue, les images ruisselaient dans mon cerveau palpitant. Voir une idée qui poind dans le champ des abstractions humaines comme le soleil au matin et qui s'élève comme lui, qui, mieux encore, grandit comme un enfant, arrive à la puberté, se fait lentement virile, est un joie supérieure aux autres joies terrestres, ou plutôt c'est un divin plaisir. L'étude prête une sorte de magie à tout ce qui nous environne..." (*Ed. Conard*, XXVII, p. 100–101).

Dans la *Théorie de la démarche*, Balzac se contente de rappeler d'un mot ces joies procurées à l'artiste par sa recherche passionnée. Mais, comme il est à la veille d'écrire la *Recherche de l'Absolu*, que, déjà peut-être, il a conçu ce drame terrible de l'homme dévoré par le démon de la science, il écrit cette phrase qui est, à l'avance, une justification de la folie de Balthazar Claës : "La vie le plus belle, la mieux remplie, la moins sujette aux déceptions, est certes celle du fou sublime qui cherche à déterminer l'inconnu d'une équation à racines imaginaires". (p. 623).

* * *

Tant de travaux, tant de souffrances vont pourtant recevoir leur récompense ; car voici enfin le *troisième âge* de la pensée. L'auteur y pénètre d'une manière aussi gratuite que dans le premier. "Gratia gratis data" diraient les théologiens où, pour un langage plus profane, brusque retour à la fidélité d'une femme capricieuse. Préfigurant étrangement à l'avance la révélation qui s'offrit au jeune Proust à travers le *Septuor* de Vinteuil, la "théorie" de Balzac se présente à lui pendant qu'il entend "le duo de Tamburini, dans le premier acte du *Mosé*", "Ma théorie m'apparut pimpante, joyeuse, frétillante, jolie et vint se coucher complaisamment à mes pieds, comme une courtisane fâchée d'avoir abusé de la coquetterie et qui craint d'avoir tué l'amour". (p. 623).

effrayé d'apercevoir un gouffre. J'entrai dans le second âge de la pensée". (p. 622).

Ce second âge est celui du doute, de la fatigue, de l'effroi devant l'immensité de l'œuvre à accomplir. L'auteur ne sait plus où il va ; il désespère d'aboutir. Cela, notons-le bien, ne l'empêche pas de travailler. Il ne pourrait faire autrement. Il est "pris", il est envoûté par son idée. Elle le poursuit. Alors il travaille. Et voici une autre émouvante confidence :

"Alors, je commençai des travaux immenses et qui eussent, selon l'expression de mon élégant ami Eugène Sue, décorné un bœuf moins habitué que je ne le suis à marcher dans mes sillons, nuit et jour, par tous les temps, nonchalant de la bise qui souffle, des coups et du fourrage injurieux que le journalisme nous distribue".

Travaux immenses, mais vains !

"Que de réflexions n'ai-je pas jetées dans ce gouffre [...] Que de nuits vainement employées à demander des inspirations au silence [...] Un homme qui n'aurait pas eu mon thorax, mon cou, ma boîte cérébrale eût perdu la raison en désespoir de cause".

Pourtant, même s'il n'avait jamais dépassé ce second âge, même s'il n'avait jamais dominé cette tentation de doute et de découragement, Balzac ne regretterait rien car, semblable à "tous ces pauvres prédestinés de savants" il a "compté des joies pures". Ces joies il les avait chantées, deux ans auparavant, dans une des plus belles pages de la *Peau de Chagrin*, où, quittant fantastique pour retrouver l'humble réalité, il avait trouvé, pour décrire les mouvements intimes de sa vie spirituelle les accents d'un très pur lyrisme :

"Je vécus dans ce sépulcre aérien pendant près de trois ans, travaillant nuit et jour sans relâche, avec tant de plaisir que l'étude me semblait être le plus beau thème, la plus heureuse solution de la vie humaine. Le calme et le silence nécessaires au savant ont je ne sais quoi de doux, d'enivrant comme l'amour. L'exercice de la pensée, la recherche des idées, les contemplations tranquilles de

d'une manière d'autant plus active qu'elle n'est pas volontaire. Il se produit à ce moment un phénomène analogue à ce que Stendhal parlant de la naissance de l'Amour avait appelé la "Cristallisation". Comment, en effet, appeler autrement le phénomène ainsi décrit :

" Puis, de là, jaillirent mille questions qui me furent adressées, dans les ténèbres de l'intelligence, par un être tout fantastique, par ma *Théorie de la démarche* déjà née.

En effet, tout à coup, mille petits phénomènes journaliers de notre nature vinrent se grouper autour de ma réflexion première et s'élevèrent en foule dans ma mémoire comme un de ces essaims de mouches qui s'envolent, au bruit de nos pas, de dessus le fruit dont elles pompent le suc au bord d'un sentier.

Ainsi, je me souvins en ce moment, rapidement, et avec une singulière puissance de vision intellectuelle :

Et des craquements de doigts, et des redressements de muscles, et des sauts de carpe que, pauvres écoliers, moi et mes camarades, nous nous permettions [...] "

Suit une brillante énumération de ces mille petits faits, au bout de laquelle Balzac déclare essoufflé :

" Ma pétulante pensée jouissait de son premier âge". (*Ibid.* 619-620).

Cette période d'enthousiasme créateur dure un temps que Balzac ne prend pas soin de préciser. Il décrit seulement la joie de ses découvertes, les ambitions grandioses qu'elles font naître en son âme, laissant échapper cette curieuse confidence :

" Quels pleurs je versai sur le tohu-bohu de mes connaissances, d'où je n'avais extrait que de misérables contes, tandis qu'il en pouvait sortir une physiologie humaine". (*Ibid.* p. 621).

Cependant de découvertes en découvertes, il est conduit devant un véritable abîme :

" Ici, ma *Théorie de la Démarche* acquérait des proportions si discordantes avec le peu de place que j'occupe dans le grand ratelier d'où mes illustres camarades du XIX[e] siècle tirent leur provende que je laissai là cette grande idée, comme un homme

mène, flâne sur les boulevards, marchande des cannes, achète de vieux bahuts, s'éprend de mille passions fugaces, laissant là son idée, comme on abandonne une maîtresse plus aimante ou plus jalouse qu'il ne lui est permis de l'être.

Vient le dernier âge de la pensée. Elle s'est implantée, elle a pris racine dans votre âme, elle y a mûri ; puis, un soir ou un matin, quand le poète ôte son foulard, quand le peintre baille encore, lorsque le musicien va souffler sa lampe en se souvenant d'une délicieuse roulade, en revoyant un petit pied de femme, ou l'un de ces je ne sais quoi dont on s'occupe en s'endormant ou en s'éveillant, ils aperçoivent leur idée dans toute la grâce de ses floraisons, de ses frondaisons, l'idée malicieuse, luxuriante, belle comme une femme magnifiquement belle, belle comme un cheval sans défaut.

Et alors le peintre donne un coup de pied à son édredon, s'il a un édredon, et, s'écrie :

— C'est fini. Je ferai mon tableau !

Le poète n'avait qu'une idée, et il se voit à la tête d'un ouvrage.

— Malheur au siècle !... dit-il en lançant une de ses bottes à travers la chambre.

Ceci est la théorie de la démarche de nos idées". (*Ed. Conard*, O.D. II, 616-617).

Ce schéma du développement de l'idée-mère d'une œuvre Balzac l'applique aussitôt à celle qu'il présente ce jour-là à ces lecteurs : la *Théorie de la démarche :*

Premier moment ou premier "âge", celui de la conception. Moment d'inspiration, de jaillissement créateur, de joie, d'extase. Né d'un événement insignifiant pour les autres, mais qui pour l'artiste est d'une importance décisive. Ici l'événement est la perte d'équilibre d'un ouvrier dans la cour des Messageries ; fait que l'esprit de Balzac relie aussitôt à un souvenir d'enfance dans lequel il revoit sa sœur soulevant avec effort une boite qu'elle croyait pleine et qui, étant vide, a rendu ridicule son effort. L'esprit ayant rapproché "ces deux faits si dissemblables mais qui procédaient de la même cause" se met aussitôt à travailler

de la réalité vivante qui seule nous intéresse, plus convaincu aussi peut-être de l'importance des secrets qu'il y révélait :

" Si l'auteur écrit ici la *biographie de son livre*, écrivait-il alors, ce n'est par aucune inspiration de fatuité. Il raconte des *faits qui pourront servir à l'histoire de la pensée humaine, et qui expliqueront sans doute l'ouvrage même*"(¹). (*Ed. Conard*, XXXII, II).

* * *

La *Théorie de la Démarche*, écrite à une époque où Balzac avait, par des succès répétés, conquis le droit d'imposer à une Revue ce qu'il voulait, fût-ce un texte aussi austère que celui-ci est une œuvre à laquelle il accordait une très grande importance. Fragment de cette *Pathologie de la Vie Sociale* à laquelle il songeait dès 1830, elle devait constituer avec *la Physiologie du Mariage*, *l'Anatomie des Corps Enseignants*, et *la Monographie de la Vertu* un ensemble où se trouverait exposée l'ensemble de ses idées en matière sociale, morale et politique. Ne nous laissons donc pas prendre aux airs faussement dégagés qu'il est bien obligé d'y prendre pour flatter le public futile de *l'Europe littéraire* et considérons ce texte avec respect :

" Une pensée a trois âges. Si vous l'exprimez dans toute la chaleur prolifique de la conception, vous la produisez rapidement, par un jet plus ou moins heureux, mais empreint, à coup sûr, d'une verve pindarique [...]

Mais si vous ne saisissez pas ce premier bonheur de génération mentale et que vous laissiez sans produit ce sublime paroxysme de l'intelligence fouettée, pendant lequel les angoisses de l'enfantement disparaissent sous les plaisirs de la surexcitation cérébrale, vous tombez soudain dans le gâchis des difficultés ; tout s'abaisse, tout s'affaisse ; vous vous blasez ; le sujet s'amollit, vos idées vous fatiguent. Le fouet de Louis XIV que vous aviez naguère pour mener votre sujet en poste, a passé aux mains de ces fantasques créatures ; alors ce sont vos idées qui vous brisent, vous lassent, vous cinglent des coups sifflants aux oreilles et contre lesquels vous regimbez. Voilà le poète, le peintre, le musicien qui se pro-

(¹) C'est moi qui souligne.

apparence qu'elle vous livre, ou tout au plus de la seconde, ou de la troisième ; ce n'est pas ainsi qu'agissent les victorieux lutteurs. Ces peintres invaincus ne se laissent pas tromper à tous ces faux-fuyants ; ils persévèrent jusqu'à ce que la Nature en soit réduite à se montrer toute nue et dans son véritable esprit. Ainsi a procédé Raphaël..." (*Éd. Conard*, XXVIII, 9-10).

III.—Les trois âges de la pensée

Dans son analyse du mystère de la création littéraire, Balzac a dépassé les vues générales que nous venons de lui voir exposer. Il a essayé non de faire disparaître le mystère, de le résoudre en une pâle lumière, mais de l'approfondir, d'en mesurer l'étendue, d'en faire apparaître la riche complexité. Dans deux textes d'une assez grande étendue, il s'est efforcé d'établir ce qu'il a appelé, bien avant nos modernes docteurs de Sorbonne, la *biographie de l'œuvre littéraire*. Ce sont :

1° *L'Introduction* de la *Physiologie du Mariage* (janvier 1830, *Éd. Conard*, XXXII, 3-14).

2° Les premières pages de la *Théorie de la Démarche* (août 1833, *Éd. Conard*, *O.D.* II, 616-621).

Ces deux textes se complètent mais ne se recouvrent pas. Ils nous permettent de dégager certaines constantes dans le mécanisme de la création littéraire chez Balzac ou plutôt dans l'idée qu'il se fait de ce mécanisme ; mais ils nous montrent aussi combien, en un domaine qui est par excellence celui des réalités spirituelles, le danger serait grave de trop vouloir systématiser. C'est précisément pour éviter ce danger que, contrairement à une règle de bon sens, qui imposerait de suivre l'ordre chronologique, j'analyserai d'abord les pages de la *Théorie de la Démarche*, où Balzac pleinement maître de son art, sûr aussi de son public, joue au théoricien et donne à sa pensée une forme plus brillante que profonde. Dans l'*Introduction de la Physiologie*, placée en tête d'un ouvrage qu'il n'osait même pas signer, il était moins sûr de lui ; en revanche cependant plus riche, plus nuancé, plus proche

d'un des *Contes philosophiques* qu'il écrivait si volontiers à cette époque de sa vie littéraire, le romancier évoquait cette image du créateur en contemplation dans les deux personnages des *Proscrits*, le jeune Godefroi, âme tendre et mystique et son maître le Poète par excellence, l'auteur de la *Divine Comédie*, en exil à Paris. Revenant de la rue de Fouarre où ils ont été entendre le Docteur Sigier de Brabant, les deux hommes regagnent leur maison au bord de la Seine:

"En rentrant au logis,—dit alors Balzac dans une phrase merveilleusement cadencée, où il n'est pas difficile d'entendre une confidence sur son propre travail de création, l'étranger s'enferma dans sa chambre, alluma sa lampe inspiratrice, et se confia au terrible démon du travail, en demandant des mots au silence, des idées à la nuit. Godefroid s'assit au bord de sa fenêtre, regarda tour à tour les reflets de la lune dans les eaux, étudia les mystères du ciel. Livré à une de ces extases qui lui étaient familières, il voyagea de sphère en sphère, de visions en visions, écoutant ou croyant entendre de sourds frémissements, et des voix d'anges, voyant ou croyant voir des lueurs divines au sein desquelles il se perdait, essayant de parvenir au point éloigné, source de toute lumière, principe de toute harmonie. Bientôt la grande clameur de Paris, propagée par les eaux de la Seine, s'apaisa, les lueurs s'éteignirent une à une en haut des maisons, le silence régna dans toute son étendue et la vaste cité s'endormit comme un géant fatigué". (*Éd. Conard*, XXXI, p. 31).

"Le terrible démon du travail..." Balzac a peut-être goûté parfois aux merveilleux plaisirs de l'extase; il connaît mieux encore les affres du travail créateur. Il sait par expérience que lui seul permet à l'artiste la conquête de ces êtres fantasques: les idées; la réalisation de ce rêve inaccessible: la Beauté.

"Vous ne descendez pas assez dans l'intimité de la forme, fait-il dire à son peintre de génie, Maître Frenhofer, dans le *Chef-d'œuvre inconnu:* vous ne la poursuivez pas avec assez d'amour et de persévérance dans ses détours et dans ses fuites. La beauté est une chose sévère et difficile qui ne se laisse point atteindre ainsi; il faut attendre ses heures, l'épier, la presser et l'enlacer étroitement pour la forcer à se rendre. La Forme est un Protée bien plus insaisissable et plus fertile en replis que le Protée de la fable [...]; vous autres, vous vous contentez de la première

préface de la *Peau de Chagrin* après avoir dit que l'art littéraire contient "deux parties bien distinctes ; l'observation et l'expression", il se hâtait d'ajouter :

"La réunion de ces deux puissances fait l'homme complet ; mais cette rare et heureuse concordance n'est pas encore le génie, ou plus simplement, ne constitue pas encore la volonté qui engendre une œuvre d'art..." (*Ed. C. Lévy*, XXII, p. 401).

Il écrira d'autre part, deux ans plus tard, dans un curieux essai dont nous reparlerons longuement : la *Théorie de la démarche* :

"De toutes les courtisanes, la pensée est la plus impérieusement capricieuse : elle fait son lit, avec une audace sans exemple, au bord d'un sentier ; couche au coin d'une rue ; suspend son nid, comme l'hirondelle, à la corniche d'une fenêtre ; et avant que l'amour n'ait passé à sa flèche, elle a conçu, pondu, couvé, nourri un géant. Papin allait voir si son bouillon avait des yeux quand il changea le monde industriel en voyant voltiger un papier que la vapeur ballotait au-dessus de sa marmite. Faust trouva l'imprimerie en regardant sur le sol l'empreinte des fers de son cheval, avant de le monter. Les niais appellent ces foudroiements de la pensée des hasards, sans songer que le *hasard ne visite jamais les sots*". (*Ed. Conard, O.D.* II, 618).

C'est qu'en effet, si les idées sont semblables à de jolies femmes capricieuses, elles ne se laissent prendre que par ceux qui les ont méritées par une poursuite assidue. Cette poursuite constitue le moment le plus passionnant du travail de l'artiste ;

"Une idée est souvent un trésor, mais ces idées-là sont aussi rares que les mines de diamants le sont sur l'étendue de notre globe. *Il faut les chercher longtemps, ou plutôt les attendre. Il faut voyager sur l'immense océan de la méditation, et jeter la sonde* [...]

Il est difficile de rendre le bonheur qu'éprouvent les artistes à *cette chasse des idées* Dans ces heures de délire, pendant ces longues chasses, aucun soin humain ne les touche, aucune considération d'argent ne les émeut. Ils oublient tout..." (*Ed. Con., O.D.* 354)

Ces heures de délire, ces chasses spirituelles se déroulent généralement dans le silence, dans la solitude et dans la nuit. A la fin

comme les martyrs au Christ" et il fait une longue et fulgurante proclamation sur la vie des idées :

"Oui, Messieurs, les idées sont des êtres, reprit le vieillard qui grandit, s'anima et dont la voix eu des vibrations de cloche...".

Et, développant son thème, il distingue les idées selon leur longévité : les unes "de petites créatures boiteuses et manchotes, grêles, vieillottes, ce sont, dit-il, les idées de ce que vous appelez les *gens de lettres*. Elles vivent sur les murailles à la façon des giroflées jaunes, elles parfument un jour les airs, disparaissent et tombent..." D'autres, au contraire, "s'élèvent lentement, avec grâce, poussent en étendant avec majesté les immenses frondaisons de leurs branches, couvrent une époque de leurs ombrages, meublent les villes comme ces allées de platanes et de tilleuls sous lesquels se promènent cinq à six générations. Ce sont les beaux ouvrages dus à quelques cerveaux, et dont les idées vivaces régissent deux ou trois siècles..." (p. 662). Une autre mode de distinction entre les idées se réfèrerait selon lui à l'influence qu'elles exercent sur ceux qui les conçoivent. Ici le créateur de Louis Lambert, de Balthazar Claës, de Maître Frenhofer, de Maître Cornélius, du Père Grandet, du Père Goriot, de tant de passionnés, de maniaques, de fanatiques d'une idée ou d'un sentiment se retrouve sur un terrain qu'il connaît mieux que personne :

"Mais, dit-il, y a des idées dont le système agit plus directement sur les hommes qui s'en emparent. Ces idées les tourmentent, les font aller, venir, pâlir, sécher [...] Il y en a de gigantesques, de monumentales, qui tiennent du règne minéral. Elles tombent à l'heure dite, se relèvent et retombent sur la tête des nations ou d'un individu ; comme un marteau sur l'enclume, et elles forgent les siècles en préparant les révolutions..." (*Ib.* p. 663).

* * *

De cet accent ainsi placé par Balzac sur le caractère "capricieux" de l'inspiration, sur l'ignorance où se trouve l'artiste du secret de son propre génie, gardons-nous de conclure pourtant qu'il minimise l'importance du travail volontaire. Lui, le théoricien de la volonté !... Bien au contraire : Dans sa

"Croyez-vous demande la maîtresse de maison à l'un de ses hôtes, croyez-vous ainsi que Monsieur le prétend [et ce-disant, elle désigne "un jeune homme pâle et très chevelu, nommé Louis Lambert"] que les idées soient des êtres organisés qui se produisent en dehors de l'homme ?...".

L'homme à qui est posée la question est un "certain savant prussien connu par l'intarissable fluidité de sa parole" [Le docteur Koreff sans doute]. Sa réponse est l'histoire d'un malheureux Hanovrien venu à Londres et qui se plaignait d'y avoir été dépouillé de ses idées détenues par le voleur dans un bocal. Or, quelque temps après, le médecin qui le traitait pour folie, entend parler d'un de ses confrères qui "se livrait à des opérations chimiques sur quelques masses d'idées prises à différents individus et contenues dans des bocaux très bien étiquetés". On se rend chez ce médecin ; on y découvre en effet des bocaux parmi lesquels celui qui contenait les idées du malheureux hanovrien. Celui-ci, le bocal brisé, recouvre ses idées et repart guéri !... Le narrateur ne veut pas trop se compromettre devant ces gens du monde : "Ce fait, dit-il prudemment, s'il était scientifiquement prouvé, pourrait corroborer la théorie que M. Lambert vient de nous exposer sur la vie et l'iconographie des idées, système qu'en ma qualité d'Allemand je respecte...

— *Ce n'est pas un système, c'est une éclatante vérité* dit alors "une voix qui semblait sortir d'un bocal et qui effraya l'assemblée". (*Éd. Con. O.D.* II, 657-658).

Ainsi entre en scène le personnage "fantastique" qui sera le héros de ce conte. C'est un être étrange, d'âge indéfinissable qui porte le nom de Monsieur de Lessones. Il déclare être la toujours vivante incarnation d'un idée plusieurs fois centenaire, victime des administrations françaises successives depuis Henri IV jusqu'à Charles X ! Mais avant d'entreprendre le récit de ses "aventures administratives", il se tourne vers Louis Lambert à qui il déclare : "Vous, vous êtes voué à une vérité,

Souvent au milieu du calme et du silence, me disait-il, lorsque nos facultés intérieures sont endormies, quand nous nous abandonnons à la douceur du repos, qu'il s'étend des espèces de ténèbres en nous, et que nous tombons dans la contemplation des choses extérieures, tout à coup une idée s'élance, passe avec la rapidité de l'éclair à travers les espaces infinis dont la perception nous est donnée par notre vue intérieure. Cette idée brillante, surgie comme un feu follet, s'éteint sans retour; existence éphémère, pareille à celle de ces enfants qui font connaître aux parents une joie et un chagrin sans bornes; espèce de fleur mort-née dans les champs de la pensée. Parfois l'idée, au lieu de jaillir avec force et de mourir sans consistance, commence à poindre, se balance dans les limbes inconnus des organes où elle prend naissance; elle nous use par un long enfantement, se développe, devient féconde, grandit au dehors dans la grâce de sa jeunesse et parée de tous les attributs d'un longue vie; elle soutient les plus curieux regards, elle les attire, ne les lasse jamais: l'examen qu'elle provoque commande l'admiration que suscitent les œuvres longuement élaborées [. . .]. *Les idées sont en nous un système complet, semblable à l'un des règnes de la nature, une sorte de floraison dont l'iconographie sera retracée par un homme de génie qui passera pour fou peut-être...*" (*Ib.* p. 97–98) (¹).

Peu de mois après avoir placé dans la bouche de son Louis Lambert ces brillantes théories sur la vie des idées, Balzac commençait un nouveau conte philosophique où il se proposait d'en donner une illustration vivante. Ce récit, malheureusement resté inachevé et qui portait le titre bien significatif d'*Aventures administratives d'une Idée heureuse*, s'ouvrait par un "fantasque avant-propos" (²). Nous sommes en 1825, après minuit dans un salon de Paris—celui d'une "dame hospitalière chez laquelle à cete époque abondèrent les poètes, les écrivains, les gens de science et dont le salon pouvait passer pour le vestiaire de la littérature" [Madame Sophie Gay? Madame Récamier?] Entre intimes, s'engage "une de ces conversations fortes, pleines de choses, à la fois railleuses et polies, comme parfois il s'en écoute encore dans cette ville, aussi réellement profonde qu'elle semble folle":

(¹) C'est moi qui souligne.

(²) Ed. Conard, *O.D*, II, 656 sqq.

maladie humaine comme la perle est une infirmité de l'huître; soit que sa vie serve de développement à un texte, à une pensée unique gravée en lui par Dieu, *il est reconnu qu'il n'est pas lui-même dans le secret de son intelligence. Il opère sous l'empire de certaines circonstances dont la réunion est un mystère* (¹). Il ne s'appartient pas; il est le jouet d'une force éminemment capricieuse." (*Ed. Conard, O.D.* I, 353, 11 mars 1830).

Balzac développait son texte par des exemples; il décrivait d'abord les curieuses périodes d'abattement, de sécheresse, de vide intérieur que connaissent les créateurs; puis venait la description du *miracle de l'inspiration*:

"Un soir au milieu de la rue, un matin en se levant, ou au sein d'une joyeuse orgie, il arrive qu'un charbon ardent touche ce crâne, ces mains, cette langue; tout à coup un mot réveille les idées; elles naissent, grandissent, fermentent [...] C'est une vision aussi passagère, aussi brève que la vie et la mort; c'est profond comme un précipice, sublime comme le bruissement de la mer [...] le travail est là tenant ses fourneaux allumés; le silence, la solitude offrent leurs trésors; rien n'est impossible. Enfin, c'est l'extase de la conception voilant les déchirantes douleurs de l'enfantement." (*Ib.* p. 353).

Négligeons pour l'instant la dernière phrase de ce beau texte; nous la retrouverons lorsque nous analyserons, à la suite du romancier, le développement de l'œuvre depuis sa conception jusqu'à l'enfantement. Retenons seulement cette affirmation si forte du *caractère capricieux de l'inspiration*, du *caractère volontaire de la création littéraire*, mais surtout de *l'autonomie si étrange des idées par rapport à l'artiste leur créateur*. C'est un des points de la doctrine balzacienne les plus solennellement et fréquemment affirmés:

"Pour lui donc—a-t-il écrit dans *Louis Lambert*—la Volonté, la Pensée étaient des *forces vives*; aussi en parlait-il de manière à vous faire partager ses croyances. Pour lui, ces deux puissances étaient en quelque sorte et visibles et tangibles. Pour lui, la pensée était lente ou prompte, lourde ou agile, claire ou obscure; il lui attribuait toutes les qualités des êtres agissants, la faisant saillir, se reposer, se réveiller, grandir, vieillir, se rétrécir, s'atrophier, s'aviver [...]

(¹) C'est moi qui souligne.

dormais dans mon alcôve, ce fait ne constitue-t-il pas une séparation complète entre mon corps et mon être intérieur ? N'atteste-t-il pas je ne sais quelle faculté locomotive de l'esprit ou des effets équivalant à ceux de la locomotion du corps ? Or, si mon esprit et mon corps ont pu se quitter pendant le sommeil, pourquoi ne les ferais-je pas également divorcer ainsi pendant la veille. [...]. Comment les hommes ont-ils si peu réfléchi jusqu'alors aux accidents du sommeil qui accusent en l'homme une double vie ? N'y aurait-il pas une nouvelle science dans ce phénomèse ? ajouta-t-il en se frappant le front; s'il n'est pas le principe d'une science, il trahit certainement en l'homme d'énormes pouvoirs ; il accuse au moins la désunion fréquente de nos deux natures, fait autour duquel je tourne depuis si longtemps. J'ai donc enfin trouvé un témoignage de la supériorité qui distingue nos sens latents de nos sens apparents. *Homo duplex.* Mais, reprit-il après une pause et en laissant échapper un geste de doute, peut-être n'existe-t-il pas en nous deux natures ? Peut-être sommes-nous tout simplement doués de qualités intimes et perfectibles dont l'exercice, dont les développements produisent en nous des phénomènes d'activité, de pénétration de vision encore inobservés. Dans notre amour du merveilleux, passion engendrée par notre orgueil, nous aurons transformé ces effets en créations poétiques, parce que nous ne les comprenions pas. Il est si commode de déifier l'incompréhensible... " (p. 85-86).

II.—La vie des idées

Ne nous laissons pas trop impressionner par ces dernières lignes. Balzac, en fidèle disciple des Idéologues s'efforce courageusement de réduire la part du mystère ; il se refuse à " déifier l'incompréhensible ". Mais si le mystérieux ne s'identifie pas forcément au surnaturel, il n'en reste pas moins mystérieux. C'est cela surtout que nous devons retenir de cette analyse balzacienne du génie. Nous connaissons ses effets, mais sa nature, son essence nous échappent. Le comble, c'est qu'il n'est pas un mystère seulement pour ceux qui l'observent de l'extérieur, mais aussi pour ceux-là même qui en ont reçu du Ciel le redoutabte privilège.

" Soit que l'artiste, peut on lire dans le second des articles sur *les Artistes* ait conquis son pouvoir par l'exercice d'une faculté commune à tous les hommes ; soit que la puissance dont il use vienne d'une difformité du cerveau et que le génie soit une

Il l'était encore l'année suivante dans cette *Histoire Intellectuelle de Louis Lambert* à laquelle l'auteur des *Contes Philosophiques* attachait une si grande importance, où il avait eu l'ambition de rivaliser avec Goethe et où, prenant un champ plus large que celui d'une simple Préface, abordant cette fois de front la question du génie, il avait décidé de consacrer une œuvre entière à son exploration. Comme Victor Morillon, Louis Lambert est un antididacte de génie. De bonne heure la "lecture était devenue chez lui une espèce de faim que rien ne pouvait assouvir". Passion bien servie grâce à des bibliothèques de couvents sécularisés. "L'absorption des idées par la lecture était devenue chez lui un phénomène curieux ; son œil embrassait sept à huit lignes d'un coup et son esprit en appréciait le sens avec une vélocité pareille à celle de son regard". D'autre part, "sa mémoire était prodigieuse" quant à son imagination, "stimulée par le perpétuel exercice de ses facultés" elle "s'était développée au point de lui permettre d'avoir des notions si exactes sur les choses qu'il percevait par la lecture seulement que l'image imprimée dans son âme n'en eût pas été plus vive s'il les avait réellement vues ; soit qu'il procédât par analogie, soit qu'il fût doué d'une *espèce de seconde vue* par laquelle il embrassait la nature" (*Ed. Conard*, XXXI, 50–51).

Ce mot de "seconde vue" nous fait dresser l'oreille ; Balzac décidément ne peut se résoudre à une explication purement matérialiste du génie. La science, dans son état actuel, ne peut rendre compte des phénomènes extraodinaires dont l'âme de Louis Lambert est le lieu privilégié. L'un des faits les plus étonnants rapportés par son biographe est la reprise et le développement de ceux dont Victor Morillon avait été le héros. Un jour, au cours d'une promenade, Louis découvre un paysage qu'il reconnaît pour l'avoir vu en rêve la nuit précédente. Pourtant jamais il n'était venu en ce lieu. Voici donc Balzac replacé en face de ces mystères qu'il proposait à notre méditation dans sa *Préface de la Peau de chagrin :*

"Si le paysage n'est pas venu vers moi, ce qui serait absurde à penser, j'y suis donc venu. Si j'étais ici pendant que je

éclatant disciple : Marcel Proust. Troisièmement, il sépare nettement le "fond" de la "forme", le travail de recherche des idées de celui du polissage de l'expression, formulant ainsi une esthétique qui, banale à son époque, nous paraît aujourd'hui non seulement démodée, mais profondément étrangère à la réalité psychologique.

Pourtant le plus important n'est pas dit. Dès qu'il pousse plus loin son analyse, Balzac se heur te à nouveau à ce mystérieux pouvoir de l'homme de génie qu'il avait déjà invoqué pour son Victor Morillon et il lui donne cette fois un nom, celui de *seconde vue:*

"Outre ces deux conditions essentielles au talent, il se passe chez les écrivains réellement philosophes, un phénomène moral inexplicable, inouï, dont la science peut difficilement rendre compte. C'est une *sorte de seconde vue* qui leur permet de deviner la vérité dans toutes les situations possibles, ou mieux encore je ne sais quelle puissance qui les transporte là où ils doivent, où ils veulent être. Ils inventent le vrai par analogie, ou voient l'objet à décrire, soit que l'objet vienne à eux, soit qu'ils aillent eux-mêmes vers l'objet [...]

[L'homme de génie] ajoutait-t-il en s'exaltant peu à peu, va en esprit, à travers les espaces, aussi facilement que les choses, jadis observées, renaissent fidèlement en lui, belles de la grâce ou terribles de l'horreur primitive qui l'avaient saisi. Il a réellement vu le monde ou son âme le lui a révélé intuitivement [...]

Les hommes ont-ils le pouvoir de faire venir l'univers dans leur cerveau ou leur cerveau est-il un talisman avec lequel ils abolissent les lois du temps et de l'espace ? La science hésitera longtemps à choisir entre ces deux mystères également inexplicables. Toujours est-il constant que l'inspiration déroule au poète des transfigurations sans nombre et semblables aux magiques fantasmagories de nos rêves. Un rêve est peut-être le jeu naturel de cette singulière puissance quand elle reste inoccupée..." (*Ib.* p. 402).

Faudrait-il voir dans l'auteur de la *Comédie Humaine*, dans le soi-disant "père du réalisme", l'ancêtre du surréalisme ? Notons, en tous cas, l'admirable fermeté de ces formules. L'écrivain avait fait de grands progrès en trois ans ; pleinement maître de ses idées, il était aussi de leur expression. Pourtant le mystère restait irréductible.

rédige, dans l'été de 1831 a pour la *Peau de Chagrin.* Trois ans avaient passé depuis l'*Avertissement* du *Gars.* Le romancier avait connu un succès d'estime avec *Le dernier Chouan* (mai 1829), un succès de scandale avec *la Physiologie du mariage* (janvier 1830) ; puis, sa situation littéraire s'était affirmée, au printemps de 1830 par les premières *Scènes de la Vie privée.* Il était maintenant un auteur à la mode. Les Revues s'arrachaient sa collaboration ; mais c'est sur *la Peau de Chagrin* qu'il comptait pour connaître enfin la gloire, pour accéder au premier rang des littérateurs de son époque. Cette Préface prenait donc à ses yeux une importance particulière. Elle se transforma en une sorte de manifeste où il affirmait sans fausse modestie sa confiance en son génie. Passant en revue les qualités requises de l'homme de génie, il énumérait les dons qu'il possédait ou croyait posséder :

"L'écrivain disait-il doit être familiarisé avec tous les effets, toutes les natures. Il est obligé d'avoir en lui je ne sais quel miroir concentrique où, suivant sa fantaisie, l'univers vient se réfléchir ; sinon le poète et même l'observateur n'existent pas ; car il ne s'agit pas seulement de voir, il faut encore se souvenir et empreindre ses impressions d'un certain choix de mots et les parer de toute la grâce des images ou leur communiquer le vif des sensations primordiales..." (*Ed. O. Lévy*, XXII, 400).

Ces quelques lignes contiennent trois affirmations d'une importance capitale : premièrement, pour Balzac il n'est pas de grand poète qui ne soit aussi un grand savant ou un grand philosophe :

"Penser c'est voir" fera-t-il dire l'année suivante à Louis Lambert. Toute science humaine repose sur la déduction qui est une vision lente par laquelle on descend de la cause à l'effet, par laquelle on remonte de l'effet à la cause, ou dans une plus large expression toute poésie comme toute œuvre d'art, procède d'une rapide vision des choses." (*Ed. Conard*, XXXI, 78).

Deuxièmement, dans la mystérieuse alchimie spirituelle d'où sort l'œuvre d'art, Balzac accorde une place de premier rang au souvenir. Il précède ainsi, sur ce point comme sur tant d'autres, celui des romanciers modernes qui devait être son plus

au sein des bals où il avait admiré la nudité des femmes, leurs toilettes, leurs fleurs, leurs diamants, leurs danses et leurs regards enivrés ; lui peignit le luxe des appartements qu'il habita [...] sans avoir rien vu de tout cela par sa prunelle extérieure et visible ; il sut empreindre d'une teinte si vigoureuse de réalité la description des paysages de ses parcs, les récits des fêtes de l'Empire, des batailles de Napoléon et des accidents de la vie sociale, que le professeur, un de ces hommes spirituels et pleins de bon sens que l'on rencontre dans les provinces, ne douta nullement qu'il était le jouet d'un homme habile ayant beaucoup vu et beaucoup voyagé, car pour le soupçonner de folie, la folie aurait peut-être demandé un autre nom." (1)

Le professeur continua son enquête. Il trouvait ce jeune homme "sans modestie mais sans vanité, parlant de soi comme s'il possédait la faculté de s'observer lui-même à distance" et il "resta bientôt stupéfait lorsque de sévères informations lui apprirent la vérité : Victor Morillon n'était jamais sorti du village de Sannary que pour aller chez le maire de Mondoubleau l'honorable M. de Veyne". Alors, le vieil homme qui n'était pas pour rien un homme du dix-huitième siècle, fit appel, pour expliquer le mystère, à une hypothèse purement matérialiste—celle que "les athées et les malicieux philosophes" avaient depuis longtemps trouvée pour expliquer la tentation de Saint-Antoine et les extases de Sainte Thérèse, invoquant "les ameublissements dont la chasteté enrichissait leurs cerveaux". Balzac prenait-il alors à son compte une explication aussi grossière ? Peut-être. Pourtant, il se garda de la reproduire lorsqu'en 1832, il transforma Victor Morillon en Louis Lambert. Il ajouta d'ailleurs pour définir son héros un mot qu'il s'était déjà appliqué à lui-même, dix ans auparavant dans une de ses premières lettres à Madame de Beruy : "Cette âme était enfin, selon la magnifique expression de Leibnitz, *un miroir concentrique de l'univers*".

Ce mot est un des *mots-clefs* de Balzac. Aussi se glissa-t-il naturellement sous sa plume dans la longue *Préface* qu'il

(1) *Mesures*, p. 180-181.

I.—Le mystère du génie

Le premier texte où nous voyons Balzac se pencher attentivement sur lui-même, s'interroger sur sa puissance créatrice, sonder le mystère de son génie, est un *Avertissement* rédigé en 1828 pour son roman des *Chouans* qui s'appelait alors *Le Gars* (1). Balzac est encore un inconnu ; ses premies efforts pour conquérir la gloire littéraire ont abouti à l'échec. A vingt-huit ans, il commence une nouvelle carrière ; il ne peut échouer à nouveau. Aussi l'*Avertissement* est-il écrit sur un ton grave et les fonfaronnades de l'orgueil s'y mêlent curieusement aux tremblements de la timidité. Libre à certains lecteurs de sourire devant ce texte où s'étale naïvement la conscience du génie ; pour moi j'y sens une grande simplicité, un étonnement sincère devant des phénomènes mystérieux, un anthentique souci de vérité. D'ailleurs, ici comme dans *Louis Lambert* où, quatre ans plus tard, il reprendra cette première esquisse, Balzac s'efface derrière un pseudonyme. Il prend le nom de Victor Morillon.

Le génie de Victor Morillon s'explique par la passion de la lecture et le goût de la méditation, de longues rêveries dans la campagne, une vie purement végétative reposant sur les " seules forces de ses sens intérieurs " ; mais, plus profondément, par des dons extraordinaires : une " imagination fantasmagorique " et une " intuition profonde des choses ". Comment comprendre autrement son étrange pouvoir de décrire des mondes qu'il ne connaît pas ? Un jour, dans la campagne, aux environs de Vendôme, un vieux professeur l'a rencontré et interrogé :

" Le jeune paysan s'efforça dans cette conversation de persuader au professeur qu'au milieu des champs et sous le chaume de sa cabane, il avait la conscience, la possession, les jouissances d'une vie opulente ; il lui décrivit les plaisirs d'une immense fortune avec une étonnante vivacité de couleur, lui parla des joies ressenties

---

(1) *Coll. Lov*, A. 13. Texte publié pour la première fois par P. Abraham dans *Créatures chez Balzac*, Paris, Gallimard, 1931, ch. III, p. 65-108, puis par B. Guyon dans *Mesures* n° 1, janvier 1935, p. 169-186.

dans *La Silhouette* ou *Les Aventures administratives d'une idée heureuse* (1834) ; dans un bon nombre en fin d'articles de critique littéraire et surtout de *Préfaces*, *Introductions* ou *Avertissements* mis en tête de ses œuvres. Malheureusement, la plupart de ces textes sont peu connus, pour ne pas dire ignorés. Les récits romanesques font partie des *Eutdes Philosophiques* que de fervents balzaciens considèrent comme le joyau de la *Comédie humaine*, mais qui ne sont vraiment goûtées que par les "happy few"; les articles ou essais ont été recueillis dans la plus accessible et la meilleure des éditions de Balzac l'édition Bouteron-Longnon chez Conard ; mais ils ne sont guère lus que par des spécialistes ; quant aux Préfaces, à part de très rares exceptions, elles ont toutes été supprimées par Balzac lui-même dans la première édition d'ensemble de la *Comédie humaine* et elles n'ont été recueillies que dans le tome XXII de l'édition Calmann-Lévy, aujourd'hui très difficile d'accès.

Ainsi des trésors demeurent inconnus. Je me propose dans cet article d'en révéler quelques-uns. J'espère ainsi mettre en lumière un aspect inédit du génie de Balzac et, en cette année du centenaire où la gloire, "ce soleil des morts", brille enfin sur lui d'une lumière éclatante, donner aux fervents de son œuvre quelques motifs nouveaux d'admiration et d'amour. J'espère aussi apporter une contribution aux travaux des historiens et critiques littéraires qui, s'inspirant des révélations d'un Baudelaire ou d'un Poe, bientôt suivies de celles d'un Proust et d'un Gide, d'un Mauriac et d'un Duhamel, d'un Maurois et d'un Valéry, s'efforcent, depuis une trentaine d'années d'approfondir le mystère de la création littéraire. Je voudrais enfin ouvrir ainsi la voie à toute une série d'études sur les romans de Balzac, qui, partant des indications du romancier lui-même, s'efforceraient de nous décrire la "genèse", aujourd'hui encore si obscure, de quelques-uns de ses chefs-d'œuvre.

BALZAC ET LE MYSTÈRE DE LA CRÉATION LITTÉRAIRE

PAR

BERNARD GUYON

Ce psychologue qui s'est penché avec une curiosité si perspicace sur tant de mystères de l'âme humaine, à qui n'ont échappé ni les douleurs muettes des femmes incomprises, ni les ardeurs comprimées des jeunes ambitieux, ni les passions refoulées des grands réfractaires, ni les crimes silencieusement perpétrés par des tyrans domestiques dans l'obscurité de la province, ni les soupirs étouffés de leurs innocentes victimes, il serait bien étonnant qu'il ne se fût aussi—et d'abord—interrogé sur un secret dont il s'offrait chaque jour à lui-même l'irritante énigme, celui de son propre génie, le secret de la création artistique.

Certes, pour un tel homme, l'essentiel était de créer, non de savoir pourquoi ni comment le miracle quotidien s'accomplissait en lui. Pourtant n'oublions pas qu'il était et prétendait être un *philosophe.* "Forcer l'arcane de la Nature" fut sa première ambition et il y resta fidèle jusqu'au bout. En fait, s'il faut en croire ses confidences dans *Louis Lambert*, il s'est penché de très bonne heure sur ce mystère:

> Nous nous mettions, dit-il en parlant de lui et de son ami Louis, à rechercher en nous-mêmes les indescriptibles phénomènes relatifs à la génération de la pensée, que Lambert espérait saisir dans ses moindres développements afin de pouvoir en décrire un jour l'appareil inconnu..." (*Ed. Conard*, XXXI, 78).

Les résultats de ses recherches ont été consignés par Balzac d'une part dans quelques-unes de ses œuvres romanesques, *Louis Lambert* naturellement, mais aussi *Gambara*, *Les Proscrits*, *Le Chef-d'œuvre inconnu*; d'autre part dans certains essais comme les trois articles sur *Les Artistes* qu'il fit paraître, en mars 1830,

With this observation we come to a final remark. Why was this fragment conserved at all ? It is only like a modest bud in the garland of full blossoming dialogues. But Plato seems to have cherished this bud, or putting it less sentimentally he seems to have appreciated in it a protreptic value of its own. Indeed an attentive reader could find a special incitement to metaphysical effort, both elementary and humane, particularly appealing to "freshmen", in these incomplete debates among nameless lovable ephebes. So he inserted it into his spiritual legacy which was published as the Ausgabe letzter Hand by the Academy in accordance with the final direction of the Founder.

is no way of transcending to the absolute through ideas, and in his conception of exemplary life there is no ideal of a lawgiving community. He preaches an imminent mysticism of cosmic experience and the total devotion of the individual to self-perfection. One might say he is the representative of Greek Buddhism against the Brahman Plato. Against him the dialectical Socrates could not argue. The only symbolic mention of this world-wide antagonism had to be silence.

But perhaps this silence was the result of a conscientious trial. Possibly the "Lovers" was meant to enhance the first picture of what philosophy is by bringing to light the antagonistic figure of the atomist visionary. For neither the negative nor the positive part of our fragment could any figure lend a more convincing contract. The πένταθλος in many sciences as opposed to the adept of the one science (who still remains in the dark) would not be, of course, an industrious collector of facts only, but the most ingenious representative of rational research who despite all efforts does not transcend to the life-creating beyond. Furthermore, he could find no way from personal "self-discipline" to social "justice". We may imagine that Plato had had the plan of giving away the name of Democritus in this dialogue about the philosopher, but refrained from carrying through his proposals for the reasons we have expounded.

There was perhaps a more general cause of hesitancy in this subject, namely the reluctance of Plato to open his inmost heart, which, in this way or another, he had to do when speaking about the philosopher, that is, about the glorified shape of his personal being. There is a second, and this time undoubted, instance of this hesitating in Plato's work. In his old age he wanted to write a trilogy (as is mentioned in its first part) about the "Sophist", the "Politician", and the "Philosopher". Only its first two dialogues were accomplished, the third did not even reach the stage of the "Lovers", or if he reached it, the author did not wish to leave his sketch to posterity.

"Timaeus". Generally speaking it would be ridiculous to imagine that a philosopher of that importance, and a prolific writer to boot, would have remained unknown to the keenest observer of Greek cultural life. Why did Plato while fighting Protagoras and also criticising Anaxagoras avoid showing his opposition to Democritus whose researches he evidently appreciated on the material level?

No answer could be quite satisfactory as all are based in part on speculation. But the speculation based on Plato's principles seems to give the greatest possible satisfaction. As a writer he was not an historian bound to mention every interesting person he had met or heard of. Both his praise and criticism of contemporaries or ancestors has mainly symbolic significance. He always wishes to give a greater force to his own ideas by adorning them in alliance or enmity, in love or hatred, in higher or lower tunes of his rich musical scale, with the names and gestures of other representatives of living spirit. His conception of the cosmic creation is sanctified by the remembrance of Anaxagoras, his struggle against vainglorious intellectualism is enforced by the criticism of Protagoras, his passionate devotion to justice by rejecting the rhetorical adulation of bad instincts as personified in Gorgias.

To which Platonic attitude would Democritus lend an appropriate symbolic charm? He was no player with values, no money-earning sophist, no theorising courtier of tyrants or mobs. With his unfailing eye for greatness and pettiness of soul Plato must have recognised the creative nobility of his antagonist which shimmers even for us through the pitiable crumbs of his lost word. History seems to judge that Democritus is the only Greek philosopher who has a place in ihe ranks of human mind at the side of Plato. There he became the ancestor of the whole antiplatonic line in European thought. His contrast to the founder of idealism is formidable indeed and could be seen under two aspects: in his conception of universal knowledge there

shows in its jesting a furious hostility against the opposing fools and clowns. Here σοφία, wisdom, is treated as a battle againt destructive folly with actual efficiency, much as the theoretical debate on amateurish knowledge in the "Lovers" was unable to do.

The "Gorgias", the main fighting dialogue shows the continuity with the little fragment quite distinctly. For here the contrast of theory and practice, of the dreamer and the hunter, as forming the base of the "Rivals", is openly expressed, in an important passage, by those mythical figures which are present, but remain unnamed in the earlier sketch. Euripides is quoted by Callias (485e ss.) with various verses of the "Antiope". Callias, the fervid defendant of injustice, attacks Socrates with words used by Zethus against Amphion. He should throw away his effeminate pleasures and join the male force of successful and glorious action. This contrast was certainly felt by Plato already when he drafted the "Rivals". But there he could not show it in its full impact, because the enmity of intentional wickedness and self-defending justice would have disturbed the atmosphere of the erotic play which determines the dialectical progress of that period. We understand, however, that this restriction hindered his pen and led him to leave the plan unexecuted.

There is one problem connected with the "Lovers" which cannot be solved in the present state of our knowledge, but is interesting enough to be mentioned. It concerns the relation between Plato and Democritus. Thrasylos had said that if the "Lovers" is Plato's the figure of the πένταθλος therein was meant to provoke a jesting criticism of Democritus. On the other hand, we hear of people in antiquity who were surprised at Democritus being the only important philosopher of the time never mentioned by Plato, who was even represented in one anecdote as wishing to burn his copy of Democritus' writings. This is indeed a remarkable fact. For modern investigation has proved that the work of the Abderite was studied by the Athenian and assimilated into his quite antagonistic system, most distinctly in the

mentioned—as we said for more detailed exposition. About Oenopides we know little, but he certainly stands here as worthy representative of mathematics and their royal fulfilment is astronomy, possibly of the Pythagorean school. Anaxagoras, the messenger of the creator spiritus, the discoverer of the νοῦς, whose importance for the Socratic development is shown in the "Phaedo" could not be replaced by a more appropriate name.

The two parts of the following discussion exactly fulfil our expectations of a Platonic treatment of things, giving first the negative criticism of what has been imagined as philosophy so far, that is especially the refutation of quantitative knowledge, and second the positive way to universalism, that is to combining the single virtues, eminently self-discipline and justice, in the new philosophical attitude of both thinking and acting. The way ends just one step short of the famous vision of kings who are philosophers and philosophers who are kings. So we understand immediately why this plan was not executed. It was too great for the present stage of metaphysical development, it anticipated too much, before another urgent duty had been performed.

For wisdom in its full action, philosophy in efficient universalism, cannot appear without a full realization of its "existential" tragedy. That means, Socrates had to be shown not only as a graceful friend of an honestly striving youth, not only as a guide through a happy life in a carefree community but as a fighter, even as a warrior against the powers of falsity and destruction. The candle of wisdom could throw his far-reaching light only in the darkness of a naughty world. Soon after the "Charmides" and the "Lovers" we shall see Plato starting on the warpath and staging the symbolic master in his human tragedy. The "Euthyphro" who opens the new series mentions for the first time the lawsuit of Socrates, and the atmosphere of passionate struggle spreads over the background of passionate play we had been enjoying throughout the first series. Even the "Euthydemus", a glaring comedy, full of amorous excitement,

traditional ἀρεταί ("virtues.") of Greek society which could make their bearers ready for the daring jump into the metaphysical beyond. So in the "Laches" courage was introduced and discussed, in the "Thrasymachus" justice, in the "Lysis" friendship and in the "Charmides" self-discipline.

What should be the next step? Evidently to show "wisdom" in its specific nobility and usefulness. Wisdom, whose fundamental worth is never doubted even in the popular feeling of the Athenian crowd, has a double function. It is in itself the force of enlightened judgment, but it goes at once farther in the attempt at the enlightenment of the other virtues too. For the second purpose it is impossible to discuss wisdom without stressing the unity of the human soul in all its spiritual efforts. That means, σοφία as a single virtue of human nature becomes φιλοσοφία, philosophy as wise endeavour towards human universality.

In no dialogue of the series preceding and including the "Charmides" had this universal outlook on philosophy come forth. Never had the question: what is philosophy? been put. Never had an attempt been made to give a picture or to draw a sketch of the philosopher, the bearer and representative of universal wisdom. In the "Lovers" we witness such a first attempt. So we must expect, according to Plato's way of developing his new ideas, that a basic relation is laid down with the pre-Socratic initiative in philosophy and with its modes of philosophical thinking. That is just what we find in the introduction to the "Lovers". The grammar-school forms a plausible background for boys who draw geometrical figures in the sand and debate numbers. In the fuller elaboration all these things would certainly have been amplified with more philosophical gestures, names, and problems. But the first principle of Platonism, the warning in the entrance of the Academy, is already unequivocally present in the symbol of the drawing children. Μηδεὶς ἀγεωμέτρητος εἰσίτω. Only geometers enter here.

Mathematics are the base and first substance of philosophy. Then the venerable names of Anaxagoras and Oenopides are

"Lovers" is to show the identity of self-discipline and justice. The first step in that direction is done by a renewed quotation of the Delphic inscription. Socrates says now (138 a): "The letter in Delphi exhorts to the practice of self-discipline and justice". This is a peremptory statement certainly destined to a broader explanation in the definite shape. How justice comes in ought to be demonstrated with new arguments. But the connection in itself is clear. So we come to give the "Lovers" their natural place after the "Charmides".

As we have tried to demonstrate elsewhere all these early dialogues of Plato are by no means haphazard, single attempts at finding an unknown truth. They are not under the "influence" of the historical Socrates, from which the author is supposed to pass on gradually to his genuine style of philosophical self-expression. On the contrary, we see a complete unity, a great plan, a distant, but unambiguous aim manifesting itself in a continuous process of self-revelation throughout the whole series of dialogues from the start to the "Republic". There is no "Socratic" period in the work of his most prominent disciple, but the master Socrates as a whole has been rejuvenated and embellished in order to be the leading voice of the philosophical message for which the two illustrious spirits had formed their mystical union.

The aim of their expression by literary means is the revelation of perfect humanity living in an ideal state, as founded through earthly harmonization of cosmic powers. The "Banquet" the "Phaedo" and the "Republic" show this final process and its results. All the preceding dialogues serve the task of preparing, of raising in the souls of the hearers those noble instincts, those victorious powers, those luminous thoughts which would be apt to model single creatures for the ideal community. In the first part of this preparatory stage to which "Lysis" and "Charmides" still belong, Socrates is shown in the splendor of free life. His main job is here to incite, to clarify and to strengthen those

is to be found in one reply of Amphion (136 d). Socrates had asked him: "when you are ill would you call into your house a second-rate philosopher or a first-rate doctor?" Amphion who had defended the amateur answers: "I should call them both". A precious flippancy of the adolescent, strictly rebuked by the older man!

Last not least one passage of irony (137 e) the playful profundity of which alone should force us, in our need of an author, to call in Plato for help. In the dialectical process of revealing the essence of self-discipline Socrates visualises "the horse which does not know good and bad horses and therefore would be ignorant of what it is itself". Further "if some one is an ox who would not know bad and good oxen he would be ignorant of what he is himself". In the same way concerning a philosophising dog. So then, "if someone is a human being who does not know brave and evil men he would be ignorant of himself whether he is good or bad, since he is himself a man". This way of following wisdom down to the depth of instinctive creatures and of basing self-knowledge on the knowledge of others are features of masterfully conducted thought. They lead us directly to the main question: has the dialectical sketch of the "Lovers" as a whole a place in the general process of Plato's work?

The story is told by Socrates in the same way as the "Thrasymachus" (the first book of the "Republic", recognised as a separate earlier dialogue), the "Lysis" and the "Charmides". With the last two the "Lovers" share the erotic atmosphere, used as a medium for spiritual endeavour. There is also a continuity in the treatment of the background. In "Lysis" is a playground, in "Charmides" a wrestling place, in the "Lovers" a grammar school. With the "Charmides" there is a special link through the quotation of the Delphic inscription: Know thyself. That dialogue deals with σωφροσύνη, and the imperative of Apollo is interpreted (164 d) as being an "enigmatic" exhortation to self discipline. As we have seen one of the main points of the

descendant's wholly developed philosophy. The disgust of Zethus the sportsman for what he considers the shallow arrogance of his rival who neglects his body is uttered with amusing bluntness (134b). The ironical proposition of Socrates, at a moment of ἀπορία (155 c), to consult the listening boys, who perhaps knew better, is a gesture loaded with significance: return to the child as source of instinctive knowledge and simultaneously pedagogic incitement of shame in the elder.

In the next sentence Homer is quoted—which has always a half-hidden meaning with Plato, and so it has here. Socrates teases: are we ashamed to ask the boys who is the true philosopher, just as Homer shows the suitors reluctant of allowing anyone else to draw the bow (although they are as unable themselves to draw it as we are unable to make the right shot at wisdom)? Here an equation is expressed between the seekers of truth and the exponents of the bow. Both are unefficient. But a positive hint is implied as soon as we put the natural question: who *is* efficient? Homer answers: as master of the bow Odysseus who at that moment stands nearly in the shape of an unknown beggar. And Plato wishes to be felt as adding: Plato is the master of wisdom, in the shape of the fully revealed Socrates, in reaching the truth about the philosopher. This symbolic use of Odysseus for Socrates—Plato is hidden in more than one other Homeric quotation throughout the dialogues.

The simile of the πένταθλος (135e) as illustrating the splendid dilettante is very impressive, even in its summary execution. It seems to have had a fame of its own among the readers of Plato in later antiquity. We know of an instance of this. Eratosthenes, the all-round mathematician, scientist, philologist, historian, and poet, was given by his critics the nickname πένταθλος. This name means that he was, as a whole, a philosopher "near the top" only. It could hardly be understood in its full irony without looking back to the unefficient philosopher of the "Rivals.". An inimitable flash on Plato's enjoyment of the charm of youth

show. The dialectical process is always clear as far as it goes, but nearly always abbreviated or condensed. Many projected sidelines seem to remain in the dark. But the order of thoughts leaves no doubt of its decisive character: it is a frontal attack (evidently its author's first) on the universal problem of the nature of philosophy. It has two parts. The first and negative one analyses and rejects the conception of philosophy as a matter of manifold knowledge. The second and positive part brings philosophy into the orbit of action, of enlightened and self-disciplined justice, in personal and political communities. Before examining how this particular trend of thought fits in with Plato's general trend and in which of its stages it might conveniently be inserted we just wish to draw attention to a few passages of the "Lovers" which, even in this preliminary form, seem to bear the unmistakable Platonic touch.

Though the abstract bones bear little of the plastic splendour of a completed dialogue, some interesting flashes were put down by the writer, as it were, while hurrying on with the logic. The introduction as we mentioned is drafted very summarily, although the background of the school with its half intellectual, half passionate atmosphere appears to promise a picture of Hellenic youth as a vehicle of noble soaring ideas no less colourful and animated than "Lysis" or "Charmides". Very characteristic for Plato's style in the quotation of a pentameter of Solon's by Amphion, at the very beginning of the quest for philosophy (133c) Γηράσκω δ'αἰεὶ πολλὰ διδασκόμενος. "I am growing old in the constant learning of many things".

This sentence gives at the same time a basic contribution to the matter of philosophy as rooted in the literary tradition and conjures up a worthy representative of primitive wisdom, thus combining the objective and subjective approach. Solon is in a way the first Greek philospher, in the mere political stage of wisdom, and let us not forget, he is Plato's ancestor. So his appearance at the start is a symbolic hint at the distant aim of his

he is a man too. The spiritual power of knowing oneself is called σωφροσύνη, self-discipline, while the knowledge and proper discipline of human groups is δικαιοσύνη, justice. As one and many are of the same essence, self-discipline and group-discipline coincide too.

Those men who impose punishment in human communities are called judges and as far as they discipline the injust they are good statesmen. Their name could also be "king" or "tyrant". In their households these masters are called superintendents and family heads. Thus appears an identity of one τέχνη or spiritual power which animates all types of human leadership in their striving for perfection, both just and self-disciplined. It would be a shame for a philosopher to be unable to participate, by counsel and action, in this great human pursuit. Here he must never be the πένταθλος "next to the top", but both in his house and in the circle of his friends and in the city he must know the art of just discipline at its very best. To be second or third and not to lead would be a disgrace. Amphion shows his approval of this result by silent blushing, Zethus by explicit consent. The boys are no less enthusiastic for Socrates' logic. So the dialogue ends.

The initial question of the "Lovers" had been: what is philosophy? It has not been answered, but the value of philosophy as an art of discipline had come into evidenc. This should be stated at the end as in the other dialogues of the same character, where Socrates always concludes ironically: "we have spoken so long about courage or justice or friendships. (he could say: we have found out its value), but we do not know what it is". Something of that kind he would certainly have said at the end of this discussion on philosopby too, if he had chosen to work it out. But in a mere sketch it did not seem necessary to jot down the familiar formula.

Nobody can decide, of course, whether the sketch is complete in itself or merely covering a part of the intended dialectical

to acquire. Amphion eagerly points out that he should seek wisdom which brings him glory and is superior by its intellectual character to the lower skill of the craftsman. He should be an architect, not a bricklayer. And as the complete knowledge of any branch of science would absorb his whole life with its pedantic accuracy, he should, like a gentleman, be satisfied in understanding many things less exhaustingly and conversing gracefully about them. Socrates makes him accept the comparison of this type of a successful dilettante to the type of the πένταθλος in the games who wins in a combination of five exercises, but, of course, remains inferior against the masters in every single one. He is everywhere ὕπακρος, that is, "near the top", but never at the top. This gentlemanlike uuderstating generosity greatly appeals to the philosophical taste of Amphion.

But he must admit that such a sage is of no use. Only the best in every art are really useful. Putting it bluntly Socrates states that according to that definition the philosopher would simply be the type of the bad craftsman. So it is evident that a new way must be found in order to avoid for the philosopher the two antithetic indignities of the unefficient amateur on the one side and the toiling βάναυσος or "shopkeeper" on the other. For that purpose Socrates introduces the notion of "keeping in discipline" or punishing (κολάζειν). Dogs are disciplined by the same τέχνη or rational process by which they are improved in the best possible way. And the same process by which they are successfully treated in their development gives the means of discerning the good among them from the bad. In other words, positive action and positive knowledge in the trend towards perfection are manifestations of one rational power.

Moreover, the knowledge of one individual dog is the same as that of a group of dogs. So, if a dog or a horse or an ox does not know itself, it cannot distinguish good and bad groups of dogs and horses and oxen. And a man, if he does not know how to distinguish good and bad men, does not know himself, for

Euripides in his "Antiope" of which only some fragments are extant had given an impressive picture of such a couple in the figures of the twins Amphion and Zethus, whose importance for Plato we shall remark later. Mythologically seen these two are a variety of the Dioscuri and connected with similar twins in many tribal myths all over the earth. In the tradition of Israel they appear still in Jacob and Esau. Amphion, the bearer of the magic lyre, is a celestial spirit, in the humanised form a representative of civilisation and learning. Zethus, the hunter, is a chthonian daemon, in the humanised form a warrior and sportsman. They belong together like sky and earth, in friendship and enmity, through competition in the pursuit of love and glory. For brevity's sake we like to keep the name of Amphion for the friend of studies and that of Zethus for the friend of sports in our dialogue.

After a question of Socrates, Zethus scorns the interest of the boys in geometry. So the sage turns to Amphion and engages him in a discussion about the value of intellectual exercise, that is of philosophy. The value of a thing can only be appreciated, if one knows beforehand what this thing *is*. What *is* philosophy? Amphion answers immediately: πολυμαθία, knowledge of many sciences. With the assistance of Zethus who is proud to find the giggling applause of the listening boys, Socrates shows that the "poly", the quantity, is not useful in the exercise of the body. Not the quantity, but the measure, τὸ μέτριον, is here the positive agent of success. The same is valid for the soul: it must not assimilate an unlimited amount of intellectual food, that is, of learning, but again τὸ μέτριον is to be taken as a principle for the development of the soul. This is definite. But at once Socrates revises the problem: who can give us the rules of measure for the soul? The apory remains unsolved, although we feel that only the genuine philosopher would possess this necessary power of measure.

Consequently Socrates approaches the philosopher from another side, by asking what kind of knowledge he should try

It is clear, this nameless and unadorned sequence of dry questions and answers is not a definite literary product. It is something in the state of a draft, a sketch of a certain order of thoughts, an arrangement of bones, preparing their embodiment in words. From the start it stands to reason that the only person who could be admitted by the editor of Plato's work with such a draft is Plato himself. So we are surely in the presence of the illustrious artisan in his workshop. It is a curious coincidence that an undoubted authority on the Platonic style, who does not care for the authenticity of our little dialogue, nevertheless describes the working process by which it appears as closely related to the officially acknowledged products.

Wilamowitz in his "Platon" (vol. I, p. 515) observes in the last part of the "Theaetetus" and still more so in the "Sophistes" a "lack of colour, which gives us the impression of our being witnesses to Plato while at work: first he traced out a skeleton of the essential investigation, as a dialogue, because he was accustomed to give dialectical developments in this form. Afterwards followed the artistic shaping". Are we witnessing Plato at this stage of work in the 'Lovers'? Is there here a "skeleton" or a part of a skeleton of which the lack of artistic life does not necessarily surprise us in view of those methods of producing?

Let us first consider the dialectical process of thought in the "Rivals". The dramatic introduction as we have mentioned is more than meagre. Two anonymous lads take part in the talk with Socrates. They give their answers in order to impress the two younger boys by their superiority. It is an erotic agon with spiritual weapons. The details are scarcely worked out. For the boys too are without names, and the passionate play remains vague as it is not even said whether the rivalry concerns both boys or one, or which of them. The two lovers have strictly antagonistic characters. The one is an athlete with rough contempt of theoretical studies. The other is a slightly priggish intellectual with some indifference to his bodily fitness.

THE "LOVERS", A PRELIMINARY SKETCH OF PLATO'S

BY

HELMUT VON DEN STEINEN

Among the thirty-six works of Plato, handed over to us from antiquity in nine tetrads, with the one exception of the Epistles all being dialogues, there is one, the shortest dialogue, which certainly has a character of its own. This is entitled the "Lovers" ('Ερασταί) or sometimes the "Rivals" ('Αντερασταί). The unanimity of modern scholars has condemned it as a rather clumsy falsification, while the ancient philologists refer to it as genuine. Only Thrasylos, Plato's editor in the first century A.D., is quoted as uttering a doubt: "if the" Rivals "is a work of Plato. . ." It seems necessary to reconsider the modern judgment and to find out what the author of the "Lovers" really wanted to say. Hereby the immediate question will arise: do we discover in it any contradiction to Plato's character and thought, and if not, why deny it his name?

Socrates tells the whole story: he enters the school of Dionysius and sees there some good-looking boys and their "lovers". Two boys are engaged in a dispute, and Socrates takes his place at the side of two passionate youths who are observing them. He opens the converrsation with one of these youths. Here we have touched the main point already. No name is given! There are at least two characters of primary importance on whose antagonism the dialectical development runs. Which imitator of Plato's—and let us even admit a very poor one—would have dared to publish such an exercise, devoid of the most obvious ornaments which, by the way, could be imitated at that time without overwhelming literary gifts?



Pl. I.—Mouton abyssin, d'après Job Ludolf (XVIIe siècle).

roues ce véhicule primitif, le Mouton étant incapable de porter la queue".

* * *

Les faits qui précèdent prouvent donc de nouveau l'exactitude des dires du "Père de l'Histoire". "Toute l'histoire d'Hérodote est admirable d'exactitude partout où nous pouvons la contrôler" (¹).

(¹) F. H. GAUTIER, *Le passé de l'Afrique du Nord*, Paris (Payot), 1937, p. 191. Voir également L. KEIMER, *Etudes d'égyptologie*, fasc. IV (*Zöologica* I), 1942, § 1, La Loutre, p. 1-10 (la Loutre mentionnée pour l'Égypte par Hérodote, II 72, est clairement représentée dans la tombe de Mererouka à Saqqarah, tandis que les ossements de l'animal ont été découverts par Moustapha Bey Amer à Méadi, datant de la fin de l'époque énéolithique, vers le début de l'époque historique).

as to preserve the Wooll from durt and nastiness, and being torn among bushes and stones" (¹).

Bien qu'il soit difficile de prendre tous ces témoignages pour des simples récits fantaisistes, les Moutons à grande queue traînant derrière eux une voiturette pour leur appendice caudal m'ont paru toujours bien bizarres. Mais tout dernièrement trois Egyptiens m'ont affirmé avoir vu ces petits chars à deux roues traînés par des Moutons à grande queue :

1° Mahmoud eff. Hanafy, relieur, rue Mohamed Ali, Le Caire, tout près de la Bibliothèque Nationale, m'a raconté à plusieurs reprises qu'il se rappelle très bien de ce curieux spectacle auquel il fut le témoin, il y a vingt ou vingt-cinq ans.

2° Mohamed Ahmed Hussein, cuisinier, m'a dicté ceci : "Jai vu, vers 1943, un très gros mouton dans mon pays, Choubrah Khalfoun, markaz Chébin al-Kom, moudirieh Menoufieh. Un homme, le nommé Sayed Mansour, a posé la queue très lourde (لية) de ce Mouton sur une voiturette traînée par deux roues". Mohamed Ahmed Hussein a fait un petit croquis qui, aussi gauche qu'il fût, prouvait qu'il s'agissait réellement de la voiturette représentée aux planches I et II de cet article.

3° Mahmoud Ali Hussein, chauffeur et cousin du précédent, m'a fourni ce renseignement : "J'ai vu vers la fin de l'année 1948 chez Ali Barakat, le boucher bien connu du quartier du Vieux Caire, un gros Mouton avec une très large et très lourde queue. J'ai beaucoup ri lorsque j'ai constaté que Ali Barakat avait placé cette dernière sur une sorte de petite voiture en bois avec deux roues en fer (روان بلي). Ali Barakat l'enlève chaque soir lorsque le Mouton se couche, mais dès qu'il veut marcher, Ali pose la queue de l'animal sur la planche carrée, formant avec les deux

(¹) Job Ludolphus, *A new History of Ethiopia...*, Londres, 1682, p. 53-54, et L. I. c. 10, de l'édition latine (*Iobi Ludolfi...Historia Aethiopica* 1681).

trouve d'aucuns ayans la queuë du pois de dix et vingt livres et cela avient lorsqu'ils s'engressent d'eux-mêmes. Mais en Egypte il y en a plusieurs qui s'adonnent à les engresser, les repaissans de son et d'avoine, au moyen de quoy leur queuë engresse de telle sorte qu'ils ne se sauroyent mouvoir: et pour cela fault atacher la queuë sur un petit char tant qu'ils cheminent plus à l'aise. J'en ay vue une de l'un de ces animaux en Asiot, cité distante du Caire cinquante mille, et située sur le Nil, laquelle étoyt du pois d'octante livres, et plusieurs m'asseurèrent à cette heure-là, d'en avoir veu peser cent cinquante. Tant y a que la gresse de ces moutons consiste en la queue seulement : et ne s'en trouve autre part qu'à Thunes et en Egypte" (¹).

Jean Chardin (1643-1713) a rencontré ces moutons en Perse : " Il y a de ces moutons, que nous appelons moutons de Barbarie, ou à grosse queue, dont la queue pèse plus de trente livres. C'est un grand fardeau que cette queue à ces pauvres animaux d'autant plus qu'elle est étroite en haut, et large et pesante en bas, faite en cœur. Vous en voyez souvent qui ne la sauroient traîner, et à ceux-là on leur met en quelques endroits la queue sur une petite machine à deux roues, à laquelle on les attache par un harnois afin qu'ils la tirent plus facilement " (²). Job Ludolf (=Leutholf) enfin affirme qu'ils existaient au XVIIᵉ siècle en Abyssinie. Il nous en a laissé un dessin (planche I) et la description suivante : " That same sort of Sheep also, so much admired and so well known, both in the *East*, and in *Africa*, is here very common ; the Tayls of which are so fat and ponderous, that the least of them weigh Ten and Twelve, the biggest of them sometimes above forty Pound, so that the Owners are forc'd to tye a little Cart behind them, wherein they put the Tayl of the Sheep, as well for the convenience of Carriage and to ease the poor Creature,

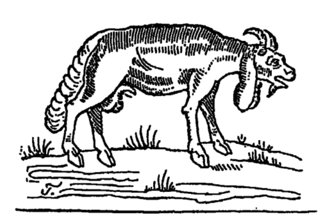
(¹) D'après Jean Leon Africain, *Description de l'Afrique*, édition de Ch. Schefer, 1898, p. 440-441.

(²) D'après G. Wiet. *Le Caire et les voyageurs européens*, etc., p. 369-370.

D'après G. Wiet ([1]), ce passage n'a pas manqué d'attirer l'attention de Rabelais (1494-1553): "Émerveillez-vous, dit-il de la queue des béliers de Scythie, qui pesait plus de trente livres, et des moutons de Surie, èsquels faut (si Tenaud dit vrai) affuter une charrette on cul pour la porter, tant elle est longue et pesante".

Jean Léon l'Africain, né à Grenade vers 1483, mort après 1530, nous a laissé également un récit intéressant sur les Moutons à grande queue : "Ces moutons n'ont autre diference avec les autres, sinon en la queuë, qui est fort large : ce que plus étant, mieux ils se cognoissent être de haute gresse. Il s'en

=Dr E. von Groote, *Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff*, etc., Cologne, 1860, p. 93 : "... dese koeche kochen...ouch vil schaeff fleysch mit langen breyden swentzen ind hauen gar lange oren in deser gestalt"; voir également la nouvelle édition unglaise intitulée *The Pilgrimage of Arnold von Harff, Knight*, etc. *Translated from the German*, etc., *by Malcolm Letts*, Londres, 1946, p. 110-111 : "...the cooks cook ...also much sheeps' flesh, the animals having long broad tails and very long ears in this manner" (même croquis que celui reproduit ci-dessus; ce croquis est assez correct sauf la barbiche qui est caractéristique de la Chèvre). L'éditeur (Mr. Malcolm Letts) dit dans une note se référant à ce passage (p. 111, note 1) : "These sheep are described by Ghistele, p. 187, and by Walther, p. 232. Ghistele says they reached to a man's girdle, with the tail hanging to the ground, broader than a foot".—Voir enfin Pierre Belon du Mans, *Les Observations de plusieurs singularitez*, etc., éd. Paris, 1554, p. 98-99 : "Les Moutons y [Piere Belon, en Égypte de 1546-1549, parle de Rosette] sont gros et gras, qui ont la queue trainante jusques en terre, fort large, et espoisse".



([1]) *Le Caire et les voyageurs européens*, dans *La Revue du Caire*, 7e année, n° 69, août 1944, p. 369.

pareils au monde, pour la taille, la beauté et la grosseur de la queue; cette dernière est à tel point grosse, que le mouton est incapable de la porter. On est obligé de lui faire une voiturette, qui forme un arrière-train avec son corps en avant et sur laquelle on fait reposer sa queue. Des cordes relient cette voiturette à son cou, où elles sont fixées. Il traine ainsi, en allant paître, cette voiturette qui porte sa queue" (1).

Jehan Thenaud qui a visité l'Égypte en 1511, décrit ainsi les Moutons à grande queue vus par lui au Caire: "Le IIII^e jour après notre venue audict lieu du Caire, le Souldan nous envoya presens, c'est assavoir moutons à la grant queue; et fault sçavoir qu'il n'est si petit mouton dont en la queue n'ait plus de X livres de chair; aulcuns sont de XXV, XXX et XL livres, au porter et traisner desquelles les moutons travaillent moult: pour ce, on leur faict petites charettes èsquelles reposent leurs queues, qu'ilz trainent par leurs cornes" (2).

---

(1) D'après *La géographie de l'Égypte à l'époque arabe par le Prince Omar Toussoun*, dans *Mémoires présentés à la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie*. t. VI^e, 1^re partie, Le Caire, 1926, p. 73 (= IDEM, dans *Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte*, t. VIII^e, 1^re partie, Le Caire, 1926, p. 73). Voir également B. MORITZ, *Arabien. Studien zur physikalischen und historischen Geographie des Landes*, Hanovre, 1923, p. 47, note 1: "Bekannt ist Herodots Erzählung (III 113) von den Fettschwanzschafen in Arabien, dass ihnen zur Schonung des kostbaren Schwanzes Wägelchen untergebunden würden. Genau dasselbe hat sich Jākūt anderthalb Jahrtausende später von Aegyptern über die Baschmûr (im nördlichen Delta) erzählen lassen (MU'ĞAM I 635)".

(2) D'après *Le Voyage d'Outremer (Égypte, Mont Sinay, Palestine) de Jean Thenaud, Gardien du couvent des Cordeliers d'Angoulême suivi de La Relation de l'Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Egypte—1512. Publié et annoté par Ch. Schefer*, Paris, 1884, p. 43, et p. 210 (relation du voyage de Domenico Trevisan): "Les moutons ont un goût délicieux; il y en a dont la queue est tellement chargée de graisse qu'elle dépasse le poids de trente livres", mais Trevisan ne mentionne pas les voiturettes. Il en est de même du Ritter Arnold von Harff dont le voyage a eu lieu de 1496 à 1499; voir l'édition du=

les dessinateurs (pl. I ([1]) et II ([2])), semble être authentique, car depuis le moyen âge plusieurs auteurs font allusion à cette race de béliers.

Yacout el-Hamawi (606 H.=1229 après J.-C.), un grec qui, en bas âge, fut fait prisonnier par les Arabes, ce qui eut pour résultat de le convertir à l'islam, nous a laissé un bien curieux renseignement sur les Moutons à grande queue existant dans un village situé près de Damiette. En parlant, dans son grand dictionnaire géographique, appelé *Mu'gam al-buldān*, du village d'Al-Boushmour (localité qui actuellement, semble-t-il, n'existe plus), Yacout s'exprime ainsi :

البُشمور بالضم . كورة بمصر قرب دمياط وفيها قرى وريف ورياض وفيها كباش ليس فى الدنيا مثلها عِظَما وحسنا وعِظَم الإلياء ، وذلك أن الكبش لا يستطيع حمل إليته فيعمل له عجلة تحمل عليها إليته وتشد تلك العجلة بحبل الى عنقه فيظل يرغى وهو يجر العجلة التى تحمل إليته وهى إلية فيها طول كشبه إلياء الكباش الكردية فاذا نزعت العجلة أو انقطعت وسقطت إليته على الأرض ربض الكبش ولم يمكنه القيام لثقلها فاذا كان أيام السفاد رفع الراعى إلية الأنثى حتى يضربها الفحل ضربة خفيفة ، ولا يوجد هذا النوع من الضأن فى موضع آخر من الدنيا . أخبرنى بذلك جماعة من أهل مصر . والبُشمور باتفاق لم يختلفوا فى شئ منه .

"El Boushmour, Kourah d'Égypte, proche de Damiette, comprenant des villages et des étendues cultivées ainsi que des vergers. On y élève une variété de moutons qui n'ont pas leurs

---

([1]) D'après *Iobi Ledolfi aliâs Leut-holf dicti Historia Aethiopica, Sive Brevis & succincta descriptio regni Habessinorum*, Francfort s. M., 1681, cap. X (planche).

([2]) D'après *The Historical Educator : comprising ancient voyages and travels, ... volume the first*, Londres, John Cassell, 1854, p. 145 : "Description of Arabia by Herodotus". On lit au-dessous de la gravure reproduite ici à la planche II : "Large-tailed Sheep-ram (*ovis aries laticaudata*).—Drawn from a living Specimen in the Museum of Natural History at Paris" Ce livre m'a été signalé par S.E. Kamel Osman Ghaleb Pacha.

LES MOUTONS ARABES A GRANDE QUEUE D'HERODOTE (III 113) ET CEUX D'EGYPTE

PAR

LOUIS KEIMER

En parlant de l'Arabie, Hérodote (III 113) raconte ceci: δύο δὲ γένεα ὀΐων σφι ἔστι θώματος ἄξια, τὰ οὐδαμόθι ἑτέρωθι ἔστι· τὸ μὲν αὐτῶν ἕτερον ἔχει τὰς οὐρὰς μακράς, τριῶν πήχεων οὐκ ἐλάσσονας, τὰς εἴ τις ἐπείη σφι ἐπέλκειν, ἕλκεα ἂν ἔχοιεν ἀνατριβομένων πρὸς τῇ γῇ τῶν οὐρέων· νῦν δ' ἅπας τις τῶν ποιμένων ἐπίσταται ξυλοργέειν ἐς τοσοῦτον· ἁμαξίδας γὰρ ποιεῦντες ὑποδέουσι αὐτὰς τῇσι οὐρῇσι, ἑνὸς ἑκάστου κτήνεος τὴν οὐρὴν ἐπὶ ἁμαξίδα ἑκάστην καταδέοντες.

"Ils (les Arabes) ont deux espèces de moutons dignes d'être admirés, et qui ne se voient nulle part ailleurs. L'une a de grandes queues à peine moindres de trois coudées, qui, si on les lui laissait traîner, seraient couvertes d'ulcères à cause du frottement contre le sol. Mais tout pâtre, pour ce motif, sait travailler le bois ; il façonne de petits chars et les attache sous les queues. Chaque bête a ainsi sa queue sur une char" [1].

En lisant ce passage on peut à peine supprimer un sourire, mais le récit d'Hérodote qui, depuis plusieurs siècles, a inspiré

---

[1] La bibliographie sur le Mouton à grande queue dans l'antiquité et aux temps modernes étant considérable, je me borne à citer OTTO KELLER, *Die antike Tierwelt*, t. I^er, 1909, p. 312, et MAX HILZHEIMER, *Natürliche Rassengeschichte der Haussäugetiere*, 1926, p. 185 et 194.

however, having invited identification on the reader's part, this method uses-its power of giving the character away by the self-consciousness of a first-personal twist in the third-personal form ("They stopped at the freight station and Charley had to help load a lot of heavy packages" can only be Charley's faintly protesting point of view, but it is held up for judgment).

Eisenstein [1] once spoke of the necessity of finding a common denominator for auditory and visual in order to produce the counterpoint of sound film. The imperfect of Flaubert was just such a tentative common denominator for dramatic action, in which narrative art began, to be combined with the impressions that the famous contrast in Goethe's *Meister* already declares to be the province of the novel. It is not suggested that Dos Passos is great art, and even the imperfects of Flaubert were demonstrated by Thibaudet to be often a transposal of the exasperating historic presents of La Bruyère, but these writers do direct attention to a great medium of expression. Meantime, the preference of artists for the adolescent or otherwise deranged personality, and its unspoken monologue, from Marianne to Dostoyevsky and then to Schnitzler's *Fraeulein Else*, is enough to dismiss Henry James's dictum that one only surrenders to the solution of equipping the narrator "with the double privilege of subject and object if one is prepared *not* to make certain precious discriminations". The terminus of the story is on the contrary kept in mind by the presence as another present of the narrator. Fresh forms of counterpoint will, however, undoubtedly emerge in any of the three dimensions treated here (and it is not suggested there are no more than three, nor of course that they are not all intricately related in any narrative art worth the name).

---

(1) *Film form* 24, 70.

from the private life of the author himself, where the prototype of some character may be found embedded in the author's experience, though they have more the air of exercises in the 'personal' dimension of the art. The strident blasts of the ephemeral in the Newsreels, or the pomp of large events in the nutshell careers of eminent citizens were a reminder that private lives and private values are ultimate, and that the sole contact the average individual can have with the public interest is in the chaos of the folklore human interest of newsprint, in terms of 'sensation' so fatuous as to wipe out the distinction of private and public. In the absence of the French imperfect, the author gets the effect of it in English by a repertory of expressions for habitual action ("they *took to* smoking cigarettes", "Janey *began letting* Alice, etc."). The spectacular attitude of most of the characters takes the syntax pretty far, with many a 'One day', 'Next day', 'After that' and 'Then there was', etc. (1), but the queerest thing of all is such a distancing as "A few days later when she left to go back to school it was Joe who drove her to the station" (2); the *when* and *it was* indicate that what is happening to this character is being conveyed in a medium powerfully suggesting the account one of them would give of it at a later time; not a mere past, but something at a remove. Such a medium legitimates the itemization the critics complained of in Flaubert, but also allows movement to be given any tempo at any moment, and the telescoped years of the boyhood of Fainy at the beginning of the trilogy have the same merits as the famous transition to the epilogue in the *Education* (3). Chiefly,

(1) Flaubert in a subsequent edition of the *Education*, eliminated a quantity of these initial *Puis*, *Mais*, *Alors*, and *Cependant*.

(2) *U.S.A.* (1930-6) pagination of the 3 vols. in 1 'Modern Library' ed., III. 117; cf. II. 300, I. 16-18, 372.

(3) In Zola, the fetish of dramatic presentation through the characters' own eyes, which is what *style indirect libre* (on which, bibliography in I. Iordan, *Introd. to Romance linguistics* [1937] 133) may turn into, exposed him to the temptation of turning his men and women into puppets for the expression of his own ideas.

was a species of memoirs, for it frustrated the reader of the expected ups and downs and crises of fiction, and gave him only faithful documentary. It might be called a satire for its chance arrangement of pictures and episodes like a row of medallions, and its events not merely without cause but without consequence either. Art should select, in order to be beautiful and to interest us, and in order to interest us, it must give things a meaning; but no identifiable personal intervention—not even anger, not even some outlook perfectly *sui generis* on human destinies—gave the *Education* meaning and soul: bafflingly neither an idealist nor a realist, its author was simply consumed by envy of all that was fine and noble [1]. What before the *Education* was action, Proust very sinply explained, had become impression; things had as much life as men; both were an illusion to be described. But the 'subjectivism' of a revolution like this on the scale of the Kantian one rested (the opinion of a master like Proust is worth having) on a new and personal use of the past tenses, definite, and indefinite, of present participles and of certain pronouns and prepositions.

To demonstrate this effect to the English reader, a closely parallel case may be used in evidence, that of Dos Passos's trilogy *U.S.A.*. The snatches here (fifty-two in all, and rarely continuous) of twelve careers show the author apparently accepting both the axiom of romance, that one character is the centre of events, and the contradictory proposal of the naturalistic tradition to have not one *hero* but many *people*, in order to build up a picture of society. These careers occupy four fifths of the book, and are interlarded with sixty-eight Newsreels (scraps from newspapers), some two dozen Life Stories of actual prominent Americans, and fifty lyrical moments, called the Camera Eye,

---

[1] For the evaluation of these same deficiencies as merits, see the articles of Maupassant in his *Oeuv. compl.* XV (Librairie de France, 1938) 108-9, 112, 129; Taine in Biernawski 703; Proust in his *Chroniques* (1927) 196. Flaubert's letters to Huysmans, 1869 and Madame Roger des Genettes, Oct. 1879 show him recanting a little.

say something to the visitor, ([1]) or "Nous ne nous serons pas apercus que nous *étions* devenus vieux", where old age is still to come. In addition, moreover, to conveying what is, in relation to the here and now of utterance, an authentic past, this imperfect may also be used to convey a phenomenon which is being distanced merely because it is occurring to a given other person, about whom the statement is being made, at a given moment, even if this moment is present or even future to the one who formulates the statement—for what matters is his relation to the period of the thought thus related, not the period in that thought. The tense is indeed frequently used to express what might have been and is regarded as having been possible in the present: "Et dire que sans vous, *j'étais* tranquillement dans la cuisine en ce moment".

It was this multifarious evocativeness of the imperfect that made possible what Proust discerned to have been the revolution of 'subjectivism' in Flaubert's maturity. His 'eternal imperfects' would not have created the impression of outrage and superlative despair they did in the reviewer's minds, were it not that by a peculiar method of quotation they condensed what characters might say or think, what in fact on the dramatic criterion they *were*, to the status of outward events in the body of the narration. With the exploitation of this instrument, Flaubert carried a stage further the Copernican revolution against pseudo-objectivity and against the simple old 'dramatic' convention of character and event. Given the reception it had from the press, the *Education sentimentale* (1869) ([2]) bids fair to have been the most revolutionary modern novel. Critics were baffled by its abdication from the rectilinear, dramatic standards of narrative, in which each successive scene led to and found its consummation in the next and never in itself. It was not (they said) a novel; perhaps it

([1]) In English we should only feel happy to say *here*: "you said I was here?".

([2]) (Conard, 1923), ed. L. Biernawski, pp. 615, 693-9, 703.

present (*quand tu te marieras* could be said only to a person who has at present no mate in view) , nor does present recognize the consequences of past, and in an example like the opening of Balzac's *Pierrette* ("En Octobre 1827, un jeune homme s'arrêta sur une petite place qui se trouve, etc."), any attempt to substitute *s'est arrêté* would result, as in an example above from Mrs Behn, in imposing the fact in another sense, on the reader's own past.

How tenacious the mind's line of least resistance, in centring everything, in the last resort, in an 'I here and now', these series have shown. Suppose now, however, an effort to cease taking the bearings of everything from one's own point of view, an effort to adopt another centre; suppose events not merely conceived, in past or future, like mathematical points separating two portions of time, but without extension themselves, suppose them stretching out indefinitely in the past as a person's present can do, and this reliving of the past as something in every respect a present except merely that it is foreign to the world of now will give (3) *je faisais*—or *ferais*, *avais fait*, *aurais fait*. In English we appear to have replaced this special imperfect of the French by other turns of phrase, and it is perhaps the origin of a cliché neatly exemplified by Jane Austen in *Sanditon* when she changed "two or three young women were issuing from the house" to "were now seen issuing". In French, as Brunetière [1] noted at the time, the preponderating use of this narrative or 'historic' imperfect by Flaubert, and following him by the 'naturalists' in the novel rests on a figurative conception of the past as a (then) present, and any one of the different potentialities of this tense may serve to enrich this use it. In a subordinate clause, it may cover what is in fact a present or even a future which is being distanced in another presentness than the one of the utterance, as in "Vous avez dit que *j'étais là?*" where *là* is the here of the speaker, but addressing the maid who had already had to

[1] 'L'impressionisme dans le roman' (1879) in *Le roman naturaliste*.

valley!" from the characters' or the narrator's point of view. The distancing of an action is an art in itself. Looseness in *oratio obliqua*, habitual in past times, is still tolerated in certain languages like Russian, and the procedure involved in a report proper of words and deeds, as opposed to the conventional dramatisation that was accepted not only when the novel was ill distinguishable from drama, is a technical achievement on the same scale as discoveries in the natural sciences.

The tense repertory in French ([1]) manifests the following three variations on the undifferentiated theme *je fais*, namely (1) the practical point of view denoted in the series *je vais faire, ai fait, viens de faire*. When, taking up his position in a here in the present (and so long is this, that he can say *j'arrive à l'instant*), the speaking subject considers the time that has elapsed since the last notable event in his existence, he may regard it either (*j'ai fait*) as a datum of which he has the reversion or (*je viens de faire*) as the living source of the present on the same lines as the future's similar source in the present (*je vais faire*)—the future which as far as he is concerned will be the immediate development of the existence he has begun. Instructive is the regression, in this practical mode, to the primary context: the auxiliary in *il a fait* or *va faire* has taken over the job of denoting person from the main verb, and whatever the person or agent of the action expressed by this main verb, the agents of the possession of the past or future expressed by the auxiliary are always the author *of the utterance* and his audience ([2]). (2) Objective enunciation for its own sake of the time that is not present—of a *there*—will differentiate *je fis* on the one hand and *je ferai* on the other from *je fais*. Here, neither is future a natural consequence of

([1]) To examine substance rather than form, in the interest of brevity. Damourette §§ 1702-5, 1709-1749, 1762, 1766, 1806.

([2]) In "Dickens wrote novels in which, etc.", D. is the subject, whilst in "D. has written, etc.", *we* are, even though he is allowed to go on with the writing part: in the alternative "D. writes, etc.", past and present have not thus been explicitly brought into contact.

'personal' dimension of narrative art—as opposed to his shortcomings in the temporal one—has been described by a critic who was himself a creative writer (1). It lies essentially in overcoming the disposition to register the things that befall the hero (even if this were the predilection of the novel) instead, as in *Tom Jones*, of the actions of several characters at once. Stendhal's skill is in the ease of his transitions from the hero's experience to the author's own reflections on it, or from the conduct, seen from outside, of characters to its explanation: in the *Chartreuse*, at the moment we receive the impression that we are swooping down on events with the hero himself, there is a sudden flash of observation which shows that the author has opened up another prospect before us, and it is this binocular vision that gives things their solidity, without nevertheless sacrificing the mind-reading characteristic of the novel form.

V

The use of suggestions in the mother tongue for the medium of narrative art, and for the attainment of distance in the three dimensions of Virtuosity in the Medium, Time and Person can conveniently be examined in French, partly because Flaubert's work was in that language, and partly because of the convenience of a good grammar of it(2). The counterpart in narrative prose to academic naturalism in painting is the emergence of the content, when the narrative aorist is at every moment 'understood' to convey a present action. It is no more promising if in pursuance of the special ambiguity of *now*, meaning 'at the time referred to', we can just suppose it to be *this* or *that* time according to whether you choose to look at a statement like "How green was my

(1) J. Prévost, *La création chez Stendhal* (Marseille, 1942) 152-3, 236-7; Stendhal, *Romans et nouvelles* ed. H. Martineau I (Pléiade, 1947) 712.

(2) J. Damourette and E. Pichon, *Essai de grammaire de la langue française*, of which vol. 6 appears to be of 1940.

modern writer splits up, by self-observation, into many component egos, we might assume that the reader was intended to find satisfaction in the sharing out among the protagonists of the conflicting trends in his own make-up. The important thing for a dialectical solution of any conflict of determinism and free will, of *Sollen* and *Wollen* (*Das Wollen*, said Goethe, *ist der Gott der neuern Zeit*) is not, however, partisanship as such (namely that certain characters lived from inside, with their complement of others to be seen from outside, should be the coloured dream of the reader himself) but a language created out of it, and therefore a polarization like that which is felt to be present in the manner of Stendhal ([1]). Stendhal felt that the fiction of his time was being faced with the problem of reconciling (1) the demands of chambermaid literature for the romantic invulnerability of the hero, and of feminine readers of the middle-class in the provinces, in general, for the sort of concatenation of circumstances that would wring tears from them, with (2) the diametrically opposite requirements of the ladies of Paris, who had a rooted suspicion of any coincidence or supernatural heroism. Stendhal solved this dilemma of the author by the following formula: the mad actions on which her wilful head has engaged Mathilde de la Môle, or the "frantic passions that made their appearance in Italy in the 16th and 17th centuries" for which he himself had a weakness, might be made to cause surprise without nevertheless failing to be explainable—to the difficult taste of Paris—as natural. His domain, in which he confessed he could improvise for ever, was *drawing conclusions* from one real-life anecdote after another. He was also, however, fully aware of the alternative between an action related so to speak pure, as in Ariosto, and the same thing in psychological résumé. His consequent originality in the

---

([1]) See his art. (1831) on his own *Le rouge le noir* in *Mélanges de littérature* (Divan, 1933) II. 348, 351 ; 'La Duchesse de Palliano' (1838) ; *Souvenirs d'égotisme* (Divan, 1927) 75 ; M.S. nn. of 1st-2nd Oct. 1839 on *Lamiel*.

actor who can play the part he is creating. Ingenuous as Marianne says she would like us to think she is, she has a sidelong, complacent look at herself every other moment. Characters and story as well are through and through conscious.

> "Marianne did look a girl of quality", that lady herself is made to say; "but Marianne beloved by Valville, Marianne guilty therefore of the grief he would be to his mother, might, etc. But let us finish listening to Madame de Miran, some of whose later remarks will bring back my spirits, and who [sc., in her story], has got to the doctor she was going to have a talk with."

Hero and heroine freely refer to themselves as others have referred to them, even by their own names. Jacob is conscious of his clairvoyance, and that he is acting a part so well that he has imposed even on himself. Marivaux was aware of his own mannerism, and has a whole fantastic tale about a trip to another world in the likeness of our own, but in which the inhabitants have been forced awkwardly to confess to the hypocritical disguises they all put on in polite society; it turns out to be our world after all; only, the traveller's belief that it was a different one has made him aware for the first time of the reality underneath the appearance.

It is not necessary that the hero should be made self-conscious, but that the different planes on which the story is understood should be as much in equlibrium as are, in the reader, the privileges of spectatorship and the responsibilities of participation. Tolstoy once (in 1857) noted Dickens's extraordinary love for characters and places, and commented: "it is well when an author stands only just outside his subject, so that one continually doubts whether the treatment is subjective or objective". A good example would be our first introduction to the Jellyby household in *Bleak House* (1853), or the story by Tolstoy himself ('Strider', 1863–86) which made Turgenev wonder whether the author of it had not at some time been a horse. From a remark of Freud[1] that the 'psychological' novel reveals the way the ego of the

---

[1] 'The poet and day-dreaming' (1908).

not after all "one little room, like a bathhouse in the country". Certainly we must discover some artistic explanation why, as Brunetière said following the statement by Baudelaire, Balzac is not a realist at all, but "puts into his characters a logic and into the developments of passion a consequence that neither these characters nor this passion could possess". Or was Charlotte Bronte right in doubting whether it was "advisable to create beings like Heathcliff?"

Bad fiction, *Bildungsroman*, may be disguised autobiography; in good fiction, Madame Bovary *is* Flaubert, and narrative distortion may be judged a success when it is as superior as the latter kind is to the former. It is then no more distortion than when in *Paradise Lost* the sense was "variously drawn out from one verse into another" and counterpointed upon the form. We may take the example of Marivaux with his Jacob and Marianne [1]. Find me, said Marivaux, any decent author who is exploring motives and passions, and you will see there will be something strange about his style. Prévost too thought it only just to allow a manner as extraordinary as his own discoveries to one who was investigating the heart as Descartes and Malebranche had the mind. 'Marivaudage' was not, even in the opinion of adversaries, merely a shuffling affectation of roguishness. Crébillon the younger grudgingly allowed that there might be something in telling not merely what one had done, or all that had come to one's mind after the event, but even what one would have liked to have had come to it. The particular strangeness was noted by Sainte-Beuve, namely that each character seems to be accompanied by a double who is watching and analyzing him, or else is himself looking for the

---

[1] *Romans de Marivaux*, ed. M. Arland (Pléiade, 1949) 217, 636, 641, 706, 719. which is *Marianne* pt. 4 (1736). and *Le paysan parvenu* pts. 2, 3, 4 (1735-6): cf. 927-66, 'Le voyageur dans le nouveau monde', from *Cabinet du philosophe*, 1731, and Crébillon *fils*, *Tanzaï et Néadarné* bk. 3, cc. 4-5.

novelist's privilege to take the exception (for it would need a whole generation of dandies to produce one Lovelace). Of course, when Henry James complained that the duchessy female lead of Balzac's epistolary *Mémoires de deux jeunes mariées*, on the morrow of issuing forth from her convent school, displays "an amount of sophistication that would have chilled the heart of a horse dealer", Balzac might have replied that the form biasses the content, and that the republic of letters owes its most charming *étourdie*, Claire in the *Nouvelle Héloïse*, not so much to the traditional French excellence in that kind, as to the self-consciousness imposed on her as epistolary confidante and subject of a preceptorial relation. This last was also very much a pretext of the form, but was responsible for the fascination of that *orage des passions* that gave Laclos his clue: (1) content takes it revenge on form when he decides to use to the full the convention of the rake's talent for stratagems. Every sort of novel might of course have its own distortion. Stendhal claimed, to Balzac, that his own characters developed, only with rather more intelligence, the pursuit of happiness he observed every day in his own friends, and when he was taxed with the *Diable au corps*'s being true, Radiguet replied it was only brag—the brag of its adolescent hero. Do these alibis, however, indicate that the distortion is beyond the writers' power to control? Richardson's prolixity is assuredly not the deliberate slow motion of the great metaphysical interviews in Dostoyevsky—when Svidrigaïlov, e.g., introduces himself right at the end of part three of *Crime and punishment* (1866), or when more than two characters sometimes "come together in infinity" to try (e.g.) to decide whether eternity is

(1) "I have lived in storm and it has always been you have aroused it", writes the hero to both the ladies in the celebrated apostrophe beginning "Femmes, femmes!" (*Nouv. Hél.* VI. 7). To the virtuous lady who tells the villain that what he calls happiness is but the storm of the passions (*Liaisons dangereuses* lett. 56), he on another (ib. 125) occasion hypocritically replies that he is so little familiar with this same storm.

by Diderot as a canon of art was that the public should be given knowledge that the characters of the drama do not possess, which therefore counterpointed one time upon another. Diderot was as anxious to find the stage means to counterpoint one action simultaneously on another. The Elizabethans had done so with their plot and subplot, and above all when inner and outer stages and balcony were all put to work to constitute different planes in the action, as in the seduction of Brachiano in the first act of Webster's *White devil*, or of the girl bride during the game of chess in Middleton's *Women beware women*. But a polarization in the sphere of person proper is another matter; one that would overcome the chief liability of the form and make of it a virtue and a convention.

Success was already in sight in the epistolary novel. This kind, as Richardson's lady biographer complained, "obliges a man to tell of himself what perhaps no man would tell": as a modern novelist(1) has said of the *Liaisons dangereuses*, "while displaying Don Juan to us, at the same moment it gives away his game". It is certain that Lovelace *would not* say, as he is made to do:

> "am I not a *rake*, as it is called? And whoever knew a rake stick at anything? But thou knowest, Jack, that the greatest half of my wickedness is vapour, to show my invention, and to prove that I could be mischievous if I would. There lie before me such charming difficulties, such scenery for intrigue, for stratagem, for enterprise. What a horrible thing that my talents point all that way—when I would almost wish to be honest"!

but the medium here, as Hazlitt once said, though "false in nature" is "true to reason". Richardson of course took the opportunity to laud his character for his scruples. Even Balzac (2) claimed that it was the difference between the pettiness of reality and the grandeur of the domain where (he was fond of saying) the man of letters dwelt, the domain of the *ideal*: it was the

(1) A. Malraux, in *Tableau de la littérature francaise, 17-18e. siècles* (1939) 418-20: cf. *Clarissa*, 11th, 12th, 17th April.

(2) *Oeuvres* 40 (Conard, 1940) 648, a lett. of 1846 to A. Castille.

subject in his greatest work (1). "Mutually exclusive and separately incomprehensible conceptions of freedom and inevitability" were easily explainable; "a man's will seems to him to be limited just because he is not conscious of it except as free", but in fact we have no right to separate "two sources of cognition related to one another as form to content" (freedom is the content, the thing examined, and inevitability the form that examines it). Our freedom dynamically increases in proportion to our knowledge of our unfreedom (2), and applied to the realm of literature this means the potential (and actual) existence of a new kind of art, specifically qualified to maintain in equilibrium the double life of modern man—both hero and human being as he was; endowed with awareness as well as experience. Lessing (3) discerned how impossible 'Saint-Preux' and Julie were in a stage version of the *Nouvelle Héloïse*, since in this other medium there was no means of giving them credit for virtues they themselves could not exhibit. The specific limitation of the narrative medium, however, was already suggested by the very different appearance the story has according as it is in prospect or in retrospect; it is, namely, that the teller of a tale perforce shows himself so extremely knowledgeable, whereas motives and circumstances in real life are never the open book that they are here. Action related is, in Goethe's famous phrase, action delayed, because it is governed by an overtone of rationality; the feelings about it are in some sort an agency in producing it, for what is the pattern that sets the course of events, if it is not that they are oriented with something of the reasonableness of the life of each one of us when he is picturing it to himself? The innovation that made the difference between the old drama and the new domestic fiction and that was established

(1) *War and peace* (1867-9) Epilogue 2. cc. 8, 10.

(2) The motto of Casanova was *volentem ducit nolentem trahit*: his place is in the annals of narrative art, since he lived the romance that fictioneers only wrote (and wrote only because they could not live it).

(3) *Hamburgische Dramaturgie* nos. 8-9 (1767).

do they thrust us back into our place as spectators", and the consequence of the plot is greater, thanks to them. There is a like traditional distinction of the tragic poet, who presents us with a hero who is the very image of what we believe ourselves to be, and causes us to find ourselves in him, and the comic poet who makes us think rather of the relation in which the characters stand to ourselves; Bergson declares that the external and general mode of observation in comedy is hardly art at all, which on the contrary is the artist's getting to the bottom of his own individuality (1).

Goethe was led in his work on Shakespeare to regard the distinction between the ancient and the modern world as a distinction of two different ways in which the will could be made out to be involved in action; the austere struggle with fate was as typical of the tragedy of ancient times as a painful consciousness of the discrepancy between human desires and their fulfilment was of the modern. Corneille would seem to be about the turning-point in this respect, when he consents to reason over the psychological plausibility of stories that the Elizabethan dramatist and his audience would have accepted because they were *true*. It was not for nothing that the authoress of the *Princesse de Clèves* (1678) was given this appellation of 'true', but in a new sense that was coming into being only in her time. We can only with difficulty realize the permeation of every aspect of life by the belief in a fixed order of things, so that we can hardly imagine the departure it was when finally a responsible *individual* could raise the question whether (2) men did not feel "as their education progressed, that they had a double part to play in the world; an actual and an ideal one". Tolstoy was to deal fully with the

(1) Proust's theory that criticism is in search of individualities, of the qualitative difference in the way the world appears to different individuals may be collated with Bergson's commentary on the ideas of Thibaudet in this respect in *Nouvelle revue française* 47 (1936) 10-11.

(2) Goethe, *Dichtung und Wahrheit* (1814) bk. 11.

choose in the scene as perception would, *as actor and spectator both.* When other characters in the film looked at *him*, or punched *him* in the nose or kissed *him*, they did so out of the screen at *us*, spectators, of course, which alone was enough to prove that narrative, in film or in prose, is not *either* drama (events on the screen seen from outside) *or* the narrative of events transferred wholly within us, but somehow a combination of the two ([1]).

After Ego and External World came the other polarities. A robust romance-writer like Stevenson ([2]) noted that "the pleasure that we take in life is of two sorts—the active and the passive"; at one moment "we are conscious of a great command over our destiny", and think of the problem of it in terms of conduct, but then, "lifted up by circumstance and dashed we know not how into the future", we are on neutral ground where events are so much good or evil fortune, in a state of mind "which either does not regard the human will at all, or deals with it in obvious and healthy relations, where the interest turns not upon what a man shall choose to do, but on how he manages to do it". The poetry of conduct is drama of a sort; that of circumstance is romance. Romance is a vicious circle: it either remoulds the world rapidly nearer our heart's desire, as even in a tragic story the medieval Thomas admits at the end of his *Tristan*, or falls into the fury of frustration of the great Spanish picaresque and its modern equivalent, Kafka. A hierarchy, however, suggests itself. The poetry of circumstance is quite irrational; when we luxuriate in the upshot, the hap, the reader consciously plays at being the hero, but the more clearly *characters* are depicted, "the more imperiously

([1]) In actual fact, George Albert Smith, with a portrait photographer's mentality that could conceive of inserting close-ups, invented the sequence of general and particular points of view, as Méliès, who kept in mind the 'unity' of the gentleman in the stalls, could not have done.

([2]) 'A gossip on romance' (1882) and 'A humble remonstrance' (1884), in his *Memories and portraits.*

Various tendencies in this respect have at different times made themselves felt in the theory as well as in the actual practice of film narrative. The notion that a world of objects might be the special province of film art (as opposed to the still actor-ridden stage), and that objects could be trusted to speak for themselves, turns out (¹) to have been the masochistic pleasure of one country and one moment in history at dethroning man from his supposedly paramount position in a humanistic universe. It was in the war documentaries of 1914–18 that objects were first presented in a really unusual light, and then the scene of Carl Mayer's films in the early 1920's was laid uniformly in "a lower middle-class world which was them eaningless remnant of a disintegrated society", and in which there was more of an anarchy and more reduction of life to instinctual levels than in other strata of the population. The counterpart in narrative literature is the *Manhattan Transfer* (1925) in which Dos Passos was encouraged to a studied casualness by the revolt against studio 'interference' with 'real life', of the film-eye (microscope and telescope of time) of Dziga Vertov. The opposite notion has also made itself just as much felt, namely that the spectator of a film gets his intimate glimpses of the action because the camera has *coupled* him with characters in it. Since the film camera had proved well able to quote such impressions as sea-sickness, it was wrongly assumed in one notorious case (²) that the spectator could be compelled to see just what the supposed narrator had seen as a protagonist in the story (here there was equivocation on the duality of the times involved in the original and the showing of the record). The camera was supposedly put in the place and exact position of this person's eyes, which betrayed a view of 'the eye' like the old one of 'the mind'. The spectator was in fact tied to, and dragged round with, the sometime protagonist instead of being able to pick and

(¹) S. Kracauer, *From Caligari to Hitler, a psychol. hist. of German film* (Princeton, 1947) 53, 96 ff.

(²) R. Montgomery's *Lady in the lake* (M.G.M., 1947).

It was personal to James to believe that "the figures in any picture, the agents in any drama, are interesting only in proportion as they feel their respective situations" or that "such and such an imbroglio has got started—on the page of life—because of something that some one has felt and more or less understood". The high value James set on intelligence gives the impression of something forced on him by his station, his cosmopolitanism and his own supersubtle standoffishness, (¹) as Conrad's care, in *Chance* (as James ironically recorded it) or almost anywhere,

> "expressly to posit or set up a reciter, a definite responsible intervening first person singular, possessed of infinite sources of reference, who immediately proceeds to set up another, to the end that this other may conform again to the practice, and that even at that point the bridge over to the creature, or in other words to the situation or the subject, shall once more and yet once more glory in a gap",

was forced on him by the horror of working in a tongue not his own and on what was all too self-conscious, exotic, fiction. To put it, anyway, as flatly as James, that "vision and opportunity reside in a personal sense and a personal history, and no short cut to them in the interest of plausible fiction has ever been discovered", is to invite the attack direct like that of *Berlin Alexanderplatz* of Doeblin, or Dos Passos, who, as the only way to avoid individuocentrism have adopted their choric idiom as well as their subject from the people. It is in fact a mistake to conceive of participation in personal terms, and then to have to worry whether it is exclusive or not.

=shock, and repetitions of the same scene from the two points of view, though they do occur, are not necessary. In Tolstoy's *War and peace* (XI. 31-2) the relation successively from her and his points of view of Natasha's impulsive visit to the bedside of the wounded Prince Andrew is merely a case of the writers's having followed up with an account of the events in the latter's existence.

(¹) It is not the same thing when in pt. 3 of *To the lighthouse* Virginia Woolf's Lily Briscoe wants to *get her picture* of the Ramsays *right*. For James, see *Princess Casamassima*, pref.; *The art of fiction, etc.* (N.Y., 1948) 161, 204.

doubt there has lurked in many a novelist besides Dickens the naked Wish, the simple fairy-tale pattern of good and evil, of the knight redressing wrongs and taking on all comers. The polarities of our wishful life are the foundation of our fiction, and we can accept the basic Freudian myth about them. The self may be a mental projection of the surface of the body, so that what becomes identifiable as not part of our self, or even that which fails to satisfy us in ourselves, is soon rejected as external to us and therefore 'bad'. Things are all in the last resort good or bad, and the simpler polarities are therefore doubtless Active and Passive, and Self and External World, which is near akin to love and indifference, whilst love and hatred is represented by Pleasure and Pain. Now, it is too much to say that the story will contain, or supply one and only one such personal surrogate of the reader's suppressed energies, "the people all, as it were, phenomenal to a particular imagination, and that imagination, with all its contents, phenomenal to the reader" (1). Of the dreamlike confusion between the ultimate characters in the first six or seven versions of the *Idiot*, Malraux more justly remarked that Dostoyevsky did not seem to be caring whether it was the flint struck the steel or the steel the flint. Henry James's formula need not be taken literally. The difference, however, is so great between seeing a character from inside or from outside that, it has been said, choice of the former instead of the latter standpoint would alone be enough to make us come out in favour of the miserly old Grandet in Balzac. The light in which he is presented is his character, but this does not mean in another sense now current that the mode of presentation is everything (2).

(1) H. James, lett. of 26th July 1899 to Mrs H. Ward.

(2) Modern experimenters have sometimes amused themselves by giving both aspects, perhaps to show the casualness, in an urban civilization, of our knowledge of each other. The careers in the *U.S.A.* of Dos Passos are related ostensibly in the third person, but the subjects of them are allowed to borrow the perspective of the first, so that reminder of what they would be as real third persons is a salutary=

specialized usage of the term *interest*, "that feeling of interest and humanity (as Rousseau wrote) by which we make the emotional impressions of others our own". It is not surprising in view of the ravages of individualism if pleasures hinged on a lifting of the barriers between the individual and his fellows; in any case, the Académie admitted *interesting* into its Dictionary in 1718, and a careful definition, translated by the *Encyclopédie* in 1777 from a recent standard German work (1) defined interesting things as not those that make us happy, or the reverse, but " which make us perceive that something is lacking to us, so that we feel desires and form plans and cherish fears and hopes; it is now no more all the same to us that things should go in one way rather than another, and we busy ourselves with the means to compass such and such an issue, and to avert another". Of course, *ein Mit- und Selbstgenuss* in the lifelikeness of the subject, such as Goethe experienced in 1786 on the way to Italy in the Jesuit experiment in stage naturalism, was artistically inferior to what he felt when he got to Rome and found men playing women's rôles, and diagnosed enjoyment not of the individuality of the thing itself, but of the result, the imitation of it. The novel, however, is always to some extent a vehicle for the readers' own dreams, and it was a historic date when Sterne perceived (2) that "a true feeler always brings half the entertainment along with him. His own ideas are only called forth by what he reads, and the vibrations within, so entirely correspond with those excited, 'tis like reading *himself* and not the *book*".

The reader is essentially partisan. If he projected himself into the characters he favoured and was on his guard against the rest, it would be because of some such pattern as Corneille's 'unity of peril' in tragedy, to which there corresponded in comedy a unity of intrigue, or obstacle to the designs of the protagonists. Without

(1) *Encycl.* supp. vol. III. 628, from Sulzer's *Allg. Theorie der schoenen Kuenste* (1771-4); *Nouvelle Héloïse* IV. 12.

(2) Lett. to Eustace, 9th Feb. 1768; cf. *Tristram Shandy* II. 11.

dramatic and narrative art (the creation of a world of fiction, which they have in common, we may omit). All that Diderot says of the one could with more justice be applied to the other, for which he was legislating without being aware of it. Even more significant was the parable of drama and 'epic' arrived at by Goethe and Schiller [1]. When La Bruyère discovered that Corneille subjects us to his characters and ideas, whereas Racine brings himself down to our level, the terms he uses for this development are already Schiller's. For Schiller, such is the present reality of the scene that is played out in front of him that the spectator in the theatre is relatively passive to it; so active, in contrast, is the epic poet's audience, that they may almost be thought of as themselves in movement round a display that is itself motionless. The past is in a way motionless, and it is in accord with the story-teller's knowlege of all his material that his audience should get the feeling they choose their own pace and stop when and for how long they wish, having (moreover) as much liberty to anticipate the progress of events as they have to return upon their steps [2]. In our own day, the difference is noticeable between the theatregoer's susceptibility to the reaction of fellow-members of the audience, and the isolation that the cinemagoer feels—in common with the novel-reader, for both film and novel are narrative art. The stage show (it might be explained) keeps all alike at a distance, whilst the points of view adopted in the other welcome the audience in. Participation in the first *drame bourgeois* or the corresponding domestic novels in England would seem to have been early signified by one

---

(1) The famous contrast of the drama and the novel in *Meisters Lehrjahre* V, 7 precedes the discussion in their correspondence 19th-26th April, 26th Dec. 1797 and the article 'Ueber epische und dramátische Dichtung' written then. La Bruyère, 'Des ouvrages de l'esprit', in *Caractères* (1688).

(2) Cf. the description of the critical fête in Dostoyevsky's *Possessed* III. i. 2-4, where the mercurial narrator manages to be everywhere at once.

for Goethe's remark in his re-evaluation of Shakespeare that what we perceive by the eye is in itself foreign to us, and does not act in any way as deeply as impressions made by the instrumentality of speech (which needless to say also enter perception ; but the point is the revelation of a conflict). Sight is held to be the dominant sense, not least for its combination of the subjective atmosphere with the objective perception, but it is just as evident that verbal thinking may now preponderate over every other. In narrative writing, such a passage as :

> "Gimmerton chapel bells were still ringing ; and the full, mellow flow of the beck in the valley came soothingly on the ear. It was a sweet substitute for the yet absent murmur of the summer foliage, which drowned that music about the Grange when the trees were in leaf. At Wuthering Heights it always sounded on quiet days following a great thaw or a season of steady rain".

is first of all of course untranslatable, but then too it demonstrates the point made by Bergson that there is more, and not less, involved in the idea of an object as *non-existent* ! (Quite apart from the harmony of the different planes in time). What was left still to be desired after efforts in story-telling since the beginning of time, and what was the specific creation of the English and French primitives in the novel, was a discovery of the way in which, thanks to undreamed of resources in the language, events might be presented after the fashion in which they would indeed *represent* themselves to the imagination of a hypothetical interested public (from the point of view of this power over language, were that all, Proust is so far the supreme novelist). The primitive classics are psychological in a sense that their immediate predecessor Defoe is not; with him, as Virginia Woolf said, the modern reader may suffer agonies, for he "takes the opposite way from the psychologist's—he describes the effect of emotion on the body, not on the mind".

Individualism means 'psychology'. In an age of separations, however, the important issue is the division of labour between

remarkable that the only feelings they might have in common, the ones that had in fact intensified, were negative ones —those, namely, whose object was not anything social, but the individual himself. The conflict between the different attributes of man, necessary as Schiller ([1]) found to the development of the species, however fatal to the happiness of the individual, is, like the material progress for which it is responsible, the development peculiar to the West in modern times.

When we turn from the dialectic to the actual history of the genesis of individualism, we find that the first popularity of dramas or narratives of real (or, as they would then have called it, 'private') life was seen at the time to be a new departure, in the contradiction in terms of a mass satisfaction that was yet a solitary indulgence ([2]). As its author's fan-mail shows, the *Nouvelle Héloïse* in 1761 was the first work of literature in which a writer was placed in the position of having to act as father-confessor to all and sundry among his unknown readers. Outside the pale of the still social leadership of polite society, the new individualism of taste betrayed its own compensatory basis; as Goethe declared in 1809 (to Riemer) at this critical moment of the new order of things, "what grows out of the longing for liberty as this longing grows triumphant and strives for the absolute" is in fact a dictatorship.

There was another marked result, in the domain of narrative art, of the conflict between the different attributes of man. "Thinking itself, in this age of separations", wrote a predecessor of Adam Smith, ([3]) "may become a peculiar craft", and the opposition of the head to the hand was perhaps really responsible

---

([1]) *Aesth. Erziehung*, lett. 6.

([2]) Diderot, *De la poésie dr.* § 2; Beaumarchais, *Eugénie* (1767), pref: "He who weeps in the theatre (Diderot said, "weeps at the perusal of a respectable work") is alone".

([3]) A. Ferguson, *Ess. on the hist. of civil soc.* (1767) IV. 1; cf. Smith V. i. § 2.

classic terms[1] at the time the self was indeed assuming this potential importance: as long as man remains passively identified with his world, there is as yet no world, for *that* appears only from the moment he ceases to be one with it and sets it as something to be considered outside himself. The self-sufficient individual is of course as much an abstraction as would be 'the mind' of this individual. In fact he is a doer before he is a contemplative intelligence, and in this practical capacity with others in a definite type of work, he bears a character which will distinguish him from those in other types of work, and which enables him therefore to make *his* contribution to their joint view of the world. In face of these very specific facts, it is an anomaly to discover, in belletristic as in economic speculations, the continuing assumption of a passive 'human nature' supposedly given once for all in its attitudes to its own weal or woe. The paradox of the classic Western (i.e. liberal) outlook was, however, its belief that the egoism of the private individual made the best guarantee of harmony for society as a whole: "he intends only his own gain", wrote Adam Smith [2], but "is in this, as in many other cases, led by an invisible hand to promote an end which was no part of his intention". More than a century before Adam Smith, the Puritan divines of the Commonwealth congratulated themselves on having something to replace the compulsory assignment of functions and allegiances that there had been in a backward, merely traditional community, and they preached the individual's *calling*, ascetically stressing that his responsibility to God for himself and his business was a sacred and direct private obligation. As the first full-length analysis of the division of labour [3] showed, it was the definition of the individual in an individualistic society to be such chiefly in virtue of a separation from, and therefore tacit hostility to, his fellows and the collectivity; it was

(1) *Ueber die aesthetische Erziehung des Menschen* (1795) lett. 25.

(2) *Wealth of nations* (1776) IV. 2.

(3) E. Durkheim, *De la division du travail social* (1893) I.v.4.

self in the form in which we like to know the latter. Coleridge's account of the matter was that "images and thoughts possess a power in, and of themselves, independent of that act of the judgment or understanding by which we affirm or deny the existence of a reality correspondent to them. The forms and thoughts act merely by their own inherent power, and the strong feelings at times apparently connected with them, are in point of fact bodily sensations which are the causes or occasions of the images".

Dewey, in his attack in *Experience and nature* on the classic passive conception of knowledge, roundly asserts that the horse in our consciousness cannot be reckoned to have intrinsically different properties (e.g. more sensory and less imaginative) from the centaur who may likewise be figuring there. Belief in, or assertion of, such a meaning as either, involves something more than merely having the meaning: "that a perception is cognitive means that it is treated as a sign of conditions that implicate other as yet unperceived consequences in addition to the perception itself". Those who have known communities where the 'calling' (*Beruf*) of Max Weber's sociology was not yet an accomplished fact will appreciate to the full "the significance of the relation of self as knower to things when it is thought of as a deliberate and responsible undertaking of a self. Knowing is but one special case of the agent-patient, of the behaver-enjoyer-sufferer situation. It is however the case constantly increasing in relative importance". Schiller worked it out in

=it is like a rebus; in any case, "all the verbal apparatus by means of which the more subtle thought-relations are expressed, the conjunctions and prepositions, the variations of declension and conjugation are lacking because the means of portraying them are absent"; temporal relations become spatial ones, so that when people look far away, it may be remoteness in time that is meant; relations such as opposition or negation, which cannot be perceived but only rationally understood, have to seek more rudimentary expression (Freud, *Introd. Lect.* c. 15; *New Introd. Lect.*, lect. 29; *Ges. Wke.* vols. 2-3 (Lond. 1942) 317 ff).

darkness that casts back over the scene of the accident), the *we* being not merely this community, a new item in the story, but rallying also the narrator, and Cowper (in so far as these are not the same) and (by epistolary affability) almost the readers of the letter as well.

In order to detect the sort of differentiations that might constitute a language of 'person' we might first legitimately inquire how it is that knowing in the form we know it ever comes into existence at all. Psychology will declare that experience has no such 'inner duplicity' as would hypostatize a Subject and Object who would be prepared to keep this relation to each other. A world (say) of imperatives and interjections would yield no such terms, or persons, of utterance as we too confidently think we have a right to assume: its interlocutors, being grammatically implicit, could figure as no more than a passive substratum. This hypothetical state is not so very unlike the actual world of the child of three. His rendering of the two sides to a dialogue himself is no more than, turn and turn about, active or passive tones, and does not indicate the capacity for anything that might be called a point of view. Ideally, by polarization of a previous undifferentiated state there comes into being the simultaneous consciousnees of *meum* and *tuum*: the notion of a personal integrity is bound up with the rejection of the Other, now recognized as external, so that each party's ability to grasp the other's standpoint comes to him through a realisation in himself as much as from the other. The feeling we have in dreams of being vitally involved in events is due, perhaps, to the fact that, as in the hypothetical undifferentiated state, the dream represents different portions of our own self. The curious impression it gives us of being a part of our environment, and therefore of there being something lacking in the dream experience, would seem [to indicate that what we miss is both the reference to reality (¹) and our own

(¹) Used as we are to passing judgment on things, 'dereistic' thought surprises us. The dream has no intention of communicating anything; =

A THEORY OF NARRATIVE ART

BY

O. E. HOLLOWAY

(*cont.*)

IV

From the versatility of outlook whose ramifications in the temporal dimension have just been examined, another significance can be separated out; on the analogy of a term in grammar, it might be called the dimension of *person*. The tale is the reader's roving over the events in this sense, as well as in his reconstruction of them in time. Narrative art on a big scale has the fluidity of focus in this respect that the *nouvelle* has not. The simple anecdote (¹) of an accident to a baker and his wife and their goods when they were coming home at night will illustrate some of the possibilities. The reader is successively identified with, and animated from, them and (ironically) the horse they were on, who "fancied he either saw ar heard something, but has never been able to say what"; then with the hypothetical author, the voice of the narration, who comes to the fore with a generalisation on the effects of sudden fright. Following this, sympathy is invoked, though objectively, for the horse, who rushed against a gate without seeing there was one there, and then the action submits to a *Wendepunkt*, for an 'I' (William Cowper) is now suddenly heard in evidence; he is not the voice of the narration, but an individual in quite another causal series who "had been in bed about ten minutes" when he heard an extraordinary noise. "It was, in fact"—definitely another point of view—"occasioned by, etc.". An even less personal report is subjoined on the quantities of gingerbread picked up, but this is rounded off by one more change: "but we learned the next morning, etc." (what

(¹) Cowper, lett. to Mrs. Newton, June 1780.

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XII—PART II

DECEMBER 1950.

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Fouad I University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to Dr. Zaky M. Hassan Editor of the Bulletin, and Dean of the Faculty of Arts, Giza, Egypt.

Fouad I Univ. Press, CAIRO
1950


Bibliotheca Alexandrina
05442797